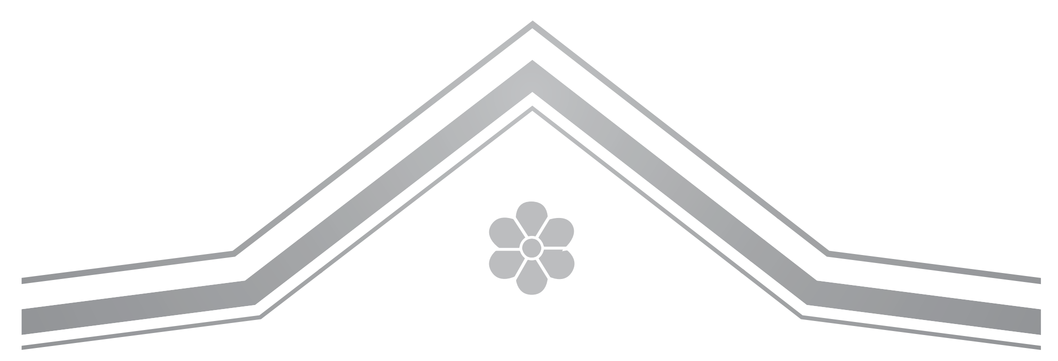


تركستان ومكانتها في التاريخ الإسلامي

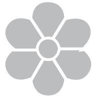




تركستان ومكانتها في التاريخ الإسلامي

تأليف: روحي أويغور الكاشغرى

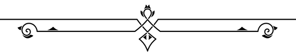
١٩٦١م



تحقيق: ش. ثابت أوغلو



مركز الدراسات الأويغورية



تركستان ومكانتها في التاريخ الإسلامي

تأليف: روحي أويغور الكاشغري

تحقيق: ش. ثابت أوغلو

منشورات مركز الدراسات الأويغورية

الطبعة الأولى: فبراير 2025

ترقيم دولى / ISBN

978-1-959397-70-0

www.uyghurstudy.org

1725 1 St NW, Suite 372

Washington, D.C. 20006

الفهرس

الدول الإسلامية التي أسستها الأتراك في تركستان وغيرها من البلاد الإسلامية 183

إهداء

إلى أمي العزيزة، التي كانت دائمًا مصدر إلهام وراعية لمشاريعي وأحلامي

إلى من أعطتني الحياة ووفرت لي الدعم والمحبة غير المحدودة، والتي

بدونها لما كنت قادرًا على تحقيق أي من إنجازاتي، وإلى من زرعت

في نفسي حب العلم وطلب المعرفة، أقدم هذا العمل إليكِ

كعربون شكر وامتنان لكل ما قدمته من تضحيات

وجهود راجيًا أن يكون هذا التحقيق بمثابة

هدية بسيطة تعكس مدى تقديري

وحبي لكِ يا أمَّاه. أسأل الله أن

يجعل هذا العمل ثمرة من

ثمار جهدك وتفانيك

وأن يبارك فيكِ

ويحفظكِ

دائمًا.

مقدمة المحقق

الحمد لله الذي بيده مفاتيح الغيب، يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن في علمه منذ الأزل. نحمده ونشكره على ما أنعم به علينا من نِعَم لا تُعدّ ولا تُحصى، ونستعين به على كل أمر جلل. ونُثني عليه الثناء الحسن، فهو الذي جعل من التاريخ عبرةً لأولي الألباب، وجعل من تأمل الماضي نبراسًا نهتدي به في حاضرنا ومستقبلنا.

نحمده سبحانه أن وفّقنا لإحياء هذه الصفحات من تاريخ أمتنا المجيد، وأن يسّر لنا السبيل لجمع شتات الروايات والأخبار، وأعاننا على التحقيق والتمحيص لتقديم هذا الكتاب للأجيال الحالية والقادمة. نسأله عز وجل أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخرًا لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن التاريخ شاهدٌ على أممٍ قد قامت، وأخرى قد انقضت، وتتابعت الأزمنة في مدٍّ وجزر بين قوةٍ وضعف، وعزٍ وذل. وإنه من فضل الله علينا أن نتمكن من الغوص في أعماق هذا التراث الزاخر بالدروس والعبر، لنستلهم منه الحكمة ونسعى لفهم سنن الله في الكون.

فيعَدُّ هذا الكتاب، «تاريخ الأتراك»، الذي حققّناه، أحد أهم الكتب التاريخية التي تسلط الضوء على إسهامات الأتراك في تاريخ الإسلام.

أَلَّفه العلامة محمد الروحي الكاشغري في أربعينيات القرن الماضي من علماء تركستان الشرقية، بخط يده، إلا أن الكتاب لم يكتمل وظل في صورة مسوَّدة. على الرغم من القيمة الكبيرة التي يحملها هذا العمل، إلا أنه لم يرَ النور لفترة طويلة، حيث بقي ضمن المخطوطات الإسلامية على رفوف مكتبة بيشاور في باكستان.

وفي عام ١٩٩٠م، تم اكتشاف الكتاب وتقدير قيمته من قِبَل الباحث عبد الجليل توران، إلا أن عوائق الزمن حالت دون وصول هذا العمل القيِّم إلى أيدي القرَّاء. عندما علمت بوجود هذا الكتاب، تولَّدت لدي رغبةً عميقةً وشوقةً عارمةً في رؤيته وإبرازه في المجال العلمي، ليكون قادرًا على منافسة الأعمال الأخرى في ميدان الدراسات والبحوث، ويسهم في إثراء الأمة الإسلامية عامَّة، والأكاديميين والدارسين بشكل خاص.

لذلك، بذلت قصارى جهدي لتحقيق هذا الكتاب، حيث عملت ليلاً ونهاراً على استكشاف محتواه العميق، وكشف الجواهر المدفونة في سطوره التي كادت تُمحى بمرور الزمن، كما توغلت في أعماق محتواه الغامض لاستخراج الجواهر الثمينة التي كانت مدفونة بين سطوره المسودة والتي كانت شبه مستحيلة القراءة.

وكذلك كرست صباحًا ومساءً من عمري الفاني للبحث والتدقيق في ضبط الألفاظ الغريبة، وتوثيق الأسماء النادرة، والتحقق من أصحاب الرجال والبلدان الماضية وأماكنها، مستعينًا بأهم المصادر والمراجع. كل ذلك لأتمكن من كشف النقاب ورفع الستار الذي أُسدل على أعين القرّاء، ليصبح هذا الكتاب واضحًا ومتاحًا لمن يبحث عن المعرفة.

بفضـل اللـه وتوفيقـه، وبمسـاعدة بعـض الإخـوة الأفاضـل، تمكنـت من تقديم هذا الكنز المكنون بين أيدي القرّاء.

فلـه الحمـد أولاً وآخـراً، ظاهـرًا وباطنًـا، أن وفقنـا لإحيـاء هـذا الأثـر التاريخـي النفيـس، وأن منحنـا القـدرة علـى إخراجـه للنـاس فـي ثـوب جديـد، يُعلـي مـن قيمتـه ويُبـرز أهميتـه، ليكـون نبراسًـا لأهـل العلـم ومرجعًا لمن يريد التفقه في سير الأمم وتاريخها.

ترجمة المؤلف

وُلِـدَ العلّامـة والأديـب والمـؤرخ محمـد روحـي الكاشـغري فـي مقاطعـة أرتـوج التابعـة لولايـة كاشـغر، التـي كانـت تُعـرف آنـذاك بمدينـة الأمـراء والعلمـاء، وذلـك فـي عـام ١٩١١م. نشـأ فـي عائلـة مشـهورة بالعلـم والثقافـة والتجـارة، وتلقـى تعليمـه الأولـي علـى يـد علمـاء بلاده منذ صغره.

وفـي عـام ١٩٣٢م، وعندمـا بلـغ مـن العمـر ٢١ عامًـا، شـدَّ الرحـال إلـى الهنـد لطلـب العلـم، حيـث يرتـوى مـن معيـن علـوم علمـاء الهنـد، مسـتكملاً بذلـك مسـيرته العلميـة. بعـد وصولـه إلـى الهنـد، أقـام فتـرة فـي مدينـة بيشـاور، ثـم انتقـل إلـى أفغانسـتان واسـتقر فـي مدينـة كابـول حيـث عمـل موظفًـا محاسـبًا فـي إحـدى الفنـادق لتأميـن لقمـة عيشـه. وقـد لاحظ صاحـب الفنـدق ذكاءه وصدقـه وورعـه، ممـا دفعـه إلـى اختيـاره كخَطِيـب لابنتـه، فتزوجهـا بنـاءً علـى تقديـره لصفاتـه الشـخصية المتصفـة بالأمانـة والتقوى.

أثنـاء فتـرة إقامتـه فـي كابـول، شـغف إلـى التعليـم بحيـث تعلـم اللغـات العربيـة والفارسـية والبشـتوية والتركيـة بشـكل متقـن. وقـد أظهـر براعتـه في هذه اللغات من خلال تأليفه الأشعار والمقالات به.

فـي فتـرة وجيـزة، نـال محمـد روحـي الكاشـغري شـهرة واسـعة فـي الأوسـاط العلميـة، وذاع صيتـه بيـن المثقفيـن وأصحـاب العلـم، حيـث حظـي بثنـاء ومديـح كبيريـن. بنـاءً علـى ذلـك، طُلـب منـه أن يتولـى مهمـة

التحرير لصحيفة مشهورة تُدعى «أنيس»، والتي كانت تُنشر في أفغانستان باللغة البشتوية.

بعد ذلك، هاجر محمد روحي الكاشغري إلى الهند، حيث تعلّم اللغات الأوردية والبنجابية والسندية بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية. وقد أتقن هذه اللغات بما يكفي ليكتب المقالات العلمية والأدبية، فضلاً عن تأليفه الأشعار بها. فأعلن في المجلات والصحف مقالات أدبية ونقدية وتاريخية، حيث قام بتعريف الشعب الهندي بتاريخ شعبه المحتل والمظلوم، وإبراز تاريخه المجيد. كما قام أيضًا بتعريف الشعب الأفغاني بتاريخ أمته خلال فترة إقامته في أفغانستان.

عندما لاحظ المثقفون وأولو العلم في باكستان عبقريات محمد روحي الكاشغري في مجالات عدة، طلبوا منه الانضمام إلى قسم اللغة التركية في الإذاعة الباكستانية الذي تم تأسيسه حديثًا عام ١٩٥٥. بدأت مساهماته بتغطية الأخبار باللغة الأويغورية في هذا القسم، مما ساعد على نشر المعرفة وتعزيز التواصل الثقافي بين الشعوب

ومع ذلك، توقفت هذه الأعمال فجأة بعد سبعة أشهر. ومن ثم، عاد محمد روحي الكاشغري إلى العمل في التأليف من جهة، واعتنى بتربية أبنائه محمد بابور ومحمد بغرا من جهة أخرى.

خلال فترة إقامته في كراتشي، ألّف كتابه «**الموطن الأصلي للطوخار**» باللغة الإنجليزية ونشره عام ١٩٥٩. كما نشر أيضًا كتابه التاريخي «**رسائل السلطان تبو إلى الخليفة العثماني**»، مضيفًا بذلك إسهامًا مهمًا في مجال الدراسات التاريخية.

ألَّف محمد روحي الكاشغري العديد من المقالات والكتب، ورغم أن معظم أعماله قد فقدت أو لم تُحفظ بشكل كامل، إلا أن

بعضًا منها ما زال موجودًا في المجلات ومكتبات باكستان. من بين إرثه الأدبي:

«**تاريخ الأتراك**»: مخطوط، وهو هذا الكتاب الذي تم تحقيقه وتقديمه.

«**الزهرة**»: مخطوطة.

«**إسهامات الأتراك إلى الإسلام**» منشورة باللغتين الإنجليزية والأوردية.

«**رسائل السلطان تبو إلى الخليفة العثماني**» منشورة.

«**الموطن الأصلي للطوخار**» منشورة باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٩ .

«**يني مللي روح**» (روح وطنية جديدة) مجموعة شعرية باللغة الأويغورية.

«**نوائي روحي**» (ترنم روحي) مجموعة شعرية باللغة الأويغورية.

«**خدمات تركستان بزبان فارسي**»: (إسهامات تركستان في اللغة الفارسية) ، منشورة في مجلة هلال، بهمن ١٣٤٢ - العدد ٤٥ .

«**داستان ختن درباره ابريشم**» قصة ختن في طريق الحرير، مقال منشور في المجلة السابقة.

إهداء

لأولئك الأبطال، والملوك، والسلاطين، والأمراء، والقوَّاد، والعلماء من أبناء تركستان الذين أسدوا تلك الخدمات الجليلة الخالدة لرفع كيان الإسلام

وكيان تركستان. إليكم يا أبناء وطني كتابـًا يذكركم بآثار

الأجداد، فكونوا مثلهم أدبًا وعلمًا،

ولا ترضوا دناءة الجنود.

(أبو بدران)



مقدمة

وقد دعاني الروح الوطني والواجب القومي، ثم الميل الشديد والرغبة العظيمة في الوقوف على تاريخ أجدادنا الباسلين وتاريخ أعمالهم وآثارهم التي خلَّدوها لنا، والخطوات التي ساروا فيها إلى كتابة هذا الكتاب.

ثم إن المؤرِّخين لم يعنوا بدراسته العناية الجديرة به، على الرغم من أن له في تاريخ الإسلام الزاهر وتاريخ حضارته أهمية خاصة، كأن تكون فيه كثير من الأسس التي قامت عليها دول الإسلام وحكوماته في بلاد شتى من الممالك الإسلامية. فضلاً على بلاد آسيا الوسطى نفسها. الأمر الذي كان له شأن عظيم جدًّا في ازدهار الحضارة الإسلامية التي ساهم فيها العرب والفرس والترك جميعًا بالنزعة الإسلامية البحتة، والروح الأخوَّة الشاملة ضاحين القومية والوطنية لأجل الإسلام ولأجل رفع كيانه.

وهم خلقوا في صفحات التاريخ إبان دولتهم الرايات العلمية والفنية والحضارية والثقافية بما نفخر بها نحن الترك خاصَّةً والمسلمون عامة على مدى العصور.

هذه الرايات التي ما تزال تتوحى لنا عبقريتنا وقوة إبداعنا وعزتنا الماضية، وتوفر لنا موادًّا غزيرةً تتغذى بها عقولنا وتهدينا للمستقبل،

كما قال القائل:

ثُمَّ انقَضَت تِلكَ السُنونُ وَأَهلُها فَكَأَنَّها وَكَأَنَّهُم أَحلامُ[1]

يسرُّني أن أقدِّم إلى قرَّاء التاريخ، ولا سيَّما لمن لهم علاقة بتاريخ الأتراك، كتابي هذا الذي يتناول البحث عن تاريخ أجدادنا، ويكشف عن كثير من نواحي التاريخ الإسلامي بوجهٍ عامٍّ وعن تاريخ أسلافنا في تركستان والبلاد الإسلامية بوجهً خاصٍّ.

وإني أظن أنه سيحقق رغبة من يتوق إليها من المؤرِّخين ورجال العلم والأدب والمثقفين. وقد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا الحافل بأسباب العظمة والمجد مجهولة متشتتة، لا يمكن الوقوف عليها إلا بمراجعة لكتب كثيرة وفحصها في صفحات التاريخ للشعوب الإسلامية المختلفة، وبنقب الكنوز المدفونة في بطون الكتب القديمة والحديثة.

فجمعته في كتاب واحد بعد جهد متواصل وبحث عميق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها الأصليَّة والكتب التي وضعت خاصة لكل موضوع وأسرة، واختلاف لدور العرض ساعات طويلة في دور الكتب كل يوم وسهر طويل في اللَّيالي.

ويقول أحمد رمزي: كانت تركستان الشرقية جزءًا كبيرًا من الأقطار الإسلامية التي لعبت دوراً هامًّا في تاريخ العرب والإسلام، وكانت في يوم قريب قطعة من جنان الأرض وبقعة من أغنى بقاع العالم وأكثرها سكَّانًا وازدهارًا.

---

[1] القائل: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، الشهير بأبي تمام. (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣-٨٤٥م)، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية)، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، له تصانيف منها: «فحول الشعراء» و«ديوان الحماسة» و«مختار أشعار القبائل». الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦٤/١١.

ذكرها المؤرخون وتَغَنَّى بمحاسنها السوَّاح من رجال العالم الإسلامي الذين أتوا إليها ووصفوها. فهي جزء من العالم الإسلامي، عزيز على كل قلب. وكانت لعهد قريب تتمتع باستقلالها وحريتها. ولم يكن مجيء الروس إليها إلا في أواخر القرن الماضي، كما لم يكن احتلال الصين لها إلا في أواخر القرن الماضي. وعلى صعيد هذه الأرض التي تبدو اليوم في كثير من نواحيها الجرداء نشأت الممالك وتمخضت أرضها ببناء الإمبراطوريات الضخمة وعرفت مدائنها العز والمجد.

ونبغ فيها العلماء الفضلاء، والمحدثون، ورجال الفقه، والفلاسفة الذين خدموا لغة العرب، وتعاليم الإسلام، وتميزوا بخصوبة الذهن، وبراعة الفكر، فكانوا أئمة لكل علمٍ وفنٍّ في زمانهم.

فمن منا لم يقرأ وصف ياقوت الحَمَوِي[١] صاحب «معجم البلدان» وحينما تكلَّم عن بلاد ما وراء النهر وعن بخارى التي سماها بالخضراء لكثرة بساتينها وعظيم عمرانها؟

ومن منا لا يتأثَّر حينما يقرأ عن سمرقند، حيث دفن تيمورلنك العظيم؟

وعن مدينة مرو التي اتخذها المأمون عاصمة لملكه في خراسان، وقاد منها الجنود واستجاش منها الجيوش؟

قَوَاعد كُنَّ أَركانَ البِلادِ فَما عَسى البَقاءُ إِذا لَم تَبقَ أَركانُ[٢]

---

[١] هو شِهَابْ اَلدِّينْ أَبُو عَبْدِ اَللَّهْ يَاقُوتِ بْنْ عَبْدِ اَللَّهْ اَلْحَمَوِيّ الرومي البغدادي، أديب وشاعر ولغوي ومؤلف موسوعات وخطّاط ورحالة جغرافي من أصل رومي، سكن في مدينة بغداد حتى وفاتهِ. من أهم مؤلفاته كتاب «معجم البلدان».

[٢] القائل، هو: صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء النفزي الرندي. شاعر أندلسي. من القضاة له علم بالحساب والفرائض. واجتمع فيها بلسان الدين ابن الخطيب، قال ابن عبد الملك: كان خاتمة الأدباء بالأندلس. ألف مختصراً في الفرائض وآخر

بالله، عُدَّ ما كتبه الأقدمون من أوصاف هذه البلاد ومآثرها، وما كانت عليه في العمران واتساع السلطان وقوة الشكيمة لتعرف منزلتها. ففيها منبت القوة والمجد، وفيها نشأت الدول الإسلامية التي هزت أركان العالم ونشرت ألويته وعقائده في أنحاء مختلفة من العالم.

وإذا نظر المصريون إلى هذه الجهات فليعلموا أن أحمد بن طولون[١] عاهل مصر العظيم، وأول من استقلَّ بأمورها وضبط الأمن فيها وهيَّأَ لها أسباب السعادة كان من هذه البلاد.

وليذكر المسلمون أن فتوحات الأمويين حينما امتدَّت إلى كاشغر[٢]

في صنعة الشعر سماه «الوافي في علم القوافي». لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ٣/ ٣٦٠. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر– بيروت – لبنان: ١٩٩٧ ٤/٤٨٦.

[١] سيأتي ترجمته.

[٢] كاشغر، فقد جاء ذكرها في معظم كتب البلدانيين العرب، واختلف في رسمها، فالمقدسي قال عنها: كاشجر، والسمعاني: كاجغر وكاشغر أيضًا، وكنت أظن أن اسم هذه البلدة بالشين، حتى رأيت في معجم شيوخ أبي الفتوح عبد الغافر بن الحسين الألمعي الكاجغري بالجيم، ثم ذكرها: كاشغر. وهي من ثغور المسلمين اليوم، خرج منها جماعة من أهل العلم في كل فن، وياقوت أيضًا ذكرها أولا: كاجغر، من نواحي تركستان، ثم أكد على كاشغر بالتقاء الساكنين والشين معجمة والغين أيضًا وراء. وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمر قند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون، ينسب إليها من المتأخرين: أبو المعالي طغرولشاه محمد بن الحسن بن هاشم الكاشغري، وأبو عبد الله الحسين بن علي بن خلف بن جبرائيل بن الخليل بن صالح بن محمد الألمعي الكاشغري. والقزويني: الإقليم الخامس، يبتدئ من أرض الترك المشرقيين، ويمر على أجناس الترك المعروفين إلى كاشغر وفرغانة وسمر قند وخوارزم. والشريف الإدريسي: ومن قطيغورا إلى كاشغر أربع مراحل، ومدينة كاشغر من بلاد الصين، وهي مدينة عامرة كثيرة الخيرات، مشتملة البركات، فيها متاجر وبضائع وأسفار، وحركات منجحة، وهي على نهر صغير يأتي إليها من جهة شمالها من جبل قطيغورا، وفي هذا الجبل معادن فضة طيبة فائقة الجودة، مهملة التخليص من خبثها ومن كاشغر إلى مدينة خيغون ثماني مراحل، ومدينة خيغون مدينة عامرة من مدن الصين. وعند الحميري: كاشغر مدينة من بلاد الصين عامرة، كثيرة الخيرات، فيها متاجر وبضائع، وهي على نهر صغير يأتي إليها من جهة شمالها من جبل قيطغورا، وفيه معادن فضة طيبة، فائقة الجودة، سهلة التخليص من خبثها وكانت كاشغر إحدى دول المدن التي ازدهرت في تركستان في القرون الأولى قبل الميلاد، وهي في خطاب إمبرطور مته خان ملك الهون إلى ملك الصين في عام (١٧٦ ق.م)، الذي يبلغه عن سيطرته لستة وعشرين دولة ويقول الدكتور بهاء الدين أوغل: إن أول اسم ورد لتركستان الشرقية في المصادر الصينية القديمة الأولى هو أنها: بلاد ٢٦ دولة، ثم يشير إلى أن المستشرق الياباني ماتسودا صحح الرقم إلى ٣٦ دولة، كما يشير إلى أن الممالك الغربية التي خضعت لحكم الصين إبان الامبرطور وو هسياو Wu Hsiao كان عددها ٣٦ دولة. ومن الدول التي ذكرت حسبما جاءت في المصادر الصينية: مملكة شوله، وقد ورد الاسم في رسمه الصيني Shule، وهو محرف من (سولي) أو (سوللوغ) التي وردت في المصادر التبتية، وهما كلمة

تركيـة تـعني: منطقـة متوفـرة المياه، كما أن كاشـغر يتركـب مـن كلمتين الأولى: كاش، يعني: شـط النهـر، والثانيـة: غـار أو يار، يعني: الأرض، وعليـه معنى كاشـغر: شـط النهر المزروع. ولكـن في دائـرة المعـارف الإيرانيـة: (كاش) اسـم محلي، و (غار) معناها: جبلي. وقـد ذكرها بطليموس في كتابه (الجغرافيا) باسـم Kasia Chora على أنها مركـز تجاري على الطريق الـذي يربط تاشـقورغان ودون هوانـغ وعندما أسـس سـتوق عبـد الكريم بوغـرا دولة قراخـان أول دولـة إسلامية تركيـة في تركسـتان، اتخذ مدينـة كاشـغر مقـرا لمملكتـه الجديـدة في عـام ٩٤٣م، وغـدت عاصمـة سياسـية وعلميـة، واعتبرهـا أبـو الفـداء قاعـدة لـبلاد تركسـتان، وانتسب إليها جملة من العلماء. ومن هنا أطلق بعض المؤرخين اسم (كاشغر) على تركستان مـن ذلـك الوقـت، ومـن أولهـم الإمـام أبـو الفتوح عبد الغافـر بـن الإمـام أبـو عبـد الله حسـين الفضلـي الألمعي الـذي كتب) تاريخ كاشغر) في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ولكـن لم يعثر على الكتاب، وإنما جاء بعض نصوصـه في كتاب (ملحقات الصراح) الذي كتبه جمال قارشي المولود في عـام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م، وقـد نشـره المستشـرق الروسـي ف. بارتولـد، ثم في القـرن السـابع عشـر الميلادي كتب مير محمد صالح الكاشغري كتابه «كاشغر تاريخي». أي: تاريخ كاشغر وهو مخطوط، وقد نشره الباحث الأويغوري حاجي نور حاجي باسم (جنكيز نامه)، وأشار الباحث الأويغوري علي عبد الغفـور إلى أنـه هـو كتـاب (كاشـغر تاريخي)، وذلـك في بحثـه المنشـور بعنـوان: البدايـة والنهايـة لتاريـخ كاشغر، وعندما أسس بدولت يعقوب بك دولته المستقلة في تركستان الشرقية في عام ١٨٦٥، كانت كاشغر عاصمة لحكمه، وبدأت مملكته تعرف باسم كاشغريا على غرار الخانيات التي كانت في تركستان الغربيـة، مثـل خانيـات خوقنـد وفرغانـة وطاشـكند وإمـارة بخارى، وعندمـا أعلـن تبعيتـه لخليفـة المسـلمين السـلطان عبـد العزيـز خـان في الأسـتانة في عـام ١٨٧٢ م عرفـت في الوثائـق العثمانيـة باسـم ولايـت كاشغر، أو إمارة كاشغر، ونشر المؤرخ التركي العثماني محمد عاطف كتابه (كاشغر تاريخي، باعث حيرت احوال غريبه سي) الذي ألفه عن تاريخ تركستان الشرقية إبان دولة يعقوب بك، ويذكر حدودها: يحد كاشـغر شمـالاً سـيبيريا، ومنطقـة غولجـه التي احتلتهـا روسـيا وجـزءًا مـن خانيـة خوقنـد، وجنـوبًا الهنـد وأفغانستان، وشرقًا الصين، وغربًا تركستان الغربية. والامبرطورية البريطانية التي تعاملت معه دبلوماسيًّا استعملت اسم كاشغر كما جاء في التقرير الذي كتب عن البعثة الدبلوماسية التي رأسها السير دوغلاس فورسيت Sir T.Douglas Forsyth في عام ١٨٧٣ م، حيث يقول كاتبه (أراضي خانية كاشغر، كانت تعرف في عهد الفتوحات العربية باسم بخارى الصغرى، ثم باسم مغولستان إبان حكم الجغتائيين. ويقول الإنجليزي بولغر Boulger الذي كتب سيرة الملك يعقوب: في العادة كان اسم كاشغر يطلق على المدينة نفسـها إلى عهـد ماركـو بولـو، ولكـن بعـد أن تطورت هـذه المدينـة وكثر سـكانها، واتسـع نفوذهـا، أصبـح اسمها يسـتعمل على المدن المجاورة، ولكـن الاسـم الصحيـح هـو بخارى الصغرى أو تركسـتان الشـرقية، والكتاب المعاصرون يسمونها أراضي أتاليق غازي كاشغريا، وتضم مدن: كاشغر، ينكي حصار، ياركند، خوتن، أوج تورفان، آقسو، وهي المدن التي تكون أساسا أراضي كاشغريا، وهي من هذه الزاوية تسمى أيضًا آلته شهر، يعني: أراضي المدن الست. وفي الاتفاقية التي وقعت بينت دوغلاس فورسيت، سفير حكومة الهند البريطانية، والملك بدولت يعقوب خان في كاشغر بتاريخ ١٥ / ١٢ / ١٢٩٠هـ الموافق ٢ / ٢ / ١٨٧٤م ذكر فيها اسم كاشغريا. وفي الخريطة التي نشرها مكتب المساحة العامة لحكومة الهند البريطانية سميت المنطقة التي عرفت بحوض تاريم باسم كاشغريا، نسبة إلى مدينة كاشغر في القرن التاسع عشر، كما عرفت بأسماء مختلفة منها: بخاري الصغرى. كما يذكر وليم سامولين William Samolin أن حوض تاريم يعرف أيضًا باسم كاشغريا، ويؤكد ذلك جاك دباس Jack A.Dabbs فيقول: في منتصف القرن التاسع عشر كان اسم كاشغريا يطلق للمنطقة في شرق لوب نور، ولكن لا يمكن تعميم هذا الاستعمال. وقد نشر عادل محمد الكتاب الثالث من سلسلة كتاب قشقر، مجموعة من الأبحاث الخاصة لأوروبيين وصينيين وتركستانيين في تحقيق تاريخ كاشغر واسمها، وأصله ومصدره ومعناه، وغيره من الأسماء التي عرفت بها مدينة كاشغر عبر التاريخ.

ونفوسًا مستعدةً لتلقيها مثل ما لقيت في هذه البلاد. فهي يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[١]. إذ ذكر ياقوت الحموي في «معجم البلدان» نقلاً عما تقدّمه من المؤِّرخين: كيف كان يدخل في العام الواحد مائة ألف أسرة إلى الإسلام بمحض إرادتها ومن غير إجبار؟[٢] «تعجبًا وتحيراً»

وما حلَّ القرن الثاني للهجرة حتى رأينا الآلاف المؤلفة ينضمون بمحض إرادتهم للكفاح والجهاد. فقد ذكر الطبري[٣] أسماء قوَّاد أهل خوارزم في جيش المأمون[٤] عند زحفه لمحاربة الأمين[٥] وسماهم «المقاتلة الخوارزمية»[٦].

وإذا ذكرنا بلاد التركستان فلنذكر دولة محمود الغزنوي[٧] ونشأة

---

[١] سورة النصر: الآية: ٢.

[٢] ما وجدت في معجم البلدان.

[٣] أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام الطَّبَرِي، (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ)، مفسّر ومؤرّخ وفقيه، ولُقِّبَ بإمام المفسرين، ولد بآمُل عاصمة إقليم طبرستان، ارتحل إلى الري وبغداد والكوفة والبصرة، وذهب إلى مصر، وأخذ على علمائها علوم مالك والشافعي وابن وهب، ورجع واستوطن بغداد. وتوفي في شهر شوال سنة ٣١٠ هـ، ودفن ببغداد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣/ ٢٠٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤/ ٢٦٧. الزركلي، الأعلام، ٦/٦٩.

[٤] هو أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِين أَبُو اَلْعَبَّاس عَبْدُ اَللَّهْ اَلْمَأْمُون بن هَارُونْ اَلرَّشِيد بن مُحَمَّد اَلْمَهْدِي بن عَبْدِ اَللَّهْ اَلْمَنْصُور العبَّاسيُّ الهاشميُّ القُرشيُّ، سابِع خُلفاء بَني العبَّاس، والخليفة السَّادس والعشرُون في ترتيب الخُلفاء، حكم دولة الخِلافة العبَّاسيَّة نحو عُشرُون عامًا، توفي يوم ١٨ رجب ٢١٨ هـ. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي ط. ١، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩) ص ٩٦.

[٥] هو أميرُ المُؤمِنين وخَليفةُ المُسلِمين أبو عَبدِ الله مُحَمَّد الأمِين بن هارُون الرَّشيد بن مُحَمَّد المِهديّ بن عَبدِ الله المَنصُور بن مُحَمَّد بن عَليٍّ بن عَبدِ الله بن العَبَّاس الهاشِميُّ القُرَشيُّ، هو سادِس خُلفاء بَني العبَّاس. تولى الخلافة بين عامي ١٩٣ إلى ١٩٨ للهجرة، ودامت فترة حكمه خمس سنوات تقريبًا. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط. الثانية. (بيروت: دار التراث). ٨/ ٣٦٥.

[٦] الطبري، التاريخ، ٨/٣٩٢.

[٧] يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سُبُكْتِكِيْن الغزنوي (ولد في ٢ نوفمبر ٩٧١م – وتوفي في ٣٠ إبريل ١٠٣٠م) المعروف باسم محمود الغزنوي هو حاكم الدولة الغزنوية في المدة من عام ٩٩٨م إلى ١٠٣٠م في زمن الخلافة العباسية. السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى. (دار إحياء الكتب العلمية)، ٥/٣٢٣. علي الصلابي، دولة السلاجقة، ط ١. (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٧). ١/ ٢٥- ٢٩.

دولة آل سلجوق ودولة جلال الدين الخوارزمي[١]وغيرها من الدول الكبرى التي جاهدت وحاربت وانتصرت، كما أننا إذ تكلمنا عن هذا الركن من العالم فلنذكر ما نقله الكثيرون من المؤرِّخين إن جند تلك الجهة من العالم كانوا عدة الخلافة في بغداد، وقد اشتهر أكثرهم بالطاعة لرؤسائهم والتفاني في خدمة المبادئ التي يعملون لها، حتى ذكر ياقوت {الحموي} مرة عن أهل أَسْرُوشنة[٢] وهي من الأقاليم الواقعة في جنوب تركستان الشرقية أنهم أصبحوا شحنة هذه الخلافة نظرًا لما أظهروه من صفات الإخلاص، وكان منهم أكبر قوَّاد المعتصم الذين فتحوا عمورية[٣] في بلاد الروم.

هذه نظرة أولى لما كانت عليه هذه البلاد من اتصالها بنا وارتباطها بالسلف التي تقدم. سنعرضها على القارىء لكي يهتم كل فرد منا بإعادة الصلات القديمة والاطلاع على مآثر هؤلاء القوم. وأرجو من أهل الرأي والفكر والمشتغلين بشئون آسيا أن يداوموا على البحث

---

[١] هو السلطان جلال الدين منكوبري ابن السلطان علاء الدين محمد بن السلطان خوارزمشاه. تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في مجلد. ولما دهمت التتار البلاد ما وراء النهر بادر والده علاء الدين وجعل ولده جلال الدين في خمسة عشر ألفًا، فتوغل في البلاد، وأحاطت به المغول، فالتقاهم، فانكسر، وتخلص بعد الجهد، وتوصل. وأما أبوه فما زال متقهقرًا بين يدي العدو حتى مات غريبا سنة سبع عشرة وستمائة في جزيرة من البحر. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٢٧/٢٢.

[٢] أشْرُوسنَة هي منطقة تاريخية ضمن بلاد ما وراء النهر، وتقع ما بين فرغانة وخجندة. كان من عادة العرب عند سيطرتهم على منطقة من البلاد الغير عربية، وخاصة في بلاد فارس، أن يغيروا أو يعربوا الأسماء بما يتلاءم مع اللسان العربي، ولذا ظهرت «أشروسنة» بصيغ كثير منها، فقد ذكرها اليعقوبي «أسروشنة» بتقديم السين على الشين، فيما كتبها ابن خرداذبة «شروسنة» أي بدون ألف بينما عكسها ابن الفقيه وكتب «سروشنة» أما الحموي فقد كتبها «أشروسنة» وقال في ضبطها أنها «بالضم ثم السكون، وضم الراء، وواو ساكنه، وسين مهمله مفتوحه، ونون، وهاء». نزار عبد المحسن جعفر الداغر، kufa studies center journal 2012, Volume 1, Issue 26.

[٣] عمورية (باليونانية: Ἀμόριον) كانت مدينة تقع في فريجيا بآسيا الصغرى تأسسّت في الفترة الهلينية وازدهرّت في عهد الإمبراطورية البيزنطية. وهُجرّت بعد هجوم الخليفة العباسي المعتصم عليها في ٨٣٨ م. كانت عمورية تقع على الطريق العسكري البيزنطي من القسطنطينية إلى قلقيلية. وتقع أطلالها وتلتها حالياً بالقرب من قرية حصار كوي على بعد ١٣ كم شرق مركز مقاطعة أميرطاغ في محافظة أفيون قرة حصار بتركيا. عمورية مشتقة من الاسم اللاتيني «أموريوم» (باللاتينية: Amorium) المشتق بدوره من الاسم اليوناني الأصلي «أموريون» (باليونانية: Ἀμόριον). في ظل الحكم العثماني، كان الموقع، الذي فقد أهميته تماماً، يُسمى هرجن قلعة.

واستخلاص الحقائق التي تحيط الآن بهذه البقاع؛ لأنها متوسطة الدنيا[١].

[١] أحمد رمزى، صوت التركستان. العدد الأول. ١٩٥٢م. ص ٩-٢٦.

التركستان قبل الإسلام

جغرافية البلاد وإقليمها:

إن لجغرافية أي بلاد إقليمها، وطقسها، ومناخها، جبالها، وأنهارها، سهولها، وصحراواتها دور هام تلعبه في تكوين البلاد الطبيعي وتكوين حضارتها، وثقافتها، والتطورات الدينية، والفكرية، والخلقية، وغيرها من التطورات الاجتماعية والمدنية؛ لذلك يجدر بي أن أذكر هناك أولاً نبذة من وضع البلاد الجغرافي ووضع إقليمها لكي يتضح لنا العوامل التي تمخضت بالحوادث والوقائع الجمة والدور الهام الذي لعبه بلاد التركستان في أدوار التاريخ تحت ضوء تلك العوامل في ميادين الحضارة والثقافة البشريَّة منذ القرن السابع الميلادي في نشر الدين الإسلامي، ونشأة حضارته وثقافته والخدمات العلمية والفلسفية والفنية والطبيعية وغيرها من الخدمات التي أنجزها علماؤها وفلاسفتها وفقهاؤها ومحدِّثوها.

وهم الذين نشؤا ونبغوا وترعرعوا في حضانة إقليمها الرائع كثير الخير والبركة، ووافر المجد والحركة، لها روضات وجنات تجري تحتها مياه أنهار سيحون وجيحون.

وتاريخ وافر يشهد لها جبال راسيات تكلَّلت قممها بالثلوج تصيب عابرها بالفلوج، وأنتجت لها أبطال كجنكيز خان والأمير تيمور، كانت عاملة بين الشرق والغرب كهمزة وصل. وطرقها التجارية

دامت جيلاً بعد جيل تحمل الحرير والمسك والتوابل والأقمشة من الشرق والغرب وتتبادل منها حضاراتها القديمة وثقافتها.

هذه هي بلاد تركستان التي يقال لها أيضًا (آسيا الوسطى) بلاد قديمة عريقة واسعة الأرجاء، لها ماضيها وتاريخها المجيد. وهي من بلاد إسلامية هامة، تتكون من تركستان الغربية والشرقية. وتحدها شمالاً بلاد سيبريا، وجنوبا تيبت والسند وباكستان وأفغانستان وإيران، وغربًا إلى بحيرة خزر، وشرقًا بلاد المغول وصحراء جوبي[١].

وهنالك أيضًا تركستان الأفغانية (تركستان الجنوبية) تتكلم أهاليها باللغة التركية وتنتمي إلى الجنس التركي، لقد ضمَّها أحمد شاه الدراني[٢] في القرن الثامن عشر إلى أفغانستان حينما أسسها. وكان قبل ذلك شاملة رسميا في التركستان حيث كانت تابعة لأمير بخارى وكانت تسمى الولايات الأربعة[٣].

يقول مراد رمزي: وقد عاشت في هذه البلاد أولاد الترك وأحفاده منذ قدم. ولما كثروا بمرور الزمان انشعبوا على شعوب كثيرة وقبائل شتى. وانتشروا في أطراف أراضيهم المخصوصة بهم وجوانبها. واشتهر من بينهم في كل عصر، بل قرون متطاولة قبائل كثيرة (مثل الهون)، السيانبي، والمساغيت، والأوار، والأركيت، والسمارت، والسلجوق، والتتار، والمغول، والأيغور، والقبجق، والخزر، وبجنك، والترك العثماني وغيرهم بحيث عد كل واحد منهم قومًا مستقلاً.

---

[١] دائرة المعارف البريطانية، مادة: تركستان.

[٢] أحمد شاه (١٧٢٤ – ١٧٧٣)، مؤسس سلالة الدرانية في أفغانستان، كان ابن ساماون خان، الزعيم المورث لقبيلة أبدالي.
Carter Vaughn Findley (15 أكتوبر 2004). The Turks in World History. Oxford University Press. ص. 242.

[٣] دائرة المعارف البريطانية، مادة: تركستان.

واشتهرت قبيلة التتار من بين تلك القبائل قديمًا وحديثًا حتى استعمل لفظ التتار مرادفًا للفظ الترك خصوصًا عند أهل أوربا. كما يطلقون لفظ التتار العليا (HIGH TARTARY) لبلاد تركستان الشرقية.

واشتهر الإقليم التي هي مهد ظهور جميع تلك القبائل بتركستان، أوتتارستان أو بلاد التتار عند أهل الغرب على معني إقليم الترك أوالتتار.

وبلاد كل هذه القبائل التي يقع عليها اسم تركستان وتتارستان تحد شرقًا بمملكة الصين، وجنوبًا بممالك الهند والفرس والروم والبحر الأسود وشمالاً بمنتهي المعمورة وغربًا بنهر طونة ودينيستر[١].

نسب الترك

الترك، فهم من بني ترك بن كومر بن يافث.

وقيل: من بني طبراش بن يافث[٢].

ونسبهم بن سعيد بن ترك بن عابر بن سويل بن يافث[٣].

ويدخل في جنس الترك القبجاق وهم الخفشاخ والطغرغر وهم التتر، ويقال فيهم الططر بالطاء بدل التاء والخزلخية والخوز والغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة والهياطلة والخلج وبلادهم الصفد ويسمون بها أيضًا، والغور والعلان - ويقال الالان، والشركس والأزكش والروس، فكلهم من جنس الترك نسبهم داخل في نسبهم[٤].

ووا أسفاه على بخارى وسمرقند وغيرهما من مدارس الدنيا

---

[١] مراد رمزي، تلفيق الأخبار، ص٢٦.
[٢] الصحاري، أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي، الأنساب، ص٢٣.
[٣] القلقشندي، أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفه انساب العرب، ٢٥/١.
[٤] القلقشندي، نهاية الأرب، ٢٦/١.

والفنون والعلوم الدينية والرياضية، ووواها على تلك الدقائق والاستنباطات والاختراعات لتأسيس العلوم وتهذيبها وإتقانها، ورحم الله أولئك الرجال الذين فتحوا الأرض وحموا الدين ولم تزل الأمم تنتفع بمعارفهم إلى الآن إلخ[١].

وتثبّتّ من بلاد الترك خاصية: أنه من أقام بها اعتراه سرور لا يدري ما سببه، ولا يزال متبسمًا ضاحكًا؛ وإن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب.[٢]

وكانت البلاد تتألّف قديمًا عند جغرافيي العرب واليونان من أقاليم «خوارزم» و «الصغد» و «ما وراء النهر»، و «مرغيانة»، و «كاشغر»، و «إريانا»، و «هركانيا»[٣]، و «باختريا»، و «أشروسنة» و «سكيتيا»[٤] و «سريقا» وغيرها. وهي نفس البلاد التي نقرأ عنها كثيرًا

---

[١] الشيخ محمد بيرم التونسى، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأخطار، تحقيق: مأمون بن محي الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ٩٤/١.

[٢] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٦٧/١.

[٣] هيركانيا (/hər ke niə/) (باليونانية: Ὑρκανία Hyrkanía، اللغة الفارسية القديمة: Varkâna, اللغة الفارسية الوسطى: Gurgān، الأكادية: Urqananu، هي منطقة تاريخية تتكون من الأرض الواقعة جنوب شرق بحر قزوين في إيران وتركمانستان الحديثة، ومرتبطة في الجنوب بسلسلة جبال البرز وكوبيت داغ في الشرق. كانت المنطقة بمثابة ساترابية (مقاطعة) للإمبراطورية المتوسطة، وهي مقاطعة فرعية للإمبراطورية الأخمينية، ومقاطعة داخل خلفائها، الإمبراطوريات السلوقية والأرسادية والساسانية. تحد هيركانيا بارثيا من الشرق (المعروفة لاحقا باسم أبارشارهر)، وديهيستان من الشمال، وميديا من الجنوب، ومارديا من الغرب.
هيركانيا (Ὑρκανία) هو الاسم اليوناني للمنطقة، وهو استعارة من فيركانا الفارسية القديمة كما هو مسجل في نقش بيهيستون لداريوس العظيم (٥٢٢ قبل الميلاد)، وكذلك في النقوش المسمارية الفارسية القديمة الأخرى. فيركا تعني «الذئب» باللغة الإيرانية القديمة، راجع. Avestan vəhrkō, Gilaki and Mazandarani verk/verg,Modern Persian gorg, and Sanskrit vṛka ( ). وبالتالي، فإن هيركانيا تعني «أرض الذئب». تم توسيع الاسم إلى بحر قزوين ويكمن وراء اسم مدينة زادراكارتا، أكبر مدينة آنذاك وعاصمة هيركانيا القديمة. اسم قديم آخر، داهستان (لا ينبغي الخلط بينه وبين ديهستان – وهي كلمة إيرانية حديثة ل «المقاطعة» أو «المقاطعة») يستخدم أحيانا بالتبادل مع هيركانيا. يشير داهستان، بالمعنى الدقيق للكلمة إلى «مكان داهاي»: شعب منقرض عاش مباشرة شمال هيركانيا، في وقت مبكر من القرن الخامس قبل الميلاد. https://en.wikipedia.org/wiki/Hyrcania

[٤] سكيثيا أو سكيثيا أو سقيثيا (باللاتينية: Scythia، مشتقة من اليونانية: Σκυθική) هي منطقة تاريخية تعود للعصر الكلاسيكي القديم، وكانت تشمل آسيا الوسطى وبضعة أجزاء من أوروبا الشرقية

في المؤلفات الإسلامية القديمة[١].

وقـد اشـتهرت بلاد تركسـتان منـذ القـدم بخصوبـة أراضيهـا الزراعيـة، وجمـال مناظرهـا الطبيعيـة، وكثـرة البحيـرات والأنهـار، وعلـو الجبـال المكسـوة بالخضـرة، والأزهـار المتوجـة بالثلـوج الأبديـة القـرار، الدائمـة الاسـتقرار. كمـا اشـتهرت كذلـك بقصباتهـا الجميلـة وقلاعهـا القديمـة ومدنهـا الباهـرة وقصورهـا الأفخـرة. وكـذا معادنهـا الوافـرة، ومعاهدهـا الزاهـرة، ومسـاجدها العامـرة، وحدائقهـا الغنية، وآثارها الشـهيرة، وسـهولها الواسعة، وكرومها الشاسعة، وأزهارها النفيسة، وأثمارها الشهية[٢].

وإليـك تحديـد كل واحـد مـن أقسـامها الغربيـة والشـرقية، ونبـذة مـن جغرافيتها وتاريخها قديمًا وحديثًا باختصار.

تركستان الغربية

إن تركسـتان الغربيـة - لا تـزال اليـوم تحت حكم الاتحاد السـوفيتي -[٣] بلاد متشـكلة مـن الجبـال الشـامخة، والجليديات، والثلجيات، والسـفوح، والسـهول الواسـعة، والحضائـض، والأراضـي الخصبـة المنتجـة،

شرق نهر فيستولا. أطلق اليونانيون القدماء اسم سكيثيا (أو سكيثيا العظمى) على جميع الأراضي التي كانت تقع شمال شرق أوروبا وساحل البحر الأسود الشمالي. شملت المنطقة التي تُعرف لدى الكتاب الكلاسيكيين بسكيثيا الأقاليم التالية:

السهب القزويني: جنوب شرق أوكرانيا، وروسيا الجنوبية، ومنطقة الفولغا الروسية، ومنطقة أورال الجنوبية، وغرب كازاخستان. سهب الكازاخ: كازاخستان الشمالية ومناطق مجاورة من روسيا. سارماتيا التي تناظر بولندا الشرقية، وأوكرانيا، وجنوب غرب روسيا، وشمال شرق البلقان امتدادًا من نهر فيستولا في الغرب إلى فم الدانوب والفولغا في الشرق. منطقة ساكا تيغرا التي تناظر أجزاء من آسيا الوسطى مثل قرغيزستان وجنوب شرق كازاخستان وحوض تاريم. سيستان أو ساكاستان، وهي تناظر جنوب أفغانستان، وإقليم سيستان وبلوشستان في إيران، وبلوشستان في باكستان امتدادًا من حوض سيستان إلى نهر السند.

https://ar.wikipedia.org/wiki/سكيثيا

[١] جنكيزخان عبد العزيز، تركستان قلب آسيا، ١٣.

[٢] جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ١٤.

[٣] يعني الفترة التي كتب المؤلف كتابه.

والترعات، والبحيرات المحصورة.

مناخها:

ومناخها يابس جدا، سقوط المطار والثلوج يبلغ في السنة ١٤٥ مليمترا في السهول، ومن من ٢٥٠ إلى ٣٥٠ مليمترات في المناطق الجبلية. درجة الحرارة في البلاد تتراوح ما بين F١٠ –C٦ ١٢ في الشتاء، و F١١٠ – C٤٢ في الصيف[١].

مساحتها:

مساحة تركستان الغربية العامة بشمول الجمهوريات الخمسة التي انقسمت إليها اليوم تبلغ ٤٠٠٣٠٠٠ كيلومترا مربع. ونفوسها بحسب الإحصاء الرسمي سنة ١٩٥٩م تبلغ ٢٠٩٠٠٠٠٠ نسمة و ٢٣٠٠٠٠٠٠ على حسب تقدير (R.C.D ٢ ١٩٦٠) ويقدر المهاجرون في الخارج ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة. قبض عليها الروس القيصرية في عام ١٨٦٠ ـ١٨٦٥، فوضعها تحت إدارة الحاكم العام التي دامت حتى ثورة سنة ١٩١٦م. قد ضمت بعدها إمارات خيوة وبخارى – كانت إمارات مستقلة إسلامية – تحت انتدابها أولاً، ثم أخضعها في سنة ١٨٧٣ م وقد نفي أمير بخارى وخيوة إلى الخليج في سنة ١٩٢٠م.

وقد أسس الروس بعد ثورة سنة ١٩١٦ في بلاد التركستان جمهوريات سوفيتية اشتراكية ذات حكم داخلي التي عاشت بهذا الشأن إلى سنة ١٩٢٥، ثم تم ذلك الانقسام الذي قسم البلاد إلى جمهوريات اشتراكية خمسة؛ وهي:

جمهورية أوزبكستان، جمهورية قازاقستان، جمهورية قرغيزستان، جمهورية تركمنستان، جمهورية تاجكستان الاشتراكية السوفيتية.

---

[١] دائرة المعارف البريطانية: مادة تركستان.

مدنها الشهيرة:

تعتبر بخارى، سمرقند، تاشكند، مرو، بلخ، خوقند، نمنكان، أنديجان وغيرها من أشهر مدنها التاريخية والحضارية والاقتصادية.

تركستان الشرقية

وأما تركستان الشرقية التي تسميها الصين اليوم بشنجيانخ (أي: المحتلة الجديدة) فتابعة للحكم الصيني منذ سنة ١٨٨٤ م.

جغرافيتها:

تحدُّها من الشمال سفوح جبال آلتاي، وفي الشرق منغوليا الخارجية وكانسو وكوكنور، وفي الجنوب تيبت، وفي الجنوب الغربي جبال قاراقوروم وبامير، وتتصل حدود البلاد في الشمال الغربي قسمًا من جبال تنغري تاغ حتى تصل إلى الجبال التي تقع على نهر إيرتش. وجبال تنغري تاغ التي تأخذ بسطها من الوسط متجهًا من الغرب إلى الشرق تقسم البلاد إلى قسمين: قسما في الشمال وقسما في الجنوب. في القسم الشمإلى تقع ولايات إيلي وجونغاريا، وفي القسم الجنوبي تقع شقي تاريم وأيضًا بها جبال تارباغاتاي وألتون تاغ، وتسقط الأمطار غزيرا في المناطق الجبلية في الشمال ولكنها قليلة في المناطق السهلية في الجنوب، وفي المناطق الجبلية مراتع وغابات كثيفة تشتغل فيها قبائل القرغيز والقازاق برعي المواشي.

وقد اشتهرت بمعابرها وسهولها التي مرت منها طرق تجارية ذاهبة إلى سمرقند وبخارى وغيرها من البلاد الغربية. وتقع في وسط البلاد صحراء تكليمكان المعروفة، وفيها غدير لوب نور. مناخها قاري

كثيف أوسط درجة الحرارة تتراوح بين ٢١ F و ٩,٥F.

والبلاد غنية بالمحاصيل الزراعية والحبوب المختلفة كالأرز والقمح والشعير والذرة والقطن وسائر الحبوب الغذائية وحبوب الزيت. وكذلك تكثر فيها الفواكه والخضروات بأنواع ألوانها النادرة.

والبلاد غنية في شتى المعادن كالبترول، والسلموز، والزئبق، والقصدير، والكبريت، وملح البارود، والحديد، والنحاس، والرصاص، والفضة، والذهب، والبلاتين، وفيها اليشم، والفحم المعدني، وغيرها من المعادن التي لم تستغلب أكملها بعد، وقد وجدت فيها أخيرا معادن يورانيوم وولفرم أيضًا. والبلاد معروفة بحرفتها وصناعتها اليدوية، أهمها: صنع الحرير والسجاد والطنامس والنسيج[١].

مساحتها:

مساحة تركستان الشرقية تبلغ ١٨٢٠٠٠٠كيلومترا مربعا، ونفوسها: على حسب الإحصاء الرسمي عام ١٩٥٩ تبلغ ٦٠٨‏ ٨٧٣‏ ٤ نسمة. وطبقا على رأي محمد أمين بغرا نائب الحاكم سابقا للتركستان الشرقية تبلغ ثمانية ملايين[٢].

مدنها الكبرى:

تعتبر كاشغر، ياركند، ختن، أرومجى، غولجا، إيلي، طورفان، كوجا، آقسو، وغيرها من البلاد. وهذه المدائن اشتهر بمسكها وحسنها وجمالها، وكانت مصدر إلهامات شعرية لشعراء الفرس والترك وزينة أشعارهم قديما كما اشتهر سمرقند وبخارى وبلخ.

---

[١] دائرة المعارف البريطانية: مادة سنكيانج.

[٢] محمد أمين بغرا، تركستان الشرقية ماضيها وحاضرها، ص ٢.

أو كمـا يقـول دوجلاس كرريشـور: هـي بضائـع إلهيـة قـد خـر سـجدا فـي أقدامهـا كل بلاد آسـيا التي تبحـث وأن بلاد الصيـن والهنـد وسـيبريا تتطلـع بعيـون متواضعـة إلـى هـذه الجبـال التـي اسـتولت عليهـم وكانـت حاسمة في مصيرهم[١].

وقـد ارتفقـت فـي وسـط صحـاري الـبلاد سلاسـل أولـي مـن الجبـال الشـامخة التـي تـكاد تكنـف بأحضانهـا كل بلاد آسـيا الوسـطى. وهـي أرض جبليـة مهيبـة أصبحـت تحيطهـا جبـال تنغـري تـاغ وهمالايـا بمتشـعبات بهـا صفـرة وحمـرة، جبـال واسـعة الأرجـاء وبالغـة الأثـر، تأثـرت منهـا علـى الأقـل تواريـخ الـبلاد المتغايـرة الألـوان فـي الأقطـار الشاسـعة كـبلاد الصيـن والهنـد والفـرس وسـيبريا. ولا شـك أن هـذه البلادكانت إذا صحت نظرية أنها كانت مهدا للإنسانية[٢].

جبال تركستان وأنهارها:

بلاد تركسـتان بلاد جبليـة كللهـا اللـه بفضلـه بأشـهر جبـال العالـم وأسـماها اشـتهرت بكونهـا سـقف العالـم وجبـالاً سـماويةً تنظـر لهـا كيف رفعـت وهـي الـبلاد وتسـتهدي بهـا الأبصـار أسـهمتت فيهـا الأعصـاب المركزيـة للجسـم ولهـا أثـر فـي التحسـين والنشـوء والنمـو والنشـاط والحيويـة[٣] كقواعـد وأركان لا تتزلـزل. كمـا جعلهـا اللـه بلاد رمليـة وصحراويـة فيهـا أكبـر الصحـراوات جـرداء، وبيـداء لا تنبـت فيهـا نبـات ولا تحيي فيها حياة، دفنت تحت رمالها حضارات ومدنيات.

تجـري الأنهـار فـي وديانهـا وسـهولها وهـي شـرايين الحيـاة تسـقي وتحسـن صعيدهـا حيـث جعلهـا خصبـة منتجـة وقطعـة من جنـات الأرض

---

[1] DOUGLAS CARRATHUR: BEYOND THE CASPAIN. p 93.

[2] Ibid. P. 6

[٣] ديكمر ص ١٦.

وبقعة من أغني بقاع العالم وأكثرها سكانًا وازدهارًا حتى عرفت بكونها فردوسة الأرض وعروسها تغبط لها سائر بلادالعالم.

وفي هذه الوديان والسهول الخصبة لا يزال يسكنون ويعيشون منذ فجر التاريخ أقوام يعرفون بالأتراك، وكذلك عاشت هناك أقوام من بقايا أقدم شعوب العالم كالآريين والهند والجرمانيين وغيرها وهم تسربوا في الأهالي وتتركوا بمرور الزمان.

وهذه الجبال وهذه الصحراوات والأنهار هي مظاهر البلاد الطبيعية التي كانت لها أثر في تكوينه الجغرافي وتشكل تاريخها، تاريخ حافلة بالحوادث والوقائع حدثت في نواحيها الجرداء، كما تمخضت أرضها الخضراء ببناء الممالك والإمبراطوريات الضخمة والتي ترك فيها أثرًا ومعالمًا لا تنسى. وولدت أبطالاً أقوياء وشهداء نشئوا في حضانتها وزينوا صفحات التاريخ بآثارهم البارزة.

عرفت مدائنها بمنبت العز والمجد، ففيها نشأت الدول الإسلامية التي هزت أركان العالم ونشرت ألوية الإسلام وعقائده بشتى الأرجاء الشاسعة من العالم.

جبال التركستان ترسم وتكلل علاقات ذات أهمية كبري في سلاسل أورسيا التي تمتد من برينر إلى الصين، وهي ليست فقط محور جغرافي لآسيا، بل كانت لها أهمية كبرى من حيث السياسة أيضًا[١].

ومن أهم جبال تركستان جبال بامير[٢]، وهي من أهم سلاسل

---

[1] ديكمر. ص٤. D. Carrathur: BEYOUND The Caspain. P. 139 Duab of Turkistan.

[2] تسمى هذه الجبل باسم «سقف العالم»، وتكتب باللغة الأويغورية: پامىر ئېگىزلىكى، الباشتوية: پامير غرونه، وباللغة القرغيزية Памир тоолору، وبالفارسية: رشته كوه‌هاى پامير، وبالرومانية: Rešte Kuhhâ-ye Pâmir، وبالطاجيكية: Ришта Кӯҳҳои

الجبال في البلاد تشعشعت وتلمحت في جليدياتها وثلجياتها النباتات والأحياء إلى الغرب والشرق، والمساحة التي تشغل سلاسلها تساوي مساحة إيرلاندا[١]، تأخذ امتدادها من تاجكستان اليوم في الشرق إلى تركستان الشرقية، وفي الغرب إلى أفغانستان وفي الجنوب إلى كشمير.

أعلى قممها اليوم جبل يقال له اليوم جبل ستالين (٢٤٥٩٠ قدم)[٢] وهي تقع في الشمال. ومن جبل بامير الذي يعرف بسقف العالم أيضًا تنشعب وتشتق عدة سلاسل هامة التي تمتد وتنبسط حتى تصل إلى تنغري تاغ وكونلون وقراقورم[٣] وهندكوش[٤]، ومنها عبر الرحالة الصيني فاجسيان وهيون تسانغ والرحالة ماركوبولو في حوالي سنة ١٢٧١ ـ١٢٧٥م. ومن ممرها الضيق ابتدأ الطريق الثالث الوسطى في هذه الأرض الجبلية مرَّت كافَّة العلوم والفنون التي أعطاها الهند إلى الصين»[٥].

ومن أشهر جبال تركستان سلسلة تنغري تاغ (أي الجبال السماوية) وهي تلحق في الشمال الشرقي إلى بامير، منبسطة في حافة الشمالية لسقي التاريم إلى تركستان الشرقية والصين وتركستان الغربية. أرفع

Помир، وباللاتينية: Rishta Köhhoyi Pomir، والسنسكريتية: सुमेरु، وبالأردية: پامیر کوهستان، وبالصينية المبسطة: 葱岭، وبالصينية التقليدية: 蔥嶺. وهي تعتبر طريقًا تجاريًا استراتيجيا بين كاشغر وقوقند على طريق الحرير الشمالي، وقد خضعت للعديد من الفتوحات الإقليمية. Wikipedia site:ar.wiki5.ru

[١] ديكمر. ص٤. D. Carrathur: BEYOUND The Caspain. P. ١٣٩ .Duab of Turkistan.

[٢] وحددوا ارتفاعها بحوالي ٦٦٥٠ مترًا، وهي تسمى في يومنا الحاضر قمة إسماعيل الساماني.

[٣] كولمبو أنسكلوبيديا، مادة: بامير.

[٤] هندكوش أو هندو كوش، (فارسي: هندوكش, سنسكريتي: हिन्दु कुश) هي سلسلة جبال في أفغانستان وشمال غرب باكستان. تعتبر سلسلة جبال هندوكوش الامتداد الغربي الأقصى لجبال بامير وكاراكورام والهيمالايا. يبلغ ارتفاع جبال هندوكوش ٧٩٦٠ م عن سطح البحر عند أعلى قممه والتي تسمى ترتش مير.

[٥] كولمبو أنسكلوبيديا، مادة: بامير.

ذروتها جبل بوبيدا (Pobinda) تبلغ ارتفائها إلى ٢٤٤٠٦ قدم[١]، وقمة خانتنغري. وكلتا هاتين الذروتين تقع على ثغور الصين والاتحاد السوفيتي، تنحدر سلاسلها في الشرق منخفضة مسطحة تدريجيا حتى تصل إلى صحراء جوبى[٢]. ولها عدة معابر تمر منها الطرق التجارية بين الصين وروسيا، ومن أشهرها ممراتها: ترك داوان (١٢٧٣٠ قدم) التي تربط كاشغر إلى سمرقند[٣].

ويقول جورج برودى: «إن نهر آمو هو نهر خالد يذكره التوراة أنه محيط الأرض[٤]. وأنه من الأنهار الأربعة التي قدرها الله أن تجري من بين الفردوس الذي خلقه الله للإنسان. يذكره التوراة باسم اوكسوس (Oxus). ونهر آمو في بلاد التتار الذي يقع وراءه جنات متنوعة ومملكة مضيئة وجميلة وزاهرة[٥].

وقد اعتقد الإسبانيون أن نهر جيحون من الأنهار التي تنبع من الفردوس، ويؤيد هذه العقيدة شهادة ابن بطوطة كما يؤيدها المؤلفون المسلمون الذين كتبوا في ذلك العصر[٦].

ويقول المسعودى: وأما نهر بلخ الذي يسمي نهر جيحون، فإنه

---

[١] يعني ٧٤٣٩ متر، وهي قمة تقع في جمهورية قرغيزستان حاليا.

[٢] صحراء جوبي (بالصينية: هانهاي) هي صحراء مترامية الأطراف في شرق آسيا. وتُغطي أجزاء من شمال وشمال شرق الصين وجنوب منغوليا. تفصل ما بين منغوليا الداخلية ومنغوليا الخارجية، وتتخذ شكل قوس يبلغ طوله ١,٦٠٠ كيلو متر، ويتراوح عرضه ما بين ٤٨٠ و٩٦٠ كيلومترا. مساحتها ١,٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع. الأحواض الصحراوية في جوبي تحدها جبال ألتاي والمراعي والسهوب في منغوليا من الشمال، وبصحراء تكليمكان من الغرب، وممر قانسو وهضبة التبت من الجنوب الغربي، وسهل شمال الصين من الجنوب الشرقي. جوبي معروف في التاريخ كموقع لعدة مدن مهمة على طول طريق الحرير.
https://ar.wikipedia.org/wiki/صحراء_جوبي

[٣] كولومبو أنسكلوبيديا. مادة: تيانشان.

[4] Georg Brodin: Ctadle of Splandour. P. 11.1

[٥] نفس المرجع.

[6] J. Hutton: Countrie Asia. P 23

يخـرج مـن عيـون تجـري حتـى تأتـي بلاد خـوارزم. وليـس فـي ذلـك الصقـع أكبـر مـن هـذه البحيـرة. ويقـال إنـه ليس فـي العمـران بحيـرة أكبـر منهـا، لأن طولهـا مسـيرة شـهر فـي نحـو ذلـك الأرض، تجـري فيهـا السـفن وإليهـا يصـب نهـر فرغانـة والشـاش ويمـر بـبلاد الفـاراب فـي مدينـة جديـس تجـري فيهـا السـفن إلـى هـذه البحيـرة وتليهـا مدينـة التـرك يقـال لهـا المدينـة الجديـدة وفيهـا المسـلمون والأغلـب مـن الأتـراك فـي هـذا الموضع الغزية الخ[١].

ومـن أنهارهـا نهـر جيحـون، نهـر تاريـخ قديـم يعرف فـي اللغـة المحلية بآمـو دريـا، يقـدر طولـه مـن ٢٥٤٠ كيلومتـرا. وقـد لعـب دوراً هامًّـا فـي تاريـخ الإسلام وتاريـخ بلاد الفـرس ومـا وراء النهـر ونشـر الإسلام هنـاك. كما لعب دوراً هامًّا في مصير تلك البلاد في العهود الغابرة.

واسـم مـا وراء النهـر أخـذ مـن هـذا النهـر وأطلـق مـن قبـل جغرافيـي الإسلام إلـى الـبلاد التـي وقعـت علـى طـول الجنـوب الغربـي لنهـر سـيحون فـي التركسـتان، وخاصـة إلـى بلاد سـمرقند وبخـارى. يأخـذ منبعـه مـن نهـر بنـج دريـا (واخـان) الـذي ينشـعب مـن نهـر وخشـب وبامير دريـا ونهـر أقسـو وعـدة أنهـار أخـرى التـي تنحـدر مـن جبـال هندوكـش وباميـر الثلجيـة، يجـري متجهًـا إلـى الغـرب عابـرًا تخـوم أفغانسـتان الشـمالية بطـول ١١٠٠ كيلومتـر. وهـو حـد فاصـل بيـن تخـوم أفغانسـتان وآسـيا الوسـطى السـوفيتية، ويصـل أخيـرا إلـى خـوارزم متأخمًـا تخـوم بلاد سـغديا القديمـة، عابـرًا متسـربًا كمـا مـن مياهـه فـي صحـراء قـارا قـوم في اليسار وقِزِيل قوم في اليمين ثم يصب في نهر آرال.

مـن المدائـن التاريخيـة التـي ترعرعـت واذدهـرت فـي جنبـه خصوصًـا فـي العهـد الإسلامـي تختـص بالذكـر مدينـة ترمـذ وكـرخ التـي تنسـب

[١] عبد الملك الثعالبي، يتيمة الدهر، ١/٧.

لهما جماعة من العلماء والفقهاء الشهيرة، كذلك إمارات بخارى[١] وخيوة[٢] وخوارزم[٣] كانت من الإمارات الإسلامية التي عاشت ودامت في جنبها تستقي بمياهه النقية حتى سنة ١٩٢٢م.

ومنها عبر إسكندر المقدوني سنة ٣٠ ـ٣٢٩ قبل الميلاد، حين أغار على بلاد سغديا بعد فتح باكتريا، كما عبر منه زياد[٤] وقتيبة بن مسلم[٥] فاتحين تركستان آخذين العلم الإسلامي عاليًّا ومرفرفًا، وغرق فيه كثير من جيوش الفاتحين الأقوياء وجرت دماء أهريقت في جانبيه منذ عهود غابرة.

ويقول آلكساندر: إن نهر آمو تمثل عدة خصائص جملة مأمولة ومنها: أنه يجري في مجري مستقيم، ويربط شعوب أوربا باستثناء قطعة ضيقة من الصحراء، مع شعوب البلاد الشاسعة في آسيا الوسطى.

ويقول دوغلاس كورريشر: إن من كافَّة الأنهار الكبيرة لآسيا التي لها أسماء خلابة، لعل جيحون أكثر خلابة ذات تأثير خيالي، ويمكن أن يكون سببه إما عزلته الكاملة التي حفظتها حتى القرن العشرين، أو لتفاوته التاريخي أو قسمته التي ربطته ربطا متصل التوثق، حتى للعهد

---

[١] إمارة بخارى (بالفارسية: شاهنشاهى بخارا)، هي إمارة إسلامية نشأت عام ١٧٨٥ وانتهت عام ١٩٢٠.كانت أراضيها ممتدة بين نهر جيحون ونهر سيحون. وكانت عاصمتها مدينة بخارى.

[٢] خانية خيوة أو خانات خيوة كانت دولة من عام ١٥١١ إلى ١٩٢٠، تقع في آسيا الوسطى تحديدا في منطقة خوارزم. https://ar.wikipedia.org/wiki/خانية_خيوة

[٣] وتعد "خانية خوارزم"، أو "خانية خيوه"، ثم "دولة خوارزم" (١٥١٢– ١٩٢٠م)، أحد ثلاث خانيات حكمت منطقة وسط آسيا. هاني صلاح، خانية خوارزم.. أندلس الحضارة الإسلامية بوسط آسيا – لمحات وصور، ٢٠٢١، ١٢ مايو.

[٤] زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ قائد عسكري عربي مسلم، كان من أعلام عهد الخلافة الراشدة، وسياسي أموي شهير، لَم يعرف اسم أبيه ونسبه فقيل أنه زياد بن عبيد الثقفي وقيل أنه ابن أبي سفيان بعد أن استلحقه معاوية بن أبي سفيان. ساهم في تثبيت الدولة الأموية وكان واحدًا من دهاة العرب. علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، ص:٤٢.

[٥] سيأتي ترجمته في النص.

القريب مع الإمبراطوريتين ذات جسور ضئيلة، ولكن في الحقيقة تبقي قصته منبع إلهام وخيال[١].

وقد عرف نهر جيحون منذ غضون عهود الغابرة بنهر ذي طاقة عظيمة. ولو أنه لا يقاس ولا يحاكي ولا يسابق بكونه مجري الماء بالأنهار العظيمة لقارة آسيا كنهر السند، وبراهمبوترا[٢]، وميكونغ[٣]، و يانغتسي[٤]، وخوانج خي[٥]، وغيرها من الأنهار التي بعيدة عنه بمئات من الأميال وماؤها أكبر حجمًا منه، ولكن نهر جيحون نهر ذي طاقة عظيمة، وإن الإغريقيين والإسكندر المقدوني وقواده قد تأثروا منه أكثر مما تأثروا من الفرات وكذلك كان عاليًّا عند الجغرافيين المسلمين من حيث الحجم والعمق والعرض.

وهي المملكة التي جاءت في «صبح الأعشى» بشأنها وتعريفها:

وهي (ممالك تركستان) من أجل الممالك وأشهرها... وهي ممالك طائرة السمعة، طائلة البقعة، أسرّة ملوك، وأفق علماء، ودارة أكابر، ومعقد ألوية وبنود[٦]، ومجري سوابق وجنود. كانت بها

---

[1] Jutluttun: Central Asia. P 14-155

[٢] نهر براهمابوترا، ويسمى أيضًا تسانج بو–براهمابوترا، هو نهر عابر للحدود ويعد أحد الأنهار الرئيسية في آسيا. يمتد طوله ١,٨٠٠ ميل (٢,٩٠٠ كم) تقريبًا. https://ar.wikipedia.org/wiki/نهر_براهمابوترا

[٣] نهر الميكونغ: هو نهر في جنوب شرقي آسيا. يصنف ترتيبه في الطول الثاني عشر في العالم والسابع لأطول أنهار قارة آسيا، حيث يبلغ طوله من منبعه لمصبه ٤٣٥٠ كم، وتبلغ مساحة حوض النهر ٧٩٥٠٠٠ كم مربع، وتصريفه ٤٧٥ كم مكعب من المياه سنويا.

[٤] نهر يانغتسي: يعرف في الصين باسم نهر تشانغ جيانغ، هو أطول أنهار الصين وآسيا وثالث أطول أنهار العالم بعد نهر النيل في قارة أفريقيا ونهر الأمازون في قارة أمريكا الجنوبية، يبلغ طوله حوالي ٦٣٠٠ كيلومتر (٣٩١٥ ميل).

[٥] هو النهر الأصفر أو هوانغ هو، هو ثاني أطول أنهار الصين بعد نهر يانغتسي، وسادس أطول أنهار العالم. يبلغ طول النهر حوالي ٥٤٦٤ كيلومتر. https://ar.wikipedia.org/wiki/النهر_الأصفر

[٦] بنود جمع مفرده بند، والعبد هو العلم الكبير. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (القاهرة: ١٩٧٢م)، ٧٣/١.

سلطنة الخانية[١] وآل سامان[٢] وبني سبكتكين[٣] والغورية[٤]. ومن أفقها بزغت شمس آل سلجوق، وامتدت في الإشراق والشروق. وغير هذه الدول مما طمَّ سيول هذه الممالك على قربها. فأما كانت قبل انتقالها إلى الإسلام في ملوك الترك لا تروم، ولا ترام، ولا تشق لها سهام، حتى إذا خيم بها الإسلام وحاز ملكَها هذه الأمة، برقت بالإيمان أسرتها وتطرزت بالجوامع والمساجد قراها، ثم بنيت بها المدارس والخوانق والربط والزوايا، وأجرى الوقف عليها، وكثر من العلماء أهلها، وصارت لها التصانيف المشهورة في الفقه والحديث والأصول والخلاف، وكان فيهم الرؤساء والأعلام، والكبراء أهل البحث والنظر - ثم قال- وهي في أواسط المعمورة وأوسع الأرض إذا قيل إنها أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها ماء ومرعى، لم يغير القائل الحق في أوصافها، ذات الأنهار السارحة، والمروج الممتدة، كأنما نشرت الحلل على آفاقها، ونثرت الحلي على حصبائها[٥].

وكانت الأرض الواسعة في شمال نهر جيحون موطنًا خالدًا في غضون القرون الغابرة لأولئك القوم من الشعوب الرحالة الجريئة

---

[١] يقصد خانية خوارزم، والخانية هو إقليم أو منطقة وخوارزم أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكبيرة والمحاسن الأثيرة، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٩.

[٢] آل سامان: هم أولاد سامان المنسوب إلى بهرام جوبين، وكان أسد بن سامان في خدمة غسان بن عباد وإلى خراسان فأكرمه وأنعم على أولاده وجعلهم ولاة على سمرقند وفرغانة وأشروسنه وهرات، وقد استقلوا فيما بعد وأسسوا دولة آل سامان التي تكونت على يد إسماعيل الساماني سنة ٢٧٩ هـ واستمرت حتى قضى عليها محمود الغزنوي أواخر القرن الرابع الهجري. ميرخواند، روضة الصفا، ترجمة د. أحمد الشاذلي، (القاهرة: ١٩٨٨)، ص ٧٩. گرديزى، زين الأخبار، ترجمة د. عفاف زيدان، ص ١٩.

[٣] بنو سبكتكين: هم أولاد ناصر الدين سبكتكين، استقل سبكتكين بحكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ، وأسس الدولة الغزنوية. ميرخواند، روضة الصفا، ص ١٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨٦/١١.

[٤] الغوريون: هم أسلموا في عهد خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد أسس الغوريون دولة واتخذوا من غزنة عاصمة لها. روضة الصفا، ص ١٤١. طبقات أكبرى، ٢٣/١.

[٥] القلقشندى. صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، ٤٢٩/٤. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ٣ / ١٤١

الذيـن لا يسـخرون ولا يطيعـون حتـى إن اليونـان وملـوك الفـرس حينمـا فـي عـروج جلالتهـم وعظمتهـم مـا اسـتطاعوا أن يضعـوا أقدامهـم فـي ذراع واحد في أراضيهم[١].

وأيضًـا مـن أنهارهـا التاريخيـة نهـر تاريـم فـي تركسـتان الشـرقية يقـدر طولـه مـن ١٠٠٠ إلـى ١٢٠٠ ميـل. وهـو يتكـون مـن عصبـات كاشـغر وياركنـد ونهـر خوتـن وغيرهـا مـن الأنهـار العديـدة الصغيـرة للـبلاد. يصب مـا بقـي مـن مياهـه مـن التسـرب فـي الهـواء فـي النهايـة إلـى غديـر لوب نور[٢].

يكنـف شـقيها غرائـب ومدائـن عـدة، كمـا يوجـد آثـار قديمـة تاريخيـة جلبـت عـدة بعثـات حفريـة، ومـن جملتهـا بعثـات أوريـل سـتاين[٣] وسـفين هيـدن[٤]، وقـد رأى شـقي النهـر تبـدلات عديـدة كبيـرة منـذ ألفـي سـنة، حيـث نـراه خصبًـا معمـورًا فـي عهـد ومحجـورًا غامـرًا بيـداء فـي عهد آخر[٥].

وشـقي التاريـم كان مفـرق طـرق عموميـة مـرَّت منهـا فـي غضـون التاريـخ قوافـل شـعوب الشـرق والغـرب بتجارتهـا وحضارتهـا وثقافتهـا، كمـا مـرَّت جيوشـها بدمارهـا وفتوحاتهـا. وكان كاشـغر ملتقـي هـذه الطـرق التـي كانـت تذهـب إلـى باميـر ومـن هنـاك إلـى بلاد مـا وراء قفقاس[٦].

---

[1] Douglas Carruthers. Beyond the Caspain. P.137.

[٢] بريطانيا، مادة: تاريم.

[٣] مارك أوريل ستاين (بالمجرية: Stein Márk Aurél) (١٨٦٢ – ١٩٤٣ م) هو مستشرق ومكتشف وعالم آثار مجري المولد.

[٤] هو سفين اندرس هيدين (بالسويدية: Sven Hedin) هو مستكشف ومصور وجيولوجي سويدي ولد في ستوكهولم السويد في ١٩ فبراير ١٨٦٥م و توفي في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٢م و قد قام بأربع رحلات لأسيا الوسطي.

[٥] بريطانيا، مادة: تاريم.

[٦] نفس المرجع.

ومن أهم المدائن التاريخية التي عمرت وازدهرت في شقي التاريم كانت مدينة لوب كوتك، التي دمرها مرور الزمان ودفنت تحت رمال صحراء لوب نور في القرن الثامن الهجري[١].

ومن أنهار تركستان نهر زرفشان، معناه: ناثر الذهب. وهو نهر أسقى وأحيى مياهه أراضي سغديانا (تاجكستان وأوزبكستان اليوم) منذ قديم الزمان. وفي الحقيقة ينطبق اسمه لمسماه حيث له أهمية حيوية ذهبية ليست بأقل من أهمية أنهار سيحون وجيحون وغيرها من أنهار البلاد. وهو كان منذ قديم الزمان منبع الحياة لسمرقند وبخارى، يأخذ مياهه من جبال آلتاي، يجري على طول مسافة ليست بأقل من ستين وأربع مائة أميال يصب في النهاية إلى غدير ديكزكولفي شمال حارحوت. ينشق قسم من مياهه في الصحراء، والقسم الذي يشتق من جبال آلتاي ويشكل منابع نهر زرفشان يقال له جبال زرفشان، ارتفاعها ١٨٤٨٠ قدم، وفيها توجد معادن الفحم، انتيمون وولفرم بقدر كثير[٢].

وماء هذا النهر كان سببا لمعارك ونزاع دائم بين سلاطين تركستان ودولهم، خاصة بين أمراء سمرقند وبخارى، حيث كانت لهذه المعارك والمحاربات أثر عميق في تاريخ البلاد ومصيرها من حيث السياسة والثقافة وغيره[٣].

وظهر في سماء التاريخ من ملوكهم وخواقينهم نجوم ساطعة وأبطال جبابرة استطاعوا أن يبسطوا ظل عظمته على القارات النائية والممالك المترامية.

---

[١] دائرة المعارف الإسلامية.

[٢] كولمبو أنسكلوبيديا، مادة: زرفشان.

[٣] ديكمر، ص ٨.

التاريخ:

ولهذا الشكل الطبيعي والتكوين الجغرافي للبلاد ووقوعها في مفترق الطرق بين الشرق والغرب فضلاً على مكانتها السياسية والاستراتيجية كما هي في هذا اليوم، كان له أثر عميق في شكل إعمارها وتكوين تاريخها وحضارتها وثقافتها ونشر مذاهب قديمة هناك. حيث جلبت وديانها الخصبة في مجاري الأنهار وتحت ظلال الأشجار أقوامًا شتى من الجنوب والشمال ومن الغرب والشرق، وصارت مجالاً واسعًا أجالت فيه الفاتحون أفراسهم وأخلوا ......

وهناك أسلاف الأتراك والآريين والقفقاسيين والبارثيين واليونانيين وغيرهم من الأقوام القديمة التي عمَّرت وشرَّقت شموسهم ثم أفلت وغبرت، كما خلت مكانتهم لمالكي البلاد الأصليين. فطلع فينا محمود الكاشغري، أسمى الدولة في بروج وأدار بملكهم دائرات الأفلاك وجعلهم ملوك العصر وضع في يدهم أزمة أهل الدهر، فخلدوا آثارهم في سماء العروج وبمعالمهم زينت صفحات التاريخ.

فظهر منها الإمكيت والهون وآتيلا، وأسسو إمبراطورية عظيمة، فتوسعوا حتى وصلوا في الشرق إلى أقصى الصين وفي الغرب إلى بلاد المجر. خلفها كوكتورك والكونانيون والإفتاليون فتأسس بنوهم إمبراطوريات واسعة مزدهرة.

ثم جاء الإسلام والعرب ظهر السامانيون ثم السلجوقيون والغزنويون والخوارزميون بأبطالهم كإسماعيل بن أحمد الساماني[١]

[١] هو الأميرُ العادِل أبُو إبْراهِيم إسْماعِيل بن أحمَد بن أسَد السَّاماني. كان الأمير الساماني لبلاد ما وراء النهر (من ٩٠٠م حتى ٩٠٧م). شهد عهده ظهور السامانيين كقوة في المنطقة. وهو ابن أحمد بن أسد ويرجع نسبه إلى سامان خدا الذي أسّس سلالة السامانيين والذي ترك المجوسية واعتنق الإسلام من أصل فارسي ساساني. https://ar.wikipedia.org/wiki/إسماعيل_الساماني

وملكشاه السلجوقي[١] ومحمود الغزنوي، وجلال الدين الخوارزمي من تركستان وغيرهم من أعلام الإسلام الذين يباهي بهم تاريخ التركستان الإسلامي. ثم جاء المغول وفتحو نصف كرة الأرض مقلبين أعلاها أسفلها وبالعكس. أنتجت البلاد تيمور الكبير، وقد هزَّت بلاد العالم من يده الحديدية، وبنى من رءوس الناس الذين لا يخضعون لحكمه وسلطته منارات.

وهذه هي بلاد عندما دخل الجيوش هناك قد وصفوها بأنها إحدى الجنات الموجودة على وجه الأرض. طلعت فيها في سماء العلم والفلسفة النجوم الزاهرة كالفارابي[٢]، وأبي علي بن سينا[٣] ومحمد بن إسماعيل البخاري[٤] وأبي نصر أسماعيل بن حماد الجوهري[٥]

---

[١] هو أبو الفتح ملك شاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق بن دُقَاق، ثالث سلاطين الدولة السلجوقية، تولى الحُكم بعد أبيه ألب أرسلان عام ٤٦٥هـ – حتى وفاته عام ٤٨٥ هـ، كانت الدولة في عهده قد اتسعت اتساعاً عظيماً، فامتدت من كاشغر في أقصى المشرق إلى بيت المقدس في الغرب. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان: وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، ٢٨٣/٥. ابن الجوزي البغدادي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بيروت: دار صادر). ٨٧/٩.

[٢] الفارابي، هو محمد بن محمد بن أوزلوغ بن طرخان، العالِم الأويغوري، الفيلسوف الكبير، وُلد عام ٢٦٠ هـ، في فاراب في إقليم تركستان، وتُوفي عام ٣٣٩ هـ. الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر). ٢٢٩/٥. مصطفى عبد الرازق. فيلسوف العرب والمعلم الثاني. (القاهرة: جمهورية مصر العربية، مؤسسة هنداوي) ص. ٤١.

[٣] أبُو عَلِيّ الحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ اَلْحَسَنِ بْنِ عَلِيّ بْنِ سِينَا اَلْبَلْخِي ثُمَّ اَلْبُخَارِي، اَلمعروف بِابْنِ سِينَا، عالم وطبيب، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠ هـ، وتوفي في همدان سنة ٤٢٧ هـ. ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ٧٤/٣. وابن خلكان، وفيات الأعيان ١٥٨/٢.

[٤] هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبَه الجعفي البخاري، ولد الإمام البخاري في بخارى ليلة الجمعة الثالث عشر من شوال سنة ١٩٤ هـ، وكانت وفاته ليلة عيد الفطر السبت ١ شوال ٢٥٦هـ عند صلاة العشاء وصلي عليه يوم العيد بعد الظهر ودفن، وكان عمره آنذاك اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما. الساعدي، أحمد بن عبد الله بن أبي الخير، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (دار البشائر) ٣٢٧/١. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، (طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية) ٢ /١٥٦.

[٥] هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. قرأ العربية على أبي علي الفارسي، والسيرافي، ثم طاف بلاد ربيعة ومضر، فأخذ العربية مشافهة من العرب، قال عنه ياقوت: كان من أعاجيب الزمان، ذكاء وفطنة وعلما. وصنع جناحين من خشب وربطهما بحبل، وصعد سطح داره، ونادى في الناس: لقد صنعت ما لم أسبق إليه وسأطير الساعة، فازدحم أهل نيسابور ينظرون إليه، فتأبّط الجناحين ونهض بهما، فخانه

وأبـي الريحـان البيرونـي[١] وبهـاء الديـن النقشـبندي وخواجـه أحـرار الولـي وأبـي جعفـر البخـاري وأميرعلـي شـير نوايـي[٢] ومحمـود الكاشـغري[٣] وغيرهـم مـن العلمـاء والفلاسـفة والفقهـاء والمحدثيـن الذيـن أنجـزوا خدمـات جليلـة خالـدة فـي ميادين العلـم والفلسـفة والفـن والتاريـخ والحديـث والفقـه والطـب والهندسـة واللغـة والآداب وغيرهـا من العلوم المروجة في ذلك الوقت الذين قال الشعراء بشأنهم:

علماء الإسلام كانوا بدوراً   وسماء البدور تركستان
إن أردت الدنيا تر المجد فيها   قد أقيمت لصرحها الأركان
أو أردت الدين الحنيف تجده   وهو للبر والهدي عنوان
وطن للمصلحين دينا ودنيا   تتغني بفضلها الأزمان[٤]

وقـد ازدهـرت فـي هـذه الـبلاد - سـمرقند، بخـارا، بلـخ، نيشـابور،

اختراعه، فسقط إلى الأرض قتيلاً. الزركلي، موسوعة الأعلام، ١٩٨٠.

[١] أَبُـو الرَّيْحَـانِ مُحَمَّدُ بْـنُ أَحْمَـدَ البِيرُونِيّ (٣٦٢هـ - ٤٤٠ هـ)، كان رحّالـةً وفيلسـوفًا وفلكيًـا وجغرافيًـا وجيولوجيًا ورياضيا، وصيدلانيًا، ومؤرخًا، ومترجمًا. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وقد قال بدوران الأرض حول محورها في كتابه: مفتاح علم الفلك، كما صنف كتبًا تربو عن المئة والعشرين. أبو الريحان البيروني وكتابه «الصيدلانية» - IslamOnline اسلام اون لاين.

[٢] الشاعر والمفكر البارز، ورجل الدولة نظام الدين مير علي شير النوائي (١٤٤١-١٥٠١م)، ويعتبر من أكبر شخصيات الأدب الأويغوري الذي يطلق عليه في الغرب الأدب الجغتائي. وبحق لا توجد شخصية مماثلة له في أداب الشعوب التركية. وخلال السنوات الممتدة من عام ١٤٩٠م وحتى عام ١٥٠١م كتب نوائي مؤلفاته العاطفية، والاجتماعية، والفلسفية، والعلمية. وخلال السنوات الممتدة من عام ١٤٨٣م وحتى عام ١٤٨٥م كتب مؤلفه الشهير «خمسة»، الذي ضم القصائد الشعرية: «خيرة الأبرار»، و«فرهاد وشيرين»، و«ليلى ومجنون»، و«سبعي سياري»، و«سدي إسكندري». موسوعة بريطانيا: مادة: علي شير نوائي.

[٣] محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري (١٠٠٥م - ١١٠٢م) عالم ومؤرخ تركي من مدينة كاشغر من علماء القرن الحادي عشر، اختص بأنساب الترك ولغاتهم، ألف كتبه بالعربية ومنها «ديوان لغات الترك». ولد في كاشغر في تركستان الشرقية وهاجر منها إلى العراق، خلال إقامته في بغداد قام الكاشغري بكتابة كتابه «ديوان لغات الترك» في عام ١٠٧٢م وأنهاه في ١٢ فبراير ١٠٧٤م، وقام بمراجعته أربع مرات، وقد استغرقت هذه الفترة عامين كاملين إلي أن أنجزه بشكله النهائي عام ١٠٧٦ م. وقد قام بإهدائه إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله.
Harvard Ukrainian Research Institute (1980). Harvard Ukrainian studies. Harvard Ukrainian Research Institute. 2017-01-08 .160 .ص. James A. Millward (2007). Eurasian Crossroads: A History of Xinjiang. Columbia University Press. 54 .ص –

[٤] عبد العزيز جنكيزخان، قلب آسيا. ص ٢.

كاشغر، هرات، مرو، غزنة، لاهور ودهلي الأنشطة العلمية والعمرانية، وهي تتبختر في التاريخ كتبختر العروس في حجلها.

ولهذه البلاد وشعبها الأتراك أثر كبير ومكانة بارزة في تاريخ الإسلام من نواح شتى من الناحية السياسية، والثقافية، والعلمية، والاجتماعية، والعقلية وغيرها من النواحي التي أحدثت أثرًا بالغًا في تاريخ البلاد الإسلامية بعد أن ظهرت هذه العناصر التركية في ميدان السياسة، حيث لا نجد أي بلاد إسلامية إلا وكانت هناك دول تركية أو أمارات تركية قد أسست فيها وحكمتها أمدًا بعيدًا، وبعضهم قد غيَّروا وجهة التاريخ من مجراها الطبيعي، وبهم أخذ التاريخ يجري مجرى آخر، وهم تركوا أثرًا بالغًا وعميقًا في ثقافة البلاد وحضارتها وعقليتها وبيئتها التي حكموا فيها؛ لذلك إذا درسنا تاريخ الإسلام أنا لا نستطيع أن نستغني من درس تاريخ تركستان دولها وأماراتها التي ظهرت فيها وربطت تاريخ بتاريخ اسلام ربطًا موثقًا حتى شكل نصف التاريخ الإسلامي من تاريخهم[١].

وكانت تركستان قبل التاريخ وبعدها رافعة العلم في آسيا ملكًا وسلطانًا، ضاربة في أعراق القدم بقدم راسخة في العز والفخار... وقد أثبت الباحثون من علماء الآثار والتاريخ أن تركستان أول بلاد اكتشفت فيها زراعة الحبوب وتألف الحيوان. وكان الأتراك فيها يعرفون الزراعة قبل التاريخ، وهم الذين اقتادوا الخيول والأغنام وغيرها أول مرة تحت إدارة الإنسان[٢].

وقد ترعرعت في أحضان البلاد المذاهب القديمة كالزرادشتية، والبوذية، والشامانية، والمانوية، والنصرانية وغيرهم. وأخيرًا منذ

---

[١] عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٣

[٢] عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا. ص ٩.

القرن السابع الميلادي شاع فيها نور الإسلام، فجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

احتل الصين تركستان الشرقية لأول مرة في سنة ١٢١ قبل الميلاد[١]، وكان ذلك بعد أن أوقعت هزيمة على الإمارتين هيوجن

---

[١] وإن حكومة الصين ومنذ مدة بعيدة مضت تعطي خراجا وإتاوات لتَنِغْرِيتْقُوت الهون الكبرى، غير أنها فكرت كثيرا في الخلاص من هذه المذلة كما فكرت مرتين في قوة وصلابة تَنِغْرِيتْقُوت الهون الكبرى وجبروتها، ورأت نفسها مجبورة بذلك الذل، وأخيرًا فكرت حكومة الصين وإمبراطوريتها الخلاص من ذل العبودية عبر طريقين اثنين: الأول: بتحريض الخانيات المنضمة إلى اتحاد الهون الكبرى ضدها لتجزءة الاتحاد وتفكيكها أو إضعافها. الثاني: استخدام الأميرات الصينيات المتزوجات لتَنِغْرِيتْقُوت الهون في الوصول إلى أمراء وسادات تَنِغْرِيتْقُوت الهون، وزرع الشقاق بينهم وإصابة العجز في أوصال تَنِغْرِيتْقُوت الهون العظيم وإمبراطوريته. وفي سبيل تحقيق الخطة الأولى أرسلت الملك الصيني وُودي جاسوسه جانغ تشيان تحت نقاب سائح ورحَّال إلى بلاد الأتراك في تخوم تركستان وإلى خانية ووسون (أويسون)، وخانية ياوجيلار، ليقوم بدوره في تحريض هؤلاء الخانات والقبائل للعصيان على تَنِغْرِيتْقُوت الهون الكبرى. وعندما وصل جانغ تشيان إلى بلاد تَنِغْرِيتْقُوت الهون؛ اكتشف تَنِغْرِيتْقُوت الهون هذه الخطة عام ١٣٩ قبل الميلاد، وألقاه إلى السجن حتى عام ١٢٠ قبل الميلاد. ولعل جانغ تشيان توسل إلى الأميرات الصينيات المتزوجات من تَنِغْرِيتْقُوت الهون والأمراء، فأطلق سراحه. فوصل تشانغ تشيان في عام ١٢٥ قبل الميلاد عبر طريق فرغانة وسمرقند إلى مركز ياوجيلار على ضفاف نهر «إيلى»، وحبب إليهم العصيان ضد تَنِغْرِيتْقُوت الهون والعودة إلى مواطنهم الأصلية في كوكْنُور (كانسو)، ولكن كان لدى ياوجيلار من الحذر والفطنة والوعي ما يكفي لاكتشاف هذا التحريض فلم ينخدعوا بها ورفضوا أن يكونوا آلة لغرض الخيانة من الأعداء، فطردوا جانغ تشيان وأخرجوه من بلادهم، فوصل إلى الصين سرًّا عن طريق جنوب تركستان الشرقية. ثم أتى إلى تركستان الشرقية مرة أخرى في عام ١١٥ قبل الميلاد، والتقى مع خان ووسون (أويسون) أكبر وأقوى خانية عند الأتراك، وعند مثوله بين يديه قال: «رغم مكانتكم وقوتكم القادرة عيب عليكم أن تكونوا تحت هيمنة تَنِغْرِيتْقُوت الهون، فإذا أردتم الخلاص من هذه العبودية وأقدمتم إلى النضال والكفاح فإمبراطور الصين على استعداد لمساعدتكم «.
والحاصل: بعد تحريضات ثار خان ووسون (أويسون) ضد تَنِغْرِيتْقُوت الهون وأعلن الاستقلال لبلاده والانفصال عن هيمنة تَنِغْرِيتْقُوت الهون، ولكن الهون أرسل إليه جيشًا كبيرًا لتأديبه وإعادته إلى طاعة تَنِغْرِيتْقُوت الهون العظيم، فأخضعهم لطاعته. وبالرغم أن جانغ تشيان هرب إلى الصين بالخيبة والخسران، إلا أنه عرف ثراء بلاد تركستان الشرقية والغربية وأنه في هذه البلاد يوجد خانيات وملوك صغيرة وأنهم تابعون لتنغريقوت الهون، ولكنهم غير مراقبين من جهة تَنِغْرِيتْقُوت الهون سوى وجود بعض الممثلين لتَنِغْرِيتْقُوت في بلاطاتهم بأعداد قليلة جدًّا، وأنه في الإمكان تنفيذ خطة لزرع الشقاق والتباغض فيما بينهم، وعندها يسهل لإمبراطور الصين الاستيلاء على تركستان الكبرى.
شرح جانغ تشيان كل هذه التفاصيل لإمبراطور الصين، فطمع إمبراطور الصين وودي في الاستيلاء على تركستان الكبرى، ولكن قوته ما كان تكفي لذلك. وبسبب جانغ تشيان وخيانة الصين تدهورت العلاقة بين تَنِغْرِيتْقُوت الهون والصين، وبدأت حروب طاحنة بين الدولتين، دامت الحروب مدة طويلة، وأخيرًا في عام ١١٩ قبل الميلاد وقعت معركة شرسة في منطقة كانسو بين قوات الهون وقوات الصين بقيادة القائد الصيني هوكوبينغ، فتغلب الصينيون فاحتلوا منطقة كانسو. وبعد ذلك بدأ إمبراطور الصين وودي يمد يده الطامعة إلى منطقة تركستان الشرقية، وكانت مملكة روران الأتراك ودولة قوجو على حدود كانسو تدافعان عن بلادها ضد هجمات الصين. وفي عام ١٠٨ قبل الميلاد جهَّز إمبراطور

وكونسيه Kunsie التين كانتا تحكمان البلاد تابعتين لامبراطورية Hiujin الهون. وقد تم هذا الاحتلال بقيادة الجنرال HuKubing هوكوبنج في عهد خَنْ وودي من سلالة هان. وفي ذلك العهد كان قوم ووسون حاكما للقسم الذي يقال جونغارية، وكان قبل ذلك حاكما لقسمه المعروف بكاشغرية.

ثم تعاقبت احتلال الصين على دولة روران ومملكة قوجو في سنة ١١٨ قبل الميلاد. وكانت لولان مزدهرة في شمال غدير لوب نور، وقد عاشت متحكمة بحكم كاشغارية بأسرها منذ سنة ١٠٠ حتى

الصين وودي جيشًا كبيرًا تحت قيادة قائده العسكري جاو بونو وأرسله إلى منطقة تركستان الشرقية، فهاجم على دولة روران، وبعد معارك طاحنة انتصر عليها وأسر ملكها، ثم هاجم على مملكة قوجو، وبعد دفاع شديد وقعت قوجو تحت احتلال الصين. وبهذا وقعت دولتين فاصلتين في يد إمبراطور الصين وودي. وفي عام ١٠٤ قبل الميلاد أرسل وودي إمبراطور الصين مبعوثه الذي سبق ذكر اسمه وهو جيانغ جيان إلى أقوى دولة في تركستان الشرقية وهي خانية ووسون تهددها بالغزو، ولكن المبعوث وقع اتفاقية الصلح بينها وبين دولة الصين، ثم زوج وودي إمبراطور الصين إحدى أميراته إلى خان دولة ووسون، ثم اضطرت الدول التي في منطقة المدن الستة ومنطقة إسِّيق كول (بحيرة إسِّيق) للاعتراف بتبعيتها للصين. ثم طمع إمبراطور الصين وودي في الاستيلاء على منطقة تركستان الغربية أو منطقة فرغانة فأرسل رسوله بذلك، ولكن ملك فرغانة أجابه بقتل الرسول الصيني، وبعد هذه الحادثة أرسل وودي جيشًا لغزو فرغانة في عام ١٠٤ قبل الميلاد، ولكن ملك فرغانة أباد الجيش الصيني عن آخره، مما أدَّى إلى إضافة روح الانتقام لطمع الإمبراطور الصيني، فأرسل في عام ١٠٢ قبل الميلاد جيشًا قوامه ستين ألف جندي إلى فرغانة، فتغلب هذا الجيش على جيوش فرغانة وقتل ملك فرغانة في الحرب التي وقعت بينه وبين جيش الصين، وقد نصب الصينيون مكانه رجلاً من أهالي فرغانة وعيَّنه خانًا (ملكًا)، وبهذه الصورة وقعت منطقة تركستان الغربية تحت نفوذ الصين. ويذكر المؤرخون الصينيون هذه الحادثة بأن الصين استولى على كل من منطقة تركستان الشرقية وتركستان الغربية، ولكننا في الحقيقة نرى عدم صحة هذا في المراجع الصينية نفسها؛ لأن المصادر الصينية تقول إن احتلال الصين هذا لم تدم ولم تستمر قط، حيث إن بعض الخانات أي الملوك أو كلهم كانوا يعلنون الاستقلال ويطردون الصينيين ويبيدونهم أو كانوا يعلنون حربًا على الصين وينفون نفوذ الصين عن بلادهم، وكان جنود الصين يتكبدون صعوبات جمة في احتلال المدن في وادي فرغانة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان تنغريقوت الهون أو الهونيون يقومون بهجمات شرسة على تخوم فرغانة وقراها يقصدون طرد الصينيين منها، وكانوا يطردون الصينيين بالفعل منها. ولكن كان جنود الصين يعيدون غاراتهم تارة بعد أخرى ويتغلبون على الهون ويستولون على بعض المناطق، وبهذه الطريقة بقيت أو صارت منطقة تركستان الشرقية ميدان حرب، وكر وفر بين الصينيين وبين الهونيين الأتراك، ودامت هذه الأحوال قرابة ٢٢ عاما. وفي عام ٨٦ قبل الميلاد وقعت ثورات في داخل الصين قتل فيها إمبراطور الصين وودي (劉徹)، فبمساعدة الهون تغلب التركستانيون على الصينيين وقتلوهم وطردوا بعضهم إلى داخل الصين، ثم دخلت منطقة تركستان الكبرى في اتحاد الهون وعاشت آمنة مطمئنة قرابة ٣٧ عاما. محمد أمين بغرا، تاريخ تركستان الشرقية.

قبل الميلاد، وبعد أن أنشأت الصين بلدة السون Sun هناك في حوالي هذا التاريخ، بدلت اسم روران على شانشان.

استقلت بلاد كاشغارية الجنوبية بيد أمير ياركند في سنة ٥٠ قبل الميلاد، ولكن الصين سرعان ما احتلتها بحيلة دبلوماسية أعملت من قبل دبلوماسة صينية باسم فانج فنج شن.

وكانت الصين قد استولت من قبل في سنة ٦٠ قبل الميلاد بصورة نهائية بلاد طُورفان التي كانت تملك حكومة ذي قدرة واسعة، وكانت نزاع بين الهون وبين الصين منذ سنة ١٢١ قبل الميلاد.

بدءاً من هذا التاريخ وبعد أن وضعت الصين بلاد طورفان تحت إدارتها الكاملة عينت أول وإلى عمومي لتركستان الشرقية، وكان لقبه الرسمي المحافظ العام.

وفي حوالي سنة ٢٣-١٥ بعد الميلاد نجحت تركستان الشرقية (بلاد كاشغارية، طورفان، وقراشهير بدون ياركند) أن تعلن إطاعتها للهون وذلك بعد أن قتلوا المحافظ العام وسائر قواد الصين.

وفي سنة ٤٥ بعد الميلاد أعلن أمير ياركند استقلال البلاد (أي المناطق التي امتدت من روران إلى كوجار) بعد أن انضمت ثمانية عشر خانياتها في اتحادية. وكان ذلك بعد وفاة أخيه الذي كان تابعا للصين.

في سنة ٤٦م أعاد ملك لولان استقلال بلاده ثم طورفان أيضًا، وذلك بواسطة مساعدة عسكرية أعطاها الهون على حسب طلبها، وبذلك قامت حكومة الهون مرة ثانية على كل من بلاد كاشغارية وكوجار.

وكانت بلاد كاشغارية بأسرها في هذا العهد آهلة بقوم ينتمي إلى أصل قفقاسي يتكلمون لغة الهند الأوربية، وكان ملك ياركند من هذا القوم.

في سنة ٦٠ بعد الميلاد، ثارت خوتن على حكم الهون برئاسة واحد من أشرافها باسم هيوموبو الذي أعلن استقلال البلاد وأعلن نفسه ملكًا لها بعد أن قتل الحاكم العسكري لهون، ولكنه قتل في حرب وقعت بينه وبين الهون، واستخلفه عمه جواندي الذي استطاع أن يحافظ على استقلال البلاد بعد أن تم الصلح بينهما. وأخيرا في سنة ٦١ ب م، عرض ياركند الإطاعة لجواندي الذي طلب الهون عنده وأعدمه في الحبس وذلك أثر استغاثة جاء بها أهالي ياركند عليه. بعد فترة قصيرة أطاع جواندي للهون، وقد تم بذلك احتلال الهون على تركستان الشرقية بأسرها حتى بلاد ختن أيضًا.

قد كانت هذه البلاد مهدًا قديمًا للأتراك والهنود والألمانيين. ومن المعلوم أن تاريخ التركستان القديم ترجع إلى ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد، ويبدأ من حضارة آنائو حسبما يحفظها لنا التاريخ.

وقد عاشت هناك قديمًا في البلاد التي تسمى اليوم التركستان أقوام عرفت في التاريخ بالسامارتي[١] والسمِّري[٢] ثم الأمكيت الذين

[١] السارماتيون: كانت اتحادا كونفدراليا كبيرا من الشعوب البدوية الإيرانية القديمة التي سيطرت على السهوب البونتية من حوالي القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي. نشأ السارماتيون في الأجزاء الوسطى من السهوب الأوراسية، وكانوا جزءا من الثقافات السكيثية الأوسع. في القرن الأول الميلادي، بدأ السارماتيون في التعدي على الإمبراطورية الرومانية بالتحالف مع القبائل الجرمانية. في القرن الثالث الميلادي، تم كسر هيمنتهم على سهوب بونتيك من قبل القوط الجرمانية. مع الغزوات الهونية في القرن الرابع، انضم العديد من السارماتيين إلى القوط والقبائل الجرمانية الأخرى (الفاندال) في مستوطنة الإمبراطورية الرومانية الغربية. نظرا لأن أجزاء كبيرة من روسيا اليوم، وتحديدا الأرض الواقعة بين جبال الأورال ونهر الدون، كانت تسيطر عليها السارماتيون في القرن الخامس قبل الميلاد، فإن سهوب الفولغا–دون والأورال تسمى أحيانا «الوطن الأم السارماتي».

[٢] السيميريون: شعبا بدويا من الفروسية الإيرانية الشرقية القديمة نشأ في سهوب بونتيك–قزوين، وهاجر جزء منهم لاحقا إلى غرب آسيا. على الرغم من أن السيميريين كانوا سكيثيين ثقافيا، إلا أنهم شكلوا

عاشوا حوالي سنة ٧٠٠ـ ١٠٠٠ قبل الميلاد.

ثم عاش وحكم هناك أقوام مساغيت، آئورسى، وآلاني الذين كانوا آهلين في شرق البلاد وشمالها، وقوم سقا في تركستان الشرقية. وكان هناك في أقصي الشمال قوم يعرف بقانغو. وأخيرًا بقي السامارتيون حاكمين في تركستان الشرقية حتى القرن التاسع الميلادي وكانت هناك في بلاد كاشغاريا بقية باقية من السامارتيين.

وفي عهد باتور تنغريقوت من ملوك الهون، كان هناك في تركستان الشرقية أقوام يوجلار ووسون الذين كانوا من أصل شبه قفقاسي ويتكلمون بلسان الهندو- الأوربية[١].

وكانت هناك أيضًا أقوام وو – هون وسيانبي الذي كان من بقايا إحدى قبلية الطونغوز والذين هزمهم الهون سنة ٧٨ قبل الميلاد.

تاريخ تركستان الغربية

كان يحكم تركستان سنة ألف قبل الميلاد الإمبراطور التركي ساكا أو الأمكيت، وكان لهذه الدولة علاقات سياسية عديدة مع إيران والهند. وفي أواخر القرن الخامس قبل الميلاد استولى قيروش على الأقسام الجنوبية لتركستان الغربية، الأمر الذي أدَّى إلى انسحاب حكومة الساكا إلى المناطق الشرقية الشمالية من البلاد، ولكنها عادت بعد ثمانين سنة وحررت المقاطعات المحتلة.

وحدة عرقية منفصلة عن السكيثيين المناسبين، الذين كان السيميريون مرتبطين بهم والذين شردوا وحلوا محل السيميريين. لم يترك السيميريون أنفسهم أي سجلات مكتوبة، ومعظم المعلومات عنهم مستمدة إلى حد كبير من السجلات الآشورية من القرنين الثامن إلى السابع قبل الميلاد ومن المؤلفين اليونانيين الرومان من القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده.

[١]

استولى الإسكندر المقدوني على تركستان الغربية عام ٣٣٠ قبل الميلاد وحكمتها خلفاؤه من بعده نحو قرن من الزمان، ثم استولى عليها البارثيون ومن بعدهم الساسانيون، ثم دخلت في حوزة الإمبراطورية القوشخانية، وفي القرن الأول قبل الميلاد تملكها أتراك الهون، ومن بعدهم احتلتها الصين مدة قصيرة[١].

وفي القرن الرابع أنشأ هناك أتراك آق هون إمبراطورية التي امتد حكمها إلى ما يعرف اليوم بجنوب أفغانستان، وتعرف هذه الدولة الهونية بإمبراطورية يبطاليت[٢] أيضًا، وبالعربية هبتل[٣].

وفي عام ٥٦٠ انضمت تركستان الغربية بتمامها تحت حكم خاقان كوك ترك وأصبحت جزءا منها[٤]. ثم قسمت البلاد في القرن السابع إلى دولتين مستقلتين، وهما:

١. الإمبراطورية القوطلوقية

٢. والإمبراطورية القارلوقية

---

[١] محمد أمين بغرا. المسلمون. ٣٦-٣٧.

[٢] يعود الاسم الإنكليزي (**Hephthalites**) إلى مصادر إغريقية قديمة، أشارت إلى القوم أيضًا بأسماء أخرى: إفثاليت، أبدل، أو أفدل. أما أصل الاسم الإنكليزي (هفثاليت) فغير معروف، وربما كان من الكلمة الخُتَنية *هيتالا، وتعني القوي، أو من الكلمة الفارسية الوسطى هافت آل، أي السبعة. أما الأرمن، فكانوا يسمونهم هيطل، والعرب والفرس يسمونهم الهيطل أو الهياطلة، واسمهم الباختري هو إبدودالو. في التواريخ الصينية، سُمّي الهياطلة يِيثايليتو 厌带夷栗陁 (بالبينيين: ياندايليتو) أو بالاسم الأحدث المختصر يادا 嚈哒 (بالبينيين: ييدا). هذا الاسم الأخير نُقل إلى اللاتينية على هيئات كثيرة، منها: ييدا، وييتا، وييثا، ويياندا. أما الاسمان الكانتوني والكوري الموافقان، فهما ييدات وييوبتال (بالكورية: 엽달).

سميت يفطل في كتب التاريخ الصينية القديمة بالأسماء المختلفة، ففي كتاب «魏书» (كتاب وي) سميت باسم»嚈哒» وكتاب « «书»(كتاب ليانغ)، سميت باسم «滑» وكتاب «周书» (كتاب جوي) سميت باسم «嚈哒» وكتاب «隋书»و(تاريخ سلالة سوي)، وكتاب «新唐书» (كتاب سلالة تانغ الجديدة) سميت «挹». وبهذا نر ى أن يفطليين في التاريخ سميت بأسماء مختلفة في حقبة تاريخة مختلفة.

[٣] ايرتورك. ملي تركستان. عدد ٧٦و٧٧. ص ٤٣.

[٤] محمد أمين بغرا نفس المصدر السابق

أما الدولة القوطلوقية: فتأسست في عام ٥٨٠ حيث قام النصف الغربي من إمبراطورية كوك تورك التركية بقيادة قوطلوق بتحرير نفسه من حكم الصين، وكان سكَّانه هم القارلوقيون والأيغوريون والتركشيون. وقد نعموا بفترة من الاستقلال قصيرة الأمد، ولكن الصينيون غلبوهم على أمرهم عام ٧٤٤. فقد غنم القارلوقيون استقلالهم من القوطلقيين والتركشيين وقاموا بتأسيس دولتهم عام ٧٦٦. وفي نفس الوقت، أي: في سنة ٧٤٠ أسَّس الأيغوريون دولتهم في تركستان الشرقية، وقد اشتهر هؤلاء بحروفهم للكتابة التي كانت تستعمل في بلاد تيمور في سمرقند[١].

بدأت فتوحات المسلمين إلى التركستان في أواسط القرن السابع بعد الميلاد أي سنة ٩٦ هـ ـ ٧١٤م، وانتهى الأمر بفتح خوارزم في عهد الخليفة عبد الملك وفتح ما وراء النهر في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك.

وبعد أن غدت تركستان الغربية من أهم أجزاء الممالك الإسلامية ارتبطت مباشرة بمركز الخلافة عصورًا عديدةً باعتبارها أمارة ممتازة، وكانت بخارى مركز أول دولة إسلامية، ولما بدأ مركز الخلافة العباسية يتزعزع ويضعف أعلن السامانيون الذين كانوا ولاة التركستان استقلالهم. ولما انقرضت هذه الدولة سنة ٩٥٣م، قامت في القرن العاشر الميلادي سلطنة الغزنويين في منطقة خوارزم، كما دخلت إدارة ما وراء النهر في حكم القراخانيين ١١١٧-١١٣٨.

ثم استولى البلاد السلجوقيون، وكانت التركستان من أهم مراكزهم حيث كان مرو عاصمة ملكشاه السلجوقي. وبعد انقراض السلجوقيين استقلت خوارزم بيد خورزمشاه سنة ١٢٠٠م وشملت

---

[١] م. هـ. ايرترك. ملي تركستان. عدد ٧٦-٧٧، ص٤٣.

في حكمه أكثر بلاد التركستان. بقيت ماوراء النهر زمنًا طويلاً تحت حكم القراخانيين إلى أن سقطت في أيدي القراخطائيين ثم استولى عليها خوارزمشاه.

في سنة ١٢١٩م سقطت دولة خوارزم بيد جنكيزخان الذي سلَّط حكمه في مدة قصيرة على كل بلاد تركستان ومنها تقدَّمت إلى الجنوب وللغرب. وبعد موت جنكيزخان كانت البلاد في عصبة جاغاتاي، وقد دامت حكومة سلالته نصف قرن، في أثنائه اعتنق المغول الإسلام وأعاد العمران والمدنية والرفاهية إلى البلاد بعد أن أخربتها وجعلها مسرحًا لمصائب هائلة في إبان الاستيلاء عليها.

ثم حل التيموريون في القرن الرابع عشر محل المغوليين، وفي القرن الخامس عشر حكم البلاد الشيبانيون الأزبكيون وعملوا على إعلاء شأنها، إلا أن الاختلافات التي وقعت بين أمراء التركستان في أوائل القرن السابع عشر كانت سببا في تقسيم الدولة إلى أربع دويلات مستقلة تحت خانيات خيوة وبخارى وخوقند والقازاق أو الأستراخانية، الأمر الذي أدى إلى انهيار البلاد وانحطاطها فيما بعد[١].

قد بدأت مهاجمات الروس سنة ١٨٢٠ على شعوب تركستان أي شعوب قازاقستان اليوم، التي كانت قد انقسمت إلى عدة أمارات بعد وفاة توقخان (١٧١٨-١٦٨٥) ثم تقدمت حتى تم استيلاء التركستان بصورة نهائية على يد روسيا القيصرية عام ١٨٨٤م[٢].

وبعد الثورة الشيوعية سنة ١٩١٦ أعلنت خوقند حكومة ذات اختيارات داخلية، وبخارا وخيوة استقلالهم، غير أن الشيوعيون

---

[١] م.أمين بغرا.المسلمون، ص ٣٨.
[٢] م.هـ.ايرترك. ملي توركستان.

استأنفوا هجومهم وحطموا استقلال البلاد ثم قسموها بصورة نهائية إلى خمس جمهوريات ذات اختيارات داخلية. وبعد ١٩٣٥ أعلنوا تلك الجمهوريات الخمسة واحدة تلو الأخرى جمهوريات اشتراكية شورائية، والتي لا تزال تعيش بهذه الصفة محكومين للروس حتى اليوم.

تاريخ تركستان الشرقية موجزًا

كانت التركستان بلاد حضارة راقية من زمن ما قبل التاريخ، ومما أجمع عليه المؤرخون والأثريون أن تلك البلاد كانت آهلة بأجداد الأتراك منذ فجر التاريخ، وكانوا متحضرين أصحاب المدن والقرى، ولهم صناعات راقية وتشكيلات حكومية، ويرى أمجادهم بصفة دولة عظيمة منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتعرف هذه الدولة بدولة تروشكا أي الترك عند قدماء الهند، وبدولة سكا عند الإيرانيين، وبدولة الإسكيت عند اليونانيين، ولما ضعفت هذه الدولة، وتفرقوا على دول في القرن الخامس قبل الميلاد، وازداد تفرقهم نتيجة لحملة إسكندر على تركستان الغربية.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد أصبحت جزءًا من إمبراطورية أتراك الهون ١٥٨ قبل الميلاد. فلما انقسم دولة الهون إلى قسمين متعاديين سنة ٤٥ بعد الميلاد، انتهزت الصين هذه الفرصة وقامت بعدة هجمات للاستيلاء على تركستان الشرقية، فهزموا أكثر من مرة ونجحوا في الاستيلاء عليها مرارًا حتى قضت عليها سنة ٩٣ بعد الميلاد، ولكن احتلال الصين في كل مرة لم يدم أكثر من ثلاثين سنة. حتى نجوا من استيلاء الصين بإمداد كانشيكا[١].

---

[١] كانيشكا الشهير صاحب مملكة قوشخان وهو أقوى إمبراطورية تركية في القرن الثالث الميلادي توجه

وفـي العصـور التـي تعاقبـت تعـرض الـبلاد لاسـتيلاء القوشـخانيين وإمبراطوريـات اورراوجيـن. وكان ملـوك تركسـتان الشـرقية مسـتقلين إلى أن استولى عليها الخاقان طولون خاقان التتار وجوجان سنة ٥٠٠ بعد الميلاد.

ولما قـوض خاقـان الترك بوميـن خـان مـن إمبراطوريـة كـوك تـرك العظمى الدولة التتارية سنة ٥٥٥ بعد الميلاد، أطاع ملوك التركستان للخاقان المذكور إلى أن انقرض دولة الترك سنة ٦١٠ ب م.

فاسـتولت الصيـن علـى التركسـتان لمـدة ٢٢ سـنة، فتحالـف ملـوك التركسـتان مـع ملـك التبـت وطـردوا جنـود الصيـن واسـتقلوا. ولمـا تأسسـت دولـة التـرك مـرة ثانيـة سـنة ٦٥٠ برئاسـة الخاقـان إيلتريـش اضطر ملوك التركستان لإطاعته إلى أن انقرضت سنة ٧١٨، فاستقلوا تحـت رعايـة خـان تركـش الخاقـان سـولو الـذي اشـتهر بدفاعـه عـن تركسـتان الغربيـة ضـد جنـود الإسلام. ولمـا قتـل سـنة ٧٤٨ وقـع الاخـتلاف والمحاربـة مـن ملـوك التركسـتان، وانتهـزت الصيـن هـذه الفرصـة فاسـتولت ٧٦٧ حتـى اتحـدوا عليهـا واسـتمدوا مـن أبـي مسـلم الخراساني المشهور فأمدهم بعشرين ألفًا من جنود المسلمين تحت قيـادة زيـاد بـن صالـح القائـد العربـي فقتلـوا جيـش الصيـن عـن آخرهـم سنة ١٤٦هـ ٧٦٤م. فاستقل ملوك التركستان، فكانت العلاقات ودية بينهـم وبيـن ولاة العباسـيين فـي الشـرق، فأخـذ ديـن الإسلام يدخـل فـي تركسـتان الشـرقية بفضـل دعـوة علمـاء الإسلام فـي تركسـتان الغربيـة بطرق سلمية.

وفـي بدايـة القـرن التاسـع الميلادي، اتحـد ملـوك تركسـتان الشـرقية

إلى تركستان الشرقية وأدخل خانات المدن الستة في طاعته. محمد أمين بغرا، تاريخ تركستان الشرقية، ص ١٢٩.

تحت لواء خان كاشغر وتشكلت دولة القراخانية، فأسلم الخاقان ستوق بوغرا خان بدعوة العالم الكبير أبي نصر الساماني[١] في سنة ٣٣٢هـ. فانتشر الإسلام في البلاد بفضل غزواته، واقتفى أثره أبناء الخاقان ستوق بوغرا والخاقان هارون بوغرا[٢] الذي ضم تركستان الغربية إلى مملكته وحفيده يوسف قدرخان حتى اعتنق الإسلام القبائل التركية القاطنون في البلاد إلى سيبريا وإلى داخل بلاد المغول والصين[٣]، فبقيت البلاد مستقلة حتى سنة ١٤٣٢م.

حكم في تلك المدة فيها خمسة أسر من الأتراك تتقدم بالثقافة الإسلامية تقدمًا هائلاً، ويعتبر عصر القراخانيين العصر الذهبي للتركستان من الوجهة الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية؛ حيث لم يسبق لها مثيل قبلها، ولم يأت بعدها يوم من أيامها.

وفي سنة ١٣١٤م وقعت في قبضة جنكيزخان ولكنها لم يصب بسوء ودمار. وسارع فرع جغتاي من أولاد جنكيزخان فأعلنوا اعتناقهم للدين الإسلامي. وكان ذلك باعثًا لشروق الإسلام والمدنية في هذه الأرجاء، ودامت هذه الدولة التي مرت بها دورات مختلفة حتى سنة ١٦٧١م. وكانت دولة قوية، ويعتبر هذه الدولة التي دام حكمها أكثر من أربعة قرون من أزهى عصور تركستان الشرقية وأسعدها من كل الوجوه.

---

[١] هو نصر بن نوح بن نصر، من المحتمل أنه الأمير الساماني الذي فر إلى بلاد الترك في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. بارتولد، تركستان، ص٣٩١.

[٢] هارون بغراخان، هو شهاب الدولة وظهير الدعوة أبو موسى حسن بن سليمان بغراخان حاكم الجزء الغربي للدولة القراخانية، كان حكمه اسميا في عهد حاكم الدولة القراخانية علي أرسلان خان. وهو حفيد ستوق بغرا خان من خلال ابنه الثاني سليمان خان.

[٣] وقد شهد القرن الرابع الهجري نشاطا كبيرا للصوفية الذين نزلوا إلى ميدان نشر الإسلام الذي احتكره الفقهاء من قبل، وشهد هذا القرن بين التصوف والفقه، وقد دخل الصوفية ميدان الدعوة إلى الإسلام في بلاد التركستان في عهد السامانيين، وتغلغل نفوذهم بين الأتراك الغربيين أولا ثم انطلقوا إلى الأتراك الشرقيين، وحققوا نجاحا كبيرا في الدعوة إلى الإسلام في آسيا الوسطى. بارتولد، تركستان، ٣٩١. حسن أحمد محمود، ١٤٧.

وبعد سنة ١٦٧١م استولى عليها القلماقيون البوذيون عدة مرات، يضاف إلى ذلك جهل سلالة الخوجات التي تأسست حكومتها سنة ١٦٩٥م وهم جاءوا من بخارى، وخصومات الإخوة مما أدَّى إلى عجزها عن الدفاع عن الوطن حيال احتلال الأجانب[١].

وفي سنة ١٧٥٥ أرسل إمبراطور الصين جين لونغ حملة عسكرية وظفرت باحتلال تركستان الشرقية إلا أن هذا الجيش القدوم أبيد عن آخره تقريبا سنة ١٧٥٧م. ثم أرسلت الصين جيشا آخر سنة ١٧٨٨م فقد حارب بشدة مدة سنتين انتهت بانتصاره واحتلال المملكة. نجح الأهالي في طرد الصينيين عدة مرات ونالت حريتها في سنوات ١٨٢٥، ١٨٣٠، ١٨٤٧، وأخيرًا في سنة ١٨٦٤م نجح يعقوب خان بيك في تأسيس حكومة مستقلة في تركستان الشرقية اعترف بها السلطان عبد العزيز العثماني والحكومة الإنجليزية والحكومة الروسية. عاشت البلاد باستقلال تام ١٨٧٧م حيث توفي فيها الملك يعقوب خان فجاة فوقع النزاع بين أولاده على العرش، فانتهزت الصين هذه الفرصة فاستولت عليها مرة ثانية.

وفي سنة ١٨٨١م أعلنها جزءًا من ولايات الصين، ويسميها سنكيانغ، أي: المستعمرة الجديدة. بقيت الأهالي تحت حكم الصين في غياهب الجهل، وذل الأسر حيث تأخرت ولم تتقدم حينما تقدمت الأمم الأخرى وازدهرت بأنوار العلم يتمتعون بعز الحرية ويتخلصون من قيود الاستعمار الأجنبي.

وفي سنة ١٩٣٢-١٩٣٤م قامت الأهالي بثورة عامة ضد الصين، وكانت الثورة ناجحة حيث أعلنت البلاد استقلالها وحريتها، ولكن القوات الصينية تمكنت من سحق هذه الحرية بقيادة شين سي ساي

---

[١] محمد أمين بغرا، تاريخ تركستان الشرقية.

الحاكم الصيني العام. وكان ذلك بتدخل الروسية الشيوعية ومساعدتها الحربية والمالية حيث أخذت القوات الروسية عاتقها إدارة تركستان الشرقية باسم حكومة الصين الوطنية.

وفي خلال الحرب العالمية الثانية استفادت حكومة الصين الوطنية من هجوم الألمان على روسيا وطلبت إجلاء القوات الروسية عن تركستان الشرقية، فغادرت القوات الروسية البلاد سنة ١٩٤١ بعد أن خرَّبت آبار البترول والمؤسسات الأخرى التي تستغلها، فحلت القوات الصينية محل القوات الروسية. وفي سنة ١٩٤٩ تعرضت البلاد لاستيلاء الحكومة الصينية الشيوعية التي ما زالت تحكمها باسم إقليم سنكيانغ الأُيغورية ذاتية الحكم.

التركستان في التاريخ القديم

أما في العهود الغابرة، ففي العصر الذي كانت إمبراطورية إسكيت مزدهرة ومترقية، كان يعيش هناك في التركستان الشمالي السامارتيون الذين أنتج فزوهم سقوط دولة أسكيت أخيرًا.

في حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد عاش في بلاد تركستان الغربية الشمالية قوم أطلق عليهم اليونانيون اسم مساجيته أو مساغيت وكانوا حاكمين في البلاد. وهم اشتبكوا مع ملوك الفرس الأولية وسببوا لهم قلقًا واضطرابًا كثيرًا. وطبقًا على رواية هيرودوتس[١] أن سايروس مؤسس الإمبراطورية الإيرانية، قد لقي حتفه في ميدان الحرب شنه على خلاف هذا القوم[٢].

---

[١] هرودط أو هيرودوت أو هيرودوتس (Herodotus) كان مؤرخا يونانيًا آسيوياً عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٨٤ ق.م – ٤٢٥ ق.م). اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدّة زارها حول العالم المعروف آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان.

[2] Amélie (1995). The ancient Near East, c. 3000-330 BC. London ; New York:

وقد دامت سلطنة المساغيت عدة قرون ثم خلفهم في القرن الثاني قبل الميلاد قوم آخر باسم آئورسي[١] Aorsi الذين خلفهم بعد ثلاثة قرون، أي: في العصر الأول بعد الميلاد الآلانيون[٢] Alani. وهؤلاء الآلانيون بكونهم أهم القبائل الذين عاشوا في تركستان الشمالية، قد لعبوا دوراً هامًّا في تاريخ العالم، حيث نراهم متأخرًا يخرجون من بلاد آسيا الوسطى وينتشرون إلى أقطار العالم متجهة بجهات شتى، وأن فرعًا منهم قد هاجر أخيرًا إلى بلاد اسبانيا وإفريقا الشمالي. وأننا نرى دم هؤلاء المهاجرين ما يزال يجري في عروق قاطني هذه الأصقاع، وأن فرعًا آخر من الآلانيين قد تغلغلوا إلى مرتفعات بلاد القفقاس الذين لا يزالون يعيشون إلى هذه الأيام باسم اوستيت Ossetet. وقد حفظوا لغتهم القديمة وهويتهم الجنسية منذ القرون الماضية، وهم الذين وحدهم من بقايا فروع السمرتيين المختلفة الذين استطاعوا أن يحيوا رغم تلاطم الزمان. بينما هؤلاء المساجيت والأئورسي والآلاني كانوا يعيشون في بلاد تركستان الغربية الشمالية متسلطين أثرًا بعد أخرى على البلاد قبل الميلاد وبعده، كان بلاد تركستان الشمالية في يد قبائل أخرى يتكلمون بلغة مشتركة مشتقة ولهم نسبة قريبة من تلك الجماعات سالفة الذكر متشابهين في الثقافة ولكن بأسماء مختلفة. وكانت هذه الجماعات والقبائل في هذا القطر، كانوا يعيشون في هذا القطر، أي: في شمال

---

[١] كان الأورسي، المعروف في المصادر اليونانية باسم أورسوي (Ἄορσοι)، شعبا إيرانيا قديما من مجموعة سارماتية، لعب دورا رئيسيا في أحداث السهوب البونتية من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي. غالبا ما تعتبر مرتبطة بدولة السهوب الأوراسية المعاصرة يانكاي (أو ينستاي) المذكورة في السجلات الصينية القديمة. يعتبر الآلان، الذين ذكرهم علماء الشرق الأوسط وأوروبا لأول مرة في القرن الأول الميلادي، خلفاء للأورسي.

[٢] ان آلان (باللاتينية: ألاني) شعبا رعويا إيرانيا قديما وفي العصور الوسطى في شمال القوقاز يعتبر عموما جزءا من السارماتيين، وربما يتعلق بالماساجيتا. ربط المؤرخون المعاصرون آلان مع يانكاي آسيا الوسطى من المصادر الصينية ومع أورسي من المصادر الرومانية.

نهـر سـيحون وحـوض نهـر إيلـي[١] وفـي المرتفعـات الشـمالية لجبـال تنغريتاغ.

وهـم الذيـن أغـاروا علـى حـدود بلاد الفـرس وسـببوا لهـم قلقًـا واضطرابًـا كثيـرًا ثـم دخلـوا فـي خدمـة ملـوك الفـرس متأخِّـرًا. وهـم الذيـن كانـوا مشـهورين بالمقـدرة للكفـاح والقتـال، وهـم الذيـن قاتلـوا جيـوش إسـكندر المقدونـي عندمـا أغـاروا إلى بلاد آسـيا الوسـطى، وقد أشـغلوهم في عدة معارك شديدة.

وقـد لعـب سـقا أيضًـا الـدور الهـام فـي التاريـخ كالآلانـى. غيـر أن الآلانييـن انتشـروا إلـى الغـرب بينمـا قبائـل سـقا قـد شـقوا طريقهـم إلـى الجنـوب وبسـطوا سـلطانهم إلـى بلاد إيـران الشـرقية والهنـد الشـمالية. وكان يعيـش فـي شـمال بلاد سـقا قبائـل أخـرى هامـة قـد أطلـق عليهـم الصينيون اسم كانج جو.

وقـد لعبـت هـذه القبائـل الـدور الهـام فـي تاريـخ بلاد آسـيا الوسـطى، وربمـا كانـوا يعيشـون فـي الزمـان القديـم جدًّا فـي الشـمال الشـرقي لـبلاد تركستان.

وكان هنـاك عـدة قبائـل أخـرى فـي شـمال موطـن سـقا تسـمى سـرمتي Sarmati علـى اصـطلاح عـام، وكانـوا يعيشـون قديمًـا فـي مرتفعـات بلاد المغـول. وقـد ثبـت أن قومًـا يشـبهون السـمرتيين فـي الجنـس واللغـة كانـوا يقطنـون فـي تركسـتان الشـرقية وهـم احتلـوا جـزءا كبيـرا مـن الـبلاد

[١] نهر إيلي باللغة الأويغورية: ئىلى دەرياسى، هو نهر يقع في شمال تركستان الشرقية وجنوب شرق كازاخستان. يتدفق من ولاية إيلي الواقعة إلى شمال تركستان إلى منطقة آلماتا في كازاخستان. يبلغ طوله ١٤٣٩ كيلومترًا، ٨١٥ كيلومترًا منه في كازاخستان، ينبع النهر من نهري تِكَس وكونَس في شرق جبال تنغري تاغ. ويتدفق إلى بحيرة بالقاش. وذكره محمود الكاشغري في كتابه «ديوان اللغات الترك» وقال: «إيلي، اسم نهر، تعيش على ضفافه قبائل تركية من ياغما وتوخسي.

74.133Wikipedia site: ar.wiki5.ru

كما هو معلوم لنا من المصادر الصينية.

وإن وجود تلك القبائل السمرتية أو شبه السمرتي في بلاد كاشغرية تدل على أنهم كانوا قد تغلغلوا إلى الشرق مدفوعين بضغط كبير. ولكن تغلغلهم الناجح وضغطه الكبير كان إلى جانب الغرب فيما وراء روسيا الجنوبية حيث إنهم شقوا طريقهم إلى تلك البلاد وفتحوها من الإسكيتيين. ثم إن هؤلاء الاسكيتيون قد أزاحوا من تلك البلاد القبائل السمرتية المشكلة من الطوائف الذين أدفعوا بطيئا وبصفة مستمرة إلى جانب الغرب.

وبينما كان الاسكيتيون والسمرتيون يعيشون متسلطين في روسيا الجنوبية وتركستان الشمالية، كان يعيش هناك في تركستان الجنوبية أقوام أخرى يختلف عنهم اختلافًا تامًّا، وأهمهم كان الخوارزميون والصغديون والباكتريون. وقد لعب الباكتريون دوراً هامًّا في غضون التاريخ المستهلة، وقد سبب دورهم هذا إلى أن يطلق اسم باكتريا أو باكتريان إلى جنوب تركستان سهوا في العهود الغابرة.

وإن قاطني هذين القطرين قد بقوا مشتركين ومتحدين أساسا في الجنس واللسان، وكانوا ينسبون إلى أصل واحد. ولو كانوا في نزاع دائم بين أنفسهم. وكانوا مشتركين في حياتهم الثقافية، وكان هذا الاشتراك الثقافي قد توسع إلى أقوام والفرس القاطنين في مرتفعات إيران. وكانت هذه المميزات الثقافية في هذه الأصقاع نفس المميزات التي تشكل حياة الاسكيتيين والسمرتيين كركوب الخيل، ورمي الرماح من ظهر الخيل، ولبس السراويل وغيرها. فهذا الأمر الذي يدل على أن العلاقات القريبة كانت موجودة منذ مستهل التاريخ بين التركستان الجنوبي ومرتفعات إيران.

التركستان مهد الحضار القديمة

ويعتقد بعض المؤرخين أن بلاد أسيا الوسطى كانت مهدًا أوليًّا للنسل الإنساني، ولو أن صحة هذا الرأي غير ثابت، ولكن ليس هناك شك في أن هذه البلاد كان يعيش فيها قوم ذات ثقافة عالية في سالف الزمان.

ولو أن كشف الآثار القديمة لآسيا الوسطى لا يزال في عنفوان شبابه بعد، ولكن الآثار التي عثرت منذ سنوات تدل على أن شعوب الذين كانوا يسكنون في قسم التركستان لبلاد آسيا الوسطى كانوا قومًا وصفهم المؤرخون بأنهم دهانو الزهرية (نقاشون) الذين كانوا يملكون حياة مدنية بقدر يسير، وكانوا يهتمون بالزراعة، كما تدل عليها الحفريات الأثرية التي كشفها بومبلي[١] في قرية أنائو[٢] في تركستان الجنوبية. وهذه الحفريات توضح العادات والرسوم الخاصة لقاطني تلك البلاد وتظهر أيضًا أن سكان أنائو ماكانوا زائرين من موضع إلى آخر، بل كانوا يعيشون في القصبات والقرى ويهتمون بالزراعة كالحنطة والشعير وكانوا يعتمدون في حصول اللحم على صيد الحيوانات الوحشية.

---

[١] رافائيل بومبيلي (٨ سبتمبر ١٨٣٧ – ١٠ أغسطس ١٩٢٣) كان جيولوجيا ومستكشفا أمريكيا. أجرى أول مسح شامل لصحراء غوبي، واستكشف منغوليا وسيبيريا. ي عام ١٩٠٣، قام بحفر أثري ممول من كارنيجي مع ابنه في تلال أناو في تركمانستان.

[٢] أناو (Annau) هي مدينة في تركمانستان. تعود ثقافة أناو في العصر الحجري إلى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد، بعد ثقافة جيتون في العصر الحجري الحديث في التسلسل الثقافي لجنوب تركمانستان. تم التنقيب عن أناو من خلال بعثة أثرية تركمانية أمريكية مشتركة في التسعينيات والألفينيات. كانت أناو نقطة توقف على طول طريق الحرير القديم. تم العثور على الفخار المطلي الجميل هنا.
https://en.wikipedia.org/wiki/Anau,_Turkmenistan

ويرجع تاريخ الإسكان الأولى في أنائو على عهد استعمل فيه الإنسان الصوانيات والآلات الحجرية، ولكنهم يعلمون أيضًا استعمال النحاس وصنع الفخار والخزف أيضًا من حضارة أنائو التي تستحق الذكر ولو كان هذه الصناعة بحالة ابتدائية، ولكنها كانت جميلة الشكل نقشت بالعلامات الهندسة مشعرة بمهارتهم الفنية التامة.

ويعتقد بومبلي أن حضارة أنائو ترجع تاريخها إلى ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ولكن بعض المؤرخين يرجعها إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد. العهد الذي قد أخذ فيه الحياة الثقافية تزدهر في مصر وبين النهرين، ومما تستحق الذكر وجود المشابهة بين ثقافة تريبولي التي أطلقت على ثقافة الروسية الجنوبية والرومانية الشمالية وعلى ثقافة أنائو. إذ أن قاطني تلك البلاد كقاطني أنائو كانوا يعيشون في حياة ذراعية، وهذه هي النقاط التي تدفعنا إلى أن نعتقد أن ثقافة تريبولي كانت مشاركة مع الشرق عامة وبالتركستان خاصة.

وقد وجدت منذ سنوات في الصين الشمالي أنموذجات من الخزف المنقوش التي ترجع تاريخها إلى عهد قديم جدًّا، والمقايسة بين هذه الأنموذجات أنائو وتريبولي وخاصة الأخيرة قد أهدت بعض العلماء للجزم على أن الازدهار الخزف الصيني السالف كان نتيجة للدوافع التي اندفعت من الغرب، الأمر التي يؤيد النظرية التي تقول أن حضارة الصين قد انكشفت نتيجة لتأسيس العلاقة بينها وبين آسيا الوسطى وفضلاً على ذلك كانت الصين مملكة اكتشفت فيها الزراعة من قديم ومن جملتها الحنطة والأرز والشعير التي كانت موطنًا على غالب الاحتمال لاحتلال الصين بلاد الترك الأدنى.

غير أن انتشار الآريين من بلاد آسيا الوسطى لها أهميتها الكبرى في تاريخ الأقوام، إذ أن الآريين الذين كانوا يقطنون في بلاد آسيا

الوسطى قد أخذوا يهجرون إلى الأقطار المجاورة نتيجة لتغير إقليمي، وكان ذلك في سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد تخمينًا، وهذه الهجرة قد وصلت إلى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، وكانت هذه الهجرة قد اتجهت الشرق حتى بلاد تركستان الشرقية من جانب، والغرب حتى وصلت إلى روسيا الجنوبية التي كانت ملحقة بسهول آسيا الوسطى جغرافيا. وإن القسم الجنوبي للتركستان الذي كان يعرف ببلاد بكتريا كان مركز قوة للآريين في ذلك العهد، ويشمل السهول الشمالية لجبال هندوكش، وقد دامت هذه الهجرة إلى الجنوب وإلى ما وراء جبال هندوكش حتى أنهم وصلوا إلى مرتفعات إيران وجعلوا أنفسهم سادات هذه الناحية، ومن هنا انتشر القبائل المتفرقة من هذه الآريين وحدانا وزرافات إلى الجنوب وأغاروا على بلاد الشرق الأدني حيث نجحوا في تشكيل دول ذات أهمية كبري في أقطار شتى لتلك البلاد، وكانت لتلك الزرافات الصغيرة من المقتحمين فضل على ذكر أسماء الآريين لأول مرة في سجلات كتابة آشورية في إمبراطوريات بين النهرين. وأخيرا في سنوات ١٩٠٠ و ١٥٠٠ قبل الميلاد إننا نرى ظهور أقوام بربريين مفاجئا الذين قلبوا كثيرا من الإمبراطوريات الموجودة هناك وأسسوا إمبراطوريات لأنفسهم التي دامت تحكم لعدة عصور.

ومن البربريين الذين حكموا في ذلك العهد أقطارًا مختلفةً في بلاد الشرق الأدنى كان الكاسيت[١] Kassites الذين فتحوا بلاد بابيلون والميتامي[٢] Mittami الذين حكموا الحضبة العليا لسنوات وغيرهم

[١] الكاسيين (/ kæsa ts/) كانوا من سكان الشرق الأدنى القديم، الذين سيطروا على بابل بعد سقوط الإمبراطورية البابلية القديمة. ١٥٣١ قبل الميلاد وحتى. ١١٥٥ قبل الميلاد. سيطروا على بابل بعد نهب بابل الحثي في عام ١٥٣١ قبل الميلاد، وأنشأوا سلالة يفترض عموما أنها كانت مقرها أولا في تلك المدينة. https://en.wikipedia.org/wiki/Kassites

[٢] ميتاني (١٥٥٠–١٢٦٠ قبل الميلاد)، في وقت سابق كان يسمى Ḫabigalbat في النصوص البابلية

من السلالات التي حكمت بلاد سوريا مما تستحق الذكر، وما كانت لغة هؤلاء البربريين على حسب التحقيق مشاركة بقوم من نسل آري الأمر الذي يدل على أن أولئك الحاكمون قد جاؤا من الشرق، ولو أنهم قد لعبوا دوراً مهمًّا، ولكنهم ما نجحوا في إنقاذ نسلهم أو لغتهم في تلك البلاد، بل في الحقيقة قد انهضموا بمرور الزمان في نفوس الأقطار المجاورة انهضامًا تامًّا.

ومن أولئك المقتحمين الذين استولى على مرتفعات إيران وبلاد ما بين النهرين التي تحكمها الآشوريون، ظهر مديا[١] والبارسوس (الفرس) الذين قد نجحوا في تأسيس إمبراطوريات عظيمة في الشرق في حوالي ٣٣٦ قبل الميلاد.

ثم إن فرقة أخرى من الآريين قد تغلغلت متجهة إلى الشرق والجنوب الشرقي واحتلت أجزاء إلى الهند الشمالي بعد أن أخرجت الدراونديين السود حكام هذه البلاد حتى وصلوا عابرين الهند إلى جنجه، ومن هناك إلى دكن، وكان غارة تلك الفرقة من الآريين إلى بلاد الهند على حسب التخمين العام حوالي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد.

القديمة، ج. ١٦٠٠ قبل الميلاد؛ هانيجابات أو هاني رباط في السجلات الآشورية، أو نهارين في النصوص المصرية، كانت دولة ناطقة بالهورية في شمال سوريا وجنوب شرق الأناضول مع التأثيرات اللغوية والسياسية الهندية الآرية. نظرا لعدم العثور حتى الآن على أي تواريخ أو سجلات ملكية في مواقعها المكتشفة، فإن المعرفة عن ميتاني متفرقة مقارنة بالقوى الأخرى في المنطقة، وتعتمد على ما علق عليه جيرانها في نصوصهم.

[١] الميديون من الأقوام التي استوطنت مناطق جبال زاكروس قديما حيث عاشوا بين نصفهم الآخر الحوريين في الشمال الغربي لما يعرف الآن بكردستان. وكان موطنهم حسب الجغرافية الحالية تشمل كردستان وأذربيجان ومنطقة كاردوخ. واستنادا إلى كتابات هيرودوت فإن الميديين كانوا مؤلفين من ٦ قبائل رئيسية وهم الفيلية وباريتاك وستروخات وآريا وبودي وموغي، وأطلق هيرودوت اسم الآريين على القبائل الميدية. ستنادا إلى كتابات هيرودوت فإن أصل الميديين يرجع إلى شخص اسمه دياكو الذي كان زعيم قبائل منطقة جبال زاكروس وفي منتصف القرن السابع قبل الميلاد حصل الميديون على استقلالهم وشكلوا إمبراطورية ميديا وكان فرورتيش (٦٦٥ – ٦٣٣) قبل الميلاد أول امبراطور وجاء بعده ابنه هووخشتره. بحلول القرن السادس قبل الميلاد تمكنوا من إنشاء إمبراطورية ضخمة امتدت من ما يعرف الآن بأذربيجان إلى آسيا الوسطى وأفغانستان. https://ar.wikipedia.org/wiki/ميديون

التركستان وأثرها الثقافي في العالم القديم

وقد كتب منتغمري ماكغفرن (Montgomery McGovern)في كتابه «تاريخ أباطرة الأولى في آسيا الوسطى» فصلاً طويلاً، وهذه هي الخلاصة: إن آسيا الوسطى بلاد لها أهمية كبرى تشمل كل نواحي البشرية العامة، وأن حياة أوربا السياسية والثقافية حتى الحياة في أمريكا مدينة لتأثيرات آسيا الوسطى الحياتية. حيث إن الخيول البرية قد تأهلت للمرة الأولى في سهول آسيا الوسطى، ومن هنا انتشر ركوب الخيل تدريجيًّا إلى بلاد أخرى. وطبعا إن السرج والركاب وغيرها من الأسباب التي لها علاقة بالخيول قد أخذت منشاها من تلك البلاد. وكان لبس السراويل مروجًا بين القاطنين في آسيا الوسطى منذ قديم، ولما شاع ركوب الخيل في بلاد أخرى شاعت عادة لبس السراويل أيضًا من آسيا الوسطى إلى سائر أقطار العالم.

وكذلك شاع الحذاء من هذه البلاد، وأخذ محل الخف والنعل (صندل) اللذان كانا يستعملان في بلاد أخرى في ذلك الوقت، وكان يصنع من جلد أو لبد، الأمر الذي يدل على أنه كان من صنع آسيا الوسطى القديم، ومن هناك شاع إلى بلاد العالم. وإن سكان آسيا الوسطى هم الذين أخذوا متأخرًا بترويج وضع النعال (مهماز) على الخف والأحذية.

والحفريات الأثرية التي أجريت من قبل علماء الآثار قد كشفت الغطاء عن وجه الحقيقة وأثبتت أن قاطني آسيا الوسطى القديمة، كانوا متحضرين ازدهرت فيهم الفنون التقليدية ازدهارًا عظيمًا، وأنهم ما كانوا بربريين كما كانوا يعتقدون من قبل ومن بعد، بل هم الذين

بذلـوا جهـدًا إلـى حـد بعيـد فـي ارتقـاء الفنـون فـي أوربـا مـن جانـب والصين والشرق الأقصى من جانب آخر.

وعلـى هـذا النمـط كان خدمـة آسـيا الوسـطى الإنسـانية فـي تاريـخ الثقافـة بالغـة جدًّا، حيث لعبت دوراً هامًّا في نقـل الخبـرات الثقافيـة مـن قطـر إلـى آخـر فـي العالـم القديـم، حيـث إن الخبـرات الثقافيـة كانـت تتبـادل بطريـق آسـيا الوسـطى، وهـي التـي أخـذت اختراعـات أوربـا ونقلتهـا مـثلا إلـى الصيـن، ومـن هنـا اسـتخدمت الاختراعـات الصينيـة وأعطتهـا لأوربـا، ولذلـك إذا اعترفنـا لأهميـة الهنـد والصيـن فـي بنـاء تاريخ العالم لنا أن نعترف تلك الأهمية لآسيا الوسطى أيضًا.

وهـذه هـي المثلـة التي تـدل علـى أن خدمـة أسـيا الوسـطى في توثيـق العلاقـات بيـن الغـرب والشـرق كان لهـا أثـر كبيـر في تطـور ثقافـة العالـم البشـري كلـه، وإن هـذا التبـادل كان مروجًـا ومنـذ قديـم قبـل تدويـن التاريخ.

وكان قاطنـو الشـرق الأدنـى والصيـن الشـمالي يسـتعملون العربـة والمحـراث، وإن سـكان كلتـي الناحيتيـن يزرعـون الحنطـة والـذرة والشـعير. هـذه الحقيقـة التي تـدل علـى أنـه كان هنـاك روابـط ثقافيـة بيـن كلا الشـعبين. وقـد كـون هـذه النظريـة الكشـفيات الأثريـة التـي وجـدت فـي Anau فـي آسـيا الوسـطى وتثبـت أن الحضـارة التي ازدهـرت هنـاك كانـت رابـط بيـن حضـارات الشـرق الأدنى والشـرق الأقصـى، وأن قسـمًا مـن بقايـا الخـزف التاريخيـة التي كشـفت في الصيـن الشـمالي تـدل علـى أن نفوذ الغرب كان فيه غالبـًا وقويًّا.

وكذلـك نـرى أن أثـر فتوحـات إسـكندر المقدونـي كانت شـعوب آسـيا الوسـطى جسـرًا عبـرت منه الدوافـع الثقافيـة الغربيـة إلى الشـرق الأقصـى،

وقد أسست في شمال أفغانستان اليوم مدرسة يونانية للفن تغلغل أثرها في نواحي شتى للتركستان، وقد وصلت منها إلى الصين إلى أحدثت انقلابًا في فن التصوير وصنع التماثيل هناك، والغالب أن التغير الضخم الذي أحدث في الموسيقي الصيني كان سببه نفوذ الموسيقي اليوناني.

وإن توريد الزجاج اليوناني عن طريق آسيا الوسطى إلى الإمبراطورية الصينية كان له أثرًا بالغًا في الحرفة الصينية، الأمر الذي أدى بطريق غير مباشر إلى اختراع الخزف الصينى. حتى إننا نرى أن في العصر السابع والثمن الميلادي قد ذهبت الأثاثات المنزلية كالفرشة والمقاعد والخوان إلى الصين. وكان ذلك بواسطة القبائل التركية القاطنة في آسيا الوسطى التي أحدثت تعديلاً عظيمًا في الحياة الصينية الأهلية. وفضلاً على ذلك قد ثبت أن النسطوريين نجحوا متأخرًا في تنصير عدد كبير من أهالي آسيا الوسطى، ومن هنا تغلغل النسطورون إلى الصين، وكان في القرن السابع الميلادي جماعة كبيرة من النصارى في عاصمة الصين.

وكان للفرس نفوذًا كبيرًا في الصين، وخاصة في ساحة الزراعة. وكان هذا أيضًا عن طريق آسيا الوسطى، وكانت الصين تستورد الفلفل والكرمة وشجرة العنب من بلاد إيران عن طريق تلك البلاد، وكان ذلك في العصر الثاني قبل الميلاد. وإننا نرى في العصور المتعاقبة أنَّ كثيرًا من النباتات المزروعة تجتاز من وراء آسيا الوسطى إلى بلاد الصين، وتحدث انقلابًا وتغيرًا عظيمًا في حياة الصين الاقتصادية، وكذلك كان لنفوذ إيران نصيب وافر في رقي أسلحة الصين الحربية، والمذهب الماني الذي ظهر في إيران في العصر الثالث الميلادي وكان رقيبا للنصرانية في آسيا الوسطى وكذلك في

الصين، حيث تعاقبت هناك وثبتت أقدامه في جنب النصرانية.

وكذالك كانت المناقلات بين الهند والصين قد أخذت طريقها لا مباشرا، بل عن طريق آسيا الوسطى أو عن طريق البحر.

وقد نشر مذهب بوذا من مسقط رأسه إلى بلاد الصين وبلاد أخرى في الشرق الأقصى عن طريق بلاد آسيا الوسطى، وإن العناصر الذين بدلوا أهالي الصين إلى مذهب بوذا كانوا أهالي آسيا الوسطى وخاصة الأيغوريون لا الهنود أنفسهم، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور اختلاف بارز في أشكال مذهب بوذا بين الهند والصين، وكان قد أثر في تغيير الحياة الثقافية لكل شعوب الشرق الأقصي تقريبًا.

نفس الفترة التي كانت بلاد الصين تقبل الميزات الثقافية من أوربا والشرق الأدنى والأوسط عن طريق آسيا الوسطى، كانت هي نفسها ترسل حضارتها عن نفس الطريق إلى الغرب، وإن قسمًا من النباتات الصينية المزروعة كالخوخ والمشمش كانت تنتقل منذ قديم عن طريق آسيا الوسطى والفرس إلى بلاد أوربا، وكذلك الزنجبيل والشاي متأخرًا.

والطريق الحريري المعروف من الصين إلى الروم قد جاوز من بلاد آسيا الوسطى، وقد شق الحرير الصيني طريقه منها إلى بلاد الروم، وقد حاز شهرة عظيمة في تلك البلاد في أوائل عصر الإمبراطور أغسطس. ثم إن النزاع لقبض هذا الطريق قد أدَّى إلى تبدلات سياسية هامة. والخزف الصيني أيضًا تعاقب الحرير عن هذا الطريق في عصور متأخرة.

ومنذ بدء الاختراعات كانت العلاقات بين الصين والغرب عن طريق آسيا الوسطى ليست بأقل من العلاقة السابقة، وكانت الصين

قد اخترعت صناعة الورق في العصر الثاني للميلاد التي قد انتشرت في العصر الثامن الميلادي إلى بلاد آسيا الوسطى، وسرعان ما أخذها العرب الذين تنقلوها بنويتهم إلى الغرب، ثم تعاقب صنع عملة ورقية صناعة الورق. وقد نشرت هذه العملة الورقية في العصر الثالث بواسطة المغول بين شعوب آسيا الوسطى الذين حكموا كلتي البلاد.

وفضلاً على أن بلاد آسيا الوسطى قد لعبت دوراً هامًّا في تاريخ البشر الثقافي، حيث كانت مركز نشاط لكثير من الرسوم والعادات والفنون، ووسيطة بين مراكز الثقافات الهامة للعالم القديم.

إن الدور الهام الذي قد لعبته في تاريخ العالم السياسي لا يقل أهمية، وكان ذلك نتيجة لتلك المهاجرات والغزوات المتوالية التي أجراها الشعوب القاطنة في آسيا الوسطى ومسقط رأسهم.

وكان الإسكيت والهون أشهرهم وأقدمهم، وهم الذين قد انشعبت فروعهم من بلاد التركستان إلى أقطار العالم وخاصة إلى البلاد المجاورة. وقد أعانت الإسكيت في الغرب بلاد روسيا الجنوبية وأوربا المركزية، وفي الشرق بلاد الصين الشمالية، الأمر الذي أدى إلى قيام علاقة غير مباشرة بين الصين والأوربيين بواسطتهم، وكان هذا الهون على غالب الاحتمال أخلاف الإسكيتيين الذين أغاروا منذ فجر التاريخ سهول بلاد الفرس وتغلغلوا إلى الشمال الغربي من بلاد الهند.

والبارتيون الذين حكموا بلاد الفرس خمسة عصور تقريبًا من ٢٤٧ قبل الميلاد إلى ٢٢٧ بعد الميلاد كانوا أنموذجًا كلاسيكيا للطائفة من الإسكيتيين الذين زحفوا متجهين إلى الجنوب، وأسسوا

حكومتهم على سهول بلاد الفرس الزراعية.

وفـي أثنـاء الفتـرة الطويلـة التـي حكـم البارتيـون بلاد الفـرس فيهـا سـقطت الهنـد الشـمالية فـي أيـدي طائفـة أخـرى مـن الإسـكيتيين الذيـن يعرفـون عمومـا بالهنـدو- الإسـكيتي Indo– Segitian وحـكام هـذه الطائفـة فـضلاً علـى أنهـم كانـوا أباطـرة تسـتحق الذكـر والشـهرة، يعاضـدون الفنـون عضـدًا كاملاً. ويرجـع ازدهـار شـكل جديـد مـن الفنـون والآداب لتعضيدهـم لهـا، التي أحدثـت متاخـرًا فـي الحضـارة الأسـيوية أثـرًا بالغًـا وثابتًا.

وقـد بنـت الصيـن السـد الصينـي سـنة ٢١٤ قبـل الميـلاد لصـد غـارات الهـون الذيـن كانـوا يقطنـون فـي بلاد المغـول، وأسسـوا فـعلاً إمبراطوريـة متحـدة دامـت ثلاثـة مائـة وخمسـين عامًّـا (مـن ٢١٩ قبـل المـيلاد إلـى ١٦٠ بعـد المـيلاد) وهـم الذيـن تنافسـوا تنافسًـا مـع الصيـن لمـدة طويلـة لحصـول قيـادة الشـرق الأقصـي وسـيادته، الأمـر الـذي أدَّى فـي النهايـة إلـى تأسـيس سـيادة الهـون الخـاص أولاً والتورانييـن متعاقبًـا إلـى الصيـن الشمالية كلها، وقد دامت سيادة هذه الأخيرة إلى سنة ٥٨١ الميلادى.

ثـم مـن سـنة ١١٢٠ إلـى سـنة ١٢٧٨ حكـم الصيـن الشـمالية بربريـو الحديـد وبربريـو الذهـب (علـى اصـطلاح الصيـن) ثـم تعاقـب اسـتيلاء جنكيزخـان. وفـي سـنة ١٢٧٨ اسـتولى قـبلاي خـان علـى الصيـن الجنوبية التي كانـت تعيـش مسـتقلة حتـى تلـك السـنة، وبذلـك وقـد دامـت حكومة المغـول إلـى سـنة ١٣٦٨ . ثـم إننـا نـرى طائفـة أخـرى مـن الطورانييـن، وفـي هـذه المـرة المنشـوريون يجيئـون مـن أقصـى الشـمال ويقبضـون زمـام أمـور الإمبراطوريـة، وقـد حكمـت هـذه الطائفـة الـبلاد حتـى سنة١٩١٢ .

والقبائل الهون والشعوب التورانية الأخرى التاريخية لا ينحصر في الشرق الأقصي وحده، بل يمتد إلى سهول بلاد الفرس حيث إنهم (أي: فرعهم باسم الهون البيض) شيدوا بنيان سلطتهم على كل بلاد تركستان واصطدموا مع الساسانيين وأكرهوهم على أداء الخراج بعد أن قتلوا ملكًا من أقدر ملوكهم سنة ٤٨٤ الميلادى.

وفي العصر السادس الميلادي أخذ الأتراك الذين كانوا ينتسبون لهم انتسابًا قريبًا جدًّا نسلاً ولسانًا، موضع الهون الخاص في بلاد تركستان. وكان خطر هذه الأتراك لبلاد الروس ليس بأقل من أسلافهم الهون، حتى جاء في سنة ١٠٤٠ أتراك السلجوق المعترك، فأغاروا تلك البلاد ونجحوا في تأسيس سلطتهم حتى في بلاد الشرق الأدنى.

وفي سنة ١٢١٨ أخذ المغول موضع السلجوقيين، وكانت بلاد الفرس جزء لا يتجزا من الإمبراطورية المغولية لمدة عصر وزيادة، وبعد أن ضعفت الإمبراطورية المغولية أخذ موضعها تيمور الكبير، فأسس سيادة التورانيين في بلاد الفرس مرة أخرى، وقد حكمت بلاد الفرس من سنة ١٧٥٠ إلى ١٩٣٢ من قبل التورانيين تمثلت في هذه المرة بقبيلة القايمار التركية.

وإن بلاد الهند أيضًا ما نجت من غارات الهون، وقد نرى أن فرعًا من الهون الأبيض تجتاز المعابر الجبلية إلى الهند وتدمر إمبراطورية جوبتا العظيمة، وسرعان ما تفشت سلطة الهون، ولكنهم قد تركوا هناك أثرًا ثابتًا في شخصيات السلالة الحاكمة هناك، حتى أن كثيرًا من العلماء يعتقدون أن أسرة راجبوت وأسرات أخرى الذين يمثلون أرستقراطية الهند ويتباهون بها ما جاؤوا من أسلاف الهند الأرسطقراطية، بل كانوا من أخلاف أولئك الهون المحاربين.

ثـم إن قصـة غـارة التورانييـن إلـى بلاد الهنـد لا تتـم هنـاك، بـل إن التيـارات التورانيـة التـي شـاعت متعاقبًـا قـد تركـت أبعـد الأثـر وأبلغهـا وأثبتهـا، وخاصـة إن اعتنـاق أتـراك تـوران الإسلام كان لـه أثـرًا بالغًـا فـي تغييـر مصيـر الهنـد. وبـدءاً مـن ١٢٠٠ إلـى تأسـيس سـلطة إنجلتـرا فـي القـرن الثامـن عشـر الميـلادي فـي الهنـد، السلالـة الإسلاميـة الجنبيـة التـي حكمـت الهنـد كانـت أكثرهـم مـن أصـل تركـي تورانـي، وقـد دامـت هـذه السلالات باسـم المغـول مـن سـنة ١٥٢٦ مباشـرًا ولـو بالاسـم إلـى سـنة ١٥٢٦م.

وقـد درسـنا إلـى هـا هنـا أثـر غـارات الهـون أو التورانييـن فـي ارتقـاء أمـم آسـيا ونشـوئهم التاريخـي كمـا اعتـرف بذلـك مـن قبـل داروا التاريـخ عامـة، ولكـن هنـاك سـاحة أخـرى التـي قـد أثرهـا غـارات التورانييـن بصـورة غيـر مباشـرة التـي لا تتجلـي جليًّـا عنـد أنظارنـا، وكثيـرًا مـا أهملـت، وكانـت تلـك السـاحة بلاد أوربـا. وإنـا نسـتطيع أن نقـول أن تشـكل جغرافيـة أوربـا السياسـية الغابـرة حتـى الحاضـرة كان نتيجـة لتيـارات شـعوب التورانييـن الذيـن تغلغلـوا فـي العصـر الرابـع إلـى قطعـة أوربا.

إن سـقوط إمبراطوريـة رومـا وارتفـاع الشـعوب الجرمانيـة إلـى غـرب أوربـا ونـزول الشـعب السلافيـة إلـى أوربـا الجنوبيـة وإحيـاء كلاسـيكيات أوربـا الغربيـة وتجديدهـا، وأخيـرًا السـفر البحـري الـذي أدى إلـى كشـف العالـم الجديـد كانـت مـن الحـداث الهامـة التـي أدَّت إلـى تشـكل بلاد أوربـا كمـا نعلمهـا اليـوم، وكان فـي المنظـر الخلفـي لـكل هـذه الأحـداث الخطيرة تتواري زرافات آسيا الوسطى وتياراتها[١].

[1] William Montgomery McGovern، The Early Empires of Central Asia: A Study of the Scythians and the Huns and the Part They Played in World History. P.11

وإن آسيا الوسطى جاءت النواة التي قلبت إمبراطورية روما. وإن مهاجرة القبائل الجرمانية إلى الغرب كانت مصادفة على هجوم الهون من الشرق في نفس الوقت وفي نفس الموضع. وإن أقوام الجوتة الشرقية الذين استوطنوا في جنوب روسيا جاؤوا تحت حكم الهون وهم أكرهوا أن يصحبوا الأسيوية كمساعدين وملحقين إلى ثغور إمبراطورية روما. وأقوام الجوتة الغربية الذين أغاروا روما ودخلوها بعد أن هزمهم زرافات الهون، وبعد مائة عام قد ظهر أخلافهم الأواريون في الميدان فجأة وكانوا حركة سلافية، وساقوهم إلى وراء ثغور روما، كان أولئك السلافيون المساعدون وآريون هم الذين استوطنوا في بانونيا[١] Pannonia ونوريكوم[٢] Noricum والذين يعتبرون أسلاف سلاف اليوم، كذلك الكروت والصربيون وأقوام الجوتة الغربية أجاز لهم الإمبراطور هرقلوناس أن يستوطنوا في داخل حدود بلاده في القسطنطينية بعد هزيمتهم من قبل الهون.

وكان البلغاريون قوم آخر من آسيا الوسطى، قد حولوا قسما من إمبراطورية روما الشرقية إلى قوم سلافي.

وإن مجيء المجر أو الهنجاريين إلى قلب وادي داينوب في العصر التاسع كان سببا في هدم أي فرصة للسلافيين في تشكيل ورقي إمبراطورية متحدة دينًا ولغةً وأدبًا الغاية التي كانوا يرمونها من قبل،

---

[١] بانونيا: كانت مقاطعة تابعة للإمبراطورية الرومانية يحدها من الشمال والشرق نهر الدانوب، وتتزامن غربا مع نوريكوم وإيطاليا العليا، وجنوبا مع دالماسيا ومويسيا العليا. كانت بانونيا تقع في الإقليم الذي يقع الآن غرب المجر وغرب سلوفاكيا وشرق النمسا وشمال كرواتيا وشمال غرب صربيا، وشمال سلوفينيا ،وشمال البوسنة، والهرسك. https://en.wikipedia.org/wiki/Pannonia

[٢] نوريكوم: هو الاسم اللاتيني للمملكة أو اتحاد القبائل شمل ذلك معظم النمسا الحديثة وجزءا من سلوفينيا. في القرن الأول الميلادي، أصبحت مقاطعة تابعة للإمبراطورية الرومانية. كانت حدودها هي نهر الدانوب من الشمال، ورايتيا وفينديليتشي من الغرب، وبانونيا من الشرق والجنوب الشرقي، وإيطاليا (فينيشيا وهيستريا) من الجنوب. تأسست المملكة حوالي عام ٤٠٠ قبل الميلاد، وكانت عاصمتها في المقر الملكي في فيرونوم على ماغدالينسبرغ. https://en.wikipedia.org/wiki/Noricum

وقد فشلت منذ ذلك العهد[١].

وبانقسام الصقالبة[٢] إلى القسم الشمالي والجنوبي قد تمت سلسلة من الأحداث في تاريخ أوربا، وكان ذلك نتيجة ناجمة للغارات التي شنتها الشعوب الأسيوية الذين جاؤوا إلى أوربا من شمال البحر الأسود.

وفي نفس الوقت الذي كان أولئك المهاجمون المتأخرون الذين استوطنوا في بلاد المجر منهمكين في تشكيل دولتهم في البلاد، هاجر زرافات أخرى من آسيا الوسطى إلى بلاد الغرب وقد اجتازوا في هذه المرة شريطًا آخر، وكان ذلك من جنوب البحر الأسود إلى آسيا الصغرى ومن هنا وعن طريق مضيق مرمرة، وما كانت هذه الزرافات الأتراك السلجوق الذين أسسوا دولتهم في سهول آسيا

---

[1] Montigomery Malkegorn The History of Early Empires of Central Asia. P. 13.

[٢] أطلق العرب تسمية الصقالبة على أسلاف الشعب السلافي القاطن في روسيا حاليا، وقاموا بالتفريق بين الصقالبة السلاف بينهم وبين قبيلة الروس (المنحدرة من الجرمان الفايكنج) وبين قبيلة البلغار التركية، وقد أطلق الصقالبة أو السلاف الشرقيين لاحقا تسمية روسيا علي بلدهم تيمنا في دولة كيفين روس (أوكرانيا حاليا) التي أسسها الفايكنج الإسكندنافيين، كانت قبيلة الروس قبيلة جرمانية إسكندنافيه من الفايكينج التي حكمت أوكرانيا، بينما الشعب الروسي الحالي ينحدر من الشعب السلافي الشرقي (الصقالبة) ولا علاقة لهم بقبيلة الروس أو الجرمان الإسكندنافيين، وتتدعي دولة بلاروسيا ودولة روسيا أنها وريثة حضارة دولة كيفين روس رغم انها كانت تقع في كييف عاصمه أوكرانيا حالياً. إن اصل كلمة الصقالبة مأخوذة من صقلب، أما في اللغة الصقلبية فهي سلافينو وكانت في الماضي تعني أهل تلك البلاد وعرفت في اللغة اليونانية باللفظ. وهي تعني المعنى السابق نفسه واستمرت هذه التسمية حتى القرن الأول الهجري السابع الميلادي ومن ثم أصبحت تدل على معنى العبد، وهذه التسمية كانت معروفة لدى العرب لاسيما بعد دخول المسلمين في معارك مع الدولة البيزنطية الذين كانوا يعتمدون فيها على الكثير من العبيد الصقالبة.

وأطلق الجغرافيون العرب هذا المصطلح على الشعوب السلافية، والبلغار والقوقاز والمناطق القريبة من نهر فولكا وهم من الجنس الآري أو الهنداوربي الذين امتازت حضارتهم بالمستويات المتدنية مقارنة مع الحضارات المعاصرة لهم حتى القرن العاشر الميلادي اذ توسعوا نحو غرب وجنوب أوروبا حيث تأثروا بالحضارات الأخرى واثرت بهم، وأصبحوا أكثر تحضراً مما سبق. وفي الإسبانية أطلق على كل عبد ابيض من السلاف بـ صقلب ومنها اشتقت كلمة الصقلبي والصقالبة وتوسعوا في هذه التسمية في هذه التسمية فأطلقوها على كل من يجلب من اية دولة نصرانية اصحاب البشرة البيضاء كما أطلق عليهم الخرس وذلك لعجم السنتهم وعدم اجادتهم اللغة العربية. https://ar.wikipedia.org/wiki/صقالبة_(الأندلس)

الوسطى سنة ١٠٧٠ على أنقاض السامانيين الفرس وهم شنوا الغارة على إمبراطورية بيزنطين، وبعد استيلائهم على قسم كبير من آسيا الصغرى حولوا الأوربا الثقافية إلى الأوربا الجغرافية المحددة.

وبعد أن وهنت سلطة السلجوقيين أخذ موضعهم قوة جديدة من سهول آسيا، ألا وهي أتراك العثمانيين بعد فترة قليلة على ظهورهم قد سقطت في أيديهم كل بلاد البلقان الأوربية، ومن جملتهم بلاد قسطنطينية التي كانت مركز ثقافة أوربا، وكان نتيجة هذا الاستيلاء امتدت ثقافة آسيا إلى أوربا الجغرافية، التي قد امتدت ثقافتها من قبل إلى آسيا.

وإن استيلاء القسطنطينية من قبل أتراك العثمانيين في سنة ١٤٥٣ كان نقطة التحول ذات أثر بالغ في تاريخ أوربا، بدأ سقوط روما إلى سقوط قسطنطينية كان مركز الثقافة الأوربية، وكان الشرق لا الغرب مركز ثقافة أوربا منذ سقوط روما إلى سقوط قسطنطينية. وإن أهالي بلاد أوربا الغربية قد علموا من جديد بمفاخرهم القديمة بتوسط العرب الذين قد التقوا مع علماء اليونان في الشرق الأدنى قبل أن يدخلوا بلاد إسبانيا، وما جاءت القوة الثقافية مباشرًا من قسطنطينية إلى روما في بلاد أوربا، بل جاءت من طريق آسيا الصغرى وأفريقا الشمالية وإسبانيا، وكانت هذه الثقافات قد أثرت على نصارى تلك السلطنة، ومن هنا جاوزت.

والحاصل أن استيلاء الأتراك على قسطنطينية جاء بالتغير الذي لم يتوقع، حيث إن كثيرًا من العلماء الذين كانوا قد توطنوا في بلاد بيزانطين هربوا إلى مدائن شتى في بلاد أوربا الغربية حينما استولى الأتراك عليها، حيث توطنوت هناك وخاصة في بلاد إيطاليا التي كانت قريبة منهم ومألوفة لهم، وكان هناك في بلاد الغرب يقظة قومية

فـي النهضـة العلميـة نتيجـة علـى فتوحـات الأتـراك المباشـرة وهجـرة علماء بيزنطين إلى تلك البلاد.

وإن كشـف أمريـكا أيضًـا كان مـن الأحـداث الهامـة التـي أدت إليـه هجـرة الأتـراك، حيـث إنهـم بعـد أن اسـتولوا علـى قسـطنطينية قبضـوا الطـرق التجاريـة التـي تبادلـت منهـا الحريـر والتوابـل والأقمشـة، والقوافل التجاريـة كانـوا يذهبـون مـن طريـق البـر الأسـيوي إلـى بلاد الصيـن والهنـد قـد توقفـت، الأمـر الـذي دفـع التجـار الأوربييـن أن يتوصلـوا إلـى الطريـق البحـري فـي الجنـوب، وهـذا دفـع كولمبـوس متأخـرًا أن يبحـر يقصـد الصيـن ولكـن يصـل إلـى أمريـكا ويكتشـفها بغيـر قصـد. وفـي نفـس الوقـت إلـى افتتـاح الطريـق البحـري فـي الجنـوب إلـى بلاد الشـرق الأقصـى الـذي لعـب دوراً هامًّـا فـي بسـط نفـوذ الوربييـن وتفوقهـم فـي الشرق.

وكان هـذا هـو الـدور الـذي لعبـه قاطنـوا بلاد التركسـتان القدمـاء فـي تاريـخ البشـر وتاريـخ حضارتهـا وثقافتهـا، فـي بلاد آسـيا وأوربـا، وإننـا نجـد هنـاك اليـوم فـي بلاد آسيا وإيـران والهنـد الشـمالي والشـرق الأدنـى وأوربـا الشـرقية والشـمالية أقوامًـا وشـعوبًا مـن بقاياهـم يفتخـرون بـأن أجدادهم قد جاؤوا من هناك.

قـد تميـزت وتحولـوا أنفسـهم إلـى قوميـة أخـرى، ولكـن يعلمـون أنهـم ينتمـون إلـى جنس تورانـي ثابتـة بشـواهد مـن التاريـخ. ومنهـم المتجولـون مـن بقايـا الهـون فـي الشـرق فـي الوديـان الشـمالي لجبـال القفقـاس كقبائـل الياقـوت فـي بلاد سـيبريا، وبعـض القبائـل فـي باميـر، وشـعب المجـر في مجرسـتان والبلغـار واللـب Lapps والفـن والأسـتونى وغيرهـم مـن الشـعوب وقبائـل شـتى فـي بلاد أوربـا وآسـيا تسـتحق الذكـر، وقـد شـكل بعضهـم دولاً مسـتقلةً وقوميـات مسـتقلةً ويعيشـون حـرةً فـي رقـي

وسلم وأمان[١].

العلاقة الثقافية بين تركستان وسوريا

ويقول المؤرخ الشهير (Arnold J. Toynbee) أرنولد توينبي: «إذا أشرنا إلى مهد الأديان السامية أنها تمركزت في قطعتين صغيرتين من السطح الأرضي الكلي للعالم القديم. وهذه هي حوضة جيحون وسيحون من جانب وسوريا من جانب آخر. وكانت حوضة جيحون وسيحون مهد ماهايانا Mahayana، وكان ذلك بشكل قد يفشي هذا الدين من هنا إلى أقطار العالم الشرقي الأقصى، وكانت هي قبل ذلك مهد مذهب زرادشت، كما نعلم أن علماء الغرب قد اجتعموا عامة لهذا الرأي ولو أنهم يمكن أن يختلفوا في تثبيت التاريخ لشروع النبوة من قبل زرادشت المتبني[٢].

ثم يقول توينبي مستطرداً: كيفما توضح هذه الحقائق الجالبة للنظر؟ وإذا نظرنا إلى خصوصيات جيحون وسيحون وسوريا، وقارنًا كل واحد منهما بالآخر يتمثل في نظرنا مظاهر تتجلى بارزة في كلتيهما، والتي لعبت دوراً تاريخيًّا هامًّا في نشوء الأديان الشهيرة الأصلي.

وهذا ظاهر أن المماثلة في تواريخ ماكانت نتيجة لنفي اللعبة غير الطبيعية، بل كانت نتيجة التشابه الأصلي بين مواقعها الجغرافية.

و أن هذه المظاهر البارزة المشتركة بين سورية وجيحون لها مظاهر مستظرفة أعطتها الطبيعة لكل واحد منهما، وكانت سورية مثلا شأنها كشأن مركز مستدير يدور حوضة المناقلات التي تجئ

[1] Montigomery Malkegorn, The History of Early Empires of Central Asia16.

[2] Arnold J. Toynbee. 895/.

من أي نقطة من البر وبأي عدد متناوب ومتلاص ومتغاير وفي هذا المركز المستدير لسورية تلاقت الطرق التي جاءت في حوضة النيل ومن البحر الأبيض المتوسط ومن أناطوليا وكذلك من البلاد الواقعة فيما وراء قارة أوربا الكائنة في الجنوب الشرقي. ومن حوضة دجلة وفرات وسهول بلاد العرب التي تكاد تتمثل في بادئ النظر جغرافيا الإنساني كبحر بلا ماء. وتثبت هذه الواقعة من خصائصها التي تشبه التيارات الثقافية البحرية.

وكذلك الحال بالنسبة لآسيا الوسطى كمركز مستدير، حيث تجمعت حولها الطرق التي تجئ من حوضة دجلة فرات، مارة المرتفعات الإيرانية، ومن الهند عابرة الممرات هندوكش، ومن الشرق الأقصى مجتازة حوضة تاريم، ومن أوربا آسيا المتلاصقة التي تشكلت وتوارثت خصائص البحر الأبيض المتوسط الجديد الجاف الذي ثبت وجوده الماضي من المذكرات الأثرية الباقية في بحر الخرز وبحر أرال وشبيل بالقيش[١].

وإن آسيا الوسطى الجغرافية وما بينهما كنقطة التلاقي الثقافي كاد يكون ذات تأثير فعَّال، إذا كانت هناك بوجود ماضيات سورية بصورة فائقة.

وكانت حوضة سيحون جيحون مركز اجتماعات بين حضارات سورية والهند من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الثامن بعد الميلاد، وبين سورية والهند والهللني والصين من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعد الميلاد؛ وبين حضارات سورية وحضارات المركز من البلاد الشرقي الأقصي وللفوصيل التنتاري المباياني البوذي بحضارة الهندية الممتازة التي وجدت في ذلك

---

[١] نفس المرجع، ص ٩٢.

الوقت، من الخامس بعد الميلاد إلى القرن الثالث عشر[١].

وإن تسلسل هذه الاجتماعات بين الحضارات المتغايرة في سوريا وفي أرض آسيا الوسطى، التي أنتجت الثمرات الروحية في ظهور المذاهب العالية قد سجل وجوده في الميدان السياسي بواسطة الاندماج المكرر، كل واحد من هاتين الناحيتين خاصة، في الدول العالمية، أو في إمبراطوريات أخرى التي انهمكت في الأعمال الاجتماعية التي تركت في الميدان من قبل هذه الحضارات المتحركة في مجري تاريخهم[٢].

وهذه الأنموذجة السورية للتاريخ السياسي تكرر نفسها في سقى جيحون سيحون، ذلك إما تشكل دولة مديا أو دولة الفرس المستخلفة لإمبراطورية الآثورية التي استخلفت هذه البلاد الثغورية من سلطة الإسكيتيين البدويين في القرن السادس قبل الميلاد.

وإن سقى جيحون سيحون يتجلى في التاريخ بأكمله حيثما يحل جزءًا من الإمبراطورية، ولكنه عجز عن تمثل استقلاله حينما قضت تلك الإمبراطورية بيد الإسكندر المقدوني.

وأن الأمراء في نفور باكتريا وسغديا ما أمكن لهم أن يستغلوا في كفاحهم الجرئ الذي شنوه على المهاجمين المكدونيين من المهارة التي استعملت في قبض الثغور الواقعة في الشمالي الشرقي لبلاد روسية ضد الأوار الأسيويين البدويين، بل كانوا مدفوعين بعد قتال شديد أن يخضعوا للمهاجمين المقدونين بشروط. ثم مضت بلادهم بعد موت الإسكندر المقدوني إلى يد السلوسيين. ولأجل الاستقلال السياسي حارب الإيرانيون في سنة ٣٣٥-٣٢٨ قبل الميلاد قد حصل

---

[١] نفس المرجع، ص ٩٢.

[٢] نفس المرجع، ص ٩٢.

متأخـرًا فـي سـقى جيحـون سـيحون بعـد تسـعين عامًّـا، ولكـن هـذا الاستقلال ما حصل بيد سكان البلاد المحليين كان قصير العهد.

وفـي الرابـع الثالـث مـن القـرن الثالـث قبـل المـيلاد كان المحافظـون الإغريقيـون فـي سـقى جيحـون سـيحون قـد انقطعـوا عـن الهيئـة الرئيسـية للإمبراطوريـة السلوسـية، وكان ذلـك بسـب غـزو البارثييـن علـى كفـة الواقعـة فـي الشـمال الشـرقي لمرتفعـات إيـران، وبجانبـي الطريـق الكبيـر الواقـع فـي الشـمال الشـرقي ومـن البابيلونيـا. فلذلـك أسسـوا فـي الولايـة السلوسـية إمـارة إغريقيـة مسـتقلة ومحليـة لأنفسـهم. ولكـن قـد ألحـق هـؤلاء الأمـراء المحلييـن مـن باكتـر مـا بعـد جيليـن سـقى جيحـون سيحون إلـى الهيئـة السياسـية الوسـيعة. وقـد تم ذلـك بعبورهـم هندوكش حوالـي سـنة ١٨٣ قبـل المـيلاد وبإلحـاق الأراضـي الواقعـة فـي الشـمال الغربـي مـن الإمبراطوريـة السـورية الهنديـة. ثـم لـو أن سـقى سـيحون وجيحـون وحـدة سياسـية علـى حـدة، لوقـت مـا، ولكـن بعـد انقضـاء نصـف قـرن لفتـح الباكتريـن الإغريقييـن الأراضـي الهنديـة الواقعـة فـي الشـمال الغربـي شـنَّ المهاجمـون السـاقائيون والكوشـانيون البدويـون الغـارة علـى أراضيهـم الواقعـة فـي جانـب الشـمال الغربـي لهندوكـش، ثـم إن هـؤلاء الكوشـانيون قدمـوا علـى أثـر أسلافهـم عـن الإغريقييـن حيـث قـد عبـروا أخيـرًا بنوبتهـم هندوكـش وألحقـوا الهنـد الشـمالي الشـرقي إلـى ممتلكاتهـم فـي آسـيا الوسـطى وقـد تـم هـذا فـي فتـرة القـرن الأول بعد الميلاد.

ثـم أن هـذا الاتحـاد السياسـي الجديـد بيـن سـقي جيحـون سـيحون و أسـقياء السـند وكسـنجه الـذي تـم بيـد مؤسـس الإمبراطوريـة الكوشـانية كانشـكا حوالـي سـنة ٧٨-١٢٣ بعـد المـيلاد قـد وثـق بإلحـاق سـقى تاريـم الواقعـة فـي الامتـداد الشـرقي لسـقي جيحـون سـيحون والـذي كان

تحت حكم الصين من سنة ١٥١ قبل الميلاد إلى ١٦ بعد الميلاد، وكانت السلالة الحاكمة في الصين في ذلك العهد سلالة هان القبلية سنة ٧٣ و ١٠٢ بعد الميلاد ثم يظهر أن في فترة القرن الثاني الميلادي كان سقي تاريم توزعت بين الكوشانيين وسلالة هان البدوية.

ولكن سرعان ما كانت حالته كنفس حالة سقي جيحون – سيحون حيث أعاد استقلاله المحلي بعد أن تدهورت السلطة الكوشانية في القرن الثالث بعد الميلاد. ولكن بعد ما مضى زمن هذه السلطة الكوشانية من تلك البلاد حتى أخذت محلها تيارات أوربية من المهاجمين البدويين، وهم كانوا أتراك الهون اليفتاليين الذين تدهوروا في القرن السادس وتركوا محلهم إلى تيارات أخرى من الأتراك. وكان سقي جيحون – سيحون قد اندمج مرة ثانية مع دولة عالمية وكان ذلك إلحاقه في القرن الثامن للخلافة العربية. ومنذ ذلك العهد مازال تاريخ البلاد السياسي يغير وضعه ويتكرر بعين الوتيرة. ثم بعد أن أمضى كل من عهد السمانيين والسلجوقيين والقراخطائيين والخوارزميين الذي كانوا خلفاء للعباسيين عاد سقي جيحون – سيحون في القرن الثالث عشر الميلادي تحت الحكم الإمبراطورية المغولية.

ولما ظهر تيمور وحرر البلاد سعى أن يجعل ماوراء النهر عاصمة لدولة عظيمة عالمية التي تتخامه كل السواحل في سهوب بلاد أور-آسيا، ولكنه فشل في مشروعه هذا، وكان سبب فشله تفشي قراره الحربية التي اعتمدت على الاستبداد، وكانت نتيجة هذا الفشل نجاح السلطة الموسكفية في البلاد ما وراء النهر في القرن التاسع عشر وتوسيع الإمبراطورية الروسية المنشعبة من النصرانية الأرثوذكسية وجعلها دولة عالمية على حساب هذه البلاد.

وفي الوقت الذي نكتب هذا الأثر، يشمل سقي جيحون – سيحون من ممتلكات الاتحاد الجماهير الاشتراكية السوفيتية الوارثة لإمبراطورية روسيا.

وقد ارتبطت بلاد آسيا الوسطى مع الأراضي السوفيتية الواقعة مواجهة في سواحل سهوب أور-آسيا بواسطة العلاقات الحديدية، ألا وهي السكك الحديدية التي أنشئت على ترانس كسبين (ماوراء بحر خزر) أورنبرغ-تاشكند، ترك-سيب، والتي ما تزال يضيفها قوة وشكيمة شرفي الصناعات في جماهير آسيا الوسطى الاشتراكية، يرام منها اتحادها وإلحاقها الأقسام الأخرى للاتحاد السوفيتي اقتصاديًّا وسياسيًّا.

وقد رأينا من هذا الاختصار أن سقي جيحون – سيحون قد اندمجت منذ القرن السادس قبل الميلاد في أربعة دولة عالمية متناوبة. وها هي الإمبراطورية... والخلافة الإسلامية، والإمبراطورية المغولية، وأخيرًا الإمبراطورية الروسية.

وإن ثلاثة أخرى من الإمبراطوريات وهي الدولة السلوسية والدولة الباكتريا الإغريقية والكوشانية أنجزوا كدولة عالمية الوظائف الاجتماعية والثقافية ولو أنهم ما ملكوا هذه الصفة تخنيكيا و فنيًّا، فلذلك ما كانوا يستحقون هذا العنوان.

ثم إن سقى تاريم المتاخمة الذي يعتبر امتدادًا لسقى جيحون – سيحون الشرق، قد اندمجت بالتناوب في الدول العالمية الثلاثة؛ إمبراطورية الهان، والإمبراطورية المغولية، والإمبراطورية المنشورية وكذلك الممتلكات الكوشانية.

وكانت سورية قد اندمجت على الأقل مع ثمانية دول عالمية؛ –

الإمبراطورية السلوسية، والإمبراطورية الوسطية، وإمبراطورية مصر الجديدة، وإمبراطورية بابليون الجديدة، وإمبراطورية الروم، والخلافة العربية، والإمبراطورية العثمانية وأخيرًا منذ سنة ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤ مع الدولة العربية المتحدة المصرية[١].

وإن تركستان أو آسيا الوسطى في غضون هذه القرون كانت همزة وصل بين الشرق والغرب مضت منها الثقافة والحضارة من بلد إلى أخرى حتى أشرقت شمس الإسلام فأضاء تلك البلاد بنورها الوهاج، فلم يمض زمن حتى تغلغل جنود الإسلام إلى أقاصي تركستان من جانب، وإلى أقاصي الهند من جانب آخر فنشر الإسلام وانتشر علمه وثقافته كما انتشرت حضارته وتجارته في أرجاء بلاد الشرق وتركستان تلعب دورها في كل هذه كهمزة وصل بين الشرق والغرب.

قام العرب بسلطانهم في إيران نحو مائة وخمسين سنة، ثم تحوَّل الأمر بيد الفرس والأتراك وهم يخدمون كمسلم، فخلص لأجل الإسلام ولأجل رقية ورقي ثقافته وحضارته حتى بلغت المملكة الإسلامية التي امتدت ثغورها من صحراء كوبي إلى ثغور بيزانطي في أسيا الصغرى قمة مجدها تحت نصرتهم وفتوحهم. والتركستان يخدم لها كمصدر الطاقة والإنسان وجنودها: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

ومن الحقائق المبرهنة التي لا شكَّ أنها وجدت بين آسيا الوسطى وبلاد الشرقي الأوسط علاقات عريقة ثقافية وتجارية وسياسية ترجع

---

[١] صفحة ٧٩ مفقودة.

[٢] سورة الزخرف. الآية: ١٠.

تاريخ بدئها ونشوءها إلى عهد غابر قبل الميلاد. وقد قضى الأسكوبيون وظائفه الثقافي في تغلغلهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وإلى بلاد فلسطين العتيقة متوجهين من الشمال أي من بلاد آسيا الوسطى. وذلك بعد أن استولوا على البلاد الآشورية في غرب فرات حوالي سنة ٦٣٧ قبل الميلاد بقيادة زعيمهم الملك برطوطة وحكم ابنه مديس Maayes تلك البلاد ثمانية وعشرين سنة وبنى في أرض فلسطين مدينة سموها مدينة سكيثوبوليس Scythopolis التي توجد الآن باسم بيث شين أو Beth Shan أو بيسان القديمة[١].

وبسط الإيرانيون نفوذهم السياسي والثقافي في كل من بلاد الشرق الأوسط في الغرب وآسيا الوسطى في الشرق ردحًا طويلاً من الزمن، ثم جاء دور الإغريق فتغلغلوا عن طرفي تلك البلاد (سوريا وما بين النهرين) إلى إيران، ومنها إلى تركستان ثم إلى الهند، وهم قاسوا سلطانهم قرنين ونصف قرن، ثم أخذ الإيرانيون والأتراك (ياوجيلار) ثم الهياطلة (الهون الأبيض) محلهم.

تركستان القديم

«الطريق الحرير» وأثره في تاريخ الحضارة:

وإن هذا الطريق عبارة عن خط مرسوم طويل، بدأ من داخل الصين ويمر من عدة صحارى خالية من النبات والماء، مليئة بالوحوش من الحيوان والسباع وسلاسل جبال صعبة المرور والتسلق لا يستطيع الإنسان عبورها إلا بعرض النفس للمخاطر، أمثال صحراء جوبي وتكليماكان في تركستان الشرقية، وصحارى قزيل قوم وقارا قوم في تركستان الغربية وصحراء مازندران في إيران، وجبال تنغريتاغ

[1] History Vol. III PP 146-190

وباميـر وهندوكـش وغيرهـا مـن الجبـال الشـامخات أحيطـت بهـا بلاد تركسـتان مـن الجوانـب الأربعـة. والسـفر مـن هـذا الطريـق كان أخطـر وأشـد دمـارًا، حيـث ذهـب ضحيتـه فـي غضـون القـرون الماضيـة ألـوف مـن القوافـل البشـرية وحاملـو الثقافـة، ولكـن بالرغـم عـن ذلـك قـد خـدم الإنسـانية كطريـق مـدَّ فيـه فـرش مـن الحريـر لا ضـرر فيـه ولا كـدر جعلـه ليهتـدي بـه الإنسـان فـي السـفر وذلـك علـى الرغـم مـن المخاطـرات التـي تكمنـت غياهـب الوديـان والغابـات وقطّـاع الطـرق الظالمـون الذيـن لا رحـم فيهـم ولا شـفقة، والريـاح العرعـر و السـفوح الجامـدة الثابتـة علـى قمـم الجبـال ومعابرهـا وسـباع الحيـوان والوحـوش المعتديـة والمضلـة والقوافل إلى دار البوار.

وبمـا أن هـذا الطريـق قـد مـر بـه للمـرة الأولـى تجـار الحريـر ردحًـا طويلا من الزمن فلذلك سمي بـ «الطريق الحريرى» (Silk Road).

وإنـه مـا أمكـن ثبوتـه بالتحقيـق أنـه كان هنـاك منـذ قديـم خـط بـري امتـد مـن النهـر الأصفـر فـي الصيـن إلـى البحـر الأسـود فـي الغـرب. يمضـي منـه الرحـال والتجـارة والثقافـة، وهـو يتشـعب حينمـا يصـل بلاد تركسـتان الشـرقية اليـوم إلـى عـدة خطـوط. وكان ذلـك الخـط، علـى حسـب التخميـن، قـد أسـس بواسـطة مهاجـرة الإنسـان فـي العصـر الجيولوجـي. وقـد استكشـف وجـوده واضحًـا للمـرة الأولـى فـي العصـر الحجري الجديد[١].

ثـم أخـذ هـذا الخـط علـى مـر الزمـان شـكل طـرق تجـاري منظـم حتـى أخـذت تجـارة الحريـر منـذ قرنيـن قبـل الميـلاد وتوافـر منهـا إلـى مـا وراء إيران.

---

[1] Owen Lattimore: Pivot it Asia. P. 8.

ومن هنا إلى البلدان الغربية في سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكما يقول بليني Pling: أن الخيوط الحريرية كانت تؤتي بها من بلاد الصين إلى سوريا والشرق الأدنى في عهد البيزنطيين إلى بلاد إمبراطورية الروسية الشرقية[١].

وكانت إمبراطورية الفرس في عهد البارثيين[٢] والساسانيين منذ افتتاح طريق آسيا الوسطى، الأموال الواردة من الصين تشكل ممرًّا وحيدًا لنقل أموال الحرير بكل أشكالها عن طريق آسيا الوسطى إلى بلاد الغرب. وكانت تجارة أموال الحرير تحت انحصارهم، وقد دام هذا الانحصار من قبل الفرس إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي. وكان صنع أمتعة الحرير وتربية دودة القز قد شاعت لأول مرة في هذا الوقت في بلاد الإغريق وكان ذلك في عهد جوستنيان[٣].

وقد ازدهرت صناعة الحرير لأول مرة في إيران منذ ذلك العهد في عهد الساسانيين، وكان سبب ذلك على حسب شهادة المسعودي[٤]، إسكان الهيلثيين في برسيس، الذين جاؤوا بهم كرهًا

[1] Stein, Sir Auril: Innermost Asia. Asia P 243

[٢] بارثيا: (فارسية وسيطة: اشكانيان) كانت حضارة إيرانية متواجدة في الجزء الشمالي الشرقي من إيران المعاصرة، ولكن في أوج عظمتها، الأسرة البارثية حكمت كل إيران بالإضافة لمناطق من الدول المعاصرة التالية: العراق، أرمنيا، جورجيا، شرق تركيا، شرق سوريا، تركمنستان، أفغانستان، طاجيكستان، باكستان، الكويت، الخليج العربي، والساحل الشرقي للملكة العربية السعودية، البحرين، قطر، لبنان، فلسطين، والإمارات العربية المتحدة.

(Parthi) the empireN

[3] Stein, Sir Auril: Innermost Asia. Asia P 244

[٤] هو قطب الدين، علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي، أبو الحسن، من ذرية عبد الله بن مسعود. ولد ببغداد وتعلم بها، وقد زار بلاد فارس والهند وسيلان وأصقاع بحر قزوين والسودان وجنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والروم، وانتهى به المطاف إلى فسطاط مصر. ومن مؤلفاته: «مروج الذهب ومعادن الجواهر» «معادن الجوهر في تحف الأشراف» «الملوك وأهل الديارات». تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ١٩٩٢)، ٤٥٦/٣.

وجبرًا من سوريا في عهد تدهور الثاني في حوالي النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، ويرجع الفضل في ذلك إلى هذا الطريق الحريري القديم الذي توسع أخيرًا إلى طرق تجارية، لعبت دوراً هامًّا في أدوار التاريخ قبل افتتاح الطرق البحرية.

وكانت هذه الطرق التجارية القديمة قد تشعبت إلى قسمين:

وهما: الجنوبي والشمالي.

وهي تبدأ من بلاد الصين حتى تصل إلى طورفان الذي كان له أهمية خاصة في ذلك العهد كمركز لتجارة الحرير. وكان كحكم الباب فتح على وجه الصين تمر منه إلى البلاد الغربية (تركستان الشرقية). ومن هنا وعن طريق قمول والحمراة الواقعة في شمال تنغريتاغ تتغلغل إلى كاشغر، ومن هنا وعن طريق وادي آلاي وقارا تكين تمر إلى فرغانه ثم إلى باكتريا[١] فيما وراء نهر آمو[٢].

وكان لهذا الطريق أهمية كبرى في نشر الحضارة والثقافة والأديان في بلاد الشرق الشاسعة، وكان كحكم شريان للجسم البشري يجري فيه دم الحضارة وينعش به الحياة الإنسانية.

ويقول سوين هيدن: بشأن هذا الطريق الحريرى: إنه ربط الشرق الأدنى مع بلاد الصين آخذا في سيان عن طريق آنسي Anhsi وكاشغر وسمرقند وسلوسيه Seleusia إلى ثيره «Tyre» وأنه لا مغالاة في أن هذا الشريان التجاري كان أطول طريق في العالم القديم. ولكن كان له أهمية خطيرة من ناحية الثقافي والتاريخي، وهو يألف بين الشعوب

---

[١] باختر أو باختريا وسماها الإغريق باكتريا. هو الاسم القديم للمنطقة بين جبال هندو كوش ونهر جيحون وعاصمتها كانت باخترا (وهي الآن بلخ) وتسمى في الكتابات الفارسية باختري، وهي منطقة جبلية بمناخ معتدل ولمياه فيها متوافرة والأرض خصبة، وقد كانت موطنا لإحدى القبائل الإيرانية. هي ولاية بلخ، تقع بإمارة أفغانستان اليوم. https://ar.wikipedia.org/wiki/باختر

[2] Stein, Sir Auril: Innermost Asia. Asia P 244

والقاراة التي كانت موجودة على الأرض في ذلك العهد.

والواقع أن هذه الشرايين التجارية التي مرت على طريق البر كان طريق البحر متأخرًا، ألفت بين قلوب الشعوب الكثيرة. وكان القوافل يذهبون بأموالهم التجارية وكذلك بالعلماء ومبلغي المذاهب والجغرافيين والرائدين والمستكشفين والسفراء، والرجال الأفاقين إلى أقاصي البلاد، وهم يجدون رباطات منازل في كل نقطة يستريحون فيها ويلاقون بجماعات من قومهم، ويستعملونها كمراكز لتبليغ تعاليم الدينية ونشر ثقافتهم[١].

ويقول دوغلاس كريثور: أن هذا الطريق الحريري ما كان شيئا غير منشق (معزولاً)، بل كان طريقًا منظمًا، انشعب على خطط تربط الأسواق المماثلة فيما بينهم، وكان كأنه خط بترولي خيالي قد وضعه الواضع بين بلاد كاشغر والأسواق التي تطلب هذا البترول، وكانت تلك الأسواق في ذلك العهد بلاد الروم والبيزنطيين. والخط البترولي قد وضع مباشرًا عن طريق بلاد باكتريا وبلاد الفرس حتى وصل إلى بغداد، ومن هنا إلى حلب ثم إلى أنتيوش في سواحل البحر الأبيض المتوسط[٢].

وكان لهذا الطريق الحريري فضلاً على الدور الذي لعبه في ميدان التجارة والثقافة البشرية أثره البالغ في ميدان السياسة أيضًا.

ولا هذا مخيب، بل قد شوهد أن أنموذجة الظروف الصينية التي يرجع تاريخها إلى زمن قبل التاريخ قد وجدت في روسيا الشرقية والأماكن حولها. وقد مضت صناعة سبك الحرير إلى الصين من

[1] Sven Hedin: «The Silk Road». N. York, 1934 P 228 as …. by Dr. A.H. Hohn: «Tour … of the ….Historical.
Dr. A.H. John: «Society I lid» V.IX P III.

[2] Doughlas Carrathur: Beyond the Caspian. P 95.

بلاد النهرين بعد ألف سنة منذ انتشارها هناك. مما يدل على أن هذه الصناعة قد مضت من آسيا الغربية إلى الصين عن طريق آسيا الوسطى في إبان الألف الثاني قبل الميلاد.

حيث أن العلاقات التجارية القديمة التي قامت بها الصين مع آسيا الوسطى بعد أن فتحوا ذلك الطريق الحريري في وجه بلاد الغرب لتركستان الشرقية في العصر الثاني قبل الميلاد، كانت عاملة قوية أدَّت إلى توسع الصيني السياسي في تلك البلاد، لذلك كان له أهمية سياسية كما كان له أهمية تجارية خاصة، حيث كانت الصين في سعي ونزاع مستمر مع البلاد الغربية للتركستان الشرقية للتسلط عليها وبسط نفوذها السياسية والثقافية فيها ولضمان الطرق التجارية التي يعطي منها حريرها إلى بلاد الغرب، ومن هنا إلى بلاد باكتريا فيما وراء آمو.

وكذلك كانت الصين ترمي من استقرار حكمها في البلاد الغربية تسهيل تقدمها تمهيدًا الاتجاه إلى الغرب فيما وراء آمو وبامير، الأمري الذي أدَّى أخيرًا إلى توثيق العلاقات التجارية والثقافية والدينية بين الشرق والغرب وتبادل حضاراتهم فيما بينهم، وكان ذلك عن طريق آسيا الوسطى، أي: عن طريق كاشغر، وسمرقند، وبخارى، ومرو.

وقد مضى الورق عن هذا الطريق من الصين إلى سمرقند، وبعد أن تمكن هناك ذهب إلى الغرب، كما مضت صناعة الطبع والبارود وغيرها من الاختراعات الصينية القديمة عن هذا الطريق إلى بلاد الغرب، كما تغلغل عنه الأديان القديمة؛ الزردشتية والبوذية والمانوية والنسطورية، وأخيرًا الإسلام من بلاد الشرق إلى الشرق الأقصى.

وقـد تواطـأ الفاتحـون القدمـاء كالهـون والمغـول وأتـراك الشـمال هـذا الطريـق لفتـح بلاد العالـم، كمـا تعاقبـه الزائـر الصينـي تشيونتسـانغ[١] قاصـدًا بلاد الهنـد فـي طلـب أسـرار بـوذا الدينيـة وتعاليمـه، ومارکـو بولو[٢] قاصدًا بلاط قوبلاي خان في خانباليغ وقد أعجبه جلاله.

وأخيـرًا فـي إبـان الفتـح الإسلامـي اسـتعلمه جنـود المسـلمين بقيـادة قتيبـة بـن مسـلم حتـى وصلـوا إلـى طرفـان آخـر حـدود التركسـتان. وقـد مضـى عنهـم وفـد بقيـادة هبيـرة بـن مشـمرع الكلابـي[٣] وهـم وطئـوا هـذا الطريق حتى وصلوا إلى بلاط الصين.

وقـد انتشـر الإسلام فـي تلـك الـبلاد بيـد وفـود المبلغيـن والفاتحيـن مـن الأتـراك وغيرهـم مـن المسـلمين الذيـن تعاقبوهـم بعـد أن وطئـوا هـذا الطريق الحريري بعدهم من قبل.

ومازالـت تركسـتان تلعـب دوراً هامًّـا فـي تاريـخ الحضـارة والثقافـة والبشـرية وسياسـتها مـادام هـذا الطريـق الـذي عبـر مـن قلبهـا يسـتغله الإنسـان لمصالحـه التجاريـة والحضاريـة قبـل افتتـاح الطـرق البحريـة وخـروج السـكك الحديديـة، وأخيـرًا الطـرق الجويـة التـي قلبـت نظـام الحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعيـة المنـاقلات فـي العالـم. كمـا قلبـت نظـام الحيـاة فـي التركسـتان، وحـل محـل طريقهـا الحريـري السـكك الحديديـة

---

[١] تشيونتسـانغ راهبًـا بـوذيًا صينيًـا، ورحـالاً ومترجمًـا وصـف التفاعـل بين الـصين والهنـد في أوائـل فترة أسـرة تانغ. وقد ولد في مقاطعة خنان الصينية في عام ٥٩٦. https://ar.wikipedia.org/wiki/تشيونتسانغ

[٢] ماركو بولو: هو تاجر ومستكشف من البندقية، كان هو وأبوه نيكولو وعمه مافيو أول الغربيين الذين سلكوا طريق الحرير إلى الصين، وكانت له علاقات دبلوماسية مع قوبلاي خان أكبر ملوك إمبراطورية المغول وحفيد جنكيز خان. عادت أسرة بولو إلى فينسيا قرابة عام ١٢٧٠م حاملة الروايات والقصص العجيبـة المذهلـة عمـا شـاهدت مـن الروائـع. وكان لهـذه القصـص تأثير كـبير في أوروبا، وفتحـت عيـون الأوربيين على عجائب الصين، وعلى الواقع الذي كان يجهله الكثيرون وهو أن الصينيين قوم متحضرون مثلهـم. ماركـو بولـو (١٩٩٥م. ماركـو بولـو، رحلات ماركـو بولـو، ترجمـة: عبـد العزيـز جاويـد، ط. ٢. (مصر: الهيئة المصرية العامة). ١٢/١.

[٣]

تركـ-سـيب الروسـية والسـكك الحديديـة الصينيـة التـي ظلـت تلعـب دورها لبسط الحضارة الشيوعية وثقافتها ونظامها.

وقـد أحيى اليابـان أخيرًا ذكـرى هـذا الطريـق فسـمت شـركة الطيـران اليابانية العالمية «قافلة الطريق الحريرى» «Silk Road Caravan».

الحالة الدينية في تركستان قبل الإسلام

والمعـروف بشـأن أقـدم المذاهـب والحالـة الدينيـة الراهنـة قديمًـا فـي آسـيا الوسـطى، أن الفـرس كانـوا يعتنقـون منـذ قديـم بديـن زرداشـت، وكان بلـخ أكبـر مركـز هـذا الديـن، وفيـه أكبـر معبـد لهـم يقـال لـه «آتشكرد».

وقـد انتشـرت تعاليـم زرداشـت مـن هنـا إلـى بلاد الشـرق حتـى وصلـت إلـى وديـان جبـال تنغريتـاغ، وبيـن الأتـراك البدوييـن الذيـن كانـوا يقطنـون فـي تلـك الأقطـار. ثـم تفشـت منهـا إلـى الشـرق الشـمالي حتـى وصلـت إلى سواحل بحر آرال[١].

وكان زرداشـت نفسـه مـن قبيلـة ميديـا (فـي الجـزء الغربـي الشـمالي مـن فـارس)، وأنـه ظهـر أمـره نحـو منتصـف القـرن السـابع قبـل الميلاد، ومـات نحـو سـنة ٥٨٣ ق م بعـد أن عمر ٧٧ سـنة. وكان موطنـه آذربيجان. وقـد نـال نجاحـه الأول فـي بلـخ وكان ذلـك علـى أثـر دخـول الملـك كاشتاسـب فـي دينـه الـذي انتشـر فـي بلـخ إلـى فـارس كلهـا ثـم إلـى بلاد تركستان[٢].

يقـول الأسـتاذ بيجـل الـذي كتـب بحثًـا تحقيقيًّـا فـي «شـاهنامه»

---

[1] Vambery: History of Bukhara P16

[2] Jackson: The life of Goucaslar 133 .

للفردوسي: أن بلاد توران كانت تعتنق بدين عبدة النار قبل وفاة كيخسرو ملك الفرس[1]. كان كيخسرو قد أنشأ معبد نار في قرية راموش التي بناها لنفسه عندما سار على خلاف أفراسياب الذي قتل سياوش أخ زوجته لأخذ الانتقام لأبيه. وكان هذا المعبد أقدم معابد نار التي بنيت في بخارى.

ويذكر الرحال الصيني هوئاي لشيانج: أنه رأى في ماوراء النهر كثيرًا من عبدة النار وكان مزدحمة منهم[2].

كما أن ظهور مذهب بوذا في نفس الوقت أحدث انقلابًا عظيمًا في الشرق حيث أن انتشاره في بلاد الشرق فيما بعد قد شكل خطرًا منافسًا لمذهب زرداشت. وقد انتشر في بلاد التركستان بسرعة واعتنق ملوكهم بهذ الدين الجديد، وكان انتشاره في بلاد التركستان في عهد الكوشانيين، وكان ذلك حينما توسعت سلطتهم في بلاد الهند نحو سنة ٥٠ قبل الميلاد[3].

والعرب حينما فتحوا البلاد وجدوا أن مذهب بوذا الذي في ما وراء النهر على جانب من مذهب زرداشت، وكما وجدوا في بيكند من جملة الأصنام صنمًا عظيمًا مصنوعًا من الذهب وفي عينيه حجران من الجواهر النفيسة التي أتحفها قتيبة فيما بعد للحجاج.

وإن كلمة «بخارى» أخذت من بخار وتدل على المعبد البوذي، ويستعمل في اللغة المغولية والأويغورية الختائيين ومعناه في لغة ماخينان «مركز العلم». وكان سبب تسميتها إنشاء معبد بوذي كبير لهذا الاسم بعد اعتناق أهاليها بهذا الدين الجديد وكان منذ قديم

[1] Vambery: History of Bukhara P16
[2] Vambery: History of Bukhara P17
[3] Vambery: History of Bukhara P16

مجمع الرجال للأديان المختلفة. وكان أصل اسمها «جيحون كنت» أو بومجلت على قول عطا مالك الجويني.

وكان مذهب بوذا ناشرا حتى في البلاد التي تقع في نواحي زرفشان كما تثبت من الآذار التي مضت من الصين إلى أتراك الشمال عن طريق صحراء جوبي إلى بحيرة خزر في عهد سلالة هان قبل الميلاد.

ويقول نرشخى[١]: إن بنت ملك الصين جاءت إلى بخارى، وكان معها صنما الذي جاءت به من جولة حبازها[٢].

وأما في تركستان الشرقية كان ختن أهم مركز لهذا المذهب الجديد. وكان «معبد رواق» في صحراء ختن من أهم معابد بوذا، يقصدون إليه البوذيون من أقطار شاسعة للبلاد.

ويعتقد أوريل ستين الأثري البريطاني على أساس مسكوكات عثرت في خرابات «معبد رواق»؛ أن هذا المعبد قد تم بناءه نحو سنة ٢٥٠ بعد الميلاد، ودام مزدهرًا نحو ثلاثة أو أربعة قرون، وقد أخذت تنهار في بداية القرن السابع الميلادي. وفضلاً على ذلك كان هناك في نواحي تلك البلاد ديرات عديدة لبوذا كما يروي لنا الرحالة الصيني تشيونتسانغ في أثناء رحلته إلى الهند[٣].

ويقول تشيونتسانغ الذي زار البلاد في العصر الخامس الميلادي أنه قد رأى في ختن معبدًا عظيما باسم معبد ملك الملك الجديد، استغرق بناءه ثمانين سنة مات في أثناء بناءه ثلاثة من الملوك[٤].

---

[١] هو أبو بكر محمد نَرشَخي، صاحب كتاب مشهور «تاريخ بخارى».
https://fa.wikipedia.org/wiki/نرشخی

[2] Vambery: History of Bukhara P 16-17

[3] Tilmau China ……….. P 2

[٤] نرى مذهب بوذا قد انتشر انتشارا واسعا قبل مجئ الإسلام هناك. وتدل على مدي تأثره أنه عثرت

وقد دخل المذهب البوذي إلى ختن لأول مرة بيد مبلغ بوذي سمي أرهان ويركونا Arhal Veur Cuna، وذلك عن طريق كشمير. ومن جانبه بنى أول معبد بوذي في تلك البلاد سمي باسمه. وقد حكم ختن تسعة وعشرون من الملوك البوذيين. وفي عهد ثالثهم أبي ويجايا ويريا وبواسطة ملكتهم الصينية يونيه بار التي زوجتها لهذا الغرض أدخل زرع الحرير وشجرة التوت في بلاد ختن.

وقد أنشأت المعبد العظيم so mo je سو موجه التي على قول تشيونتسانغ استغرق إنشاءه ثمانين سنة ذكرى لهذا الحدث العظيم التاريخي[١].

وكان ارتفاعه مائتين قدما وزحرف بالذهب والفضة وسبع مجوهرات نفيسة. وكان في ختن مائة مناسك للرهبان وخمسة ألف من الرهبان، وكان الأدب الهندي المقدس قد انتشر هناك انتشارا واسعا. وقد رأى أيضًا في كاشغر وطورفان وقاراشهر وغيرها من بلدان تركستان الشرقية معابد بوذية تحفل سنويًا بالمراسم الدينية[٢].

وكان حاكم البلاد أميرًا بوذيًا قد ترعرع في كنف حضانته هذا المذهب الجديد، حيث أصبح ختن تحت رعايته مركز نشاط ثقافي وديني عظيم. وقد زاد في مكانة ختن وقوعه على الطريق الحريري القديم الذي كان همزة وصل بين الشرق والغرب، وكان عاملاً فعالاً في تشييد العلاقات التجارية والثقافية بينهما.

دخل مذهب بوذا إلى الصين عن هذا الطريق واهتدت عنه تيارات

في تلك البلاد على الآثار والمعابد البوذية تحمل الرسوم والنقوش النفيسة والذي يرجع تاريخها إلى العصر السابع الثامن الميلادي، وكان مزدهرا خاصة في العهد الذي حكم فيه البلاد الأتراك الذين يعرفون تاريخيا باسم الأويغوريين. كرامر، ص ٤٥ Creteca Orinta .

[١] صفحة ٢٣٥– ٢٣١ وغيرها «الختن القديمة» لأوريل ستين».

[2] Fah- Sien: The Travels, Tnas., P 2-9.

الحضارة الغربية وخاصة الإغريقية إلى ختن. ومن هنا إلى الشرق. وكانت لهذه العوامل أسبابًا رئيسية التي ازدادت متانة البلاد التاريخية مدى غصون القرون المتوالية.

وفي الحقيقة كان ختن يعد ملتقى الطرق تتلاقي فيه ثقافة الشرق والغرب والجنوب عابرة عن طريق قندهار أو باسيان اللتان كانتا عاصمتان لدى بوذا في ذلك العهد، وهنا يخرج ثم يجري مجريها الطبيعي[١].

وهذه الحضارات التي قد تلاقت هناك من الصين والهند والفرس وحتى من بلاد أوربا عاشت وترعرعت فيها ردحًا طويلاً من الزمن، ثم أدفنها صرصر الزمان تحت رمال صحراويها المتكلة فنسيها نسيًا منسيًّا.

وقد عاش مذهب بوذا ومذهب تاو الصيني في تركستان الشرقية على جانب من النسطوري وخاصة في نواحي طورفان وبين بشباليق (أورومجى) إلى عهد متأخر.

ويقول روبروك[٢] (Fahsien John de Rubruck) الذي زار خاقان المغول منكوخان: «ولو أن الأويغور كان أكثرهم يعبدون الأصنام، ولكن كان بينهم النصرانيون والمسلمون أيضًا».

ويقول جانك جون Chun Chau الراهب الصيني الذي طلبه جنكزخان إلى بلاطه سنة ١٢٢١ أنه رأى في بشباليق وبعض قصبات

[1] Walter Bosshard Bosshoad ; Hazards of Asia's Highlands & Desertsof Asia's PP 87-88 Tilmau, H.W – China ticlitnul P2.

[٢] ويليام من روبروك (١٢٤٨–١٢٥٥) كان مبشرا ومستكشفا فرنسيسكانيا فلمنكيا. اشتهر برحلاته إلى أجزاء مختلفة من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى في القرن الثالث عشر، بما في ذلك الإمبراطورية المنغولية. يعد سرده لرحلاته أحد روائع أدب السفر في العصور الوسطى، مقارنة بروائع ماركو بولو وابن بطوطة. https://en.wikipedia.org/wiki/William_of_Rubruck

مناس جماعة من الرهبان البوذيين والتاؤئيين (Taoist)، ولكن الأويغور كان أكثرهم يعبدون الغرب (مكة)».

ومازال مذهب بوذا يعيش في طورفان وقمول وغيرها، حينما زارتها البعثة السفارتية التي بعثتها شاهروخ في هرات إلى الصين سنة ١٤٢٠ وهم يقولون: أنهم وجدوا أكثر قاطني هذه المملكة يعبدون الأصنام البوذية[١]، وكان لهم أصنام كبيرة وفي وسط معبدهم صنم أطول[٢] من بقية الأصنام[٣].

وقد قضى قضاءً تامًّا في عهد تيمور على بقية البوذيين وكذلك النسطوريين الذين كانوا يعيشون خاصة في شمال تركستان ونواحي يَتَّسو منذ تأسيس حكم المغول في البلاد[٤].

وعلى جانب من الديانات الزرداشتية والبوذية والنصرانية كانت الشامانية تهيمن أيضًا منذ قديم في التركستان وخاصة في الأقطار الشمالية وبين المغول. وكان في الشامان الفقير الكاهن، من طريق غيبوبة كثيرًا ما تكون مصطنعة، أن يطرد الأرواح الشريرة المقيمة تحت الأرض وأن يتنزل البركة من روحي الأرض والماء الخيرتين وأرواح الأسلاف الطائفة في الجنة، وما كان لأحد أن يجرئ على أن يتصل من غير طريق «الشامان» بالذات العليا في السماء. وكانت هي الإله الذي برء العالم والذي تخضع لحكمه الطباق سبع عشرة العليا الآهلة بالكائنات الصالحة. ولقد انتشر إيمان بقوة القضاء

---

[١] وفيه نظر.

[2] Stein, Auril: Innermost Asia. P 545.

[٣] وما ذهبت أثرات البوذية من قلوب أهالي تركستان بسهولة، بل بقيت لاحقة وراسخة إلى أمد بعيد بعد انتشار الإسلام هناك. كما أن في بخارى كانت الأهالي يعقدون معرضا سنويا لبوذا تعرض منها تماثيل وتباع حتى تقدر قيمتها خمسين ألف درهم وكان هذا اتباعا للرسوم والعادات القديمة التي ورثوها أهالي بخارى من أبائهم في شراء الأصنام وبيعها فيما كانوا يعبدون الأصنام.

[4] Yaki Valieli Tiiyau P 80.

والقـدر المتحـدة فـي العالـم والزمـان قبـل الإسلام. وكانـوا يعتقـدون بصـورة شـخصية خالصـة، أنهـا تنضـح بالحـد وبشـهوة الانتقـام مـن عظمة الإنسان[١].

وكانـت ديانـة المانويـة مـن الأديـان القديمـة المنتشـرة التـي انتشـرت بعـد الشـاماني فـي بلاد مـا وراء النهـر إثـر اضطهـاد كسـرى بهـرام لمعتنقيهـم فـي بلاد الفـرس، وهـم اسـتقروا فـي ضفـاف نهـر آمـو بعـد خروجهـم مـن إيـران عنـد خاقـان التـرك. وكانـوا يعيشـون هنـاك حتـى أن تنهـار سـلطة الفـرس حيـث رجعـوا بعدهـا إلـى العـراق، ثـم اندفعـوا أن يهاجـروا إلـى خراسـان مـرة أخـرى فـي عهـد الخليفة العباسـي المقتـدر[٢]. وكان ذلـك خوفًـا مـن القتـل والاضطهـاد مـن قبـل المسـلمين. وبعـد أن جولـوا حائريـن فـي خراسـان اجتمعـوا فـي سـمرقند، ولكـن حاكـم سـمرقند أراد قتلهـم حينمـا علـم أنهـم مـن معتنقـي المانويـة يخفـون دينهـم، ولكنهـم نجـوا مـن هـذا القتـل بمداخلـة مـن ملـك الصيـن (ولعلـه كان ملـك التغزغـز) وهـو يهـدد حاكـم سـمرقند بقتـل المسـلمين فـي مملكته إذا قتلهم ثم سمح لهم بالإقامة واكتفى بأخذ الجزية[٣].

ولعـل قولنـا لا يكمـل فـي حالـة الديـن في آسـيا الوسـطى قبـل الإسلام، إذا مـا ذكرنـا هنـاك نبـذة بشـأن الديـن النسـطوري النصرانـي الـذي قـد انتشر منذ قبل في آسيا الوسطى وعاش في نواحي سيحون وجيحون.

ويقـول هـ. يـول: ولـو أن الروايـة التـي تقـال بشـأن سـنيت طامـس

---

[1] Brock leman P 111.

[٢] أميرُ المُؤمنين وخليفةُ المُسلمين أبُو الفَضْل جَعْفَر المُقْتَدِر بالله بن أحمد المُعتضِد بن طلحة المُوفَّق بن جعفر المُتوكِّل بن مُحمَّد المُعتصم بن هارُون الرَّشيد بن مُحمَّد المهدي العبَّاسيُّ الهاشِميُّ القُرشي (٢٨٢ – ٣٢٠هـ)، هو الخليفة الثَّامن عشر من خُلفاء بني العبَّاس. تولَّى الخلافة في ١٣ ذو القعدة سنة ٢٩٥هـ، بعد أن عهد إليه أخيه علي المُكتفي بالله على فراش المرض، وعمر المُقتدر ثلاثة عشرة سنة، ليكون أصغر من تولى الخلافة في التاريخ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥/٤٣.

[3] Brow VII P 164.

ونشاطه التبليغي الذي قد وصل إلى الصين وأن تعاليم المسيح التي كانت قد انتشرت في بلاد فارس ومدائن في العصر الثالث الميلادي، لا تصدق لها بغير شروط. ولكن هذه الروايات كانت صحيحة لحد ما؛ لأنه قد ثبت أن النصارى أخذوا بالاضطهاد في عهد شابور. وكذلك كان في طوس ومرو ثلاث مائة وثلاثون كنائس كبيرة لأساقف نصارى. وكان مرو قد بدل في سنة أربعة مائة وعشرين إلى عاصمة كبيرة لهم.

وظلت الاختلافات بين الفرق الدينية أسبابا أدت للنسطوريين أن يغادروا بلاد الروم مندفعين إلى بلاد الشرق، حيث أمكن لهم أن يواصلوا نشاطهم التبليغي في تلك البلاد. غير أن اختلافهم هذا مع أهل الروم قد عمل في جلب مودة الساسانيين إلى جانبهم والمسامحة لهم، الأمر الذي صار عاملا لنجاحهم الخاص في نشاطهم التبليغي قبل انتشار الإسلام في تلك البلاد، وخاصة في البلدان التي أخذت أثرات مذهب زرداشت وبوذا تضعف وتنهار وأهالي البلاد أخذوا يفكرون في الدين الجديد.

وقد صدقت هذه الحالة في آسيا الوسطى خاصة، حيث كانت سمرقند تعد عاصمة نصارى فيما وراء النهر، وكان هناك سنة ٤١١-٤١٥م مقر الأسقف الأعظم على حسب رواية أهل الشام، ولكن يول يقول: إنه كان موجودا ما بين سنة ٥٠٣-٥٢٠م ويقول كاسمي أن شواطئ جيحون كانت آهلة بالنصاري في العصر السابع الميلادي، وكانوا يعيشون هناك حينما جاء العرب هناك فاتحين.

وجاء في نرشحي عندما قدم قتيبة بلدة بخارى بين مجاهدي العرب كان هناك في مدينة المتشردين كنيسة للنصاري التي أبدلت

بعدها إلى مسجد[١].

ويذكر أيضًا أنه لما دخل قتيبة بخارى واستولى على المدينة، أمر أهالي بخارى أن يقسموا بيوتهم وأملاكهم نصفا بين جماعات العرب، وكان هناك جماعة تقال لهم كشكثان[٢] (Kahkathan)،[٣] وكانت جماعة قوية ذات استطاعة وكرامة نفس وأهالي بخارى يحترمونهم أحسن احترام، ولكن ما كانوا من الدهاقين ولا من المسلمين ولا من عبدة النار، بل كانوا من الأجانب طائفة شريفة وتاجرين أغنياء.

ولما طلب قتيبة من الأهالي أن يشركوا العرب في بيوتهم وأملاكهم أعطت هذه الجماعة بيوتهم وأملاكهم إلى العرب ثم أثنوا على أنفسهم سبعة مائة فيلله (كرمة) في خارج المدينة. وكان لكل كرمة بيتا للخدمة وأتباعهم وأمام كل فيللة بستان وصحن، ثم باعوا أملاكهم وفيلاتهم بثمن جزاف حينما أخرجوا من الديار[٤].

وخلاصة القول: كانت المناطق الجبلية حول سمرقند آهلة بالنصارى أيضًا في العصر الثالث الهجري على جانب من البوذيين والزرداشتيين. وكانوا يعرفون بالقوم أسفر الوجه، وكانوا يعيشون في شمال تركستان إلى مدى بعيدة حتى كان عددهم قليلا جدًّا في أواخر العصر الثالث عشر[٥].

ويذكر نرشخي أنه حينما جاء إسماعيل بن أحمد الساماني[٦] إلى

---

[1] Narshalchi P 130.

[٢] وفى لفظ «كشكثان» روايات مختلفة وهى كشكثان كما فى ترجمة نرشخى الإنجليزية، وخويش خويشان، كيش كشان كما فى ترجمة ( ) وغيره كوثك كونسان، ولعل الأصح أنه كوثك كسان. ويمبرى، تاريخ بخارى.

[3] Narshalchi P 53

[4] Vambery: History of Bukhara PP 18-19

[5] Vambery P 20

[٦] لأميرُ العادِل أبُو إبْراهِيم إسْماعِيل بن أحمَد بن أسَد السَّاماني (٨٤٩ – نوفمبر ٩٠٧ م) المعرُوف

طراز وجد هناك كنيسة كبيرة بدلها إلى جامع كبير، وقرئت الخطبة فيه لأول مرة باسم أمير المؤمنين المعتضد بالله[١] وكان ذلك بعد أن اعتنق أمير طراز ودهاقينها الإسلام بيد أمير إسماعيل[٢].

اختصارًا باسم إسْماعيل السَّاماني. كان الأمير الساماني لبلاد ما وراء النهر (من ٩٠٠م حتى ٩٠٧م). شهد عهده ظهور السامانيين كقوة في المنطقة. وهو ابن أحمد بن أسد ويرجع نسبه إلى سامان خدا الذي أسّس سلالة السامانيين والذي ترك المجوسية واعتنق الإسلام من أصل فارسي ساساني. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٩٢/١٧.

[١] أبُو العبَّاس أحمَد المُعْتَضِد بالله بن طَلحة المُوفَّق بن جَعْفَر المُتوكِّل بن مُحَمَّد المُعْتَصِم بن هارُون الرَّشيد اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٢٤٢ – ٢٨٩ هـ / ٨٥٦ – ٩٠٢ م)، المعرُوف اختصارًا باسم المُعْتَضِد أو المُعْتَضِد بالله، هو الخليفَة السَّادِس عَشَر من خُلفاء بَني العبَّاس، بويع له بعد موت عمه المعتمد على الله، وكان شجاعاً مهيباً ظاهر الجبروت، شديدا الوطأة على المفسدين. وهو أول خليفة عباسي لم يكن والده خليفة من قبله. مختصر التاريخ من اول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تأليف: ابن الكازروني (ت. ٦٩٧ هـ)، تحقيق: د. مصطفى جواد، ص١٦٤، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة مطبعة الحكومة–بغداد، ١٩٧٠. الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. دار الكتب العلمية. ج. الرابع. ص. ٤٠٨.

[٢] Norshalchi P ٨٤. الصفحة ٩٩ مفقودة.

الحالة السياسية في تركستان قبل الإسلام

أهم وأقدم الدول التي قامت في التركستان قبل الإسلام

كان التركستانيون منذ القديم يعيشون في عز خالد ومجد تالد، يميلون بطبيعتهم إلى الغزو والفتح، ويتغنون بالفروسية والفخر بالنصر، والاستشهاد في ساحات الوغى، ويفتحون بلادًا كثيرًا، ويهاجرون إليها فيحكمونها ويبسطون نفوذهم عليها، وينشرون في ربوعها معارف حضارتهم.

الإمبراطورية الهونية

ولقد قامت منهم في أزمنة مترامية في القدم إمبراطورية عظيمة تسمى: «إمبراطورية الهون»، وفي المصادر الصينية (هيونج نو، أو أو شيونغنو) وكانت هذه الدولة التركية دولة قوية منظمة تعد أكبر الدول الشرقية، وحضاراتها أرقى الحضارات.

وقد بنى تشين شي هوانغ السد الصيني الكبير لصد هجمات هؤلاء الأتراك الهون، ولكن لم يجدهم نفعًا إذ دخلوها مرارًا وحكومها قرونًا. وبلغت هذه الدولة التركية الهونية في عهد الخاقان «مته خان» بن الخاقان «تنومان خان» أوج عظمتها إذ انضوت ست وعشرون دولة تركية تحت علم هذه الإمبراطورية، وقام لأول مرة بناء الوحدة التركية العظيمة، تضم أوامر جميع الشعب التركي

القاطن في بحر اليابان إلى بحر قزوين، ونهر فولجا وجبال أورال، كما أن إمبراطور الصين اضطر إلى دفع إتاوة سنوية، وكان ذلك بعد انهزام الجنود الصينية أمام الجيوش التركية الزاخرة في معركة حاسمة وقعت سنة ١٩٩ ق. م. مازالت تلك الإمبراطورية العظيمة في أوج عظمتها، وإشراق حضارتها حتى منتصف القرن الأول الميلادى، ولكنها انقسمت سنة ٤٨م فأصبحت دولتين، حيث تكون دولة هون الشمالية ثم القسم الجنوبي لتلك الصحراء، حيث تتألف دولة الهون الجنوبية.

ثم لم تلبث أن اتفقت الصين بعد ذلك مع الهون الجنوبية وانضمت إليها قبائل تركية أخرى وهي قبائل (سيانبى) واشترك جميعهم في القضاء على دولة الهون الشمالية سنة ٩٠ ميلادية. فهاجر كثيرون منهم إلى سواحل بحر قزوين وشواطئ نهر أورال، حيث أسسوا هناك دولتهم من جديد فسميت بدولة الهون الغربية.

دولة الهون الغربية

لم تمض عليهم في هذا الوطن الجديد إلا مدة يسيرة حتى أخضعوا جميع القبائل المستوطنة في حدود أوربا من الأتراك وغيرهم؛ ثم بسطوا نفذوهم؛ ووسعوا نطاق ملكهم صوب الغرب، وسيطروا على الأقاليم الواسعة التي يطلق عليهم اليوم اسم روسيا الجنوبية سنة ٣٧٥م بقيادة خاقانهم «بالامير»[١] ثم تغلبوا على قبائل

[١] تحت قيادة بالامير، هزم الهون المناطق التي حكمت بين نهر الدون وبحيرة آرال في عام ٣٧٠. ونتيجة لذلك، دخلت بعض المناطق خدمة بالامير وهاجرت مناطق أخرى غربا.في عام ٣٧٤، حقق انتصارا ساحقا ضد القوط تحت حكم الملك إرماناريك وأصبح مهيمنا في أراضيهم. بعد هذه الهزيمة، انتحر إرماناريك في حالة من اليأس. بعد ذلك، على الرغم من أن بالامير قدم الحكم الذاتي للقوط الشرقيين، إلا أن الشرقيين بدأوا تمردا وفي وقت قصير جدا، تم قمع هذه التمردات وتم حماية الأراضي. هاجر جزء صغير من القوط الشرقيين إلى أراضي القوط الغربيين، ولكن معظمهم لم يؤيدوا الهجرة. في حرب القوط الغربيين والهون. حقق الهون فوزا ساحقا مرة أخرى. بعد ذلك، هاجر القوط الغربيون نحو روما

القوط[١] التي كانت تبسط نفوذها على تلك البلاد[٢].

دولة الهياطلة

وأما في الشرق وفي داخل تركستان، فقد كانت تحكم دولة تركية أخرى تسمى: «دولة الهون الأبيض» وفي المصادر العربية (الهياطلة).

وقد لعبت هذه الدولة دوراً هامًّا في تاريخ آسيا، ولها أهمية خاصة في تاريخ الهند والفرس أيضًا. إذ استطاعت هذه الدولة توسيع رقعتها في مدة وجيزة حيث أعلنت الحرب على الدولة الساسانية في إيران، وتغلبت على كسرى فيروز، وألحقت به هزيمة دامغة في موقعة حربية شرقي بلخ سنة ٤٨٤م[٣]. ثم اتجهت صوب الهند فاستولت على كشمير ونهر الهندوس. وبذلك أصبحت هذه الدولة التركية التي سيطرت في تركستان على حوض «نهر تاريم» وما وراء النهر

الشرقية، وطلبوا الإذن بالاستقرار. رفض الإمبراطور فالنس في البداية لأنه اعتبر هذه القبائل برابرة، لكنه غير رأيه لاحقا لأن الجحافل الرومانية لم تكن كافية من حيث العدد، ومنحهم تصاريح الاستيطان. ومع ذلك، على الرغم من جميع تحذيرات الإمبراطور، تمرد القوط الغربيون في عام ٣٧٧ نتيجة معاملة القادة الرومان للاجئين بشكل سيء للغاية وعدم تقديم الطعام. بعد هذا التمرد، شكل القوط تحالفا مع الهون. بفضل هذا التحالف، نهب القوط الغالبية العظمى من أراضي تراقيا. في وقت لاحق، في عام ٣٧٨، اندلعت معركة أدرنة، التي كان يعتقد أنها شملت آلان والهون، وحقق القوط انتصارا كبيرا. نتيجة لهذه المعركة، توفي الإمبراطور فالنس وأدى إلى تدمير قوات روما المهمة، وبعد ذلك فقد الجيش الروماني قوته السابقة إلى حد كبير. مع وفاة فالنس، أنهى ثيودوسيوس الكبير، الذي اعتلى العرش في يناير ٣٧٩، الغزوات بسلسلة من الإجراءات ضد الغزاة وفرق الغزاة. بعد ذلك، وضعت قارتا الهون وآلان، اللتان تم تفريقهما، في الخدمة في الجيش الروماني واستقرت في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. ومع ذلك، اختفى الهون المأهولون في هذه الأراضي بمرور الوقت بسبب قلة عددهم.

Erkan Hacıfazlıoğlu (11 Nisan 2019). Avrupa Türk-Hun İmparatorluğu. Altınordu Yay. s. II. Bölüm.

Hacıfazlıoğlu, E. (2019). “Avrupa Türk-Hun İmparatorluğu İncelemesi, 11(1), 81-93”. Takvim-i Vekayi. Erişim tarihi: 9 Haziran 2024.

[١] القوط هم شعب جرماني قديم عاش في منطقة غوتلاند في جنوب الدول الاسكندنافية. عاش القوط في سكيثيا وداسيا وبانونيا من القرن الثاني، ونهبوا بيزنطة في القرنين الثالث والرابع واعتمدوا الآرية. في القرنين الخامس والسادس، تم تقسيمهم إلى القوط الغربيين والقوط الشرقيين وغزوا أيبيريا وإيطاليا.

https://tr.wikipedia.org/wiki/Gotlar

[٢] آتيلا، ص ٢٠

[٣] آتيلا، ص ٢٣

والهند دولة عظيمة تسيطر على أفغانستان كلها وحوض نهر الهندوقوش وكشمير وقضت على دولة كوبت في الهند، وعاشت في عظمتها إلى أن ظهرت في تركستان دولة جديدة باسم «دولة تو-كيو» (Tukyu). تأسست هذه الدولة أول الأمر في منطقة آلتاي بعد انقراض الدولة الهونية - حيث انقسمت إلى دولتين قويتين في شرق البلاد وجنوبها - وعاشت هناك إلى القرن السادس الميلادي وتقدمت في الحضارة والرقى، واستطاع خاقان «بومين خان» الذي يعد مؤسسًا حقيقيًّا للدولة الشرقية أي يوحِّد جميع القبائل التركية في بلاد تركستان تحت علمه، وهو توفي سنة ٥٥٢ وعين أخاه «إستمي» (Istimi) الذي يعرفه أهل الصين باسم شي تي مي وذكره الطبري، والتي تحسب أقدم أثر حفظته الأيام في آثار اللغة التركية اكتشفت على ضفاف نهر أورخون في منغوليا على الضريح المشترك لاثنين من أمراء هذه الدولة بِلْكَا قاغان وأخيه الأصغر كولْتِكِين، والتي ترجع إلى سنة ٧٣١م وسنة ٧٣٤م. وقد كتبت بخط شبيه بالخط «الرونى» الذي استعمله الشعوب الجرمانية حوالي القرن الثاني للميلاد، وهم اقتبسوه عن الفرس واستنبطوه من الخط الآرامي[١]. ثم أسرة تانغ المالكة في الصين قضت على الدولة الشرقية حوالي سنة ٦٣٠م وعلى الدولة الغربية حوالي سنة ٦٥٩م، وقد استطاع أخيرًا أتراك الشمال أن يتخلصوا من الأجنبي سنة ٦٨٢م وهم احتفظوا استقلالهم حتى سنة ٧٤٥م[٢]. سنجو خاقان حاكما على المقاطعات الغربية بعنوان «يابغو» وهو عاش من بعده ربع قرن، وأعاد مجد الدولة الهونية العظمى، حيث امتدت حدود الإمبراطورية من شبه جزيرة كوريا في الشرق إلى بحر الأسود في الغرب[٣].

---

[١] بروكلمان، ١/ ١١١.
[٢] بروكلمان، ١/ ١١٥.
[٣] عبد العزيز جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٢٤.

ولدولـة تو-كيـو (التـرك) هـذه أهميـة خاصـة فـي تاريـخ حضـارات آسيا العامـة، حيث خلفـت مـن آثارهـا الكتابـة التركيـة القديمة المشـهورة بالنقـوش الأورخونيـة التـي تعـد مـن أخلـد المآثـر فـي سـجل الحضـارة التركيـة، كمـا أنهـا لعبـت دوراً هامًّـا فـي تاريـخ العالـم، إذ كانـت ترتبـط بعلاقـات سياسـية واقتصاديـة مـع الصينييـن والساسـانيين والبيزنطييـن. ووصلـت قـوة هـذه الدولـة فـي النصـف مـن القـرن السـادس الميلادي إلى درجـة لـم تهـدد الصينييـن وحدهـم، بـل كانـت الدولـة الساسـانية والبيزنطيـة، والصينيـة تحسـب حسـابها، وتخطـب صداقتهـا. وفـي ظـل نظامهـا الدقيـق أمكـن تحقيـق المبادلـة الاقتصاديـة والأدبيـة بيـن الصيـن والهنـد والفـرس والـروم، وأصبحـت تركسـتان حلقـة الاتصـال بيـن الشرق الأقصى وبقية المسكون من الكرة الأرضية.

كان رجالهـا يقومـون بمهمـة نقـل الآثـار الفلسـفية، والأدبيـة، والمدنية، والأديـان، والتأثـر بهـا، ثـم نقلهـا مـن الغـرب إلـى الشـرق، أو مـن الشـرق إلى الغرب.

وفـي ظـل هـذه الدولـة العظمـى، كانـت تركسـتان مـن خلال طريقهـا وعن نظامهـا محـورًا للأديـان والأفـكار، فاجتـاز البوذيـة، والمانويـة، والمزدكيـة، والزرداشـتية، وكذلـك النصرانيـة التـي قدمـت الهنـد وإيـران والشـرق الأدنـى إلى الشرق الأقصى، عابرة هذه المملكة التركية الشاسعة[١].

الدولة التركشية

وكانـت تركـش قبيلـة مـن إحـدى القبائـل التركيـة التـي تتألـف منهـا الدولـة الغربيـة حلـت محلهـا، وقامـت بإحيـاء مجـد الدولـة التـرك الغربيـة واستعاد ملكها.

---

[١] عبد العزيز جنكيزخان، ص ٢٦-٢٧

وكانت آسيا تغلي بالحوادث، وتغمرها انقلابات عظيمة، تهدد قوات تركش من الشرق والغرب والجنوب (أعني الفتوحات الإسلامية) بينما كانت الصين والتبت تتنافس أيضًا في إخضاع ممالك الترك الغربية في الجنوب.

وفي سنة ٦٧٠م أصبحت التبت أمام أبواب كاشغر منافسًا قويًّا للصينيين. وفي تلك الأثناء توفي خاقان تركش «أوجله» سنة ٧٠٥م وتربع على عرشه ابنه «سوقو» ثم حدث نزاع شديد على العرش بينه وبين أخيه، فوثب عليهما خاقان الترك الشرقية وقضى على حكم تلك الأسرة سنة ٧١١م.

وعلى أثر ذلك اندلعت نار الحرب بينهم حتى ظهر منهم زعيم عظيم، يسمى «سولو» فأخمد الثورات، ووحد القبائل، وأعلن استقلاله عن دولة الترك الشرقية. وأقام نفسه خاقانًا على تركش سنة ٧١٦م، وتحالف مع المسلمين العرب والتبتيين ضد الصين، وساعد إخوانه الأتراك فيما وراء النهر وطخارستان ضد العرب المسلمين. ذهب بنفسه مرارًا لمحاربتهم، فحارب فيما وراء النهر وطخارستان ودفعهم مرارًا حتى وصل في إحدى انتصاراته إلى خراسان. وفي النهاية دبَّ روح النزاع من جديد بين قبائل تركش فانشطرت الدولة إلى حزبين، قتل الخاقان في المعركة، وعاش الحزبان مستقلين.

كان هذا النزاع بين الأتراك فرصة سانحة للصينيين وللعرب أيضًا، فأخضع الصينيون بعض القبائل سنة ٧٣٩م، كما استرد العرب البلاد التي فقدوها فيما وراء النهر، وكانت دولة التركية الشرقية حينئذ قد انقرضت بهجوم مشترك من قبائل الترك، الأويغوريين، وقارلوق وباسمل[١].

---

[١] عبد العزيز جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٢٨.

الدولة الأويغورية

تأسست دولة الأويغور على ساحل نهر أورخون وضفاف نهر سلينغا، واتخذت قارابلاساغون عاصمة الدولة، كما تأسست دولة قارلوق في غربها وأعلنت نفسها حاكمة على المقاطعات الغربية، فتم لها الاستيلاء على توقماق وتالاس عاصمتي دولة الترك الغربية سنة ٧٦٦م.

أما الدولة الأويغورية التي حلت محل دولة التركية الشرقية فقد أخذت على عاتقها رفع بناء الحضارة التركية، وابتكار فنونها فنمت قوتها بسرعة. كانت بلادها تحتوي على تركستان الشرقية كلها، ومنغوليا، وعلى بعض الولايات الصينية. وبدأت تهدد الصين كأسلافها حتى غزا خاقان الأويغوريين «بوكوكخان» بلاد الصين، فوصلت فتوحاته إلى (لويانج) عاصمة أسرة (تانغ) الصينية عام ٧٦٢م.

ولبثت هذه الدولة الغرة في أثواب عزتها، متمكنة في أوج قوتها مدى قرن من الزمان (٧٤٠-٨٤٠م) ثم انهزمت أمام قبيلة تركية أخرى وهي قيرغز، وعلى أثر ذلك اضطرت إلى ترك منغوليا وانحصرت دولتها في تركستان الشرقية ومقاطعة كانصو في الصين واتخذت قاراخوجه في طرفان عاصمة جديدة للدولة حيث حلفت هناك تلك الحضارة الباهرة التي تدهش الناظرين وتحير الألباب[١].

وفي سنة ١٠٢٨ قضي التنكتيون على إحدي إماراتي الأويغوريين أي تلك التي كانت قائمة في قانصو حينما استطاعت الاستمرار إلى

[١] نفس المرجع، ص ٣٠.

أيام المغول[١].

لقد تقدمت حضارة تركستان الشرقية بعد تأسيس الدولة الأويغوريين هناك تقدما باهرا. وقد أثبتت هذه الحقيقة الوثائق التاريخية، والآثار المدنية التي عثر عليها البعثات الأوربية، في الحفريات التي اكتشفت هناك، منذ أوائل القرن العشرين، وهذه الحفريات التي أجريت في عاصمة الأويغوريين (قوجو) أو «إيديقوت» كانت لها نتائج باهرة تدل على أخذهم بأعظم أسباب المدنية والعمران، وتقدمه في مدارج العظمة والرقى[٢].

دولة قارلوق

حلت قبائل قارلوق محل تركش، ودولة الترك الغربية. فكانت في الأول تسكن في الشمال الغربي من بشباليغ (أورومجي) وكوجونيغ وغربي آلتاي. فلما بدأ الانقسام بين أجزاء إمبراطورية الترك العظمى استولت عليها الصين، فأصبحت إحدى الولايات الصينية، وهاجر أهلها إلى الجنوب، واتفقوا مع الأويغوريين وباسمل وقضوا على دولة الترك الشرقية سنة ٧٤٥م. وكان الساكنون منهم في جبال «أوتوكن» تابعين للأويغوريين، والذين في آلتاي وبيشباليغ تابعين للصين واشتركوا معها في بعض الحروب وفي المعركة الدامية التي وقعت بين قائد المسلمين زياد بن صالح[٣].

ومن آثارهم: قد اشتهر الخط الأويغوري الذي أخذه جنكيزخان واصطنعه في دواوين الدولة، أو هو خط يتحدد من الشكل السرياني

---

[١] بروكلمان، ص ١١٢.

[٢] قلب آسيا، ص ٣١. انظر أيضًا أنترموست آسيا

[٣] كان من عمّال أبي مسلم الخراساني. وعمل معه على إخماد ثورة شريك المهري سنة ١٣٣ هـ، وساعده في قمع ثورات أخرى. لكنه ما لبث أن انقلب على أبي مسلم نفسه في بلخ سنة ١٣٥ هـ. عبد السلام الترمانيني، أحداث التاريخ الإسلامي. دار طلاس، دمشق.

للأبجدية السامية، تلك الأبجدية التي يقوم على أساسها الخط اللاتيني أيضًا[١].

وقد وفق الأويغور في حاضرتهم «طورفان» عند القسم الجنوبي من كفر تنغريتاغ إلى ترجمة جمهرة كبيرة من الكتب، تحت تأثير البعثات التبشيرية البوذية والمانوية، وفي هذه الترجمات وضع الخط الأويغوري للمرة الأولى، موضع الاستعمال؛ ولقد كشفت البعثة الألمانية إلى آسيا الوسطى على الخصوص عن بقايا منها، فنشرها لأول مرة عبقرية العالم الألماني مولر[٢]. ولم يكن الخط الأويغوري يصطنع إلا في أحوال فردية، ثم أنه أفسح المجال شيئا بعد شئ للخط العربي[٣].

انضم الأتراك (قارلوق) إلى المسلمين في حرب تالاس وقعت بين المسلمين والصينين تحت قيادة كاو شين جي، حينما رأوا إخوانهم الأتراك في صفوف المسلمين العرب، وكان انضمامهم إلى المسلمين سببًا فعَّالاً في كسب الحرب، وبلغ المسلمون بمساعدتهم الانتصار الباهر الذي غير مجرى التاريخ وأبعد الصين عن تركستان جملة، ثم بدأ أتراك قارلوق يلعبون دوراً هامًّا في ميدان السياسة، فزادت قوتهم حتى حاربوا الأويغوريين للاستيلاء على تلك المناطق (٧٥٦-٧٥٧م) واستفادوا أيضًا في نزاع قبائل تركش.

وأسسوا دولتهم في بلاد الترك الغربية وأصبحت خلفا لتركش سنة ٧٦٦م، ثم حاولوا صد هجمات المسلمين على ماوراء النهر بما أمكنهم من جهود حتى استولوا مرة على فرغانه، في عهد الخليفة،

---

[١] بروكلمان، ص ١١٤.
[٢] بروكلمان، ص ١١٤.
[٣] بروكلمان، ص ١١٤.

هارون الرشيد، غير أنهم اضطروا أخيرًا إلى ترك فرغانه. وفي سنة ٨٠٦م تحالفوا مع الأويغوريين والتبتيين ضد الدولة العباسية، ولكن المأمون الذي كان واليًّا في خراسان استصوب سياسة مجاملة الأتراك وإرضائهم. فلهذا عقد معهم معاهدة صداقة وتحالف. ومن ثم بدأ الإسلام ينتشر بينهم ويغتر قلوبهم. وكان ذلك مقدمة صالحة ترشحهم للقيام بدورهم في إنشاء الدولة الخاقانية الإسلامية في تركستان الشرقية فيما بعد[١].

على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي[٢] بجيشه إلى السهول الشمالية حيث قتل على نهر ترك الذي يسميه العرب بلنجر. والمسلمون دخلوا أرمينيا مرتين أولهما كان على عهد عمر بن الخطاب رضي سنة ١٨هـ ٦٣٩م. والثاني على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة ٢٦هـ ٦٤٦م. وكان بكير بن عبد الله[٣] وعتبة بن فرقد[٤] قد فتحا في خلافة محمد بلاد آذربيجان الواقعة شرقي

---

[١] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٣٢.

[٢] عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. نسبة إلى أمهم باهلة بنت صَعْب بن سعد العَشِيرة، ونسبة إلى قبيلة باهلة بن يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان. صحابي ولاه الخليفة عمر بن الخطاب قضاء الجيش المتوجه إلى القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص. وعهد إليه بتقسيم الغنائم، وكان من المقاتلين البارزين في المعركة. ثم ولاه الخليفة الباب وقتال الترك حتى قُتل. وقُيل قُتل في بلنجر بعد ثمان سنوات من خلافة عثمان (أي سنة حوالي ٣٢ هـ ٦٥٢–٦٥٣م). ابن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ٣/ ٤٤١.

[٣] بُكَير بْنُ عَبْدِ الله كان قائدًا عسكريًا عربيًا، خدم في الخلافة الراشدة، واشتهر بفتح مقاطعة أدرباداجان الساسانية.

[٤] هو أبو عبد الله عتبة بن فرقد بن يربوع بن حبيب بن مالك بن أسعد بن رفاعة بن ربيعة بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم السلمي. أسلم أبو عبد الله عتبة بن فرقد السلمي قبل غزوة خيبر، وشهد هذه الغزوة مع رسول الله ﷺ وقسم له من الغنائم، وكان يعطي منها لبني أعمامه عاماً ولبني أخواله عاماً، وكانت غزوة خيبر في سنة سبع للهجرة، مما يدل على أنه أسلم في هذه السنة أو قبله بقليل. وقد غزا مع النبي ﷺ غزوتين فقط، ونال شرف الصحبة والجهاد مع النبي محمد ﷺ. ويعتبر فاتح شمال العراق وأذربيجان. ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ٥٦١.

بلاد أرمينيا[١].

وكانت بلادًا واسعةً في شرقي الفارسية وكانت عاصمتها مرو ونيشابور وهرات وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس (طخارستان، بدخشان) وغير ذلك مدن كان[٢]ملوكها من الأتراك.

فتح العرب تركستان ومدى أثره في تاريخ الإسلام

يرجع تاريخ غزو العرب بلاد خراسان وتركستان إلى عهد باكر للإسلام، حيث كان العرب قد وجَّهوا غزواتهم إلى بلاد تركستان في عهد عمر ثم عثمان -رضي الله عنهما - من نقطتين هامتين ذات أهمية إستراتيجية.

الأول: كان بلاد أرمينية وآذربيجان في الغرب، وكان فيها الباب أو باب الأبواب (دربند) التاريخي[٣].

والثاني: كان بلاد خراسان[٤]، التي استعملها العرب بعد فتح بلاد الفرس كقاعدة حربية لتوجيه غزواتهم إلى بلاد ماوراء النهر، حيث لما انتهى الصراع بين المسلمين والفرس باستيلاء العرب عليها وعلى خراسان بدأت مرحلة جديدة من مراحل الفتح الإسلامي في التاريخ. وهم عبروا نهر جيحون (آمو دريا) الذي كان حتى ذلك التاريخ الحد الفاصل الطبيعي بين بلاد الفرس وبلاد توران. وختموا إمارات صغيرة التي كانوا يعيشون في ضفتي النهر وكانوا في اختلاف وصراع مستمر لا يختم وقد ضموا إلى خلافة إسلامية كبرى.

---

[١] عبدالوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٧٢.
[٢] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٣٢.
[٣] هوتون، ص ٤٢. وبروكلمان، التاريخ، ص ١٦٤.
[٤] بروكلمان، التاريخ، ص ١٢٤.

ويقول ابن خلدون: وقد كان مضاء العرب في فتح خراسان وماوراء النهر من أبدع ما جاء في التاريخ، فإن الترك الذين تغلب العرب عليهم كانوا مشهورين بشدة البأس وقوة المراس وقد حشدوا للعرب من كل حدب، فما نالوا نيلا وتغلب العرب عليهم في أوساط بلادهم وأثخنوا فيهم ولم يكفوا عنهم حتى دخلوا في الإسلام[١].

وصارت ما وراء النهر بعد فتح العرب من حيث النظم الإداري جزءًا من ولاية خراسان، وكانت عاصمتها مرو شاهجان التي مازالت تابعة لخلفاء دمشق وبغداد. ولو أن العرب كانوا قد أتاحوا لأمراء خراسان وماوراء النهر المحليين العناية لشئونهم الداخلية بأنفسهم، ولكن العناية لشئونهم الكلية كانت بيد عاصمة خراسان، وكان الأمراء مكلفين لإعطاء الإتاوات السنوية لحكَّام العرب وقوَّادهم وأن يخدموا أفرادهم في الجيش الإسلامى. وكان العرب قد عيَّنوا في عاصمة خراسان عمَّالاً ينظرون أمور الخِراج وأمور الحرب على حدة التي كانتا مشكلتان على أساس النظم الإسلامي.

وقد دام عهد العرب في تلك البلاد نيف مائة وخمسين سنة، وقد تم في هذه الفترة فتح قسم كبير من البلاد ونشر الإسلام بنطاق أوسع وأرحب، ولكن مازال عهد اضطراب وصراع دائم بين حكام العرب وقوادهم والتخريب والمؤامرات السياسية بينهم أو ضد الخلفاء. وكان سبب ذلك غير شك كون البلاد شاسعة من عاصمة الخلافة حيث ما أمكن للخلفاء أن تنظروا في شئون البلاد مباشرة، كما كان عهد انتفاضة واعتصام من قبل أهالي البلاد وحكامهم المحليين ضد حكام العرب، الأمر الذي قد أدَّى إلى عدم استقرار الحالة استقرارًا تامًّا وضعف الإدارة وثورة البلاد وقتًا مؤقتًا، ومما يزيد الطين بلة كان حرص العرب

---

[١] ابن خلدون، مقدمة، ١٠٣.

لاستغلال الحالة الفوضوية والاستقلال بذاتهم في البلاد، فلذلك ما زالوا مؤامرين ومقاتلين بينهم على جانب اشتباكهم لدفع قيام البلاد ضدهم. فلذلك قل ما نرى في ذلك العهد أي نشاط علمي أو أدبي أو عمراني يستحق بالذكر والبحث سواء كان ذلك من قبل العرب، أو من قبل سكان البلاد. بيد أنهم قد أظهروا بسالة جندية وحماسية في غزو البلاد وفتحها ونشر الإسلام مما أمكن بين سكَّانها وتعليم القرآن وأصول الدين والعبادة للمسلمين الأتراك، و لو أن الشعراء الكثيرين والعلماء والأدباء العرب قد جاءوا من الكوفة والبصرة والمدينة ومن قبيلة الأزد وغيرها مع جنود العرب وقوادهم، ولكن كثيرًا ما كان شغلهم مدح من ظفر بالغزوات أو المؤامرات أو ذم من خانوا وخلفوا أو غلبوا، ولو أنه ما قل منهم من يبلغ الإسلام بين قبائل الأتراك. وكذلك ما سنحت الفرصة لسكان البلاد أيضًا في عهد العرب أن يهتموا لأمور العمرانية المدنية والعلمية وكان ذلك بمقتضي سذاجة طبيعتهم وبداوتهم الجدد، بل استدعت أنظارهم بمقتضي طبيعتهم بسالة العرب الجندية فاستبقوا في ميدان الغزوات بولع لا مثيل له، حيث لم يقل ولع العرب أنفسهم وقد ساعدت لهم في هذا الميدان المنافسة الحالمة بين قواد العرب وحكامهم وهم يتطرقون من غلب منهم ويمدونه بأموالهم وأنفسهم وقوتهم وجنودهم ويقوي بسالتهم بسالة العرب وشجاعتهم شجاعة العرب، والأوصاف التي تشتركان فيها وتليق بطبيعتها. وكانت هذه العوامل التي قد أدَّت أخيرًا بعد انهيار عهد العرب في البلاد أن يقبض الأتراك أنفسهم شئون بلادهم وبلاد الإسلام بيدهم.

والسبب الثالث: بل أهمه كان عدم مهارة العرب في أول الأمر في سياسة الدولة وتنظيمها وإدارتها بمقتضى سذاجة طبيعتهم وبداوتهم على قول ابن خلدون.

وقد غرتهم الفتوحات والغزوات في أقصى البلاد وشرقها وغربها، ولكن ما غرتهم فكرة تنظيم البلاد وسياستها وتنسيقها تحت سلطة واحدة تكفل واستقرار الحالة وتنظيم أمورها الإدارية والعمرانية والمدنية وتوثيق العلاقات بين الممالك المفتوحة وبين عاصمة الخلافة أو على الأقل في بلاد خراسان وتركستان.

وإذا كان هناك أي استقرار في الحالة أو استحكام في أمور الدولة كان ذلك لفترة يسيرة في عهد كل من أسد[١] ونصر بن سيار[٢] وأبي مسلم الخراساني، ولكن سرعان ما اختلف الحالة بسبب نزاع ثأري بين الأمويين والعباسيين، وظهر الاختلاف بين الفرق المختلفة من الفرق الإسلامية جديدة الظهور.

ومازال الحال بهذا المنوال حتى جاء عهد السامانيين واستقل البلاد في عهدهم من سلطة العرب المنقرضة وهم قبضوا شئون الدولة في تركستان فحسب، بل في خراسان وبلاد الفرس أيضًا حتى اتحدت البلاد تحت سلطة واحدة وأخذت الحركة العمرانية والعلمية والأدبية وكذلك الحياة المدنية تنشط من جديد في كل نواحيها. وهنا يبدأ دور الأتراك الذين يلعبونه في تاريخ الإسلام الزاهر فيما بعد. ولكن مهما كان من شئ يرجع الفضل في نمو هذه الحركة العلمية والمدنية إلى العرب، حيث أنهم جاءوا لا بالغزوات والدين الجديد فحسب، بل

---

[١] هو الأمير الفاتح ووالي خراسان أبو المنذر أسد بن عبد الله بن يزيد بن اسد القسري البجلي، كان أسد بن عبد الله من عظماء الأمراء الفاتحين في خراسان والعصر الأموي ويعتبر آخر القادة الفاتحين في العصر الأموي، وكان جواداً ممدحاً، وشجاعاً مقداماً. كتاب قبيلة بجيلة، نسبها، أخبارها، بطونها وفروعها، والمنتمون إليها في الكويت، ص١٠٠.

[٢] هو أبو الليث نصر بن سيار بن رافع الليثي الكناني (٤٦ هـ – ١٣١ هـ) أمير، وقائد عسكري، وسياسي، ورجل دولة من الأمراء الأبطال الشجعان، وهو آخر ولاة الدولة الأموية على خراسان، ولاّه هشام بن عبد الملك عليها عام ١٢٠ هـ واستمر والياً عليها حتى نفاه عنها بنو العباس عام ١٣٠ هـ. ولما يلبث بعدها إلا قليلاً حتى توفي في قرية ساوة من قرى مدينة الري في بلاد فارس عام (١٣١ هـ/٧٤٨ م) وعمره خمس وثمانين عاماً. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧٤/٦. البلاذري، أنساب الأشراف، ١١ /١٠١.

بالحضارة والثقافة الحديثتان في الشرق الأدنى، وعلى الأقل فتحت أبوابها في وجه البلاد مباشرا ومن الروم الأدني غير مباشر.

وكما قدمنا أن العرب قد وجهوا غزواتهم نحو بلاد تركستان من نقطتين هامتين أرمينية وآذربيجان. فتح آرمينية واحتكاك العرب بالأتراك وكانت أول نقطة العرب موجهين غزواتهم حيث كان بكير بن عبد الله وعتبة بن فرقد قد فتحا في خلافة عمر بلاد آذربيجان الواقعة شرقي بلاد آرمينيا - فكتب بكير بالفتح إلى عمر. فكتب عمر إلى سراقة بن عمرو[١] بغزو الباب وعلى مقدمة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى ميمنة بن أسد الغفاري وبكير بن عبد الله المتقدم أن يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة. فلما نهض سراقة من البوة لوجهه، تقدم عبد الرحمن إلى أرمينيا الشرقية وفتحها حتى وصل إلى الباب (دربند) على شط بحر الخزر وعليها شديار فكاتبه واستأمنه، ولما فرغ سراقة من الباب بعث الامراء والقواد إلى ما يليه من بلاد أرمينية، فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان وحبيب بن سلمة[٢] إلى تفلس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان[٣] إلى بلاد جبال القوقاز فاشتبكت جنوده في أرمينية وأطرافها

[١] قَالَ سيف بن عمر: ورد عمر بن الخطاب سراقة بن عمرو إلى الباب، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. وسراقة بن عمرو هو الذي صالح أهل أرمينية والأرمن على الباب والأبواب، وكتب إلى عمر بذلك، ومات سراقة هنالك، واستخلف عبد الرحمن ابن ربيعة، فأقره عمر على عمله. قَالَ: وكان سراقة بن عمرو يدعى ذا النور، وكان عبد الرحمن بن ربيعة يدعى أيضا ذا النور. ابن الأثير، أسد الغابة.

[٢] حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي، قائد من كبار الفاتحين. ولد بمكة ورأى رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخرج إلى الشام مجاهدا في أيام أبي بكر، فشهد اليرموك، ودخل دمشق مع أبي عبيدة، فولاه أبو عبيدة أنطاكية، ثم أمّره عمر بن الخطاب بامداد سراقة بن عمرو، فسار حبيب، وتوغل في أرمينية، واشتهرت أعماله وشجاعته فيها. ثم قصد المدينة حاجا فأكرمه عمر، وعاد إلى الشام في ولاية معاوية، فكان يغزيه الروم إلى أن ولاه عمر على الجزيرة، وضم إليه أرمينية وأذربيجان. ثم عزله فأقام في الشام. ولما استخلف عثمان بعثه هو وسلمان بن أبي ربيعة لإخضاع جماعة انتقضوا في أذربيجان، فأخضعاهم. وكان معاوية يستشيره في كثير من شؤونه. وكان يقال له (حبيب الروم) لكثرة دخوله بلادهم ونيله منهم. وهو فاتح كثير من بلاد أرمينية حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الأسود. وكان عثمان يريد توليته أرمينية كلها إلا أنه خاف أن تشغله السياسة عن القيادة، فاكتفى بأن ناط به غزو ثغور الشام والجزيرة. ولما صفا الملك لمعاوية ولاه أرمينية فتوفي فيها. الزركلي، الأعلام.

[٣] حذيفة بن اليمان العبسي الغطفاني القيسي، صحابي جليل ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات

مع الأمير أوهان بن كاساركان وأخيه دسيران فقتلا وتشتت جندهما بخيانة أحد قواد الأرمن المسمي ساحور، فإنه خان أوهان وانضم بجيشه إلى العرب، كما يقول ديفرجي وصاحب تاريخ الأرمن.

أما حبيب بن سلمة الفهري الذي قص كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له ثيودر أحد أمراء البلاد، وكانت البلاد منقسمة على بعضها وبذلك سعي في جمع كلمة الأمراء في أرمينيا ودخولهم تحت لوائه لصد المسلمين ففشل فيما حاول، وكان البطريق أستراس يؤازره ويعضده - فلما رأى أن الأمر على غير ما يشتهي أصابه الغم الشديد ومات غما وكمدا. بينما الأرمن مهتمون في إقامة بطريك - غيراتراس - إذ فاجأهم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصروا مدينة دوفان - أو تفين وفيها كرسي البطريق.

ويقول ديفرجي: أن حصارها بدأ في نوفمبر سنة ٦٣٩م ذي القعدة سنة ١٨هـ وإستمر إلى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠م ٥ محرم ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذه في إتمام فتح أرمينيا وكردستان، ففتح وان وبخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الروس يسميه الجغرافيون أراس وأراكس، ثم سار إلى أرمينية الغربية ثم عطف على أيبيريا التي هي جزء من كرجستان الحالية وأخذ عاصمتها وسائر مدنها الكبرى - وفي أثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقره عمر على ثغر الباب وأمره بغزو الترك. فسار شمالاً مجتازًا مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطئ بحر الخزر. وبعد أن اجتاز الباب أوغلت خيله في السهول الشمالية إلى مائتي فرسخ من بلنجر (ته رك) ثم عاد لم يقم له أحد من أهل تلك الناحة.

وقد حكى الطبري وغيره من المؤرخين القدماء أن أهل تلك

سنة ٣٦ هجرية في المدائن.

الناحية كانو يعتقدون أن هؤلاء العرب لا يموتون ولا يقطع فيهم السلاح. فكانوا يهربون منهم الفياض. ثم عاد عبد الرحمن إلى الباب وجعل يردد غزواته في تلك الناحية إلى أن جرب أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن في إحدي الغابات ورمى رجلا منهم فقتله فأخبر قومه بأن هؤلاء المسلمين كالناس يقتلون ويموتون فطمعوا في المسلمين واجتمعوا لقتالتهم وقد قتل عبد الرحمن بن ربيعة في إحدي الوقائع في بلادهم زمن عثمان[١].

ظهور الترك في الثغور

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم في غزواتهم، حتى أكمنوا لهم في بعض الفياض فقتلوا بعضهم فتجاسروا على حروبهم، وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينية إلى الباب واستخلف عليها سراقة بن عمرو وأقره عمر، وكان كثير الغزو في بلاد الخزر وكثيرًا كان يغزو بنلجر، وكان عثمان قد نهاه عن ذلك فلم يرجع فغزاهم سنة ثنتين وثلاثين وجاء الترك لمظاهرتهم وتذامروا فاشتد الحرب بينهم كما مروا، فتفرقوا فرقتين فرقة سارت نحو الباب لقو سلمان بن ربيعة، قد بعثه سعيد بن العاس من الكوفة مددًا للمسلمين بأمر عثمان، فساروا معه وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة، ثم استعمل سعيد بن العاص[٢] على الباب سلمان بن ربيعة[٣] مكان

---

[١] عبدالوهاب سنجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٧٢.

[٢] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي، وهو صحابي صغير، ولي الكوفة في عهد عثمان بن عفان قرابة خمس سنين، وغزا طبرستان فافتتحها، ولما وقعت فتنة الخلافة بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان اعتزل الفتنة، وأقام بمكة، وكان معاوية يقدمه من بين رجالات قريش، وولاه المدينة المنورة سنة ٤٢ هـ لأكثر من مرة مناوبة مع مروان بن الحكم. الذهبي، سير أعلام النبلاء. ابن سعد، الطبقات الكبرى.

[٣] سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو الباهلي. نسبة إلى أمهم باهلة بنت صَعْب بن سعد العَشِيرة، وقيل

أخيه وبعث معه جندا من أهل الكوفة عليهم حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام وسلمان أمير على الجميع ونازعه حبيب الإمارة فوقع الخلاف، ثم غزا حذيفة بعد ذلك ثلاثة غزوات آخرها عند مقتل عثمان. وأما من ناحية خراسان خرجت جمع الترك سة ثنتين وثلاثين في أربعين ألفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهى إلى الطبسين واجتمع له أهل بادغيس وهرات وقهستان. وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهثم السلمى[١].

زحف أحنف بن قيس نحو طخارستان واحتل بلخ عاصمتها وأكبر مراكزها و من ثم اندفع نحو خوارزم التي تعرف اليوم بخيوه، إلا أنه لم يوفق في احتلال هذا الإقليم. وقد كان اجتياز هذه النهر خطوة مندفقة تمهيدية لم تتميز بالاستقرار إذ سرعان ما استرد الأتراك إقليم طخارستان من أيدي المسلمين ثم أقر أحنف بن قيس[٢].

وكان انتشار الإسلام في بلاد ماوراء النهر بطئا ظاهرا. فقد استجاب بعض الأهالي إلى دعوة محمد الثاني (٧١٧-٧٢٠) للتدين بالإسلام[٣]، ثم أصبحت مركز نشاط للثقافة العربية وحاملي لواء الإسلام في آسيا الوسطى على مثال مرو نيسابور في خراسان[٤].

نسبة إلى باهلة بن يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان، قائد وقاض مسلم. شهد فتوح العراق والشام، واستقر في العراق. عيّنة الخليفة عمر بن الخطاب قاضياً على الكوفًة. ولّي غزو أرمينية في عهدي عمر، وعثمان. وفتح ما بين أذربيجان إلى باب الأبواب، وبلغ مدينة بلنجر، وقتل فيها. وهو أخو عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. أُختلف في صحبته لنبي الإسلام محمد. كما أُختلف في تاريخ وفاته بين عامي ٢٨ و٣١ هـ (٦٤٨-٦٥٢م). ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ١١٧/٣. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. ١، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٢)، ٢، ص. ٦٣٣.

[١] صفحة ١١٨ مفقودة من المخطوط.

[٢] صوت التركستان ص ٩ عدد ٣ سنة ١٩٥٣

[٣] البلاذري، ص ٤٢١.

[٤] حتي، ص ١٠٩.

استتب أمر الحجاج واطمئن من الأمن الداخلي في ممتلكاته ووجه قوَّاده إلى الشرق. فأمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي[١] عامل سجستان الزحف على خلاف رتبيل وزنبيل التركي ملك كابل في سنة (٦٩٩-٧٠٠) الذي كان أعرض عن أداء الخراج. فسار عبد الرحمن بجيش عظيم مجهز أحسن تجهير فنجح نجاحا باهرا، وكان جيشه هذا يسمي بجيش الطواميس لحسن تجهيزه[٢].

وكان الفضل يعود في فتح تركستان إلى القائد الشهير قتيبة بن مسلم الذي يوليه الحجاج على خراسان سنة ٧٠٤ بعاصمتها مرو، فسار قتيبة بجيش عظيم مشكل على قول البلاذري[٣] والطبري من أربعين ألف من عرب البصرة وسبعة آلاف من عرب الكوفة وسبعة آلاف Clients، فأجرى قتيبة عدة مغازي ناجحة فاستولى سنة ٧٠٥ على طخارستان السفلي بعاصمتها بلخ (باكتريا عند الإغريق)، ثم فتح ما بين سنة ٩-٧٠٦ بخارى في بلاد الصفد ونواحيها، وأيضًا سمرقند ما بين سنة ١٢-٧١٠، وخوارزم (خيوه اليوم) في الغرب.

وهو تغلغل ما بين سنة ١٥-٧١٣ بغزواته الناجحة إلى نحو سيحون ولا سيَّما فرغانه، فتوثق بعدها حكم العرب في تركستان وسارت بخارى وسمرقند وخوارزم.

فتح خراسان وماوراء النهر

وجه العرب غزواتهم قاصدين بلاد تركستان. فلما استخلف عثمان بن عفان، ولَّى عبدالله بن عامر بن كريش البصرة في سنة ثمان

[١] عبد الرحمن بن محمد الكندي كان قائداً عسكرياً أموياً من أهل الكوفة وأشرافها.

[٢] المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ٣١٤.

[٣] العلامة، الأديب، المصنف أبو بكر، أحمد بن يحي بن جابر البغدادي البلاذري، الكاتب، صاحب «التاريخ الكبير». توفي بعد السبعين ومائتين رحمه الله. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣/١٦٣.

وعشرين أو تسع وعشرين وهو ابن خمس وعشرون سنة، فافتتح عبد الله بن عامر من أرض فارس ما افتتح ثم غزا خراسان في سنة ثلاثين، ثم استخلف على البصرة زياد بن ابي سفيان وبعث على مقدمته الأحنف بن قيس، ويقال عبد الله بن حازم فأقر صلح الطبتين (وكانا حصنان وبابا خراسان) بعد أن فرغ من صلح الطبتين قدم ابن عامر إلى قوهستان فلقيه هنا أتراك الهياطلة[١].

فتح مرو بعد فتح هرات وبوشنج وبادغيس بعد مرزبان مرو وشاهجان، وفي ذات الوقت ابن عامر توجه إلى مرو حاتم بن النعمان الباهلي[٢] فصالحه على ألفي ألف ومائتي ألف درهم[٣].

ثم وجه عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس نحو طخارستان وله رستاق عظيم برستاق الأحنف، فحضر أهله فصالحوه على ثلاثمائة ألف، وهنا أنشأ الأحنف قصرا في رستاق عظيم قد عرف بعده برستاق الأحنف، قصر الأحنف وكان حصينا من مرو الروز[٤]. ثم مضى الأحنف إلى مرو الروز فحضر أهلها وقاتلوهم قتالاً شديدًا - فهزمهم المسلمون ومن معهم من الأتراك ثم طلبوا الأمان فصالحه[٥].

ثم فتح الأحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب، ثم سار إلى بلخ وهي مدينة طني فصالحهم أهلها على أربعمائة ألف أو سبعمائة ألف، فاستعمل على بلخ أسيد بن المتشمس ثم سار إلى خوارزم وهي من سقي النهر جميعا ومدينتها شرقية فلم يقدر عليها فانصرف

---

[١] البلاذري، ص ٣٩٤.

[٢] حاتم بن النعمان بن عمر بن عمارة بن عبد العزيز بن عبد العزى، شهد مع معاوية صفين وكان أميرًا على بعض العسكر وكان حاتم هذا سيد بني باهلة بالجزيرة وهو الذي افتتح مرو في زمن عبد الله بن عامر انتهى. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٧٩/١١.

[٣] البلاذري، ٣/ ٣٩٦.

[٤] البلاذري، ٣/ ٣٩٦.

[٥] البلاذري، ٣/ ٣٩٧.

إلى بلخ وقد حيي أسيد صلحها بمالك ثم بيد عبد الله بن عامر فتح ما دون النهر، فلما بلغ أهل ماوراء النهر أمره طلبوا إليه أن يصالحهم ففعل[١]. ثم افتعل ابن حازم عبدًا على لسان ابن عاد وتولى خراسان فاجتمعت بها جموع الترك في أربعة آلاف ففضهم، هو لم يزل واليا عليها إلى حرب الجمل.

ويقال عثمان بن عفان عقد لمن وراء النهر، قالوا وقدم قدم ماهويه مرزبان مرو على علي بن أبي طالب في خلافته وهو بالكوفة. فكتب له إلى الدهاقين والأساورة والدهشلارين أن يؤدوا إليه الجزية. فانتقضت عليهم خراسان فبعث جعدة بن هبيرة المخزومي وأمه أم هانئ بنت أبي طالب فلم يفتحها ولم تزل خراسان ملتاثة حتى قتل علي عليه السلام، قال أبو عبيدة أول عمال على خرسان عبد الرحمن بن أبزى مولى خزاعة ثم جعدة بن هبيرة بن أبي وهب ابن عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم[٢]. ثم ضم معاوية إلى عبد الله بن عامر مع البصرة خراسان، فولى ابن عامر قيس بن الهيثم السلمي خراسان، وكان أهل بادغيش وهرات وبوشنج وبلخ على نكثهم، فسار مرة ثانية إلى بلخ فأخرب نوبهارها، وكان الذي تولى ذلك عطاء بن السائب مولى بني الليث وهو الخشل. وإنما سمي عطاء الخشل واتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بلخ على فرسخ فقيل قناطر عطاء، ثم أن أهل بلخ سألوا الصلح ومراجعة الطاعة فصالحهم قيس ثم قدم على ابن عامر فضربه مئة وحبسه[٣].

استعمل معاوية عبد الله بن خازم، ولما علموا أهل هرات وبوشنج وبادغيس عن أمره طلبوا الأمان والصلح فصالحهم بمال

[١] البلاذري، ٣/ ٣٩٧
[٢] البلاذري، ٣٩٥/٣.
[٣] البلاذري، ٣٩٦/٣.

كثير. ثم ولى زياد بن أبي سفيان البصرة في سنة خمسة وأربعين.

يقول محمد بن جرير الطبري: «بعث علي بن أبي طالب بعد عودته من معركة صفين جعدة بن هبيرة المخزومي إلى خراسان، فانتهى إلى أبرشهر، وقد كفروا وامتنعوا، فقدم على علي، فبعث إليهم علي خليد بن قرة اليربوعي التميمي، فحاصر أهل نيسابور حتى صالحوه، وصالحه أهل مرو، وكان ذلك سنة ٣٧هـ[١]. وهو اغتنم الفرصة من الفرص التي طارت على الساسانيين إثر غزو العرب وقاد الجيوش الإسلامية إلى بلدة بلخ التي كانت كحكم الباب الجنوبي لبلاد ماوراء النهر[٢].

فهو ولى أمير بن أحمر مرو، وخليد بن عبد الله الحنفي أبرشهر، وقيس بن الهيثم مرو الروز والطالقاس والفارياب، ونافع بن خالد الطاحي من الأزد هرات، وبادغيس وبوشنج وقادس من أنواران. فكان أول أمير من أسكن العرب مرو، ثم ولى زياد الحكم بن عمرو الغفاري، فمات بها في سنة خمسين، وكان الحكم أول من صلى فيما وراء النهر. ثم ولى زياد بن أبي سفيان الربيع بن زياد إلى سنة إحدى وخمسين خراسان[٣]، كان معه من أهل المصريين زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم. والربيع هذا أول من أمر الجند بالتناهد. وهو مات سنة ثلاث وخمسين. ثم بعد موت زياد بن أبي سفيان، تولى معاوية ابنه عبيد الله بن زياد خراسان وهو لا يزال ابن خمس وعشرين سنة على الكوفة والبصرة وآل إليه معهما خراسان واتخذ هو من مرو نقطة انطلاق ومعسكرًا هامًّا، إذ حمل خمسين أسرة على أن تهاجر من البصرة والكوفة وأن تستقر في خراسان المناطق المشرفة

---

[١] الطبري، التاريخ، ٧ /٤٦

[٢] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٢٣

[٣] البلاذري، فتوح البلدان، ٣/٥٠٧.

على جيحون، وبذلك وضع أول لبنة في فتح تركستان الأساسي. ثم زحف عبيد الله بن زياد نحو التركستان وقد وفق في احتلالها، ولكنه وفق على ذلك بأن يستعين برماة من أهل بخارى أنفسهم في تقدمه العسكري: ولكن المسلمين العرب لم يستطيعوا أن يحتفظوا بثمرات هذا الفتح إذ اجتاحهم التعصب القبلي، بينما أخذ أمراء الترك في تنظيم صفوفهم وتويحد شملهم وتمكنوا بذلك من إرجاع المسلمين إلى ماوراء النهر[١].

وكان من جملة الغنائم التي حصلها إبان فتح بخارى نعل الملكة المرصع بجواهر ثمينة تقدر قيمتها عشرون ألف درهم[٢].

عهد العرب في تركستان

قطع عبيد الله بن زياد النهر في ٢٤٠٠٠ مقاتل، فأتى بيكند وقصد بخارى، فأرسلت ملكة بخارى إلى الترك تستنجدهم فجاءها منهم الجيش الدعمي، فهزمهم المسلمون، فبعثت إليهم خاتون لطلب الصلح والأمان فصالحها على ألف ألف ودخل المدينة واستولى على بخارى وفتح رامدين وبيكند[٣].

ثم ولى الخليفة معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النحو بجنده، وكان معه رجل يقال له رفيع أبو العالية الرياحي فتفائل بهذا الاسم خيرًا وقال: رفيع أبو العالية رفعة وعلو. فلما بلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر فحملت إليه الصلح وأداء الإتاوة، وبينما هي داخلة في الطاعة أقبل الترك من السغد وكش ونسف في مائة

[١] صوت التركستان ص ٣-٩ سنة ١٩٥٣

[٢] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٢٤.

[٣] الأمير شكيب أرسلان، تعليقات على ابن خلدون ص ٩٢. البلاذري، ص ٤٠٢.

وعشـرين ألـف مقاتـل وألتقـوا ببخـارى، وقـد رفضـت خاتـون علـى طاعتها للعرب وعلى أدائها الإتـاوة ونكثت العهـد، إلا أن العـرب هزموا الترك فرجعـت خاتـون إلـى الصلـح وأعطـت الرهـن. ودخـل سـعيد بـن عثمـان بـن عفـان[١] مدينة بخـارى ثـم زحـف إلـى سـمرقند فأعاقته خاتون بأهـل بخـارى علـى بـاب سـمرقند وحلـف أن لا يرجـع أو يفتحهـا، ومـا زال يضيـق عليهـا الحصـار حتـى صالحـوه وأعطـوه رهائـن مـن أبنـاء ملوكهـم. ثـم أقـام علـى ترمـذ ومـا زال يضيـق عليهـا حتـى فتحهـا، ثـم انتقض أهل الترمذ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلي.

وفـي فتـح بلاد تركسـتان مـن كبـار القـواد قثـم بـن العبـاس بـن عبـد المطلـب[٢] فـي سـمرقند وضريحـه موجـود حتـى الآن وكان مـع سـعيد بـن عثمـان. ثـم ولـى عبـد الرحمـن بـن زيـاد خراسـان، ثـم أنـه بعـد مـوت معاويـة ولـى ابنـه يزيـد بـن معاويـة سـلم بـن زيـاد مـا وراء النهـر، فصالحـه أهـل خـوارزم علـى أربعمائـة درهـم وحملوهـا إليـه، وقطـع سـلم النهـر (جيحـون) ومعـه امرأتـه أم محمـد بنـت عبـد اللـه بـن عثمـان بـن أبـي العـاص الثقفـي، وكانـت أول عربيـة عُبِـر بهـا النهـر. وأقـام سـلم بـن زيـاد بالسـغد وسـرح جيشـا إلـى خوجنـد، ثـم رجـع سـلم بـن زيـاد إلـى مـرو وحشـد هنـاك جيشـا وغـزا بلاد التـرك، فتجمـع لـه أهـل السـغد فقاتلهـم ودوخهـم.

لمـا مـات يزيـد بـن معاويـة اكتـاث النـاس علـى سـلم بـن زيـاد ثـم انصـرف عـن مـا وراء النهـر ومـات بالبصـرة. ثـم تولاهـا عبيـد اللـه بـن

---

[١] سعيد بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، ولي خراسان لمعاوية بن أبي سفيان عام ٥٧ هـ، تابعي جليل وقائد مسلم، وهو ابن الخليفة عثمان. الزركلي، الأعلام، ص ٢٧.

[٢] قثم بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ، كان أشبه الناس برسول الله، تولى نيابة مكة في أيام علي، وشهد فتح سمرقند فاستشهد ودفن بها، وما زال ضريحه قائما فيها.و يقال أنه أحدث الناس عهدا بالرسول. الذهبي، سير أعلام النبلاء.

خـازم السـلمي بعـد سـلم بـن زيـاد[١] فعصـاه سـليمان بـن مرثـد مـن بنـي سـعد بـن مالـك واقتتلا، وكان ذلـك فـي أثنـاء فتنـة عبـد اللـه بـن الزبيـر مـع بنـي أميـة. وطـال القتـال بيـن العـرب فانتهـزت التـرك الفرصـة وشـنوا الغـارات حتـى بلغـوا قـرب نيسـابور[٢]. ولكـن انتهـت هـذه الفتنـة بيـن العـرب بالطاعـة لابـن خـازم. وكانـت العصبيـة العرية بيـن القبائـل هـي العامـل فـي تلـك الفتـن، كمـا كانـت فـي الأندلـس وفـي بلاد الأفرنجـة. وكان عبـد اللـه بـن خـازم لا يتولـى غيـر عبـد اللـه بـن الزبيـر، ولا يطيـع عبـد الملـك بـن مـروان. وكتـب عبـد الملـك إلـى بكيـر بـن وشـاح يوليـه خراسـان فقاتـل ابـن خـازم وتغلـب عليـه وقتلـه، وأرسـلوا برأسـه إلـى عبـد الملـك بـن مـروان فنصبـه بدمشـق، واشـتدت الفتنـة بيـن العـرب فـي خراسـان إلـى أن كتـب وجـوه العـرب إلـى عبـد الملـك بـن مـروان أنـه لا تصلـح خراسـان بعـد هـذه الفتنـة إلا برجـل مـن قريـش فولـى عبـد الملـك علـى خراسـان أميـة بـن عبـد اللـه بـن خالـد بـن أسـيد[٣] وغـزا أميـة بلاد الختـل وقـد نقضـوا بعـد أن صالحهـم سـعيد بـن عثمـان فافتتحهـا[٤]. ثـم جـاءت أيـام الحجـاج بـن يوسـف وكانـت خراسـان مـن جملـة ولايتـه، فولاهـا المهلـب بـن أبـي صفـرة[٥] مـن الأزد وذلـك سـنة ٩٩هـ، فغـزى

---

[١] وقيل أنه لم يحب خراسان أميرا قط حبهم سلم بن زياد فسمي في تلك السنين الت كان بها سلم أكثر من عشرين ألف مولود بسلم من حبهم له. كما سمى هو نفسه ابنه الذي ولدته امرته العربية في ما وراء النهر صفدي.

[٢] البلاذري، فتوح البلدان، ٣/ ٤٠٤

[٣] أميه بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي. (٨٧هـ) أحد رجال الدولة الأموية ووالي خراسان في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان في الفترة ما بين عامي، حيث عزله الحجاج بن يوسف الثقفي وجعل المهلب بن أبي صفرة مكانه. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٧٢/٤.

[٤] البلاذري، فتوح البلدان، ٣/ ٤٠٥.

[٥] هو أبو سعيد المُهَلّب بن أبي صفرة بن سراق بن صبح العتكي الأزدي والي من ولاة الأمويين على خراسان، استعمله الحجاج عاملاً على خراسان عام (٧٨هـ) وقام بفتوحات واسعة في بلاد ما وراء النهر فقد قاد المهلب حملة استولى من خلالها على إقليم الصغد وغزا خوارزم وافتتح جرجان وطبرستان بذلك فرض سيطرة الدولة الأموية على أراض كثيرة فيما وراء النهر وكان لها أكبر الأثر في إثراء الحضارة الإسلامية، وقد برز في تلك المناطق علماء ومفكرون أمثال الخوارزمي والبخاري. العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة. ٧/ ١٨٥.

مغازي كثيرة، وانتقضت الختل في أيامه فدوخها وفتح خجند وأطاعت له السغد وأدت الإتاوة وكذلك نسف. ثم ولى الحجاج بن يوسف المفضل بن المهلب بن أبي صفرة، فتح المفضل بلدانا منها بادغيس وشومان وآخرون. وكان موسى بن عبد الله بن خازم السلمي[١] بعد مقتل ابنه بالترمذ، أتى سمرقند فأكرمه ملكه طرخون ثم أتى الترمذ وامتنع بها وأنكر أن يخرج منها وقاتل أهلها حتى غلب عليه. فاستنجد أهل الترمذ بأهل الترك على موسى فهزمهم موسى، وجدت مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلب فيها كلها[٢]. وكان أهل خراسان يقولون عن موسى بن عبد الله بن حازم السلمي هذا: ما رأينا مثل موسى!! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَل، ثم أتى الترمذ فغلب عليها وهو في عدة يسيرة وأخرج ملكها عنها ثم قاتل الترك والعجم فأوقع بهم الهزيمة إلا أنه لما تولى المفضل بن المهلب خراسان وجه عثمان بن مسعود على رأس جيش، فسار حتى نزل جزيرة، تدعى بجزيرة عثمان، بالترمذ ثم هو قاتل موسى على الترمذ، فانهزم موسى وقتل وتولى الترمذ مدرك بن المهلب. وكان قتل موسي في آخر سنة ٨٥هـ[٣].

في عهد وليد بن عبد الملك ولى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي على إقليم خراسان أي المقاطعة الشرقية التي تمتد من نهر جيحون حتى الهندوش، وهو أشهر فاتح عربي لبلاد الترك. وهو لعب دوراً هامًّا في فتح تلك البلاد ففتح في ما وراء النهر الفتوحات الكبار

---

[١] موسى بن عبد الله بن خازم السلمي، أمير من شجعان العرب وفتاكهم ومن أهل الدهاء والحرب، كان والده عبد الله بن خازم اميرا على خراسان لعبد الله بن الزبير، وقتل والده لاحقا على يد الامويين بعد مقتل عبد الله بن الزبير، ثم تحصن موسى بعد مقتل أبيه في مدينة ترمذ لسنوات طويلة يقاتل فيها الامويين من جهة والاتراك من جهة أخرى، ومعه عدد من انصاره العرب الموالين له ولأبيه.

[٢] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٧.

[٣] البلاذري، فتوح البلدان، ٥١٦/٣.

وكان ذلك بداية دخول الأمة للإسلام.

فلما كان ببلاد الطالقان تلقاه دهاقين بلخ، فعبروا معه النهر، وقدم إليه ملك الصغانيان بهدايا وأعطاه الطاعة، واستعان به على ملك آخرون وشومان الذي كان عدوا لملك الصغانيان، ثم أقبل على قتيبة ملك كفتيان وقدم له الطاعة، فانصرف قتيبة إلى مرو، وخلف أخاه صالحا على ماوراء النهر. ففتح صالح كاسان وأورثت من بلاد فرغانه وسفنجر وخشكت أيضًا من بلاد فرغانه القديمة. وكان في جيش صالح هذا نصر بن سيارة المسهوري – وكان صالح آخر من فتح كاسان وأورثت وقد انتقض أهلها في خلافة أمير المؤمنين المنتصر بالله [١]– ثم أطاع ملك الجوزجان وقدم قتيبة بيكند سنة ٨٧هـ فاستنصر أهالي بيكند أتراك الصفد فهزمهم قتيبة وفتح بيكند، ثم فتح توشكت وكرمينية، ثم استخلف على مرو أخاه بشارا، ثم زحف نحو بخارى سنة ٨٨هـ ودخلها صلحا ثم أوقع بالسغد وافتتح طخارستان و فتح كش ونسف.

وكان ملك خوارزم (خيوه) قد عصاه أخوه خرزاد فالتجأ الملك إلى قتيبة، فوجه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بجيش فقاتل خرزاد فقتله وأوقع بجماعته، وأعاد الملك إلى أخيه، ثم وثب الأهالي بالملك فقتلوه، فولى قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم على خوارزم ثم غزا قتيبة سمرقند فاجتمعوا لقتاله، وكتب ملك الصغد إلى ملك الشاس (طاشكند) وكان هو مقيما بالطاربند فاتجهوا إليه في خلق كثير فقاتلهم المسلمون وهزموهم وصالحهم ملك سمرقند خرزك على ألفي ألف ومائتي ألف درهم في كل عام.

ثم توجه قتيبة نحو ترمذ وغيرها من المناطق المشرفة على نهر

---

[١] البلاذري، فتوح البلدان، ٣/٤٠٩.

جيحون، وهناك التقى بالقائد التركي «كول تكين» الوالي على الولايات الغربية من التركستان من قبل قابغاخان، وحمى وطيس القتال بين الفريقين وانهزم جيش قتيبة واضطر بعدئذ إلى الانسحاب نحو مرو. وكان سبب انهزامه هذا؛ الاختلافات القبيلة بين العرب. وحينئذ أدرك أن ما للخلاف القبلية من الأثر في توهين الفتوح، ولذلك صرف همه أن يوصله ما يوحد بين العرب وأن يزيل الخلافات القبلية وأن يستنهض همهم وأن يرسم لحياتهم في الدنيا والآخرة صورة زاهية فتحت في نفوسهم ما أغلقت الخلافات، وفضلا على ذلك فقد تمكن من تجهيز جيش من الفرس الخراسانيين المخلصين في العقيدة، كما أمر الحجاج بقوة من خيرة الجنود، وبعد أن تم هذا، ولو أن الأتراك قد استبسلوا في الدفاع عن بلادهم إلا أن قتيبة قد تمكن بفضل دهائه وخطبه الحربية من فتحها فتحا نهائيا. ومن ذلك الحين ثبتت دعائم الإسلام في البلاد بالرغمن من بعض الاضطرابات التي نشبت في سمرقند وبخارى اللتين أصبحتا فيما بعد أعظم حصون الإسلام في آسيا الوسطى[١].

وقد انتدب قتيبة في حكم هذه البلاد حكاما من العرب تسلموا إدارة الشئون الحربية وجباية الأموال وتركت إدارة الحكومة المحلية والمدنية إلى حكام من أهل البلاد[٢]. كما أسكن العرب في أرض فرغانه والشاش. ومن القبائل التي جاءت بهم قتيبة واستوطنهم فيها وفي بخارى كانوا قبائل نصر وربيع الذين أسكنهم قتيبة في محلة نون، واليمنيين الذين أسكنهم في محلة المشردين في بخارى[٣].

فدخل قتيبة سمرقند وصلّى واتخذ مسجدًا وخلف بها جماعة من

---

[١] بروكلمان، ص ١٦٦ نسخة مرمر.
[٢] صوت التركستان العدد الثالث – السنة الأولي ص ٧–٨ ١٩٥٣.
[٣] نرشخي، ص ٥٣.

المسلمين فيهم الضحاك بن مزاحم[١] (صاحب التفسير). وكان في صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران، فأخرج قتيبة الأصنام وسلب حليتها وأحرقها. وكانت الأعاجم (الأتراك) يعتقدون بها، فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ولم يحصل له سوءًا أسلم منهم خلق[٢].

ثم فتح قتيبة بلاد الشاش وبلخ، وقد كان سعيد بن عثمان بن عفان قد تغلب على سمرقند وخوارزم صلحا، ولكن قتيبة استقل هذا الصلح وأبى إلا فتحها بالقوة ثم فتح بيكند وكش ونسف. وقيل: والشاش وبعض فرغانه، وغزا أشروسنه.

وفي عام ٨١٤م، أثار نفي أخيه سنده الأول في فتوحاته فانسحب قتيبة إلى قاعدته مرو وفي السنة التالية توفي الوليد بن عبد الملك. ولما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم مستوحشا منه، كارها لخلافته وكان بينهما خصومة عنيفة غلبت في إحجام الأول عن المبايعة للثاني[٣]، فكتب سليمان إلى قتيبة يأمره بإطلاق كل من في حبسه، وأن يعطي الناس أعطياتهم، ويأذن لمن أراد أن يرجع، وكانوا متطلعين إلى ذلك.

وفي نفس الوقت قتل قتيبة بني عمر بن الأهتم[٤] فهم يطلبونه بدمائهم، فسعوا إلى وكيع فأعطاهم يده فبايعوه، وكان وكان السفير بينه وبينهم حيّان مولى مصقلة بن هبيرة[٥]، وكان بخراسان يومئذ من

---

[١] هو الضحاك بن مزاحم من بني هلال، وكنيته أبو محمد، وقيل أبو القاسم، قال الذهبي: «صاحب التفسير كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه». أخذ التفسير عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس، وقدم الضحاك مرو، وسمع منه التفسير عُبَيد بن سُلَيْمان، مولى عبد الرحمن بن مسلم الباهلي. سير أعلام النبلاء، ٤/ ٥٩٨. محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، الطبقات الكبرى. (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨). ٦/ ٣٠١.

[٢] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٠.

[٣] البلاذري، أنساب الأشراف، ١٢/ ١٩٠.

[٤] هو من بني عمرو بن الأهتم: أبو بشير وكان يلقب أبا الزقاق. البلاذري، أنساب الأشراف، ١٢/ ٢٧٣.

[٥] البلاذري، أنساب الأشراف، ١٢/ ١٩٠.

أهـل البصـرة أربعـون ألفـا ومـن أهـل الكوفـة سـبعة آلاف ومـن المواليـ سبعة آلاف، فلـم يـأذن قتيبـة فـي الرجـوع، فثاروا عليـه فانتصـر لـه العجـم علـى العـرب، وكانـت حربـا بيـن الفريقيـن فظفـر العـرب بقتيبـة وقتلـوه ممـا أدَّى إلـى توقـف الفتوحـات الإسلاميـة فـي بلاد تركستان وخراسـان ومـاوراء النهـر، وقتـل معـه جماعـة مـن إخوتـه وقتلـت زوجتـه ونجـا أخوه ضـرار بواسـطة بنـي تميـم، وأخـذت الأزد رأس قتيبـة وخاتمـه وبعثـوا فيـه إلـى الخليفـة سـليمان مـع سـليط بـن عطيـة الحنفـى، وكان قتيبـة يـوم قتـل ابن ٥٥ سنة[١].

وبعـد قتـل قتيبـة رحمـه الله تولـى خراسـان وكيـع بـن حسـان بـن قيـس التميمـى[٢]، وأراد سـليمان بـن عبـد الملـك أن يثبتـه فـي الولايـة، ولكـن قيـل لـه: إن وَكِيعـا ترفعـه الفتنـة وتضعـه الجماعـة وفيـه جفـاء وأعرابيـة، وكان وَكِيـع يدعـو بطسـت فيبـول والنـاس ينظـرن إليـه فمكـث تسـعة أشـهر حَتَّـى قـدم عَلَيْـهِ يزيـد بْـن المهلـب، وكان بالعـراق، فكتـب إليـه سُـلَيْمَان أن يأتـي خراسـان وبعـث إليـه بعهـده فقـدم يزيـد مخلـدا ابنـه فحاسـب وَكِيعـا وحبسـه، وقـال لـه: أد مـال اللَّـه فقـال: أو خازنـا للـه كنـت، وغـزا مخلـد البتـم ففتحهـا ثُـمَّ نقضـوا بعـده فتركهـم ومـال عنهـم فطمعـوا فـي انصرافـه، ثُـمَّ كـر عليهـم حَتَّـى دخلهـا ودخلهـا جهـم بْـن زحـر وأصـاب بهـا مـالا وأصنامـا مـن ذهـب فأهـل البتـم ينسـبون إِلَـى ولائه.[٣]

---

[١] البلاذري، أنساب الأشراف، ١٢/١٩١.

[٢] هو وكيع بن حسان بن أبي سود بن كلب بن عوف بن غدانة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم قاتل قتيبة بن مسلم الباهلي. قال ابن دريد: ـ وكيع بن حسان الذي يقال له ابن أبي سود، وكان سيد بني تميم ورأسهم في خراسان، وهو الذي خرج على قتيبة بن مسلم بخراسان فقتل قتيبة.. ثم تولى خراسان لأشهر وعزله سليمان بن عبد الملك واعاد يزيد بن المهلب لولاية خراسان مره أخرى إلى ان عزله عمر بن عبد العزيز وولى الجراح بن عبد الله الحكمي.

[٣] البلاذي، فتوح البلدان، ٤١٠.

ولاية خراسان

وأقام المهلب بعد انصرافه بالبصرة في منزله حتى وفاه عهده من عند عبد الملك على خراسان، فسار إليها فمكث عليها خمس سنين ثم مات.

فجعل عبد الملك أمر خراسان إلى الحجاج، فأقر الحجاج عليها يزيد بن المهلب. وكان يزيد أجمل ولد المهلب جمالاً وأكملهم عقلاً، وأفضلهم رأيًا وأذربهم لسانًا. وكان المهلب استخلفه عليها عند وفاته، فمكث عليها أعوامًا، ثم عزله الحجاج واستعمل عليها قتيبة بن مسلم، فافتتح كل ماوراء النهر، ولم يزل هناك إلى أن هاج به أصحابه فقتلوه[١].

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز بن الوليد أخذ يسلك في ماوراء النهر سياسة اللين فاكتفي للكتابة إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، ولكن سياسته اللينة هذه دفعت سكَّان هذه المناطق بعضهم إلى الإسلام وبعضهم إلى الثورة والاعتصام. وكان غورك ملك بلاد الصغد يفكر في استغلال الفرصة لإعادة استقلاله بوضع حيلة، حتى وفد قوم من أهل سمرقند يرفعون إليه أن قتيبة كان قد دخل مدينتهم عذرًا وأسكنها المسلمين العرب فيها قهرًا، فكتب عمر لسليمان بن أسدي وإلى سمرقند بنصب القاضي والنظر فيما ذكروا، فنصب لهم جميع بن حاضر الباحي الذي حكم بإخراج المسلمين والتخلي عمن ما وراء النهر جملة إلا أن العرب في بخارى

---

[١] الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ٢٨٠.

وسـمرقند رفضـوا لهـذا الحكـم وبقـوا فيهـا. ثـم رفـع الخليفـة عمـر الخراج عمن أسلم وفرض العطاء للمسلمين منهم وبني الخانات.

وكان عامـل عمـر علـى خراسـان الجـراح بـن عبداللـه الحكمـى، فوجـه الجـراح أحـد قـواده عبـد اللـه بـن معمـر اليشـكري إلـى مـاوراء النهـر، فأوغـل فـي بلاد العـدو وهـم بدخـول الصيـن، فلمـا تكاثـر عليـه التـرك وأحاطـت بـه رجـع إلـى الـوراء وامتنـع ببلـدان شـاش، ثـم كتـب للخليفـة أن لا يصلـح خراسـان إلا أليـف فاغتـاظ عمـر مـن كلامـه هـذا فعزلـه ثـم ولـى عبـد الرحمـن بـن نعيـم الغامـدي حـرب خراسـان، و عبدالرحمـن بن العشيري خراجها[١].

وفـي خلافـة يزيـد بـن عبـد الملـك تولـى العـراق وخراسـان مسـلمة بـن عبـد الملـك، فولـى مسـلمة سـعيد بـن عبـد العزيـز بن الحـارث بـن الحكم بـن أبـي العـاص بـن أميـة الملقـب بحذيفـة خراسـان، وبعـث ابنـه إلـى مـاوراء النهـر فنـزل إشـتيخن فزحـف إليـه التـرك فقاتلهـم وهزمهـم. ثـم لقـي التـرك مـرة ثانيـة فانهـزم أصحـاب سـعيد، فولـى سـعيد نصـر بن سيار علـى الجيـش فيمـا وراء النهـر فتـح بيـده (٧٣٨-٧٤٦) إخضـاع معظـم المناطـق الأخـري واسـترجاع المـدن التـي قامـت بثـورة منـذ السياسـة الحديثـة، ثـم جـاء قـوم مـن وجـوه خراسـان إلـى مسـلمة بـن عبـد الملـك وإلـى العـراق وخراسـان وشـكوا سـعيدا فعزلـه مسـلمة وولـى سـعيد بـن عمـر الجرشـي علـى خراسـان فافتتـح الجرشـي عامـة حصـون الصفـد ولكنـه عـزل مـن قبـل عمـر بـن هبيـرة الغـزازي الـذي كان تولـى العـراق فـي خلافـة هشـام بـن عبـد الملـك، ثـم اسـتعمل هشـام علـى خراسـان مسـلم بـن سـعيد فغـزا أفشـيني فصالحـه علـى سـتة آلاف رأس ودفـع إليـه

---

[١] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٥/٣٢٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٥.

قلعته ثم انصرف إلى مرو[١].

ثم تولي العراق خالد بن عبدالله القسري من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك، فولى خالد أخاه أسد بن عبد الله بلاد خراسان وبلغ ذلك مسلم بن سعيد فسار إلى فرغانه وأناخ على مدينتها، فقطع الشجر وأخرب العمارة وانحدر عَلَيْهِ خاقان الترك في عسكره فارتحل عن فرغانة وسار في يوم واحد ثلاث مراحل حَتَّى قامت دوابه وتطرفت الترك عسكره. وغزا أسد بن عبد الله القسري جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم، وغزا الختل فلم يقدر عليها، ثم ثُمَّ شخص أسد عن خراسان وخلف عليها الحكم بْن عوانة الكلبي. ثم استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السلمي على خراسان، فدعا أهل ما وراء النهر إِلَى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم فسارعوا إِلَى الإِسْلام وانكسر الخراج[٢]. ثم استعمل الخليفة هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن المري على خراسان فحارب الترك وهزمهم و فظفروا بابن خاقان وهو سكران يتصيد، فأخذوه فأتوا به الجنيد بْن عَبْد الرَّحْمَنِ فبعث به إِلَى هِشَام، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوخهم، وأمده الخليفة بعمرو بن مسلم في عشرة آلاف رجل من أهل البصرة، وبعبد الرحمن بن نعيم في عشرة آلاف من أهل الكوفة وحمل إليه ثلاثين آلف قناة وثلاثين ألف ترس، وأطلق يده في الفريضة، ففرض لعشرة ألف رجل وكانت للجنيد مغاز كثيرة وانتشرت دعاة بني هاشم في ولايته وقوي أمرهم. وفي زمانه خصت نواح من طخارستان ففتحها، وكانت وفاته بمرو ثم ولى الخليفة هشام عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي[٣].

---

[١] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٣.
[٢] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٣.
[٣] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٤.

وكان نصر بن سيار غزا أشروسنة أيام الخليفة مروان بن محمد فلم يقدر عليها، وكان من بعده من الخلفاء يولون عمالهم فينقصون حدود أرض العدو، ويحاربون من نقض العهد ونكث البيعة، وبقي الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامه بخراسان فكان يغزو بلاد الترك من السغد وأشروسنة وفرغانه. وكان كاوس ملك أشروسنة كتب إلى الفضل بن سهل[١] المعروف بذي الرياستين يسأله الصلح على مال يؤديه على شرط أن لا يغزي المسلمين بلده فأجيب إلى ذلك، فلما تولى المأمون الخلافة امتنع كاوس من الوفاء بالصلح فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول[٢] لغزو أشروسنة في جيش عظيم، فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته، ولكن أحمد بن أبي خالد أناخ على أشروسنة قبل وصول الأتراك فاستسلم كاوس له، وورد كاوس مدينة السلام وأظهر الإسلام وملكه المأمون على بلاده[٣].

عهد العرب

وكان المأمون مع تسريح الخيول لهم بالدعوة إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيها وكان هو يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الإسلام من أهل ماوراء النهر، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم

[١] هو أبو العباس السرخسي الفضل بن سهل بن زاذان فروخ الملقب بذي الرياستين، (١٥٤ هـ - ٢٠٢ هـ)، سليل ملوك المجوس، وهو أخو الحسن بن سهل. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت: دار صادر).

[٢] أبو العباس أحمد بن أبي خالد بن يزيد بن عبد الرحمن الكاتب الأحول كاتب ووزير عباسي، تولى الوزارة في عهد الخليفة العباسي المأمون. ابن الطقطقي. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ط .١. (بيروت: دار صادر)، ص ٢٤٤.

[٣] البلاذري، فتوح البلدان، ٤١٦.

وأرزاقهم[١].

ثـم ملـك ابنـه حيـدر بـن كاوس الملقـب بالأفشـين بعـده، والأفشـين هـذا هـو الـذي بعـد أن أسـبغ عليـه الخلفـاء النعـم الجسـام عـاد فظهـر أنـه لـم يكـن إسلامـه إلا خداعـا، وأنـه لـم يكـن طهـر قلبـه مـن عبـادة أصنامـه، فانتهى الأمر بأن المعتصم قاتله وأخذه وبعد وقوعه باليد أحرقه[٢].

وذلـك أن الأفشـين حيـدر بـن كاوس كان مقربـا عنـد المعتصـم. ولحيـدر جهـاد عظيـم فـي حـروب الـروم ولا سـيَّما فـي فتـح عموريـة، وهـو الـذي هـزم بـابلا المزمـي الـذي خـرج علـى الخلافـة فـي جبـال طبرسـتان واشـتد أمـره وهـزم عسـاكر المعتصـم مـرارًا، فرمـاه المعتصـم بالأفشـين، فمـا زال يقاتلـه حتـى أخـذه، ولكـن فـي سـنة سـت وعشـرين ومئتيـن غضـب المعتصـم على الأفشـين حيـدر بـن كاوس وحبسـه إلـى أن مـات فـي حبسـه وأخـرج فصلـب إلـى جانـب بابـك كمـا هـو مبسـوط فـي التواريخ[٣].

وقـد لعـب عهـد المعتصـم (٨٣٣-٨٤٢) دوراً هامًّا في نشـر الإسلام[٤] وتكميلـه فـي بلاد التركسـتان، حيـث أنـه لمـا اسـتخلف أخـذ يظهـر ترغيبـه فـي التـرك مـن كل الخلفـاء وهـو يدعـو أهالـي تركسـتان للإسلام ويجلبهـم إلـى عاصمتـه حتـى سـرعان مـا توثقـت العلاقـات بيـن بغـداد وتركسـتان، وصـار جـل عسـكره مـن جنـد أهـل مـا وراء النهـر مـن الصغـد والفرغانـة والأشروسـنة والشـاش وغيرهـم مـن بلاد التركسـتان. وصـار أهلهـا يغـزون مـن ورائهـم مـن التـرك، فحضـر ملوكهـم بابـه. وأغـزي فـي عهـده عبـد

[١] قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، ط. ١. (بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨١ م)، ص ٤١٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٦.
[٢] شكيب أرسلان: تعليقات على مقدمة بن خلدون، ص ٩٢-٩٨.
[٣] نفس المرجع، ص ١٠٠.
[٤] الصفحة ١٥٠ مفقودة.

الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد الأوغوز الإسلام على من هناك[١].

وما ظل الإسلام ينتشر ويعم تدريجيا في أقطار البلاد المختلفة لتركستان حتى في وسط القرن العاشر اعتنق الإسلام كثير من رؤساء الأتراك وأتباعهم، وكان هذا نجاحًا نهائيًّا للإسلام، حيث اندمجت التركستان بعدها بصفة كلية بإمبراطورية الإسلامية الناشئة ولقد احتل الإسلام بعنصر جديد له ثقافته القديمة الخاصة والذي بدأ بعدها أن يلعب دورها التاريخي المشهور[٢].

أول مسجد جامع في تركستان

ولما تم فتح بخارى بيد قتيبة أنشأ هو سنة ٩٤هـ ٧١٢ مسجد جامع كبير في داخل قلعة بخارى في محل معبد أصنام، وكان هذا أول مسجد أنشأ في بخارى بعد الإسلام، وهو موجود الآن باسم مسجد كلان، ويعد أكبر مسجد وأقدمها في بخارى وله منارة طوله تسعون ذراعا، يقال أن إسماعيل بن أحمد الساماني بناها فيما بعد[٣]. ولما تم إنشاء المسجد وعد قتيبة لكل من يجئ ويصلي فيه أن يعطي درهمين ترغيبا للغرباء، ولكن الأغنياء كانوا لا يميلون استغناء وكانت نتيجة الحرب معهم[٤].

وبعد أن تم قتيبة إنشاء ذلك المسجد في داخل القلعة جعل فناء رجستان (Rijistan) المعروف مصلي لصلاة الأعياد. وكان المسلمون يجيئون لصلاة الأعياد في هذا الفناء مقلدين بالسلاح ليحفظ أنفسهم

[١] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٦. تبليغ الإسلام، ص ٢١٤. حاضر العالم الإسلامي، ص ١٧٠.
[٢] تبليغ الإسلام، ص ٢١٤.
[٣] مختار بكر، تركستان ص ٣١٦.
[٤] نرشخي، ص ٤٨.

من اعتداء الكفار مفاجئًا، وكان ذلك امتثالاً لأمر قتيبة. وما زالت هذه العادة مروجة إلى وقت ما.

وكان أهل بخارى في أول الأمر يتصنعون بقبول الإسلام ظاهرًا، ولكنهم يتبادرون لعبادة أصنامهم في الليالي سريا ولذلك دبر قتيبة تدبيرًا مؤثرًا فأمرهم أن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ويجعلهم شريكًا فيها، وكان قتيبة قد دفع لأخذ هذا التدبير ليراقب علنًا وسرًّا وخاصة المسلمين الجدد. ثم أخذ العرب يعلمونهم الدين وأركانه وكيف يركعون وكيف يسجدون، وكانوا يرغبونهم بكل وسيلة، وإذ استشعروا منهم ميلا للارتداد يشكون عند الحاكم لمجازاتهم. وأما الذين يسبقون في أداء فرائضهم الدينية وواجباتهم بأي طريق كانوا يستوجبون الإنعام والمكافأت.

ولما سكان البلاد كانوا في بدء اعتناقهم الإسلام لا يفهمون اللغة العربية، لذلك ترجم القرآن الكريم باللغة المحلية[١] لأول مرة وذلك لتمكين الناس بفهم القرآن وقرائته. وكان الصلوات تقرأ باللغة المترجمة، ينادي رجل في الخلف عند الركوع بكنيتا (Bknita) نكتنيت (Nknit) وعند السجود نكونيا (Nkunia) نكوني (Nkuni)[٢]. هذه هي اللغة الفارسية (نكونى) أي أسجد وإنه المستعملة في هذه الأيام[٣].

ودام الحال بهذا المنوال، ولا يزال عدد المسلمين يزيد حتى عهد فضل بن يحيي بن خالد البرمكي[٤] الذي عين أميرًا لخراسان في

---

[١] ويقول نرشخي: باللغة الفارسية.

[٢] (نرشخي، ص ٤٨.

[٣] ولكن هناك شك فى ان هذه الكلمات كانت فارسية أو سفدية وأوجه الراوايات أنها كانت لغة بخارى المحلية. يثبت من هذا أن القرآن الكريم ما ترجم إلى اللغة الفارسية لأول مرة كما زعم نرشخى، بل إلى لغة بخارى المحلية. من المؤلف.

[٤] هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك بن جامامش بن بشتاسف البرمكي، وزير هارون الرشيد وحامل خاتم السلطة. كان أحد قادة ووزراء الدولة العباسية. الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. ٣٣٤/١٢.

عهد هارون الرشيد (سنة ١٧٧هـ - ٤ -٧٩٣)، أنشأ هو مسجد جامع كبير آخر بصرف التكاليف الكثيرة ودام هذا المسجد يضاف ويوسع حتى عهد أمير إسماعيل الساماني، وفي نفس الوقت زاد عدد المساجد أيضًا. وكان لخمسة من هذه المساجد الكثيرة التي أنشئت بمرور الزمان الفناء والصحن الواسعة.

ثم جاء الأمير أبو صالح منصور بن نوح بن نصر[١]، وهو وسع الفناء وأنشأ فيها الروضات واشترى الملحقات حولها، كما أنشأ محرابًا فيها بصرف التكاليف الكثيرة من نفسه. وكان هذا في سنة ٣٦٠هـ. وكان الفناء تستعمل وتصلي فيه حتى جاء عهد أرسلانخان الذي أمر بإنشاء مصلى آخر للأعياد في قرب البلدة، وذلك؛ لأن لا يتبلي الناس بالمشكلات بسبب بعده ولأن لا يكون غافلا إذا هاجم الأعداء مفاجئًا[٢].

انتشار الإسلام في تركستان ومدى تأثيره في التاريخ الإسلامي

وإن لانتشار الإسلام بين الأتراك أهمية كبرى في التاريخ الإسلامي، ولو أن تمايل الأتراك والسغديين للإسلام في الوهلة الأولى مازال ضعيفًا، وكان العرب قد لاقوا المشكلات في حكم البلاد حتى كاد أن ينقرض حكمهم في البلاد سنة ١٠٠هـ - ٧١٥م، ولكن حينما رأى أولئك الأتراك أن الإسلام قد تأسس بتأسيس متين في البلاد، وأن العلاقات الثقافية والتجارية في البلاد التي كانت تحت حكم العرب

[١] هو أبو صالح منصور، والمعروف باسم منصور الأول، كان أمير السامانيين من ٩٦١ إلى ٩٧٦، تميز عهده بضعف الحكم والمشاكل المالية الدائمة. كان منصور على وجه الخصوص أول حاكم ساماني يستخدم لقب ملك الملوك (شاهنشاه)، على الأرجح كرد على منافسه. الزركلي، الأعلام، ٨/٥١.

[٢] نرشخي ص ٥٢

قد انسجمت وازدهرت بسبب التسهيلات التي لقيتها الدول الإسلامية، مما زاد تمايلهم ودخلوا في خدمة دولة العرب وسلكوا في جيوشهم برغبة وانسياق وصمَّموا تصميمًا. وكان أمراء بلخ، ختل، سغد، أشروسنة، فرغانة وجرجان ومن جملتهم أمراء تركش، بني أفشن، وبني أخشيد وغيرهم الذين قد سبق في هذا الميدان، وهم جلبوا معهم جماعات كثيرة من الأتراك لخدمة الدولة الإسلامية حتى نرى في نصف القرن التاسع الميلادي أخذت أتراك الشرق يتجهون إلى الغرب، ونتيجة هذا الاتجاه أهَّل قبائل الأتراك الكثيرة في البلاد التي كانت تحت حكم أمراء العرب وبني طاهر والسامانيين وكثير منهم وخاصة القبائل التي كانت آهلة في نواحي سير دريا وزرفشان دخلوا في دين الله أفواجًا. وكان قبائل قارلوق وأوغوز وغيرها من بينهم.

وفي سنة ٩٢٠م اعتنق القاراخانيون الذين كانوا حاكمين في وادي تنغريتاغ لآسيا الوسطى من البلغار في نواحي إيديل (ولجا) وبعد قليل تبعهم قبائل خزر وقبائل أوغوز الذين كانوا يعيشون في حوضة أرال نواحي بحر خزر حتى انتشر الإسلام في سنة ٩٤٠ - ٩٦٠ إلى القبائل التركية الذين يعيشون في نواحي نهر جو (تشو) ونواحي كاشغر وبلاساغون حتى استوعب قازاقستان وباشقريا اليوم والبلغار، حيث اعتنق الإسلام كافة، الأمر الذي أدى إلى تأسيس الثقافة الإسلامية والشرق في بلاد تركستان الغربية والشرقية تأسيسًا ثابتًا ومؤبدًا؛ لأن إنتشار الإسلام بين أتراك تركستان وإتمام هذا الانتشار بين ٩٢٠ -٩٦٠م كان من الأحداث الهامَّة التي قد تأثرت منها لا تاريخ الإسلام وحده، بل تاريخ العالم كله، حيث تم بذلك اعتراف الدين الإسلامي دينًا حيًّا عالميًّا[١].

---

[١] زكي. وليدي طوغان، ص ٧٢-٧٣.

وقد لعب خليفة العباسي المقتدر بالله[١] في ٩٢٠-٩٢٢ في جلب الأتراك للإسلام دوراً هاما، حيث نجح سعيه هذا نجاحا باهرا والذي يعتبره البيروني[٢] وعبد القادر البغدادي[٣] من الأحداث الهامة التاريخية، وهما يقولان: أن جلب الأتراك للإسلام وانتشاره فيما بينهم كان أمرًا قد قضى على حركات الزاردشتيين في بلاد إيران لإحياء دينهم وحركات الديلميين لإحياء شوكت إيران وثقافتها القديمة وعظمتها، وكذلك على حركات القرامطة والعلويين الذين كانوا هدَّدوا كيان الخلافة الإسلامية (وكانت هذه الأخيرة قد انتشرت حتى في بلاد تركستان الشرقية). وكان هذا ضمانًا لحفظ الإسلام عن أي تهديد وخطر يواجه[٤].

وقد ازدادت العلاقات الثقافية والتجارية بين الشرق الأوسط وتركستان بفضل الفتح الإسلامي كما ازدادت العلاقات التجارية بين تركستان وحوض نهر وولجا. وقد نتج عنها أن اعتنق بلغاريا وإيديل الدين الإسلامي منذ القرن الرابعب الهجري - العاشر الميلادى، وكان ذلك في عهد الخوارزميين[٥].

---

[١] هو أميرُ المُؤمنين وخليفةُ المُسلمين أبُو الفَضْل جَعْفَر المُقْتَدِر بالله بن أحمد المُعتضِد بن طلحة المُوفَّق بن جعفر المُتوكِّل بن مُحمَّد المُعتصم بن هارُون الرَّشيد بن مُحمَّد المهدي العبَّاسيُّ الهاشِميُّ القُرشي، هو الخليفة الثَّامن عشر من خُلفاء بني العبَّاس. تولَّى الخلافة في ١٣ ذو القعدة سنة ٢٩٥هـ ، بعد أن عهد إليه أخيه علي المُكتفي بالله على فراش المرض، وعمر المُقتدر ثلاثة عشرة سنة، ليكون أصغر من تولى الخلافة في التاريخ. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ط ١. (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م) ص ٣٠٠.

[٢] أَبُو الرَّيْحَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ البِيرُونِيّ، كان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضياتيًا وصيدلانيًا ومؤرخًا ومترجمًا. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وقد قال بدوران الأرض حول محورها في كتابه: مفتاح علم الفلك، كما صنف كتبًا تربو عن المائة والعشرين. مجلة المؤرخ العربي في العراق، العدد الأول، ص ١٠.

[٣] عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠ هـ - ١٠٩٣) أديب ولغوي ونحوي محقق. ويمثل البغدادي تياراً من التيارات النثرية في العصر العثماني.

[٤] زكي وليدي طوغان، ص ٧٤.

[٥] بارتولد، الحضارة الإسلامية، ص ٨٦.

وقـد ازدهـرت هـذه العلاقـات بنشـاط كبيـر فـي العصـور التـي تليـه. وكان فتـح العـرب هـو السـبب الـذي أدَّى إلـى نشـر اللغـة الفارسـية فـي بلاد مـا وراء النهـر بنطـاق واسـع. وكان ذلـك بواسـطة الفـرس الذيـن هاجـروا إثـر فتـح العـرب إيـران وبواسـطة كتائـب الفـرس الذيـن خدمـوا الجيـش العربـي الفاتـح والتجـار الذيـن رافقوهـم واتبعوهـم إلـى بلاد ماوراء النهر.

وفـي نفـس الوقـت كان العـرب أنفسـهم أخـذوا اللغـة الفارسـية واسـطة للمكاتبـات الرسـمية بأمـراء السـغد والهياطـل وغيرهـم مـن عشـائر الأتراك.

وقـد أدى هـذا الأمـر أن تسـتعمل اللغـة الفارسـية علـى اللغات السـغدية والخوارزميـة وغيرهـا مـن اللغـات المحليـة الرائجـة فـي إبـان الفتـح الإسلامي بلاد التركستان كما كان شانهما كمركزين تجارين.

وقـد أصبـح بلـخ وبخـارى مركزيـن هاميـن للنشـاط الأدبـي، وقـد ازهـدر فيهمـا اللغـة العربيـة والفارسـية كلغتيـن عظيمتيـن أدبيتيـن فصيحتين جنبا على جنب[١].

وكنتيجة لذلـك النشـاط الأدبي الـذي مهد لـه الطـرق فتـح العـرب بلاد خراسـان وتركسـتان، نجـد اليـوم نحـو مليونيـن مـن النسـمة يتكلمـون بلهجـة اللغـة الفارسـية التـي تعـرف بلغـة تاجيـك وكل بلاد أفغانسـتان يتكلمـون بلهجـة الفارسـية، اللهجـة التـي أطلقهـا العـرب لغـة بلاد الساسانيين في إيران[٢].

وقـد تأثـرت اللغـة الفارسـية مـن اللغـة العربيـة وأدبهـا التـي أتـى بهـا

---

[١] المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٨/ ٣٢.
[٢] ريتشارد فري، ص ٢٥٢-٢٥٣.

الشعراء العرب إثر فتح خراسان وتركستان، فأخذت اللغة الفارسية تزدهر بنشاط أدبي وتشكل بقالب أدبي حتى في عهد المأمون ظهر أول شاعر فارسي مدحه بقصيدته اللغة الفارسية الأولى حينما دخل مرو. وكان اسمه على قول ابن خرداد بن عباس بن طرخان[١] وهو ترك. كما ظهر في هذا العهد الشعراء باللغة العربية من قاطني البلاد وكان هذا الشاعر يكتب أشعاره باللغة العربية والفارسية وقد ذكره الطبري.

وقد استمد هذا النشاط الأدبي في عهد السامانيين. وكانت اللغة العربية والفارسية لغتي البلاط في عهد السامانيين[٢].

وقد أَلَّف أول كتاب بالعربية بالعقائد في هذا العهد[٣]، وكانت بلدة كوزن وقلعة بوغور وغيرها معدودة ثغور الإسلام في بلاد تركستان الشرقية. ولما تأسست سلطنة «قره خطاي» التركية بعد ثلاثين ومائة وألف ميلادية كان الإسلام قد فشا في الترك، ولكن هذه السلطنة كانت وثنية فأخذت تضطهد الإسلام، ولكنها لم تقدر عليه، وكانت إمارة بلاساغون الواقعة في الشمال إمارة إسلامية في شمالي «إيلى» مثل إمارة قارلوق وإمارة أخرى في بلاد غولجا، وكانت بلاد ماناس هي الحد الفاصل بين الترك الإسلامية وغير الإسلامية.

وأما دخول الأتراك في الأناضول وقبل ذلك في آذربيجان فما بدأ إلا في زمن السلاجقة، وقد تم تتريك تلك البلاد فيما بعد. وفي زمن صلاح الدين الأيوبي كان يوجد أتراك في مصر ومنها دخلوا إلى

---

[١] هو أبوالقاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خردادبه، معروف به ابن خرداد (٨٢٠م – ٩١٢م)، المؤرخ، الرحالة، الأديب، عاش في بغداد، وألف كتبا عديدة، منها: المسالك والممالك. –http://az-re-bay-jan.blogfa.com/post/٢٥٩

[٢] بارتولد، الحضارة الإسلامية، ص ٦٧–٦٨.

[٣] نفس المرجع، ص ٦٩.

إفريقية، وبعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشي. ولكن لم يكن أثر يذكر للترك في الأندلس[١].

وقد جاء في «الإنسيكلوبيديا الإسلامية» أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملك الترك إلى الإسلام. وأن مؤلفي العرب لم يبدؤوا بالكتابة عن الترك إلا في القرن الثالث الهجري فذكروا من أصنافهم «الطوغوز غوز» و«الغزغز» و«الكيماك» و«الغز» و«القارلُق»، وكان «الغزغز» أبعدهم سكانًا على حدود المملكة العربية مثل جرجان وفاراب وأربين وأربيجاب. وكان الطريق من المملكة العربية إلى الصين مارًّا ببلاد «القارلوق»، فكان المسافر يمر ثلاثين يوما من حدود فرغانة الشرقية في بلاد «القارلق» إلى أن يصل إلى البحر المحيط[٢].

وكان لقبول الأتراك الإسلام بهذه السهولة وبهذه النوبة أسباب؛ لأن ظهور الإسلام من بين عشائر العرب الذين كانوا يعيشون حياة بدوية ونفسيتهم العسكرية وكون الإسلام مبنيا على الحقائق كان يلائم وطبيعة الأتراك أكثر من أي أديان أخرى. لذلك ما كان نظرهم استحصال المنافع المادية والغنائم من الحرب واشتراكهم بها مع جنود العرب وحده.

وقد قبل الأتراك الإسلام بهذه النوبة بصورة نهائية، الأمر الذي أدى إلى خروجهم من تحت تأثير حضارة الشرق والجنوب واتصالهم لمدينة الشرق الأدنى. والحق أن هذا الانقلاب قد تغير وجهة الاتجاه لأقوام الترك وصار خيرًا لهم؛ لأن الإسلام ماظل عامة لحضارة الشرق الأدنى وحده، بل ظل يحمل في طيها حضارة الغرب أيضًا؛ لأن

---

[١] إنسيكلوبيديا الإسلامية، ص ١٠٤.

[٢] شكيب أرسلان، تعليقات على ابن خلدون ص ١٠٠.

المسلمين كانوا يحملون هذه المدنية إلى كل البلاد المفتوحة[١].

وإن كون الأتراك تحت تأثير الحضارات المتغايرة قبل الإسلام كان سببًا لعدم الانسجام والاتفاق بينهم، وقد انقسمت حكوماتهم إلى ملوك إقطاعية، تدين بمذاهب شتى كمذهب بوذا أو المانى والنصراني واليهودي، وليس لهم ثقافة مركزية بينهم. وقد أمكن لهم هذا الاتفاق تحت ظل الإسلام استطاعوا أن يشكلوا دولاً عظيمةً متحدةً بعد أن قبلوا الإسلام واتحدوا تحت دين واحد، والتي دامت عصورًا طوالاً وشملت كل بلاد الإسلام[٢].

انتشار الأتراك في البلاد الإسلامية

وقد أخذ انتشار الأتراك في بلاد الإسلام يزداد خاصة منذ عهد الأمويين، وكان ذلك إما بشكل الأمراء والمماليك الذين قبضوا عليهم في أثناء غزو العرب على بلاد خراسان وما وراء النهر، أو كانوا أمراء الذين أطاعوا العرب برغبتهم وبالصلح والسلام. وإنا نرى أن الخلفاء يشكلون من أولئك الأترك ويستخدمونهم في الجيش الإسلامي بالأجرة، ويزداد عددهم ويقوي نفوذهم ورسوخهم في شئون الدولة في عهد كل من المعتصم والواثق والمتوكل (٨٤٠-٨٦٠).

وكان آل الصولي من جرجان وبنو بيجور وبنو أخشيدش من فرغانه والأفاش من أشروسنة والتركش من سمرقند وآل بيكيه من ختيلاي من أمراء الأتراك الأوليين الذين أطاعوا برغبتهم سلكوا في

---

[١] زكي وليدي طوغان نقلا عن تحديد نهايات الأماكن للبلاذري الذي نسخته الوحيدة محفوظة بدار الكتب فاتح إستنبول ٧٥.

[٢] زكي وليدي طوغان، نفس المصدر ٧٦.

خدمة الدولة الإسلامية بعد أن اعتنقوا الإسلام وقد رغبوا عن عاداتهم وخصائصهم القديمة القومية التي حفظوها بعد الإسلام، الخلفاء لاقتنائهم واستخدامهم في خدمة الدولة[١].

وكان بكوات (أمراء) ختلان مشهورين بتربية الخيول، فذلك وضعهم الخلفاء لتربيتها. وكان شغلهم تربية الخيول للخلفاء ولجنودهم في نواحي بغداد. ويرجع شهرة الخيل العربي المعروف لتلك الخيول التي كانت تربى من قديم هناك في ختلان ثم جاءت بها إلى بلاد العرب من قبل أولئك الختلانيين[٢].

وكان الخلفاء يعترفون ويقدرون طبائع الأتراك العسكرية واستعدادهم للغزو والحرية، وكانوا يرغبون لحفظ هذه، حيث لا يسامحون بعضهم ازدواج أولئك الأتراك مع الأجانب وغير الترك[٣].

وكان الأتراك الذين يشكلون الجيش الإسلامي في العهد العباسي تنتسبون إلى قبائل مختلفة، أهمهم كانوا قبائل قبجاق، قارلوق، واليمكيون، وتوقوز أوغوز (القبائل التسعة الأوغوزية) التي تنتسب إليها الطولونيون وغيرهم.

وإنا نرى أسماء كثيرة تركية لقواد الخلفاء كالأفشين حيدر بن قارا بوغرا، ديوداد بن ديودست، كاجو، نيال، تكين جور، هومرجور وغيرهم من الأمراء والقواد الذين كانوا كلهم من الأتراك أصلهم من قبائل أفينس وبني الساج[٤]، وهم الذين قادوا جيوش الإسلام في

---

[١] زكي وليدي، ص١٦٧.

[٢] زكي وليدي طوغان، ١٦٧.

[٣] زكي وليدي طوغان، ١٦٧.

[٤] بنو الساج سلالة مسلمة حكمت في أذربيجان ومراغة وأردبيل وبردعة من نحو سنة ٢٧٦ إلى ٣١٨ هـ / ٨٨٩-٩٣٠ م، وهي السنة التي استرد فيها العباسيون الحكم على هذا المِصر. وكان الساجيون آخر الحكام الأقوياء في أذربيجان. يعود أصل الأسرة الساجية إلى إقليم أشروسنة في بلاد ما وراء النهر، ومع أنها كانت في بادئ الأمر تدافع عن الخلافة العباسية سرعان ما تغير موقفها، بسبب ضعف دولة

غـزوات آذربيجـان وأناضـول وغيرهـم مـن الـبلاد. وكلـل غزواتهـم بالنجاح الباهر والفتح الإسلامي[١].

ومـن أشـهر الأمـراء الذيـن ظهـروا فـي ذلـك العهـد كان مبـارك التركـي الـذي بنى قلعـة فـي قزويـن وأسـكن عشـيرتهم هنـاك ومحمـد بـن الصـول الـذي كان عـاملا (حاكمـا عامـا) فـي أرمينيـة وآذربيجـان فـي عهـد أبـي العبـاس عبـد اللـه مؤسـس بنـي عبـاس. وكان الأفشـين حيـدر عـاملا فـي أرمينيـة وآذربيجـان في عهـد المعتصـم حتـى سـنة ٨٤٠م، وكان فـي قيادتـه جيـش قـوي مـن الأتـراك وهـو بنـى قصبـة مرزنـد فـي جنـوب مغـان، وكان معـه أميـر باسـم منكجـور أصلـه مـن فرغانـة، وكان مـن قـواده، وهـو طفـى ثـورة أثارهـا أتـراك خـزر فـي سـنة ٨٣٩م فـي بلـدة ورثـان[٢] الواقعـة فـي أراس السـفلى القديمـة[٣]، وعينـه أفشـين حاكمـا لأرال تكريمـا لهـذه الخدمة، ثـم عـاملا لآذربيجـان الـذي كان تحـت إدارتـه، ولكنـه ثـار علـى الخليفـة وأمـر بتنكيلـه بوغـا الكبيـر. الجمـل اليـوم قصبـة فـي كنجـه Senje اسـم هـذا القائـد الكبيـر التركـي الـذي عـاش فـي القـرن السـابع المـيلادي. وهنـاك قنـاة باسـم منكجـور الـذي أنشـأها الـروس فـي تلـك القصبـة. وكان محمـد بـن خالـد أصلـه مـن بخـارى أيضًـا مـن قـواد أفشـين وقـد جعلـه عـاملا فـي أرمينية. وكان بنيرة توغداش بخارات خدات (حاكم بخارى).

الخلافة، واستطاعت السيطرة على بلاد أرمينية وأذربيجان، مؤسسين أسرة حاكمة صغيرة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية. الموسوعة العربية الميسرة، ط. ٣. (بيروت: المكتبة العصرية. ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م). ص. ٧٩٠.

[١] زكي وليدي طوغان، ١٦٨.

[٢] ورثان: بالفتح، بلد في آخر حدود أذربيجان، كانت ورثان من أرض أذربيجان بناها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأحيا أرضها وحصّنها، فصارت ضيعة له، ثم صارت لأم جعفر، زبيدة بنت جعفر بن المنصور. الحموي، معجم البلدان، ج ٥/ ص ٤٢٦.

[٣] نهر آراس، المعروف أيضًا باسم آراكس، أراكسس، أراس (في التركية والكردية والفارسية: ارس)، أراز (في أذربيجانية)، هو نهر يقع في بلدان تركيا وأرمينيا، وأذربيجان، وإيران. يعتبر من أكبر أنهار القوقاز نظرا لطوله الكلي والبالغ ١،٠٧٢ كيلومتر (٦٦٦ ميل) ومساحة حوضه قرابة ١٠٢،٠٠٠ كيلومتر مربع. https://ar.wikipedia.org/wiki/نهر_آراس

وقـاد أفشـين جنـود المعتصـم الـذي كانـوا متشـكلين مـن الأتـراك فـي غـزو أناضـول قائـد الجنـاح الأيمـن، أعدمـه المعتصـم، وكان سـبب ذلـك خوفـه مـن ازديـاد قوتـه ونفـوذه يومـا فيومـا. وكان أفشـين يعـد أكبـر قائـد مسـلم ماهـر فـي فنـون الحـرب ولا سـيَّما فـي المعـارك الجبليـة. وهـو بدل أصـول الحـرب القديمـة حينمـا حمـل علـى بابـك، حيـث كان الأعـداء يدافعـون أنفسـهم مـن قمـم الجبـال ويستعملونها كاستحكامات ويلقـون الحمـى الكبيـرة علـى المهاجميـن، ولكـن أفشـين قاتلهـم بأصـول جديـدة غيـر معلومـة لهـم فاسـتعمل الهـام والمنجنيقـات فعجـز الأعـداء عـن مقاتلتـه، واضطـروا إلـى تخليـة اسـتحكاماتهم. فهمـت هـذه الحيلـة السـبيل إلـى أفشـين التقـدم إلـى الـوراء حتـى تـم النصـر لجنـود الإسلام ففتحوا ملكهم[١].

وكان زيـرك التركـي مـن قـواد المتـوكل (٨٤٨م – ٢٣٤هـ) وهـو أطفى ثـورة بني بعيـث فـي ميرونـد، وكان تحـت قيادتـه ٢٠٠٠٠٠ جنـدي علـى قـول الطبـري. وكان بغـا الكبيـر مـن قواد هـذا العهـد، وكان عـاملا لأرمينية وآذربيجـان سـنة ٨٥٢ – ٨٥٥ وهـو فتـح جرجسـتان ثانيـا، وكان تحـت قيادتـه أربعـة آلاف جنـدي. ويقـال أنـه أسـكن أتـراك خـزر فـي كنجـه أي شمروخ اليوم[٢].

وكان بعـض قبائـل الأوغـوز تمثلـون بسـكانهم فـي جيـش الخلفـاء، وكان قبائـل أوغـوز، خـزر وخلـج الذيـن كانـوا علـى خرداذبـه فـي فـاران الواقعـة علـى نهـر جيحـون. والإيوانيـة مـن شـعبات أوغـوز كانـوا مـن العجم[٣].

---

[١] أمير علي، تاريخ إسلامي، ص ٣١٩.
[٢] ز.و. طوغان نقلا عن الطبري. والبلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٩.
[٣] زكي وليدي طوغان، ص ١٦٩.

وكان الخلفاء قد أقطعوا بعض حصص ولايات فارس على الأتراك الجنديين وكان بعضهم استوطنوا هناك، يرأسهم أربعون من أمراء الأتراك[١].

ومن الأمراء المشهورين الأتراك كان أبو سليمان الترك من أمراء هارون الرشيد، وهو الذي بنى مدينة طرسوس من جديد بحكمه سنة ٧٨٦م، وكان قورتكين الديلمي من أمراء بغداد في ذلك الوقت من الأتراك الذين استوطنوا في ديلم[٢].

وكان الأتراك قد انتشروا في بلاد الشرق الأدنى، وفي مصر قبل تغلغل السلجوقين هناك، كما كانوا انتشروا منذ قديم في بلاد الصين والهند وأوربا الشرقية، وهم خلطوا مع العرب والفرس في تلك البلاد حتى نرى اليوم كثيرًا في نفوس تلك البلاد تمثيل فيها الجنس التركي وهم ذابوا فيها ذوبانًا حتى لا يمكن الفرق بينهم.

ومن الأتراك الذين حكموا مصر، كان بنو طولون من قبيلة توقوز أوغوز، وقد دامت حكومتهم ٣٧ سنة، ثم الإخشيديين من أصول فرغانة، وقد دامت حكومتهم ٣٥ سنة[٣].

وكان جوق بن يالتكين الأخشيد ماجد طوغاج في خدمة المعتصم. وكان جنود كل من الطولونيين والأخشيديين من الأتراك.

وقد وصلت دولة الأتراك قمة مجدها في التمكن والاستقرار في عهد كل من الأيوبيين والمماليك ومتأخرا في عهد الخلافة العثمانية، ولو أن الأيوبيين كانوا من أصل عربي في جنوب بلاد العرب، ولكن

---

[١] زكي وليد، ص ١٧٠.
[٢] زكي وليد، ص ١٧٠ من أبي بكري الصولي: كتاب الأوراق.
[٣] زكي وليد، ص ١٧١.

تكردوا أولا ثم قبلوا التركية[١].

وكان القسم الكلي من جنودهم يشكل من الأتراك فلذلك يعتبر عهد الأيوبيين (١١٧٤-١٢٥٢) من أهم عهود الأتراك في مصر، كما قال القاضي هبة الله بن الملك[٢] في تدرج السلطان صلاح الدين الأيوبي:

بدولة التُّركِ عزَّت ملَّةُ العربِ وبابن أَيّوبَ ذلَّت شيعةُ الصُّلب[٣].

والمماليك الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ قد اشتهرت بـ «بمماليك الأتراك» وكذلك أكثر السلاطين من المماليك الجركسيين الذين حكموا في مصر كانوافي الحقيقة من الأتراك حيث كان سبعة منهم من أصل جركس[٤] والباقون من الأتراك[٥].

وكان المماليك في مصر يشكلون عشيرة منظمة ظهر منهم القوَّاد والأمراء الذين دامت حكومة بعضهم بمدة طويلة، وكان المماليك الأتراك أكثرهم من قبيلة قبجاق، وكان بعضهم من التركمانيين أو أتراك خوارزم. وكان أيبك[٦] أول سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٢٥٧) من قبيلة تركي. وكان بيبرس الأول (١٢٦٠-١٢٧٠) ينسب إلى

---

[١] ز.و. طوغان ١٧١ إنسيكيلوبيديا الإسلامية مادة آذربيجان.

[٢] هو هبة الله بن جعفر بن سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله السعدي، مصري المولد والوفاة. كان وافر الفضل، رحب النادي، جيد الشعر، بديع الإنشاء. كتب في ديوان الإنشاء بمصر مدة. وولاه الملك الكامل ديوان الجيش سنة ٦٠٦ له.

[٣] زكي وليد، فتوح البلدان، ص ١٧١.

[٤] وعلى حسب قول «موجان المحقق في أصل الجراكسة، تعتبر الجراكسة من الطورانيين الأصليين وعلى هذا الرأي تجري جميع مؤخري العرب. يوسف عزت باشا، (مه ت جنانونف) تاريخ القوقاز، ص ٦٨.

[٥] ز.و. طوغان ص ١٧١.

[٦] الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي النجمي. أول سلاطين الدولة المملوكية. نُصِّب سلطانًا على مصر في عام ١٢٥٠ بعد أن تزوجته وتنازلت له عن العرش شجر الدر سلطانة مصر وأرملة السلطان الأيوبي الصالح أيوب، وبقي سلطانًا على مصر إلى أن أُغتيل بقلعة الجبل في عام ١٢٥٧. كان من أصل تركماني. اسم أيبك يتكون من مقطعين بالتركية (أي) وتعني قمر و(بك) وتعني أمير. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (القاهرة: دار الكتب، القاهرة ١٩٩٦). ٤٦٣/١.

عشيرة أولوبارلي من قبيلة قبجاق، كما ينسبون المماليك الأتراك الذين حكموا في الهند إلى تلك العشيرة. وكان السطان ملك ظاهر بيبرس[١] من أكبر سلاطين المماليك وأشهرهم.

وقد اشتهر هذا البطل العظيم بغزوه على الصليبيين وكذلك كان سيف الدين قلاون الذي خلف ناصر الدين بركه بن بيبرس سنة ١٢٧٩-١٢٩٠ من قبيلة قبجاق.

ونصير الدين محمد بن سيف الدين قلاون[٢] الذي حكم مصر ٤٤ سنة بفواصل متعاقبة يزخر مقامًا مرموقًا من بين المماليك بعد بيبرس حيث ازدهرت في عهده الآثار الإسلامية والتركية في مصر أحسن ازدهار، وفي عهده أسست العلاقة الزواجية بين مصر وإيران، كما وثقت العلاقة التجارية والثقافية بين المملكتين. وقد دامت حكومة بني قلاوون في مصر عصرًا كاملاً، قد وضع في هذا العهد كتب كثيرة في الفقه والأدب وغيرها من العلوم. ومن جملتهم الكتب باللغة القبجاقية التركية[٣].

وكان سيف الدين برسباي[٤] (١٤٢٢-١٤٣٨) وجقماق (١٤٣٨-

---

[١] هو السُّلْطَان الأعظم الْملك الظَّاهِر ركن الدّين بيبرَسْ بْن عَبد الله البُنْدُقْدارِي الصَّالِحِي، رابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر أحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. ولد عام ٦٢٥ هـ. حقق العديد من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ ومعركة عين جالوت انتهاءً بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة ١٢٧٧م. وقد قضى أثناء حكمه على الحشاشين واستولى أيضا على إمارة أنطاكية الصليبية. توفي يوم الخميس ٢٧ محرم ٦٧٦ هـ بعد رجوعه من معركة الأبلستين ضد خانات المغول سنة ١٢٧٧. الزركلي، الأعلام، ٢/٧٩.

[٢] هو السُّلْطَان أبو المعالي النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بن الْملك الْمَنْصُور سيف الدّين قَلَاوُونَ الألفي العلائي الصَّالِحِي، ولد بالقاهرة في ٦٨٤ هـ، توفي بالقاهرة في ٧٤١ هـ، تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية. شهدت مصر في فترة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطانٍ آخر من سلاطين الدولة المملوكية. ابن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة. (مصر: دار إحياء التراث العربي).٤/ ١٤٤.

[٣] زكي وليد، ص ١٧٢ نقلا عن فؤاد كورولو.

[٤] هو الأشرف سيف الدين برسباي (ت. ٨٤١هـ) هو السلطان الثاني والثلاثون في ترتيب سلاطين دولة

١٤٥٣) الذان خلفا برقوق (١٣٨٢-١٣٩٩) كانا من أكبر المماليك الجركسية المتأخرة، وهما من الأتراك. وقد اضمحلت الصليبيون بيد برسباي، وقد اشتهر جقماق وحبه العلم والعلماء[١].

وكان آخر ملوك المماليك قايتباي[٢] (١٤٦٣-١٤٩٦) وقانسوه الغوري[٣] (١٤٠١-١٤١٦) يرجع نسبهما إلى الجراكسة.

وقد قضى السلطان سليم ياووز[٤] على مماليك مصر سنة ١٥١٦م. وقد استمرت حكومة الأتراك العثمانية في مصر منذ ذلك العهد إلى عهد محمد علي باشا، ثلاثة مائة سنة نيف، العهد الذي يسجل انتشار الأتراك أعظم انتشار في تلك البلاد. ومنذ أن ولى محمد علي باشا مصر سنة ١٨٠٥م دام هذا الانتشار وإسكان الأتراك في تلك البلاد في مدة ١٣٥ سنة إلى عهدنا هذا. وكان محمد علي باشا نفسه الجد الخامس لفاروق من أتراك قصبة قواله في سلانيك[٥].

ولم ينحصر انتشار الأتراك هناك وحده، بل توسع إلى نواحي إفريقيا الشمالية الأخرى حتى وصل إسبانيا. مثلاً أن أتراك الغزدامي أوغوز الذين كانوا يشكلون جنود الأيوبيين[٦] اشتركوا في غزوات

المماليك. تولّى السلطان «برسباي» عرش دولة المماليك، ٨ ربيع الآخر ٨٢٥ هـ. ويُعدّ من عظام سلاطين الدولة المملوكية، وعلى يديه فُتحت قبرص.

[١] زكي وليد، ص ١٧٢.

[٢] هو قايتباي المحمودي الأشرفي، أبو النصر، سيف الدين، سلطان الديار المصرية، من المماليك البرجية. شمس الدين السخاوي. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (دار الجيل)، ٢٠١/٦.

[٣] هو الأشرف أبو النصر قانصوه، هو من سلاطين المماليك البرجية. ولد سنة (٨٥٠ هـ). بويع بالسلطنة سنة ٩٠٦ هـ- ١٥٠٠ م وظل في ملك مصر والشام إلى أن قتل في معركة مرج دابق شمال حلب سنة ١٥١٦. ابن إياس، بدائع الزُهُور في وقائع الدُهُور. تحقيق: محمد مصطفى، ط. ٢. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤) ٤٤٤/٣.

[٤] هو السُلطان ياووز سليم خان الأوَّل بن بايزيد بن مُحمَّد العُثماني، هو تاسع سلاطين آل عُثمان، وأوَّل خليفة لِلمُسلمين من بني عُثمان. فريد بك، مُحمَّد؛ تاريخ الدولة العليَّة العُثمانيَّة، تحقيق: الدُكتور إحسان حقّي، ط . ١٠. (بيروت: دار النفائس، ١٤٢٧هـ) ص. ١٨٨.

[٥] زكي، وليد، ص ١٧٢ عن رضا نور تورك تاريخي.

[٦] الدولة الأيوبية هي دولة إسلامية نشأت في مصر، وامتدت لتشمل الشام والحجاز واليمن والنوبة

إفريقيا الشمالية وخدموا كمحافظين لبعض المدائن هناك. حتى نرى هؤلاء الأتراك الغربيين يسلكون في خدمة الموحدين الذين حكموا بلاد إفريقيا الشمالية وإسبانيا الجنوبية. كما يذكر أسماءهم خاصة في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور[١]. وكان شعبان (سابان) من الأمراء الذين ظهروا من أولئك الأتراك في إسبانيا وهو تمليك إقطاعية دخلها السنوي كان ٧٠٠٠ دينار.

وكذلك الأتراك الكثيرة أهلوا واستوطنوا في سورية وبلاد الحجاز واشتركوا مع أهاليها حتى شكلوا مستقلة هناك.

وفي أيامنا هنا يعيش ألفا من التركستانيين في بلاد الحجاز وزيادة من خمسمائة ألفا في أفغانستان وألوف في تركيا وغيرها من بلاد أخرى، لا حاكمين ولا أمراء ولال قواد ولا جنودا بل مهاجرين أخرجوا من ديارهم مظلومين منكوبيين بعد أن إختطف وطنهم، وسلبت أموالهم وشيعت أولادهم.

كما يروي لنا أبن جبير[٢] أنه حينما رحل في سنة ١١٨٣ من مصر إلى مكة رأى في الطريق جماعات من أتراك الذين يعيشون مع عشائر قضاعة، وكان مهمتهم قطع الطريق في صحارى العرب، وكان قصبة عضهب في يد هؤلاء الأتراك. وهم يأتون للحج زرافات ووحدانًا حتى يتحير العقول من كثرتهم وازدحامهم في موسم الحج[٣].

وبعض أجزاء بلاد المغرب. يعد صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية.

[١] هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور بالله، ثالث خلفاء الموحدين ببلاد المغرب. خلف والده أبو يعقوب يوسف. حكم من ١١٨٤ حتى وفاته في مراكش عام ١١٩٩. تميز عهده بالمشاريع الكبيرة. بنى مسجد الكتيبة في مراكش وأزمع في بناء أكبر مسجد بالعالم (مسجد حسان) في الرباط إلا أن المنية وافته والإنشاء في بداياته تاركا صومعة حسان. دائرة معارف الإسلامية، مادة: أبو يوسف.

[٢] هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني المعروف باسم ابن جبير الأندلسي ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ، ١١٤٥م، هو جغرافي، رحالة، كاتب وشاعر أندلسي عربي. موسوعة بريتانيكا، مادة: ابن جبير.

[٣] (ز.و.طوغان، ص ١٧٣).

وكان هذه الأتراك والذين جاء قبلهم وبعدهم وكذلك الذين جاؤوا وأهلوا في عهد الحكومة العثمانية في تلك البلاد وقد تعربوا بمرور الأيام حتى نسوا لغتهم وجنسيتهم، كما كان الحال في الهند والفرس وغيرها من البلاد الإسلامية.

وقد شرع إسكان الأتراك في بلاد الشرق، وخاصة أتراك الغز كتلة كتلة بمهاجرة السلجوقيين، وكان انتشارهم في هذه الأقطار في أول وهلة بشكل تشتت وهم شرعوا المهاجرة بعد إخراجهم من قبل معارضيهم في حوضة آرال، حيث أقبلوا إلى بلاد خراسان بعد أن عبروا نهر جيحون من وراء خوارزم، وهم جاؤوا مملوكي الحال على حسب قول أبي الفضل البيهقي[١] ثم ائتلفوا في جماعات وأخذوا يسكنون في مواضع شتى ثم من هنا بدأوا إلى الغزو والفتوحات، وأخيرًا نجحوا أن يؤسسوا وطنًا جديدًا في آسيا الصغرى، وكان هذا الوطن الجديد قد أسس بشكل أساسي حينما جاءت جماعات الأتراك الجديدة مع غزو المغول، الأمر الذي أدَّى أخيرًا إلى قيام دولة عظيمة كالدولة العثمانية في بلاد آسيا الصغرى.

وقد تم هذا الانتشار والإسكان الذي بدأ في العصر الحادي عشر، ودام حتى نهاية العصر الرابع عشر في طي ثلاثة قرون[٢].

العوامل والأسباب التي أدت إلى دخول أتراك تركستان في ميدان السياسة في البلاد الإسلامية

وكان هناك عوامل وأسباب شتى قد أدَّت إلى دخول أتراك تركستان

---

[١] أبو الفضل محمد بن الحسين البَيْهَقي، (ت. ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) هو مؤرخ فارسي. كان كاتب الإنشاء في دولة السلطان محمود بن سُبُكْتِكِيْن. موسوعة بريتانيكا، مادة: أبو الفضل البيهقي.

[٢] زكي وليد طوغان، ص ١٧٤.

في ميدان السياسة وغيرها في البلاد الإسلامية والخلافة الإسلامية. ويجيء في رأس هذه العوامل فتح العرب بلاد تركستان واعتناق أهاليها الإسلام وصيرورة البلاد جزءًا من أجزاء ولايات الخلافة الإسلامية الكبرى، ثم يجيء العامل الديني وهو أبلغ أثرًا وأوثق عروةً. بعد أن رسخت قواعد الإسلام وبعد أن لاقى مقاومة شرسة في أول وهلة حيث بعض الأهالي شعر مرارة على سلطة العرب في بلاد تركستان، رأى التركستانيون أنهم أمام دين جديد قوامه التعاون والتعاطف والتراحم وإقامة شريعة الله على السواء بين الجميع، ولا يرتفع كبير على صغير، ولا يستطيع غني على فقير، ولا فضل لعربي على عجمي (على خلاف دينهم المجوسية السابقة)، وبين لهم أن هؤلاء الغزاة لم يتقدموا للاغتنام والغلب وإحراز كنوز الفضة والذهب والتعالي والاستكبار في الأرض، بل إنما جاؤوا لنشر رسالة التوحيد ورد مخلوقات الله إلى الله وإقامة العدل بالقسطاس المستقيم بين الغالب والمغلوب. وما كادت حقيقة الإسلام تتبين لأتراك تركستان حتى أقبلوا إليه طائعين ومدوا أيديهم إليه مختارين دخلوا في دين الله أفواجا وأقبلوا على الإسلام زرافات ووحدانا واندمجوا في المجتمع الإسلامي[1].ص ٣٥).

ولما تم فتح تركستان بهذا النمط من قبل مجاهدي العرب، وتم اعتناق أهاليها الإسلام زالت الحواجز الثغورية بين تلك البلاد وبلاد خراسان وبين الخلافة الإسلامية، وأخذت العلاقة الدينية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية توثق بين العرب والأتراك والفرس، وهم اندمجوا في مجتمع المسلمين ودخلت العناصر التركية والفارسية في ميدان الحرب والسياسة جنبا على جنب مع العرب المجاهدين

[١] جنكيزخان، قلب تركستان، ص ٣٥.

فانسلكوا في جيوش الإسلام وانضموا تحت لوائه، وغايتهم الوحيدة نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله هي العليا. حتى ما مضى زمن طويل إلا ونرى أتراك تركستان في خراسان، بغداد، دمشق ومصر وغيرها من المراكز السياسية والعلمية والثقافية والتجارية للإسلام، يشغلوا مواقع هامة في بلاط الخلفاء والأمراء حيث جنديين، محافظين للبلاد وقائدين للجنود، خدمة وحشمة يعملون ويجتهدون بنشاط جديد وخلوص بالغ حتى يتصرفون في شئون الدولة.

وبهذا الطريق قد نال هذه الأتراك الخطوة الخطيرة في عهد العباسيين واشتغلوا بترقية شئون الدولة، وقد نفذوها فأصبح المرجع إليه في كل الأمور حتى صار أغلبية الوزراء والوكلاء وقوَّاد الجيوش من أبناء تركستان، وأخذ الخلفاء يحبون، وكان الأتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي السهام والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيَّما بالفلسفة والعلوم الطبيعية، وقلَّما اشتغل أحد منهم بدراستها في إبان التمدن الإسلامى، واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا إذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب كما فعل ابن الأثير لما أشار إلى معرفة قتلمش علم النجوم، يقول ابن الأثير: «ومن العجب أن هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه مع أنه تركي ويعلم غيره من علوم القوم»[١].

وكان عبد الله بن زياد أول قائد حربي جاء بالأتراك إلى البصرة حيث أتى بألفين منهم وكانوا ماهرين برمي السهام، وكان ذلك بعد أن هزم بخارخدا وعقد معه صلحا سنة ٥٤، ثم شكل منهم جندا

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/٣٦.

محافظين، وكان عبد الرحمن بن سمور قد جاء قبله بأسارى من سجستان إلى البصرة وكلفوهم لإنشاء مسجد جامع هناك ثم جرى عمال خراسان بهذه العادة وتوالوا بإتيان الأتراك إلى عاصمة الخلافة حتى جاء عهد العباس وأخذ خلفائهم يحضرون الأتراك ويشكل منهم جندا محافظين[١].

وكان الخلفاء يحبون الأتراك حبًّا جمًّا، ويقدرونهم جدًّا[٢]. حتى أصبح للأتراك الحكم المطلق في بغداد، وكانوا يتولون أيضًا كثيرا في البلاد والولايات واستقل بعضهم بعدها حين بدأ الانقسام والضعف في الدولة العباسية كالدولة السامانية في تركستان وخراسان والدولة الطولونية والإخشيدية في مصر والشام وغيرها[٣].

وقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم وشئون الدولة أثر بالغ في دخول كثير وبقية الباقية منهم في الإسلام وانتشارهم في المملكة الإسلامية، كما أدى إلى انتشار الإسلام في النصف من الرابع الهجري، أي القرن العاشر الميلادي في الأقطار البعيدة فيما وراء النهر وسيحون وكاشغر، وبدأ انتشاره بين قبائل أوغوز وقارلوق والسغد من قبائل الأتراك.

فمسكوية يذكر في حوادث سنة ٣٤٩هـ أنه في هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف أسرة، فإذا كان متوسط الأسرة خمسة أشخاص كان مجموع ذلك نحو مليون شخص، ولا شك أن هذا العدد ومن أسلم قبله ومن أسلم بعده يؤثر أثرًا كبيرًا في اندماجهم في المسلمين[٤].

---

[١] ئورتا ئاسيا، ٥١.
[٢] عبد العزيز جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٤١.
[٣] نفس المصدر، ٤٣.
[٤] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٣١

وكذلك أسلم سنة ٤٣٥هـ عشرة آلاف أسرة من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة باحتفال مهيب ضحوا فيها عشرين ألف رأس غنم[١].

وما كاد الأتراك في تركستان يعتنقون شريعة التوحيد وتتغلغل أصولها في المشاعر والألباب حتى نهضوا ينشرون الدعوة وأقاموا من أنفسهم غزاة فاتحين ودعاة مخلصين يعملون على إعلاء كلمة الإسلام ما وسعهم الجهاد واتسعت لهم رقعة الأرض.

لم تنحصر جهود المسلمين الأتراك في هذا الميدان وحده، ولكنهم رفعوا لواء الإسلام عاليا عند إخوانهم من أتراك البلغار وسواحل نحو فلجا (إيديل) أيضًا.

ومن تتبع تاريخ نشر الإسلام في بولندا وفينلندا وإستونيا وسائر المماليك البلطيقية وغيرها تعرف مبلغ المجهودات الباهرة التي بذلها أولئك المؤمنون الصادقون من أبناء تركستان الذين جعلوا نشر الدين في أول الواجبات، وفي مقدمة الأعمال الخالدة التي بذلوها[٢].

وكان أيضًا من هذه العوامل الدينية الأحاديث المروية التي تمثل ناحية التقليدية والروايات التي كانت لها أيضًا أثر كبيرة في توثيق العلاقات بين المسلمين والأتراك ورفع شأن بلادهم وقاطنيهم واحترامهم عند المسلمين معنويًّا، مثلا أخذ المحدثون يضعون الأحاديث بشأن الأتراك وشأن بلادهم ذمًّا أو مدحًا وتعبيرًا عن شعورهم وشعور المسلمين.

ومن هذه الأحاديث:

---

[١] عبد العزيز جنكيزخان، قلب أسيا، ٤٣.
[٢] جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ٤٠.

أن النبـي صلـي اللـه عليـه وسـلم قـال: « اتركـوا التـرك مـا تركوكـم، فان أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء»[١].

وعـن ابـن عبـاس رضـي اللـه عنـه أنـه قـال «ليكونـن الملـك» أو قـال « الخلافـة فـي ولـدي حتـى يغلـب علـى عزهـم الحمـر الوجـوه الذيـن كأن وجوههم المجان المطرقة»[٢].

وعـن أبـي هريـرة رضـي اللـه عنـه أنـه قـال «لاتقـوم السـاعة حتـى يجـئ قـوم عـراض الوجـوه صغـار الأعيـن، فطـن الأنـوف حتـى يربطـوا خلولهـم بشاطئ دجلة»[٣].

وقـد جـاء فـي نرشـخي حديـث هـذه هـي ترجمتـه بالتقريـب مبنـاه أنـه: «قـال محمـد بـن نصـر أن لبخـارى أسـماء عديـدة قالهـا فـي حديـث «الفاخـرة»، وقـد روي خواجـة إمـام الناسـك الواعـظ حديثـا قـال لـه محمـد بـن علـي البخابـادي مرويـا مـن سـلمان الفارسـي هـو قـال: أن رسـول اللـه صلـي اللـه عليـه وسـلم قـال: «قـال لـي جبريـل: إن هنـاك فـي بلاد الشـرق مملكـة، تقـال لهـا خراسـان وفـي يـوم القيامـة ثلاثـة مـن مدائـن خراسـان تزيـن بالياقـوت الحمـراء والمرجان ونورهما تشـعان للأطـراف والملائكة تصفـون حولهـا تمدحـون اللـه تبجلونـه وتسـبحونه ثـم تؤتي بهـذه المدائن ذي العظمـة والأبهـة إلـى السـهول كعـروس تؤتـي بهـا إلـى عريسـها وفـي كل واحـد مـن هـذه المدائـن تكـون هنـاك سـبعون ألفـا مـن العلـم وتحـت كل سـبعون ألفـا مـن الشـهداء وفـي حاشـية كل شـهيد سـبعون ألفـا مـن المؤمنيـن الذيـن يتكلمـون باللغـة الفارسـية ويصلـون داعيـن النجـاة. ثـم تـملأ هـذه المدائـن فـي كل جهاتهـا بيمينهـا وشـمالها، خلفهـا وأمامهـا مـع

---

[١] رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط». قال الهيثمي: «وفيه عثمان بن يحيى القرقساني، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

[٢] الحموي، معجم البلدان، ٢/٢٣.

[٣] الحموي، معجم البلدان، ٢/٢٣.

الشهداء، بعد مسافة عشرة أيام للسفر. قال النبي صلي الله عليه وسلم أيها الجبريل قل أسماء هذه المدائن فأجاب جبريل اسم واحد من هذه المدائن في العربية سومران وفي الفارسية سمرقند والثالثة في العربية الفاخرة وفي الفارسية بخارى، ثم سئل النبي صلي الله عليه وسلم: أيها الجبريل لماذا تقال هذه المدينة الفاخرة فأجاب جبريل؛ لأن بلدة بخارى تفضل في يوم القيامة على البلدان الأخرى في الأبهة والجلال وفي كثرة الشهداء الذين دفنوا فيها. فنادى النبي صلي الله عليه وسلم رحم الله أهل بخارى وطهر قلوبهم بخوف من الله وأصلح أعمالهم[١].

ذكر محمود الكاشغري حديثا قال فيه: «لقد سمعت عن ثقة من أئمة بخارى وإمام آخر من أهل نيشابور كلاهما رويا بإسناد لهما عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه لما ذكر أشراط الساعة وفتن آخر زمان وخروج الترك الغزية، فقال: «تعلموا لسان الترك فإن لهم طوالا»[٢].

وجاء في الإنسيكيلوبيديا الإسلامية أن ظهور العرب على الترك في أول الدولة العربية لم يؤثر في قضية اتخاذ الترك الإسلام دينا، وكانوا يرون الحديث النبوي صلي الله عليه وسلم «أتركوا الأتراك ماتركوكم»[٣] وما تم إسلام الترك إلا إختيارًا في القرن الرابع الهجري[٤].

---

[١] نرشخي تاريخ بخارى: الطبعة الإنجليزية، ص ٢٢ الترجمة بالتقريب. ما وجدت أصل الحديث، وفيه رائحة الموضوع، والكذب.

[٢] محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك، ص ١.

[٣] رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٣٨٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه أيضا (٨٨٢) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» وغيره.

[٤] الترك Encyclopedia of Islam

وكان هناك ناحية أخرى طبيعية، وهي كون الأتراك أقوياء أشداء وأصحاء كما تستلزم طبيعة بلادهم وبداوة معيشتهم. وقد ذكر لنا أبي أنه أطلق على الأتراك عراب العجم ويعني بالعربية البداوة، وهذه البداوة تكسبهم قوة في البدن وخشونة في الطبع وقد تجلى هذا معاملتهم الناس، منهم أهل بغداد في عصر المعتصم. وهذه الخشونة في طبيعة الأتراك قد تأثرت منها الأدب العربي فجلبت أنظار الشعراء فمدحوهم نظمًا ونثرًا كما قال فيها أبو إسحاق الشاعر[١]:

في فتنة من جيوش الترك ما تركت — للرعد كراتهم صوتا ولا صيتا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة — حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وأيضًا لابن الرومي[٢] وهو الذي مدح الأتراك بالشجاعة أولا:

إذا ثبتوا فسد من حديد — تخال عيوننا فيها بحار
وإن برزوا فنيران تلظي — على الأعداء يضرمها استعار

وقد خلقهم الله في صور الأسود عرض وجوه وفطن أنوف وعبالة سواعد وزعارة خلائق. ثم الفهم للفيافي والقفار، وصبرهم على الإقتار والإعسار. وعدهم رغد العيش في خارة تشين اقتدار يسن ونصب يتحمل في طلب ظبي نافر وعير عائر.

وليس يرضي التركي إذا خرج من وثاقة إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجبة الرايات على فرقة والأمر والنهر على عصبة[٣].

---

[١] القائل: إبراهيم بن عثمان بن محمد، أبو إسحاق الكلبي من أهل غزة. ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨٦/١٦.

[٢] محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صولتكين الكاتب، أبو بكر الصولي الشطرنجي البغدادي، المتوفى سنة ٣٣٥هـ. حاجي خليفة، كشف الظنون، ٦٧٤/٦.

[٣] الوزير أبي العلاء بن حسول، تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ومناقب الحضرة العالية السلطانية، تحقيق عباس العزاوي، ص ٤٠.

بعض ماقيل في الترك لإبراهيم الغزي[١]:

فتية من كماة الترك ماتركت للرعد كباتهم صوت ولا صيتا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنا إذا قوتلوا صاروا عفاريتا
مدت إلى النهب أيديهم وأعينهم وزادهم صغر الأحداق تثبيتا[٢]

ولعطا ملك الجوينى[٣]:

أبادية الأعراب عني فإنني بحاضرة الأتراك نيطت علائقي
وأهلك يا نجل العيون فإنني بليت بهذا الناظر المتضايق[٤]

لابن الهيثم[٥]:

ورافضة تقول بشعب رضوي إمام خاب ذلك من إمام
إمام من له سبعون ألفا من الأتراك مشرعة السهام[٦]

وقد قال الجاحظ[٧] في رسالته «فضائل الترك وخصائله وقت الحرب»: وهؤلاء يعني الأتراك لما كانوا أصحاب الخيول وأرباب

---

[١] هو إبراهيم بن إبراهيم بن عبد الرحيم بن على بن الغزى الأموي، كاتب من الولاة ترسل عن الملك الناصر داود صاحب الكرك ثم عن الناصر يوسف صاحب دمشق وتولى الرحبة وبلادها في أيام الظاهر بيبرس، ثم بعلبك. أرسل إلى عكا في مهمة وكانت له في الدولة حرمة وافرة وسيرة حسنة. وله معرفة كاملة بالأدب وشعر غزلى رقيق، توفي قرب حلب وقد قارب الستين. ودفن في بعلبك. الزركلي، الأعلام، ٢٧/١.

[٢] عماد الدين الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر في فضل أهل خراسان.

[٣] هو علاء الدين عطاء الله ابن بهاء الدين الجويني، وهو أخ شمس الدين محمد الجويني. قال عنه الطهراني أنه «هو الذي أجرى الماء من الفرات إلى جنوب النجف». توفي سنة ٦٨٣ هـ أو ٦٨١ هـ. الذريعة – آقا بزرگ الطهراني، ٧٢٨/٩.

[٤] ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤٥٣/٢.

[٥] هو ابن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر الأخباري، أبو عبد الرحمن الطائي الكوفي المؤرخ. توفي بفم الصلح في سنة سبع ومائتين وله ثلاث وتسعون سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠١/١٠.

[٦] أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ٣٨٤/١٠.

[٧] أَبُو عُثْمَانْ عَمْرُو بْنْ بَحْرْ بْنْ مَحْبُوبْ بْنْ فَزَارَة اَللَّيْثِي اَلْكِنَانِي اَلْبَصَرِيّ المعروف بِالْجَاحِظِ (١٥٩ هـ– ٢٥٥ هـ) أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢١٢/١٢.

الفروسة يدورون حول العسكر فوق الخيول، لسبب مهارتهم في الصولة والدوران والهجوم يحيطون لعدوهم بكمال السرعة مثلما يقلب الكاتب الأوراق ويشتتون شملهم ويفرقون جمعهم ويتركونهم كالعهن المنفوش. فكما أن الكمناء والطلائع الساقة يكونون منهم كذلك هؤلاء يكونون أصحاب السفاحق والبياريش والطبول والمفاريز في الأيام المشهورة والمحاربة الشديدة، ويكونون في المحاربات طلابا مطلوبين، فإن اجتمعت قواة الفرس والعراقيين والخوارج في شخص واحد لا يعادل ذلك الشخص واحدًا من الأتراك. وهم لا يغترون بمجرد جسامة الفرس وإنما يقتنون فرسًا جربوا منه في محاربات عديدة، أنه لا يترك فرسًا يتعداه ويسبقه ويبذل في ذلك غاية جهده، وكل واحد منهم فارس وسايس وبيطار وحداد ورامح وكل منهم مكمل في هذه الصنائع بحيث لا يحتاج فيها إلى غيره، فإن خرجوا إلى المحاربة مع عساكر سائر الأجناس فهم يقطعون مسافة عشرين ميلاً في زمن يقطع فيه غيرهم عشرة أميال، فإنهم يفارقون سائر العساكر ويميلون إلى اليمين والشمال وينزلون إلى بطون الأودية ويصعدون إلى قمم الجبال ويصيدون بهذه الكيفية الهاربين من عدوهم، ولو كان من مشاهير الأبطال.

فمتى وقع اليأس من الصلح والمسالمة وتقرر الحرب يدافعون عن أنفسهم بتحصين مواقعهم العسكرية بالطبع ويبذلون في ذلك غاية جهدهم من غير أدنى فتور. ومن علو همتهم وصفاء مداركهم لا يخطر بخواطر أعدائهم انتهاز الفرصة عليهم أو التشبث بحيلة ما لإغفالهم.

وقال يزيد بن مزيد[١] في وصف الأتراك: لا ثقلة لأبدان الأتراك

---

[١] هو يزيد بن مزيد الشيباني، أحد القواد والفرسان عند الخليفة العباسي هارون الرشيد، توفي سنة

على الفرس والأرض، ويدرك الترك الشيئ الذي يجيء من وراءه حال كون فرساننا لا يرون الذي أمامهم، ويعدنا الترك صيدًا ونفسه أسدًا وفرسه حية، فإن ألقي واحد منهم في البئر مربوط اليد يخلص نفسه منها من غير تشبث بحيلة، وطبعهم مائل إلى الكفاف يرحبون ما ينالونه بسهولة على كل شئ سواه، ويحبون كون قوتهم من الصيد وأموال الغنيمة ويثبتون فوق ظهور خيولهم طالبين أو مطلوبين من غير فرار.

وقال ثمامة بن الأشرس[١]: «حيث كنت أسيرًا بأيدي الأتراك رأيت منهم لطفًا وإكرامًا. وإأيت أسبابهم مكمل الترك لا يخاف قط، بل يخيف غيره، ولا يطمعون في غير مطمع ولا يقعدون عن طلب شئ يريدون تحصيله قبل أن يحصله، فمتى حصلوه لا يضيعون شيئا منه قط، ويبذلون غاية جهدهم في أمر يقدرون عليه إلى أن ينالوه، وكل أمر لا يقدرون عليه لا يضيعون وقتهم، ولا يتبعون أنفسهم لتحصيله ولا ينامون إلا إذا غلبهم النوم، ومع ذلك لا يكون نومهم ثقيلاً، بل خفيفًا جدًّا بحيث يناموم بالتيقظ والانتباه يعني بالاحتياط دائما.. الخ[٢].

وكان هناك لون آخر مما لونوا به الحياة الاجتماعية التي أدت إلى إنتشار الأتراك بكثرة في البلاد الإسلامية ورسوخ نفوذهم في نواحي الحياة المختلفة فيها، وهو ما عرف عنهم من جمال ونظافة، فكان ذلك سببا في كثرة الجواري والمماليك من الأتراك في قصور الخلفاء والعظماء والأغنياء حتى أن بعض الخلفاء أنفسهم في هذا

---

١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٩٥/١٠.

[١] هو ثمامة بن الأشرس النميري، من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المتقدمين، اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، توفى سنة ٢١٣. الزركلي، الأعلام، ١٠٠/٢.

[٢] محمد مراد رمزي، تلفيق الأخبار، ٥٥.

العصر كانت أمه جارية تركية: فالمعتصم أمه تركية، والمتوكل أمه كذلك خوارزمية، والمكتفي بالله أمه تركية، اسمها جيجك (أي الزهرة) والمقتدر بالله أمه أم ولد تركية.

كما اشتهر في بيوت الأمراء جوار تركيات واشتهرت سمرقند بأنها مركز هام لتجارة الرقيق الأبيض.

وقد وصف ابن بطلان في رسالته في الرقيق الجواري التركيات فقال: إن «التركيات قد جمعن الحسن والبياض، ووجوههن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة، وقدودهن ما بين الربع والقصر، والطول فيهن قليل؛ ومليحتهن غاية، وقبيحتهن آية؛ وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل، قلما يتفق في أولادهن وحش ولا رديء التركيب، فيهن نظافة ولباقة لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة وفيهن أخلاق سمجة، وقلة وفاء»[١].

فإن هذا الجمال والنظافة الطبيعية للتركيات هي التي ألقت الفتنة في قلب خواجه حافظ الشيرازي[٢] وتلظته فدفعته أن يهب سمرقند وبخارى إلى تركي شيرازي حيث قال:

اگر آن ترك شيرازي به دست آرد دل ما را
به خال هندويش بخشم سمرقند و بخارا را

هكذا نرى إثر فتح العرب بلاد تركستان، تطلع الخلفاء والحكام

---

[١] ظهر الإسلام، ص ٣٧.

[٢] هو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي (ت. ٧٩٢ هـ) الملقب بـ«خواجه حافظ الشيرازي» والشهير بـ «لسان الغيب» من أشهر الشعراء الغنائيين في إيران. مولده ووفاته بشيراز. لقب بـ «حافظ» لحفظه القرآن الكريم بقراءاته الأربع عشرة. له أشعار بالفارسية والعربية وتُرجمت أشعاره إلى كثير من اللغات العالمية. البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، ط. ١. (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢) ص. ١٦٩.

مـن المسـلمين إلـى هـؤلاء الأتـراك فأعجبهـم جمـال خلقتهـم وقـوة أجسـامهم ورغبتهـم إلـى الحركـة والنشـاط فأكثـر مـن اقتنائهـم، فشـجع ذلـك تجـار البشـر الذيـن كثـروا فـي أنحـاء الدولـة وأكثـروا مـن أبنـاء الأتـراك وبناتهـا وعرضهـم كالسـلع فـي الأسـواق، كمـا تشـجع لصـوص الطريـق فاحتفظـوا الصغـار مـن الأتـراك مـن الأراضـي المتاخمـة لأراضـي الدولـة الإسلاميـة وقادوهـم إلـى حيـث الربـح الوفيـر فـي هـذه الأسـواق وحيـث يجـدوه عـملاء الخلفـاء والأمـراء فـي الانتظـار ويحـدث بعـد ذلـك أن يتـدرج هـؤلاء الصغـار فـي بلاط الأمـراء مـن المسـلمين فينشـأ نشـأة إسلاميـة حتـى إذا مـا كبـروا وترعرعـوا تكـون منهـم حـرس الخليفـة أو الأمراء وأسندت إليهم الوظائف العامة في الدولة.

وبهـذا الطريـق كثـر الأتـراك فـي الدولـة الإسلاميـة وتكاثـروا، وكلمـا زاد عددهـم زاد اعتمـاد الخلفـاء عليهـم، وتوغـل سـلطانهم فـي جـوف الدولـة حتـى قـدر لهـم فـي النهايـة أن يسـتأثروا بـكل شـئ بعـد أن سـلبوا الخلفاء وكل شئ.

ويقـال حينمـا ولَّـى أحمـد بـن طولـون بـن التركـي اسـتكثر مـن العبيـد حتـى بلغـت عددهـم زيـادة أربعـة وعشـرين ألـف غلام تركـي، وأربعيـن ألف أسود، وسبعة آلاف حر ومرتزق[١].

أخـذ التاريـخ الإسلامـي بعـده يصطبـغ بالصبغـة التركيـة، وبعـد أن كان الأحـداث تتصـل بـأعلام الفـرس كأبـي مسـلم الخراسـاني[٢] والبرامكـة[٣]

---

[١] الولاة للكندي: ١٩٤، والخطط للمقريزي: ١/ ٩٤.

[٢] هو أبو مُسلِم عبد الرحمن بن مُسَلم الخُرَاساني، قائد عسكري عباسي من أصل فارسي، كان والياً على خُراسان حتى مقتله. أبي زكريا الأزدي، تاريخ الموصل، (القاهرة: طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧)، ص ١١٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦/ ٤٨.

[٣] البرامكة أسرة يعود أصلُها إلى مدينة بلخ، كانوا في الأصل مَجوسًا ثم دخلوا الإسلام، وهُم ينتسبون إلى جدهم الأكبر برمك، الذي كَانَ سادنًا في أحد معابد المجوس ويسمى معبد النوبهار. كان برمك جد البرامكة من كبار سدنة المعبد وتبعه في ذلك بنوه من بعده، وقد أسلم من ذريّته من أسلم، وهُم من

والحسن بن سهل والفضل بن سهل[١] وعبيد الله بن طاهر[٢] وأمثالهم من قواد الأتراك الذين نشئوا وترعرعوا في بلاط الخلفاء حتى كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين في شئونها[٣].

واستمرت سيادة الأتراك في مصر طول مدة الطولونيين الأتراك والإخشيديين الأتراك أيضًا. فكان بيد هؤلاء الولاة الأتراك السلطان والقوة والمال وأثر كبير في التاريخ[٤]، حيث زاد تحكمه في الدولة العباسية في عهد كل من بني بويه والسلاجقة، ووصلت العناصر التركية إلى قمة مجدها في عهد ملك ملكشاه، ثم بدأت هذه الدولة تنهار تدريجيًّا، وبدأت تظهر في أنحاء الشرق الإسلامي دول وإمارات مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية المضمحلة، ومن هذه الدول؛ الدولة الخوارزمية التركية الأصل بدأت في الظهور حينما بدأت شمس السلاجقة في الغروب. وإن تاريخ هذه الأسرة التركية وغيرها لأقوى دليل على تغلغل العناصر التركية في جوف الدولة الإسلامية[٥].

وبعد أن بدأ الانهيار والانقسام في الدولة العباسية، كما أسس الأتراك في مصر والشام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية، كذلك أسسوا في تركستان نفسها الدولة السامانية، وفي شرقها الدولة الخاقانية، وفي جنوبها وفي بلاد الأفغان والهند الدولة الغزنوية

الذين تزعَّموا الحراك العباسي في خراسان، حيث كان خالد بن برمك من كبار الدُعاة إلى الخلافة العباسية في بلاده، وقد اصطفاه الخليفة العباسي أبو العباس السفاح ليكون وزيرًا له. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١ /٣٣٢.

[١] هو أبُو العبَّاس الفَضْل بن سَهْل بن زاذا نَفْرُوخ السَّرَخَسِيُّ (١٥٤ – ٢٠٢ هـ)، سليل ملوك المجوس، وهو أخو الوزير اللَّاحِق الحَسَن بن سَهْل. من قرية من السيب الأعلى تُعرف بصابر نيتا قرب سرخس. الموسوعة العربية.

[٢] عبد الله بن طاهر الخراساني، كان الحاكم الطاهري على خراسان من عام ٨٢٨م وحتى وفاته. وربما كان أشهر حكام الطاهريين.

[٣] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص.٤

[٤] نفس المصدر ص ٣.

[٥] أحمد أمين، ظهر الإسلام ص ١٩.

نشاهد أسماء مؤسسيها

الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ – ٥٨٢هـ	ألبتكين
السلجوقية	كل البلاد الإسلامية	[illegible]	سلجوق بن دقاق [1]

وكذلك عاش في ظل الإسلام الدولة التيمورية الكبرى وبقية الإمارات التي تأسست في تركستان بعد انهيارها وخدموا الإسلام حتى لم يبق فرد من الأتراك في تركستان يتدين بغير الإسلام

والدولة الخوارزمية ثم اتحد (كما تقدم) تحت الراية السلجوقية الكبرى كل البلاد التي تحكمها الدولة العباسية عدا مصر والهند. وفضلا على ذلك ضمت بلاد الأناظول إلى الدولة ثم على إثر انقسامها تأسست عدة دويلات تركية في البلاد التي حكمها السلاجقة في إيران والعراق وسورية والأناظول وغيرها.

[1] جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٣٨

الخوارزمية	خوارزم	٤٧٠ - ٦٢٨هـ	جلال الدين خوارزمشاه

وتدرج الأتراك في الولايات الإسلامية كما تدرج الفرس قبلهم، أي من الإمارة إلى السلطة. وهم أول من سموا سلاطين في الإسلام وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الإسلام فيه[١].

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقا عليهم القواد منهم مثل نظام الجند في ذلك الزمن. ولم يكتف بجمع المماليك الأتراك بالشراء أو المهاداة، ولكنه رغب أمراء الأتراك وأولاد ملوكهم بالقدوم إليه والإقامة في ظله. وممن جاء منهم على هذه الصورة جُف بن يلتكين من أولاد ملوك فرغانه وكانوا قد وصفوا له بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم إليه من أحضره غيره من أبناء الأمراء فبالغ المعتصم في إكرامهم. ولما بنى سرَّ من رأى (سامرا) أقطعهم فيه فزج أولاده إلى البلاد يتصرفون.

فاتصل طغاج بن جف بلؤلؤ غلام بن طولون في مصر، فاستخدمه على ديار مصر ثم انحاز طغاج إلى جملة أصحاب إسحق بن كنداج فقلده بعد موت أحمد وابنيه أبو بكر ومحمد، تولى بعد سنة ٣٢١هـ مصر والشام والحجاز وبلاد الجزيرة، ولم يزل يتولى هذه البلاد حتى عهد المقتفي لأمر الله[٢] الذي لقبه بالإخشيد سنة ٣٢٧، وهو من عرف بهذا اللقب في البلاد الإسلامية. وأن يلتكين أيضًا ولى مصر

---

[١] جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ١٧ /١٨٧.

[٢] هو أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين أَبُو عَبدِ الله مُحَمَّد المُقْتَفي لأمر الله بن أحمَد المُسْتَظْهِر بن عَبد الله المُقْتَدي (٤٨٩ – ٥٥٥ هـ)، اختصارًا المُقْتَفي لأمر الله، هو الخليفة الحادي والثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. بويع المُقْتَفي بالخلافة في ثامن ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ، استمر بالخلافة إلى أن توفي ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٠/٣٩٩.

ثلاث مرات حتى توفي في المرة الثالثة سنة ٣٢١هـ، تولى بعده أبوبكر الإخشيد المذكور[١].

الجيش التركي في الدولة العباسية

المعتصم والأتراك:

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة، لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب. ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين ولتسلط الفرس أنصار المأمون وأخواله واستبدلوا في الدولة، فكَّر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه، وكانت أمه تركية، وفيه كثير من طبائع الأتراك يميل إليهم كما يميل المأمون إلى الفرس. وشاهد المعتصم من جرؤة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الأمين حتى أصبح يخافهم على نفسه، ولم يكن له ثقة بالعرب فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرءة على الحرب والصبر على شظف العيش[٢].

خلاصة القول: قد ظهر في ذلك العهد في المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين: الفرس والعرب، وهو عنصر الأتراك. وكان له أثر كبير في تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والاجتماعية.

---

[١] جرجي زيدان، التمدن الإسلامي،١٧/ ١٦٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١١/ ٤١.
[٢] جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ١٧ / ١٦٨.

وقد لعب المعتصم دوراً هامًّا في ظهور هذا العنصر بجانب العنصرين الفرس والعرب، وذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ استقدم سنة ٢٢٠ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنه وغيرها من البلاد التي نسميها تركستان وما وراء النهر اشتراهم وبذل فيهم الأموال وأكسبهم أنواع الديباج وبناطس الذهب وفي شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك وقيل ثمانية عشر آلاف[١].

وبسببهم على الأكثر - يرجع انتصارهم على الروم في وقعة محورية سنة ٢٢٣ فكانت القيادة العليا في يد الأتراك وعلى رأسهم إثناس[٢].

وكان بغا الكبير الذي مات سنة ٢٤٨هـ وقد نَيَّف على التسعين سنة، باشر من الحروب (في عهد المعتصم) ما لم يباشره أحد، فما أصابته جراحة قط. وتقلد ابنه موسى بن بغا ما كان يتقلده وضم إليه أصحابه وجعلت له قيادته. وكان بغا ديِّنًا من بين الأتراك وكان من غلمان المعتصم يشهد الحروب العظام، ويباشرها بنفسه، فيخرج منها سالما، وكان كثير التعطف والبر للطالبين[٣].

وقد استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملئوا بغداد وضايقوا أهلها، فشكا أهل بغداد للمعتصم وقالوا له «تحول عنا وإلا قاتلناك» قال: «وكيف تقاتلونني وفي عسكري ثمانون ألف دارع»؟ قالوا نقاتلك بسهام الليل - يعنون الدعاء، - فقال المعتصم: «والله ما لي طاعة»، وتحول بجيشه إلى مدينة جديدة اسمها سر من رأى أو سامرا الآن[٤].

---

[١] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٣٦.
[٢] نفس المصدر ص ١٦.
[٣] مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ /٧٥.
[٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢/٢٣٣.

وكان المعتصم يحب جميع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة، وبالزي عن سائر جنوده. واستعد رجال خراسان من فرغانة وغيرهم من الأشروسنة فكثر جيشه. وكانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام يجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقلتوه عند صدمه لإمرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة منهم وأن ينزل في فضاء من الأرض فنزل البرازان على أربعة فراسخ من بغداد، فلم يستطب هواءها ولا اتسع هل هواءها فلم يزل يتنقل ويتحري المواضع والأماكن إلى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموقع المعروف بالقاطول. ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتحرى المواضع فانتهى إلى موضع سامرا، فارتفع البنيان، وأحفر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار، فجعل للأتراك قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والأشروسنة. و من مدن خراسان على قدر فرسخ منهم في بلادهم، وأقطع أشناس التركي[١] وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا، ومن الفراغنة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمري والجسر[٢].

وكان سبب إتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور:

الأول: أن أهم عنصر في الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم

---

[١] هو أبو جعفر أشناس (ت. ٨٤٤م) هو من قادة الخليفة العباسي المعتصم بالله. كان من أوائل وأبرز أعضاء الأمراء الترك للمعتصم، كان قائداً في معركة عمورية، ولعب دورًا قياديًا في تطهير النخب العباسية القديمة التي تلت ذلك. كان أيضًا واليًا عامًا على مصر منذ ٨٣٤م، وضمت إليه ولاية بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين منذ ٨٣٨م. في عهد المعتصم وكذلك الواثق، امتدت سلطاته إلى الولاية العامة على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية. https://ar.wikipedia.org/wiki/أشناس_التركي

[٢] المسعودي: مروج الذهب، ١/٢٧٢

الخراسانيون، وهم فرس من خراسان، وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن، من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم كما كانوا حرس الخلفاء، وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب: من مصر، واليمن، وربيعة ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأنا وأقل حظوة وأقل عددا من الفرس.

لذلك ضعفت ثقة الخلفاء بالعرب على مر الأيام، إذ رأوهم لا يتحمسون للقتال كتحمس الفرس، وأن المعتصم بدأ يشعر أيضًا بضعف ثقته بالفرس، وذلك أن كثيرًا من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس؛ لأن أم المأمون كانت فارسية فدعتهم عصبيتهم للمأمون –نصف الفارسي– أن يتعصبوا لابنه العباس أيضًا.

لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من أن تدعوه إلى التفكير العميق، ففكر أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب فهداه تفكيره إلى الترك، وظل لا يصفو للعباس ولا العباس يصفو له حتى اتهم العباس بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال المعتصم فقبض على العباس وسجن ومنع عن الماء حتى مات.

وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك، وهو أن أم المعتصم كانت أصلها من هذه الأصقاع التركية، فقد كانت من الصغد واسمها مارده. وكان في طباعه كثير من طباع هذه الأتراك من القوة والشجاعة والاعتداء بقوة الجسم، وكان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره، فدعته هذه العصبية التركية والتشابه الخلقي أن يفكر في استدعاء الأتراك ففعل[1].

كان من هؤلاء الأتراك مسلمون أسلموا على إثر فتح المسلمين

---

[1] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ١/ ٣٠٤

لبلادهم في العصر الأموي ومنهم مجوس وثنيون أخذوا يسلمون عند استقدام المعتصم لهم، وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية. وقد عرفوا بالشجاعة والصبر على القتال كما عرفوا بخشونة البداوة وقوة الطبيعة، فذلك حافظ المعتصم على دمائهم أن تبقى متميزة فجلب النساء من جنسهم وزوجهن لهم ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهم[١].

ومن ذلك التاريخ دخل في نزاع العصبة عنصر قوي جديد، فقد كان النزاع قبل بين الفرس والعرب، فأصبح بين العرب والفرس والترك؛ وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس، فجاءت قوة الترك ضغثا على إبالة، وتوجهت قوة الترك أولا لإضعاف هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان[٢].

زاد نفوذ الأتراك شيئا فشيئا بكثرة ما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم وبما أبدوا من بسالة في حروبهم، وبما تزاحموا وتناسلوا، وبتأييد الخلفاء لهم؛ فالواثق بعد المعتصم استخلف سنة ٢٣٨ على السلطنة أثناس التركي وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهرا وأظنه أول خليفة استخلف سلطانا، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه[٣].

وكان مما فعله المعتصم متمما لاعتماده على الأتراك، أن كتب إلى واليه على مصر كيدر[٤] واسمه نصر بن عبد الله، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم. فلما قطع العطاء عنهم

---

[١] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ١/٣٠٤.

[٢] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ١/٣٠٤.

[٣] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ١/٣٠٤.

[٤] هو نصر بن عبد الله، المعروف باسم كيدر، هو والي مصر العباسي، ولاه عبد الله المأمون بعد خروج المأمون من مصر سنة ٢١٧ هـ، وظل عليها حتى وفاته في ٢١٩ هـ.

خـرج يحيـي بـن الوزيـر الجـزوي فـي جمـع لخـم وجـذام وقـال: «هـذا أمـر لا نقـوم فـي أفضـل منـه - أي لا يوجـد سبب يدعـو إلى الثـورة أفضل منـه - لإنـه منعنـا حقنـا وفيئتنـا وفيئنـا»؛ واجتمـع نحـو مـن خمسـمائة رجـل، فتوجـه إليهـم مظفـر بـن حيـدر فـي بحيـرة تفيـس، فانقرضـت دولـة العـرب مـن مصـر وصـار جندهـا العجـم والموالـي مـن عهـد المعتصـم إلـى أن ولَّـى أحمـد بـن طولـون (التركـي) فاسـتكثر مـن العبيـد وطغـت عددهـم زيـادة علـى أربعـة وعشـرين ألـف غلام تركـى، وأربعيـن ألـف أسود، وسبعة آلاف حر مرتزق.

وتولـى المتـوكل سـنة ٣٣٢هـ، فـكان قـد مضـى علـى مجـئ الأتـراك اثنتـا عشـرة سـنة تمكنـوا فيهـا مـن الأرض وعرفـوا النـاس والـبلاد، وخدمتهـم الحـوادث في إعلاء سـلطانهم ؛ فرأينـا إيتـاخ التركـي هـو الذي بيـده معظـم الأمـور. وإيتـاخ هـذا غلام تركـي كان طبَّاخًـا فاشـتراه المعتصـم، وكان ذا رجولـة وبـأس، فرفعـه المعتصـم ومـن بعـده الواثـق حتـى ضـم إليـه مـن أعمـال السـلطان أعمـالا كثيـرة - وكان مـن أراد المعتصـم أو الوثـاق قتلـه فعنـد إيتـاخ يقتـل وبيـده يحبـس، منهـم محمـد بـن عبـد الملـك الزيـات، وأولاد المأمـون فلمـا تولـى المتـوكل كان إيتـاخ فـي أعلـى مرتبتـه، إليـه الجيـش المغاربـة والأتـراك والموالـي والبربـر والحجابة ودار الخلافة.

حتـى لقـد خـرج المتـوكل مـرة متنزهـا إلـى ناحيـة القاطـول وشـرب وعربـد علـى أتبـاخ، فهـم أتبـاخ علـى قتلـه، فلمـا أصبـح أخبـر المتـوكل بذلـك فاعتـذر إلـى أتبـاخ وقـال لـه: «أنـت أبـي وربيتنـى»، نعـم أن المتـوكل دبـر لـه مكيـدة فقتلـه، ولكـن بذلـك لـم يضعـف شـأن الأتـراك فـي شـئ، بل أوغر صدورهم على المتوكل.

أصبحـت أمـور الدولـة فـي يـد الأتـراك، وأصبحـوا مصـدر قلـق

واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم على بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصب كل فريق لقائد منهم، وهم كثير الطمع في الأموال لايشبعون، وعلى الجملة قد أصبحت «دار الإسلام» وما حولها ليست دار سلام.

لا بد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الخانق بما يثيره الأتراك من شرور، ولا بد أن يكون قد أحس الخطر على حياته منهم، ففكر أن ينقل عاصمة الخلافة من العراق إلى دمشق، وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من العنصر العربي من يغنيه عن العنصر التركى، ففي سنة ٣٤٣ أي تسبقه خلافته بإحدي عشرة سنة رحل إلى دمشق، ولكنه لم يطل مقامه بها، فلم يستطب جوها كما قالوا. وهو مع هذا لم يسلم من شغب جنود الشام عليه، فاجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب فعاد إلى سامرا. وكان بين خروجه فيها وعودته إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام، و بعد أربع سنوات من عودته قتله الأتراك.

لقد قصد المتوكل أن يتخلص من الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى، ولكن كان ابنه المنتصر يشايعهم، فعزم المتوكل أن يفتك بالمنتصر، ويقتل وصيفا[١] وبغا[٢] وغيرها من قواد الأتراك ووجوههم،

[١] هو وصيف التركي (ت. ٨٦٧م) هو قائد عسكري تركي مسلم خلال الدولة العباسية. لعب دورًا مركزيًا في الأحداث التي أعقبت اغتيال المتوكل عام ٨٦١م، والمعروفة باسم فوضى سامراء. خلال هذه الفترة كان هو وحليفه بغا الشرابي في كثير من الأحيان في السيطرة الفعالة على شؤون العاصمة، وكانا مسؤولين عن سقوط العديد من الخلفاء والمسؤولين المنافسين. بعد مقتل واصف عام ٨٦٧م، ورث منصبه ابنه صالح.

[٢] هو بغا الصغير، لتمييزه عن بغا الكبير، كان قائدًا عسكريًا عباسيًا من أصل تركي في منتصف القرن التاسع في الدولة العباسية. خدم في عهد الخليفة المتوكل في أذربيجان، لكنه قاد لاحقًا مؤامرة الترك التي قتلت الخليفة، حيث تحالف وصيف التركي، وأصبح بغا بعد ذلك له النفوذ الواسع في بلاط محمد المنتصر بالله وأحمد المستعين بالله، خلال «فوضى سامراء». لكن قل تأثيره في عهد المعتز بالله؛ لأن المعتز كان يستاء من تأثيره ودوره في مقتل والده المتوكل. وفي عام ٨٦٨/ ٢٥٣ هـ سُجن بغا وأُعدم

وعزموا على الفتك به فكان ذلك مفترق الطرق، فإن نجح زالت دولة الأتراك وعادت غلبة الفرس، ورجعت الأمور على ما كانت عليها، ولكن شاء القدر أن ينجحوهم، فتقدم باغر التركي حارس المتوكل ينفذ مؤامرة من القواد الأتراك على رأسهم بغا الصغير، ومعه عشرة غلمان من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم وصعدوا على سرير الملك، وضرب باغر بالسيف فقَدَّه إلى حاصرته، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك، وأقبل انفتح يمانعهم فبعجه واحد منهم بالسيف في بطنه فأخرجه من متنه، فلفا في البال الذي قتلا فيه ؛ وطرحا في ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا[١].

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين، فكل من كان قبله مات حتف أنفه (إلا الأمين قتل بعد هزيمته في الحرب)، ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده، بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده، ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الأتراك. وكان في قتله حياة الأتراك وسلطانهم وإنذار عام للبيت المالك أن من أراد أن يلي الخلافة فليذعن إذعانا تاما للأتراك، ومن حدثته نفسه - من الخليفة فمن دونه - أن يناوئهم فليوطن نفسه على القتل.

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك، فكان الخليفة بعده خاتما في إصبع أو أقل من ذلك، حتى قنع بالسكة والخطبة، لا وصار يضرب ذلك مثلا لمن له ظاهرا لأمر وليس له من باطنه شئ. فيقال قنع فلان من الأمري الفلاني بالسكة والخطبة، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة، وفي هذا المعنى يقول بعضهم في

بأمر من الخليفة. https://ar.wikipedia.org/wiki/بغا_الشرابي

[١] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣٨/٤.

الخليفة المستعين:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا   يقول ما قالا له كما يقول الببَّغاء

وكان أكثر الأتراك لما جمعهم المعتصم إليه يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ماكانوا عليه في بلادهم وفيهم جماعة قد دخلوا الإسلام. أما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين أسلموا وفيهم من أظهر ذلك تزلفا من الحلفاء كالأفشين وكان مجوسيًّا، ويتهمه مؤرخو العرب أنه أسلم جمعا بالكسب من الغنائم بالحروب.

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء الأتراك عل فطرتهم ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالأمم الأخرى، فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم، فابتاع لهم الجواري التركيات فزوجوهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحدا من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض وأجرى للجواري أرزاقًا قائمةً وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم أن يطلق إمرأته أو يفارقها.

فاشتد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة وخصوصًا بعد أن أنقذوا المملكة من بابك الخرمي، وفتحوا محمودية ونصروا الإسلام فتحول النفوذ إليهم. وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقوَّاد. واشتهر من الوزراء في أثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال كأبي وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن عقلة وغيرهم وكانوا يسابقون الأتراك إلى النفوذ وابتزاز الأموال بالمصادرات ونحوها من المظالم.

وكانت الدولة قد تجاوز طور الثبات وأخذت في التقهقر وانغمس

الخلفاء في الترف والقصف، وعجزوا عن القيام بشئون الحكومة فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الأتراك) وهؤلاء لا يعملون عملاً إلا بالمال، فمن استطاع استخدام الجند ملك ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية. فأصبح الأتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب[١].

وكانت جنود الدولة العباسية في أوائلها العرب من مضر واليمن والفرس، - ونريد بالفرس سكان مابين الفرات وأطراف خراسان شرقا إلى نهر جيحون، ويدخل في ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها - وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقامًا من بني أمية أو رغبة في الملك ومعظمهم من الجند الأحرار بلا بيع ولا عتق، وإنما سموا الموالي إشارة إلى أنهم ليسوا عربًا على إصطلاح ذلك العصر. واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة فنبغ منهم الوزراء والأمراء والعلماء، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وأنشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية.

فلما تولى المعتصم واقتنى الأتراك بالترغيب أو الشراء أصبح الجندي العباسي أكثره من المماليك وأخلد الخلفاء بعده إلى نصرتهم، واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم أو الحرس، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالأحكام. فانتقلت سياسة الدولة من أيدي الموالي الفرس - وأكثرهم من الشيعة - إلى الجند الأتراك - وأكثرهم من السنة-، وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاء الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة وأولهم المتوكل على الله. ورسخ الأتراك في

---

[١] جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ١٩٣/٤.

مذهب السنة من ذلك الحين ولايزالون عليه إلى اليوم.

وفي عهد كل من المستعين بالله سنة ٢٤٩هـ والمعتز بالله سنة ٢٥١هـ كان أمراء الأتراك قد استفحل استفحالاً عظيما. ومما يحكي عن استفحالهم في الخلفاء أنه لما تولى المعتز خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: «أنظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقي في الخلافة»؟. وكان في المجلس بعض الظرفاء، فقال: «أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته»، فقالوا له: فكم تقول أنه يعيش وكم يملك؟، قال: «مهما أراد الأتراك». فلم يبق في المجلس إلى من ضحك[١].

وكان الجند الأتراك يومئذ أشبه شئ بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Prachrian أو هم كالباشبوزوق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال، فكل من وصلت يده إلى السلطة اقتنى الغلمان الأتراك إما بالشراء أو بالأجرة وتألفت منهم الفرق بتوالي الأعوام، وكل منها تنسب إلى صاحبها كالساجية نسبة إلى أبي الساج، والصلاحية إلى صلاح الدين وكذلك الأسدية والنظامية وأمثالهما.

وكان للأمراء والقواد عناية كثيرة في تدريب جنودهم الأتراك على الحركات العسكرية فضلا عن تعليمهم الفرائض الدينية.

وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر إليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات. فإذا شب المملوك علمه الفقيه شيئا من الفقه فإذا صار إلى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب، ولعب الرمح ونحو ذلك. وإذا ركب الأتراك لرمي النشاب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنوا منهم. فإذا أتقن

---

[١] الفخري، ٢٢٠. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ١٩٣/٤.

فنون الحرب تنقل في أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وقد ينبغ منهم الفقهاء والأدباء والشعراء[١].

السامانيون

وكان مؤسس هذه الدولة سامان خداه أي سيد قرية سامان في منطقة بلخ فارسيا، اعتنق الإسلام في خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣). وحوالي سنة ٨١٩م عين المأمون حفدة سامان الأربعة ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهرات، وكانت ولايتهم أول الأمر من جهة آل طاهر. ثم سعى أحمد أمير فرغانة أن يبسط سلطته على سمرقند أيضًا. حتى إذا كانت سنة ٨٧٥ أقطع الخليفة نصر بن أحمد إقليم ماوراء النهر، فولّى أخاه إسماعيل البخاري حيث وضع حدًّا للإضطراب السائد فيها منذ نشبت الحروب مع الصفارية، وأكره إشرافها على الاستسلام.

وفي سنة ٩٠٣ وفق إسماعيل بعد أن جرد أخاه نصرًا من كل سلطة فعلية - إلى أن ينتزع خراسان من عمرو بن الليث الصفاري ويستولي على طبرستان إثر انتصاره على محمد بن زيد العلوي[٢]، حتى إذا جاء خلفاؤه من بعده فتحوا سجستان وجرجان أيضًا، ولكنهم خسروا طبرستان بعد أن استولى عليها آل بويه. وتقلصت رقعة نفوذهم شيئًا بعد شيءٍ في بلاد أبائهم وأجدادهم على يد الدولة التركية القومية التي أنشأها «الإيلك خانية» في تركستان. وكان هؤلاء قد ظهروا بادئ الأمر في المناطق الواقع شمالي تنغريتاغ وجنوبها، ثم اندفعوا من هناك في اتجاه الغرب[٣].

---

[١] المقريزي، ٢/٢١٣.

[٢] محمد بن زيد العلوي أمير طبرستان والديلم.

[٣] كاريل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ٢/١١٣.

الدول الإسلامية التي أسستها الأتراك في تركستان وغيرها من البلاد الإسلامية

الدول الإسلامية التي أسستها الأتراك في تركستان وغيرها من البلاد الإسلامية

ومن أهم الدول الإسلامية التي ازدهرت في بلاد تركستان وخراسان بعد العرب الذي دام زهاء ١٥٠ سنة، كانت الدولة السامانية التي حكمت من ٢٦١هـ - ٨١٩م إلى سنة ٣٨٩هـ - ٩٩٩م، ولو أن السامانيين ماكانوا تركي النسل، ولكن قد اشتهرت دولهم التي قويت تركستان في أحضانها بالعدل والصلاح وتشجيع العلم، وفي عهدهم ازدهرت بخارى وسمرقند كمركز نشاط علمي وفني وثقافي ومدني، وكان لها أثر كبير في العالم الإسلامي[١].

وفي عهد إسماعيل صارت بخارى عاصمة كل بلاد آسيا الوسطى وحدود مملكته وصلت في الشمال إلى الصحراء الكبرى، شرقًا إلى وديان جبال تنغريتاغ، جنوبًا إلى خليج فارس والهند الشمالية، وغربًا قد اتصلت إلى حدود الخلافة في العراق[٢].

وفي عهد إسماعيل الساماني عادت بخارى لشهرتها السابقة كمركز نشاط علمي وأدبي ونشئت فيها خاصة الثقافة الإيرانية القديمة في شكل إسلامي خالص.

---

[١] ستانلى، ص ١٣١.

[٢] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٨٢.

وقد قال الثعالبي[١]: «كانت بخارى في الدولة السامانية بمثابة الحجة وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر»[٢].

وقد أخرجت هذه البلاد مالا يحصي من رجال الحديث والفقه، خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصي البلدان.

وعلى رأس المحدثين الإمام البخاري، وهو من بخارى ولد سنة ١٦٤ - ٨٥٩ وضع كتابه «جامع الصحيح» الذي يعتبر مصدرًا معتمدًا في الأحاديث.

ويقول ابن خلكان:[٣] إن هذا الكتاب يشمل على ستمائة ألف حديث جمعها في ستة عشر سنة، وقرأ عنده سبعين ألفًا من التلاميذ توفي سنة ٢٥٤هـ - ٨٤٤م.

ومنهم العلامة أبو حفص البخاري[٤] الذي كان عالمًا متبحرا ولد

---

[١] عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠ هـ - ٤٢٩ هـ) الذي يُعرف بأبي منصور الثعالبي النيسابوري، أديب عربي فصيح عاش في نيسابور وضلع في النحو والأدب وامتاز في حصره وتبيانه لمعاني الكلمات والمصطلحات.

[٢] أبو منصور عبد الملك أبو محمد بن إسماعيل الثعالبي (٤٢٩): المسعودي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، (القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٧٣)، ٤.

[٣] هو قاضي القُضاة شَمْسُ اَلدِّينْ أَبُو اَلْعَبَّاسْ أَحْمَدْ، مؤرخ وقاض وأديب يعد من أعلام مدينة دمشق، وهو صاحب كتاب «وَفَيَاتُ اَلْأَعْيَانِ وَأَنْبَاءِ أَبْنَاءِ اَلزَّمَانِ» وهو أشهر كتب التراجم العربية، ومن أحسنها ضبطًا وإحكامًا. ولد في أربيل الدولة العباسية سنة ٦٠٨ هـ. تولى التدريس في مدارس دمشق وكان من الأعلام، وتوفي ودفن في سفح جبل قاسيون في دمشق سنة ٦٨١ هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، (بيروت: مكتبة المثنى، ١٩٥٧م)، مادة: ابن خلكان.

[٤] هو أبو حفص أحمد بن حفص بن الزبرقان بن عبد الله بن أبجر العجلي البخاري الحنفي، المعروف باسم أبي حفص الكبير، (١٥٠-٢١٧هـ) فقيه علامة حنفي، يلقب بشيخ ما وراء النهر، وفقيه المشرق. أخذ عن محمد بن الحسن الشيباني، وله أصحاب كثير ببخارى، وكان في زمن محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح. ولقي أبا يوسف ومالك بن أنس وسمع سفيان بن عُيينة والفضيل ووكيعًا وعبد الله بن المبارك وجماعة، ولازم محمد بن الحسن حتى صار إمامًا كبيرًا، وله أصحاب لا يحصون، حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، ص١٤٢.

سنة ١٥٠-٧٦٧ وهو قاد التيار الفكري في ذلك العهد، وكان تلميذ الإمام محمد الشيباني[١] توفي سنة ٢٢٧هـ ٨٤١م بعد أن ترك أثاره الأدبية الزاهرة لتلميذ عبيد الله القبقية.

ومنهم أيضًا شيخ بدر الذي يقال في شأنه أنه اعتكف أربعين سنة يعبد في الليالي بلا منام، ومنهم محمد البرموطي الذي كان قاضي القضاة في عهد إسماعيل توفي سنة ٣٠٤هـ ٩١٦م. وأيضًا محمد بن الفضل كان مفسرًا متبحرًا تتباهى به بخارى ويغبط بلاد الإسلام الأخرى.

ويقال إن إسماعيل الساماني قد رجح بلدة بخارى لسمرقند لميزتها العلمية وصيت شهرتها وكان أميرًا متدينًا وفي تقوى، منصفًا يحب العلم والعلماء وجوادًا لهم وكان جوده هذا سببًا لجلب الطلاب من الأقطار البعيدة بطلب العلم في مدارس بخارى أو دور الحفاظ فيها، التي ازدادت في عهده بج لا مثيل له في سائر بلاد الإسلام[٢].

أحيت في عهد السامانيين روح اليقظة في القومية الإيرانية وأخذ الرجحان الديني ينبعث بحياة جديدة ومع اللغة الفارسية وأدبها التي كانت الشعر الفارسي في عهد السامانيين، ففي النصف الأول من القرن العاشر، عهدي النصر الثاني (٩١٣-٩٤٢م) ونوح الأول (٩٤٢-٩٥٤م) كانت البلاد الواقعة في حوزة السامانية مركزا لحضارة زاهرة. فقد

---

[١] محمد بن الحسن الشيباني الكوفي (١٣١-١٨٩هـ) عالم مسلم من أهل العراق، فقيه ومحدث ولغوي، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان، وناشر مذهبه، يلقب صاحب أبي حنيفة، وفقيه العراق. ولد بواسط سنه ١٣١ هـ، ونشأ بالكوفة، وأخذ عن أبي حنيفة بعض الفقه، وتمم الفقه على القاضي أبي يوسف، وأخذ عن سفيان الثوري والأوزاعي، ورحل إلى مالك بن أنس في المدينة. تولى القضاء زمن هارون الرشيد، وانتهت إليه رياسة الفقهِ بالعراق بعد أبي يوسف. البيهقي. مناقب الإمام الشافعي، تحقيق: محمد خليل إبراهيم. (بيروت: دار الكتب العلمية) ص، ١٢٠. الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. ص ١٦٩.

[٢] المرجع السابق، ص٨٣.

كانت أراضي ما وراء النهر المنخفظة (الأغوار) ومياهها الغزيرة تستغل من أمد بعيد وتدر محاصيل وافرة بفضل العناية المنظمة الهادفة، وهنا تفتح الوعي القومي عند الفرس من جديد بعد أن استبعدتهم سيادة العرب السياسية والدينية زمنًا طويلاً. ومع أن الفرس تفوقوا على العرب في إدارة الدولة وفي النواحي الثقافية تفوقًا كبيرًا، منذ ابتداء الخلافة العباسية، فقد كانت خدماتهم ذات فائدة للعرب فيما بعد، إذ لم يعد من الممكن إقصار لغة التنزيل عن الشئون العامة وعن الأدب جميعًا. بيد أن الفرس تذكروا، هنا في الشرق، لأول مرة شرف لسانهم القومي وعظمته. وعلى الرغم من إشراف الفرس من أصحاب الأراضي لم ينقطعوا يوما عن العناية بمفاخرتهم القومية في سيرة ملوكهم وأبطالهم.

وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس غير شك، في إنشاد الشعر، فالحق أن تلقيح هذا الإرث الروحي من جديد، لم يتم إلا في بلاط السامانيين وعلى أيديهم. ففي ظل نصر الثاني لمع الرودكي[1] أول شاعر غنائي فارسي وصلتنا عنه أخبار على شيء من التفصيل. وعلى الرغم من أن شعره لم يخل من الكلمات العربية، وعلى الرغم من أن الأوزان التي اصطنعها كانت كأوزان جميع شعراء الفرس من بعده مفرغة في القوالب العربية، فقد دعا في منظومه إلى فلسفة على الحياة بعيدة عن الهم والغم، ناضحة بالحبور، مستوحاة على الرغم من وصايا الإسلام، لا من حب الناس والغناء فحسب، بل من حب الخمر أيضًا.

وكان الرودكي، إلى ذلك، مؤسس «الملحمة التعليمية» وهي اخصب فروع الأدب الفارسي على الإطلاق. فقد سلك في نظام من الشعر

[1] الرُّودكي (٢٤٤ - ٣٢٩ هـ) أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم. شاعر فارسي، يعتبر أول شاعر ذي شأن في تاريخ الأدب الفارسي كله. ولد في قرية رودك من قرى سمرقند. من أشهر أعماله ترجمته الشعرية لكتاب كليلة ودمنة، نقلاً عن الترجمة العربية التي وضعها عبد الله بن المقفّع. الموسوعة العربية الميسر، مادة: الرودكي.

الفارسـي كتـاب «كليلـة ودمنـة» الهنـدي القديـم الـذي سـبق لإمبراطـور الساسـاني كسـرى نوشـروان (٥٣١-٥٧٩م) أن أمـر برزويـة، طبيبه الخاص، بترجمتـه إلـى الفهلويـة، والـذي نقلـه إلـى العربيـة، فـي صـدر الدولـة العباسـية، عبـد اللـه بـن المقفـع الفارسـي[١]، كذلـك نظـم الرودكـي قصـة السـندباد والـوزراء السـبعة شـعرًا فارسـيًّا. وفـي عهـد منصـور بـن نـوح ٩٦٢-٩٧٦، ترجـم أبـو علـي البلعمـي[٢] إلـى الفارسـية كتـاب «الطبـري الكبيـر»[٣] فـي تاريـخ العالـم، واضعًـا بذلـك حجـر الأسـاس فـي علـم التاريـخ عنـد الفـرس، هـذا العلـم الـذي بعـد أن ينتهـي إلـى غايـات بعيـدة من النمو والازدهار.

أمـا فـي حقـول المعرفـة العلميـة الخالصـة فالـذي لا شـك فيـه أن العربيـة احتفظـت، هنـا فـي الشـرق أيضًـا، بمقـام الصـدارة. وهكـذا نجـد ابـن سـينا[٤] الفيلسـوف والطبيـب الشـهير الـذي بـدأ أتباعـه فـي عهـد نـوح بـن منصـور (٩٧٦-٩٩٧) ثامـن الأمـراء السـامانيين، يضـع بالعربيـة مؤلفاتـه الفلسـفية وكتابـه «القانـون» الـذي كان المرجـع الأساسـي فـي علـم الطـب بأوربـا،

---

[١] هو أبو مُحمّد عبد الله بن المقفع (١٠٦ – ١٤٢ هـ)، وهو مفكّر فارسي وُلِد مجوسياً لكنه اعتنق الإسلام، وعاصر كُلاً من الخلافة الأموية والعباسية. درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء واشترك في سوق المربد. ومن أعماله مقدمة كليلة ودمنة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٥٣/٢.

[٢] هو علي البلعمي هو مؤرخ ومن وزراء الدولة السامانية، من أهل القرن الرابع الهجري. والده هو الوزير أبي الفضل محمد البلعمي الذي كان وزيراً لإسماعيل الساماني. كان أبو علي البلعمي وزيرًا لعبد الملك بن نوح الساماني ومنصور بن نوح. توفي سنة ٣٦٣ هـ. ويقول بروكلمان أن البلعمي بهذه الترجمة: وضع حجر الأساس في علم التاريخ عند الفرس، هذا العلم الذي قدر له بعدُ ان ينتهي إلى غايات بعيدة من النمو والازدهار. موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط. ١. الجزء الثاني والعشرين، (الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري. ١٤١٨ هـ). ص، ٦٧٦٨.

[٣] إلا أن البلعمي اختصر كثيرًا وأكمل من مصادر أخرى – خاصة في الكلام عن العهود الأولى. وقد أنجز البلعمي هذا العمل عام ٣٥٢ هـ أي بعد اثنين وأربعين عاماً على وفاة الطبري.

[٤] هو أَبُو عَلِيّ الحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ اَلْحَسَنِ بْنِ عَلِيّ بْنِ سِينَا اَلْبَلْخِي ثُمَّ اَلْبُخَارِي، عالم وطبيب مسلم من أصول فارسية، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد سنة ٣٧٠ هـ وتوفي في همدان سنة ٤٢٧ هـ. عُرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء وأبي الطب الحديث في العصور الوسطى. وقد ألّف ٢٠٠ كتابا في مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب. ويعد ابن سينا من أول من كتب عن الطبّ في العالم ولقد اتبع نهج أو أسلوب أبقراط وجالينوس. وأشهر أعماله كتاب القانون في الطب. عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص١٣٣.

خلال القرون الوسطى، والذي ساد فن الشفاء برمته، في فارس حتى وقت قريب[١].

ويقول أرنولد توينبيي: أن في عهد السامانيين (٩١٨-٩٩٩م) الذي كان بلخ وسمرقند من مراكزهم الهامة قد نشأ الأدب الفارسي، وهوطفل. فأسبغ أمرًا ما أمكن إنجازه فى تبليغ الإسلام بين سكان السهول البدويين[٢].

نشطت هذه الحركة وخاصة فى عهد نصر وإسماعيل أخذ الفارسية ينقحون من العربية لا يستعملون فى أشعارهم سوى اللغة الفارسية، وكان أبو الحسن الرودكى والفردوسي من أشهر شعراء هذا العصر التنقيحي[٣].

وخرج في عهد السامانيين كثير ممن بلغوا مبلغ الاجتهاد في الفقه مثل ابن حاتم محمد بن حبان التميمي السمرقندي[٤]، له تصانيف كثيرة في الحديث والجرح والتعديل وقد ولى قضاء سمرقند، ومات سنة ٣٥٤هـ.

ثم كان في ذلك العهد بهذه الأقاليم كثير من عظماء الشافعية والحنفية: فمن أكبر رجال الشافعية محمد بن على القفال الشاشي[٥] كان يعد إمام عصره في ماوراء النهر وناشر مذهب الشافعية، وله كتب في الفقه والأصول، وخرج غازيًا في الحروب بين المسلمين والروم

---

[١] بروكلمان، ٢ /١١٥.

[2] A. Toyubee: Study of History VII P 142.

[٣] المرجع السابق ٨٣.

[٤] هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سَهيد، البُستي. وُلد في مدينة «بُست»، وهي مدينة كبيرة بين هراة وغزنة، ولكن لم يُحدِّدوا سنة ولادته، ويؤخذ من أقوال العلماء أنه وُلِدَ بين سنة (٢٧٠هـ - ٢٧٩هـ)، وقد قاربَ الثمانين من عمره. الزركلي، الأعلام، ٧٨/٦.

[٥] هو أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بـ «القفال الكبير» (٢٩١ هـ - ٣٦٥ هـ)، أحد أعلام مذهب الإمام الشافعي، فقيه ومفسر وراوي حديث. ويلقب بـ«القفال الكبير» تمييزاً له عن الإمام «القفال الصغير». الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٨٤/١٦.

أخذ أسيرًا إلى القسطنطينية ثم عاد إلى بلاده ومات بالشاش سنة ٣٦٥هـ. كما اشتهر من الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدي[١]، وهو للحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعية، وهو ألف كتاب «التوحيد»، و«أوهام المعتزلة»، و«مأخذ الشرائع» في الفقه والجدل في أصول الفقه وغير ذلك مات سنة ٣٣٣ ونسب إلى ماتريد محلة في سمرقند[٢].

ثم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى توفي سنة ٣٧٣هـ[٣].

ومن أشهر المتصوفين الذين ظهرت في بلاد ماوراء النهر وخراسان كان أولهم شقيق البلخي[٤].

قيل: إنه أول من تكلم على الأحوال بخراسان، مات سنة ١٥٣هـ.

وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق[٥] أصله من ترمذ وأقام

---

[١] هو الإمام أبو منصور الماتريدي مؤسس المدرسة الماتريدية، شرح عقيدة أهل السنة والجماعة بمنهج النقل والعقل. استفاد من آراء أبي حنيفة الكلامية، ولكنه لم يكن مجرد شارح ومفصل لطريقة أبي حنيفة، بل كان مبتكراً، له منهجه الخاص به، وهو أحد مجددي الإسلام في زمانه. وقد سبق الإمام الماتريدي الإمام الأشعري في القيام بهذه المهمة في الدفاع عن العقيدة. نهض الماتريدي في الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي، ونهض أبو الحسن الأشعري في الأقاليم المتوسطة لمجابهة ذوي الأفكار المتطرفة. أبو المنصور الماتريدي، التوحيد، تحقيق: الأستاذ الدكتور بكر طوبال أوغلي، والأستاذ المساعد الدكتور محمد آروشي، (بيروت: دار صادر، ومكتبة الإرشاد استانبول)، ص ٧-٩.

[٢] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٢٦٥.

[٣] نفس المرجع، ص ٢٦٥.

[٤] أبو علي شَقِيق بن إبراهيم الأزدي البَلْخي، أحد علماء أهل السنة والجماعة وهو من أهل بلخ في خراسان، كان أستاذ حاتم الأصم، صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الزهد. وروى عن كثير بن عبد الله الأبلي وإسرائيل بن يونس وعباد ابن كثير. حدث عنه عبد الصمد بن يزيد مرذويه ومحمد بن أبان المستملي وحاتم الأصم والحسين بن داود البلخي. استشهد في غزوة كولان عام ١٩٤ هـ. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص٤٥. أبو نعيم، حلية الأولياء، ٦٨/٨.

[٥] أبو بكر محمد بن عمر الورّاق الترمذي، ويلقب بـ «الحكيم»، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، أصله من ترمذ وسكن بلخ، وصحب أحمد بن خضرويه ومحمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد ومحمد بن عمر بن خشنام البلخي. له كتب مشهورة في التصوف والمعاملات والأدب وقد أسند الحديث. توفي عام ٢٤٠ هـ. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ٦٢/١. أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ٢٣٥/١٠.

ببلخ مات سنة ٢٤٠م[١].

وأبو العباس بن القاسم بن مهدي[٢] أصله من مرو وهو أول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال مات سنة ٣٤٢هـ.

وكانت في هذه البلاد حركة فلسفية قوية يرجع الفضل أولاً لشخصيتين من أقوى الشخصيات، وهما أبو يزيد البلخي[٣] وأبو القاسم الكعبي[٤].

فأما أبو زيد فهو من أحدس وسهل البلخي جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية ومن تأليفه كتاب «أقسام العلوم»، كتاب «أخلاق الأمم»، كتاب «نظم القرآن»، وكتاب «اختيار أميرة» وكتاب «العامة» الصغير والكبير وغيرها، فهو ألف ستين كتابًا في مختلف العلوم، وكان أيضًا من أكبر جغرافيي العرب وقد ألف في الجغرافية «صور الأقاليم» مات ببلخ سنة ٣٢٢هـ.

وأبو حنيفة الدينوري[٥] فإنه من نوادر الرجال جمع بين حكمته

---

[١] ابن الملقن، طبقات الأولياء، ٦٢/١. الأصبهاني، حلية الأولياء، ٢٣٦/١٠.

[٢] هو أبو الْعَبَّاس السياري واسْمه الْقَاسِم بن الْقَاسِم بن مهْدي ابْن بنت أَحْمد بن سيار كَانَ من أهل مرو وشيخهم وَأول من تكلم عِنْدهم من أهل بلدهم فِي حقائق الْأَحْوَال. توفّي سنة اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعين وثلاثمائة. أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص٣٣٠-٣٣٥. الذهبي، أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٥، ص٥٠٠-٥٠١.

[٣] أحمد بن سهل، أبو زيد البَلْخِي (٢٣٥ - ٣٢٢ هـ) الملقب: «الجاحظ الثاني» هو أحد حكماء الإسلام وعلمائهم البارزين في الأدب والفقه والفلسفة. كان عالم موسوعي في علوم الطب، والطب النفسي، والرياضيات، والجغرافيا. كان تابعاً للعلامة الكندي ولد في إحدى قرى بلخ. يعد رأس مدرسة في الجغرافية العربية، لعنايته بالخرائط في كتابه. ألف نحو سبعين كتاباً، ولكن فقد أغلبها. الزركلي، الأعلام، ١٣٤/١. ومعجم الأدباء، ٣/ ٦٥. ولسان الميزان ١/ ١٨٣

[٤] هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي المعروف بالكَعْبي (٢٧٣ - ٣١٩ هـ)، يُعد من المعتزلة البغداديين، ومن نظراء أبي علي الجُبَّائي، صنّف في الكلام كتباً كثيرة، وقد تتلمَذَ الكعبي على يد أبي الحسين الخَيَّاط المتكلم المعتزلي وخالفه في بعض المسائل، أقام ببغداد مدّة طويلة وناظر بها وانتشرت بها كتبه، ثمّ عاد إلى بلخ فأقام بها إلى حين وفاته. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣١٣/١٤.

[٥] هو أَبُو حَنِيفَة أَحْمَدْ بْنْ دَاوُدْ اَلدَّيْنُورِي، وهو عالم نحوي ولغوي، ومهندس، وفلكي، أخذ علمه عن العلماء البصريين والكوفيين، وكان راوية للحديث ثقة فيما يرويه، والملقب بشيخ علماء النبات، ألف كتاب الأنواء في الفلك والحساب والطقس، وكذلك كتاب النبات الذي رتب فيه النباتات على حروف المعجم، واهتم بكل ما قيل فيها نثرا وشعرا حتى أواخر القرن الثالث الهجري. الذهبي، سير

الفلاسفة وبيان العرب[١].

وأبـو القاسـم عبـد اللـه بـن أحمـد الكعبـي كان مـن بلـخ أيضًـا، وكان معاصـرًا لأبـي زيـد واشـتهر بتبحـره فـي علـم الـكلام، وأنـه رأس مـن رؤوس المعتزلة له مذهب خاص وأتباع يقال له الكعبية مات سنة ٣١٧هـ[٢].

وقـد تـوج عهـد السـامانيين بظهـور الفيلسـوف الكبيـر ابـن سـينا مـدة الدولـة السـامانية، وهـو أبـو علـى الحسـين بـن عبداللـه بـن الحسـين بـن على بـن سـينا، أصلـه مـن بلـخ اسـتوطن فـي بخـارى. عـاش ابـن سـينا فـي عهـد نـوح بـن منصـور السـاماني (٣٧٠-٤٢٨هـ) الـذي طلبـه إلـى صحـارى وهو شـاب دون العشـرين وشـجعه لـدرس الكتـب النـادرة فـي خزانـة الكتـب الملكية.

وهـو يعـد مـن أكبـر فلاسـفة الإسلام، وأخـذ اسـمه وتأليفـه شـهرة ومكانـة لـم يبلغهـا أحـد غيـره فـي فلاسـفة الشـرق، ظـل كتابـه «القانـون» فـي الطـب يـدرس فـي الشـرق والغـرب إلى عهـد قريـب، وكتبه «الشـفاء» و«الإشـارات» و«النجـاة» مرجـع كل مـن درس الفلسـفة الإسلاميـة. والخلاصـة أن مقامـه وشهرته العلمية لا تحتاج إلى الشرح والتعريف.

وقـد شـجع السـامانيُّون الحركـة الأدبيـة والعلميـة. ومـن الأدبـاء الذيـن ظهـروا فـي هـذا العهـد، أشـهرهم أبـو الفضـل محمـد بـن عبيـد اللـه البلعمي، أصـل أجـداده عـرب مـن تميـم اسـتوطن فرعهـم فـي بخـارى، وكان وزيـرًا لنصـر بـن أحمـد السـاماني، وقـد قـام بترجمـة «تاريـخ الطبـري» إلـى اللغـة الفارسية.

وأبـو عبداللـه محمـد أحمـد الجيهانـي[٣]، ولـه تأليـف عديـدة وقـد

أعلام النبلاء، ١٣/ ٤٢٢. الحموي، معجم الأدباء، ١/ ٢٥٨. ابن خلكان، الوافي بالوفيات، ٦/٢٣٣.

[١] الحموي، معجم الأدباء، ١/١٢٣. وأحمد أمين، ظهور الإسلام، ص ٢٦٤.

[٢] الحموي، معجم الأدباء، ص١/١٤٤.

[٣] هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني، (ت ٣٧٥هـ) استوزره أمير خراسان إسماعيل الساماني، ألف الجيهاني كتاب «المسالك في معرفة الممالك» اعتمد فيه على الإصطخري وخرائطه، وأضاف إلى

استوزر أيضًا لنصر بن أحمد.

ومن الشعراء الذين يستحقون بالذكر محمد بن موسى الحدادي البلخي[١]، ومن الأدباء أبو بكر الخوارزمي[٢] وبديع الزمان الهمذاني[٣]. توفي بهرات سنة ٣٩٨هـ وله مقاماته المشهورة التي حذي حذوها الحريري فيما بعد.

ومن أئمة اللغة كان الأزهري أبو منصور[٤] أصله من هرات ولد بها ومات بها. وقد صنف في اللغة كتاب «التهذيب» في عشر مجلدات وهو من الكتب التي فرغها ابن منظور[٥] في كتابه «لسان العرب» وقد توفي الأزهري سنة ٣٧٠هـ.

وكذلك الجوهري صاحب «الصحَّاح» وهو إسماعيل بن حمَّاد أصلها من فاراب تركستان كتابه «الصحاح» يعد من أمهات كتب

ذلك معلومات قيمة عن بلاد الهند، والسند، وإيران، والصين، وآسيا. ابن خلكان، الوافي بالوفيات، ٥٨/٢.

[١] هو محمد بن موسى الحدادي البلخي النحوي، الشاعر، يقال أخرجت بلخ أربعة من الأفراد: أبا القاسم الكعبي في علم الكلام، وأبا زيد البلخي في البلاغة والتأليف، وسهل بن الحسن في الشعر الفارسي، ومحمد بن موسى الحدادي في العربية والشعر العربي. الحموي، معجم الأدباء، ٦٥٢/٦.

[٢] هو أبُو بكر مُحَمَّد بن مُوسَى بن مُحَمَّد الْخَوَارِزْمِيّ، (ت. ٤٠٣هـ) فَقِيه بَغْدَاد، ومُفتيها، وكان شيخ الحنفية في زمانه، وهو قليل الرواية. وتخرج به فقهاء بغداد. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣٥/١٧.

[٣] بدِيعْ اَلزَّمَانْ أَبُو اَلْفَضْلْ أَحْمَدْ بْنْ اَلْحُسَيْنْ بْنْ يَحْيَى بْنْ سَعِيدْ اَلْهَمَذَانِي اَلتَّغْلِبِي، (٣٥٨ هـ –٣٩٨ هـ)، كاتب وأديب من أسرة عربية ذات مكانة علمية مرموقة استوطنت همدان وبها ولد فنسب إليها، يُعتبر كتابه الذي يُعرف اليوم بـ «مَقَامَات بَدِيعْ اَلزَّمَانْ اَلْهَمَذَانِي» أشهر مؤلفاته والذي كان لهُ الفضل في وضع أسس هذا الفن وفتح بابه واسعاً ليلجه أُدباء كثيرون أتوا بعده. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥ / ٥٢٤.

[٤] هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي اللغوي الشافعي، (٢٨٢ – ٣٧٠ هـ)، عاش في العصر العباسي، ولد في هراة في خراسان، ثم انتقل إلى بغداد، عني بالفقه فاشتهر به أولا، ثم غلب عليه التبحر في العربية، فرحل في طلبها وقصد القبائل وتوسع في أخبارهم. ومن كتبه «غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء»، و«تفسير القرآن»، و«فوائد منقولة من تفسير للمزني» وغيرها. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣١٦/١٦.

[٥] هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ولد في شهر محرم عام (٦٣٠هـ). خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، أصيب بالعمى في آواخر سنوات حياته وتوفي في مصر في شهر شعبان عام (٧١١هـ). الزركلي، الأعلام، ١٠٨/٧.

اللغة. وقد لخَّص وترجَّم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية جمال القرشي من نسخة وجدها في خزانة مكتب ا الصاجية البرهانية المسعودية في كاشغر، فوضع كتابه المعروف بـ «الصراح»[١].

وأيضًا من علماء اللغة والأدب أبو محمد أحمد بن محمد بن إبراهيم الزوزني نسبته إلى زوزن بلدة بين نيسابور وهرات وقد خلف لنا شرحًا على المعلقات السبع مات بزوزن سنة ٣٧٤هـ[٢].

وكان هناك أيضًا طائفة كبيرة من الأمراء والأدباء من نسل العباسيين، وغيرهم أتوا بهذا الإقليم من العراق، وهو شجَّعوا حركة أدبية عظيمة بما بذلوا من مال وما وجهوا من رأي وما ضربوا المثل بما أنشئوا من جو أدبي رائع، وكان من أشهر هؤلاء أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأموني[٣] من نسل المأمون. ومن الأمراء والأدباء وغير العباسيين الذين اشتهر من بينهم أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي[٤]، وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي[٥] وغيرهم، وآل ميكال كانت أسرة كبيرة من سادة خراسان[٦].

---

[١] جمال القرشي، الصراح، (المخطوط) ص ١.

[٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٧/٢٠.

[٣] الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤٨٣/٤.

[٤] هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد الله بن علي الميكالي، أديب وكاتب وشاعر من نيسابور عاش في العصر العباسي. وله عدد من المؤلفات وديوان رسائل، ونثره فني يلتزم فيه بالسجع، وألَّف كتاباً يشرح فيه ديوان المتنبي. تُوفِّي أبو الفضل عبيد الله الميكالي في العاشر من ذي الحجة سنة ٤٣٦هـ. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ط. ٤ . (بيروت: دار العلم للملايين – بيروت. ١٩٨١)، ١١٦/٣. عفيف عبد الرحمن، مُعجم الشعراء العباسيين، (طرابلس: دار صادر، ٢٠٠٠)، ص. ٥٤٧. الزركلي، الأعلام. ٤/ ١٩١.

[٥] هو أبو العباس الميكالي (٢٧٠ ـ ٣٦٢ هـ) كاتبٌ مترسِّل، شيخ خراسان ووجهها وعينها في عصره، و هو أول من اشتهر من الميكاليّون. لم يصل كثيرٌ من نثره، وإن نمَّ خبره في المصادر على عُلوِّ مرتبته في التَّرسُّل. تقلَّد ديوان الرَّسائل. مات ليلة الاثنين الخامس عشر من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة. الحموي، معجم الأدباء، ٢/ ٢٩١.

[٦] أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٢٧٥.

نشأة علم الجغرافية في عهد السامانيين

وفي بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجهها العلمي أيضًا على الرغم من أن تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل من عناية خاصة بوصف البلدان يذكيها في جنوبي بلاد العرب بخاصة احتراز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الإسلام، على ما نرى في «صفة جزيرة العرب» الذي وضعه الهمذاني المتوفي في سجن صنعاء سنة ٩٤٥.

والواقع أن نظام البريد والاستعلامات الذي اقتبسه الأمويون عن ملوك الفرس الكبار، وتعهده العباسيون الأولون بالتجديد والتوسيع، كان قد قدم الدولة منذ القرن التاسع شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف في الإمبراطورية. كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الخراج بالتنظيم الإمبراطوري.

وفي بغداد مركز التجارة العالمية في ذلك الحين، نشأ اهتمام كبير بشئون البلدان والإمبراطوريات والشعوب الأجنبية، برز بصورة خاصة في مؤلفات الجاحظ الجغرافية المفقودة. وفي بلاط إسماعيل الساماني (٨٩٢-٩٠٧) ألف الوزير الجيهاني كتابًا لم يصلنا أيضًا، استطرد فيه من بحث الضرائب إلى وصف البلدان المجاورة. ثم إن أبا زيد البلخي، وكان في خدمة إسماعيل الساماني ببلخ، وضع مصورًا جغرافيًّا وجعله ذيلاً لأطلس إسلامي قديم موضوع على أساس كتاب اقتبسه الخوارزمي، قبل عام ٨٤٦ عن جغرافية بطليموس[١].

---

[١] بروكلمان، ٢/١١٦-١١٧.

وقد شجَّع السامانيون دروس الطب وما يتعلق به تشجيعًا مباشرًا، مما يدل على ذلك وقد وضع الرازي[١] أشهر كتابه في الطب يسمى «المنصوري» باسم حاميه الأمير الساماني أبي صالح المنصور.

الدولة الغزنوية

وأخيرًا انتهى أمر السامانية نتيجة للآفة نفسها التي قضت على العباسيين، وذلك أنهم انتهوا إلى ما انتهوا إليه العباسيون من الاعتماد على الأتراك كمصدر لا يزال بعيدًا عن النضوب، في إمداد جيوشهم بالعناصر الجديدة، بل لقد ذهب السامانيون من هذه الناحية إلى أبعد، لما كان في حوزتهم من البقاع الشاسعة الآهلة بالأتراك. والواقع أن الأتراك ما لبثوا أن نفذوا تدريجيًّا، شأنهم في بغداد، إلى الرتب العليا في الجيش الساماني، ومن ثم انتقلوا إلى الإدارة المدنية، حيث أسسوا بعد برهة وجيزة خطرا على الدولة بسبب من السلطات الواسعة التي آلت إليهم.

وكان عبد الله الأول الساماني (٩٥٤-٩٦١م) قد عيَّن المملوك التركي، ألبتكين قائدًا عامًّا في خراسان ابتغاء إقصائه، في الدرجة الأولى، عن العاصمة بعد أن تعاظم فيها سلطانه إلى حد بعيد، حتى إذ توفي عبد الملك انسحب ألبتكين إلى غزنة في جبال سليمان بأفغانستان، وكان أبوه حاكمًا عليها من قبل. بيد أن المنية عاجلت

---

[١] بو بَكر مُحَمَّد بن يَحْيَى بن زَكَرِيّا الرَّازِيّ (٢٥٠ هـ/٨٦٤ م – ٥ شعبان ٣١١هـ/١٩ نوفمبر ٩٢٣م) طبيبٌ وكيميائيٌ وفيلسوفٌ ورياضيّاتيٌّ مسلم من أصول فارسية،[٢][٣] من علماء العصر الذهبي للعلوم، وصفته سيغريد هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب «أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق»، حيث ألف كتاب الحاوي في الطب، الذي كان يضمُّ كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥م وظل المرجع الطبي الرئيسي في أوروبا لمدة ٤٠٠ عام بعد ذلك التاريخ.[٤] درس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب. د.عبد اللطيف محمد العبد، تحقيقه لكتاب، أخلاق الطبيب للرازاي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٤٣.

ألبتكين هذا قبل أن يحتسب خطرًا على السامانيين، ولكن مملوك سبكتكين، الذي صار صهره فيما بعد، لم يلبث أن طرد سائر ورثته وأنشأ ينشر سلطانه عن طريق الفتوح في الهند، ولقد وفق بادئ الأمر إلى الاستيلاء على مدينة بست في سجستان. وكان أميرها قد استعداه على رجل اغتصب عرشه، فأعداه سبكتكين وقام بنصره، حتى إذا تخلف هذا الأمر عن إعطاء الجزية التي وعد بها لقاء تلك الخدمة خسر عرشه بالكلية.

وكانت حملات سبكتكين أكثر نجاحًا في الهند، حيث مهَّدت منازعات الأمراء السبل أمام قواته فانتقل فيها من نصر إلى نصر، ورجع بالغنائم الوافرة. والواقع أنه شنَّ حملتين مظفرتين على ملك البنجاب، جيبال، فأكرهه على أن يتخلص له عن إقليم كابل الهام الواقع على الحدود والذي يسيطر على المسالك المؤدية إلى السهل الهندي الخصيب. وهكذا اشتهر سبكتكين ببطل الإسلام وهازم الكافرين[١].

محمود الغزنوي

وكان ابنه محمود الذي ولاَّه السامانيون خراسان سنة ٩٩٤ ساعده الأيمن في هذه الأيمن كلها. وفي سنة ٩٩٦ توفي سبكتكين فخلفه ابنه الأكبر إسماعيل، وكان مبذرًا قليل الكفاية، فلم يكن من أخيه محمود إلا أن طلب إليه التنازل عن الملك، فأبى، فلما كانت السنة الثالثة حمله على ذلك بالسلاح، ورقى العرش متخذًا لقب السلطان بعد سبعة أشهر من وفاة أبيه.

وفي السنة نفسها مات نوح الساماني أيضًا، وخلفه ابنه منصور، فأصدر محمود أمره إليه بوجوب التخلي له عن خراسان، ولايته

[١] بروكلمان ج ٢ ص ١١٨–١١٩.

القديمة، ولكن منصورًا خلع قبل أن يتم ذلك، بعد أن سمل أحد القواد الأتراك عينيه، ورفع أخوه عبد الملك إلى عرش السامانية. وهنا صار في استطاعة محمود أن ينتحل صفة المدافع عن مبدأ الشرعية فطردوا الثائر وسيده الجديد من بلخ واتخذها دار ملك له.

والحق أن عبد الملك فر إلى بخارى حيث ظفر به إيليك خان المتغلب على تركستان واقتاده إلى الجرجانية (كوركنج) وحوالي سنة ١٠٠٤ قتل المستنصر أخر السامانيين، بعد عدة مغامراة محففة قام بها. ومهما يكن من أمر فقد نال محمود اعتراف الخليفة الرسمي بدولته، وكانت لا تزال مفتقرة إليه ولقب كذلك بيمين الدولة[١].

فتوحات محمود في الهند:

كانت حياة محمود الغزنوي حافلة بالمغازي المتواصلة، ولقد ساد بجيوشه إلى الهند مرة بعد مرة؛ ففي سنة ١٠٠١ تم له فتح كابلستان، وبعد ذلك بقليل فتح ملتان وكشمير، وسعى إلى أن ينشر لواء الإسلام ويحله محل البرهمية في كل مكان. ثم أنه اضطر سنة ١٠٠٦ إلى أن يدفع عن ممتلكاته الشمالية هجومًا شنَّ عليها إيلك خان، فهزمه محمود هزيمة منكرة في سهل بلخ وعلى الأثر انقلب إلى الهند يواصل فيها أعمال الفتح، فأخضع البنجاب، حيث استطاع أعقابه من بعده أن يثبتوا سلطانهم في عاصمتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة، ومهما يكن، فقد اندفع محمود في فتوحاته هذه بعيدًا إلى ماوراء النهر الكنج، ليفتح فتوح في الهند سنة ١٠٢٥ باحتلال كجراهة.........

وكان في الوقت نفسه قد بسط سلطانه في الشمال، واستولى على خوارزم في الشرق الكرج (جرجيا) في الغرب. وفي سنة ١٠٢٦

---

[١] بروكلمان، ٢ / ١١٩.

انتزع الري من مجد الدولة البويهي واقتاده إلى عاصمته غزنة.

ومن الأتراك الذين أحدثوا انقلابًا عظيمًا في تاريخ الإسلام يشغل الغزنويون مقامًا مرموقًا، حيث أسسوا الدولة الغزنوية التي قامت من سنة ٣٥١هـ إلى سنة ٥٨٢هـ. ومن أشهر رجال هذه الدولة، بل من أشهر أعلام الإسلام محمود سبكتكين الذي وطد ملكه ووسعه، فتوجه في الهند إلى ماوراء كشمير وبنجاب، ومن هنا إلى ماوراء كفر جنجا حتى وصل ججرات، واستولى من ناحية أخرى على بخارى وماوراء النهر فتقدم إلى جرجيا غربا وصنم السومنات حطمت بيده. عاشت أخلافه في لاهور وحكمت هناك زهاء ١٥٠ سنة.

ويكفي أن نقتبس بشأنه ما قاله بارتولد: أن لعهده أهمية كبرى في تاريخ الشرق كله؛ لأن نظام الحكومة في بلاد الشرق الإسلامية قد وصلت أرقى ازدهارها في عهده. وفضلاً على فتوحاته العظيمة وشهرته وتمسكه بالعدل والإنصاف، كان محمود يحب العلم والعلماء. وقد شجَّع العلم والفنِّ والأدب أحسن تشجيع وفي عهده ازدهرت غزنة ازدهارًا كبيرًا.

وهو قد أسَّس أكبر جامعة في عهده العلوم والفنون في غزنة جمع فيها نوابغ العلماء والفضلاء. ومن جملتهم الشاعر الشهير أبو القاسم الفردوسي صاحب «شاهنامة» وأبو الفتح البستي الذي كان كاتب سره ومستشاره، وأبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي[١] مؤرخ الدولة الغزنوية الكبير، والفيلسوف الكبير الإسلامي ابن سينا،

[١] هو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي الرازي (؟ - ٤٢٧هـ) أديب ومؤرِّخ وشاعر عربي عاش في فارس زمن الخلافة العباسيّة. ولِدَ في مدينة الري في بلاد فارس، ويعود نسبه إلى الصحابي عتبة بن غزوان، وعمل كاتباً لدى أبي النصر سُبُكْتكِيْن بصحبة أبي الفتح البستي، ثُمَّ تولى النيابة لقابوس بن وشكمير، ثُمَّ استوطن نيسابور، وفي آخر حياته تولَّى البريد في رستاق الغنج. وأشهر مؤلفاته كتاب «الكتاب اليميني»، وأجاد نظم الشعر أيضاً. تُوفِّي في سنة ٤٢٧هـ. تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٩٥-٩٦. عفيف عبد الرحمن، مُعجم الشعراء العباسيين. ص. ٢٩٧.

وأبو الريحان البيروني مؤلف «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، وأبو سهل المسيحي[١]، ابن الخمار[٢]، وأبو نصر العراقي[٣] وغيرهم رجال العلم والفلسفة والأدب الذين كلهم مشهورون وأحوال كل واحد منهم يقتضي شرعًا مفصلاً أصرف النظر سيتم هناك المقام[٤].

وكان محمود قد زيَّن عاصمته بالأبنية الفخمة. وأجذب إلى بلاطه العلماء والشعراء أيضًا، ففي السنوات الأخيرة من حياته كان في خدمته عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء في الدنيا الإسلامية برمتها أبو الريحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة ١٠١٧م وهو من تركستان.

وفي غزنة قام البيروني بعده رحلات علمية في الديار الهندية المفتوحة. ولقد تعلَّم السنسكرتية على بعض العلماء الوطنيين، ففتحت له هذه المعرفة مغاليق الثقافة الهندية الغنية من الوجهتين العلمية والدينية، حتى إذا كانت سنة ١٠١٧ شرع في تأليف كتابه الشهير عن الهند «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذي يعتبر بوصفه صورة كاملة عن عالم ثقافي غريب نسيج وحده في الأدب

---

[١] هو أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، نسبة إلى جرجان. قال عنه ابن أبي أصيبعة: «رأيت بخط يده كتابه في إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان. وهو في نهاية الصحة والإتقان، والإعراب والضبط». وقال فيه الدخوار الدمشقي: «إنني لم أجد أحداً من الأطباء النصارى، المتقدمين والمتأخرين، أفصح عبارة، ولا أجود لفظاً، ولا أحسن معنى». من آثاره: «إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان» و«المائة في الطب». ابن فضل الله، مسالك الأبصار، ٤٧٣/٩.

[٢] هو أبو الخير الحسن بن سوار، طبيب شفى طبّه الأمراض، وكفى قربه منافيا للأعراض، لم يوجد في كلامه الفضول، ولم يوجد إلا الفصول، وقع بحدسه الصائب على الوجع، واستعاد ذاهب الصحة وارتجع، وأحسن الاستدلال بالعلامات، والاستقلال بعلاج من حيي ومات. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٢٨.

[٣] هو أبو نصر منصور بن محمد العراقي، تصدر «أبي نصر العراقي» لتعليم القرآن، وأقبل عليه الطلاب وتتلمذ عليه الكثيرون وفي مقدمتهم: عبد الله الفراء، وابنه عبد الحميد بن منصور العراقي، وآخرون. ترك «أبي نصر العراقي» مصنفات في القراءات منها: «كتاب الإشارة»، و«الموجز في القراءات» وغير ذلك. عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي. الأنساب، ٨/ ٤٢٤. أبي نصر منصور العراقي. الإشارة بلطيف العبارة. تحقيق: أحمد بن عبد الله الفريح. جامعة أم القرى. ص. ١٨.

[٤] أحمد أمين، ظهر الإسلام.

العربى، والذي أدى للدراسات الأوربية خدمة جلي أيضًا.

وكان البيروني قد ألف بجرجان سنة ١٠٠٠ وهو في ريق الشباب كتابًا استغرق فيه تاريخ الشعوب[١] كلها[٢].

العثمانية

ولسلاطين آل عثمان مآثر متوالية في مساجد القسطنطينية خاصَّة، والمدائن التركية في الأناضول عامَّة، ولا سيَّما قونية وبورصة وأمثالهما. فمن ذلك تنافسهم في وقف المصاحف المكتوبة بالخطوط الأنيقة جدًّا، والمعتنى بتهذيبها وتزيينها بالجداول النفيسة، فضلاً عن قيمتها التاريخية والأثرية. ومن ذلك إهداءهم إلى المساجد هم ووزراء الدولة وأعيانها لوحات بخطوط أشهر الخطَّاطين، وقناديل ومباخر فضية أو نحاسية منزلة بالذهب والفضة وذات نقوش من بدائع الفن الإسلامي، وثريات من البلور النفيس الجميل التقطيع المصنوع في المصانع الإسلامية، فضلاً عن السجَّاد القديم الثمين المملوءة به مساجد القسطنطينية والمدائن الأخرى.

وقد ندبت حكومة تركية في المدة الأخيرة لجنة من موظفيها للبحث عن هذه المصاحف والنفائس الأثرية وعمل دفتر بها وتجريد المساجد منها ونقلها إلى متحف القسطنطينية، فقامت اللجنة بمهمتها، وبلغ عدد المساجد التي تقرر تجريدها من هذه التحف سبعمائة مسجد، والقطع الأثرية التي قضي عليها بالإخراج من المساجد مائة ألف قطعة وخمسة آلاف قطعة ومائتان وثماني وعشرون: بين مصاحف، ولوحات، وثريات، ومصابيح ومباخر، وسجاجيد وغيرها. ويرجع تاريخ أكثر هذه النفائس

---

[١] صفحتان مفقودة، ٢٣٣،٢٣٢.

[٢] بروكلمان، ج ٢ ص ١٢١.

إلى خمسمائة سنة، وتقدر قيمتها المادية بعشرة ملايين جنيه ذهبًا[١].

ويقول حتى أن الأتراك العثمانيين لا المغول هم الذين كانوا أعز أبطال الإسلام الذين بلغ بيدهم مجد الإسلام الفتوحي قمتها ورفرف العلم الإسلامي على بلاد جديدة وشاسعة لم يسبق نظيرها من قبل.

وفي عهد السلطان سليمان[٢] (١٥٢٠ - ١٥٦٦) امتدت رقعة الإمبراطورية الإسلامية من بغداد على ضفة دجلة إلى بودابست على ضفة دانلوب ومن أسوان على ضفة النيل إلى بوغاز جبل الطارق[٣].

ولا يزال عظماء الإسلام يعدون انهيار الإمبراطورية العثمانية مأساة كبرى على الإسلام والمسلمين ويأسفون لتدهورها بقلب حزين، فلنذكر منهم مثلاً سماحة مفتي فلسطين الأعظم السيد محمد أمين الحسين[٤] حيث قال في «ندوة المؤتمر العالم الإسلامي» المنعقدة في كراتشي في شهر مارس سنة ١٩٦٣: «إن الدولة العثمانية كانت دولة كبرى، بل لعلها كانت أكبر إمبراطورية عظمى، وكانت تضم العرب والأتراك والأكراد والألبان والشركس والبشنق وغيرهم، وكانت من القوة بحيث تستطيع صد العدوان عن الإسلام، وأن الأعباء لم يستطيعوا أن يقهروها بالقوة

[١] «المسلمون» المجلد التاسع، العدد الثالث ص ٢٦٠ نقلا عن مجلة «الزهراء» القاهرة عدد ربيع الأول سنة ١٣٤٥هـ.

[٢] هو سليمان خان الأول بن سليم خان الأول (١٤٩٤ - ١٥٦٦)، عاشر السلاطين العثمانيين وخليفة المسلمين الخامس والسبعون، وثاني من حمل لقب «أمير المؤمنين» من آل عثمان. بلغت الدولة العثمانية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت. وصاحب أطول فترة حكم من ٦ نوفمبر ١٥٢٠م حتى وفاته في ٧ سبتمبر سنة ١٥٦٦م. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (مصر: نشر المركز المصري للدراسات العثمانية، ١٤١٤-١٩٩٤)، ص ٥٩.

[٣] فيلب حتي، ص ٤٨٩.

[٤] هو الحاج محمد أمين الحسيني أو المفتي (١٨٩٥ - ١٩٧٤) كان المفتي العام للقدس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس اللجنة العربية العليا، وأحد أبرز الشخصيات الفلسطينية في القرن العشرين، ولد في مدينة القدس عام ١٨٩٥ وتلقى تعليمه الأساسي فيها، وانتقل بعدها لمصر ليدرس في دار الدعوة والإرشاد، أدى فريضة الحج في السادسة عشر من عمره، والتحق بعدها بالكلية الحربية بإسطنبول، ليلتحق بعدها بالجيش العثماني، والتحق بعد ذلك في صفوف الثورة العربية الكبرى.

ولكنهم أثاروا في داخلها فتنة النعرات الطائفية والنعرات الوطنية وبواسطة الجراثيم التي لقحوها في جسم الدولة العثمانية فما كان السبب في انهيار هذه الدولة الكبيرة وكان لانهيارها وقع عظيم في نفوس المسلمين، ومصيبة كبرى فادحة على الإسلام والمسلمين[١].

الدولة السلجوقية

إن غزو أتراك السلاجقة على غرب آسيا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر يشكل دوراً من أكبر الأدوار في تاريخ العالم. وبهم أضيف قوم ثالث على الشعوب الحاكمة للعالم الإسلامي بعد العرب والفرس، وبهم أطال عمر الخلافة المشرفة للموت لقرنين آخرين. وبغزواتهم تفككت آسيا الصغرى من العالم النصراني، وهم مهَّدوا السبل متأخرًا إلى نشوء العثمانيين وتغلغلهم إلى قلب أوربا، وأصبحوا خطرًا عظيمًا على الدول النصرانية وأدفعهم لمقابلة خطيرة يعرفها باسم الحرب الصليبي. وهم خدموا لنشر اللغة الفارسية وثقافتها نشرًا واسعًا من أناضوليا إلى الهند. وهكذا نفذ الأتراك في العالم الإسلامي كما نفذ الجرمان في الإمبراطورية الروسية.

وكان لقبول السلاجقة الإسلام كتلة واحدة ودخولهم له أفواجًا حادثةً عظيمةً في تاريخ الإسلام لها أهمية بالغة كالتي كانت لها أثر بالغ لأوربا النصرانية في دخول الكلاويين وأتباعهم الأفرنج النصرانية سنة ٤٩٦م.

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الإسلام، وفي أيامهم تكاثر نزوح الأتراك إلى المملكة الإسلامية في فارس والعراق الشام. وهم أول من أنشأوا المدارس في المملكة الإسلامية بأرقى ما بلغت إليه

---

[١] من تقرير في العرب، العدد السابع الثامن (١٩٦٣) ج ٢٦ / ٢٩.

في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك[١] وزير ملكشاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس. هو أنشأ ما أنشأه من المدارس، والتكايا، والرباطات، والمساجد، والبمارستانات[٢] باسم السطان ملكشاه[٣].

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على أن أول من بنى المدارس في الإسلام نظام الملك الطوسي وزير ملكشاه السلطان السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة. وكانت هذه المدرسة أول مدرسة كبرى قد بنيت في بغداد وجعل التعليم فيها مجانًا، وفرض لتلاميذها الأرزاق والجواري والمعالج[٤].

وقال أبو شامة المقدسي في حقه: «وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره، وكان عالما فقيها دينا خيرا متواضعا عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدة، وأما صدقاته ووقوفه فلا حد عليها ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد من شيء منها حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنةوهي التي تعرف الآن بمدرسة «رضي الدين»

---

[١] هو قوَّام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، من مواليد طوس، في خُراسان أحد أشهر وزراء السلاجقة، كان وزيرا لألب أرسلان وابنه ملكشاه، لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظَّاميَّة»، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين، وفي مقدِّمتهم حُجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي. اغتاله الحشاشون في ١٠ رمضان ٤٨٥ هـ الموافقة لِسنة ١٤ أكتوبر ١٠٩٢ م. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٤٣٩.

[٢] جرجى زيدان، ١٧ / ١٨٨.

[٣] هو أبو الفتح ملك شاه «جلال الدولة» بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق بن دُقَاق (١٠٥٥ – ١٠٩٢)، ثالث سلاطين الدولة السلجوقية، تولى الحُكم بعد أبيه ألب أرسلان عام، كانت الدولة في عهده قد اتسعت اتساعاً عظيماً، فامتدت من كاشغر في أقصى المشرق إلى بيت المقدس في الغرب، وبهذا فقد كانت تشمل كامل الجزء الإسلامي من قارة آسيا عدا الجزيرة العربية ودول جنوب شرق آسيا. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٨٣/٥.

[٤] جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٢ /٣٠٣.

وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده، وأيضًا بنى المدارس الخاصة لأصحاب الشافعية»[١]. وهو وزير للسلطان ألب أرسلان ولولده السلطان ملكشاه أربعًا وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وقيل: في رثائه:

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمُلْكِ لُؤْلُؤَةً   يَتِيمَةً صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ

عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الْأَيَّامُ قِيمَتَهَا   فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدَفِ[٢]

وكان السلطان السلجوقي ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢) الذي اشتهر بعلمه وتقريبه للعلماء والأدباء في مجالسه شغوفًا جدًّا بالفلك، فالمراصد التي أوحى بإنشاءها أدَّت إلى تعديل التقويم وجعله أكثر دقة من التعديل الذي قام به (غريغورس) بعد ذلك بعشرة قرون، ويعود الفضل في هذا التعديل إلى عبد الرحمن الخازني[٣] وعمر

---

[١] القزويني، التدوين في أخبار قزوين، تحقيق عزيز الله، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ)، ٢ / ٤١٩. وأبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط.١. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ١ / ٩٨ - ١٢١.

[٢] القائل هو مقاتل بن عطية. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٦/١٦.

[٣] عبد الرحمن الخازني المكنى بأبي الفتح؛ هو العالم المسلم الفيزيائي والأحيائي والكيميائي والرياضي والفيلسوف الذي تأثر بالفلسفة الإغريقية البيزنطية؛ عاش بصحة وبنية قويتين ما بين عامي ١١١٥ و١١٥٥م.[١][٢][٣] ينحدر الخازني من مدينة مرو الموجودة الآن في تركمانستان، ثم انتقل إلى مقاطعة خراسان التابعة للإمبراطورية الفارسية ثم عاد بعدها إلى تركمانستان. ولديه مساهات مهمة في الفيزياء وعلم الفلك. واعتبر أعظم تلميذ تلمّذ في مدارس مدينة مرو. كتب روبرت إي. هال التالي عن الخازني: «لأن الخازني هو صانع الآلات العلمية باستخدام قانون إتزان الموائع، فإنه لا يترك مجالاً للشك بأنه يعتبر أعظم العلماء في أي زمن كان قديمه وحديثه». معجم الأعلام: معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين- بسام عبد الوهاب الجابي- دار الجفان والجابي للطباعة والنشر- الطبعة الأولى- سنة ١٩٨٧م.
Al-Khāzinī, Abu'l-Fath 'Abd Al-Raḥmān [Sometimes Abū Manṣūr ' Abd Al-Raḥmān or 'Abd Al-Rahmān Manṣūr].، Complete Dictionary of Scientific Biography.، 2008، 351-335 .ص.

الخيام[١] مؤلف الأشعار الشهيرة التي خلدت اسمه[٢].

ملكشاه

وهو وسَّع حدود إمبراطوريته أيضًا. وفي سنة ١٠٨٩ - ١٠٩٠ أخضع سمرقند وكاشغر، ليس هذا فقط، بل لقد انتزع سورية من الفاطميين بالكلية، فنشأت في دمشق وبيت المقدس إمارتان ثانوياتان خاضعتان بسلطانه وتوجَّه ابن عمه سليمان بن قتلمش إلى آسية الصغرى ابتغاء الفتح[٣].

وكانت مملكته قد اتسعت اتساعًا عظيمًا، وخطب له من حدود الصين إلى الدار ومن أرض الشام. وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز وأسفيجاب وكاشغر وبلاساغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر[٤].

وعمل السلطان من الخيرات وأبواب الخير كثيرًا، منها: ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة وبنى جامعًا بظاهر بغداد كما بنى منارة القرون في

---

[١] غِيَاث الدِّين أبو الْفُتُوح عُمَر بن إِبْرَاهِيْم بن صّالحَ الخَيّام النَيْسَابُوْرِيْ (١٨ مايو ١٠٤٨ – ٤ ديسمبر ١١٣١) المعروف باسم عُمَر الخَيّام (الخيّام هو لقب والده، حيث كان يعمل في صنع الخيام) عالم فلك ورياضيات وفيلسوف وشاعر فارسي[٤][٥] مسلم، ويذهب البعض إلى أنه من أصول عربية[٦]، وُلِدَ في مدينة نيسابور، خراسان، إيران ما بين ١٠٣٨ و١٠٤٨ م، وتوفي فيها ما بين ١١٢٣ و١١٢٤ م، وهو بعمر ٨٣ عامًا[٧]، تخصَّص في الرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ. وهو أوّل من اخترع طريقة حساب المثلثات ومعادلات جبرية من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط وهو صاحب الرباعيات المشهورة. عمر الخيام – جريدة البينة نسخة محفوظة ٥ أبريل ٢٠٢٠.

[٢] حيدر بامات: كيف أسهم المسلمون فى الحضارة الإنسانية فى المجلة «المسلمون» العددان السابع والثامن ١٩...

[٣] بروكلمان، ٢ /١٣٦.

[٤] المقدسي، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، ص ٢٦.

قرب الكوفة وبنى مثلها بسمرقند[١].

الدولة السلجوقية التي قامت على أنقاض السامانيين والإيلكخانيين والغزنويين تنتمي إلى سلجوق بن دقاق من قبيلة غزية أو أغوزية. وكان دقاق أميرًا ذات مكانة هامَّة عند ملك الترك أليشقو يستفيد من رأيه وتدبيره.

وبعد دقاق فوض ملك الترك إمارة الجيش إلى ابنه السلجوق ولقبه سوباشى، أي قائد الجيش، ولم يظل سلجوق بهذا حتى شبَّ بينه وبين ملك الترك خلاف. وكان تخوف من عظم أمره فتوجه سلجوق مع خيله وجنده تلقاء ديار الإسلام وسعد بالإسلام واستوطن في نواحي جند بعد أن طرد منها بقية باقية ممن لم يسلموا بعد.

عاش الأمير سلجوق مائة سنة، وخلف أولادًا وهم الأمير ميكائيل، والأمير موسى، والأمير يبغو أرسلان إسرائيل. وقد اختار هؤلاء موضع نور بخارى في ما وراء النهر سكنا لهم.

وقد دخل الأمير ميكائيل في خدمة محمود الغزنوي ثم تقرب من ابن سهل عميد خراسان وأقام مع عشيرته في دندانقان، ثم بعد وفاة الأمير ميكائيل فاجتمعت القبائل والأتراك على ولده الأكبر أبي طالب طغرلبك محمد الذي هو وأخوه جغري بك نازعًا مع مسعود بن محمود الغزنوي[٢].

فانتزعا منه مرو ونيشابور، كما قبض بعده بلخ، وجرجان وطبرستان وخوارزم وهمدان والري، وأصفهان وهددوا آل بويه.

وفي سنة ١٠٥٥ شق طغرل طريقه إلى بغداد وقضى على نفوذ البويهيين في عاصمة الخلافة، ثم عاد بعد سنة مرة ثانية إلى بغداد

---

[١] نفس المصدر ص ٣٣٨.

[٢] ابن الفوارس، أخبار الدولة السلجوقية، طبعة محمد إقبال لاهور، ص ١-١١.

استقبله الخليفة استقبالاً حافلاً وأجلسه في العرش على جنبه وأعطاه رسميًّا لقب سلطان الشرق والغرب. ومنذ ذلك قرأ أسماء السلاطين السلجوقيين في الخطبات مع اسم الخليفة[١].

وكان عهد طغرل ١٠٣٧-١٠٦٣ وخلفه ابن عمه الملك ألب أرسلان وابنه ملشاه أزهى عهد السلجوقيين في الشرق الإسلامي[٢].

فتح ألب أرسلان بلاد أرمينية ثم بلاد الروم بيزنطين، الأمر الذي مهد السبل إلى توطين الأتراك في بلاد آسيا الصغري للمرة الأولى وتأسيس دولة سلجوقية فيها متأخرًا، أسسها عمه سليمان قتلميش سنة ١٠٧٧ بعاصمتها الأولى في آزنيق (نيقية القديمة) ثم اتخذ ابنه قلج أرسلان قونية عاصمته. نشأ من هذه الدولة العثمانية التركية الشهيرة. وقد نشأ فرع آخر منهم في سورية دامت من سنة ١٠٩٤ إلى سنة ١١١٧م أسسه تتش ابن أرسلان[٣] ويعود له الفضل في صد غزو الصليبيين الأول[٤].

عهد السلجوقيين

قامت هذه الدولة من سنة (٤٢٩هـ - ٧٠٠هـ ١٠٣٧-١٣٠٠م). وقد استمرت سيادتهم على الخلافة وعلى البلاد الإسلامية بدأ من عهد الخليفة القائم بأمر الله[٥] (١٠٥٥) إلى عهد الخليفة الناصر

[١] حتي، ص ٤٧٤.
[٢] حتي، ص ٤٧٤.
[٣] هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان، سلطان دمشق ومؤسس سلاجقة الشام، وأخو السلطان ملك شاه السلجوقي، وعم السلطان بركياروق، وكانت العلاقة رديئة بين بركياروق وعمه تتش. في عام ٤٧١ هـ استطاع تتش الاستيلاء على دمشق ومن ثم حلب في عام ٤٧٨هـ واستطاع في آخر الأمر أن يسيطر على العديد من مناطق بلاد الشام ويتبعها لدولته. وجرت بينه وبين ابن أخيه بركياروق منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة، بالقرب من مدينة الري في سنة ٤٨٧هـ، فهزم تتش وقتل في المعركة، وأغرقه ابن عمه في نهر دجلة، في شهر ربيع الأول من عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٨٧/٩.
[٤] حتي، ص ٤٧٥-٤٧٨.
[٥] هو أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِين أبُو جَعْفَر عَبدُ الله القائِم بأمر الله بن أحمَد القادِر بالله بن إسْحاق

بالله[١] (١١٩٤). وكات تحت سيادتهم تسعة خلفاء وهم: القائم بأمر الله (١٠٣١-١٠٧٥) والمقتدي بالله(١٠٧٥-١٠٨٥) والمستظهر بالله[٢] (١٠٩٤-١١١٨) والمسترشد بالله[٣] (١١١٨-١١٣٥) والراشد بالله[٤] (١١٣٥-١١٣٦) والمقتفي بالله[٥] (١١٣٦-١١٦٠) والمستنجد بالله[٦] (١١٦٠-١١٧٠) والمستضي بأمر الله[٧] (١١٧٩-

---

بن جَعْفَر المُقْتَدِر بن أحمَد المُعْتَضِد بن طَلحة المُوفَّق اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٣٩١ - ٤٦٧ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم القائِم بأمر الله، هو الخليفة السَّادِس والعُشْرُون من خُلفاء بَني العبَّاس. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣٨/١٥.

[١] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو العَبَّاس أحمَد النَّاصِر لدين الله بن الحَسَن المُسْتَضِيء بن يُوسف المُسْتَنْجِد بن مُحَمَّد المُقْتَفي بن أحمَد المُسْتَظْهِر اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم النَّاصِر أو النَّاصِر لدين الله، هو الخليفة الرَّابِع والثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٣/٢٢.

[٢] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو العَبَّاس أحمَد المُسْتَظْهِر بالله بن عَبدُ الله المُقْتَدي بن مُحَمَّد ذخيرةُ الدين بن عَبدُ الله القائم بن أحمَد القادِر بن إسْحاق بن جَعْفَر المُقْتَدر اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٤٧٠ - ٥١٢ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم المُسْتَظْهِر أو المُسْتَظْهِر بالله، هو الخليفة الثَّامِن والعُشْرُون من خُلفاء بَني العبَّاس.

[٣] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو مَنْصُور الفَضْل المُسْتَرْشِد بالله بن أحمَد المُسْتَظْهِر بن عَبد الله المُقْتَدي بن مُحَمَّد ذخيرةُ الدين بن عَبدُ الله القائم اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٤٨٥ - ٥٢٩ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم المُسْتَرْشِد بالله، هو الخليفة التَّاسِع والعُشْرُون من خُلفاء بَني العبَّاس. بويع المُسْتَرْشِد بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٣ هـ، استمر خليفة إلى أن استشهد في يوم الأحد ١٧ ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ ٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥. السبكي، كتاب طبقات الشافعية، ص. ٢٩١-٢٩٢

[٤] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو جَعْفَر المَنْصُور الرَّاشِد بالله بن الفَضْل المُسْتَرْشِد بالله بن أحمَد المُسْتَظْهِر بن عَبد الله المُقْتَدي بن مُحَمَّد ذخيرةُ الدين بن عَبدُ الله القائم اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٥٠٢ - ٥٣٢ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم الرَّاشِد بالله، هو الخليفة الثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: د. مصطفى جواد، (بغداد: المؤسسة العامة للصحافة والطباعة مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠). ص٢٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٦٨/١٩.

[٥] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين أبُو عَبدِ الله مُحَمَّد المُقْتَفي لأمر الله بن أحمَد المُسْتَظْهِر بن عَبد الله المُقْتَدي (٤٨٩ - ٥٥٥)، المعرُوف اختصارًا المُقْتَفي لأمر الله، هو الخليفة الحادي والثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٣٩٩. ابن كثير، المختصر في أخبار البشر، (القاهرة: المطبعة الحسينية)، ٣٧/٣.

[٦] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين أبُو المُظَفَّر يُوسف المُسْتَنْجِد بالله بن مُحَمَّد المُقْتَفي (٥١٨ - ٥٦٦ هـ)، المعرُوف المُسْتَنْجِد بالله، هو الخليفة الثَّاني والثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، ص٢٣٦.

[٧] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين أبُو مُحَمَّد الحَسَن المُسْتَضِيء بأمر الله بن يُوسف المُسْتَنْجِد بن مُحَمَّد المُقْتَفي (٥٣٦ - ٥٧٥ هـ)، المعرُوف اختصارًا المُسْتَضِيء بأمر الله، هو الخليفة الثَّالِث والثَّلاثُون من خُلفاء بَني العبَّاس. ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٤٠.

١١٨٠).

وكان لظهور الأتراك السلجوقيين أهمية كبرى في تاريخ الإسلام. حينما ظهرت هذه الأتراك كانت الخلافة على وشك الانهيار، والممالك التي كانت قد اتحدت وائتلفت من قبل تحت حكم سلطان واحد كانت تمثل الآن مجموعة متشتتة من الإمارات وما كانت واحدة منهم (سوي الفاطميين في مصر وهم شيعيون) أهلا لإدارة الإمبراطورية الوسيعة وقد كانت إسبانيا وإفريقيا بشمول ولاية مصر الكبيرة قد خرجت من حيطة الخلافة منذ قبل. وأن سوريا الشمالية وبين النهرين كانت في يد رؤساء العرب الشاغبين وقد أسسوا بعضهم دويلات وسلالات صغيرة. وإن بلاد الفرس كانت قد انقسمت بأيدي البويهيين إلى عدة إمارات صغيرة، وليس لهم وقع واحترام عند خلفاء بسبب عقائدهم الشيعية. وكان كل واحد منهم مستعد للاعتداء على الآخرين، ويأتي بضعف عام ووهن على بناء المملكة. فلذلك كان هناك أشد احتياج لعلاج هذا الوهن العام، وقد جاء هذا العلاج من الأتراك بغزوهم على البلاد. وأن هؤلاء البدويين الذين كانوا خشن الطبع غير متأثِّرين من الحياة المدنية اعتنقوا الإسلام بحرارة نبعت من أعماق أنفسهم.

وهم جاؤوا لنجدة الدولة في حالة النزاع فأحيوها من جديد، وتقدموا بالغزو إلى بلاد الفرس وبين النهرين، وسوريا وآسيا الصغرى، دمَّروا البلاد وقضوا على سلالة وحدث هناك.

وأخيرًا استطاعوا أن يتَّحدوا أو يأتلفوا بلاد آسيا الإسلامية التي توسعت حدودها من ثغور أفغانستان الغربية إلى بحر الأبيض المتوسط تحت سلطان واحد. انعشوا حياة جديدة في نفوس المسلمين التي كانت حرارتها في وشك الانطفاء. ردوا إغارة

بيزنطيين الجديدة، أنشؤوا نسلاً جديدًا من المجاهدين ملئوا بروح التعصب والكفاح يرجع عليهم الفضل في إيقاع الهزيمة المكررة على الصليبيين. هذه هي الشئون التي يمتاز بها السلجوقيون ويزيد مكانتهم في التاريخ الإسلامي[١].

ويقول سر برلي سايكس: وأن ظهور السلطة الجديدة أي ظهور سلطة أتراك السلجوق أحدث دوراً تاريخيًّا هامًّا في مصير الشرق الأوسط والأدنى؛ لأنهم قضوا على الإمارات المتشتتة قليلة الأهمية، وألفوهم مرة ثانية في سلطة واحدة وإمبراطورية التي اعتدت حدودها من أقصى بلاد التركستان إلى بحر الأبيض المتوسط. وفضلاً على ذلك لما أن السلجوقيين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثًا، فلذك أبلغوا السعي في إحياء الإسلام بحماسة وغيرة وحرارة. وكان شأنهم شأن النورانيين الذي أحيوا النفس الحماسة، وعندما هاجم الأوربيون الشرق بقيادة زعماءهم النورمانيين مولعين بنزعاتهم الصليبية وأهجموا بهجماتهم الثقيلة بهذه السلاجقة بفرسانهم الخفيفة[٢].

ويقول جيبون: عندما حربات النرومانيين أوقعت الهزيمة على أبوليا وصقلية إنتشرت شرذمية من الراغيين في بلاد الفرس وغلبوا على إماراتها وأمراءهم من نسل السلاجقة، أنشئووا إمبراطورية عظيمة قوية تأخَّمت بالإغريق ومصر[٣].

وكان عهد السلجوقيين عهد ازدهار علمي وثقافي ومدني، وسلاطينهم يحبون العلم والعلماء ويشجعونهم ويقدرون فضائلهم وآثارهم العلمية والأدبية.

---

[1] Stanly Lame Poole P 149-150.

[2] Sir Perly Sykes: History of Iran P 28.

[3] Sir Perly Sykes: History of Iran P 28

ومن رجال العلم الذين ترعرعوا في أخضان السلجوقيين نظام الملك وزير ألب أرسلان ابنه ملكشاه الشهير، والمفكر الإسلامي الكبير الإمام الغزالي[١]، والرياضي الشهير عمر الخيام والرحال الشهير الإسلامي ناصر خسرو[٢] المتوفي سنة ١٠٤٧، والحريري[٣] صاحب «المقامات الحريرية» كانوا من أشهرهم. وبرعاية نظام الملك الوزير أتم الغزالي آخر مفكر ديني كبير في الإسلام رسالته في المدرسة النظامية بنيسابور أولاً ثم في نظامية بغداد[٤].

وقد ظهر سعد الدين الشيرازي وخواجة حافظ الشيرازي[٥] في عهد أتابكية فارس التي كانت من بقية السلجوقيين الحاكمة في فارس منذ سنة ١١٤٨. وأن حافظ عاش حتى عهد تيمور قابله وله لطيفة مشهورة من مقابلته هذا وهو مات في عهده في بلدة الشرازي[٦].

---

[١] هو أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدٌ الغَزّالِيُّ الطُوسِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ الصُوفِيُّ الشَّافِعِيُّ الأشْعَرِيُّ، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، (٤٥٠ هـ – ٥٠٥ هـ). كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، شافعيّ الفقهِ إذ لم يكن للشافعية في آخر عصره مثلَه، وكان على مذهب الأشاعرة في العقيدة، وقد عُرف كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية في علم الكلام، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبي الحسن الأشعري. ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص١٨٤..

[٢] ناصر خسرو قبادياني المروزي (٣٩٤- ٤٥٣هـ) رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي، اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي وعمل داعيًا له. له كتاب الأسفار أو السفرنامة، الذي دوّن فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي، وامتاز بوصف دقيق لبيت المقدس ووصف نادر لأحوال وسط الجزيرة العربية وشرقها أيام القرامطة والأخيضريين في القرن الخامس الهجري. الكتاب باللغة الفارسية ويتمتع بقدر من الشعبية في إيران، إلا أنه مترجم أيضًا إلى العربية. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. (مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧). ص. ٤٥.

[٣] هو أبُو مُحَمَّدْ اَلْقَاسِمْ بْنْ عَلِي بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ عُثْمَانْ اَلْحَرِيرِي اَلْبَصَرِيَّ اَلْحَرَامِيّ الشافعي، المعروف بِالْحَرِيرِيِّ، (٤٤٦هـ – ٥١٦ هـ) من أكبر أدباء العرب، وصاحب مقامات الحريري. لم يبلغ كتاب من كتب الأدب في العربية ما بلغته مقامات الحريري من بُعد الصيت واستطارة الشهرة، وبلغ من شهرتها في حياة الحريري أن أقبل من الأندلس فريق من علمائها لقراءة المقامات عليه، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء، وتناولوها رواية، وحفظًا، ومدارسة، وشرحًا. تاج الدين السبكي. طبقات الشافعية الكبرى. ٢٦٦/٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩ /٤٦٥.

[4] History of Islamic World P ٢٥٥.

[٥] هو خواجه شمس الدين محمد بن محمد حافظ الشيرازي، شاعر إيراني قديم، يعتبر من أهم الشعراء في تاريخ الشعر الفارسي.

[6] History of Islamic World P 175

وكذلك جلال الدين الرومي[١] الذي عاش في قونية. وكانت تحت رعاية علاء الدين كيقباد الأمير السلجوقي في آسيا الصغرى[٢].

وكان ملكشاه أكبر سلاطين الدولة السلجوقية، وفي عهده بلغت الإمبراطورية قمَّة مجدها حيث امتدت رفعة الإمبراطورية السلجوقية في عهده من كاشغر إلى بيت المقدس طولاً، ومن القسطنطينية إلى بحيرة خزر عرضًا، هو بذل جهده لإنشاء المساجد والمدارس والطرق وحفر الترعات والقنوات في أرجاء إمبراطوريته الوسيعة، كما أنشأ بصرف نفقات كثيرة المسافرخانات في الطرق المؤدية إلى مكَّة المكرَّمة. وقد ساد الأمن في أرجاء مملكته من أولها إلى أقصاها إلى درجة أن القوافل كانوا يستطيعون أن يشقوا طريقهم في ما وراء النهر إلى سورية بدون أي خوف من قطَّاع الطريق وغيرهم[٣].

وكان الوزير نظام الملك الذي خدم الدولة السلجوقية في عهد كل من ألب أرسلان وملكشاه غزة من غزر التاريخ الإسلامي ويعود الفضل في النشاط العلمي والثقافي الزاهر في عهدهما إلى جهود هذا الوزير المتواصلة كما يعود الفضل له في وضع التقويم الجلالي الذي وضعه حسنه في مؤتمر عقده علماء النجوم والفلك تحت نظارته وباقتراح ملكشاه وسميه باسمه وقد أعجب هذا التقويم علماء العصر الحاضر بدقته وصحته[٤].

---

[١] مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن حُسَيْنَ بَهَاءُ الدِّين البَلَخي الْبَكْرِيّ، (٦٠٤ هـ – ٦٧٢ هـ) عرف أيضا باسم مولانا جَلَال الدِّين الرُّومي: شاعر، عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف، وصاحب الطريقة المولوية المنسوبة إليه. محمد حسن الاعظمي، شعراء الصوفية، تحقيق مصطفى غالب، (بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٩٨٨)، ص ٣٣٤. عليان جالودي، التحولات الفكرية في العالم الاسلامي: أعلام، وكتب، وحركات، ص ٣٧٤. الأفلاكي، مناقب العارفين، ص ١٣٢.

[٢] توينبى، ٢ /١٤٩.

[٣] حتي، ص ٤٧٦. ابن خلكان، ١١ / ٤٤٣.

[٤] حتي، ٤٧٧. ابن الأثير ٨–٦٧.

ويعد مؤلفته الوحيدة «سياسة نامه» من أهم الكتب في سياسة الحكومة التي صنفه أيضًا باقتراح ملكشاه. ومن أهم أعماله مدرسة النظامية التي أنشأها في بغداد (١٠٦٥-٧). ويجدر بالذكر أن رمز العقابي ذات الرأسين الذي اتخذه السلجوقيون علامة رسمية لدولتهم في آسيا الصغرى وكان في الأصل علامة اتخذها السمريون والبابليون وأهل الأثيت قبل ثلاثة ألف سنة شق طريقه من آسيا الصغرى إلى الروم من هنا إلى النمسا ثم بروشيا وروسيا[١].

وإلى جانب العناية بالدراسات الفقهية في عصر السلاجقة نجد اهتمامًا بالغًا في العلوم الطبيعية والرياضية أيضًا. وحسبنا أن نذكر في هذا المعرض الرياضي الشهير عمر الخيام، وهو مواطن للغزالي، توفي في أغلب الظن سنة ١١٣٢م. فقد كانت دراساته في علم الجبر، أول محاولة ناجحة لحل المعادلات التكعيبية، ولم يحلها حلاً جبريًّا فحسب، بل حلَّ هندسيًّا أيضًا.

والواقع أن شهرته البعيدة كرياضي حملت السلطان ملكشاه جلال الدين على أن يعهد إليه في إصلاح التقويم فوضع عمر الخيام التقويم الجلالي باسمه.

أما شهرته في أوربا فتقوم في الحمل الأول على رباعياته الفارسية الثاقبة[٢].

وكان شيخ الإسلام أحمد بن أبي الحسين بن جرير بن عبد الله بن ليث، ومن كبار المشايخ والعلماء الذين عاشوا في عهد السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي. وله مؤلفات في السير والسلوك منها: «سراج السائرين» في ثلاثة مجلدات، و«أنيس التابئين»، و«مفتاح

[١] حتي، ص ٤٧٩.
[٢] بروكلمان، ١١ / ١٣٠.

النجاة»، و«روضة المذنبين». وهو وضع مؤلفته الأخيرة سنة ٥٢٦هـ باسم السلطان سنجر السلجوقي، ورسالته «السمرقندية» و«ديوان الأشعار» وغيرها[١].

وكان إمام الحرمين أبو المعالي الجويني من مقربي السلطان ملكشاه السلجوقي، بعثه رسولاً إلى بلاد أفلاد توفيل (تيوفيليب) ملك قسطنطينية وأصلح بين السلطان سنجر وبهرام شاه. وكان شيخًا كبيرًا عالمًا بأقسام العلوم وله كرامات وكان أيضًا موسيقيا ماهرًا[٢].

الدولة السلجوقية وفروعها

وقد كانت هذه الإمارات فروعًا للمملكة العباسية، أي كان أمراءها أو سلاطينها من عمال الدولة العبَّاسية أو قوَّادها أو قوَّاد بعض الإمارات الأخرى.

وكانت لظهور هذه الإمارات التركية أثر كبير في تقوية أهل السنة، حيث لما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس والدولة الفاطمية بمصر عظم أمر الشيعة في العالم الإسلامي، وتضعفت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية الإسلامية. في هذا الوقت ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس، وما كانت هذه الدولة إلا الدولة السلجوقية التي تنسب إلى جدها سلجوق، فجاءت في حال الحاجة إليها؛ لأنها لمت شعث المملكة العباسية ونصر مذهبها (السنة) بعد أن كادت تضمحل بين يد الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان، وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب وأوشكت أن تستولي على المشرق كله، فجاء السلجوقيون من

[١] الإسفزاري، روضات الجنات، ١ /٢٣١.
[٢] الإسفزاري، روضات الجنات، ١ / ٢٨٢.

أقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها. وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب، جعلوها مملكة واحدة ولكن يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي[١].

ولو أن السلاجقة كانت دولاً تفرَّعت من أصل واحد، وعرفت باسم واحد، ولكنها تمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها. وأكبر هذه الدول تعرف بالسلاجقة العظام، وهو أهل سائر الفروع وأقوى منها جميعًا، وإليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها:

سائر الفروع وأقوى منها جميعا، وإليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها:

	الأسماء	من سنة	إلى سنة
	السلاجقة العظام	٤٢٩	٥٥٢
	سلاجقة كرمان	٤٣٣	٥٨٣
	سلاجقة سوريا	٤٨٧	٥١١
	سلاجقة العراق وكردستان	٥١١	٥٩٠
	سلاجقة بلاد الروم	٤٧٠	٧٠٠

فحكمت الدول السلجوقية على الإجمال نحو من ثلاثة قرون وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين إلى آخر حدود الشام[٢].

---

[١] جرجي زيدان، ١٧ /١٨٧–١٨٨.

[٢] جرجي زيدان، ١٧ /١٨٨.

سلاجقة الروم

عاش سلاجقة الروم أطول من أسلافهم الرئيسية فدامت سيادتهم إلى سنة ١٣٠٢م. وهم أدخلوا في هذه الفترة الثقافة الفارسية إلى بلاد آسيا الصغرى وأنعشوا الأدب التركي من جديد.

وقالت السيدة تامارا تابلوت رايس في كتابها «السلاجقة تأريخهم وحضارتهم» إن آسيا الصغرى العامة وغيرها من الآثار ذات روعة وجمال التي نشاهد اليوم باقية خالدة في أرجاء تركيا المختلفة بما تدل على درجة اهتمامهم وشغفهم للفنون والعلوم[١].

انتقال المملكة السلجوقية إلى الأتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الأعمال أو الولايات قوَّادًا من مماليكهم يسمونهم الأتابكة، وهو لفظ تركي معناه «الأب الأمير»، ويستعملوه أولاً بمعنى الوزير ثم صار بمعنى الملك. وأخذ الأتابكة يستقلون بولاياتهم شيئًا فشيئًا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم إلا الفرع الرومي في آسيا الصغرى، فإنه ظلَّ في حوزة السلاجقة حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع.

وإليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى إلى مماليكهم الأتابكة وغيرهم وسن حكم كل دولة منها:

أسماء الدولة	الجغرافية	من سنة إلى سنة

[1] J.J. Saundrers: History to-day. May. 1962 P 342.

السورية	دمشق	٤٩٦-٥٤٩
الزنكية	الجزيرة والشام	٥٢١ - ٦٤٨
لبكتكينية	أربلاد	٥٣٩ - ٦٣٠
الأرتقية	ديار بكر	٤٩٥ - ٧١٢
الشاهات	أرمينية	٤٩٣ - ٦٠٤
أتابكه آذربيجان	فارس	٥٤٣ - ٦٨٦
السلفرية	أذربيجان	٥٣١ - ٦٢٢
الحفراراسبية	لورستان	٥٤٣ - ٧٤٠
القطلغية	كرمان	٦١٩ - ٧٠٣

ومازالت هذه الممالك في حوزة الأتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوّادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها.

سلاجقة الروم

أما الفرع السلجوقي الذي ظلَّ سائدًا دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الأيام، على أن مملكتهم هناك تفرَّعت إلى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة، وهناك أسمائها مع أسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها:

اسم الإمارة	اسم العائلة

١ . ميسا	آل كراسى
٢ . بيسيديا	آ حميد
٣. فريجيا	آل كرميان
٤ . ليسيا	آل تاكة
٥ . ليديا	آل سروخان وآيدين
٦ . كاريا	آل منتشا
٧. بغلاغونيا	آل قزل أحمدى
٨. ليكونيا	آل قرمان[١]

ومازالـت هـذه الإمـارات فـي سـلطة الأمـراء السلاجقـة حتـى أتـى العثمانيـون فاسـتولوا عليهـا، وأنشـأوا الدولـة العثمانيـة فـي أوئـل القـرن الثامن للهجرة[٢].

الأتابكيون

وقـد لعبـت هـؤلاء الأتـراك دوراً هامًّـا فـي تاريـخ الـبلاد الإسلاميـة المختلفـة. وهـم ورثـوا الممتلـكات السـلجوقية الوسـيعة الأرجـاء فـي بلاد شـتى فـي الشـرق والغـرب. وهـم نشـئوا وترعرعـوا فـي بلاط السـلجوقيين كقائديـن ثـم قبضوا شئون الدولـة منهم بعـد انهيارهـم. وكانـت الإمبراطورية السـلجوقية قـد شـكَّلت علـى أسـاس نظـام محكـم، وكان قـوَّاد جيوشـهم الذيـن عليهـم مـن المماليـك الأتـراك. وكان الأحـرار لا يعتمـدون عليهـم فـي القيـادة العليـا العسـكرية أو فـي حكـم ولايـات شاسـعة، فلذلـك كان الاعتماد

[1] Lame Poole's Mold. Dynasties.

[٢] جرجي زيدان، ١٧ / ١٨٩-١٩٠.

يختص المماليك الذين ربوهم تحت أنظارهم في البلاط، وهم صادقون في ولائهم. وكان لكل أمير السلجوقي لاحقة في المماليك الذين جاؤوا بهم من القبجاق، وكانوا يستخدمون في الأشغال الرئيسية للبلاط وفي المعسكرات وفي أعمال شاقة ثم يعتقون. وكانت نتيجة هذا النظام أن يتغلب رجل قوي ناشط على شيخ فان. لذلك حينما أخذت الإمبراطورية السلجوقية تنهار وتضعف وتنقسم إلى فروعات. أخذ هؤلاء المماليك الذين كانوا أتابكًا زمام الأمور.

وكان توغتكين واحدًا من هؤلاء المماليك، وكان مملوك سلجوق توتوش أتابك لوارثه الشاب دقاق فنجح أن يقبض مهام الدولة في دمشق بعد وفاة سيده.

وكان عماد الدين الزنكي مؤسس الأتابكية في موصل وحلب وغيرها ابن مملوك للأمير الثالث السلجوقي السلطان ملكشاه، كذلك تنتمي أتابكية إلى مملوك قبجاقي للسلطان مسعود السلجوقي ملك عراق. وكان أنوشتكين جد الخوارزمشاهيين حامل الكأس للسلطان ملكشاه. وكذلك كان ئورتوق وسلغر مؤسسًا الأسرة الأتابكية في ديار بكر وفارس من الموظفين السلجوقيين، كما كان مؤسسها آلبتكينين والهزار أسبين والقوتلوغ خانيين من مماليك السلجوقيين.

وفي القرن الثاني عشر كانت الإمبراطورية السلجوقية مكافئتها أناطوليه بأيدي هؤلاء القوَّاد. وهم أسَّسوا أسرة شتى حوزتهم[١].

وكان أول ما فعل من الغزوات إيقاعه الضربة الأولى للرحى التي بسبب قربها من بغداد وقوعها على نقطة مركزية على الطرق التي مرت بين النهرين والبحر الأبيض المتوسط، كانت تعد حصنًا حصينًا وخارجيًّا هامًّا للدول اللاتينية في سورية منذ نصف قرن. وبعد محاصرة دامت

---

[1] Lame Pool P 159-160.

أربعة أسابيع قبضها عماد الدين الزنكي من الملك جوسلين الثاني Joseeln II. وكانت الرها أول دولة صليبية قامت في عهد سورية كما كانت أولها الذي استولى عليه المسلمون بقيادة عماد الدين الزنكي.

وكان لقبضها أهمية كبرى للمسلمين حيث زال بقبضها Wedge Trust بين سورية والعراق، وأما للأوربيين كان بشارة للحرب الصليبي الثاني الذي قاد كونراد الثالث[١] Conrad ملك الجرمان ولويس السابع[٢] ملك فرنسا، وهما جمعا جيشًا عظيمًا من فرنسا وغيرها.

وكان آق سنقر (قسيم الدولة) جد نور الدين من أصحاب السلطان زكي الدين ملكشاه السلجوقي، وممن ربي معه في صغره واستمر في صحبته إلى حين كره، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه جعله من أعيان أمرائه ثم ولَّى حلب وغيرها من بلاد الشام، وبقي به إلى أن قتل سنة ٤٨٧هـ[٣].

ولَّى بعده ابنه عماد الدين الزنكي ديار الموصل والبلاد الشامية، ولما قضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة ٥٤١هـ.

آل الزنكي أو أتابكة بين النهرين وسورية

(١١٢٧-١٢٦٢)

ومن أكبر الأتابكيات كانت آل زنكي التي قامت سلالتهم في الموصل ودمشق في الربع الثاني من القرن الثاني عشر وهم تركي الأصل، وبهم

---

[١] كونراد الثالث (بالألمانية: Konrad III) (١٠٩٣- ١١٥٢)، أول ملوك ألمانيا من أسرة هوهنشتاوفن المالكة. وهم ابن فريدريش الأول دوق شوابيا وأغنيس فون فايبلنغن ابنة الإمبراطور هاينريش الرابع من أسرة ساليان.

[٢] لويس السابع (بالفرنسية: Louis VII de France) (١١٢٠م - ١١٨٠م)، كان ملك الفرنجة منذ عام ١١٣٧م وحتى عام ١١٨٠م. كان ابن وخليفة الملك لويس السادس، ومنه جاء لقبه، وتزوج من الدوقة إليانور آكيتاين، واحدة من أكثر النساء ثراءً وسلطةً في أوروبا الغربية. وسَّع الزواج أراضي سلاسة كابيتيون إلى البرانس، ولكنه أُبطل في عام ١١٥٢ بعد عدم إنجاب وريث ذكر.

[٣] الروضتين، ص ٢٤.

اعتـز الإسلام مـن جديـد بعـد أن انهكـت قـواه منازعـات السلاجقـة علـى السيادة في السورية.

وكان مؤسـس آل زنكـي أتابـك عمـاد الديـن زنكـي بـن أق سَـنْقَر حاجـب (١١٢٧-١١٤٧). وكان آق سـنقر هـذا فـي أول أمـره مملـوكًا للسـطان ملكشـاه السـلجوقي ثـم صـار قائـدًا ونائبًـا لتوتـوش فـي حلـب، ولكـن ثـار هناك على سيده فقتل وقد دام عهده من سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م إلى ٤٨٧هـ ١٠٩٤م. وكانت أتابكيته أكبر الأتابكيات التي أسسها فروع السلاجقة.

وفـي سنة ٥٢١هـ -١١٢٧م تولى عماد الديـن زنكـي عـراق وفيهـا بغـداد ثـم انضـم إليهـا فـي هـذه السـنة موصـل وسـنجر وجزيـرة وحـران ثـم أضـاف إليهـا حلـب وغيرهـا مـن بلـدان سـوريا سـنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨م. وكان عمـاد الديـن زنكـي فـي أول أمـره أتابـكا أي مؤدبًـا للأميريـن السـلجوقيين ألـب أرسلان وفـروخ شـاه وكان جنديًّـا بارعًـا وسياسـيًّا لبقًـا، بـل كان فـوق ذلـك إداريا ممتازًا.

فوفـق بهـذه الصفـات التـي اجتمعـت لـه إلـى توسـيع رقعـة سـلطانه شـيئا بعـد شـئ وبـه اتجاهـا لتعزيـز الإسلام، وامتـاز بغزواتـه علـى الصليبيين. وهـو يعـد فـي الحقيقـة طليعـة صلاح الديـن الأيوبـي والمماليـك الذيـن ورَّثوهـا وواصلوها حتى النصف الأخير من ذلك العصر[١].

وكان عمـاد الديـن رؤوفـا برعيتـه معينـا بمصالحهـا. وسـاد العـدل فـي أيامه واطمـأن النـاس إلـى سلامتهـم الشـخصية. ثـم بعـد وفـاة عمـاد الديـن سـنة ١١٤٦م اقتسـم ابنـا عمـاد الديـن أرسلان مملكتـه فيمـا بينهمـا. فأمـا أكبرهمـا سـيف الديـن الغـازي فاسـتولى علـى الموصـل وبيـن النهريـن والجزيـرة حتـى إلـى بـور محتفظًـا بنفسـه لقـب أتابـك، وأمـا أصغرهمـا نـور الديـن محمـود فاسـتولى علـى سـورية متخـذًا مـن حلـب قاعـدةً لحكمـه، وهـو أيضًـا امتـاز

[١] حتي، ٦٤٤.

بغزواته على الصليبيين. ولكن ما عفي الجيل الثاني حتى انهار الفرع السوري من آل زنكي وقد نشأ فرع جديد لهم في سنجر، ثم نشأ بعد قليل من الزمن فرع رابع في جزيرة. وقد ظهر الأيوبيون من العائلة السنجرية سنة ٦١٨هـ - ١٢٢١م، ثم جاءت ما بقيت منهم تحت حكم الؤلؤ الذي كان مملوكًا ثم وزيرًا لآخر ملوك آل زنكي في موصل حتى اندمجوا بكافتهم في الإمبراطورية المغولية.

وقد دام عهد آل زنكي الزاهر في هذه البلاد من سنة ٥٢١هـ - ١١٢٧م إلى ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م[١].

نور الدين الزنكي

وقد اشتهر نور الدين من بين أمراء آل زنكي بحبه العلم والعلماء. وكان عهده عهد نشاط علمي وثقافي كبير. وكان هو أول من استشعر أنه مسئول تجاه الله عن رفاهية رعيته. ولم ينفق موارد الدولة الغزيرة على تحصين بلاده وتحسين قلاعها وأبراجها وأبوابها وتوطيد مركزه الحربي فحسب، بل أنفقها في المجال الأول على الشئون الثقافية، فأنشأ الأبنية الرسمية ما ظلت تستعمل كدار علوم غلي عهد قريب، والمساجد وزوايا (تكايا) الدراويش وخانات المسافرين والمستشفيات ودور العلم في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك وفنج والرحة بغير ما بناه من البيمارستان (المستشفى) الذي تحمل اسمه، وهو يعد الثاني بعد مستشفى الوليد، والذي لم يلبث أن نما وتطور إلى مدرسة طبية راقية. وكان هو أول من بنى في دمشق دار الحديث التي تعرف بدار الحديث النورية[٢]، وهي أقدم

---

[1] Stanley Poole: Midlid. Dynasties, Brockleman II P218.

[٢] تعرف بدار الحديث النورية، وهي كانت بسوق العصرونية في الجانب القبلي بين دار الحديث الأشرفية والمدرسة العصرونية بناها نور الدين. وهو أول من بنى دارًا للحديث وقبل أوقفتها عصمته. وجاء في «طبقات السبكي الوسطى» في ترجمة الحافظ بن عساكر: أن الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد

مدرسة لهذا العلم وأشهرها[١].

والمدارس التي أنشأها نور الدين في دمشق كانت طليعة المدارس التي ازدهرت في تلك البلدة فيما بعد، ولو أن هذه المدارس كانت عبارة عن المساجد في دمشق، ولكنها كانت شبيه المدرسة النظامية في نظامها ونصابها وطلابها الذين يبيتون فيها.

الدولة النورية، التي تنسب إلى السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن أبي سعيد عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي.

ومما يجدر بالذكر أن في عهد نور الدين أخذ الخط النسخي محل الخط الكوفي ليشهد على ذلك خطوطه التي كتبت على جدران الأبنية والمنشئات التي أنشأها في دمشق وغيرها. ولا تزال توجد أنموذجة من خطه النسخي في جدار قلعة حلب الغربي الذي كتبه حين جددها. وهو دفن تحت قبة مدرسته.

ومنذ ذلك أصبحت العادة في سورية أن يلحق ضريح السلاطين للمساجد، وأن يدفنوا تحت قبة المدارس أو المساجد التي أنشئونها[٢].

وكان حريصًا على فعل الخير، وهو بنى بدمشق المدارس والمساجد وأصلح طرقها ووسع أسواقها، كما أمر بإكمال سور المدينة واستخراج

بني لابن عساكر هذا دار الحديث النورية، ودرس بها إلى حين وفاته. وقد درس فيها الحافظ الكبير ثقة الدين أبو القاسم على بن حسن المعروف بابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق»، ثم ولد الحافظ المسند بهاء الدين أبو محمد القاسم، ثم زين الدين ابن الإسناد الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر، ثم الحافظ زين الدين خالد بن يوسف أبي سعد النابلسي شيخ النوى، ثم العلامة تاج الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إبراهيم ابن سباع الغزاوي المعروف بابن الفركاع، ثم الحافظ محمد بن على بن محمد الصابونى، ثم المجد بن المهتار، ثم فخر الدين الحنبلي، ثم شرف الدين النابلسي أحمد بن نعمة، ثم علاء الدين بن العطار، ثم الحافظ المؤرخ المعيد علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزإلى الدمشقي صاحب «الذيل على تاريخ ابن شامة» والمعجم الكبير وغيرهم من العلماء. ابن بدران، ص ٥٨–٦٠.

[١] بروكلمان، ١١ /٢٢٠. جرجي زيدان، ٣ / ٢٠٥.

[٢] حتي، ص ٦٥٩–٦٦٠.

العين التي بأحد، وبنى الربط والجسور والخانات وجدد كثيرًا من قنا السبل، وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها، ووقف كتبًا كثيرةً. وكان هو حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية.

وهو هزم الروم الأرمن والفرنج على حارم وأنطاكية، وكان عدتهم ثلاثين ألفًا، ثم فتح الديار المصرية.

وقال ابن الأثير: «إني طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، والأكثر تحريا للعدل والإنصاف منه»[١].

وفضلاً على ذلك كان نور الدين حنفيًّا فيه تعصب، فنشر مذهب أبي حنيفة ببلاد الشام، ومنه كثرت الحنفية بمصر. ومازال مذهبهم ينتشر ويقوي وفقهائهم تكثر بمصر والشام من يومئذ. وقد دفن نور الدين في المدينة المعروفة باسمه[٢].

آل بكتكين/آل بكطغين

(أتابكة إربل)

يعدُّ زين الدين علي كوجك بن بكتكين مؤسس سلالة الأتابكة في إربل. وكان هو والي عماد الدين الزنكي في موصل توليه سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م ثم سنة ٥٤٤هـ - ١١١٤م جعل سنجر ثم حران وتكريت وإربل وغيرها من البلدان تحت حكمه. توفي زين الدين في إربيل سنة ٥٦٣هـ - ١١٦٧م و بعد وفاته خلفه ابنه الصغير زين

[١] كتاب الروضتين، ص ٥
[٢] ابن بدران، ص ٧٥.

الدين يوسف و أمير مجاهد الدين قيماز وصي عرشه، وكان ذلك بعد أن فر ابنه الأكبر أبو سعيد مظفر الدين كوكبوري إلى حران.

وبعد وفاة يوسف عيَّن صلاح الدين الذي كان له نفوذ كبير على سورية وبين النهرين مظفر الدين كوكبوري خلف أخيه في إربل وشهرزور وأعطى ممتلكاته السابقة أي حران، رحا وسميط لعمه تقي الدين عمر. توفي كوكبوري سنة ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م. وكان خلف فلذلك أوصى إربل للخليفة العباسي. وقد دامت هذ السلالة من سنة ٥٣٩هـ ١١٤٤م إلى ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م.

الدَوْلَةُ الأرْتُقِيَّةُ

(أتابكة ديار بك)

وقد أسَّس هذه السلالة أورتوق بن أكسب، وكان من أصل التركماني، خدم في الجيش السلجوقي، تولى القدس من جهة الدولة تتش السلجوقي. وكان لأرتوق ابنان وهما نجم الدين إلْغازي وسوقمان، امتازا بمحاربتهما مع الأمراء اللاتينيين. وهما خلفا سنة ٤٨٤هـ - ١٠٩١م أباهما بعد وفاته، ولكن لم يلبث حتى ضم القدس للفاطمية سنة ٤٨٩هـ - ١٠٩٨م، وانسحب سوقمان إلى الرحا وإيلغازي على العراق، ثم عيَّن سلطان محمد السلجوقي إلغازي وإلى مقاطعة بغداد، وفي هذا العام عين سوقمان والي حصن كيفا في ديار بك، وهو أضاف إليها بعد عام أو عامين ماردين التي حولت إلى أخيه إلغازي سنة ٥٠٢هـ - ١١٠٨م. وبهذا أنشئت هناك سلالتان متوازيتان في كل من كيفا وماردين.

كان سلالة كيفا حينما هددت باثر من ربات سوقمان مع بالدوين وجوسلين أظهر ولاءه لصلاح الدين الذي أضاف بلدة عميد

لممتلكاته مكافأة له سنة ٥٧٩هـ - ١١٨٣م حتى كبت له الكامل الأيوبي سنة ٦٢٠هـ -١٢٣١م. وقد حكم فرع صغير من سلالة كيفا خرتبرت (هاربوت) في ديار بك من سنة ٥٢١هـ - ١١٢٧م إلى سنة ٦٢٠هـ - ١٢٢٣م. ثم أن إلغازي مؤسس الفرع المارديني قبض حلب سنة ٥١١هـ - ١١١٧م.

وفي سنة ٥١٥هـ - ١١٢١م قلَّد توليه سلطان محمود السلجوقي ميافارقين في ديار بكر. ومازالت ميَّافارقين وماردين بأيدي خلفائه حتى ٥٨٠هـ - ١١٥٤م. وقد أخضعهم تيمور بعدها ثم اندمجوا مع قراقويونلو سنة ٨١١هـ - ١٤٠٨م. ولكن أمراء ماردين قلَّ شأنهم بعد أن تأسست سيادة الأيوبيين في سورية وبين النهرين. وقد سقط حلب بيد أمير آخر من الأرتقيين بلك بن بهرام الذي حكم منا سنة ٤٩٧هـ وخرتبرت سنة ٥١٥هـ، وهو كان من القواد المشهورين في المحاربات الصليبية. وكان أرتق جد ملوك الأرتقية رجلاً ذا عزيمة وسعادة وجد واستشهاد.

وقد دامت هذه السلالة من ٤٩٥هـ ١١٠١م إلى ٧١٢هـ - ١٣١٢م[١].

البوريون

(أتابكة دمشق)

وكان مؤسس هذه السلالة الأتابكية أتابك طغتكين. وكان من القوَّاد في الجنود السلجوقيين، ثم صار أتابكًا أو مربيًّا لأمراء السلجوق أحدث سنًّا، حتى اغتصب سلطتهم. وكان أصلا مملوك سلطان تتش ثم أعتقه وجعله سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م أتابكًا لابنه دقاق الأمير السلجوقي لدمشق الذي خلفه طغتكين فيما بعد. وأسس سلالته سنة

---

[1] (Stanly Pool P 166، ابن خلكان ج ١ ص ٦١.

٤٩٤هـ - ١١٠٣م.

وقد حكم توغتكين باسم سيف الإسلام ظاهر الدين طغتكين. وكان آخر ملوكهم مجير الدين أباق أو أناز سنة ٥٣٤هـ - ١١٣٩م. وقد دام هذه السلالة في دمشق من سنة ٤٩٧هـ - ١١٠٣م إلى ٥٤٩هـ -١١٥٤م حكم فيها ستة من الملوك[١].

الدولة الدانشمندية

وقد تأسَّست هذه الدولة حوالي سنة ٤٩٠هـ -١٠٩٧م في آسيا الصغرى في عهد كان السلجوقيون منهمكين لتوسيع حدودهم في تلك البلاد. وكان مؤسِّسها كمشتكين بن دانشمند[٢]. وكان من رؤساء الأتراك. وقد قاموا حكومتهم في كابودوسيا التي شاملة على سيفاس وقيصرية، وملطية.

وفي هذه المدينة الأخيرة اشتبك الدانشمنديون مع الأفرنج[٣] وقد هزمهم شر هزيمة. وقد لعب خلفائهم دوراً هامًّا في حروب الصليبيين. ولكنهم لم يلبثوا حتى اندمجوا في إمبراطورية السلجوقية الكبيرة. وكان أشهر ملوكهم بعد كمشتكين غازي بن كمشتكين محمد الثاني بن الغازي، ذو النون بن محمد الثاني، ياغي أرسلان بن

---

[1] Stanly Pool P 161.
كاتب جلبي، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني، كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول، (تركيا: مكتبة إرسيكا، ٢٠١٠ م)، ٣٨٨/١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٧٣- ٥٧٤. عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، ط.١. (الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م)، ص ١٢٥.

[٢] ووالد كمشتكين هو طايلو التركماني، وإنما لقب دانشمند؛ لأنه كان معلماً لأبناء التركمان.

[٣] فهب القائد كمشتكين بقواته وتواجه مع القوات الصليبية في معركة بالقرب من ملطية عام ٤٩٣هـ بعدما كمِن وجيشه في أعالي التلال ليلحقوا الهزيمة المنكرة بالجيش الصليبي ويأسروا قائد الجيش الصليبي بوهيمند وابن عمه ريشارد وغيرهم من الفرسان.

الغازي، إبراهيم بن محمد[١].

شاهات أرمينية

وقد حكم أرمينية سلالة تركية باسم شاهات أرمينية، أَسَّسها سكمان القطبي، نسبته إلى قطب الدين إسماعيل والي مرند في أندبايجان، حيث كان في أول أمره مملوكًا له. هو سلب مدينة خلاط في أرمينية من آل مروان سنة ٤٩٣هـ - ١١٠٠م، ثم حكم خلفاءه ومماليكه في هذه المنطقة مدة قرن حتى فتحها الأيوبيون سنة ١٢٠٧م. وقد حكم منهم سبعة شاهات وكان آخر ملوكهم عز الدين بالبان وقد دام عهدهم من سنة ٤٩٣هـ - ١١٠٠م إلى ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م[٢].

أتابكة آذربيجان

وكان مؤسس هذه السلالة إيلدكِز، هو مملوك تركي من أصل قبجاقي هو مملوك تركي لكمال الدين أبي طالب وزير السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملك شاه. قد امتاز نفسه في أول الأمر في بلاط السلطان مسعود في العراق، وولاه السلطات آذربيجان وزوجه أخت زوجته الأرملة وهي أرملة أخيه السلطان طغرل بن محمد. وقد وفق ابنه محمد جهان أن يقبض السلطة السلجوقية في العراق بيده ويستقل فيها وكذا في ولايته. وكان أخوه قزيل أرسلان في آذربيجان ثم خلفه وأعلن نفسه أمير الأمراء، ولكن لم يلبث أن يطالب حقوق

[١] ابن الأثير، علي بن مُحمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيَّة في الموصل. (مصر: دار الكُتُب الحديثة. ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م). ص. ٧. طقُّوش، مُحمَّد سُهيل، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصُغرى، ط.١. (بيروت - لُبنان: دار النفائس، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ص. ٧٠. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن مُحمَّد التميمي، تاريخ دمشق، (دمشق: دار حسَّان للطباعة والنشر)، ص ٢٥٤.

[٢] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٧٨/٥. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٢٧٩.

السلطنة لنفسه حتى أدّى هذه المطالبة إلى قتله، ثم خلفه أبو جعفر ثم مظفر الدين قزل آرسلان، وبعد ذلك نصرة الدين أبو بكر، ومظفر الدين أوزبك وهما ابنا أخيه محمد، وهما تبعا سياسة معتدلة. دام عهد أتابكة آذربيجان من سنة ٥٣١هـ - ١١٣٦م إلى سنة ٦٢٢هـ - ١٢٢٥م[١].

عهد الخوارزميين

استطاع الخوارزميون في تكوين إمبراطورية على أنقاض الإمبراطورية السلجوقية. ولو لا ما كان غزو المغول وأمهلتهم الحوادث قليلاً لاستطاعوا أن يسيطروا على عاصمة الخلافة، وأن يتخذوا لأنفسهم ذلك المركز الذي اتخذه البويهيون والسلاجقة من قبل، إلا أن الحوادث تعجلتهم ففزعهم المغول في ميدان حرب لم يعرفها المسلمون قبلهم.

في وسط الحروب الدامية التي سادت الشطر الأكبر من حكمهم، وفضلاً على الأمور الذي لقيه في ميدان السياسة في الدولة الإسلامية في ما وراء النهر خوارزم وخراسان، نرى كثيرًا من الأدباء والشعراء والكتاب يبرزون في عهود سلاطينهم المختلفة وبفضل تشجيعهم العلم والأدب برز كثيرون ممن كتبوا باللغة الفارسية في شتى النواحي.

ومن هؤلاء زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسين الجرجاني[٢] الذي قصد خوارزم سنة ٥٠٤هـ - ١١١٠ وعاش هناك في كنف

---

[١] أمينة بيطار. «أتابكة أذربيجان». الموسوعة العربية. هئية الموسوعة العربية سورية- دمشق. المستشرق زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. (بيروت: دار الرائد العربي)، ص. ٣٤٩.

[٢] زين الدين الجُرْجَاني (ت ٥٣١ هـ) هو طبيب، من أهل جرجان. المعروف بسيد إسماعيل. أصله من جرجان أقام في خوارزم. قال عنه البيهقي: «أحيا الطب وسائر العلوم بتصانيفه اللطيفة». لقب ب «أبقراط الثاني» له عدة مؤلفات باللغتين العربية والفارسية من بينها كتاب «زبدة الطب»، وكتاب «الظاهرة الخوارزم شاهية». الزركلي، الأعلام، ١/ ٣١٢. إلياس مليحة، موسوعة علماء الطب مع اعتناء خاص بالأطباء العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١)، ص ٩١-٩٢.

الخوارزميين ردحًا طويلاً من الوقت إلى أن توفي سنة ٥٣١هـ - ١١٣٤م وله كتاب باسم «ذخيرة خوارزمشاه» وهو من كتب الطب الشهيرة.

ومن الكتاب البارزين أيضًا رشيد الدين محمد عبد الجليل البلخي الذي لقب بالوطواط بسبب قصر قامته وقبح منظره، وكان شاعر البلاط الخوارزمي. وقد ألَّف كتابًا باسم «خرائق الحر في دقائق الشعر» وهو من أقدم المؤلفات الفارسية المعروفة التي تعالج صناعة الشعر. وله كتب باللغة العربية أيضًا[١].

وقد استمر الوطواط في معية الخوارزميين في عهد كل من السلطانين أرسلان وابنه علاء الدين تكش.

وكان علاء الدين خوارزمشاه وابنه جلال الدين المنبكرتي يهتمان بالعلم والأدب، ويقلدان من برز من العلماء والأدباء والشعراء بعض مناصب الدولة العامة. ومن هؤلاء حمزة بن محمد الذي تقلد بعض مناصب الدولة المختلفة، ومن بينها حكم مدينة نساء. وكان يجيد نظم الشعر العربي والفارسي[٢].

ومنهم أيضًا كانوا أسرة الجوينى، عظم نفوذ أفرادها في عهدهم ووصل كثيرون منهم إلى أرقى مناصب الدولة في عهد علاء الدين خوارزمشاه وجلال الدين المنبكرتى.

وكان أيضًا ممن شمل برعاية السلطان جلال الدين الخوارزمي محمد النسوي[٣] الذي وضع كتابه « سيرة السلطان جلال الدين مَنكبُرْتي» عن

[١] عبد الوهاب عزام، مجلة المقتطف، ص ٥٧.

[٢] سيرة السلطان جلال الدين منبكرتي، ص ٤٨.

[٣] هو محمد بن أحمد النسوي، ولد ونشأ في قلعة خُرَنْدَز من أعمال نَسَا في خراسان، وكان أبوه مالكاً للقلعة إرثاً من أسلافه، تلقى في طفولته ويفاعته علوم العربية والفارسية، واطلع على أدبهما، وحين مات والده آل حكم القلعة إليه، التحق بخدمة جلال الدين منكبرتي كاتباً للإنشاء لديه، ورافق جلال الدين في حروبه. توفي سنة ٦٤٧هـ. أحمد بن إبراهيم الجرجاني، معجم أسامي أبي بكر الإسماعيلي. تحقيق: زياد

الدولة الخوارزمية[١]. ولم يقتصر تشجيع الخوارزميين على كبار رجال الأدب والعلم فأسسوا المدارس في مدن الدولة المختلفة أو على الأقل في أمهات مدنهم. وكان يقوم بالتدريس فيها كبار العلماء والفقهاء والأدباء في الدولة. ومن هؤلاء شهاب الدين أبو سعد بن عمران، وكان من المتضلعين في أصول المذهب الشافعي كما كان أيضًا سمن المتضلعين في اللغة والطب، ولعلو منزله في الدولة عهد إليه بالتدريس في خمس مدارس بمدينة خوارزم، فضلاً عما تقدم وكان لهذا الرجل فضل كبير في تأسيس دار الكتب في هذه المدينة[٢].

العلماء والأدباء في عهد الخوارزميين

وفي عهد الخوارزميين، وسط الحروب الدامية التي سادت الشطر الأكبر من حكمهم نرى كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب يزورون في عهود سلاطينهم المختلفة، وبفضل تشجيعهم العلم والأدب برز كثير ممن كتبوا باللغة الفارسية في شتى النواحي. ومن هؤلاء زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني، الذي قصد خوارزم سنة ٥٠٤هـ ١١١٠م بغية الإقامة فيها، على إثر دعوة وجهها إليه قطب الدين محمد خوارزم (٤٩٠هـ - ٥٣١هـ = ١٠٩٤م - ١١٣٧) وقد عاش هذا الرجل في كنف الخوارزميين ردحا طويلا من الوقت إلى أن توفي ٥٣١هـ - ١١٣٦م.

وألف كتبًا عرف باسم «ذخيرة خوارزم شاه» وهو من كتب الطب

محمد منصور. (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٠)، ١/ ٤٣٥. أحمد بن يحيى العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط. ١. (أبو ظبي: المجمع الثقافي)، ١٢/ ٣١٤. محمد البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (بيروت: دار إحياء للتراث العربي، ١٩٥٠)، ٢/ ١٢١.

[١] الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٩٠.

[٢] (سيرة السطان جلال الدين ٤٨ كما إقتبست في نفس المصدر ص ٩٠).

الشـهيرة فـي اثنـا عشـر مجلـدًا[١]، ويبحـث فـي الأمـراض المختلفـة وتشـخيصها، كما يبحـث فـي الأدويـة والسـموم وغيرهـا[٢]. ومـن الكتـاب البارزيـن أيضًـا رشـيد الديـن محمـد عبـد الجليـل البلخـي، الـذي لقـب بالوطواط بسبب قصر قامته وقبح منظره[٣].

وقـد دخـل هـذا الرجـل فـي خدمـة الخوارزمييـن منـذ أيـام السـلطان آتسـيز خوارزمشـاه ٤٣١هـ - ٥٥١هـ = ١١٣٧م - ١١٠٤م فاتخـذ منـه رفيقًـا خاصًّـا، كمـا جعلـه شـاعرًا للبلاط فـي أيامـه. وهـو يكيـن المـدح لـه فـي بعـض المناسـبات ويكيـن الهجـاء لأعدائـه فـي بعـض المناسـبات الأخرى[٤].

وقـد ألـف رشـيد الديـن وطـواط كتابـه المسـمى «حدائـق الحـر فـي دقائـق الشـعر» وهـو مـن أقـدم المؤلفـات الفارسـية المعروفـة التـي تعالـج صناعـة الشـعر. ويجـب أن نذكـر هنـا أن الوطـواط لـم يكتـب بالفارسـية فحسب، بل كتب باللغة العربية أيضًا وله في ذلك رسائل معروفة[٥].

وقـد اسـتمر الوطـواط فـي خدمـة الخوارزمييـن فـي عهـد كل مـن السـلطانين ألـب أرسلان ٥٥١هـ - ٥٦٨هـ = ١١٥٤ - ١١٧٣م وابنـه علاء الدين تكش ٦٤٨هـ ٦٩٤هـ = ١١٩٩م.

وكان علاء الديـن خوارزمشـاه وابنـه جلال الديـن المنكبرتـي يهتمـان بالعلـم والأدب ويقلـدان مـن يبـرز مـن العلمـاء والأدبـاء والشـعراء بعـض مناصـب الدولـة العامـة، ومـن هـؤلاء نصـرة الديـن حمـزة بـن محمـد، الـذي تقلَّـد بعـض مناصـب الدولـة المختلفـة، ومـن بينهـا حكـم مدينـة نسـا. وكان

---

[١] كشف الظنون، ٨٢٥/١.

[٢] رضا زان شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٣٤.

[3] Brosesne A Lverang: History of Persia Vol. II P 309.

[٤] نفس المرجع

[٥] عبدالوهاب عزام في مجلة المقتطف ص ١٠٩.

هـذا الرجـل يجيـد نظـم الشـعر العربـي والفارسـي، فمـن أشـعاره تلـك العقيدة التي نظمها عندما ألقت به المقادير في أحد السجون[١].

وإني لفي قيد هذا الزمان	لكالدر اذبات حشوا الصدف
تحلي بقبوري جيد العلى	ونظم فضلي عقد الشرف
وإني على الرغم من جدي	لأسلافي الصيد نعم الخلف
وإن كان أنكر قدري الزمان	فذا هفوة صدرت عن جرف
ففي أمم تنجلي غمتي	كبدرا لدي بعد ما قد خسف
وتأتي المقادير منقادة	قولون عفوك عما سلف

ومنهـم أيضًـا كانـوا أسـرة الجوينى، عظـم نفـوذ أفرادهـا فـي عهدهـم، ووصـل كثيـرون منهـم إلـى أرقـى مناصـب الدولـة فـي عهـد علاء الديـن خوارزمشـاه وجلال الديـن المنكبرتـي. ولا يفوتنـا أن نشـير هنـا لمحمـد النسـوي الـذي وضـع كتابـه سـيرة السـلطان جلال الديـن المنبكرتـي عـن الدولة الخوارزمية، في عهده وكان ممن كان هذا السلطان برعايته.

ولـم يقتصـر تشـجيع الخوارزمييـن علـى كبـار رجـال الأدب والعلـم فأسَّـسـوا المـدارس فـي مـدن الدولـة المختلفـة أو علـى الأقـل فـي أمهـات مدنهـم. وكان يقـوم بالتدريـس فيهـا كبـار العلمـاء والفقهـاء والأدبـاء فـي الدولـة. ومـن هـؤلاء شـهاب الديـن أبـو سـعد بـن عمـران، وكان مـن المتضلعيـن فـي أصـول المذهـب الشـافعي، كمـا كان أيضًـا مـن المتضلعيـن فـي اللغـة والطـب، ولعلـو منزلـه فـي الدولـة عهـد إليـه بالتدريـس فـي خمـس مـدارس بمدينـة خـوارزم، فـضلاً عمـا تقـدَّم وكان لهذا الرجل فضل كبير في تأسيس دار الكتب في هذه المدينة[٢].

---

[١] سيرة السلطان جلال الدين مبكرتي ص ٤٨-٦٩.

[٢] سيرة السلطان جلال الدين منبكرتي، ص ٤٨-٤٩.

تأسست الدولة الإيلخانية في بلاد الفرس بيد هولاكو حفيد جنكيزخان الذي فتحها، وامتد رقعته من نهر آمو إلى سوريا شرقًا وغربًا، ومن جبال القوقاز إلى بحر الهند شمالاً وجنوبًا. وأن هولاكو أول من أخذ لقب إيلخان أي خان القبيلة، فحكم أخلافه باسم الأسرة الإيلخانية بلاد الفرس والعراق حوالي خمس وسبعين سنة. ازدهرت في هذه المدة الأدب والثقافة ازدهارًا كبيرًا، تلافي ما أفسده المغول في أثناء غزواتهم على البلاد الإسلامية.

ولو أن هولاكو نفسه كان يشجع النصرانية، ولكنه كان مولعًا للنبوغ المسلمين الثقافي، ولم يفشل هو وأخلافه من استغلال مهارة المسلمين في النظم الإدارية والسياسية. وهو أنشأ باهتمامه في فراغه جملة الأبينة الفخمة في وقت الصلح. كان كبتخانه ومرصد كبير أنشأهما نصير الدين الطوسي[١].

[١] حتي، ص ٤٨٨.

عهد المغول وأثره في التاريخ الإسلامي

الدولة الإيلخانية في إيران

وكانت فترة الغزو المغولي لجنكيزخان وخلفاءه بلاد غربي آسيا فترة عانت فيها المسلمون آلام القتل والتعذيب والتخريب والدماء. ولكن بعد أن هدأت العاصفة، وانتهى الدور الحربي من تاريخ المغول جاءت فترة بدأ المسلمون فيها يصلحون ما أفسده المغول كما بدأ المغول يكفرون عن سيئاتهم، فحاولوا إصلاح ما أفسدته أيديهم، ثم استغل المسلمون هذه الروح الطيبة في أثناء هذه الغزوات[١].

ومع أن المسلمين لاقوا صنوفًا مختلفة من العذاب في عهود المغول الأولى، إلا أنهم صبروا أو صابروا مؤمنين بنصر يأتيهم في النهاية على هؤلاء المتربصين. على أن المسلمين لم يعدموا وسط هذا الاضطهاد أناس يعطفون على ديانتهم ويؤمنون بها، فنرى كورجوز، حاكم فارس من قبل أوجتاي خان يعتنق الديانة الإسلامية في أواخر أيامه. على أن أول نصر حقيقي للمسلمين قد تحقق باعتناق بركة خان للقبيلة الذهبية (٦٤٣هـ - ٦٦٦ = ١٢٥٦ - ١٢٦٧م) الديانة الإسلامية وخاصة بعد أن تبعه السواد الأعظم من رعيته، بل يمكن القول أن كل رجال جيوشه كانوا من المسلمين. وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقة بين بركة خان والظاهر بيبرس في مصر، بل تخالف

[١] حافظ أحمد حمدي، ص ٢٦٢.

الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاكو في فارس.

ثم نرى نفوذ المسلمين يقوي على مر الزمان حتى أن تكودار أحمد أغا اباقاغان (٦٨٠هـ - ٦٨٣ = ١٣٨٠ - ١٣٨٤م) اعتنق الديانة الإسلامية عندما بلغ من الرشد. وكان هو في بداية أمره يدين بالديانة المسيحية ويسمى باسم نيقولا، ولكنه اتخذ لنفسه اسم أحمد بعد اعتناقه الدين الإسلامي[١]. وهو سعى إلى جذب رعاياه إلى هذا الدين الجديد. وكان يجزل العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام، كما أغدق عليهم ألقاب الشرف في دولته، وقد لجأ تكودار إلى طريقة الترغيب في الدين دون الإكراه على الدخول فيه، وخاصة عندما وجد كثيرًا من المغول يتمسكون بأهداب دينهم[٢].

على أن اضطهاد المسيحيين في عهد تكودار أحمد قد أدَّى اندلاع نيران الثورة عليه في البلاد بزعامة ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله ثم اعتلى العرش من بعده (٦٨٣-٦٩٠هـ = ١٣٨٤-١٣٩١م)[٣].

وقد ظل المغول ينعمون بوثينتهم، كما استمر المسيحيون في اضطهادهم للمسلمين، حتى تولى غازان محمود سابع إيلخانات المغول في فارس الحكم (٦٩٤ - ٧١٣هـ = ١٣٩٥ - ١٣١٤م)، فاعتنق الدين الإسلامي. ولم يقف غازان موقفا سلبيا إزاء رعاياه، كما فعل تكودار أحمد من قبل. بل أنه فرض هذه الديانة فرضا على جميع سكان بلاده وجعلها دين الدولة الرسمي. ومنذ ذلك الوقت أخذ

---

[١] محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ٥٩٩ صفحة. أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧) ٨/ ٦٦.

[٢] الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٥٣.

[3] Sykes: History of Persia 353.

الإسلام ينتشر انتشارا سريعا في دولة إيلخانات المغول في فارس، وضاع ما كان يؤمِّله المسيحيون من انتصاره على الدين الإسلامي، كما ضاعت مجهوداتهم السابقة في الدعوة لهذا الدين[١].

وقد شجع غازان خان التطور الاقتصادي في إمبراطوريته، وأدخل روحًا جديدًا من الثقة في الميدان التجاري بأن ألغى الأوراق المالية ذات القيمة التحكمية.......... التي سبق لأسلافه أن حدثوها على الطريقة الصينية. كذلك أعاد تنظيم القضاء في فارس وأعاد للشرع الإسلامي سلطانه وقوته، كذلك محكمة عليا مشتركة للقانونيين الفارسي والإسلامي. ثم أنه زين عاصمته تبريزا بأبنية فخمة واقفا أموالا ضخمة على المساجد المحلية ودور العلم. وشيَّد مرصدًا فلكيًّا ومدرسة للعلوم الدنيوية التي كان هو وغيره من ملوك المغول يقدرونها قدرًا خاصًّا لما لها من الفائدة العلمية. وقد وضع رشيد الدين وزيره المطلق وطبيب بلاطه كتابه المفصل في تاريخ المغول باللغة الفارسية «تاريخ غازانى» بناء على إشارة منه. وقد شارك غازان نفسه في تأليف هذا الكتاب أيضًا[٢].

ثم نرى نفوذ المسلمين يقوي على مر الزمان حتى أن تكودار أحمد أغا أباقاغان (٦٨٠هـ - ٦٨٣ = ١٣٨٠ - ١٣٨٤م) اعتنق الديانة الإسلامية عندما بلغ من الرشد. وكان هو في بداية أمره يدين بالديانة المسيحية ويسمى باسم نيقولا، ولكنه اتخذ لنفسه اسم أحمد بعد اعتناقه الدين الإسلامي. وهو سعى إلى جذب رعاياه إلى هذا الدين الجديد. وكان يجزل العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام، كما أغدق عليهم ألقاب الشرف في دولته، وقد لجأ تكودار إلى طريقة

---

[١] ٣٥٣

[٢] بروكلمان، ١١/ ٢٧٤-٢٧٥.

الترغيب في الدين دون الإكراه على الدخول فيه[١].

على أن اضطهاد المسيحيين في عهد تكودار أحمد قد أدَّى إلى اندلاع نيران الثورة عليه في البلاد بزعامة ابن أخيه أرغون الذي دبَّر قتله ثم اعتلى العرش من بعده (٦٨٣-٦٩٠هـ = ١٣٨٤-١٣٩١م)[٢].

ثم تولَّى غازان خان محمود سابع إيلخانات المغول في فارس الحكم (٦٩٤ - ٧١٣هـ = ١٣٩٥ - ١٣١٤م)، فاعتنق الديانة الإسلامية وجعلها دين الدولة الرسمية، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام ينتشر انتشارًا سريعًا في دولة إيلخانات المغول في فارس. وضاع ما كان يأمله المسيحيون من انتصار على الدين الإسلامي كما ضاعت مجهوداتهم السابقة في الدعوة لهذا الدين[٣] وفضلاً على ذلك إن اختلاط المغول بالمسلمين في الشرق قد أدَّى بطبيعة الحال إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول، ونتج عن هذا الخليف تجديد في الحياة العقلية فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون في تفكيرهم عن تلك الطائفة التي عرفها العالم الإسلامي قبل تلك الغزوات.

وقد نتج عن هذا تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام وخاصة بعد أن بلع المغول المسلمين في هذه البلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصة التي حملوها معهم من موطنهم الأصلي والتي اقتبسوها من الصينيين بعد غزوهم بلادهم[٤].

وإذا كان الغزو المغولي قد نتج عن الركود العلمي والأدبي فقد كان ذلك ركودًا مؤقتًا، إذ أن النشاط في هذين الميدانين لم يلبث أن

---

[1] Arnold: Preaching of Islam P 219-230.

[2] Arnold P 252.

[3] Sir Thomas Arnold P 232

[٤] (ويمبري، ١٣٨.

عاد بعد أن بدأ المغول يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم، ورغبوا تدريجيًّا في اعتناق المدنية الإسلامية والفارسية، فبرز الكثيرون من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم.

ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو نصير الدين الطوسي الذي امتاز بأبحاثه في علم الفلك فشجَّعه المغول وأسَّس له مرصدًا كبيرًا في مدينة مراغة سمي باسم «المرصد الإيلخانية»[١].

الأثر الثقافي

يعقب الغزوات الكبرى في التاريخ فترة من الزمن تنتقل فيها حضارة الغالب إلى حضارة المغلوب، ثم يحدث أن تتقابل الحضارتان وتؤثر إحداهما في الأخرى وتتأثر بها، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معا وأن الحروب مع ما تلحقه بالإنسانية من إضرار تقترن بفوائد ثقافية تعوض عن البلاد المقهورة بعض ما أصاب من خراب ودمار أثناء الحروب.

وإذا نظرنا إلى الغزوات الكبرى في التاريخ، نرى فيها خير شاهد على صدق ما نقول. فقد انتشر الحضارة الهيلينية في بلاد المشرق عقب غزو الإسكندر لها، وامتزجت بحضاراتها القديمة، وكذلك كانت الحال في البلاد التي دخلت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية.

وكانت الحروب الصليبية، رغم الخسارة المادية التي لحقت بالمسلمين والصليبيين على السواء سببًا في وقوف الغربيين على حضارة الشرقيين، كانوا يجهلونه عن حضارة الغربيين. ولا يختلف الحال بالنسبة للمغول الذين أتوا إلى غرب آسيا بعد أن حطموا تلك

---

[١] دكتور رضا: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٨٧-١٨٨.

القوى السياسية المختلفة التي حالت قبل الغزو ودون اتصال طرفي القارة بعضها ببعض. وكان المغول قبل أن يتجهوا بجيوشهم نحو الغرب، قد غزوا بلاد الصين واقتبسوا من حضارتها ما غير من طبيعتهم البدائية، ثم حملوا ذلك كله إلى غرب آسيا؛ بل إلى أوربا بعد ما حطموا تلك الحواجز التي حالت دون اتصال القارتين من قبل. حقيقة كانت فترة الغزو المغولي على يد جنكيزخان وخلفائه بلاد غربي آسيا فترة عاني فيها المسلمون آلام القتل والتعذيب والتخريب، ولكن بعد أن هدأت العاصفة جاءت فترة بدأ المسلمون فيها يصلحون ما أفسده المغول، كما بدأ المغول يكفرون عن سيئاتهم فحاولوا إصلاح ما أفسدته أيديهم، ثم استغل المسلمون هذه الروح الطيبة من جانب المغول لإصلاح ما تخرب من ديارهم في أثناء هذه الغزوات.

إن العصر الذي حكم فيه المغول البلاد الصينية، كان عصر منافسة في الفن والصناعة، كان عصرًا ازدهر فيه الأدب. فلا ننسي أن عددًا كبيرًا ممن كان لهم فضل ازدهار هذه العلوم والفنون كانوا من الفرس والأتراك، ولا يجب أن ننسي أن اندماج حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف كحضارة الفرس والصينيين، لا بد أن يؤدي إلى ظهور آراء جديدة واكتشافات حديثة، لم تكن موجودة من قبل، ولا بد أن يؤدي إلى اندماج هاتين الحضارتين القديمتين إلى انتعاش عظيم في الحضارة[1].

وعلى هذا الأساس كان النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) عصر ازدهار في الحضارة، تلاقت فيه

[1] Howorth: History of Moguls Part I P 99.

ثقافات الشرق والغرب[١].

إن اختلاط المغول بالمسلمين في الشرق قد أدَّى بطبيعة الحال إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول، ونتج عن هذا الخليف تجديد في الحياة العقلية فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون في تفكيرهم عن تلك الطائفة التي عرفها العالم الإسلامي قبل تلك الغزوات[٢].

وقد نتج عن هذا تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام وخاصة بعد أن بلع المغول المسلمين في هذه البلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصة التي حملوها معهم من موطنهم الأصلي والتي اقتبسوها من الصينيين بعد غزوهم بلادهم.

قد أضعف المكانة الأدبية التي امتازت بها بلاد ماوراء النهر، فبعد أن كان الأهالي في نيسابور، ومرو يتنافسون في ميادين الأدب ويتبارون في الشعر والنحو، والطب، نرى أن الغزو المغولي، قد وضع حدًّا للحياة العقلية في هذه البلاد بوجه خاص، وفي أواسط آسيا بوجه عام، وإلى الآن لم تقعد بخارى وسمرقند ما كان لهما من آثار ثقافية قبل الغزو المغولي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد شرذمة من الأتراك[٣].

كذلك نرى أن اللغة العربية قد فقدت تلك المكانة التي تمتعت بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية، وخاصة بعد سقوط

---

[١] (نفس المرجع ص ٢٦٤).

[2] Brown: A Literary History of Persia Vol. I P 442.

[3] Vambery: History of Bukhara P 128.

بغداد ومايقال عن اللغة العربية يقال أيضًا عن اللغة الفارسية[١].

وإذا كان الغزو المغولي قد نتج عن ذلك الركود العلمي والأدبي، فقد كان ذلك ركودًا مؤقتا إذ أن النشاط في هذين الميدانين لم يلبث أن عاد بعد أن بدأ المغول يستقرون في البلاد التي فتحوها، ويرجع ذلك إلى بعض المؤلفات العلمية قد نجت اتفاقًا من أيدي المغول، وخاصة ما كان فيها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية، ثم إن المغول بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية، أخذوا يتقبلون آراء المسلمين، وأفكارهم. ورغبوا تدريجيًّا في اعتناق المدنية الإسلامية والفارسية، فبرز الكثيرون من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم.

ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو نصير الدين الطوسي الذي امتاز بأبحاثه في علم الفلك فشجَّعه المغول وأسَّس له مرصدًا كبيرًا في مدينة مراغة سمي باسم «المرصد الإيلخانية»[٢].

وقد امتاز نصير الدين الطوسي فوق ما تقدم بمؤلفاته في الحساب، والجبر، والهندسة، والفلك، والطبيعة، والحكمة، والأخلاق، وآلات الرصد، كما اشتهر بترجمة كثير من كتب اليونان في مختلف العلوم.

ومنهم الجويني الذي أسبغ المغول على أفرادها من عطف، فكان لهذه الأسرة قصب السبق في نشر العلوم والمعارف، إذ برز منهم كثيرون أهمهم علاء الدين عطا ملك الجويني مؤلف كتاب «تاريخ جهان كشاي» وهو في ثلاث مجلدات، بحث فيها تاريخ المغول منذ نشأتهم حتى سنة ٥٦٦هـ = ١٣٥٧م أي إلى نهاية عهد مانجوخان. ومن المؤلفين الذين ظهروا في عصر مغول فارس أيضًا رشيد الدين

---

[١] (ص ٣٦٦).
[٢] دكتور رضا: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٨٧–١٨٨.

فضل الله الهمذاني، وكان من المقربين إلى كل من أبا قاغان وغازان وأولجايتوغان. وقد ألَّف هذا الرجل كتاب «جامع التواريخ» ويقع في مجلدين كبيرين، تكلم فيهما عن تاريخ المغول منذ عصر جنكيزخان حتى أولجايتوه[١].

ومن الأمور الهامة التي نتجت عن غزو المغول للبلاد الإسلامية، انتشار اللغة الفارسية خارج بلاد فارس، ويرجع ذلك إلى تشتيت المغول للعلماء والأدباء والشعراء مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى، فنشروا بهذه الوسيلة اللغة الفارسية في هذه البلاد. أما من ناحية الأدب الفارسي نفسه في عصر المغول، فنرى النثر تغلبب عليه الصنعة والتكلف وشغل عدد من الكتاب بالألفاظ، وأدَّوا ما يرغبون في استعارات ومجاز وكتابة وأطناب، وترسموا العبارات الغريبة واستعمال الحشود والتشبيهات المستحيلة والمبالغات التي لا محل لها، حتى الأسلوب التاريخي نفسه لم ينج من ذلك، فقد كانوا يؤدون الأفكار اليسيرة في صحائف طويلة بعبارات ثقيلة[٢]. أما الشعر ظهرت فيه معاني التصوف وكثر الشعراء الصوفيون.

لم تكن الديانة الإسلامية بالديانة الجديدة على أهالي شرق آسيا بوجه عام وعلى المغول بوجه خاص، فقد وصل المسلمون إلى أقصى آسيا الشرقية للتجارة مع أهلها، ونجحوا في تأسيس جاليات عربية إسلامية لهم هناك، وقد زاد عددهم في البلاد الصينية بعد تأسيس الدولة العباسية. وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقات بين حكام الصينيين وخلفاء بني عباس، وازداد عدد المسلمين في بلاد الصين تبع لذلك، وخاصة بعد أن تزوج هؤلاء المسلمين من نساء صينيات.

---

[١] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: رشيد الدين الهمذاني.

[٢] رضا زاده: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٣٤.

على أن عدد المسلمين قد زاد في شرق آسيا على غزوات المغول وحملاتهم على غرب هذه القارة، فقد صحب جنكيزخان معه إلى بلاد المشرق الأقصى بعد إخضاع الدولة الخوارزمية، عدد كبير من أصحاب الحرف والمهن للاستعانة بهم وبخبرتهم في بلاده، وأدَّى ذلك بطبيعة الحال إلى تقوية الجاليات الإسلامية في بلاد المشرق الأقصى وبالتالي إلى ازدياد انتشار الإسلام فيها عمَّا كان عليه الحال قبل الغزو، ومما ساعد على تفوق الديانة الإسلامية على منافستها المسيحية في شرق آسيا، تفوَّق المسلمين في ميدان المنافسة التجارية، وليس هناك من شك في أن انتشار العقائد الدينية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعلاقات التجارية، فإن التجار المسلمين كانوا يعملون على نشر الإسلام أينما حلوا، ولذلك انتشر الإسلام في الشرق في مدة وجيزة، ووصل إلى البلاد التي كان ينتشر فيها البوذيون ديانتهم.

وأيضًا أخذ الأدب التركي في عهد الإيلخانيين ينهض بنشاط ناشئ، فنبغ منذ عهد هولاكو طائفة كبيرة من طلائع الشعراء في الأدب التركي أمثال السكاكي[١] وحيدر الخوارزمي والعطائي واليقيني والأميري وكدايي وغيرهم. تبعهم أمير على شير نوايي وبابور وغيرهم[٢].

---

[١] هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السَّكَّاكي الحنفي. ولد سنة ٥٥٥ هـ في مدينة آلماليغ الواقعة في شمال تركستان الشرقية، وتوفى في آلماليغ في سنة ٦٢٦ هـ. الزركلي، ٨/ ٢٢٢.

[٢] علي شير نوايي: محاكمة اللغتين، إستانبول ١٣١٥هـ ص ١٠٠.

الإسلام في تركستان

لقد شاء الله – تعالى أن يكون نصيب تركستان إشراق نور الإسلام في أرجائها، وسطوع ضوء الإيمان تحت سمائها، ووصول عبير القرآن إلى أبنائها، لتكون ركنًا في صرح التاريخ الإسلامي متصلاً ببنائها، وكان ذلك فضلاً من الله عليها، ونعمةً منه وأصليةً إليها، استمرت على تعاقب أجيالها وتوالي الأيام في بكورها وأصالها، حتى قامت هذه الأمة بواجبها نحو الرسالة السَّماوية العليا.

وبعد أن رسخت قواعد الإسلام في بلاد تركستان رأى التركستانيون أنهم أمام دين جديد، قوامه التعاون والتعاطف، والتراحم وإقامة شريعة الله على السواء بين الجميع لا يرتفع كبير على صغير. ولا يستطيل غني على فقير ولا فضل لعربي على عجمي، وتبيَّن لهم أن هؤلاء الغزاة لم يتقدموا للاغتنام والغلب، وإحراز كنوز الفضة والذهب والتعالي والاستكبار في الأرض، وإنما جاؤوا لنشر رسالة التوحيد؛ ورد مخلوقات الله إلى الله؛ وإقامة العدل بالقسطاس المستقيم بين الغالب والمغلوب.

وأتراك تركستان ما كادوا يتبينون حقيقة الإسلام حتى أقبلوا إليه طائعين، ومدُّوا أيديهم إليه مختارين ودخلوا في دين الله أفواجًا، وأقبلوا على الإسلام زرافات ووحدانًا، فدرسوا الكتب الدينية، وتعمقوا في البحث عن الإسلام ودلائله الواضحة وحججه القاطعة، وجواهر حكمه وبدائع مواعظه وجوامع كَلِمه وأيقنوا أن في هذا

الدين تنظيم أمورهم، وإصلاح نفوسهم ورقي شعوبهم وإنه دين العقل، ودين الفطرة ودين المروءة ودين المساواة ودين السعادة وتاج الأديان.

ولقد نال هذه الأتراك الحظوة الخطيرة في عهد العباسيين واشتغلوا بترقية شؤون الدولة ومد نفوذها، فأصبح المرجع إليهم في كل الأمور، حتى صار أغلبية الوزراء، والوكلاء، وقواد الجيوش من أبناء تركستان. وكان الخلفاء يحبون الأتراك حبًّا جمًّا ويقدرونهم جدًّا. ومدحهم كثير من الشعراء وأثنوا عليهم وكتب بعضهم رسائل مستقلة عن مناقب الأتراك وفضائلهم.

ولما أصبح للأتراك الحكم المطلق في بغدد كانوا يتولون أيضًا كثيرًا من البلاد والولايات، واستقل بعضهم حين بدا الانقسام والضعف في الدولة العباسية كالدولة السامانية في تركستان، والدولة الطولونية والإخشيدية في مصر والشام. فلما رأى غير المسلمين من الأتراك نجاح مواطينهم من أبناء جلدتهم، نهضوا من رقدتهم، واستيقظوا من سباتهم وبدأوا يدخلون في دين الله أفواجًا بمحض إرادتهم.

جهود الأتراك في نشر الإسلام

استطاعت الدولة السامانية التي تأسست في المقاطعات الغربية من بلاد التركستان والدولة الخاقانية التي ظهرت في شرقها أن تعمل كل منهما على انتشار الإسلام بين من لم يسلموا من الأتراك، فدخلوا في دين الله زرافات ووحدانًا، وانتشر الإسلام في القرن العاشر الميلادي فيما وراء سيحون وكاشغر، وبدأ انتشاره بين قبائل أوغوز وقارلوق من قبائل الأتراك، فأسلم في سنة ١٠٤٨م (٣٥٠هـ) مائتا

ألف أسرة في يوم واحد بين تاشكند وفاراب، فعدد الذين أسلموا في هذه المرة نحو مليون نفس، وكذلك أسلم سنة ٤٣٥هـ عشرة آلاف أسرة من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة باحتفال مهيب، ضحوا فيه عشرين ألف رأس غنم[١].

وبعد أن بدأ الانقسام في الدولة العباسية أسس الأتراك في مصر والشام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية. وفي تركستان نفسها الدولة السامانية وفي شرقها الدولة الخاقانية وفي جنوبها وبلاد الأفغان والهند الدولة الغزنوية، ثم اتحد تحت الراية السلجوقية الكبرى كل البلاد التي كانت تحكمها الدولة العباسية - عدا مصر والهند. وفضلاً عن ذلك ضمت بلاد الأناضول إلى الدولة، ثم على إثر انقسامها تأسست عدة دويلات تركية في البلاد التي حكمها السلاجقة، في إيران والعراق وسوريا والأناضول وغيرها[٢].

وعاش في ظل الإسلام: الدولة الخوارزمية، ثم الدولة التيمورية الكبرى وبقية الإمارات التي تأسست في تركستان بعد انقسامها وخدمت الإسلام حتى لم يبق فرد من الأتراك في تركستان يتدين بغير الإسلام. وما كاد الأتراك في تركستان يعتنقون شريعة التوحيد وتتغلغل أصولها في المشاعر والألباب نهضوا ينشروا الدعوة وأقاموا من أنفسهم غزاة فاتحين ودعاة مخلصين يعملون على إعلاء كلمة الإسلام ماوسعهم الجهاد واتسعت لهم رقعة الأرض.

لم تنحصر جهود المسلمين الأتراك في هذا الميدان وحده، ولكنهم رفعوا لواء الإسلام عاليًّا عند إخوانهم من أتراك (البلغار) وسواحل نهر فولجا (أثيل). ومن تتبع تاريخ نشر الإسلام في بولندا

---

[١] جنكيزخان، قلب آسيا، ٣٨.

[٢] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٣٨.

وفنلنـدا وإسـتونيا وسـائر الممالـك البلطيقيـة وغيرهـا تعـرف مبلـغ المجهـودات الباهـرة التـي بذلهـا أولئـك المؤمنـون الصادقـون مـن أبنـاء تركسـتان، الذيـن جعلـوا نشـر الديـن فـي أول الواجبـات وفـي مقدمـة الأعمال الخالدة التي بذلوها[١].

ولـم يكـد الإسلام بكتابه وسـنته يسـكن بلاد تركسـتان، وتنبثـق أشـعته الإلهيـة فـي قلـوب أبنائهـا حتـى أقبلـوا علـى الـدرس والتحصيـل واندفعـوا للبحـث والاسـتقصاء، وأقامـوا مـن أنفسـهم قـادة، وحملـة للـواء العلـم والثقافـة فيهمـا. ولعـلَّ المطلعيـن علـى أبسـط مراجـع التاريـخ يعلمـون قمـة الجهـود التي بذلهـا الأتـراك فـي خدمـة الإسلام، وكيـف كانـت لهـم القـدم الراسـخة فـي جيـش الجهـاد فـي سـبيل اللـه، ومحاربـة الوثنيـة والصليبيـة، وحمايـة هـذه الملـك العظيـم ضـد أعدائـه مـن الشـرق والغرب[٢].

أسرة خواجات في تركستان الشرقية

وأمـا تركسـتان الشـرقية فكانـت أحـد أقسـام الإمبراطوريـة التيموريـة الكبـرى، ولمـاًّ تفرقـت أجـزاء الإمبراطوريـة اسـتقل أمـراء جغتـاي بالبلاد، وكانـت عاصمتهـم كاشـغر أو أقصـو فـي بعـض الأحيـان. وفـي عهـد أمـراء جغتـاي تقـدم العلـوم والفنـون والصناعـات وسـادت الـروح الدينية، كمـا ازداد نفـوذ العلمـاء وبـدأوا يتدخلـون فـي شـئون الدولـة وسياسـتها. ومنـذ ذلـك الحيـن بـدأ نفـوذ الأمـراء يتضـاؤل حتـى ضعفـت سـلطة الخواقين وتحللت قواهم[٣].

---

[١] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٤٠.
[٢] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٤١.
[٣] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ٩٩-١٠٠.

وفـي العهـد الأخيـر ظهـر مسـرح السياسـة اسـم «مخـدوم أعظـم» رئيس الفقهاء وكبير العلماء في تركستان الشرقية وكثر أتباعه، حتى كاد نفوذه يطغى على نفوذ الخاقان في ميدان السياسة والرياسة. وكان لـه إبنـان: خواجـة إسـحاق ولـي وخواجـة محمـد أميـن. واشـتهر لقـب الأخير بإمام كلان (الإمام الكبير) فوقع بينهما بعد أبيهما نزاع سياسي حول وراثة المكانة التي كانت لأبيهما فاستنجد كل منهما بمن انضم إليه من العشائر والأتباع. ونشأ عن ذلك قيام حزبين فسمي حزب إسحاق (قـارا طاغليـق) أي طائفـة الجبـل الأسـود، كمـا أطلـق علـى الحزب الآخـر اسـم (آق طاغليـق)، أي: طائفـة الجبـل الأبيـض. ولعـب دوراً سياسـيًّا هامًّـا، فاضطـر الملـك إسـماعيل خـان إلـى إقصائـه مـن البلاد (٩٠٨هـ). واستنجد أفاق خواجة بنفوذ «دالاي لامـا» الخامس حاكـم تبـت الكهنوتـي فكتـب هـو بـدوره إلـى غالـدان قونتاجـي، رئيس القلامقـة فـي إيلـى، يوصيـه بمسـاعدته، قبـل التوصيـة وأرسـل جيشًـا تحت قيادة أفاق خواجه، فنازل به الملك إسماعيل خان وتغلب عليه وقامـت فـي تركسـتان الشـرقية حكومـة خواجـات (حكومـة طائفـة الصوفية) سنة ١٦٨٦م.

وعلـى إثـر قيامهـا اندلعـت نـار الحـرب الداخليـة بيـن الحزبيـن. بيـن الخواجات من جهة وبين القلامقة (قبيلة من مغول) من جهة أخرى وأتاحت هذه الحروب والانقسامات الأهلية فرصة سانحة للصينيين. وإذ ذاك أي في سنة ١٧٥٧م تم احتلال الجزء الشمالي من تركستان الشرقية بقيادة قائد الجيش الصيني جى-زاو-خوي وقضوا على حياة مليون من السكان. وقد أعدموا برهان الدين وشقيقه جهانغير خان في كاشغر.

وبعد نضال عنيف ومقاومة شديدة دامت سنتين ونيف، تحررت

البلاد وتأسست في تركستان الشرقية أربع إمارات وطنية في إيلي وكوجار وختن وكاشغر سوى أورمجي التي كانت في أيدي التونغانيين (مسلمي الصين)، كما كان بعض المدن لايزال في أيدي الصينيين غير المسلمين.

وكان هذا الانقسام وكثرة الدويلات وبقاء بعض المدن في أيدي الصينيين مما يلقي الحزن في قلوب بعض الزعماء، ولم يكن من الممكن توحيد دولتهم إلا بأن يتبوأ العرش أحد أحفاد ملوكهم السابقين وورثة الملك الشرعيين. وكان الأمير بزرك خان توره بن الملك جهانغيرخان نزيلاً عند الأمير عالم قلي في فرغانة، فاتفق الزعماء مع صديق بيك حاكم كاشغر على أن يدعوه ويجلسوه على عرش أبيه، فأجلسه على عرش الدولة بعد أن دعوه في سنة ١٨٦٣م.

دولة يعقوب بيك

وقد جاء مع بزرك خان توره من فرغانة يعقوب بيك. وكان قد اشتهر في عدة حروب ضد روسيا وأظهر بسالة نادرة، فكانت حياته كلها سلسلة جهاد، فقلَّده الملك بزركخان قيادة الجيش العامة فاستمر يعقوب بيك في جهاده وتشتيت القوات الصينية. وقد أنقذ فعلاً يني شهر ويني حصار ومارالباشي وغيرها من أيدي الصينيين[١].

ولما رأى بزرك خان بسالة يعقوب خان النادرة وعبقريته الفذة قلَّده رياسة الدولة، كما أطلق عليه الأمير مظفر الدين خان أمير بخارى لقب «أتاليق غازي بدولت» ثم تنازل له بزرك خان عن الملك وسافر بنفسه لأداء فريضة الحج، وصار يعقوب بيك من ذلك اليوم أتاليق غازي يعقوب خان.

---

[١] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ١١٠.

بدأ يعقوب خان يدعو زملاء البلاد وأبناءها إلى العمل لمجد وطنهم ورفعة شأن بلادهم ويوقظ فيهم روح الحمية الوطنية والشعور بالعزة القومية، ويحث الأمة على نشر التعليم القومي لكي تقوي الروح الوطنية في نفوس الجيل الجديد، ويستعيد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد، وكان من نتائج دعوته وجهاده أن يتَّحد تركستان الشرقية تحت رايته طوعًا أو كرهًا، حتى تم ليعقوب خان النصر النهائي وطهَّر تركستان بمدنها ومعاقلها وشواطئها وجبالها من الصينيين ولم يبق فيها جندي واحد أجنبي.

وكان الشعب التركستاني يقدر يعقوب خان حق قدره ويحبه من جميع قلبه، وكانوا يعملون أنه هو الزعيم الوحيد الذي يرشدهم إلى الحياة السعيدة، ويخرجهم من الذلة إلى المجد ومن الظلمات إلى النور، ويقودهم في الدفاع عن كرامة الوطن وشرف الأمة.

ولما رفرف علم السكون والهدوء في أرجاء تركستان الشرقية بدأ يعقوب خان يعمل على توثيق عرى الصلات السياسية الخارجية بينه وبين الأمم عامة والشعوب الإسلامية خاصة، فأرسل سفراءه إلى تركيا العثمانية لمبايعة الخليفة السلطان عبد العزيز خان[١] وطلب من دار الخلافة ضباطًا أتراكًا ليدرِّبوا الجيش التركستاني، فأرسل الخليفة إليه عددًا من الضباط والأسلحة عن طريق الهند، واعترفت حكومة تركيا بحكومة تركستان الشرقية. وكان الروس قد أمضوا مع الصين معاهدة ينص على تقسيم التركستان فيما بينهم واعترفوا بسيادة الصين في

[١] عبد العزيز الأول (١٨٣٠ – ١٨٧٦) ابن السلطان محمود الثاني. هو خليفة المسلمين الرابع بعد المئة وسلطان العثمانيين الثاني والثلاثين والرابع والعشرين من آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة. ومكث في السلطة خمس عشرة عامًا حتى خلعه وزراؤه وسائر رجال الدولة في آخر مايو ١٨٧٦م. وتوفي بعدها بأربعة أيام وقيل انتحر وقيل أيضًا قد قتل. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط.٩. (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٢)، ص. ٥٣٢. محمد أبو عزة، عصر السلطان عبد الحميد، (دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٨)، ص.٤٦

تركستان الشرقية كما أن الصينيين أيضًا كانوا قد اعترفوا بسيادتهم في تركستان الغربية، لأجل هذا لم تعترف بتروجراد (الروس القيصرية) بحكومة يعقوب خان عدة سنوات، ولما رأت أن استقلال تركستان أصبح أمرًا واقعًا وأن حكومة يعقوب خان قوية منظمة اعترفت بها وأرسلت إلى كاشغر وزيرًا مفوضًا، وأرسلت كاشغر وزيرها المفوض مُلاًّ تراب إلى بتروجراد. واعترفت بها أيضًا حكومة بخارى وأرسل ملكها مظفر خان ولي عهده عبد الملك خان إلى كاشغر. وقد أرسل خديو مصر إسماعيل باشا مندوبًا خاصًّا إلى كاشغر سنة ١٢٨٩هـ، كما أرسل من مصر إلى كاشغر مدافع وبنادق عن طريق الهند تحت نظارة الضباط يوسف شركس ويوسف إسماعيل حقي بيك، كما جاء سفير تركستان الشرقية إلى مصر مزودا بأنفس التحف والهدايا إلى الخديو وفي مقدمتها مصحف مموه بالذهب الخالص، وقد حفظ هذا المصحف بين مخلدات الفن في متحف دار الكتب الملكية المصرية[١]. وكان أيضًا من أول عمله إرسال وفد يحمل معهم سجاجيد فاخرة إلى المسجد الحرام ومسجد الرسول عليه السلام، كما أمرهم بتشييد تكايا في الحجاز[٢].

ومن هذا العهد أمر يعقوب خان أن يذكر في خطب الجمعة اسم الخليفة عبد العزيز خان وأن يضرب النقود باسمه.

وكان الإنجليز ينظرون إلى حكومة يعقوب خان بعين العطف والصداقة، فقد كانوا يسمحون بنقل الأسلحة والضباط من تركيا إلى تركستان عن طريق الهند. وقد أرسل اللورد نورث بروك نائب المملكة في الهند في ذلك العهد وفدًا مؤلفًا من ثمانية أشخاص

[١] جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ١١٥.
[٢] محمد أمين إسلامي مقالته، التركستان الكبرى قلب آسيا، جريدة «البلاد» عدد ٤١٦ ٦٠-٦/٢٠.

تحت رياسة المستر (فورستيك) إلى كاشغر، فقدم سفير إنكلترا أوراق اعتماده إلى يعقوب خان على اسم جلالة الملك البريطانية، فأبرم بين الحكومتين معاهدة تجارية على أساس مساواة الحقوق.

وقد اعترفت حكومة أفغانستان أيضًا بحكومة تركستان الشرقية، وكان ملكها في ذلك العهد شير على خان[١].

استمر حكومة يعقوب خان من ١٢٧٠هـ إلى ١٢٨٤هـ (١٨٧٧م). وكان عهده عهد الرفاهية والسعادة للبلاد، وقد تقدمت الحياة العلمية والأدبية والاقتصادية المادية في عهده تقدمًا كبيرًا، حتى أن سفراء الإنجليز والروس الذين أرسلوا إلى كاشغر أظهروا دهشتهم من هذا التقدم السريع ومن انتظام حكومة يعقوب خان وجيشه.

ولم يقم يعقوب خان بالإصلاحات الحربية والسياسية فحسب، ولكن همته كانت أبعد من ذلك مدًى وأسنى مرامًا. فقد ابتنى المدارس والقصور وأبدع في تشييد العمارات الشامخة، وأصلح ما دمَّرته الحروب المتوالية وعاد العمران إلى البقاع التي تركت الغارات المتتابعة خرابًا بلقعا وقاعًا صفصفًا، فأعاد لها النضارة والجلال، وألقى عليها ظل البهجة والسرور. ومن أعظم شأنًا الجامع المشهور «عيدكاه» في كاشغر، وشيد كذلك قبة عالية على ضريح (هداية الله أفاق خواجة) مؤسس أسرة الخواجات، كما شيَّد هناك جامعة كبيرة وأقام قلعة في مدينة كورلا وعدة مساجد أخرى في آقصو وكوجار وبوكور وغيرها[٢]، وكذلك أنهار الري والقنوات العديدة في أضلاع البلاد المختلفة.

---

[١] هو شير علي خان (١٨٢٥ – ١٨٧٩ م) بن دوست محمد خان تولى إمارة أفغانستان مرتين مرة بعد وفاة والده دوست محمد خان، واستمر في الحكم لثلاث سنوات استولى بعدها أخوه محمد أفضل خان على السلطة، ولكن شير علي خان استعادها مرة أخرى.

[٢] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ١١٦–١١٧.

وقـد اعتـرف ساسـة العالـم بعظمـة يعقـوب خـان وبراعتـه السياسـية والخدمـات الكبـرى التـي أسـداها إلـى وطنـه. قـال السـائح الإنكليـزي هيـوارد الـذي زار يعقـوب خـان فـي شـهر فبرايـر سـنة ١٨٧٠م: لـو لـم تكـن آسـيا الوسـطى فـي حصـار ضيـق مـن عـدة دول أجنبيـة فـي عهـد يعقوب خان لكان هو جنكيزخان الثاني في فتوحاته.

وأيضًـا يقـر السـائح الإنكليـزي شـاو الـذي قابلـه بعـد هيـوارد بسـنة واحـدة بإعجابـه ودهشـته بمهـارة يعقـوب خـان وسياسـته وصـور المعجزة التي أظهرها في الحروب[١].

وقـد قـام يعقـوب خـان فجـأة فـي أول أيـام الحـرب الـذي قـام بينـه وبيـن الصينييـن (١٧ مايـو سـنة ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وبذلـك سـقطت حكومتـه التـي كانـت تعتبـر حكومـة مثاليـة قـد ازدهـرت فـي عهـده تركسـتان الشرقية[٢].

الأسرة الشيبانية في تركستان

وهـم أكبـر أسـرة قامـت علـى أنقـاض الدولـة التيموريـة الكبـرى فـي تركستان، ينتمـي نسـبها إلـى الأميـر شـيبان المغولـي أخ باطوخـان الـذي كان حاكمًـا لـبلاد مجـر مـن قبلـه، وذلـك بعـد أن اسـتولى عليهـا حوالـي سـنة ١٢٤٠م.

أخـذت الأسـرة الشـيبانية تحكـم قسـمًا كبيـرًا مـن بلاد تركسـتان بأبـي الفتـح محمـد شـاه بيـك (شـيبك) مـن قبيلـة أوزبـك، وحفيـد أبـي الخيـر خـان حوالـي سـنة ٩٠٥هـ = ١٥٠٠م مؤسسـها بعـد أن اسـتولى هـو علـى ماوراء النهر وأخذ سمرقند عاصمته.

---

[١] جنكيزخان، قلب آسيا، ١١٧.
[٢] جنكيزخان، قلب آسيا، ص ١١٧.

وقـد اشـتهر هـو وأخلافـه عبيـد اللـه بـن محمـود، وعبـد اللـه خـان الثانـي[1] بـن إسكندر بغزواتـه وخدماتـه وآثـاره في حقـول الثقافـة والعمـران وغيرهـا. وكان عبـد المؤمـن خـان ثـم بيـر محمـد خـان آخـر أفـراد الأسـرة، وقتـل الأخيـر بيـد باقـي محمـد خـان مؤسـس الأسـرة الإسـتراخانية الجديـدة التي أخذت محلها بعده. وكان ذلك سنة ١٥٥٧ - ١٥٩٩م.

وقـد حكـم فـرع مـن هـذه الأسـرة باسـم بنـي يـادكار أو أسـرة يـادكار فـي خـوارزم التـي أسسـت فيهـا سـنة ٩١١هـ = ١٥٠٥، وفـرع آخـر أي أسـرة بيـك قونـدو فـي قازاقسـتان الغربـي الشـمالي، وباشـقريا التـي تعرف باسـم خانـات سـابيريا والتـي اسـتمر حكمهـا إلـى نهايـة القـرن السـابع عشر الميلادي.

وكان أبـو الفتـح محمـد خـان شـيبك آخـر إمبراطـور تركسـتان الـذي اجتهـد فـي بنـاء إمبراطوريـة عظيمـة فـي آسـيا الوسـطى علـى طـراز إمبراطوريـة تيموريـة هـزم القبجـاق والقـزاق وفتـح خـوارزم وغيرهـا مـن مقاطعـات تركسـتان الهامـة والمتشـتتة، فوسـع رقعـة مملكتـه مـن خـوارزم إلـى خراسـان (هـرات) وفـي عهـده انتهـت سـلطة الأزابكـة وشـوكتها إلـى أقصـى حدهـا مـن المجـد والعظمـة. وهـو الـذي لقـي بابـر الهزيمـة الفادحـة بيده في سمرقند وموضع سربل فاضطر أن ينسحب إلى كابل.

شاهبيك - العلم والعلماء

وكان شـاهي بيـك أميـرا عالمًـا محبـا للعلـم والعلمـاء، شـاعرًا وأديبًـا

[1] عبـد الله خـان (١٥٣٣-١٥٩٨)، المعروف باسـم «الخان القـديم»، كان حاكـم أوزبكـي لخانيـة بخـارى (١٥٠٠-١٧٨٥). كان آخر خان شيباني من بخارى، حكم من عام ١٥٨٣ حتى وفاته. بدأ عبد الله خان حربًا مع بلاد فـارس استمرت من عام ١٥٨٧ إلى عام ١٥٩٨. وتمكن من التركيز على ذلك بفضـل اتفـاق عـدم اعتـداء مـع الإمبراطـور المغـولي، أكبر، والـذي اعترف عبـد الله خـان مـن خلالـه بحـق أكبر في الحكم في إقليم كابول.

في اللغات الفارسية والتركية وعالمًا للغة العربية، وله متجر خاص في الجهات، كان يلقي الدروس فيها. وكان فنانًا يصحح آثار الفنانيين ويشجِّعهم كما يشجِّع ويساعد الأدباء والعلماء ويقدر منزلتهم. وكان ملا بنائي شاعر بلاطه الرسمي، وينقاد لهم كإنقاد الطفل لأبيه. وهو ينشد الشعر في اللغة الفارسية والتركية، وكان يتخلص في الشعر الشيباني. وقد نقد بابر أشعاره، ولكن بالرغم من ذلك تعدُّ أشعاره من حيث اللغة والتخيلات الشعرية أنموذجة عالية ومتكاملة للأدب التركي الشرقي.

وكان حبه للعلم وعلماء الدين إلى درجة أنه إذا خرج للغزوات كان طائفة من العلماء يرافقون له ومعهم كتبخانة صغيرة. وكان شأنه في هذا الخصوص كشأن تيمور، كما أن تيمور ناقش مع علماء دمشق وحلب المسائل الدينية وغيرها، كذلك ناقش محمد خان شيبك مع القاضي اختيار الدين ومولانا محمد يوسف من مفسري هرات في تفسير بعض آيات القرآن. التف حوله كثير من العلماء والفضلاء الذين شتَّت شملهم بعد موت سلطان ميرزا حسين بايقرا وهو قربهم من بلاطه بحماية وعين لهم الرواتب من جديد.

منشآته:

وهو بنى في بخارى وسمرقند وتاشكند وغيرها عدة مدارس والمساجد والجوامع. قتل في معركة مرو بيد شاه إسماعيل الصفوي الذي أخذ جمجمة رأسه يشرب فيه الخمر.

عبيدالله

ثم من اشتهر من أفراد الأسرة بعد شاهبيك كان عبيد الله ابن محمود سلطان أخ شيبك خان الشيباني. تولي العرش في سمرقند سنة ٩١٨هـ ١٥١٢م بعد أن لقي بابر هزيمته الفادحة الأخيرة. وكان

هـو الرابـع مـن الأسـرة الشـيبانية توفـي سـنة ٩٤٦هـ = ١٥٣٦م وهـو ابـن ستة وخمسـين سـنة، وكان أميـرًا بـاسلاً وهـو غـزى إيـران وخراسـان ستة مرات.

ويقـول ميـرزا حيـدر دوغلات فـي مآثـره: إننـي مارأيـت منـذ مائـة سـنة أميـراً وسـلطانًا عظـم شـأنه وفـاق أقرانـه كعبيـد اللـه، وكان هـو قبـل كل شـئ مسـلمًا صادقًـا بأهـداب الديـن، ظـلَّ يدبـر شـئون الديـن والدولـة وشـئون جنـده ورعايـاه وفقًـا علـى أحـكام الشـريعة، لا يتعـدى منـه قـدر شـعر. وكان عالمًـا فـاضلاً وماهـراً فـي الخـط يجيـد سـبعة أسـاليب منـه، ولا سـيَّما أسـلوب النسـخ والتعليقـى، ومهارتـه فـي النسـخ تفـوق سـائر الأسـاليب فـي الإجـادة والإتقـان. وهـو نسـخ عـدة نسـخ بيـده مـن القـرآن الكريـم فاتخذوهـا إلـى مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة. وكان هـو فـي نفـس الوقـت ماهـراً فـي الفـن الموسـيقي، وهـو وضـع عـدة ألحـان خاصـة فـي الموسـيقي التـي شـاعت وعمَّـت بيـن الموسـيقيين والمطربيـن، وهـم كانـوا متمرنميـن بغنائهـا إلـى عهـد قريـب. وكان متذوقًـا للشـعر والأدب يحفـظ معـه دائمًـا دواويـن الأشـعار فـي اللغـات التركيـة العربية والفارسـية وبالجملـة كان بخـارى فـي عهـده أكبـر مركـز زاهـر بالنشـاط الفنـي والعلمي كما كانت هرات في عهد ميرزا سلطان حسين بايقرا[١].

عبد اللّه خان أزبك

ثـم مـن أكبـر أمـراء الأسـرة الشـيبانية وأشـهرها كان عبـد اللـه خـان أزبـك بـن إسـكندرخان بـن جانـي بـك بـن خواجـة محمـد بـن أبـي الخيـر. وكان عهـده آخـر عهـد زاهـر فـي تاريخ تركسـتان. ولـد عـام ٩٤٠هـ = ١٥٣٣م في أفريـن كنـت مـن مضافـات زرفشـان. أثبـت بسـالته فـي الثانـي عشـر مـن

[١] ميرزا حيدر، تاريخ رشيدي، ص ٢٨٣.

عمـره بـرد حـملات نـوروز أحمـد خـان تاشـكند وعبـد اللطيـف حاكـم سـمرقند. وهـو كان أيضًـا ناجحًـا في رد حـملات بابرخـان بـن لـوراق خـان المكـررة علـى سـمرقند فـي معركـة حاسـمة فـي آق تـاغ قـرب سـمرقند. هكـذا أوسـع هـو رقعـة أبيـه إسـكندرخان التـي كانـت محـدودة علـى أفرنيكنـت وكرمينيـة، غربًـا إلـى بخـارى وإلـى قـرش وشـهر سـبز فـي الجنـوب الشـرقي، فاتخـذ بخـارى عاصمتـه بعـد أن فتحهـا سـنة ٩٦٤هـ ١٥٥٧م لآخـر مـرة، وكان ذلـك بعـد أن مـات غريمـه القـوي نـوروز أحمـد خـان أميـر تاشـكند وخـان الأزابكـة وبعـد أن عـزل عمـه بيـر محمـد خـان. حكـم أربعيـن سـنة كنائـب الملـك لأبيـه أولاً ثـم مسـتقلاً. وهـو تولـى العـرش بعـد مـوت أبيـه سـنة ٩٩١هـ = ١٥٨٣م. وهـو فتـح كملـك مسـتقل وسـمرقند وتاشـكند وفرغانـة وغيرهـا مـن الأقطـار الواقعـة فـي شـمال نهـر سـيحون ونواحـي ألـغ تـاغ، ثـم خازسـتان وبدخشـان فـي الجنـوب الشـرقي وخراسـان وجـيلان وخـورزم فـي الغـرب. وهـو حـارب مـع شـاه طهماسـب[١]. فتـح سـنة هـرات ومشـهد وسـرخس ومـرو وخـاف وجـام وخوشـنك وغـور وغيرهـا، فأغـار تركسـتان الشـرقية فاسـتولى علـى كاشـغر وياركند حتى وسعت رقعته إلى ختن، وغزى عدة غزوات أخرى هامة.

توفـي فـي سـمرقند سـنة ١٠٠٦هـ - ١٥٩٨ وهـو فـي طريقـه لحملـة تأديبيـة ضـد عـدوه الـذي كان يهـدد مملكتـه استغلالا الفرصـة الناشـئة مـن النزاع الذي نشب بينه وبين ابنه الوحيد عبد المؤمن في آخر أيامه.

وهـو اهتـم لضمـان الخيـر والرفـاه فـي مملكتـه حتـى كان رعايـاه يخاطبونـه «مربـي الشـعب». وهـو أول أميـر تركسـتاني دعـي عقـد مؤتمـر إسلامـي لأجـل التأليـف بيـن أهـل السـنة وأهـل الشـيعة التـي كانـت منشـأ

[١] طهماسب الأول، هو أحد شاهات إيران الصفويين الأقوياء كان خلفاً لأبيه إسماعيل الأول ولد في ٢٢ فبراير/شباط عام ١٥١٤م وتوفي في ١٤ أيار/مايو عام ١٥٧٦م كانت والدته تدعى شاه–بيكي خانم وهي تركمانية الأصل.

النـزاع الدائـم بينهـم، ولكـن بلا جـدوى. وكان الأميـر الثانـي نادرشـاه الذي عقد مؤتمرًا إسلاميا في بغداد لهذا الغرض بعد مائة سنة[١].

أعماله ومآثره

ولـو أن عهـده كان عهـد مؤامـرات ومغامـرات داخليـة وغـزوات متوالية ولكنـه بالرغـم مـن ذلـك اسـتطاع أن يهتـم للأمـور العمرانيـة والمدنيـة بدرجـة لـم يسبق فـي عهـد مـن عهـود أفـراد الأسـرة الشـيبانية. وقـد ازدهـر فـي الـبلاد بسـبب تشـجيعه وحمايتـه التجـارة والزراعـة والعلـوم والفنـون والنشـاط العمرانـي والمدنـي، حتـى يقـال أنـه قـد بلـغ عـدد مـا أنشـأ مـن المسـاجد والمـدارس والحمامـات والمستشـفيات والمسـافرخانات والأربطـة والجسـور ومخـازن الميـاه وغيرهـا مـن المؤسسـات العموميـة والرفاهية في النصف الأول من عهده واحدًا وألفًا.

وبالحـق أن كثيـرًا مـن الآثـار التـي بقيـت مـن عهـد الشـيبانيين يعـود الفضـل فيهـا خاصـة إلـى عهـد عبـد اللـه الزاهـر الـذي ازدهـر فيـه العلـوم الدينيـة والتصوفيـة بنشـاط كبيـر خاصـة والـذي أدىَّ إلـى إنشـاء المسـاجد والخانقـاوات والكليـات والمـدارس الدينيـة والضرائـح الكثيـرة. ومـن أهـم إنشـاءاته كان مدرسـة عبـد اللـه خـان كتبـت فيهـا أيـات القـرآن جليـة علـى قطعـات طويلـة وملونـة مـن الألـواح البـارزة يمكـن قرائتهـا مـن المساقات البعيدة.

وهـو بنى أيضًـا جامعًـا (مسـجدا) فـي بلـخ يسـمى «المسـجد الأخضر» الـذي يوجـد الآن فـي قصبـة أو قريـة بلـخ الحاليـة، وهـو أحـد البنائيـن الأثريـن الذيـن بناهمـا فـي تلـك المدينـة السلاطيـن التركيـة (الأسـرة الأزبكيـة) فـي القـرن السـادس عشـر والثانـي ضريـح خواجـه أبـي نصـر بارسـا مـن مشـايخ ومتصوفـي القـرن السـادس عشـر. وبنـى سـعيد سـبحان

---

[١] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٣٦٠. دائرة معارف الإسلامية، مادة: عبد الله.

قلي خان (توفي ١٧٠٢م) مدرسة فاخرة في بلخ بقي عادياتها عقد (قبوة).

ومنها جهار باغ في بخارى ومنتزهات عمومية في سمرقند وكرمان ومشهد وغيرها ومسافرخانات. وأيضًا من أكبر أعماله العمرانية كان سوق تجاري الذي تم إنشاءه سنة ٩٩٥هـ - ١٥٨٢م، وكان يعد من أبهت الأسواق روعةً وإتقانًا، وجسر كبير أنشأه على نهر زرفشان وله أربعة بروج على زواياه الأربعة.

وهو اهتم لتحسين وسائل المناقلات والمواصلات أحسن تنسيق، حيث أنشأت مكاتب البريد المنظمة على الطرق في أرجاء جيحون البعيدة ونصبت علامات الفرسخ، الأمر الذي أدَّى إلى الرفاه العام وازدهار الحياة اليومية بالنشاط والأمن والسلام إلى درجة لم يسبق نظيرها من قبل.

ولذلك لا يعجب إذا ذاع صيته في أكناف العالم فيزوره سفير الصين بالتحائف لتوثيق العلاقات الودية بينه وبين مملكته، كما هرع له سفير السلطان مراد الثالث لفرض عقد الاتفاق معه وجاءه سفير كريميا لتبريك فتوحه[١].

وحسبنا أن نقول أن عهد عبد الله آخر عهد زاهر إسلامي في صعيد تركستان، الذي ما زال ازدهر في غضون عهود غابرة يتجلى حينًا بكامل أبهته وروعته ثم يكاد يفل حينا فذرهم البلاد ويتركها بيداء.

أبو الغازي بهادرخان

وإذا ذكرنا الأسرة الشيبانية وأمرائها وهنا أن لا ننسي أبي الغازي

---

[١] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٣٧٠.

بهادرخان الذي كان من أشهر أفراد هذه الأسرة الحاكمة في خوارزم والتي أخذت محلها الأسرة القونغرانية التركية متأخرًا سنة ١٠٩٩هـ= ١٦٨٨م بعد موت أرنك، حكم بلاد خوارزم هو وأبناءه أنوشرخان وخداداد ومحمد أرنك.

وكان أبو الغازي حاكمًا عالمًا ومؤرخًا اجتهد في رفاه مملكته وتشجيع النشاط العلمي. وله مؤلفتان قيمتان في تاريخ الأتراك وهما «شجرة التراكمة» و «شجرة الأتراك» اللتان تعدّان من أهم المراجع في تاريخ الأتراك والمغول وقد ترجمتا إلى عدة لغات أوربية[١]. يعتمد عليها المؤرخون والمستشرقون في درس تاريخ الأتراك كمرجع أصلي هام. وتنسب إليه عدة آثار عمرانية منها نهر شاه آباد الذي حضره في مشهد بعد فتحه.

العلم والثقافة في عهد الشيبانيين

وقد ازدهر في عهد الشيبانيين ولا سيَّما العلوم الدينية والتصوفية، كما في عهد المماليك في الهند. فكثر علماء الدين وكبار الصوفية. ومن أشهر رجال الصوفية الذين عاشوا في ذلك العهد كان مخدوم أعظم المعروف بمولانا خواجه الكاساني، وهو تلميذ خواجه أحرار الولي المشهور التركستاني. وكان مخدوم أعظم يكرم ويحترم كولي صاحب كرامات مات سنة ٩٩٤هـ = ١٥٤٢م في سمرقند وضريحه في « ده بير» مأمل الزائرين من عامة الناس.

ومخدوم أعظم هذا هو الذي حكمت أسرته باسم أسرة الخوجوات في تركستان الشرقية حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر. ومن أشهر أفراد هذه الأسرة هداية الله آفاق خوجه وضريحه الفاخر الذي

---

[١] بارتولد، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الشيباني.

بناه يعقوب بيك الشهر في خارج بلدة كاشغر مأمل الزائرين من المسلمين. وقد حوله الشيوعيون منذ احتلالهم البلاد سنة ١٩٤٩ إلى الكلية الموسيقية حين أشهروا آفاق خوجة كأجنبي غاصب محتال.

وشيخ عزيزان تلميذ شيخ خداداد وكان وليًّا عالمًا بالتصوف اشتهر بتقواه مات سنة ٩٦٩هـ = ١٥٨١م.

ومن العلماء مولانا إسلام الدين خلف عرب شاه، وكان يعيش أولاً في بلاط السلطان حسين ميرزا في هرات ثم رحل إلى بخارى. وكان مقربا من عبيد الله الذي شجع الشعراء وكان نفسه شاعراً وكان يناقش معه الأشعار.

وكان إسلام الدين عالمًا كبيراً وله عدة مؤلفات هامة، منها حاشية لـ «تفسير القاضي البيضاوي» وحاشية أخرى لـ «تفسير جامى»، مات سنة ٩٤٣هـ = ١٥٣٦م في سمرقند.

ومنهم مولانا صادق الذي كان عالمًا مفسرًا وضع عدة حواشي لبعض كتب دينية هامة وجمع مجموعة من الأشعار. وهو رحل في آخر حياته إلى كابل وعاش ملتزمًا بلاط الأمير حكيم حاكم كابل مات فيها سنة ١٠٠٧هـ - ١٥٩٧م.

وأيضًا ملا ضياء الدين، وكان عالمًا للعلوم الدينية وفروعها وممن امتاز في ذلك العهد، توفي سنة ٩٧٣هـ = ١٥٦٥م، وخواجة جلال الجويباري تلميذ مخدود أعظم، وكان عالمًا دينيًّا ومفسرًا عاش في الانزواء بعيدًا عن الناس[١].

وقد انتعش الأدب التركي في هذا العهد بنشاط كبير، فكثر الشعراء

---

[١] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٣٧٠.

في اللغة التركية. وممن امتاز من هؤلاء الشعراء في عهد الشيبانيين كان الأمير الخوارزمي محمد صالح. وهو التزم بلاط الشيباني منذ صغره بعد احتلال التيموريين مملكة أبيه خوارزم. وله مؤلف في تاريخ الشيبانيين يسمي «شيباني نامه» وكان شاعرًا بارعًا حتى يعد البعض منزلته في الشعر فوق نوائي.

ومنهم أمير علي وملا ميرك اللذان كانا أميرا الشعراء في بلاط الشيبان، وملا مشفقي الذي أنشد غزليات وقصائد والأشعار المزاحية وأشعارًا في تاريخ عدة أبنية أنشأها عبد الله. وأيضًا باينده قاضي مقاطعة زين، وكان شاعرًا وعالمًا لغويًّا، مدح الوزير بابا كوكلتاش في ثمانية عشر وزنًا بلا نقطة. وشيرين خواجه عاش في عهد عبد الله وتوفي سنة ٩٨١هـ = ١٥٧٣م.

وكان عهد الشيبانيين عهد نشاط عمراني أيضًا أنشئت فيه عدة أبنية فخمة وفاخرة. وكان أكبرها مسجد الوزير علي بيكن كوكلتاش الذي بني سنة ٩٣٤هـ = ١٥٢٧م وكان منبره من الحجر المرمر. ومدرسة عبد الله خان الذي سبقت ذكرها. ومسجد عبد العزيز خان الذي كان معبدًا للدارسين من قبل فحول إلى مسجد، وأيضًا بنى عبد العزيز خانقاها في جوار ضريح خواجه بهاء الدين وبنى أبو سعيد مدرسة فخمة في سمرقند، ومدرسة مير عرب، مدرسة كبيرة في بخارى التي تعد أكبر مدرسة وأغناها من حيث تمويلها وأوقافها[١].

الإسترخانيون

ومن الأسرة الإسلامية التي حكمت بلاد تركستان تعد الأسرة

---

[١] وامبري، تاريخ بخارى، ص ٣٧٠.

الإسترخانية التي تنتمي من جانب الأم إلى الأسرة الشيبانية آخر أسرة تستحق بالذكر الجميل. حكمت قسمًا كبيرًا من البلاد في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي. ثم أخذ محلَّها الأسرة المنغشية الأزبكية، وكان مؤسِّسها باقي محمَّد خان بن جان بن يار محمد، وهو خلف عبد الله الثاني آخر آمراء الشيبانيين فاستقلَّ. وكان رقعته تشمل سمرقند وبخارى وفرغانة وبدخشان وبلخ. وكان يار محمد التجأ مع ابنه جان عند إسكندرخان الشيباني أبو عبد الله في بخارى الذي زوج بنته إلى جان بن يار محمد فتولد باقي محمد من هذا الازدواج.

وهو أن عهد الإسترخانيين كان عهدًا أخذ شأن البلاد ينحط من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية بسبب النزاع الداخلي الذي يفرق شملها ويذهب ريحها فيشرف إلى الزوال. ولكن بالرغم من ذلك ما زال النشاط العلمي والأدبي الثقافي يستنير من خلال تلك الحالة الآسفة يقابل صرصر الزمان ويقاوم التدهور والانحطاط الكلي. فنرى على جانب من يستعير نار الحرب الداخلي ويثير الفتنة والفساد ويدبر المؤامرات من يستغل فرصة السلم والسلام للمشاغل الأدبية والعلمية والعمرانية. حيث مازال البلاد تستحضر أمراء وملوكًا عالمين وأدباء ومن أصحاب البراعة في شتى العلوم، يشجعون النشاط العلمي الثقافي، ويهتمون لازدهار العلوم والفنون ويحمون العلماء والفضلاء.

وكان السلطان سبحان ولي خان ممن يجدر بالذكر من الإسترخانيين حيث هو كان ملكًا عالمًا شغوفًا لكسب العلم ومولعًا للفن إلى درجة أنه كان يواصل دروسه عند العلماء المشهوريين في عهده في سن الشيخوخة أيضًا. وكان شاعرًا وأديبًا بارعًا ينشد الشعر في اللغة

التركيـة. وكان تخلصـه فـي الشـعر «نشـاني». وكان أيضًـا عالمًـا لعلـم الطب وماهـراً فيـه، وهـو أول مـن تـرك لنـا مؤلفـه فـي الطـب باللغـة التركية الجغتائيـة، وهـو شـرح فـي كتابـه هـذا أصـول جالينـوس وبقـراط وأبـي علـى سـينا، وأيضًـا طرقـا عجيبـة للـعلاج منهـا «إثـر الأدعيـة والتعاويـز فـي العلاج»[١].

الدولة الإيلكخانية

(٣٢٠-٥٦٠ ـــ ٩٣٢-١١٦٥)

تعـرف أيضًـا بالأسـرة الخاقانيـة والقراخانيـة، أول دولـة إسلاميـة تأسست فـي تركستان الشـرقية بعاصمتهـا الكبـرى كاشـغر حوالـي القـرن العاشـر المـيلادى. وكان ذلـك بعـد أن ألفـوا عـدة قبائـل تركيـة فـي شـرق فرغانـة تحـت حكـم واحـد وبعـد اعتناقهـم الإسلام، وكان عبـد الكريـم ستوق بوغراخـان أول مـن اعتنـق الإسلام مـن هـذه السلالـة، ومعـه اعتنـق كثيـر مـن سـكان الـبلاد الإسلام وجعـل الإسلام ديـن الدولـة الرسـمي، وكان ذلـك سـنة ٩٢٠م[٢]. وقـد فتـح سـنة ٩٩٩م أبـو الحسـين إيلـك نصـر بـن علـى مـا وراء النهـر مـن أيـد السـامانيين[٣]. وأيضًـا قـد اشـتهر بيلكنجور قاغـان سـنة ٨٤٠م وتافغـاج قاغـان سـنة ٨٩٣م بحروبهمـا مـع السامانيين[٤].

وقـد اعتـدت حـدود مملكـة الإيكلخانييـن مـن شـواطئ بحيـرة خـزر وبخـارى إلـى حـدود الصيـن، ثـم أن الإيلكخانييـن قصـدوا سـنة ١٠٠٧م فتـح الـبلاد الواقعـة جنـوب نهـر آمـو (جيحـون)، ولكنهـم تلاقـوا الهزيمـة

[١] يخبرنا ويمبري في كتابه «تاريخ بخارى» أنه حصل على نسخة قلمية من هذا الكتاب في هرات.

[2] M. E. Bugra: “Dugu Turkistan P 12.

[3] Lame Pool, Stanly: Mohd. Dynes Ties 134.

[4] Validi Togan P 56-57.

في وجه عساكر السلطان محمود الغزنوي، ثم قامت بينهما علاقات قوية بعدها، وهم استقلوا بعدها بحكم ما وراء النهر وكاشغر وبلاد الأتراك الشرقية الأدنى. وكان هارون بغراخان (بعاصمته بلاساغون) وابنه يوسف قديرخان (بعاصمته كاشغر وختن) ثم ابنه محمد بغراخان (بعاصمته طالاس) وإبراهيم تابغاج خان بن إيلك نصر خان (بعاصمته سمرقند) من أشهر ملوك هذه السلالة، ثم انقرضت هذه الدولة بغلبة السلجوقيين ثم الخوارزميين بعد سنة ١١٧٥م. ثم غلب القراختائيون منذ سنة في القسم الشمالي من بلادهم. بالرغم من ذلك استطاع فرع من هذه الأسرة في سمرقند أن يواصل سيادته على بعض بلدان ماوراء النهر حتى سنة ١٢١٢م[١].

قد تأسست في عهد القراخانيين عدة قبائل تركية في ما وراء النهر، وهم الذين زحفوا متجهين بلاد الفرس، وكان أهمهم قبيلة تركمن المعروفة بأتراك السلاجقة[٢] الذين حكموا بعد غلبتهم كل بلاد الإسلام.

وقد أنقذ القراخانيون العالم الإسلامي من نكبة عظيمة وجَّهت له من قبل أهل الزرداشت والمجوس في إيران، حيث أنهم على قول عبد القادر البغدادي كانوا يعتقدون في نبوة زرداشت بأن انتشار مذهبه في العالم يستكمل في ألف سنة وهم استحضروا واستعدوا لثورة عامة في سنة ٩٢٩م التي كانت السنة الموعودة، ولكن إسلام بلاد التركستان ولا سيَّما إسلام القراخانيين واستيلائهم على بلاساغون ونشاط الأتراك المسلمين في حدود بلاد الهند كانت من العوامل التي قد صدَّت أبواب هذه الثورة ومشروعها صدًّا نهائيًّا[٣].

---

[1] Lame Pool P 134.

[2] Lame Pool P 134.

[٣] ز.و. طوغان: تورك إيلي تاريخي ص ٩٩-١٠٠.

ومـن أشـهر أمـراء البيـت القراخانيـة الذيـن حكمـوا فيمـا وراء النهـر كان أبـا إسـحاق بـوري تكيـن بـن إيلـك نصـر فاتـح مـاوراء النهـر. وهـو حـارب مـع السـلطان المسـعود الغزنـوي عـام ٤٢٩هـ الموافـق ٣٨-١٠٣٧م، وانتـزع منه ختلان ووخش وفتـح ما وراء النهـر مـن أبنـاء على تكيـن المواليـة لمسـعود. حكـم بعـده الـبلاد طمغـاج خـان إبراهيـم بـن نصـر الـذي ضـرب السـكة باسـمه لأول مـرة عـام ٤٨٣هـ = ٧-١٠٤٦م، وهـو أخـذ لقـب «عمـاد الدولـة وتـاج الملـة سـيف خليفـة اللـه طمغـاج خان»[١].

وكان ابنـه أبـو الحسـن طمغـاج أو طغفـاج عالمًـا كبيـرًا. ولهـذا الملـك ألقـاب كثيـرة، وقـد عـرف أكثـر العلـوم والصنائـع وسـمع الحديـث مـن جماعة وحدث ببخارى وسمرقند[٢].

وقـد رويـت أسـطورة عجيبـة عـن إسلام سـتوق بوغراخـان بمـا يـدل علـى تحمـس الأتـراك وخلوصهـم للإسلام، وهـي أن أبـا نصـر السـاماني قـد رأى ذات ليلـة فـي منامـه أن رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم ظهـر لـه وقـال لـه: «اسـتيقظ واذهـب إلـى تركسـتان، حيـث تجـد الأميـر سـتوق بوغراخان في انتظار حضورك للدخول في الإسلام».

وكان الأميـر الشـاب أيضًـا قـد رأى فـي منامـه رؤيـا مماثلـة لقبولـه الصـوت الغيبـي أن ينتظـر علـى شـخص يجـئ لـه ويدعـوه إلـى الديـن، ولمـا تقابـل سـتوق مـع أبـي نصـر السـاماني بعـد عـدة أيـام كان علـى اسـتعداد تـام لقبـول تعاليمـه والتديـن بـالإسلام، تبعـه سـنة ٩٦٠هـ ٢٠٠٠٠٠و (مائتـا ألـف) أسـرة مـن الأتـراك. وبهـذا قـد دخـل قسـم كبيـر

[١] (دائرة المعارف الإسلامية، مادة: بوري تكين.

[٢] (وله خط من دكتور زكي وليدي طوغان: مجلة معهد الدراسات الإسلامية لجامعة دستانبون ج ١١، جزء ١، ص ٦٨ مأخوذ من كتاب الإكمال.

مـن مملكـة بغراخـان فـي حظيـرة الإسلام، ويعـزي لبغراخـان لبعـض كرامات وخوارق، حتى لقد روي أن شعلة محرقة تخرج من فيه، وأن سيفه الذي كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدمًا. وقد قيل أن ستوق لم يكد يبلغ التاسعة والستين من عمره حتى نشر سيفه الرعب في قلوب الكفَّار الذين كانوا يقيمون في الأراضي الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبًا إلى قارا قرم في الشمال فتحوَّلوا إلى الإسلام. كما قيل أنه قاد جيوشه المنتصرة إلى بلاد الصين ونشر الإسلام حتى إلى طورفان[١].

وكان عهد القراخانيين عهد نشاط علمي وأدبي كبير ازدهرت فيه الثقافة التركية بشكل إسلامي. نبغ كثير من العلماء والأدباء الأتراك في هذا العهد الذهبي لتركستان الإسلامي وهم وضعوا مؤلِّفات هامة في الأدب والأخلاق والسياسة وغيرها. ومن أهم المؤلفات التي وضعت في ذلك العهد كان كتاب «قوتادغو بيليك» (أي علم السعادة)، وقد وضعه العالم والوزير التركي البلاساغوني يوسف خاص حاجب لملك كاشغر القراخاني هارون بغرا أبي علي حسن خان. وقد عثرت على نسخة هذا الكتاب بحروف أويغورية وعربية. بحث المؤلف فيه أصول إدارة العالية وسياسة الحكومة وفلسفتها، وقد اشتهر الكتاب في زمانه بشاهنامه التركي على نمط «شاهنامة» فردوس.

وقال دكتور أولو ألبرتق Dr. Ollo Albers بشأن هذا الأثر أنه يتمثل فلسفة أرسطو في الشرق التي جاء هناك بواسطة ابن سينا[٢].

---

[١] ابن الأثير، ٨ / ٣٩٦. تبليغ الإسلام، ص ٢١٥.

[٢] زكي وليدي طوغان، ص ٨١. وفي «قوتاتكوبيليك» أنظر أحدث مقالة في «العالم الإسلامي» عدد أكتوبر سنة ١٩٦٠م «The Muslim World».

وأيضًا «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشغري وضعه محمود بن حسن على الكاشغري في سنة ١٠٧٧م في ثلاثة مجلدات، وهو قاموس جامع كامل يحتوي على اللغات التركية بلهجة الجغتائية والجغلية والأوغوزية، ويبحث أيضًا من القبائل والعشائر التركية المختلفة الذين كانوا يعيشون في بلاد مختلفة ممتدة من حدود الروم إلى حدود الصين. وكذلك الأحوال الجغرافية والأنتوجرافية والحالات الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والأساطرية للأتراك وعقائدهم القديمة وغيرها[١]. وقد شرح المؤلف معاني اللغات بالعربية.

وأيضًا كان العالم الفقيه الكبير محمود الزمخشري المتوفي سنة ١١٣٤م من معاصري محمود الكاشغرى، وأثره «مقدمة الأدب» الذي وضعه لتعليم الأتراك اللغة العربية وآدابها، كان من المؤلفات الهامة التي وضعت قبيل عهد المغول، وفي عهد القراخانيين. وكان مولده خورازم. وكان الزمخشري قد وضع كتابه هذا خاصة لتعليم أبناء الأمراء العربية والخواقين الأتراك والمغول. وقد استعمل فيه لغات وكلمات واصطلاحات تشمل كل نواحي الحياة الفكرية، شرحها باللغات التركية والفارسية والخوارزمية. وقد أضاف لها فهرست اللغات التركية والمغولية، وكان لهذا الكتاب أثر كبير لتفشي اللغة العربية بلد أهالي تركستان[٢].

السلطان عبد الكريم ستوق بوغراخان

وكان قراخان نفسه مشهورًا بالعدل وحسن السيرة وكثرة الجهاد.

---

[١] زكي وليدي، ص ٨٢.

[٢] زكي وليدي، ص ٨٢.

ومن فتوحاته ختن، وهي مدينة مشهورة بكثرة العلماء والفضلاء. توفي سنة ٤٢٣هـ خلفه ابنه أرسلان خان، وكان كنيته أبا شجاع ولقبه شرف الدولة. وكان له كاشغر وختن وبلاساغون (ساغون في الأصل) وخطب له على منابرها، وكان عادلاً مكرمًا للعلماء وأهل الدين محسنًا لهم وقصده كثير منهم فأكرمهم.

وفي عهده أي سنة خمس وثلاثين وأربع مئة أسلم كثير من كفار الترك الذين كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي بالا ساغون وكاشغر ويعيشون فيها ويصيفون ببلاد بلغار فأسلموا وافترقوا في البلاد، وبقي من لم يسلم التتر والخطاي في نواحي الصين[١].

وبالجملة يعتبر عهد الإيلكخانيين العصر الذهبي لتركستان ازدهرت فيه البلاد ازدهارًا عظيمًا من الناحية الدينيَّة، والعلميَّة، والسياسيَّة، والاقتصاديَّة، حيث لم يسبق بها مثيل قبلها[٢].

عهد تيمور وأثره في تاريخ الإسلام

(٧١١-٩٠٦هـ)

(١٣٦٩ - ١٥٠٠م)

يبدأ عهد تيمور من سنة ١٣٦٩م حين أخذ زمام السلطة بيده من سلالة جغتاي الحاكمة فيما وراء النهر في زمانه، أخذ منذ سنة ١٣٨٠م يغزو بلاد خراسان وإيران جورجان ومازندان وسبيستان وأفغانستان وفارس وآذربيجان وكوردستان وغيرها من البلاد إثرًا بعد إثر. ثم أقهر نهائيا سنة ١٣٨٨م خان القبيلة الذهبية توقتاميش. وفي سنة ١٣٩٣م شن الغارة على بغداد وبين النهرين، وفي سنة ١٣٩٥م

[١] ابن خلدون، تاريخ العبر، ١١ /٣٩٢.

[٢] محمد أمين بوغرا، تاريخ تركستان ص ١٣.

غـزى دشـت قبجـاق واسـتولى على مكـوف التي ظلـت فـي قبضتـه نحـو عـام ونيـف. ففـي سـنة ١٣٩٧م وجـه غزواتـه إلـى بلاد الهنـد الشـمالية حتى تغلغـل إلى دهلي وكشـمير. وفي سنة ١٤٠١ قـاد جيوشـه الجرارة لغـزو أناطوليـا حيـث أخـذ سـلطان بيازيـد العثمانـي أسـيرًا بعـد أن هزمـه فـي معركـة أنقـره الحاسـمة. ثـم زحـف إلـى قصـر سـورية وحلـب ودمشـق. وقـد عـرض لـه سـلطان مصـر المملـوك ولائـه. وأخيـرًا مـات فـي أتـرار وهـو فـي طريقـه لفتـح بلاد الصيـن وكان ذلـك سـنة ١٤٠٥م ٨٠٧م وعمره سبع وسبعون سنة.

إمبراطورية تيمور

وهكـذا أسـس تيمـور إمبراطوريـة عظيمـة امتـدَّت حدودهـا مـن دهلـي إلـى دمشـق ومـن بحيـرة أرال إلـى خليـج الفـارس بعاصمتـه سـمرقند فيمـا وراء النهـر، ومـازال عهـده وعهـد خلفـاءه زاهـرًا حتـى نهايـة القـرن السـادس عشـر الميـلادي وخاصَّـة فـي بلاد الفـرس ومـا وراء النهـر بعـد مـوت شـاهرُخ الـذي أمكـن لـه أن يحتفـظ كرامـة الإمبراطوريـة قسـمًا. انقسـمت الإمبراطوريـة المنهـارة إلـى عـدة إمـارات صغيـرة حيـن قبـض الصفويون زمام السلطة في بلاد الفرس والشيبانيون في ما وراء النهر.

وفـي نفـس الوقـت اسـتطاع بابـر أن يضـع أسـاس إمبراطوريـة عظيمـة أخـرى فـي أنقـاض ممتلـكات تيمـور فـي بلاد الهنـد التـي تعـرف فـي التاريخ بالإمبراطورية المغولية في الهند[١].

تيمور في نظر المؤرخين:

وقـد درس كثيـر مـن المؤرخيـن القدمـاء والجـدد محبيـه ومعارضيـه والمحايديـن شـخصية تيمـور وأعمالـه وأفـكاره مـن نـواح شـتى. وهـم لا

[1] Lame Pool P 265. Enc of Islam مادة تيمور

يمضـون دون أن يشـادوا بعبقريتـه وعظمتـه ونبوغـه فـي القيـادة العسـكرية والتبعيـة واللباقـة السياسـية وفـوق ذلـك أعمالـه الناشـطة فـي ميادين العلم والفـن والثقافـة والأدب وآثـاره الخالـدة التـي تركهـا هـو وأخلافـه فـي تاريـخ الشـرق الإسلامـي ومـدى تأثيـره فـي الحضـارة والثقافـة والتطـور الاجتماعي والاقتصادي في البلاد الإسلامية فيما بعد.

ويقـول وامبـري: «أنـه فـي خطـأ فاحـش مـن يتهـم تيمـور أنـه كان وحشـيًّا وظالمًـا فتَّـاكا مثـل جنكيـز، والحقيقـة أنـه كان جنديًّـا مـن آسـيا. قـد اسـتغل فتوحاتـه وغزواتـه وانتقامـه طبقًـا للعـادات التـي كانـت سـائدة في عهده وزمانه[١].

ويقـول بارتولـد: «إن اهتمـام تيمـور للنشـاط العمرانـي يفـوق اهتمامـه بالسفك والدماء[٢].

وحتـى إن ابـن عربشـاه[٣] الـذي اشـتهر بالمعارضـة لتيمـور لا يمضـي دون مـدح شـخصيته ويعجـب فراسـته هـو يقـول: « كان تيمـور لا يحـب المـزاح والكـذب ولا يسـتميله اللهـو واللعـب، يعجبـه الصـدق ولـو كان فيـه مـا يسـوؤه لا يجـري غالبـًا فـي مجلسـه شـيء مـن الـكلام الفاحـش ولا سـفك دم، مقـدامـًا شـجاعـًا ذا أفـكار مصيبـة وفراسـات عجيبـة وسـعد فائـق وجـد موافـق، محجـاجـًا دراكـًا لا يخفـى عليـه تلبيـسُ مُلَبِّس يفـرق

[1] Vambery P 246.

[٢] بارتولد، ص ٣٥.

[٣] هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، أبو محمد، شهاب الدين، وشهرته ابن عربشاه. رحل في عدد من البلاد الإسلامية، وعُرف ببراعته في الكتابة والنظم بالعربية والفارسية والتركية. ولد وترعرع في دمشق. في وقت لاحق عندما غزا تيمور سوريا، انتقل إلى سمرقند وبعد ذلك إلى ما وراء النهر. انتقل بعد ذلك إلى أدرنة وعمل في بلاط السلطان محمد الأول وهو يترجم الكتب العربية إلى التركية الفارسية. عاد لاحقًا إلى دمشق بعد أن غاب عن المدينة لمدة ٢٣ عامًا. ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر ومات هناك. ابنه هو الفقيه عبد الوهاب ابن عربشاه.

А. Е. К. (1894). «Ибн-Арабшах”. Энциклопедический словарь Брокгауза и Ефрона. Том XIIa, 1894. XIIa: 740–739.

الزركلي، ابن عَرَبْشَاه.

بيـن المحـق والمبطـل بفراسـته ويـدرك الناصـح والغـاش بدربـة درايتـه، إذا أمـر بأمـر أو أشـار بإشـارة لا يـرد عنـه ولا يُثنى عنـان عزيمتـه عـن شـيء منه» إذا قال قولا أو أشار إشارة – نرى أمره في ذاك كالسيف قاطعا[١].

ويقـول هارولـد لامـب[٢] حيـن يقـارن بيـن تيمـور ونابليـون: أنـه كان تيمـور فاتحًـا، قـلَّ نظيـره فـي التاريـخ والإسـكندر المقدونـي، وهـو تمكـن أن يتـوج غزواتـه بالفـوز والنجـاح حسـب مايـرام، وكان تيمـور نابليـون آسـيا مـن كل الوجـوه وكان قائـدًا شـديد العـزم ولـه قـوة الإرادة الخارقـة، فـضلاً علـى قوتـه البدنيـة، وهـو ليـس بأقـل مـن نابليـون مـن هـذه الناحيـة. وكان سـر نجاحـه المتوالـي ذلـك العـزم الراسـخ وقـوة إرادتـه الخارقـة، وكان يملـك خلابـة نابليـون فـي تسـخير الخقائـق ولـه قـدرة لحـل المعـضلات مهمـا اختلفـت أنواعـه، يسـتطيع أن يسـتغلَّ أي فرصـة أكمـل اسـتغلال وهـو درب ومـرن كنابليـون أي جيوشًـا جـرارة قـد عجـزت عـن مقابلتهـم ومنافسـتهم أي جيـوش أخـرى. ولكـن هنـاك ثـم المقارنـة بيـن تيمـور ونابليـون؛ لأن نابليـون قضـت عظمتـه فـي محبـس سـنيت هلينـا، فهـو كان يائسًـا، ولكـن تيمـور مـا لقـي الهزيمـة قـط فـي عمـره، وحيـن هـو مات كان زاحفًا قائدًا لجيوشه الجرارة لفتح بلاد الصين[٣].

وهـو يقـول فـي موضـع آخـر: كان صاحـب قِـران تيمـور أكبـر فاتـح، عـرف فـي تاريـخ آسـيا. وهـو مـا كان كأحـد النـاس فـي عهـده فحسـب، بـل كان ذكيًّـا، ثاقـب الفكـر الثميـن، كريمًـا جـوَّادًا، صاحـب مـروءة، وخيـر محنـك، مثابـر ومواظـب فـي أمـوره، الأوصـاف التـي تمـت فيـه واتحـدت جعلـه قائـدًا للحـرب، متصفًـا بـكل درجـات المراتـب

---

[١] سلم الوصول إلى طبقات، ١/٣٩٨.

[٢] هارولد لام (بالإنجليزية: Harold Lamb) مؤرخ أمريكي، كان ضعيف البصر والسمع والنطق. ولد في ١ سبتمبر عام ١٨٩٢ وتوفي في ٩ أبريل عام ١٩٦٢.

[3] Harold Lambl: March of Barbarians P 340. Timore The shaller of Earth P 321.

و.......... حتى لايفوق عليه أحد من القوَّاد[١].

ويقول سر بري سايكس: «اجتاز تيمور حدود كل من الإسكندر المقدوني وجينكيزخان؛ لأن الأول قد وقف على بياس، حين أن الثاني أمكن له أن يجتاز السند فحسب. لذلك لا نجد أي فاتح في الدور التاريخي الذي قام بتلك الأعمال والفتوحات بقوة السيف فحسب، والذي استوجب ثمرة تيمورلنك.

وكان تيمور نفسه مسلما راسخ العقيدة. وفي نعش خاتمه كتب «راستي رستى» أي صدقت نجوت. وهو لم يأل جهدًا في نشر الإسلام في الأقطار التي لم يلمع فيها نور الإسلام بعد[٢]. وكان تيمور محبًّا للعلماء مقربًا للسادات والشرفاء، يعز العلماء والفضلاء والأدباء والفنانين إعزازًا تامًّا ويقدمهم على كل أحد تقديمًا عامًّا وينزل كلا منهم منزلته ويصرف له كرمه وحرمته[٣]. وهو أكرم وشجع أهل الطريقة النقشبندية التي كانت جديدة الظهور في عهده[٤]. وما زالت طائفة كبيرة من الصلحاء والسادات والفضلاء والأدباء والفنانين وغيرهم من الفضلاء يرافقون له حضرًا وسفرًا، وكان من بينهم النجشيون من الأويغور والكتاب من الفرس[٥]. وكان خواجة فضل بن شيخ الإسلام سعيد جلال الحق والد بن الكبشي ومولانا عبد الجبار بن قاضي القعناق مولانا نعمان الدين الخوارزمي من أشهر من يرافقون له من العلماء[٦].

---

[1] Harold Lambl: March of Barbarians P Timore The shaller of Earth P 321.

[٢] زكى وليدى طوغان، دائرة المعارف الإسلامية.

[٣] ابن خلكان، ٥/٣٠٤.

[٤] ظفرنامه، ١/ ٢٤-٢٥ و٢/ ١٠١.

[٥] ظفرنامه، ١ / ٢٤-٢٥.

[٦] ظفرنامه، ٤/ ١٠١.

يقرب المنجِّمين والأطبَّاء ويأخذ بقولهم ويصغى إلى كلامهم. وأشهر أطبَّائه كان فضل الله وجمال الدين رئيس الطب. ومن منجميه مولانا أحمد الطبيب النحاس المستخرج من زابيحة الطالع إلى مائتي سنة[١].

ويروي أنه حين دخل أصفهان أمر أن تحتفظ المحلات التي فيها العلماء والفضلاء عن التعرض. وهذا فضلا عن حبه للعلماء والفضلاء، كان يناقش في هرات وحلب علماء الفلسفة في شئون الدين، ثم يسبغ بتحائف نفيسة من يخالف له في الرأي، وكان له إلمام تام في التاريخ والمسائل الدينية. وكان العالم الشهير شمس الدين ومحمد الجزائري والشيخ البخاري من العلماء الذين ناظر معهم مناظرة شديدة وحارة، حينما أتوا بهم عنده من بلاط العدو، ثم رحب بهم وأسبغ عليهم بالتحائف، وكان يحايدهم إلى جانبه برغم مخالفتهم له مخالفة شديدة. ومشهور أيضًا أنه أمن قاض شرف الدين الحلبي مع ألفين ونيف من أتباعه وأسبغهم بتحاتف كثيرة وكان ذلك بعد مناظرة شديدة معهم[٢]. وهو ناقش في حلب مع المؤرِّخ الشهير ابن خلدون وهو أعجبه لإطلاعه الوسيع في التاريخ[٣].

وكان مغرمًا بأرباب الصناعات والحرف والفنانين يشجعهم ويقدر منزلتهم، حريصًا لتحسين صناعتهم وحرفتهم وفنونهم، وكان يجلبهم إلى سمرقند كتلةً كتلةً حيثما يجدهم في البلاد المفتوحة[٤].

وكان عنده طائفة جمة من الصوَّاغين كالحاج علي الشيرازي

---

[١] ابن عربشاه، ص ٣٠٤-٣٠٥.
[٢] وامبرى، ص ٢٤٥.
[٣] بارتولد، ص ٣٤.
[٤] ظفرنامة، ص ٢٤-٢٥.

والحاج محمد الحافظ الشيرازي وغيرهما، ومن الحكاكين وكان أشهرهم ألتون، وكان هو آية في فنه ينقش الفضة والعقيق بخط أحسن من ياقوت، وكذا من الشطرنجيين كأمثال محمد بن عقيل التميمي، وزين الدين اليزدي وغيرهما، ومن المطربين كان عبد القادر المراغ وولده صفي الدين وغيرهما.

عن النقاشين كان عبدالحي البغددي أشهرهم وكان ماهراً في فنه[١].

ويقول بارتولد: وهو أن أزهى العهد ازدهارًا للفن المعماري الإسلامي يعود إلى عهد تيمور وأخلافه وإن الأبنية التي بنيت في هذا العهد في سمرقند تمثلت فن المعماري الإيراني ولكن كان تفوقه في الأبهة والجلال الظاهري[٢].

ولو أن النشاط في الفن المعماري قد أخذ ينكشف انكشافًا عظيمًا في العالم الإسلامي بعد استيلاء المغول حتى وصل إلى مصر ولكنه يعود الفضل في مقدمه عملاً وبشكل منظم لعهد تيمور وأخلافه في انكشافه[٣].

وكان تيمور ينتخب نخبة العلماء والسادات الذين وجدهم في الممالك المفتوحة، ويجلبهم إلى عاصمته ثم يوزعهم إلى أقطار مملكته لإفادة الناس من هؤلاء. وكان فخر الدين والسيد زين الدين من العلماء الذين جلبهم من مازندران، وكان الأول من أولاد سيد قوام الدين أرسله إلى كاشغر حيث مات هناك. والثاني أسكنه في

---

[١] ابن عربشاه، ص ٣٢٢.

[٢] بارتولد، ص ٣٥.

[٣] بارتولد، ص ٣٥.

سايرام وهو أيضًا توفي هناك[١].

وقد عاش من المشايخ في عهد تيمور أمير سيد بركة وخواجه ضياء الدين يوسف والشيخ شهاب الدين إسماعيل والشيخ نورالدين والشيخ شمس الدين، وهو عاش في هرات[٢].

وكان مولعًا ومواظبًا لأمور التواريخ [٣]وقصص الأنبياء الأولياء وسير الملوك وأخبار من مضى من الأنام، يقرأها ويستمع إليها سفرًا وحضرًا، وكان مولانا عبد الله قاري قصصه وتواريخه، وكذا كان تيمور يهتم بدرس المسائل العلمية والدينية، شائقًا للفنون الجميلة وخاصة الفن العمراني. على قول عربشاه: « إن تيمور كان جنى على كل حي، وجبى إلى سمرقند ثمرات كل شيء، فكان بها من أهل كل فن عجيب، وأسلوب من الصنائع غريب، من هو على جبين الفضل شامة[٤].

هكذا راح يزينها بكل آيات الروعة والفخامة وبالأبنية الرائعة وبقصور في عهده كقصر «كوك ساراى»، والمساجد الجمة[٥] وبساتين عديدة وجميلة بستان أرم، زينة الدنيا، جنة الفردوس، وبستان

---

[١] حبيب السير، ٣/ ٣٤٦ طبعة طهران.

[٢] حبيب السير، ٣/ ٤٥١.

[٣] وكانت تسجل بأمره الحوادث اليومية والواقعات التاريخية وأعماله وأقواله كما سجل حالات رقعته وحالات أركان دولته. وكان المسجلون مكلفين أن لا يبالغوا أو لا يداهنوا في تسجيل الحالات وكوائف حتى في مدحه وتوصيف شجاعته وأعماله البارزة، ثم يقارن هو ونفسه بهذا بعض موظفي البلاط ما كتب نثرا أو نظما في اللغة الفارسية والتركية يصححها وينقحها بدقة وتحقيق تام، ويقول تيمور نفسه في تزكه: « أنني كنت أدعو عندي المحثين وقراء الأخبار والقصص، أسمع وأصغي أخبار الأنبياء والأولياء وقصص السلاطين وكوائف خروجهم وزوالهم، أتخذ من قصصهم وأعمالهم وأفعالهم وتجاربهم عبرة لي أستفيد من صحبة المشايخ الصوفيين، وأهل الطريقة العارفين لآخرتي وأشاهد......... عاداتهم وكراماتهم. وكنت أمرت أن يقدر منزلة العلماء والسادات باحترام واحترام تام» ظفرنامه، ١ / ٢٤-٢٥. تزك تيموري، ص ١١٢-١١٤.

[٤] ابن عربشاه، عجائب المقدور، ٤٦٥.

[٥] وقد توجد الآن خرابة مدرستين زاهرتين لعلها في خرجرد، وثانيهما في زوزن كلاهما تقعان في خراساو، بينهما الملك الشاهروخ التيموري.

الشمال والجنة العليا، وباغ دل كشا، وباغ نر وغيرها. وكذلك أنشأ في ضواحي سمرقند وأطرافها قصبات ومتنزهات جميلة سميها بأسماء العواصم الإسلامية كدمشق، سلطانية، بغداد، شيراز وغيرها من عرائس البلاد. وكان يرمي منها أن يجعل سمرقند عاصمة عالمية إسلامية[١] كما جعلها مركزًا مزدهرًا للتجارة الدولية والنشاط العلمي والثقافي حيث فاقت وسبقت بتبريز وبغداد في الأبهة والجلال في عهده.

كان يهتم بتحسين الاتجار الدولي لذلك أنشأ إثر فتوحاته في الهند وبلاد إيران الشمالية طرقًا بريَّة جديدةً للتجارة، كما كان يهتم بتحسين وتشييد النظم الإدارية والعسكرية على أساس متين، فأنشأ مؤسسات عمرانية ومدنية جمة للمصالح العامة، ومن جملتها حفر عدة قنات للري في خارج هرات، وهو بنى أيضًا بلدة هرات الجديدة. وبأمره بنيت عبقرة عكاشة بن محصن الأسدي بن الصحابة في بلخ وقثم بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سمرقند وهو يعرف الآن بأوصاف عديدة[٢].

وبالجملة كان عهده عهد ازدهار نشاط فني وعلمي وثقافي تشتهر بالعهد الفني التيموري الزاهر الذي استمر لامعًا ومنتعشًا في عهد خلفائه وأحفاده[٣].

وقد ظلَّ سمرقند في عهده مجمع العلماء والفقهاء والمحققين ومكمنهم، اجتمعت فيه طائفة كبيرة منهم، واشتغل بنشاط علمي

[١] والذي ادعى لنفسه الزعامة على العالم الإسلامي ودخل لأجله في النزاع مع ترك آخر في مصر أي السلطان الملك الأشرف برسباي سلطان مصر حول إرسال كسوة الكعبة التي كانت مصر ترسلها سنويا. وكان هو يدعي الزعامة على الحجاز وعلى العالم الإسلامي. سيرة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام نقلا عن Wiet: Hist. de la Nation Egyptienne p.t. IV. Pp ٥٦٣-٥٦٤).

[2] Vambery P 304- 317.

[٣] بزم تيموري، ص ٤.

وأدبي وثقافي في ظل عنايته وتشجيعه. ومنهم ومن الفقهاء شيخ الإسلام عبد الملك، وهو من أولاد صاحب الهداية، كان يلقي الدرس ويعلم الشطرنج والنرد وينظم الشعر في حالة مرتجلة. وقاضي القضاة نعمان الدين الخوارزمي المعروف بالنعمان الثاني، وكان أعجمي، وابنه مولانا عبد الجبار وهو الذي رافق تيمور إلى دمشق وترجم ما جرى بين تيمور وابن خلدون[١]، وخواجه أفضل من المباحثات العلمية وشيخ الإسلام سعيد عبد الحق، والخواجة عبد الأول بن عم مولانا عبد الملك انتهت إليه الرياسة في ما وراء النهر بعد ابن عمه. ومولانا عصام الدين بن عبد الملك انتهت إليه الرياسة بعد ابن الأول. ومن المحققين سعد الدين التفتازاني[٢] المتوفى في محرم سنة ٧٩١هـ بسمرقند، والسيد شريف محمد الجرجاني[٣] توفي

---

[١] وقد أعجب تيمور بعلم ابن خلدون وبلاغته حينما خاطبه الأخير بكلام جميل أظهر فيه علمه بنسب تيمور وتاريخه، فوقع ذلك موقعا جميلا في نفس تيمور الذي كان اشتهر بدهائه الشديد وقسوته البالغة فأعرتهم الرعدة، فشرع تيمور يسأله جملة من الأسئلة فكان ابن خلدون يجيب عليها في بلاغة أذهلت تيمور فزاد إعجابه به وسروره منه حتى أن تيمور طلب منه أن يبقي في خدمته، ولكن الظروف لم تساعده. ويقول لفيف من المؤرخين أن ابن خلدون هو الذي توسط في عقد الهدنة بين تيمور وأهل دمشق ثم سأله تيمور عن أحوال المغرب، فشرع ابن خلدون طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك. وقال أنه كان يسمع به ويتمني لقائه منذ أربعين سنة، أعني منذ تألق اسمه وارتفع نجمه. وقد كتب ابن خلدون رسالة في وصف المغرب تقع في اثنتي عشرة كراسة صغيرة، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى لغته ثم أن أسماء سمرقند وبخارى ما تزال تستحضر خواطر لا تفني لهذه السلالة العظيمة وحتى أن الأبنية الفخمة التي شيدت في هاتين البلدتين، برغم أنها قد أخذت تنهار في هذه الأيام لا تفش أن تناهض وتتحدث عن أعمق شعورنا. وقدم ابن خلدون إلى الفاتح تيمورلنك هدية هي مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة، ولما قدمها إليه وضع تيمور المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى. ووزع منها على الحاضرين في مجلسه. (تاريخ ابن خلدون).
دكتور جمال الدين الرمادي، الوعي، ص ٦٦ العدد ٥٢.

[٢] هو مسعود بن عمر التفتازاني المعروف بسعد الدين التَّفْتَازَانِي (٧٢٢هـ - ٧٩٢هـ)، ولد بقرية تفتازان من مدينة نسا في خراسان في صفر سنة ٧٢٢ هـ في أسرة عريقة في العلم حيث كان أبوه عالماً وقاضياً وكذا كان جده ووالد جده من العلماء، عالماً بالفلسفة والكلام والمنطق والرياضيات والطبيعيات، وله مشاركة في الفقه والنحو والأصول.

[٣] هو علي بن محمد بن علي الشريف الحسني الجرجاني المعروف بسيد مير شريف، فلكي، وفقيه، وفيلسوف، ولغوي. عاش في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي - الخامس عشر الميلادي).

بشيراز. ومن المحدثين الشيخ شمس الدين محمد الجزري كان أخذه من الروم توفي بشيراز، والخواجة الكبير المفسر الحافظ المحدث محمد زاهد البخاري، فسر القرآن الكريم في مائة مجلد توفي بمدينة سنة ٨٢٠هـ، وهما ومولانا فخر الدين كانوا يعدون من القرَّاء أيضًا. كان هناك حفاظ القرآن أيضًا، أشهر من فيهم عبد اللطيف الدامغاني ومولانا أسد الدين الحافظ الحسيني ومحمود المحرق الخوارزمي وعبد القادر المراغي[١] الأستاذ في علم الأدوار. وكان أيضًا الوعاظ والمتكلمون: منهم مولانا أحمد بن شمس الأئمة السرائي، كان ملك الكلام عربيًّا وفارسيًّا وتركيًّا وكان أعجوبة الزمان، ومولانا أحمد الترمذي ومولانا منصور القاغاني. ومن الكتاب الموجودين السيد الخطاط ابن بندكير وعبد القادر المراغي المذكور، وتاج الدين السلماني وغيرهم[٢].

وفضلاً على ذلك كان تيمور قد قلَّد شئون بلاطه من العلماء البارزين في عصره، فمثلاً كان إمامه عبد الجبار بن النعمان المعتزلي[٣]. وكان مولانا قطب الدين وخواجه عبد الملك وابن عمه خواجه عبد الأول وغيرهم من فقهاء سمرقند صدور ديوانه الذين كانوا يتصدرون شئون مملكته. وكان أيضًا خواجه محمود بن الشهاب الهروي ومسعود السمناني ومحمد الشاغرجي وتاج الدين السليماني وعلاء الدولة وأحمد الطوسي وغيرهم من عمائد دواوينه. وكان منشئ ديوانه وكاتب سره مولانا شمس الدين قاضي زمانه وفاضل إبانه فارسيًّا وعربيًّا. يقال

---

[١] هو عبد القادر بن عيني المراغي (ت. ٨٣٨ هـ) موسيقي، ولد في مراغة، إيران وتوفي بشيراز. من آثاره: مقاصد الألحان في تأليف النغم والأوزان. جامع الألحان. كنز الألحان في علم الأدوار.

[٢] ابن عربشاه، ص ٣٢٢.

[٣] وهو أحد خواص تيمور الذين طافوا البلاد معه وكان أبوه أعلم أهل سمرقند في عصره ويقال له نعمان الثاني. له تلامذة في الفروع بما وراء النهر وكان عبد الجبار ذكيًا، فاضلًا، معظّمًا عند الملوك، طالع «شرح الهداية» للأكمل وعلّم على مواضع منه وذكر أنها غلط. وله مهارة في الفقه والعلوم العقلية. وكان يمتحن العلماء ويناظرهم عند صاحبه. كاتب جلبي، سلم الوصول إلى طبقات الفحول.

بشأنه أنه كان إختبار الإنشاء كيف شاء، كان قلمه في فتح أقاليمه أنفذ من سنان مخدومه، واحتجب بعد موت تيمور[١].

وأخيرًا نكتفي باقتباس ما قاله سر برسي سايكس بشأن أعمال تيمور في حقلات الثقافة والفن والحضارة الإسلامية، هو يقول: إن أسرة تيمور التي دام عهدها زهاء قرن ونيف تستوعب ذلك الأمراء من عائلته الذين اشتهروا بحب العلم والفن والأدب، وكان تأثير ذلك العامل العظيم قويًّا جدًّا في بلاد الشرق. وبما أنهم كانوا يحبُّون العلم والعلماء لا يفوق عليهم أحد، حتى أولئك الذين نافسوهم في أوربا في حقلة الثقافة. والفضل في ذلك يعود إلى عنايتهم للفنون الجميلة التي تمثلت بشكل أرفع صور ملونة والكتب والسجاجيد والأسلحة وغيرها من المفاخر التي كانت نتاج عنايتهم. وأن الثقافة والمعارف والمعلومات التي اعتنوها أحفاد تيمور كانت نتاج طائفة كبيرة ممن امتازوا واشتهروا من علماء ذلك العصر والذين استجلبوا إلى بلاطهم.

تيمور وأخلافه

وقد استمر هذا العهد الزاهر، ينتعش ويتمثل ويلعب دوراً هامًّا في زمن أخلافه. وإن الفضل في النهوض العلمية والثقافية والأدبية والتطور الفكري التي انكشفت وترعرعت في العصر الخامس عشر الميلادي، وخاصة في ماوراء النهر وخراسان وإيران يعود إلى العنايات التي اهتم بها أخلاف تيمور وأحفاده. وكان كثير من أبنائه وأحفاده الذين خلفوه يعدون من زمرة الشعراء والفنانين والأدباء والعلماء.

---

[١] ابن عربشاه، ص ٣١٩.

وكان عهد شاهرُخ حفيد تيمور الذي حكم بلاد الفرس وآسيا الوسطى زهاء نصف قرن والذي اتسعت رقعته وشملت بلاد ما وراء النهر وخراسان وخوارزم وجرجان وعراق العجم ومازندران وقندهار والهند وكرمان وجميع بلاد العجم وإلى حدود آذربيجان[١].

وكذا عهد سلطان حسين بايقارا وغيرهم من آل تيمور عهد ازدهار وانتعاش بنشاط علمي وثقافي وعهد رفاه عام كبير، عاشت فيه طائفة كبيرة من العلماء والفضلاء والأدباء والفنانون، اتصلوا بتحركاتهم ونشاطاتهم العلمية والأدبية والفنية إلى بلاط بابر وأكبر وشاه جهان في دهلي وإلى بلاط الأرغونيين وترخانيين وتالبوريين في تاتته والسند وغيرها من بلاد الهند.

وعلى طول مدة حكمه أخذ شاهرُخ على عاتقه إصلاح ما قد مرَّت إبان الفتوح السالفة، وكان يقدر منزلة العلماء والفضلاء ويشجع درس التاريخ وغيره من العلوم والفنون. وقد أصبح هرات ومرو في عهده مركزين نشاط علمي وأدبي شامل، ولا سيَّما قد أصبحت هرات في عهده فيها. أنشأ مؤسسات عمرانية للمصالح العامة عدة مدارس كبيرة كان من المتضلعين في الرياضيات القاديم على حل أغوص المسائل الهندسية.

وكان فوق ذلك فلكيًّا عظيمًا، وبدأ يشيد مرصده في سمرقند عام ٨٣٢هـ ١٤٢٨ على الجانب الآخر من لوهك، وقد تهدم الآن، وكان يعد في زمانه إحدى عجائب الدنيا. وكان الفلكي صلاح الدين اليهودي الأصل هو القوة المحركة في هذا المرصد، يعاونه ثلاثة من فلكي كاشان (قاشان) هم: موسى جلبي[٢] المشهور بقاضي زاده

[١] ابن عربشاه ص ٣٠٠.

[٢] هو قاضي زاده الرومي (ت ٨٤٠ هـ) هو عالم بالرياضيات والفلك والحكمة وكان يعمل في مرصد

الرومي (وابنه ميرم جلبي[١] هو الذي كتب شرعا لمصنف ألغ بك) وغياث الدين جمشيد[٢] وغياث الدين القوشجي [٣].

وإذ رأى ألغ بك أن حسابات التوقيعات للحوادث على ما قرره بطليموس[٤] لا يتفق والأرصاد التي قام هو بها فقد عمد إلى تصحيحه وألف في ذلك كتابه المعروف بالزيج الجديد السلطاني وهذا الزيج مجموعة تحتوي أولاً – حسابات التوقيعات على اختلافها والتواريخ الزمنية. ثانيًا التوقيعات. ثالثًا – مجاري الكواكب في أملاكها. رابعًا – مواقع النجوم الثابتة. وقد ترجم ونشر في عدة لغات أوربية مع التحقيقات. ومن المحتمل تم تأليف هذا الزيج عام ٨٤١هـ ١٤٣٧م[٥].

سمرقند. من آثاره «شرح التذكرة» و «شرح أشكال التأسيس للسمرقندي». هو عمل جنبا إلى جنب مع أولوغ بك، الكاشي، وعدد قليل من الفلكيين الآخرين صنعوا زيج سلطاني، أول كتالوج ممتاز شامل منذ زيج إيلخاني لمرصد مراغة في وقت سابق بقرنين من الزمان. زيج سلطاني تضمنت مراكز ٩٩٢ نجم.

[١] هو الْعَالم الْعَامِل والفاضل الْكَامِل الْمولى مَحْمُود بن مُحَمَّد ابْن قَاضِي زَاده الرُّومِي المشتهر بَين النَّاس بالمولى ميرم جلبي قَرَأَ على عُلَمَاء عصره مِنْهُم الْمولى خواجه زَاده وَالْمولى سِنَان باشا ثمَّ صَار مدرسا بمدرسة كليبولي ثمَّ صَار مدرسا بمدرسة عَليّ بك بِمَدِينَة ادرنه ثمَّ صَار مدرسا بمدرسة مناستر بِمَدِينَة بروسه ثمَّ نَصبه السُّلْطَان بايزيدخان معلما لنَفسِهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْعُلُوم الرياضية وَكَانَت لَهُ فِيهَا مهارة عَظِيمَة. الاعلام للزركلي

[٢] غَيَّاثْ اَلدِّينُ بْنْ مَسْعُودْ بْنْ مُحَمَّدْ اَلْكَاشِي (ت ٨٣٩ هـ) من أعظم من اشتهر في القرن التاسع الهجري بالحكمة، والرياضيات، والفلك، والنجوم، وغيرها.

[٣] عَلَاءْ اَلدِّينْ عَلِي بْنْ مُحَمَّدْ اَلْقُوشْجِي اَلسَّمَرْقَنْدِي (ت. ٨٧٩هـ) هو فلكي رياضي، وفقيه حنفي، ومتكلم على مذهب أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية، أصله من سمرقند. برع في علم الكلام والعلوم الرياضية حتى لقبه البعض بـ (حكيم أهل السنة). كان أبوه من خدام الأمير أولوغ بيك ملك الدولة التيمورية، يحفظ له البزاة، ثمّ ذهب إلى كرمان فقرأ على علمائها وصنّف فيها «شرح تجريد العقائد» لنصير الدين الطوسي، وعاد إلى سمرقند. وكان أولوغ بيك قد بنى مرصداً فيها، ولم يكمله فأكمله القوشجي، ثمّ ذهب إلى تبريز فأكرمه سلطانها الأمير حسن الطويل، وأرسله في سفارة إلى السلطان محمد الفاتح، ليصلح بينهما فاستبقاه السلطان الفاتح عنده، فألّف له رسالة في الحساب أسماها «المحمّدية» ورسالة في علم الهيئة أسماها «الفتحية»، فأعطاه مدرسة «أيا صوفيا» فأقام بالأستانة، وتوفي فيها، ودفن في جوار الصحابي أبي أيوب الأنصاري. قرأ الرياضيات والفلك على قاضي زاده الرومي.

[٤] بطليموس هو رياضي وعالم فلك وجغرافيّ ومنجم وشاعر إبيجراما في الأنثولوجيا الإغريقية. من أهل القرن الثاني للميلاد، وُلِد نحو سنة ١٠٠م وتوفّي قُرْب الإِسْكَندريّة نحو ١٨٠م. وهو وصاحِب كتاب المَجَسْطي. يقوم نظامُه الفَلَكيّ على أَساس أنّ الأَرْضَ ثابِتَة، وأَنَّ الأَفْلاك تَدُور حَوْلَها.

[٥] دائرة المعارف الإسلامية بوفا L. Bouvat.

ألغ بك أمه كوهر شاه ولد بمدينة سلطانية عام (٧٩٦هـ ١٣٩٣م). وكان أديبًا له مشاركة في العلم والفن، وقد حقق أحلام تيمور بأن جعل سمرقند مركز الحضارة الإسلامية. وكان إلى جانب ذلك فقيهًا أكبَّ على دراسة القرآن فحفظه وجوده بالقرءآت السبع، وشغف بالشعر فاتخذ لنفسه خيرة من شعراء العصر أمثال برزدق ورستم الخورباني وطاهر الأبيوردي، كما أنه لم يكتف بتشجيع البحوث التاريخية، بل كان هو نفسه مؤرخًا صنف في تاريخ أبناء جنكيز الأربعة كتابًا عنوانه «أولوس أربع جينكيزى» ويظهر أنه ضاع.

ودفعه ذوقه الفني إلى أن زين مدينة سمرقند بالبناء الفخمة، فشيَّد الخانقاه في ميدان تركستان على جنب مدرسته لا مثيل لها التي فيها أعلى قمة في العالم. وعلى قول بابر كان يهتم بالمدارس والخانقاوات اهتمامًا يقف لها أوقافًا كثيرةً تضمن تكاليفها[١]. ومسجد ألغ بك أو المسجد المعروف بمسجد كوك أو مسجد عمر، وكان قد زحرف من الداخل على النمط الصيني وقد تم تشييده عام ٨٢٣هـ ١٤٢٠م، وكذلك بنى عام ٨٢٨هـ ١٤٢٤م مدرسة بها حمام مزخرف بالفسيفساء البديعة، والقصر ذا الأربعين عمودًا (جبل شون) المعقودة بأبراج أربعة شاهقة، والمزين بصف من عمد المرمر. وبنى كذلك قاعة لعرش أو الكومشخانة، وشيَّد كذلك جيني خانه وقام على نقش حوائطه بالصور نقاش صيني بارع كان ألغ بك معجبًا به.

وقد أشرف على بناء المرصد المشهور على قوشجي، ولألغ بك إلى جانب هذا شغف عظيم بالكتب كما كان.

ويقول ستانلي بول: أن بابر صلة بين آسيا الوسطى والهند وبنى

---

[١] بارتولد، ص ١٠٣-١٠٤.

قبائل والحكومة المملوكية بين تيمورلنك وأكبر[١].

اجتمع في شرايينه الدم الجينكيزي والتيموري. جاء بجرءة الترك وغيرته إلى الهند فاترة العمة، بكونه جنديًّا ذا حظ ونصيب لإعمار الإمبراطورية، أمكن له أن يضع أساس إمبراطورية شديدة التي قمة علوها وجلالها في عهد حفيده أكبر.

وقد عاش في عهد ألغ بك من الفقهاء عصام الدين وعلاء الدين الشاشي ومحمد عالم (ذهب هرات ومات فيه) وأفضل الدين الكاشاني الذي كان من العلماء الذين رافقوا تيمور، وسيد عاشق وفضل الله أبو الليث (حبيب الله) ومجند الذي ذهب بعدها إلى مدينة و مات فيه[٢] ١٤٢٠.

ومن شيوخ الطريقة خواجه أحرار ونظام الدين خاموش[٣] وشيخ علاء الدين العطار، و قول دولت شاه من أشهر مشايخ عهد ألغ بيك في سمرقند، وهو عاش أيضًا في بلاط شاهرُخ ومات في شيراز ١٤٢٣. وكان ألغ يعظم قدرهم ويعتني على مشاورهم. وكان صدر عهده فتح الله التبريزي. وكان بخارى في عهده مركزًا هامًّا للشيوخ الطريقة والعلماء. وكان من قضاته شمس الدين مسكين، ومولانا نظام الدين أحمد الخوافي، وكان ألغ بك يشاجر مع في المسائل العلمية[٤].

ثم إن الأبنية الفاخرة والمؤسسات الدينية التي أنشأها ألغ بيك يحرز مقامًا مرموقًا في عهده هو أنشأ سنة ١٤١٩ مدرسة كبيرة في

---

[١] ستانلي بول، ص ٨.

[٢] بافوار، ص ٩٨ فوت نوت.

[٣] ولد ونشأ في سمرقند. إنه تلميذ علاء الدين العطار، أحد خلفاء بهاء الدين النقشبندي. منذ أن كان منتصرًا وفي صمت، كان يعرف باسم لقب «خاموش». موسوعة الإسلامية: التركية.

[٤] روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات، ١/ ٢١٧.

بخارى.

وإن علـم الإلهيـات (علـم الـكلام) مـدرس فـي مدرسـة ألـغ بيـك، رغـم أن الصوفيـة وأتباعهـم كانـو يخالفونـه. واسـتمرت هـذه المدرسـة تـدرس فيهـا للطلبـة حتى عهـد أميـن حيـدر (١٧٩٩-١٨٢٥) ويقول أوسـتورومر فـون: أنـه رأى هـذه المدرسـة سـنة ١٩٠٦ يـدرس فيهـا المدرسـان ولـه ستين طلبة.

ولـم يكـن تأثيـر المغـول فـي تشـجيع العلـم بأقـل مـن تأثيـر السلاجقـة. فـإن هولاكـو الـذي عـرف فـي التاريـخ بوحشـيته وتحملـه المسـؤولية فـي دمـار بغـداد، قـد بنـى فـي فرغانـه مرصـدًا نموذجيًّـا وعهـد بإدارتـه إلـى نصيـر الديـن الطوسـي مؤلـف «الجـدول الإيلخانـي» ومختـرع الأدوات العديـدة التي كانـت مستعملة في ذلـك المركـز الجديـد الـذي شـقت منه علـوم بغـداد والقاهـرة الفلكيـة طريقهـا إلـى الصيـن أثنـاء حجـوم قـبلاي خان.

ولـم يكـد ألـغ بيـك يتسـلم مقاليـد الحكـم وهـو حفيـد تيمورلنـك حتـى بلـغ علـم الفلـك عصـره الذهبـي، وكذلـك أولـغ بيـك الـذي كان يحمـل اسـم أبيـه شـاهرخ، وكان اسـمه يقتـرن بالحركـة الفكريـة والفنيـة الرائعـة التـي تدعـي النهضـة التيموريـة، لقـد كـرَّس نفسـه لدراسـة علـم الفلـك، ويعتبـر آخـر ممثلـي مدرسـة الحكمـة فـي بغـداد. وكتابـه الـذي طبـع سـنة ١٤٣٧ يعـد اسـتعراضًا شـاملاً لعلـم الفلـك المعاصـر، ويعتبـر حلقـة الوصل بين علم الأقدمين في الفلك وعلم الفلك الحديث[١].

ومـن علمـاء الديـن أحمـد التفتازانـي[٢]، ومـن المحدثيـن ميـر جمـال

[١] حيدر بامات، كيف أسهم المسلمون في الحضارة الإنسانية، مجلة المسلمون العددان السابع والثامن ١٩٦٢.

[٢] هو أحمد بن يحيى بن محمد بن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الهروي: شيخ الإسلام، من فقهاء

الدين عطاء الله المقدسي، وغيرهم من الفقهاء والمهندسين والأطباء والحكماء الذين لا يحدون بالحصر[١].

وكان عهد حفيده ألغ بيك (حوالي ٩-١٤٤٧)، الذي حكم زهاء ثمانية وثلاثين عام ونيف عهدًا ذهبيًّا لما وراء النهر، وكان هو نفسه عالمًا وفلكيًّا وشاعرًا وملزمًا للعلم والفن يشجع أهله وهو وقف لأجل وإنعاشه الأمر الذي خلَّد اسمه في طول الأيام، ويعود الفضل في شهرته العالية لمرصده الفلكي المعروف الذي أنشأه في سمرقند سنة ١٤٢١م قبيل جلوسه على عرش السلطنة، ثم جداوله التي رتَّبها وأنه أكملها سنة ٨-١٤٣٧ والتي اشتهرت بدقة صحتها وبكونها تامَّة وكاملةً. خلفها الشرق كتحفة نفيسة إلى الغرب. وقد نشر جداوله Jhon Greues الأستاذ الفلكي في جامعة أكسفورد سنة ١٦٥٠ ثم طبعت ثانيًّا بعده بقرن.

ثم أن إيران تدين له في أخذ التقويم الشمسي الذي يستعمل إلى يومنا هذا. وكان هذا التقويم في الأصل مبينًا على أسماء الحيوانات الثانية عشرة التي تمثل منطقة البروج. وكان أبناء ألغ بيك شاعرين وأديبيين ماهرين في النظم والنثر.

وكذلك استمر عهد حسين بايقرا يزدهر بنشاط علمي وفني وأدبي. وعهد شاهرُخ على حسب بابر كان عهده عهدا بديعًا

الحنفية، يُلقب بسيف الدين، ويُعرف بحفيد السعد التفتازاني كان قاضي هراة مدة ثلاثين عاماً، ولما دخلها الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي كان الحفيد ممن جلس لاستقباله في دار الإمارة، ولكن الوشاة اتهموه عند الشاه بالتعصب، فأمر بقتله مع جماعة من علماء هراة، ولم يُعرف له ذنبٌ، ونُعت بالشهيد. له كتب، منها مجموعة سميت (الدر النضيد في مجموعة الحفيد – ط) في العلوم الشرعية والعربية، و (حاشية على شرح التلخيص – ط) فرغ من تأليفها سنة ٨٨٦ (والفوائد والفرائد – خ) حديث، في طوبقبو، و (شرح تهذيب المنطق – خ) لجده، في الأزهرية. استشهد عام ٩١٦ هـ الموافق ١٥١٠ م.

[١] دائرة المعارف الإسلامية.

ومندهشًا، وهو حكم هرات ٣٧ سنة، وكان هو شخصه أديبًا وفنَّانًا بدرجة عالية، شائقًا ومغرمًا للفنون الجميلة، يحب العلم والعلماء ويشجِّعهم، وكان ديوان أشعاره يقرأ ويترنم في بلاط شاه حسن أرغون[١] في السند، فقد ظلَّ بلاطه مجمعًا أدبيًّا لمشاهير العلماء والأدباء الذين ظهروا في ذلك العصر الذهبي كأمير شير علي نوائي، وكان وزيرًا له وهو يعد من نهل وأصفي الأدب التركي، وكان هذا الشاعر التركي الكبير مركزًا للحلقة الأدبية لكل من أدباء الفارسية والتركية في بلاط هرات. وقد نشأ وترعرع الأدب التركي جنبًا على جنب مع الأدب الفارسي في ظل اهتمامه وعنايته، وكان هو نفسه يضع مؤلفاته باللغة التركية، وله فضلاً على أشعاره ودواوينه ومؤلِّفاته في اللغة التركية ديوان الأشعار الفارسية، وكان تخلصه في الفارسية فاني، وكان يشجع الفن والأدب خاصة، وإذا كان كمال الدين بهزاد[٢] وشاه مظفر الفنانان الشهيران قد حازا شهرة عالمية في آثارهما الفنية كان ذلك بسبب التشجيع الذي أسدى لهما هذا الوزير التركي. ومنهم خاتم الشعراء مولانا جامي[٣] الذي عاش (١٤١٤) في هرات. وكان شيخم بيك تلميذ أمير علي شير نوائي، سيلي وكمال الدين

---

[١] ميرزا شاه حسين آرغون، أمير إمارة آرغون في السند. دانشنامه جهان اسلام، جلد ١٣ (حرانى، حماد – حلبچه) (٢ صفحه – از ٣٤١ تا ٣٤٢)

[٢] كمال الدين بِهْزاد (٨٥٤ – ٩٤١ هـ) هو مصور منمنمات، من أهل هراة. درس التصوير على يد بير سيد أحمد التبريزي وعلى ميرك نقاش. عينه الشاه إسماعيل مديراً للمكتبة الملكية. زيات، إلياس. الموسوعة العربية، بِهْزاد كمال الدين.

[٣] نور الدين عبد الرحمن الجامي (٨١٧ – ٨٩٨ هـ)، من مشاهير شعراء فارس وكتابهم في القرن التاسع الهجري. ولِدَ في بلدة خرجرد من قرى جام بولاية خراسان، استمرَّت شهرته في الاتساع حتى بلغت سلاطين الدولة العثمانية، وعندما ذهب الجامي إلى مكة للحج أرسل إليه محمد الفاتح السلطان العثماني يطلب منه العودة إلى الأستانة بعد الحج، غير أنَّه رفض وعاد إلى هراة تحت رعاية السلطان حسين، وكاتبه كذلك يزيد الثاني ابن محمد الفاتح ورفض طلبه أيضاً، وظلَّ في هراة حتى توفِّي في سنة ٨٩٨هـ. عبد الكريم الأسعد، الوسيط في تاريخ النحو العربي، ط.١. (الرياض: دار الشروق للنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى. ص. ١٤٢. أحمد الطنطاوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النُّحاة. ط.٢. (القاهرة: دار المعارف – ١٩٩٥). ص. ٢٠٤.

الكازركاهي[١] أيضًا من فحول الأدباء الذين اكتظوا في سلك هذه الحلقة الأدبية[٢].

وهكذا نرى حفيده الثالث ظهير الدين بابر (١٤٨٢ - ١٥٣٠) قد يلعب دوراً هامًّا في رقي النشاط العلمي والأدبي، هو جاء من فرغانة، فوجد شخصه وسلالته حقلة جديدة في الهند وكان هو شخصه أديبًا فاضلاً، وشاعرًا، وله فضل على «تزك» الذي يعد أنموذجة للأدب التركي، وله مؤلفات عديدة نثرًا ونظمًا في كل من اللغة التركية والفارسية[٣]. ثم إن الميزان التي تتمثل في خواطر بابر «تزك» قد تجلت بعدها في آثار أخلافه الأدبية كهمايون لكل بدن بيكوم وتوزك جهانكير[٤].

وكان عمه ومعاصره ميرزا حيدر دوغلات (١٤٥٠-١٤٩٩) مؤرخًا أديبًا ومحبًّا للموسيقي. كتب بابر بالتركية وكتب هو بالفارسية، وله كتاب في تاريخ المغول[٥].

وهو يقول بشأن بابر: أنه كان تخلَّق بشتى الفضائل والخصائل الجميلة التي لا تعد تحصى ولا سيَّما جرئته وكرم أخلاقه ومروءته كانت فوق تلك الخصائل. وكان يعد في إنشاد الشعر في اللغة التركية شاعرًا بدرجة أولى بعد أمير علي شير، وكان بارعًا في فن الموسيقي والفنون الأخرى الجميلة. وفي الحقيقة أنه ما ملك أحد

---

[١] كمال الدين حسين بن علي الكاشغري الواعظ البيهقي الهروي المتوفي ٩١٠هـ الذي يعد أستاذا بدرجة أولى وقائدا لنشر المربع الفارسي الذي ازدهر في هرات في ذلك العهد. وهو ترجم «كليلة ودمنة» باسم الأمير شيخوم السهسلي إلى لغة فارسية تعد أنموذجة عالية للنشر الفارسي المرصع، ومن مؤلفاته «روضة الشهداء» ومواهب العلمية وجواهر التفسير لتحفة الأسير وأخلاق محسني لوائح الشعر.

[٢] دائرة المعارف الإسلامية.

[٣]

[٤] توينبي، ٢ / ١٤٩.

[٥] المرجع السابق.

من أفراد عائلته تلك المعدنة والقريحة والنبوغ التي ملكها بابر، وكذلك ما أنجز أحد من نسله تلك الأعمال العجيبة والخوارق والمخاطرات التي قام بها بابر[١].

وكان بايسنقر[٢] بن شاهرُخ خطاطًا بدرجة أولى، وكان هو أيضًا مغرمًا للفنون الجميلة. وفي عهده وباهتمامه انكشف فن التجليد وتذهيب الكتب والخطوط، وفن التصوير والرسم والنقوش وغيرها من الفنون الجميلة. وأخيرًا كان لهذا العهد نصيب وافر في تحسين الفن العمراني حيث انكشف فن العمران بطراز جديد متأثراً من المعابد الصينية والخيام المغولية. وأن ضريخ نور أسد ومسجد بي بي خانم ومسجد ألغ بيك وضريح شاه زنده وغيرها من المساجد العديدة التي بنيت في سمرقند في عهد تيمور وأخلافه تعد من آيات الفن المعماري المثالية لهذا العهد، وكان الفنانون وأرباب الصناعة الذين جاؤوا بهم تيمور إلى سمرقند وآذربيجان من بلاط مفتوحة، عملوا في تحسين فن الظروف الحزفية تحسينًا باهرًا، وكذلك علم الموسيقي انكشف باهرًا في ذلك العهد الباهر[٣].

في بلاط مصر والشام

الدولة الطولونية

وهي أول دولة تركية إسلامية حكمت في مصر والشام من سنة

---

[١] سر برى سيكس، ص ١٣٦ نقلا عن تاريخ رشيدى لدوغلات.

[٢] غياث الدين بايسنقر (٨٠٢ – ٨٣٧ هـ) هو فنان ومن أمراء التيموريون. كان معروفًا بصفته راعي الفنون والعمارة، والراعي الرئيسي للمنمنمات الفارسية في بلاد فارس، حيث قام بالتكليف بإنشاء نسخة من «شاهنامة» وسميت شاهنامة بايسنقر وله أعمال أخرى، فضلاً عن كونه خطاطًا بارزًا. البهنسي، عفيف، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين. ط. ١. (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥). ص. ١٦.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية: مادة: بني تيمور.

٢٥٤هـ ٨٦٨م إلى سنة ٢٩٢هـ ٩٠٥م. قال ابن تغري بردي[١] بشأنها أنها كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام. ولو أن دولتها كانت تابعة للخلافة ولكن كان ذلك بالاسم فحسب، وقد حذا حذوها مؤسسوا الدويلات التي قامت على أنقاض الخلافة فيما بعد[٢]. تول في خلالها خمسة ملوك من أفراد الأسرة وهم:

١- أحمد بن طولون	**٢٥٤هـ - ٨٦٨م**
٢- خمارويه بن أحمد	**٢٧٠هـ - ٨٨٣م**
٣- أبو العساكر جيش بن خمارويه	**٢٨٢هـ - ٨٩٥م**
٤- هارون بن خمارويه	**٢٨٣هـ - ٨٩٦م**
٥- شيبان بن أحمد	**٢٩٢هـ - ٩٠٤م**

مؤسس الأسرة

وكان مؤسس الدولة أو الأسرة أحمد بن طولون من أتراك تركستان الشرقية، وكان أبوه طولون مملوكًا ينتمي إلى قبيلة تغزغز (توقوز أوغوز أسلاف الأويغور). يقيم أسرته بجوار لوب (تركستان الشرقية)، فأسر طولون في إحدى الوقائع الحربية وجئ به إلى نوح بن أسد الساماني الذي أهداه في جملة من أهداهم من المماليك إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ[٣]، فأعجب به المأمون[٤] وألحقه بحاشيته

---

[١] هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري. (٨١٣ - ٨٧٤ هـ)، مؤرخ مصري كان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه الناصر فرج بن برقوق. تتلمذ علمياً ودينياً على أيدي كبار مشايخ عصره أمثال زوج أخته قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عربشاه. ثم لازم مجلس شيخ المؤرخين تقي الدين المقريزي فتعلم منه حب التاريخ والتأريخ. وبذلك انتمى ابن تغري إلى طبقة الأمراء وأرباب الدولة وتتلمذ على أيدي العلماء وأهل العمائم.

[٢] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أحمد بن طولون.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أحمد بن طولون. بارتولد، تاريخ التركمن، (لندن) ص ٨٦.

[٤] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين أَبُو اَلْعَبَّاس عَبْدُ اَللَّهْ اَلْمَأْمُون بن هَارُونْ اَلرَّشِيد بن مُحَمَّد اَلْمَهْدِي بن عَبْدِ اَللَّهْ اَلْمَنْصُور العبَّاسيُّ الهاشميُّ القُرشيُّ (١٧٠ - ٢١٨ هـ) سابِع خُلفاء بَنِي العبَّاس، حكم دولة الخِلافة

لتناسب أعضائه وقوة بنيته. وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير الستر. فأقام طولون نحوا من عشرين سنة في هذا المنصب في أيام الخليف المأمون والخليفة المعتصم، وولد له ابنه أحمد سنة ٢٢٠هـ، فرباه أحسن تربية، وهو حفظ القرآن وأتقنه وتفقَّه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة. ولما توفي طولون سنة ٢٣٩هـ فوض إليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه من إمارة الستر ثم تنقلت به الأحوال إلى أن تولى امرة الثغور وامرة دمشق ثم ديار مصر[١].

وكان أحمد قد نال حظًّا وافرًا من الثقافة الحربية والدينية، وكان تلقى علومه الدينية في طرسوس وهبرز في سن مبكرة في علوم اللغة والقرآن والشريعة، وأولع بالتعليم العسكري الذي كان يربي عليه فتيان مواطنيه من الأتراك في «سرمن رأى» حتى نال الحضوة عند الخليفة المستعين الذي قام أحمد على حراسته حينما حبس فيما بعد والذي أنكر أحمد من الاشتراك في مقتله.

ثم ناب أحمد بن طولون عن القائد بايكباك التركي زوج أمه الذي استخلفه عندما أقطعت عليه ديار مصر. فدخل أحمد الفسطاط (مصر) في ٢٣ من رمضان عام ٢٥٤هـ - سبتمبر سنة ٨٦٨م[٢]. وبعد قتل باكبك تولى مصر يارجوح القائد التركي مصر سهر أحمد بن طولون، وبعد موت يارجوح خلفه أحمد بن طولون مرة ثانية فاستقل بأمره، وكان ذلك في سنة ٢٥٩هـ في عهد الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـت)، ثم ضم أحمد بلاد الشام الرملة ودمشق وخمص وحماة وحلب وأنطاكية وغيرها من البلدان الهامة. وكان ذلك بعد أن أرغم دسائس منافسيه من الأمراء كاللؤلؤ وإلى الرقة والمرفق طلحة

العبَّاسيَّة نحو عُشرُون عامًا.

[١] تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ٣ / ٤. دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أحمد بن طولون.

[٢] دائرة المعارف الإسلامية. و حسن إبراهيم، مصر الإسلامية ص ١٢.

أخ الخليفة المعتمد وأحمد بن مدبر عامل خراج مصر وشيقر الخادم عامل البريد وغيرهم[١].

وهكذا استطاع أحمد أن يؤسس الدولة المستقلة في مصر للمرة الأولى منذ أيام البطالمة[٢]، بدأت بها صحيفة جديدة في تاريخها الطويل. وعاد سلطان مصر على الشام للمرة الأولى بعد قرون طويلة منذ أيام الفراعنة. ومنذ ذلك دام سلطة مصر على الشام عدة قرون أخرى.

وكان أحمد أول حاكم بعد الفتح الإسلامي أنهض قوة مصر وجمل عاصمتها[٣]، وأخذ في ترتيب الملك والجيش وإقامة شعائر السلطنة بالديار المصرية[٤]. وكان ذلك بفضل استغلاله للمرة الأولى دخل البلاد واحتفاظه من التسرب إلى بيت مال الخليفة أو إلى جيوب الولاة والعمال[٥].

---

[١] حسن إبراهيم، مصر الإسلامية، ص ١٢. وتاريخ الإسلام، ٣ / ١٢٦.

[٢] البطالمة هم عائلة من أصل مقدوني نزحت إلى مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق.م، حيث تولى أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر وهو «بطليموس» حكم مصر. اهتم بطليموس الأول ببناء مدينة الإسكندرية التي أسسها الإسكندر الأكبر قبل مغادرته مصر في حملة عسكرية إلى بلاد الفرس وأفغانستان والهند. وجعل بطليموس الأول الإسكندرية عاصمة لمصر. لا يعرف أين توجد مقبرة الإسكندر الأكبر حيث أصابته المنية في خارج مصر. وظلت أسرة بطليموس تحكم مصر حتى دخلها الرومان في عام ٣٠ ق.م. وآخر البطالمة كانت الملكة كليوباترا وابنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون). وصل نفوذ الدولة البطلمية إلى فلسطين، قبرص وشرق ليبيا، وقد عرفت ازدهارا خلال عهود بطليموس الأول وبطليموس الثاني وبطليموس الثالث. كون البطالمة ذوي أصول إغريقية لم يمنعهم من التشبع بالتقاليد والعادات المصرية، فمعمارهم المصري ومعابدهم للآلهة المصرية وطريقة عيشهم مصرية وساعد ذلك تزاوجهم من المصريين. جميع ملوك البطالمة حملوا اسم بطليموس. واتخذوا من الإسكندرية عاصمة لهم وظلت كذلك حتى معركة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق.م عندما انتصر اكتافيوس قادما من روما على أنطونيوس وكليوباترا لتصبح مصر ولاية رومانية منذ هذا التاريخ وحتى الفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص. تتكون أسرة البطالمة من ١٦ حاكما إذا أضفنا ابن كليوباترا السابعة وابنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون) ابن يوليوس قيصر * ٥١ ق.م – ٣٠ ق.م. بعد هزيمة كليوباترا انتهى عصر البطالمة في مصر وبدأ حكم الرومان الذي استمر حتى هزمهم المسلمون ودخول عمرو بن العاص مصر، وحكمها نيابة عن الخليفة عمر بن الخطاب.

[٣] حسن إبراهيم، مصر الإسلامية، ص ١٢–١٣. وحتي، ص ٤٥٣.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ٥ / ٢٩.

[٥] حسن إبراهيم، مصر الإسلامية، مقدمة.

شخصيته ومآثره (ابن طولون في نظر المؤرخين):

قال ابن خلكان: «إن أحمد كان عادلاً جوادًا، شجاعًا، متواضعًا، حسن السيرة، صادق الفراسة، يباشر الأمور بنفسه ويعمر البلاد، ويتفقَّد أحوال رعاياه ويحبُّ أهل العلم. وكان من أدرس الناس للقرآن وحافظًا له»[١].

وقال الدكتور حسن إبراهيم: «وكان ابن طولون قائدًا جريئًا، بعيد النظر عالي الهمة، قوي البأس، شديد المراس، اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى، وخشي بأسه إمبراطور الروم، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم وأرسل رسله إليه من تحت يده من المسلمين[٢].

إنه كان سياسيًّا محنكًا وقائدًا ماهرًا، خبيرًا بأساليب الحرب وتعبئة الجيوش، كما كان إداريًّا حازمًا وواقفًا على استغلال موارد الثورة ومصالح الدولة. نشر العدل وعمل على ترضية الناس، فاستتب الأمن واستقرت الأمور وسادت الطمأنية بين الناس، وشمل الرخاء البلاد في عهده، وهو اهتم بالري والزراعة وعني بإقامة الجسور وحفر الترع وإنشاء الطرق. فكان مضرب الأمثال في الكرم والجود وفي الشجاعة[٣].

وقال محمد كرد علي «إن لأحمد بن طولون مشابه من الحجاج بن يوسف الثقفي، وهما يتشابهان في إحسان السياسة، والتجديد في طرق العمل، وبقوة العزيمة، وشدة البطش، الحجاج مثال العربي

---

[١] ابن خلكان، ١ / ١٥٦.
[٢] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ١٢٩.
[٣] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ١٢٩.

الحازم في القرن الأول، وابن طولون مثال التركي الحازم في القرن الثالث. جاهد الحجاج لتكون كلمة دولته هي العليا، وجاهد ابن طولون فكان جهاده لنفسه ولبيته. ذاك لم يخلف من حطام الدنيا شيئًا يعتد به، وهذا أخلف من الخزائن والكنوز ما لم يخلف أعظم أمراء تلك العصور مثله[١].

وكان ابن طولون محبًّا شغوفًا للعلم والفن وهو شجع نشر العلوم في بلاد مصر، وكة تشجيعه ازدهرت العلوم والفنون بنشاط كبير[٢].

وكان جامع طولون ثالث المساجد الجامع التي أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامي بعد جامعي عمرو بن العاص والعسكر. وقد بنى هذا الجامع على جبل يشكر في الجهة الجنوبية في القاهرة، واستغرق بناء سنتين على عمارته مائة وعشرين ألف دينار. وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأولى بعد «مقياس النيل» بجزيرة الروضة الذي بني في آخر عهد الخليفة المتوكل على جعفر العباس تحت إشراف محمد بن كثير الفرغاني المهندس التركستاني[٣]، ثم أصلحه بعد ١٣ سنة الأمير أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ - ٣-٨٧٢م.[٤] كما بنى أحمد مقياسين آخرين أحدهما بقوص والآخر بالجزيرة[٥]. وقد كتب في جداره الداخلي آيات القرآن الكريم بالخط الجميل الكوفي[٦].

ولما شمخ سلطانه وارتفع بها شأنه أخذ في ترتيب الإنشاء. وكان

---

[١] محمد كرد علي، مقدمة سيرة ابن طولون للبكوي، ص: ٢٢.
[٢] دائر المعارف الإسلامية: مادة: الطولونيون.
[٣] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ٤٠٩. والمقريزى: الحفظ، ٣ / ١١٤.
[٤] محمود أحمد، دليل آثار مصر، (القاهرة: طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٣٨)، ص ٣١.
[٥] السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ / ٢٢١.
[٦] حتي، ص ٤٥٤

كاتبه ابن عبد فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره للمرة الأولى على مثال ديوان الإنشاء في بغداد[١].

آثاره وأعماله في حقول الثقافة والفن والعمران:

وكان قيام الدولة الطولونية في مصر فاتحة عهد جديد في حياة مصر العقلية، وقد لعبت دوراً هامًّا في ازدهار الفن المعماري فيها، ويدل على ذلك الجامع الكبير الذي أنشأه أحمد بن طولون مؤسس الأسرة في القاهرة في سنة ٢٦٣هـ، وهو يعدُّ أقدم جامع في مصر ومن آثاره المعمارية الخالدة[٢]، وقد زخرف وخاصة منارته على طراز الآثار المعمارية الزاهر في سامرا وبغداد، وهو أول أثر معماري رائع في مهد الطريق للتقدم والازدهار الفني العمراني في مستقبل مصر. حيث كانت مصر لم ينشأ فيها آثار معمارية تستحق بالذكر بروعتها وآياتها الفنية منذ تأسيس الحكم الإسلامي فيها في غضون القرنين الغابرين[٣]. وكان فسطاط التي اتخذها الطولونيون عاصمتهم الجديدة قد ازدهرت بنشاط فني وأدبي كبيرين، كما ازدهرت القاهرة مؤخرًا في عهد الفاطميين[٤]، كما ازدهرت القطائع في عهد الطولونيين وقد كتبت على رواية معتبرة تراجم الشعراء الذين عاشوا في القطائع في عهده في اثنتي عشرة كراسة. وكان في مصر الفسطاط من المساجد ٣٠٠٦و ٣٠ مسجدًا وثمانية آلاف شارع سلوك وألف ومائة وسبعون حمامًا وغيرها[٥]. الأمر الذي يشهد ويدل على مدى ازدهارها في عهده. وهو عمل ديوان الإنشاء من جديد وكبر شأنه

---

[١] صبح الأعشى، ٥ / ٢٩.

[٢] ابن خلكان، ١ / ١٥٦.

[٣] تراث مصر، ص ٣٦٤ . S.R.K Slav Nille

[٤] تراث مصر، ص ٣٤٧.

[٥] المقريزي، الحفظ، ٢ / ١٢٩. دائرة المعارف الإسلامية: الطولونيين.

على شأن ديوان الإنشاء في بغداد.

وكان هـو أديبًـا ومدققًـا فـي الرسـائل الصـادرة عنـه، وكان كتابـه لـم يكونـون يختمـون كتابًـا ولا يحـررون نسـخته حتـى يعرضـوه عليـه فـان استصابه أفضاه وإلا غيره[١].

القطائع والميدان:

ومـن أكبـر أعمالـه كان إنشـاء مدينـة القطائـع سـنة ٢٥٥هـ - ٩-٨٦٨م فـي قـرب فسـطاط عـل مثـال قصـور الخلفـاء فـي الجلالـة، فأصبحـت مدينـة عظيمـة فاخـرة، أنشـأت فيهـا قصـور جميلـة وميـدان كبيـر لـه أبـواب فخمـة، وكانـت المدينـة ممتـدة مـن المقطـم إلـى جبـل الكيـش، وقـد سـميت المدينـة «القطائـع»؛ لأنهـا كانـت تشـكل مـن قطعـات، أقـام فيهـا أتباعـه وحاشـيته وعسـاكره مـن الطوائـف المختلفـة والمتشـكلة مـن سـودانييِّن ونوبييِّـن وروم والتـرك وغيرهـم، التـي كان عـدد الجيـش فيهـا مائـة ألـف شـخصًا[٢]. وكل قطيعـة يعـرف باسـم الطائفـة التـي تسـكنها. وقـد أفـرد ابـن طولـون علـى جانـب ذلـك فـي هـذه المدينـة لأصحـاب الحـرف والصنائـع والتجـار قطائـع خاصـة، كمـا أفـرد لـكل صنـف مـن تبيـع الصنائـع سـوقًا حسـنًا عامـرًا، فعمـرت المدينـة وامتـدت مبانيهـا المحدقـة بالجنـان والبسـاتين وكانـت مـن السـكان نيفـا علـى مائـة ألـف دار حتـى اتصلـت بالفسـطاط فصـارت مدينـة وأحسـن مـن الشـام[٣]، بعماراتهـا الحسـنة والسـكك والأزقـة والمسـاجد الحسـان والطواحيـن والحمامـات والأفـران والحوانيـت والشـوارع التـي عمـرت فيهـا[٤]، وهـي

---

[١] البلوي: سيرة ابن طولون، ص ١١٢.

[٢] دائرة العارف الإسلامية، مادة طولونيين.

[٣] المقريزي، ٢ / ١٢٤. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام، ٣ / ١٠٦. والبلوي، سيرة ابن طولون، ص ٥٤.

[٤] المقريزي، ٢ ص ١٢٤، وحسن، تاريخ الإسلام، ٣ /١٠٨.

خربـت فـي الشـدة العظمـى زمـن الخليفـة المسـتنصر باللـه العبيـدي[١] أيام القحط والغلاء المفرط الذي كان بالديار المصرية.

وهـو بنـى لنفسـه قصـرًا فخمًـا وميـدانًـا واسـعًا، عمـل لـه أبوابًـا لـكل بـاب اسـم خـاص، فبـاب الميـدان الكبيـر، أو بـاب الصلجـة، كان منـه الدخـول والخـروج لجيشـه وخدمـه، و وبـاب الخاصّـة لا يدخـل منـه إلا خاصّته؛ وبـاب الجبـل الـذي يلـى جبـل المقطـم؛ وبـاب الحـرم لا يدخـل منـه إلا خـادم خصـيّ أو حرمـة؛ وبـاب الدّرسـون كان يجلـس فيـه حاجـب أسـود عظيـم الخلقـة يتقلّـد جنايـات الغلمـان السـودان الرّجّالـة فقـط، واسـمه الدرمـون وبـه سـمّى البـاب المذكـور؛ وبـاب دعنـاج؛ لأنـه كان يجلـس فيـه حاجـب يقـال لـه دعنـاج؛ وبـاب السـاج؛ لأنـه كان عمـل مـن خشـب السـاج؛ وبـاب الـصلاة؛ لأنـه كان يخـرج منـه إلـى الـصلاة وكان بالشـارع الأعظـم، وكان هـذا البـاب يعـرف ببـاب السـباع لأنـه كانـت عليه صـورة سـبعين مـن جبـس؛ وكانـت هـذه الأبـواب لا تفتـح كلّهـا إلا فـى يـوم العيـد أو يـوم عـرض الجيـش أو يـوم صدقـة، ومـا كانـت تفتـح الأبـواب إلا بترتيـب فـى أوقـات معروفـة؛ وكان للقصـر شـبابيك تفتـح من سائر نواحى الأبواب تشرف كلّ جهة على باب[٢].

وأيضًـا مـن أعمالـه جامـع بنـاه باسـم جامـع التنـور[٣] وراء قلعـة «القطائـع» وهـو رمـم منـار الإسـكندرية، وأنشـأ بيمارسـتان، وكانـت أول بيمارسـتان فـي مصـر وأفخمهـا بمـا ضمـن فـي خزائنـه مـن العقاقيـر الخطيـرة والترياقـات المعروفـة التـي لا يوجـد مثلهـا إلا فـي خزائـن

---

[١] هو أبو تميم معد بن الظاهر المعروف بالمستنصر بالله بن علي الظاهر لإعزاز دين الله هو الخليفة الفاطمي الثامن والإمام الثامن عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية.

[٢] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٣ / ١٦.

[٣] هو أحد منشآت الدولة الطولونية التي لم يعد يوجد له أي أثر الآن، قد أنشأه أحمد بن طولون أعلى جبل المقطم وراء قلعة الجبل.

الملوك والخلفاء، مثل دواء المسك وغيره[١]. وكان العلاج والإسعاف فيها مجانًا. وعمل فيها حمامين إحداهما للرجال والأخرى للنساء[٢].

وكذلك بنى القناطر لنقل المياه من النيل أي جنوبي الفسطاط إلى القرافة، كما بنى حصنًا بجزيرة الروضة سنة ٢٦٣هـ ٧٧-٨٦٦م، وعينًا كبيرًا بالمعافز بجهة الإمام الشافعي، ويعرف بمجري ابن طولون، وحصنًا في يافا[٣].

وهو أنفق على هذه المصانع والمنشآت نفقات هائلة، كما جدَّد ضريح معاوية -رضى الله عنه -[٤] سنة ٢٧٠هـ وأعاد أوقافه.

وقال البلوي: كانت نفقات أحمد بن طولون جدًّا لا هزلاً وهو أنفق على الجامع مائة ألف دينار، وعلى البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار، وعلى العين التي بالمعافر مائة وأربعين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة مائتي ألف دينار، وأنفق في بناء الميدان القصمي مائة وخمسين ألف دينار، وعلى مرمات الثغور وعلى حصن يافا مائتي ألف دينار.

جوده وسخاءه:

وكان أحمد جوادًا مفضلاً، أصبح مضرب الأمثال في الكرم والجود كما ضرب له المثل في الشجاعة والبسالة وفي صدق الفراسة وفي العدل والتواضع. وكان يتصدق على الفقراء ويجزل العطاء على النسَّاك والقرَّاء والفقهاء والمحدِّثين والمطبِّبين والمهندسين، فقد أثر عنه أنه لما بنى القصر والميدان وعظم أمره زادت صدقاته حتى

[١] البلوي: سيرة ابن طولون، ص ١٨٠.
[٢] المقريزي، ٣ / ٢٥٩.
[٣] أحمد، دليل آثار مصر، ٣٨.
[٤] دائرة المعارف الإسلامية.

بلغت صدقاته المرتبة في الشهر ألفي دينار. وعلى جانب ذلك كان يبذل في أعمال الخير ألف دينار كل يوم، وهو جعل مطابخ للفقراء والمساكين في كل يوم يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس في القدور الفخار والقصع، ثم ينادي الناس أن يحضروا سماط الأمير[١].
وكان ما يجري على جماعة من أهل المسجد وأبناء الستر والمتجملين وأولاد النعم سوى ما يجري من مال السلطان عليهم من الرزق الراتب في كل شهر خمسمائة دينار. وكانت راتب بطخة ومخلوفة دوابه في كل يوم ألف دينار. وما كان يقيمه من الإنزال والوظائف في كل يوم خمسمائة دينار. وكانت له وظائف خبز ولحم على قوم مستوريين نساء ورجالاً في كل شهر ألفا دينار[٢].

بلاطه:

وحسبنا أن نقول في مدى أبهة بلاط ابن طولون أنه خلف حين مات في خزائنه من الذهب عشرة آلاف ألف دينار (أي خمسة ملايين جنيه ذهبي)، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل سبعة آلاف رأس، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس، ومن الجمال ثلاثة آلاف ومن الخيل لركابه ثلاثمائة وخمسين فرسًا، ومن المراكب الحربية مائتي مركب وغيرها. وكان ما يدخل إلى خزانته في كل سنة بعد مصاريفه ألف ألف دينار[٣].

وكانت للأمراء بالحضرة أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار. وخلف من الأمتعة والفرس والآلاف والأواني آلات السفر ما لا

[١] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٣ / ١٧. ومحمد كرد علي، مقدمة سيرة ابن طولون، ص ٢٤.
[٢] البلوي، ص ٣٥١.
[٣] تغري بردى، ٣/٢١. والبلوي، ص ٣٤٩. وكرد علي، مقدمة ص ٢٢.

يحصى ولا يدرك كثرة واتساعًا[١].

أولاده:

وخلف ابن طولون ثلاثة وثلاثين ولدًا منهم سبعة عشر ذكرًا. ومن أعيانهم العباس وخمارويه الذي ولى مصر بعد موته، وعدنان ونصر وشيبان وربيعة وأبو العساكر وغيرهم. فأما العباس فهو الذي كان عصى على والده فحبس ثم قتله خمارويه لاقتناع مبايعته عندما ولى مصر، وكان شاعرًا[٢]. وقد نبغ بعض أولاده في علوم شتى، ومنهم كان عدنان عالمًا ومحدثًا.

حبه للعلم والعلماء:

وكان أحمد بن طولون محبًّا لأهل العلم يشجِّعهم ويكرم منزلتهم ويجزلهم العطاء. وقد عاش في عهده تحت رعايته من العلماء الكبار بكار بن قتيبة[٣] الذي كان من أكبر فقهاء عصره ومحدثيه، وكان أولاً من أعظم الناس عند أحمد بن طولون.

وقال ابن خلكان: كان أحمد بن طولون يدفع إلى القاضي بكار ألف دينار في كل سنة سوي المقرر له، ثم انحرف منه مؤخرًا؛ لأنه لما دعاه ابن طولون لخلع الموفق من ولاية العهد امتنع فاعتقله[٤]. وأبو يعقوب البلخي والمحدث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي[٥]،

---

[١] البلوي، ص ٣٥٠.

[٢] تغرى بردي، ٣ / ٢٠.

[٣] هو القاضي أبو بكر بكار بن قتيبة بن أسد بن عبد الله بن بشر بن أبي بكرة بن نفيع بن كلدة الثقفي بن الحارث مولى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حدث عن أبي دواد الطيالسي وغيره، وكان أحد الفقهاء على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، أخذ الفقه عن هلال بن يحيى بالبصرة وولي قضاء مصر أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر وستة عشر يوماً.

[٤] تغري بردي، ١٩/٣.

[٥] ابن عبد الجبار بن كامل، الإمام المحدث الفقيه الكبير، بقية الأعلام، أبو محمد، المرادي، مولاهم المصري المؤذن، صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المؤذنين بجامع الفسطاط ومستملي

وأبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقي[١] ولـيَّ قضاء مصر عن أحمد بن طولون وأيضًا في عهد خمارويه[٢] فأقام فيه ثمانية سنة ثم وليَّ قضاء دمشق، فأدخل فيه مذهب الشافعي توفي سنة ٣٠٢هـ[٣]. ومحمد بن شاذان الجوهري[٤] الذي وليَّ قضاء مصر بعد عزل بكار وهو مات سنة ٢٧٥هـ[٥]، وغيرهم. وقد أوفى المؤلفان الشهيران ابن داية[٦] والبلوي[٧] سيرة ابن طولون في كتابين مستقلين فسماهما «سيرة ابن طولون». وقد نشرهما الأستاذ محمد كرد علي.

وقد نبغ من الأسرة الطولونية طائفة من العلماء والمحدثين منهم عدنان[٨] بن أحمد بن طولون، وهو أخو خمارويه بن أحمد، قدم

مشايخ وقته. مولده في سنة أربع وسبعين ومائة أو قبلها بعام. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٨٨.

[١] الإمام الكبير القاضي أبو زرعة، محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة الثقفي مولاهم الدمشقي، وكان حسن المذهب، عفيفا، متثبتا. ولي قضاء الديار المصرية سنة أربع وثمانين ومائتين، وكان شافعيا، وولي قضاء دمشق. وقد كان قام مع الملك أحمد بن طولون. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤/٣٢.

[٢] ابن أحمد بن طولون التركي، صاحب مصر والشام. وكان بطلا شجاعا جوادا مبذرا مسرفا على نفسه. وقد ملك من النوبة إلى الفرات. ولما استخلف المعتضد، سارع خمارويه بالتحف إليه، فتزوج المعتضد بابنته. قيل: أراد أن يفقره بجهازها.

[٣] السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ / ١٨١.

[٤] هو الشيخ، الإمام، أبو بكر، أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان بن حرب بن مهران البغدادي البزاز. قال الخطيب: كان ثقة ثبتا، كثير الحديث. ولد في ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائتين وسمع وهو ابن خمس سنين. قال أبو ذر الهروي: ما رأيت ببغداد في الثقة مثل القواس، وبعده أبو بكر بن شاذان، مات في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/٤٢٩.

[٥] السيوطي: حسن المحاضرة، ٢ / ١٠٠.

[٦] هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية كاتب الدولة الطولونية المتوفى سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١م.[٣] كانت جدته لأبيه داية لإبراهيم بن المهدي العباسي فنُسب إليها، وكان أبوه يوسف رضيعاً للمعتصم العباسي، وقد وفد يوسف ابن الداية إلى مصر وفيها وُلد ابنه أحمد. وألَّف في تاريخهم عدة كتب منها: سيرة أحمد بن طولون. سيرة خمارويه بن أحمد بن طولون. سيرة هارون بن خمارويه. غلمان بني طولون. وغيرها من المؤلفات. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٤٤.

[٧] هو أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي: فقيه وإمام ومؤرّخ مصري، وأحد أعلام المذهب الإسماعيلي، عاش في العصر العباسي. ألَّف العديدَ من الكتب عن الإسماعيلية، ومن أشهر مؤلَّفاته: «الأبواب»، و«المعرفة»، و«الدين وفرائضه»، و«رحلة الشافعي».

[٨] هو عدنان بْن أَحْمَد بْن طولون، أَبُو معد المصري: وهو أخو خمارويه بْن أَحْمَد، قدم بغداد. وحدث بِها عَنِ الربيع بْن سليمان المرادي، وبكر بْن سهل الدمياطي. مات في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.

بغداد من مصر وحدث بها عن الربيع بن سليمان المرادي وبكر بن سهل الدمياطي[١] وروى عنه عبيد الله بن محمد بن عائذ الخلاف وأبو بكر محمد بن أحمد المفيد[٢] وغيرهم. مات سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. وقد روي عنه الحديث المعروف « أعروا النساء يلزمن الرجال»[٣].

وشمس الدين محمد بن طولون المتوفي سنة ٩٥٣هـ - ١٥٤٦م، هو محمد بن علي بن خمارويه بن طولون. وكان عالمًا كبيرًا ومؤرخًا، ولد سنة ٨٨٠هـ في الصالحية في آخر عهد المماليك في مصر، وله مؤلفات كثيرة يبلغ عددها إلى ٧٤٦ مؤلفة تتناول موضوعات مختلفة وعلومًا متباينة، ما يزال كثير منها مخطوطًا لم يطبع، وفي المكتبة التيمورية في مصر عدد وافر بخط ابن طولون.

وكان عمه يوسف أيضًا من كبار العلماء، قد بلغ درجة القضاء وتولى إفتاء دار العدل، وأهم مؤلفاته: «إعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى»، و«تاريخ الصالحية وذخائر العصر»، و«الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الإثني عشر عند الإمامية» نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد سنة ١٩٥٨ بيروت[٤].

وكان أحمد حافظًا متقنًا للقرآن الكريم وحاذقًا لدرسه. وكان يحب حفاظ القرآن، ويكثر مواصلتهم بصلاته. وهو أنشأ بالقرب من قصره

---

[١] ابن إسماعيل بن نافع: الإمام، المحدث أبو محمد الهاشمي، مولاهم الدمياطي، المفسر، المقرئ. ولد سنة ست وتسعين ومائة. مات بدمياط في ربيع الأول، سنة تسع وثمانين ومائتين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٢٦/١٣.

[٢] هو الشيخ الإمام المحدث الضعيف أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب الجرجرائي المفيد. توفي المفيد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٧٠/١٦.

[٣] والقضاعي عن مسلمة بن مخلد مرفوعا: (أعروا النساء يلزمن الرجال) وهو ضعيف. قال الهيثمي (٥/ ١٣٨): ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه مجمع بن كعب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات)). (تاريخ بغداد ص ٣١٩ ج ١٢).

[٤] صلاح الدين المنجد، الأئمة اثنا عشر، ص ١١.

حجرة فيها رجال سماهم بالمكرمين عددهم اثنا عشرة رجلاً يبيت في كل ليلة منهم أربعة يتعقابون بالليل نوبًا، يكبرون ويهللون ويسبحون ويقرأون القرآن بطيب الألحان ويرتلون القصائد زهدية ويؤذنون أوقات الأذان. وكان هو أيضًا من أطيب الناس صوتًا كما كان متقنًا للموسيقي وشاعرًا ينشد الشعر باللغة التركية فيلقيه إلى جواريه لتلحنه وتغنيه له[١]. نقل البلوي ترجمة قطعة من أشعاره التركية.

الأربع العجائب:

وكان لأحمد أعمال عجيبة عدت من عجائب الإسلام الأربعة التي أمكنها لنفسه في وقت لا طائرة ولا سيارة. وهو عرض الخيل بمصر ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد[٢].

وكذلك عاش طائفة جمة من الشعراء الذين مدحوه وأخلافه بأشعارهم البليغة، أورد الكندي طائفة منها في كتابه «الولاة والقضاة»، وكان هو أيضًا من علماء عهد الطولونية الأخير وكان ولد في آخر أيام خماروية أسنة ٢٨٣هـ[٣].

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر في عهد ابن طولون سعيد بن توفيل[٤] طبيبه الخاص وكان نصرانيًّا، وإبراهيم بن عيسى الذي صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها في سنة ٢٦٠هـ والحسن بن أبي أصيبعة[٥]

---

[١] تغرى بردى، ٣ /١٧. والبلوي، ص ١٨٦. وكرد علي، مقدمة، ص ٢٢.

[٢] تغرى بردى، ج ٣ ص ٦٧.

[٣] الكندى: الولاة والقضاة.

[٤] سعيد بن توفيل (توفي في ٢٩٩ هـ) طبيب نصراني، كان في خدمة أحمد بن طولون (صاحب مصر) وكان يصحبه في السفر والإقامة، وله معه أخبار. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١/ ٦٢.

[٥] مُوَفَّق اَلدِّينِ أَبُو اَلْعَبَّاسْ أَحْمَدْ بْنْ سَدِيدٍ اَلدِّينِ اَلْقَاسِمِ بْنْ خَلِيفَةِ بْنْ يُونُسْ اَلْخَزْرَجِيّ اَلْأَنْصَارِي المعروف

خمارويه

(أبو الجيش خمارويه بن أحمد)

وهو الثاني من آل طولون التركي وابن أحمد بن طولون، وهو حكم بلاد مصر والشام خلف أبيه وهو في عشرين سنة من سنة ٢٧٠هـ إلى سنة ٢٨٢هـ. وفي عهده اتسع نفوذ مصر إلى ماوراء ولاية طرسوس. فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات ٢٧٨-٢٧٩هـ، وكان ذلك على جانب مقابلاته ضد الموفق وابن كنداج وإلى الموصل، ومحمد ابن الساج المعروف بالأفشين وإلى أرفية الذي كان قصد مصر فهزمه في بعض أعمال دمشق واستولى عليها وطرسوس وغيرها الذين كانوا قد نبذوا طاعة الطولونيين[١].

وقد ساعد موت الموفق[٢] وابن كنداج[٣] سنة ٢٧٨هـ والخليفة

بابْن أَبِيّ أُصَيْبِعَة (١٢٠٣-١٢٧٠م)، طبيب ومؤرخ مسلم، صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ولد وأقام في دمشق وفيها صنف كتابه طبقات الأطباء، زار مصر وأقام بها طبيبًا مدة سنة. من كتبه التجارب والفوائد وحكايات الأطباء في علاجات الأدواء ومعالم الأمم. توفي بصلخد من بلاد حوران في الشام.

[١] تاريخ الإسلام، ٣ /١٣٠. وابن خلكان، ٢ /٢٠٧.

[٢] هو أَبُو أَحْمَد مُحَمَّد طَلْحَة المُوَفَّق بالله بن جَعْفَر المُتَوَكِّل بن مُحَمَّد المُعْتَصِم بن هارُون الرَّشِيد بن مُحَمَّد المَهْدِيّ العَبَّاسِيّ الهَاشِمِيّ القُرَشِيّ (٢٢٩ – ٢٧٨ هـ) المعرُوف اختصارًا باسم المُوَفَّقْ أو المُوَفَّقْ بالله. هو أميرٌ عَبَّاسِيّ، وقائد جيوش الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في عهد أخيه الخليفة المُعْتَمِد على الله، ويُعتبر المُوَفَّقْ الحاكم الحقيقي للبِلاد، كما كان أحد أهمّ القادة العَبَّاسِيين في التَّاريخ، وذلك لأنه أعاد للخِلافَة هيبتَها، واستقرارها بعد أن تسلَّط عليها التُّرك وأضعفُوها فيما عُرف فِتْنة سَامَرَّاء. ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد، العقد الفريد، ٣ / ٢٩٩. ابن الجوزي، المنتظم، ٥ / ٦٧. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢ /١٢٧. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٩ / ٢٢٧.

[٣] هو إسحاق بن كنداج أو كنداجيق، كان قائدًا عسكريًا تركيًا لعب دورًا بارزًا في السياسة المضطربة للخلافة العباسية في أواخر القرن التاسع. حكم الموصل وجزءًا كبيرًا من الجزيرة بشكل شبه مستمر حتى وفاته عام ٨٩١، على الرغم من مشاركته في مشاجرات مستمرة مع زعماء محليين، وكذلك في تنافس الحكومة العباسية مع الطولونيين في مصر. بعد وفاته خلفه ابنه محمد، ولكن في عام ٨٩٢ أعادت الحكومة العباسية بقيادة الخليفة أحمد المعتضد بالله تأكيد سلطتها في المنطقة، وذهب محمد للعمل في بلاط الخلافة. الجزري، الكامل في التاريخ، ص ٣٦٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٥٤٨.

المعتمد سنة ٢٧٩هـ على توطيد سلطان خمارويه الذي استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده، وكان مدة حكمه على مصر والشام اثنتي عشرة سنة. وتولى مصر بعده ابنه أبو العساكر جيش.

مآثره:

وكان خمارويه محبًّا للفن الموسيقي والرسم وصناعة نحت التماثيل، وكان من أحسن الناس خطاً، كما كان محبًّا للترف يبذل الأموال الضخمة على أبنية بلاطه ومبانيه الفخمة ومنتزهاته، وتكبير شأن الأسواق الأمر الذي شجع ازدهار الفن والحرفة المحليين وغير ذلك. وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار في كل سنة؛ وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام. هذا إلى ما عرف عن خمارويه من كثرة أنفاقه على مطابخه حتى بلغت نفقاته في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٠٠٠و٢٧٦ دينار في السنة) كما كان محبًّا للجود والكرم كأبيه وشغوفًا بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوذين، لهذا إلى ما أطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم[١].

وكان خمارويه محبًّا للنشاط العمراني والثقافي، وهو عمر قصر أبيه من جديد، وزاد فيه محاسن كثيرة، وجعل الميدان كله بستانًا، زرع فيه أنواع الرياحين وأضاف الشجر التي حملت إليها من خراسان وغيرها. ثم بنى في البستان برجًا عاليًّا من الخشب الساج المنقوش، وجعل فيه أنهارًا لطافًا يجري فيه الماء ويسرح في البرج من أصناف القماري والدباسي وما أشبها من كل طائر يستحسن صوته

---

[١] الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ١٣٠-١٣٢. ابن خلكان، ٢ / ٢١.

كالطواويس ودجاج الحبشي ونحو ذلك، وعمل في هذا البستان مجلسًا سماه دار الذهب، طلي حيطانه كلها بالذهب المجاول اللازورد في أحسن نقش، تغنينه تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر في وآذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنع وهي مسمرة الحيطان ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة. فكان هذا القصر من أعجب ما بني في الدنيا[١].

وجعل بين يدي هذا القصر فسقية عجيبة في بركة طولها خمسون ذراعًا في خمسين ذراعًا عرضًا، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمةً، وكان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق. وكان خمارويه ينام فيها على الفرش من أدم خشبي بالريخ وشد بالزنانير السرير في حلق من فضة[٢].

ثم بنى خمارويه في القصر قبة تضاهي «قبة الهواء» سماها الدكة وجعل لها الستر الذي يقي الحر والبرد فيسدل حيث شاء ويرفع متى شاء[٣]، ثم بنى ميدانًا آخر أكبر من ميدان أبيه، كما بنى دارًا للسباع وعمل فيها بيوتًا كل بيت لسبع، وكانت هذه الدار كحديقة للحيوانات كاملة بكل السهولات رتبت بأحسن ترتيب، وكان من جملة السباع سبع أرزق العينين يقال له «زريق» قد أنس بخمارويه وصار مطلقا في الدار لا يؤذي أحدًا، وكان لكل واحد منها دارًا مفردة. وهذا كان سوى الإصطبلات التي كانت في الجزة ونهيا ووسيم وسفط وطهرمس[٤].

---

[١] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٣ / ٥٥.
[٢] تغرى بردي، ٣ / ٥٥.
[٣] تغرى بردي، ٣ / ٥٦.
[٤] تغرى بردي، ٣ / ٥٨.

نفقاته للجيش وغيرها:

وبلغ نفقات الجيش المصري في أيام خمارويه في السنة تسعمائة ألف دينار، ونفقات مطبخه في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار، وهذا سوى مصروف حرمه وجواريه ومايتعلق بهن[١].

و وكان من جملة جهازها دكّة أربع قطع من ذهب عليها قبّة من ذهب مشبّك فى كل عين من التشبيك قرط معلّق فيه حبّة من جوهر لا يعرف لها قيمة، وألف هاون من الذهب وغيرها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يسمع به[٢]. وأيضًا بنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصرًا فيما بين مصر وبغداد. فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرًا قد فرش وفيه ما تحتاج إليه كأنها في قصر أبيها[٣].

لعل إنفاقه في جهاز ابنته قطر الندي لما تزوجها الخليفة المعتضد، يعد من أكبر جهاز الزواج في التاريخ وأروعه، حيث أكثر لهذا الجهاز من الجواهر والتحف وغير ذلك مما دعا إلى صرف ألف ألف دينار وأدَّى إلى نفاد جميع ما كان في خزانته وعجزه عن نفقات قواده وجيوشه.

ولاية أبي العساكر جيش، وخاتمة الدولة:

هو أبو العساكر جيش بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، الثالث من الأسرة الطولونية ولىَّ مصر والشام بعد قتل خمارويه بدمشق في ٧- من ذي القعدة سنة ٢٨٢هـ. لكن سرعان ماستوحش الناس منه لما وقع منه أمور أنكرت عليه، وإقباله على

---

[١] تغرى بردي، ٣ / ٦١.

[٢] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٦١/٣.

[٣] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٦٢/٣.

الشرب واللهو مع عامة دوباش. وكانت ولايته ستة أشهر خلف أبو العساكر هارون لما دخل جيشه إلى مصر[١].

ثم وليَّ مصر بعده أخوه الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه، وكان ذلك ١٢ من جمادي الثاني سنة ٢٨٣هـ، وهو قتل في ١٩ من صفر سنة ٢٩٢هـ، وكانت ولايته على مصر ثماني سنين وثمانية أشهر ثم تولىَّ مصر أبو المقانب عمه شيبان بن أحمد الذي كان ولايته اثني عشر يوما وبه انتهى أمر الدولة الطولونية قضى عليها محمد بن سلمان الذي كان الخليفة المكتفي قد ولاه مصر، الذي قتل شيبان وكل من بقي من أفراد الأسرة ومن أولادهم وأعوانهم، وكان ذلك بعد أن ساقهم إلى بغداد مقيدين بالسلاسل.

الدولة الإخشيدية التركية

وهي الأسرة الثانية التي قامت بدولتها وبسطت سلطانها إلى مصر والشام والحجاز بعد الطولونيين، وكان مؤسسها أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن يلتكين من أولاد ملوك فرغانة الذين حكموها باسم الإخشيديين والذين ينتمي نسبهم إلى أجدادهم القاراخانية أو الإيلكخانية التركية التي حكمت متأخرًا في تركستان الشرقية[٢]. وغيرها من بلاد تركستان.

وكان جده جف جاء إلى الخليفة المعتصم بجماعة كثيرة جلبت إليه من فرغانة فأكرمه المعتصم وأقطع له ولجماعته قطائع بسر من رأى (سامراء) ولم يزل مقيمًا بها وجاءت له الأولاد[٣]، إلى أن توفي

---

[١] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٣/ ٨٨.

[٢] زكي وليدى طوغان، تورك إيلى تاريخي، ص ٩٨.

[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣ / ١٤٧.

هذه الخليفة فاتصل بعده بابنه الواثق ثم بأخيه المتوكل[١]، وظلَّ على ذلك إلى أن توفي في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ[٢].

فاتصل طغج بن جف بعده بأحمد بن طولون في مصر فاستخدمه على ديار مصر، وكان من أكابر قواده. فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون، ثم أخذه أبو الجيش خمارويه معه وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق وطبرية ولم يزل معه إلى أن قتل أبو الجيش. فرجع طغج إلى الخليفة المكتفي بالله فأكرم الخليفة مورده، ولكنه حبس وابنه أبي بكر محمد بإيقاع وإغراء الوزير العباس بن الحسن؛ لأنه ترفع عن النزول له[٣].

فتوفي طغج في السجن وبقي ولده أبو بكر محمد بعده محبوسًا مدة ثم أطلق وخلع عليه، ولكن هو لم يزل يراصد الوزير العباس بن الحسن حتى أخذ هو وأخوه عبيد الله بثأر أبيهما الوقت الذي اشتبك مع الحسين بن حمدان[٤].

ثم هرب عبيد الله بن طغج إلى شيراز ودخل هناك في خدمة أميرها ابن أبي السالج، ثم عاد إلى بغداد في أيام الخليفة المقتدر بالله واتصل بخدمته وحاز من علو المرتبة، ما جعله يفتخر على أخي أبو بكر محمد الإخشيد[٥].

وأما أبو بكر محمد بن طغج مؤسس الدولة هرب إلى الشام واتصل بخدمة ابن بسطام عاملها ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه

---

[١] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ١٢٧.
[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣ / ١٤٧.
[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣ / ١٤٧.
[٤] ابن خلكان وفيات الأعيان، ٣ / ١٤٧.
[٥] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ / ١٣٧.

الإخشيد إليها وبقي معه إلى أن توفي سنة ٢٩٧هـ فاتصل بعده بخدمة ابنه أبي القاسم علي ثم اتصل بإلى منصور تكين الجزري وكان من أكبر أركانه، وعنده اشتهر أمر محمد طغج في الدولة العباسية تحت قيادة تكين في الموقعة التي دارت بينه وبين جند حباسة بن يوسف الكتامي قائد عبيد الله المهدي الفاطمي في بلاد المغرب، وفي هذه الموقعة أبلي أبوبكر محمد الإخشيد بلاءً حسنًا وتوثقت الصلة بينه وبين تكين الذي كان يلي بلاد الشام إذ ذاك[١].

هو تقلده عمان وجبل الشراة ولم يزل أبو بكر في صحبة تكين سنة ست عشرة وثلاثمائة ثم ولاه المقتدر الرملة، فكان بولايتها إلى سنة ثماني عشرة ثم ولاه ولاية دمشق، ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهرة بالله[٢] ولاية مصر في شهر رمضان سنة ٣٢١هـ، ولكن لم يدخل مصر في هذه الولاية، ثم ولى أبو العباس أحمد للمرة الثانية من قبل القاهر في شهر شوال لتلك السنة. أعيد إليها أبو بكر محمد بن الإخشيد للمرة الثانية من جهة الراضي بالله بن المقتدر بعد خلع القاهر عن الخلافة وضم إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك، وهو دخل مصر وتمكن فيها.

وفي سنة ٣٢٧هـ لقبه الراضي بلقب أجداده الإخشيد ودعي له على منابر مصر والشام، ولم يزل أبو بكر على مصر إلى أن توفي

---

[١] نفس المرجع، ١٣٧/٣.

[٢] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو مَنْصُور مُحَمَّد القاهِر بالله بن أحمَد المُعْتَضِد بن طَلحة المُوفَّق بن جَعْفَر المُتَوكِّل بن مُحَمَّد المُعْتَصِم (٢٨٦ – ٣٣٩ هـ)، المعرُوف اختصارًا باسم القاهِر أو القاهِر بالله، هو الخليفة التَّاسِع عَشَر من خلفاء بَني العبَّاس. حينما قتل المقتدر أحضر هو ومحمد بن المكتفي بالله، فسألوا ابن المكتفي أن يتولى الخلافة، فقال: لا حاجة لي في ذلك. وعمي هذا أحق بها، فكلم القاهر، فأجاب، فبويع، ولقب القاهر بالله. قال الصولي عنه: «كان أهوج، سفاكا للدماء، قبيح السيرة، كثير التلون والاستحالة». خلع من الخلافة بسبب سوء سيرته، فامتنع من الخلع، فسملوا عينيه في سنة ٣٢٢ هـ. وتوفي في سنة ٣٣٩ هـ. جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء. دار الكتب العلمية. وتاريخ الإسلام حوادث، ٥/ ٣٢١.

الراضـي باللـه سـنة ٣٢٩هـ. وتولـى أخـوه المتقـي باللـه إبراهيـم بـن المقتـدر[١]، ومنـذ ذلـك دخلـت سيادة مصـر قائمـة علـى تلـك الـبلاد عـدة قـرون أخـرى حتـى ٤٥٦هـ فضـم إليـه الشـام والحجـاز وغيـر ذلـك وكان ذلـك بعـد انهـزام محمـد بـن رائـق[٢] بيـده الـذي قتلـه بنـو حمـدان فـي الموصل في سنة ٣٣٠هـ[٣].

فوطـد الإخشـيد مركـزه فـي تلـك الـبلاد، وأعـاد النظـام السـكينة فيهـا، وضـم دمشـق إلـى رقعتـه مـن سيف الدولـة الحمداني[٤]، وهـو لعـب دوراً هامًّـا فـي صـدِّ غـزوات الفاطميـين الذيـن أرسـلوا إلـى مصـر حملـة استمرت ثلاث سنوات أي من سنة ٣٢١ إلى سنة ٣٢٤هـ[٥].

خصائله:

قـال ابـن خلـكان: أنـه كان ملـكًا حازمًـا كثيـر التيقـظ فـي حروبـه ومصالـح دولتـه، حسـن التدبيـر، مكرمًـا للجنـد، شـديد القـوى. ولـم يـزل

---

[١] هو أمِيرُ اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَةُ المُسْلِمِين أبُو إسْحاق إبْراهِيم المُتَّقِي لله بن جَعْفَر المُقْتَدِر بن أحْمَد المُعْتَضِد بن طَلحة المُوفَّق بن جَعْفَر المُتوكِّل اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ (٢٩٥ – ٣٥٧ هـ)، المعرُوف المُتَّقِي لله، هو الخليفة الحادِي والعُشرُون من خُلفاء بَني العبَّاس. بويع لَه بالخِلافة بعد موت أخيه الرَّاضِي بالله سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م حتى تم خلعُه سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، ص١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ١٩٨. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٦/ ٢٧٩.

[٢] هو محمد بن رائق هو المسؤول الأعلى مقامًا في الخلافة العباسية، والذي استغل ضعف الخلافة ليصبح أول أمير أمراء للخلافة العباسية في عام ٩٣٦م. خلع من قبل قادة القوات التركية عام ٩٣٨م لكنه استعاد منصبه في عام ٩٤١م وحافظ عليه الا انه اغتيل في نيسان عام ٩٤٢م.

[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١٢٨. المقريزي، ٣.

[٤] هو سَيفُ الدَّوْلَةُ أَبُو اَلحَسَن عَلِيُّ بْنُ أَبِي اَلهَيْجَاءِ بْنِ حَمْدَانِ اَلحَمْدَانِيّ، (٣٠٣ – ٣٥٦ هـ)، مؤسس إمارة حلب، التي تضم معظم شمال سوريا وأجزاء من غرب الجزيرة، سيف الدولة خدم تحت ولاية أخيه الأكبر في محاولات من أخيه للسيطرة على الدولة العباسية الضعيفة في بغداد في أوائل ٩٤٠ م، عانت مملكته من سلسلة من التمردات القبلية حتى ٩٥٥ م، لكنه كان ناجحا في التغلب عليها والمحافظة على ولاء أهم القبائل العربية، أصبحت دولة سيف الدولة في حلب مركز الثقافة والحيوية، وجمع من حوله من الأدباء ومنهم أبو الطيب المتنبي الذي ساعد في ضمان شهرته للأجيال القادمة وكذلك.

[٥] تاريخ الإسلام، ٣ /١٣٧.

يعمل على مملكته وسعادته[١].

توفي سنة ٣٣٤هـ بدمشق، دفن في بيت المقدس وهو ابن ستين سنة. وكانت ولادته ١٥ رجب ٢٦٨هـ ببغداد وبشارع باب الكوفة. وكانت مدة ولايته في هذه المرة الثالثة إحدي عشرة سنة.

وكانت مدة الدولة الإخشيدية أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا، انقرضت بغزو الفاطميين المغاربة بقيادة القائد الجوهري المغربي في ٣٥٨هـ.

وقال تغري بردي: كان الإخشيد ملكًا شجاعًا مقدامًا حازمًا متيقظًا، حسن التدبير، عارفًا بالحروب، مكرمًا للجند، شديد البطش، ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجر قوته، وله هيبة عظيمة في قلوب الرعية، وكان متجملاً في مركبه وملبسه. وكان مركبه يضاهي مركب الخلافة. بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك، وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف، وكان قوي التحرز على نفسه. الخ[٢].

ومما يدل على أبهة بلاطه أنه كان يصرف في مطبخه يوميا مائة خروف و ٢٥٠ من البط وخمسمائة من طير مؤلف من حمامة ومائة جرة من الحلويات[٣].

أخلافه:

وقد حكم خمسة من أفراد الأسرة وهم:

١ – أبو بكر محمد بن طغج الإخشيدي ٣٢٥هـ = ٩٣٥م.

---

[١] ابن خلكان، ٤ / ١٤٩.

[٢] النجوم الزاهرة، ٣ / ٢٥٦.

[٣] حتي، ص ٤٥٦.

٢- أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد ٣٣٥هـ = ٩٤٦م.

٣- أبو الحسن على بن الإخشيد ٣٤٩هـ = ٩٦٠م.

٤- كافور الإخشيدي ٨-٣٥٥هـ. الملقب بالأستاذ السلطان أبي الملك اشتراه الإخشيد، فتقدم عنده إلى أن صار من الكبار القواد، وكان أتابك أنوجور[١] الذي كان غلامًا حبشيًّا، ولأّه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدي الإخشيد، وهو حكم أولاً كوصي لأنوجور وإلى الحسن على بن إخشيد، ثم استقل بالأمر بعد موتها وخطب له على المنابر وكان هو أول مملوك حبشي قام بالحكم في التاريخ الإسلامي[٢].

٥- أبو الفوارس أحمد بن على ٨-٣٥٧هـ ٩٦٨م الذي نودي به واليا على مصر بعد وفاة كافور.

وكان محمد الإخشيد وكافور من الشخصيات البارزة في سلسلة ملوك الإخشيد، وعمل كل منهما على رعاية الأدب في عصرهما وقد عاش الشاعر الشهير العربي المتنبي[٣] في بلاط الإخشيديين ثمان سنوات، هو مدح ملوكهم ثم هجاهم ثم قتله كافور لإدعائه النبوة[٤]. وقد اشتهر كافور بكونه شجاعًا وكريمًا وجوادًا.

---

[١] هو أبو القاسم أنوجور هو ثاني حكام الدولة الإخشيدية تولى حكم الدولة الإخشيدية بعد وفاة أبيه محمد بن طغج الإخشيد وكان حينذاك في الرابعة عشر من عمره، ولكن لم يتمتع بحكم البلاد بمفرده حيث كان كافور الإخشيدي وصيا عليه بأمر من أبيه محمد بن طغج الإخشيد، وبمرور الوقت لم يكن لأنوجور شيء في حكم البلاد حيث كان كافور الإخشيدي تمكن من السيطرة على حكم البلاد وكان يصرف لأنوجور مرتبا سنويا يبلغ أربعمائة ألف دينار.

[٢] حتي، ٤٥٦.

[٣] هو أَبُو الطَّيِّب المُتَنَبِّي أحمَدُ بن الحُسَينِ الجُعْفِيُّ الكِنْدِيُّ الكُوفِيُّ (٣٠٣- ٣٥٤ هـ) شاعر مُجيد لقِّب بشاعرِ العَرَب، ومالِئ الدُّنيا وشاغل الناس، له مكانة سامية لم تُتَح لغيره من شعراء العرب بعد الإسلام، فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظلَّ شعره إلى اليوم مصدرَ إلهام للشعراء والأدباء. وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. وتدور معظم قصائده حول نفسه ومدح الملوك. ظهرت موهبتُه الشعرية مبكِّرًا؛ فقد قال الشعرَ صبيًّا، ونظمَ أولَ أشعاره وعمره ٩ سنوات، واشتَهَر بحدَّة الذكاء واجتهاده. كمال طالب، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى التبيان في شرح الديوان الجزء الأول. (بيروت: دار الكتب العلمية). ص. ٣.

[٤] دائرة المعارف الإسلامية: مادة الإخشيد.

وقال القلقشندي[١]: إن كافور الإخشيد كان يحبُّ العلماء والفقهاء ويكرمهم ويتعاهدهم بالنفقات ويكثر الصدقات حتى استغنى الناس في أيامه ولم يجد أرباب الأموال من يقبل منهم الزكاة فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يتبنوا بها المساجد ويتخذوا لها الأوقاف ففعلوا، حتى قيل اتفق أنه وقع في أيامه زلزلة فدخل محمد بن عاصم الشاعر فأنشد قصيدته التي منها: ما زلزلت مصر بن سوء يراد بها لكنها ورفضت من عدله فرحًا[٢].

ومن أعماله كان بمارستان بناه بمدينة مصر سنة ٣٤٠هـ. وكان يعرف بمارستان كافور وكان قائمًا بتدبير دولة الأمير أبي القاسم أنوجور ابن محمد الأخشيد[٣].

وكان أبو المظفر الحسن بن طغج وعبيد الله بن طغج أخوة الإخشيد من الأمراء الإخشيديين لهما أعمال جليلة ووليا امرة دمشق من قبل أخيه[٤].

وأيضًا شعلة بن بدر الأمير أبو العباس الإخشيدي ولىَّ امرة دمشق من قبل أبي القاسم أنوجور بن الإخشيد[٥].

وقد اشتهر فانك الإخشيد كما اشتهر كافور بكونه من أكبر مماليك الإخشيد، وهو ولي امرة دمشق، وكان فارسًا شجاعًا، وكان رومي الجيشي توفي في سنة ٣٥٠هـ في زمان على بن الإخشيد[٦].

---

[١] هو أبو العباس القَلْقَشَنْدِيّ شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ثم القاهري الفزاري (٧٥٦ هـ - ٨٢١ هـ)، نسبة إلى قبيلة فزارة الغطفانية العربية، مؤرخ، وأديب، ومؤلف «صبح الأعشى». الزركلي، الأعلام، ١/ ١٧٧. ابن تغري، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٢٥١/١.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ٣ / ٤٢٩.

[٣] المقريزي، ٣ / ٢٥٩.

[٤] تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣ / ٣١٠.

[٥] تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣ / ٣١٣.

[٦] تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣ /٣٢٩.

طولونية

أبو الفضل شمس الدين

ومنهم محمد بن علي بن أحمد المدعو محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الصالحي الدمشقي.

مولده بصالحية دمشق في ربيع الأول ثمانين وثمانمائة تقريبًا. سمع وقرأ على جماعة من العلماء، وتفقَّه بعمه جمال الدين يوسف بن طولون وغيره. وكان ماهراً في النحو، علامةً في الفقه، مشهورًا بالحديث. كتب بخطه كثيرًا من الكتب وعلى ستين جزءًا وسمَّاها بالتعليقات، وفي حادي عشر أو ثاني عشر جمادي الأولي سنة ٩٥٣. ومؤلفاته كثيرة رتبها لنفسه على الحروف الهجائية في ترجمة حاله تسمى «الفلك المشهود في أحوال محمد بن طولون» نشرت بدمشق مع رسائل تاريخية له سنة ١٣٤٨هـ[١].

نبغ طائفة جمة من أخلاف الأسرة الذين عاشوا إلى عهد متأخر وهم يحفظون اسم أسرتهم. وكذلك كان رجال دولتهم أكثرهم من العلماء الكبار، فمثلاً كان ابن خذابه وزير الدولة الإخشيدية عالمًا محبًّا للعلماء يقربهم ويشجعهم ويصلهم بماله حتى قصده من علماء الأقطار الأخرى كثيرون، وكان يملي الحديث بمصر وهو وزير، ويقصد إليه المحدثون يسمعون روايته. وله تأليف في أسماء الرجال والأنساب[٢].

---

[١] ابن طولون، الفلك المشهود في أحوال بن طولون ص ١–٦.

[٢] ظهر الإسلام، ١ /١٧١.

الدار قنطي:

هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقنطي (٣٠٦هـ = ٨٨٠م). كان مع جلالته في الحديث من أئمة فقهاء الشافعية، وله تقدم فن الأدب ورواية الشعر. وجاء من بغداد إلى مصر ليساعد ابن خنزابه[١] وزير كافور على تأليف مسنده، فبالغ الوزير في إجلاله.

قال الحافظ عبدالغني بن سعيد[٢]: أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاثة: علي بن المديني[٣] في وقته، وموسى بن هارون القيسي[٤] في وقته، والدار قنطي، في وقته[٥].

الحركة العلمية والثقافية في عهد الطولونيين والإخشيديين

وكانت عهد الطولونيين والإخشيديين في مصر عهدًا أخذت الحركة العلمية العالية في المملكة الإسلامية؛ إذ ذاك تنمو وتنعش

[١] هو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة؛ كان وزير بني الإخشيد بمصر مدة إمارة كافور، ثم استقل كافور بملك مصر واستمر على وزارته، ولما توفي كافور استقل بالوزارة وتدبير المملكة لأحمد بن علي بن الإخشيد بالديار المصرية والشامية.

[٢] عبد الغني بن سعيد أحد رواة الحديث الشريف، اسمه عبد الغني بن سعيد بن علي بن سعيد بن بشر بن مروان، أبو محمد الأزدي المصري، صاحب كتاب «المؤتلف والمختلف»، ولد سنة ٣٣٢ هـ. الزركلي، الأعلام، ٤/ ٣٣.

[٣] هو أبو الحسن علي بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفر بنِ نجيح بنِ بكر بن سعد (١٦١ هـ - ٢٣٤هـ)، وهو من أكابر شيوخ البخاري ومن الأئمة في علم الحَديث النبوي، ولد الإمام بالبصرة في العراق عام ١٦١ للهجرة الموافق لعام ٧٧٨ للميلاد ونشأ بها، لذا يلقب بالبصري. كما أن عائلته تعود جذورها إلى المدينة المنورة وما زالوا موجودين. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١١/ ٤٥٨.

[٤] يكنى أبا عمر. ويقال: أبو محمد. كوفي، قدم مصر، وحدّث بها، وخرج إلى الفيوم من صعيد مصر، فتوفي بها في جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين ومائتين. وآخر من حدّث عنه بمصر أحمد بن حمّاد زغبة.

[٥] القاضي أبو بكر، للعواصم من القواصم، ص ١٧١.

بنشــاط جديــد. فــكان يــرد علــى مصــر والشــام كثيــرون مــن العلمــاء الدينييــن مــن العــراق وفــارس والحجــاز والمغــرب وغيرهــا، فينشــرون علمهــم ويأخــذون مــا ليــس عندهــم؛ فــكان مســجد عمــرو بــن العــاص ومسـجد أحمـد بـن طولـون كالأزهـر فيمـا بعـد مصدريـن هاميـن لحركـة علميــة وثقافيــة دينيــة واســعة، كمــا كانــت بيــوت الأمــراء والــوزراء والعلمـاء، تشـكل مجامـع علميـة تلقـي الـدروس فيهـا وتـدور المناظرات، تدور المناقشات العلمية[١].

فـكان مـن أشـهر المحدثيـن والفقهـاء فـي العهـد الطولونـي الربيـع بـن سـليمان المـرادي تلميـذ الإمـام الشـافعي، وقـد امتـاز بسـعة الحفـظ وجمع الروايـة. عـاش نحـو سـت وتسـعين سـنة (١٧٤-٢٧٠)، وكان يـدرس فـي جامـع الفسـطاط ثـم اسـتدعاه ابـن طولـون إلـى التدريـس فـي مسـجده لمـا بنـاه. وقـد نشـر فـي مصـر أحاديـث الشـافعي وفقهـه. كمـا روي أحاديـث كثيـرة، وكان قبلـة أنظـار المحدثيـن مـن الأقطـار المختلفـة ومصـدر حركة علمية دينية كثيرة[٢].

ثــم أبــو جعفــر الطحــاوي[٣] إمــام الحنفيــة فيهــا، وكان مجتهــدًا فــي المذهـب الحنفـي يضـارع الإمـام أبـا يوسـف والإمـام محمـد رحمهمـا الله، وكان مــن أســبق المؤلِّفيــن المصرييــن فــي فنــون مختلفــة، ألَّــف «معانــي القـرآن» و «مشـكل الآثـار» وشـرح بعـض كتـب محمـد بـن الحسـن، وألَّـف فـي التاريـخ والنـوادر الفقهيـة. وهـو عاصـر الدولـة الطولونيـة كلهـا حيـث عـاش مـن سـنة ٢٢٩ إلـى سـنة ٣٢١هـ وتـرك فـي مصـر حركـة حنفيـة تسـاير

---

[١] ظهر الإسلام، ١٦٤. وابن زولاق، ص ١٨.

[٢] ظهر الإسلام، ١ ص ١٦٢.

[٣] الطحاوي (٢٣٨ - ٣٢١هـ) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطحاوي، فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر. ولد ونشأ في قرية طحا في المنيا بصعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعيّ، ثم تحول حنفياً، من أشهر كتبه العقيدة الطحاوية. الصفدي: الوافي بالوفيات، ٨/٨. السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٣٣٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥/ ٧٢.

حركة الربيع الشافعية، وتمتاز بأعمال العقل في التشريع بجانب النقل.

كمااشتهر من المالكية في هذا العهد روح بن الفرج أبو الزنباع الزبيري[١] المتوفي سنة ٢٨٢هـ وأحمد بن الحارث بن مسكين[٢] المتوفي في سنة ٣١١هـ وأمثال هؤلاء كثيرون.

ومن القراء المشهورين عثمان بن سعيد الملقب بورش انتهت إليه رياسة القرَّاء بالديار المصرية وخلف من علم القراءة بعده. واستمرت حركته إلى هذا العصر، وهو مات سنة ١٩٧هـ[٣].

ومن أكبر من يمثل الحركة الدينية والعلمية في هذا العصر كان: أبو بكر بن الحداد، كان عالمًا بالقرآن، والحديث، والأسماء، والكنى، والنحو، واللغة، وسير الجاهلية، والشعر، والنسب، واختلاف الفقهاء. وبالجملة كان أعلم أهل وقته ووليَّ القضاء للإخشيد، وكان يلقبه بفقيه مصر، وكان يدرس في جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه - وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري، وابن الداية الذي ألَّف كتابًا في حياة أحمد بن طولون.

وقد عاش أيضًا في هذا العهد طائفة من المؤرِّخين، وكان أشهرهم ابن يونس وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس وكان عالمًا ومؤرخًا ومثقفًا بالفقه والحديث، وهو عاش العهد الطولوني

[١] وروح بن الفرج القطان، أبو الزنباع المصري، من موالي آل الزبير بن العوام. يروي عن: إبراهيم بن مخلد الطالقاني، وسعيد بن كثير بن عفير، وأبي صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد، وأبي صالح عبد الغفار بن داود الحراني، وعمرو بن خالد الحراني، ويحيى بن عبد الله بن بكير، ويوسف بن عدي. وكان من الثقات. المزي، تهذيب الكمال، ٩/٢٥٠.

[٢] الحارث بن مسكين، ابن محمد بن يوسف، الإمام العلامة الفقيه المحدث الثبت، قاضي القضاة بمصر أبو عمرو، مولى زبان بن الأمير عبد العزيز بن مروان، الأموي المصري. مولده في سنة أربع وخمسين ومائة وإنما طلب العلم على كبر. ومات في شهر ربيع الأول سنة خمسين ومائتين. وله ست وتسعون سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٥.

[٣] صفحة ٤١٤ مفقودة.

والإخشيدي إلى سنة ٢٨١ - ٣٤٧هـ وهو وضع مؤلفتين في تاريخ مصر، أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين منشأ، والآخر صغير فيمن ورد على مصر من الغرباء[١].

الكندي: محمد بن يوسف من كنده. كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها. هو ثقف ثقافة محدثين ثم عين بتاريخ مصر وألف في ذلك كتبا كثيرة ومن أشهر مؤلفاته التي وصلت إلينا «الولاة والقضاة» التي تلقي ضوءًا كبيرًا على حالة مصر السياسة والاجتماعية والأدبية.

ابن زولاق: وهو الحسن بن إبراهيم الليثي بالولاء، عني كذلك بتاريخ مصر. فأكمل أخبار قضاة مصر الكندي إلى سنة ٣٨٦هـ، وعني بخطط مصر فألَّف فيها، وكانت خططه هذه أساسًا لمن أتى بعده من مؤلفي الخطط كالقضاعي[٢]، وابن بركات ثم المقريزي، كما ألَّف كتابًا في أخبار سيبويه المصري أحد عقلاء المجانين. وهو مات سنة ٣٨٧هـ[٣].

وقد جاء مصر في العهد الإخشيدي المؤرخ المشهور المسعودي، وهو بعد أن رحل بلادًا كثيرةً في الهند والصين والتركستان والفرس، نزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفي سنة ٣٤٦هـ[٤].

وقويت الحركة الصوفية بمصر في هذا العهد الذي أخذ نشرها

---

[١] ظهر الإسلام، ١٦٥.

[٢] هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي القضاعي المصري الشافعي (ت ١٠٦٢) قاضي مصر، وكان واعظًا ومؤرخًا. سمع من: أبو مسلم محمد بن أحمد الكاتب، وأحمد بن ثرثال، وأبو الحسن بن جهضم، وأحمد بن عمر الجيزي، وأبو محمد بن النحاس المالكي وعدة. حدث عنه: أبو نصر بن ماكولا، وأبو عبد الله الحميدي، وأبو سعد عبد الجليل الساوي، وسهل بن بشر الإسفراييني، وأبو القاسم النسيب، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن الرازي، وآخرون من المغاربة والرحالة.

[٣] ظهر الإسلام، ص ١٦٦.

[٤] ظهر الإسلام، ص ١٦٦.

بيد ذي النون المصري[١] أحد مؤسسي التصوف وتتابع في مصر بعده أقطاب الصوفية مثل أبي الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال[٢]، الذي كان من أصحاب الجنيد ووفد على مصر ورأس الحركة الصوفية، وأنكر على ابن طولون تصرفاته وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر في غير مبالاة مات بمصر ٣١٦هـ[٣].

وبجانب هذه الحركة الدينية بمظاهرها المختلفة، كانت حركة لغوية ونحوية، وقد نبغ في هذا العصر ابن ولاَّد وأبو جعفر النحاس اللذان كانا مصدرا لحركة قوية ونحوية في المصري التميمي؛ وكان ابن ولاد عالمًا نحويًّا ومن تليمذ زجاج ألف كتاب «الانتصار لسيبويه» كتاب «المقصور والمحدود» مات سنة ٣٣٢هـ في الجولة الإخشيدية.

وأما أبو جعفر النحاس أيضًا مصري كان نابغًا في النحو أخذ عن الأخفش الصغير والمبرَّد والزجاج وقد ألف «إعراب القرآن» و«معاني القرآن» و«المبهج في اختلاف البصريين والكوفيين» و«شرح المعلقات» و«شرح المفضليات» وغيرها وهو مات سنة ٣٣٨هـ[٤].

وقد عاش في هذا العصر من الشعراء الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل، وله أشعار في مدح ابن طولون[٥]. ومن الكتَّاب

---

[١] هو ثوبان بن إبراهيم، كنيته «أبو الفيض» ولقبه «ذو النون»، أحد علماء المسلمين في القرن الثالث الهجري، ومن المحدثين الفقهاء. ولد في أخميم في مصر سنة ١٧٩ هـ وتوفي سنة ٢٤٥ هـ الموافق ٨٥٩ م ومن مؤلفاته كتاب «حل الرموز وبرء الأسقام في كشف أصول اللغات والأقلام» وهو من ضمن العلماء العرب الذين سبقوا شامبليون في فك رموز الابجدية الهيروغليفية. أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣). ص٢٧.

[٢] يكنى أبا الحسن اصله من واسط لكنه ببغداد نشا واقام وسمع الحديث الا انه انتقل الى مصر فمات بها. وقال بنان الحمال البريء جريء والخائن خائف ومن أساء استوحش.

[٣] ظهر الإسلام، ١ / ١٦٩.

[٤] ظهر الإسلام، ١ / ١٧٦.

[٥] ظهر الإسلام، ١/ ١٧٢.

ابـن عبـد كان[١]، «كان» كانـت بلاد الدولـة الطولونيـة. وكان كاتبًـا بليغًـا لـه رسـائل بليغـة، ذكـر طائفـة منهـا القلقشـندي فـي كتابـه «صبـح الأعشى».

اشـتهر مـن الحكمـاء والفلاسـفة والأطبـاء والمنجميـن سـعيد بـن نوفل النصرانـي، وكان طبيـب ابـن طولـون وسـعيد بـن البطريـق، وكان طبيبًّـا نصرانيًّـا، لـه درايـة بعلـوم النصـارى ومذاهبهـم. ولـه كتـب فـي الطـب والجـدل بيـن المخالـف والنصرانـي وغيرهـا. وهـو ترجـم كتـاب «الحيوان» وكتاب «السماء والعالم» لأرسطو.

وابـن الدايَّـة الـذي كان عالمًـا حكيمًـا ومؤرخًـا كمـا قـال ياقـوت: أنـه كان أحـد وجـوه الكتـاب الفصحـاء والحسـاب والمنجميـن، كالمجسـطي[٢]، والإقليدسـي[٣]، وحسـن المجالسـة، وحسـن الشـعر، وله كتاب في سيرة ابن طولون[٤].

وكان ذو النـون الـذي عـاش فـي هـذا العصـر يعُـدُّ مـن المتصوفيـن الحكمـاء، وقـد جـاء فـي ترجمتـه أنـه كان يعـرف السـحر والطلسـمات والكيميـاء. وقـد عقـد الأسـتاذ نيكلسـون مـا فـي بعـض أقوامـه مـن شـبه بينها وبين أقوال الأفلاطون الحديثة[٥].

---

[١] هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان، لم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء.

[٢] كتاب المجسطي (باليونانية: Μαθηματική σύνταξις) وتلفظ ماثماتيكي سينتاكسيس وتعني الأطروحة الرياضية، هو رسالة بحثية في الفلك والرياضيات ألفه العالم الإغريقي بطليموس عام ١٤٨م في الإسكندرية. ترجمه للعربية حنين بن إسحاق ومن الترجمة العربية تُرجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية ثم إلى بقية اللغات الأوروبية. لهذا السبب، اسم الكتاب العربي هو المستخدم في التراجم حيث يسمى الكتاب (باللاتينية: Almagest) من كلمة المجسطي العربية وليس الاسم اليوناني الأصلي. آرثر باري، التاريخ الموجز لعلم الفلك، (١٨٩٨).

[٣] هو أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليدسي هو عالم رياضيات عربي مسلم، عاش في القرن الرابع الهجري، وعمل في دمشق معلما للحساب. لم يذكر المؤرخون شيئا عن حياة الإقليدسي، ويقال إن لقب الإقليدسي يرجع إلى أنه كان يتكسب بنسخ كتاب إقليدس، ويقال أنه كان يقوم بتدريسه أيضا.

[٤] ظهر الإسلام، ١ / ١٧٤.

[٥] ظهر الإسلام، ١/ ١٧٦.

فكان في الشام في هذا العصر طائفة كبيرة من المحدِّثين والفقهاء والصوفية والقرَّاء أمثال إخوانهم في مصر، فمنهم زكريَّا بن يحيي السجيزي[١] المعروف بخيَّاط السنة المتوفي سنة ٢٨٩هـ، ومحمد بن عوف الطائي الحمصي المتوفي سنة ٢٨٩هـ، وأبي بكر محمد بن براكة الحميري اليحصبي القنسريني[٢] وأمثالهم كثير. ومن المتصوفين فظهر في الشام طاهر القدسي المتوفي ٣٢٠هـ وأبو إسحاق الرقي المتوفي سنة ٣٢٦هـ، وكانا من أكبر مشايخ الشام ومتصوفيها[٣].

وأيضًا في هذا العهد في الشام، الرحال المعروف الإسلامي أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (٣٢٦-٣٨٠هـ) مؤلف «أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم» الذي ألفه سنة ٣٧٥هـ بعد رحلته بلاد الإسلام ؛ جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب وفارس والسند والهند وغيرها[٤].

الممالك التركية في بلاد الإسلام

وقد تشكَّل المماليك التركية عنصرًا هامًّا في تاريخ الإسلام، حيث أنهم، فضلاً على أنهم كانوا يشكلون بنيان الجيش الإسلامي، قد تدرَّجوا من مملوك اليوم إلى ملك أو سلطان أو إمبراطور عظيم الشأن وجليل العهد في الغد، فأسَّسوا حكوماتهم ودولهم في أرجاء وسيعة من بلاد الإسلام مثل بلاد الفرس والعرب (مصر والشام والحجاز وغيرها) وبلاد الهند (لما سبق ذكرها من حكم المماليك

---

[١] هو الإمام الحافظ، المجود الرحال أبو عبد الرحمن، زكريا بن يحيى بن إياس بن سلمة السجزي، نزيل دمشق، ويعرف: بخياط السنة. ولد سنة خمس وتسعين ومائة. مات خياط السنة سنة تسع وثمانين ومائتين أرخه ابن زبر، وعاش أربعا وتسعين سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٠٨/١٣.

[٢] ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٤٥/٥٢.

[٣] ظهر الإسلام، ١/ ١٧٥-١٧٦.

[٤] ظهر الإسلام، ١٧٦/١.

في الهند)، فأنشأ بعضهم أكبر إمبراطورية إسلامية وأقواها وأنجزوا أكبر غزوات إسلامية لصدِّ غارات الصليبيين والمغول.

وقد ازدهرت باهتمامهم الثقافة والحضارة الإسلاميتين أكبر ازدهار يشهد لها ما خلَّدوا لنا من آثار عمرانية وفنية فاخرة في البلاد التي حكموها، وهي آيات الفن روعةً وجمالاً، ولا يزال يفخر بها المسلمون إلى يومنا هذا، وسيظلون بافتخارها في المستقبل.

ومن هو منا لا يفخر، على جانب أولئك الملوك والسلاطين كالسلطان ملكشاه السلجوقي والسلطان محمود الغزنوي وتيمور وبابر بادشاه وغيرهم، بأحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيدى، ونور الدين الزنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والملك الظاهر بيبرس، والناصر بن قلاوون ملوك مصر والشام من المماليك، وقطب الدين أيبك، وشمس الدين إيلتمش، ومحمد بن تغلق، وعلاء الدين خلجي وغيرهم من المماليك التركية الذين حكموا بلاد الهند في نفس العهد الذي كان للماليك البحرية السيادة العليا على بلاد مصر والشام، الذين خلَّدوا أسماؤهم بفتوحاتهم وغزواتهم وأعمالهم الجليلة في حقول العلم والثقافة والحضارة الإسلامية لرفع كيان الإسلام وإعلاء كلمة الله هي العليا. وكلهم من الأتراك التي خدموا للإسلام والمسلمين.

ومن التصادف العجيب أن المماليك قد ساد حكمهم على بلدين كبيرين، وهما بلاد العرب وبلاد الهند في عصر واحد.

وكلتا الأسرتين قد عززتا الوحدة الإسلامية بين البلدتين، وكانت بين المماليك في مصر والمماليك في الهند العلاقات سياسية وثقافية وتجارية موثقة، مما يجدر بالذكر بالضبط أن ملك الهند المعاصر محمد بن تغلق قد أرسل بعثًا مرتين لسلطان مصر، إذ ذاك أبو الفدا

إسماعيل من أحفاد الناصر بن قلاوون، أو كان محمد بن تغلق يرمي من إرسال هذين البعثين حصول الاعتراف به كملك الهند وتثبيته من الخليفة بما يدل على أنه كان عظيم الاحترام في الأقطار الإسلامية الأخرى. مع أنه لم يكن له شأن في مصر[١].

وقد شهدتا كالأسرتين الشقيقتين مصيرًا واحدًا بيد تيمور الفاتح في آخر عهد المماليك وهو يحلم إنشاء إمبراطورية عظيمة على أنقاض الإمبراطورية المغولية، وعلى أنقاض الدولة المنهارة في الشرق والغرب، فاجتاز جيوشه شرقًا وغربًا حتى وصلوا فعلاً إلى بلاد آسيا الصغرى، ودحروا بايزيد العثماني واجتاحوا بلاد القبجاق وروسيا من جانب وبلاد الشام ومصر من جانب آخر، وأخذوا يهددون كيان المماليك الرحبة في مصر والشام، كما هدَّدوا في ذات الوقت أسرة المماليك في الهند وقضوا عليها قضاءًا نهائيًّا وهي الأسرة التغلقية آخر أسرة المماليك في الهند.

وجدير بالذكر هناك أن المملوكية لم تكن أمرًا شائبًا أو حقيرًا في ذلك العصر، بل كان جائزًا، وشراء المملوك وبيعه صفق مشروع يفتخر بها المالك والمملوك على حسب ما وفَّر لها من نصيب الحياة الاجتماعية.

ولم يكن لخادم مكانة مرموقة إلا أن يشتريه مشتر فيربيه كولده، بل أعز منه، ويفخر به كلما تدرج في العلم والمنصب، كما يفخر الوالد لولده النابغ. وكذلك كان المملوك يعتمد لمالكه كل اعتماد، يعتبره كأبيه المشفق ويفخر به. ولم يكن لمملوك وهب نفسه بلا ثمن نفس المكانة التي كانت لمملوك يشتري بالمال. فمثلاً لم يكن قوصون أحد المماليك البحرية المشهور محبوبًا إلى المماليك؛ لأنه

---

[١] موير: دولة المماليك ص ٩٩.

لـم يشـتر فـي بـادئ أمـره كمملـوك، بـل حضـر إلـى الناصـر مـن تلقـاء نفسـه فـي حاشـية زوجـه المغوليـة، فوهـب نفسـه للسـلطان بمحـض إرادتـه. فلذلـك لـم تكـن لـه تلـك المكانـة الاجتماعيـة التـي كانـت لمملوك اشترى بالمال[١].

ومما يجب ذكره أن المماليك كانوا ينالون في الغالب قسطًا كبيرًا من التعليم، فكانوا يربون في مدارس الحرب ومعاهد السلم، فكانوا في حداثة سنهم ينبغون أحيانًا في الفلسفة والفقه والعلوم وفي الفروسية واستعمال الأسلحة، فيصيرون جديرين بالوظائف السامية وولاية الأمور. كما كان من بينهم من لم يستطع كتابة اسمه، وكان من بين هؤلاء من استمسك باستعمال لغته التركية.

وهناك صفة أخرى اختص به المماليك وهو عدم عنايتهم بالوراثة، فكان المملوك المحبوب يخلف سيره على العرش وأحيانًا يسمى نفسه «ابن سيده»[٢] وهم كانوا في آخر عهد دولتهم أمة جديدة ديمقراطية[٣].

وقد ظهر من بينهم حكَّام معتدلون صالحون محسنون يقدرون الشرف ويتحلون به، ويعظمون الدين ويعملون على تثبيته، إذ نجد منهم من حبس الأموال على الخيرات وترقية الآداب؛ وبنى المدارس والكليات، يتعلم الناس فيها علوم الطب والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية ورائه آثارا من عصرهم في المباني الجميلة التي لا تزال.[٤]

أسماء ملوك المماليك البحرية:

---

[١] موير: دولة المماليك، ص ٩٧.
[٢] موير، دولة المماليك، ص ١٨٨.
[٣] موير، دولة المماليك، ص ١٩٦.
[٤] موير، دولة المماليك، ص ١٨٨-١٩٩.

١. شجرة الدر	٦٤٨هـ= ١٢٥٠م
٢. المعز أيبك التركماني	٦٤٨-٦٥٥هـ
٣. المنصور نور الدين علي	٦٥٥-٦٥٧هـ
٤. المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧-٦٥٨هـ
٥. الملك الظاهر بيبرس البند قداري	٦٥٨-٦٧٦هـ
٦. ناصر الدين محمد بركة خان	٦٧٦-٦٧٨هـ
٧. السلطان العادل بدرالدين سلامش	٦٧٨- ==
٨. المنصور سيف الدين قلاوون الألفي التركي	٦٧٨-٦٨٩هـ
٩. السلطان الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩-٦٩٣هـ
١٠. بيدار القاهر	٦٩٣-===
١١. الناصر محمد بن قلاوون (للمرة الأولى)	٦٩٣-٦٩٤هـ
١٢. العادل زين الدين كتبغا المنصوري	٦٩٤-٦٩٦هـ
١٣. المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦-٦٩٨هـ
١٤. القاهر سيف الدين طقجى	٦٩٨- ===
١٥. الناصر محمد قلاوون (للمرة الثانية)	٦٩٨-٧٠٨هـ
١٦. المظفر ركن الدين بيبرس الثاني	٧٠٨-٧٠٩هـ
١٧. الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة	٧٠٩-٧٤١هـ
١٨. المنصور سيف الدين أبو بكر	٧٤١-
١٩. الأشرف علاء الدين كوجلك	٧٤٢-===
٢٠. الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٢-٧٤٣هـ
٢١. الصالح عماد الدين إسماعيل	٧٤٣-٧٤٦هـ
٢٢. الكامل سيف الدين شعبان	٧٤٦-٧٤٧هـ
٢٣. المظفر زين الدين حاجى	٧٤٧-٧٤٨هـ
٢٤. الناصر بدرالدين حسن	٧٤٨-٧٥٢هـ
٢٥. الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢-٧٥٥هـ
٢٦. الناصر حسن للمرة الثانية	٧٥٥-٧٦٢هـ
٢٧. المنصور علاء الدين محمد بن حاجى	٧٦٢-٧٦٤هـ
٢٨. الأشرف شرف زيد الدين شعبان	٧٦٤-٧٧٨هـ
٢٩. المنصور علاء الدين علي	٧٧٨-٧٨٣هـ
٣٠. الصالح زين الدين حاجى بن الأشرف	٧٨٣-٧٨٤هـ

الصالح زين الدين وهو آخر سلاطين المماليك البحرية بويع بعد أخيه علاء الدين، وقام بتدبير الأمور الأمير الكبير برقوق، ولم يلبث أن خلع الصالح واستولى على الملك، فانقضت بذلك دولة المماليك البحرية وكانت مدتها ١٣٦ سنة هجرية وسبعة أشهر وأيام، وسلاطينها ٢٥ منهم امرأة وهي شجرة الدر[١].

في بلاد مصر والشام

دولة المماليك (البحرية والبرجية)

(٦٤٨-٧٨٤هـ - ١٢٦٠-١٣٨٢م)

وهي الدولة التركية الثالثة التي قامت في بلاد مصر والشام بعد الطولونيين والإخشيديين، وعلى أنقاض الدولة الأيوبية التي حكمت تلك البلاد نيفًا وعشرين سنة بعد انقضاء الدولة الفاطمية.

وقد دام سلطانهم مدة قرن ونصف قرن من الزمان، وقد حكم في غضون هذه المدة خمسة وعشرون منهم شجرة الدر التي تعتبر في الحقيقة واضعة اللبن الأساسي لدولة المماليك، وثلاثة وعشرون من الطائفة البرجية، وانتهى حكمهم بيد السلطان سليم العثماني عام ١٥١٧م.

وكان أولهم شجرة الدر (٦٤٨هـ ١٢٥٠م) واضعة اللبن الأساسي لدولة المماليك، هي أرملة الصالح الأيوبي. ولما قتل توران شاه[٢] آخر ملوك الأيوبي أقامها المماليك في السلطنة، وكانت مملوكة

---

[١] تاريخ مصر، ٢١٤.

[٢] توران شاه ملك مصر والشام في الفترة من ١٢٤٩ - ١٢٥٠ وكذلك كان آخر سلاطين الأيوبيين الفعليين على مصر.

دخلت أولاً في حرم المعتصم ثم زوجها الملك الصالح الأيوبي بعد أن أعتقها، وكانت تركية الجنس، داهية الدهر، لا نظير لها حسنًا وحزمًا. وهي قامت بتدبير المملكة قيامًا محمودًا؛ ووقعت المعاهدة مع لويس ملك فرنسا، أسرته فأذنت له بعد أن أخذت من زوجته نصف فديته. ولكن لم يرض أهل الشام أن تتولاهم إمرأة، فانشقوا عن الدولة المصرية، وحلفوا يمين الطاعة للناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب، وثار عليها المغيث عمر بن العادل الثاني فأخذ الكرك والشوبك، ثم كتب في تلك الأثناء الخليفة المعتصم من بغداد إلى الأمراء البحرية يلومهم على تمليك امرأة ويسير عليهم بخلعها؛ فزوجوها أحدهم الأمير عزالدين أيبك وولوه بدلاً منها ولقبوه بالمعز.

وكانت شجرة الدرِّ أول ملكة في بلاد أفريقيا الشمالية وآسيا الغربية بعد كليوباترا[١] وزنوبيا[٢] وإحدى ثلاثة نساء شهيرات ملكن في تاريخ الإسلام[٣]. وهي حكمت ثمانين يوما ضربت في هذه المدة السكة، وقرأت الخطبة باسمها في الجمعة.

ثم السلطان عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي الجحمي التركماني المعروف بالملك المعز (٦٤٨-٦٥٥ه، = ١٢٥٠-١٢٥٧م). وكان تركماني الأصل ومن مماليك السلطان الصالح نجم الدين

[١] كليوباترا السابعة أو كليوباترا اختصارًا (٦٩/٧٠ قبل الميلاد – ١ ٣٠ قبل الميلاد)، ملكة المملكة البطلمية في مصر من عام ٥١ وحتى ٣٠ قبل الميلاد وآخر ملوكها. تنتمي كليوباترا إلى سلالة البطالمة وتعود في نسبها إلى مؤسس السلالة بطليموس الأول، وهو جنرال يوناني مقدوني ورفيق للإسكندر الأكبر.

https://ar.wikipedia.org/wiki/كليوباترا

[٢] زنوبيا (بالتدمرية: اسم زنوبيا مكتوب باللغة التدمرية وتُلفظ: بات زباي) هي ملكة تدمر، قادت مع زوجها أذينة عصياناً على الإمبراطورية الرومانية تمكنا خلاله من السيطرة على معظم سوريا.

https://ar.wikipedia.org/wiki/زنوبيا

[٣] Hitli, History of the Arabs P ٦٧١-٦٧٢.

أيـوب، بلـغ فـي خدمتـه مراتـب عاليـة حتـى صـار مـن جملـة الأمـراء وجعلـه جاشـنكير أي الأميـر المتصـدي لـذوق المأكـول والمشـروب، واستمر على ذلك إلى أن قتل الملك المعظم تـوران شـاه آخر سلاطين الدولـة الأيوبيـة بمؤامـرة مـن المماليـك البحريـة الذيـن سـخطوا عليـه، وملكـت شـجرة الـدر بعـده، تنازلـت عـن السـلطنة بعـد أن كانـت بهـا مـدة ثمانيـن يومًـا، فاتفـق الأمـراء علـى سـلطنة الملـك المعـز أيبـك وأجلسـوه فـي دسـت الملـك فـي آواخـر ربيـع الثانـي سـنة ٦٤٨هـ ولقبـوه بالملـك المعـز، وهـو تـزوج بالملكـة شـجرة الـدر زوج سـيده الملـك الصالـح وأخـذ يحكـم بهـا فـي بـادئ الأمـر والأمـر والنهـي بيدهـا، ولكـن طائفـة الأيوبييـن مـن المماليـك البحريـة المواليـة لهـم، لـم يرضـوا بـه وألحـوا السـلطان مـن بنـي أيـوب يجتمـع الـكل علـى طاعتـه فثـاروا عليـه بقيـادة الأميـر فـارس الديـن أقطـاي الجمـدار، وكان مـن بينهـم الأميـر ركـن الديـن بيبـرس البندقـداري وسـيف الديـن بلبـان وشـمس الديـن سـنقر وغيرهـم، حتـى اتفقـوا علـى صبـي لا يتجـاوز عمـره عشـر سـنين المسـمى بمظفـر الديـن موسـى مـن نسـل صلاح الديـن أيـوب ولقبـوه بالملـك الأشـرف وجعلـوا أيبـك أتابـك يديـر الأمـور باسـمه، فلـم يـزل علـى ذلـك حتـى خلـع أيبـك سـنة ٦٥٠هـ ١٢٥٢م الملـك الأشـرف فاسـتقل علـى الملـك بمفـرده استقلالاً تامًّـا بعـد أن نجـح فـي رد الملـك الناصـر صلاح الديـن يوسـف الأيوبـي سـلطان دمشـق الـذي زحـف بجيوشـه علـى مصـر بأمـر مـن الخليفـة وقتـل أقطـاي الـذي قـاد ثـورة جماعـة مـن المماليـك البحريـة عليـه، فأصبـح بعـد ذلـك سـلطانًا لا ينازعـه فيهـا منـازع واعتـرف بـه مـن حولـه مـن الـدول. ولـم يـزل إلـى أن قتلتـه شـجرة الـدر عـن شـدة غيرتـه عليـه لمـا أراد أن يتـزوج ببنـت صاحـب الموصـل فـي ٢٣ مـن ربيـع الأول سـنة ٦٥٥هـ، وكان مـدة سـلطنته علـى مصـر سـبع سـنين ونيـف، وكان قد ناهز الستين عندما قتل. وكان أول ملك قام في قلعة الجبل.

وبعد موت آيبك نصب أمراء المماليك ابنه الأصغر السلطان نور الدين علي (٦٥٥-٦٥٧هـ = ١٢٥٧-١٢٥٩م)، وتولى وصايته الأمير سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ = ١٢٥٩-١٢٦٠م) أحد مشهوري المماليك الخوارزمية، ولم يزل حتى خلعه بعد سنتين وقبض على الأمور، وأصبح صاحب السيادة في سوريا أيضًا بعد أن رد هو وبيبرس غزو المغول وذبح قائدهم كتبغا في موقعة عين جالوت، وكانت هذه الموقعة أول هزيمة عرفت للمغول منذ أن قاموا. ثم خنق عليه بيبرس عندما عاد مظفرًا من دمشق، وكان في طريقه إلى مصر، لما استشعر من انحرافه من وعده بنيابة حلب وأعطاءه لصاحب الموصل وكان مدة حكمه سنة ونيف.

قال تغري بردى: أنه كان ملكًا شجاعًا كريمًا عاقلاً، كثير البذل للأموال، أطلق في مدة سلطنته من الأموال ما لا يحصي كثرة وهو احتفظ بمكانة مصر، وشادَّ فيها مباني عظيمة ومدارس كثيرة.

وكان له بر ومعروف وعمائر منها المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة، ووقف عليها أوقافًا، وكان مدرسها القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري[١] إلى أن مات[٢].

وسماهم البحرية؛ لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب لما تولى السلطنة أسكن المماليك في قلعة الروضة وهي جزيرة على النيل، وسماهم البحرية، وكان عددهم ما بين سبعمائة وألف مملوك على قول المقريزي[٣].

---

[١] برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري، تولى الحكم بديار مصر غير مرة، وولي الوزارة أيضاً، وكان رئيساً وقوراً مهيباً، وقد باشر القضاء بعده تقي الدين ابن بنت الأعز. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٦٥/١٣.

[٢] تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣-١٤.( )

[٣] (المقريزي الخطط ٣ ص ٣٨٤)

الملك الظاهر بيبرس[١]

(زعيم الإسلام)

وهو الرابع من ملوك دولة المماليك البحرية الحقيقي، وهو ينتمي إلى قبيلة سرلي من قبائل قومان[٢] التركي[٣]، ولد في بلاد القبجاق سنة ٦٢٥هـ تقريبًا وقضى شطرًا من حياته الأولى إلى أن قبض في موقعة وبيع وهو ابن رابعة عشر لأحد تجار الرقيق على إثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٢م. وهو جاء به إلى سيواس ثم إلى دمشق فاشتراه أخيرًا مملوك آخر تركي، وهو الأمير علاء الدين أيدلكين البندقداري[٤] مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب. أقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح، فلم يلبث أن عرف بالخدم والحكم والبسالة حتى جعله في سنة ٦٤٤هـ ١٢٤٦م وهو في العشرين من عمره رئيسا لإحدى فرق حرسه الخاص (أي طائفة الجمدارية)[٥]، فظلَّ يتدرج في المناصب العالية حتى أصبح قائدًا

---

[١] (بيبرس مركبة من لفظين «بى» أي بيك و «بارس» أي الأسد والطبور كما في «يولبارس» ومعناه الأمير الأسد.)

[٢] Bybars of Egypt سيدة فاطمة صادق: بيبرس المصري، ص ٢٩.

[٣] ويطلق عليها في التاريخ اليوناني اسم –كومانين– والقومان فرع من فروع القيجاق. وتأسست في آسيا الصغرى في الألف الأول ق٠م. وكانت ذات صلات وثيقة مع الدولة الآشورية أيام الملك تيغلات بيلاصر الأول خلال الفترة ١١١٨ – ١٠٩٣ ق٠م، كما يقول كوبريلي زيادة محمد فؤاد في كتابه – تورك أدبياتي تاريخي.

https://turkistantimes.com/m/news-2685.html

[٤] هو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين البندقداري المعروف بـ البندقدار (٦١٤هـ – ٦٨٤هـ) أستاذ الملك الظاهر بيبرس وإليه ينسب. كان من كبار الأمراء الصالحية وكان عاقلًا ساكنًا، ويقول عنه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية «وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، كان من خيار الامراء سامحه الله». حسن علي. دراسات في التاريخ، ص٣٠.

[٥] تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ٥ / ٩٤.

لفرقة المماليك التي كانت لها الفضل الأكبر في صدِّ حملة لويس التاسع[١] ملك فرنسا الذي غزى فلسطين في عهد الملك الصالح وابنه تورانشاه آخر سلاطين الأيوبية. وفي مدة سلطنة آيبك انضم إلى جماعة أقطاي الخارجين إليه.

وكان بيبرس أحد الذين ائتمروا باغتيال حياة السلطان تورانشاه بقيادة أقطاي إلى ثار عليه لما قام هذا الأخير لاضطهادهم بالحبس والعزل والاستخفاف على خلاف من صلة لخدماتهم في فلسطين[٢]. ثم لما قتل أيبك فر هو وجماعته إلى الشام[٣].

وكان مدة مع أمراء الأيوبيين في دمشق والكرك، ولم يعد إلى مصر إلا بعد اغتيال أيبك وجلوس قطز على العرش، وتحالف مع السلطان قطز ضد المغول فصار قائدًا لجيوشه:

يا أسد الترك يا ركنهم	و يا أخذ الثأر بعد المخافة
كسرت الطغاة جبرت النفاق	قطعت الفرات وصلت الخلافة[٤]

والتي تعد من أكبر الأحداث في تاريخ الحضارة بما صدت بها غارات المغول على القاهرة ودمار خزائنها بما فيها من كتب نادرة، وبما أعادت اتحاد البلدتين اللتين مازالتا تحت سلطان المماليك في غضون قرنين ونيف إلى أن فتحها العثمانيون[٥].

كما أعطي الخليفة بيبرس خلعة التولية وجعله سلطانًا على

[١] محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس، ص ٣١ وسيدة فاطمة، بيبرس المصري، ص ٣٤ وحتي، ص ٦٧٢.
[٢] سيدة فاطمة، بيبرس المصري، ص ٣٥.
[٣] وليم موسير، دولة المماليك فى مصر، ص ٣٧-٤١.
[٤] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١/ ١٦٣.
[5] Hitli 656.

المماليك المفتوحة المتمثلة لمصر والشام وديار بك والحجاز واليمن وبلاد فرات وجعله رسميا «شريك الخليفة». وكان بيبرس أول سلطان له هذا اللقب للمرة الأولى في تاريخ الإسلام[١].

فأصبح بيبرس من ذلك الحين زعيم الإسلام شرعًا وفعلاً، وقد احتفظ بالسلطان التام ولم يعط الخلافة غير السلطة الدينية ومظاهر السيادة السياسية. وظلَّ هذا شأن الخلفاء في مصر على كل عهد دولة المماليك[٢].

قيادة طليعة الجيش التي سارت لرد حملات المغول في موقعة عين جالوت التي تمت بهزيمة المغول الفادحة وخرج فيها بيبرس كقائد محنك ممتاز[٣]، وتمكن قطز من السيطرة على سوريا وأعاد سيادة مصر على إمبراطورية صلاح الدين الأيوبي[٤].

ولكن قطز بالرغم من أنه كان قد وعد بيبرس حكم حلب في صلة خدماته الجليلة، لم يقطع له شيئا حينما استعاد الأمراء الأيوبية الأراضي التي كانوا يحكمونها قبل غزو المغول، ففاض بيبرس على ذلك وصمم على الانتقام ودس لقتله بين القصير والصالحية في الوقت الذي كان قطز يشغل للصيد وهو عائد من دمشق مظفرًا بعد موقعة عين جالوت.

فانتخب قواد الجيش والأمراء بيبرس سلطانا، ولقبوه بالملك الظاهر خطب على المنابر وضرب السكة باسمه[٥] وكان ذلك في سنة ٦٥٨هـ ١٢٦٠م، ورسم بإحضار المماليك البحرية الذين تفرقوا في الأقطار

---

[١] فاطمة صادق، بيبرس المصري، ص ٤٤. ابن دقاق، ص ١٥٦. حتي، ص ٦٧٧.

[٢] هندا إسكندور عمون، ص ١٩٨.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية مادة بيبرس.

[٤] سيدة فاطمة، بيبرس المصري، ص ٣٧.

[٥] دائرة المعارف الإسلامية، مادة بيبرس.

ودعاهم إلى الطاعة فأذعنوا له وانقادوا إليه. وكان أول ما فكر بعد توليه عرش مصر فكرة إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها التي كان هلاكو قد اجتاحها سنة ١٢٥٨م جملة من بغداد وقضى على كل الأسرة العباسية. فاستحضر من سوريا إلى مصر أبو القاسم أحمد الذي كانت مذبحة المغول قد أخطأ به من أسرة الخليفة، وكان متشردين في الأقطار، بويع له بالخلافة سنة ١٢٦١م وأقسم له بيبرس على الطاعة ولقبه بالخليفة المستنصر بالله، ثم أراد أن يجلسه على عرش بغداد ورافقه بجيش قوي البأس إلى دمشق[١]، غير أن الخليفة انهزم بيد المغول في موقعة أنبار على ضفاف فرات وقتل هو وأكثر جنوده سنة ١٢٦١ في تلك الحركة[٢]. ثم ولى بيبرس الحاكم بأمر الله.

الحاكم بأمر الله

وهو أبو العباس أحمد أحد سلائل العباسيين الخلفاء العباسيين منذ ذلك طوال حكم دولة المماليك في غضون قرنين ونصف من الزمن، غير أن حكمهم لم يكن إلا بالاسم إلى أن قضى على حكمهم السطان سليم العثماني، - وذهب آخر الخلفاء العباسية بالمتوكل على الله[٣] القسطنطينية-،[٤] وهو مات سنة ١٢٧٧ بعدما رجع من

---

[١] وليم موسر ص ٤٢

[٢] سيدة فاطمة ص ٤٥ نقلا عن دقاق ص ١٥٩.

[٣] هو أبو الفضل محمد المتوكل على الله الثالث بن يعقوب بن عبد العزيز الذي يلقب المتوكل على الله عند تنازل أبوه المستمسك بالله عن الخلافة له عام ١٥٠٧، فحكم حتى ١٥١٦، ثم عُزل ثم عاد ليحكم لبضع من سنة أخرى عام ١٥١٧. كان المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، الذين كانت عاصمة دولتهم انتقلت إلى القاهرة بعد أن سقطت بغداد عام ١٢٥٨ وأعدم المستعصم على يد المغول، وقد كانت خلافتهم في القاهرة صورية إذ كانت السلطة الحقيقية في يد المماليك. في عام ١٥١٧ هزم السلطانُ العثماني سليم الأول قانصوه الغوري في معركة مرج دابق ثم طومان باي في معركة الريدانية ودخل القاهرة وأُسر المتوكل، خليفة المسلمين، وأخذ إلى إسطنبول حيث أوصى وفق المصادر الإسلامية على أن تؤول الخلافة بعد موته إلى السلطان العثماني ومعه آثارُ الرسول: سيفه وبُردته. بموت المتوكل عام ١٥٤٣، انتقلت الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين لتمكث في دولتهم حتى ١٩٢٤.

[٤] وليم موسير: دولة المماليك، ص ٤٢-٤٣. حتي، ٦٧٦.

غـزوه الأخيـر علـى قيسـاره، قيـل بسـبب إكثـاره مـن الخمـر، وفـي روايـة أخـري أن القـدح الـذي شـرب منـه كان قـد دس فيـه السـم لأميـر مـن الأيوبيين فشرب منه ساهيًا ناسيًا[١].

اعتلـى علـى عـرش مصـر بعـده علـى حسـب وصيتـه أكبـر أنجالـه السـلطان سـعيد ناصـر الديـن محمـد بركـة خـان (٦٧٦هـ -٦٧٨هـ = ١٢٧٧-١٢٧٩م) الـذي بعـد أن حكـم سـنتين فـي وسـط المؤامـرات والاضطرابـات والقلـق الداخلـي اضطـر إلـى النزول عـن الملـك والانزواء فـي الكـرك[٢]. ثـم تبـوأ علـى مصـر ابنـه الآخـر واسـمه سـيف الديـن الملك العـادل بـدر الديـن سلاميـن (٦٧٨هـ ١٢٧٩م)، ولكنـه لـم يلبـث هـو فـي السـابعة مـن عمـره أن خلعـه مـن الملـك بعـد مائـة يـوم وبعـث بـه إلـى الكـرك، واسـتتب لـه الأمـر، ثـم تبـوأ قلاوون أتابكـه الـذي كان يقـوم بمقاليـد الأمـور كوصـي لـه حيـث سـجن مـع أخيـه السـلطان السـابق وكأكبر الأمراء على عرش مصر[٣].

غزوات بيبرس

ومـن أجـل أعمـال بيبـرس التـي غيـرت وجهـة التاريـخ فـي بلاد مصـر والشـام والتـي كانـت لهـا أثـر كبيـر لإحيـاء الإمبراطوريـة الإسلاميـة مـن جديـد، كانـت غزواتـه الأربـع الشـهيرة التـي قضـت علـى الصليبييـن الذين كانـوا لايزالـون يسـلطون علـى سـواحل الشـام قضـاءًا نهائيًّـا، فكانـت هـذه آخـر الغـزوات الثمانيـة الكبيـرة التـي شنَّـها المسـلمون ضـد الصليبييـن فـي تاريـخ الإسلام تحـت قيـادة عمـاد الديـن ونـور الديـن زنكـي وصلاح

---

[١] وليم موسير: دولة المماليك ص ٥٢.
[٢] وليم موسير، دولة المماليك ص ٥٥.
[٣] نفس المرجع، ص ٥٥ وتاريخ مصر هند إسكندر عمون ص ٢٠١

الدين الأيوبي وكان بيبرس آخرهم[١].

وهو عمل على مناوأة الإمارات اللاتينية في الشرق عشر سنوات، أي من سنة ١٢٦١ إلى سنة ١٢٧١م، فقضى في هذه المدة على حكومة الأفرنج في الكرك وفي أنطاكية وقيليقيا[٢] وجهات عكا، وانتصر على هيثوم، ملك أرمينية سنة ١٢٦٦م، ففتح كثيرًا من البلاد منها يافا سنة ١٢٦٨م، وطرابلس وصافيتا وأنطرسوس وحماة وقلعة صفد[٣] وعاصمتها سيس وغيرها. ثم غزى سنة ١٢٧٥م بأسطول قوي قبرس التي ساعدت عكا مساعدة جدية[٤] واتسع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة (السودان). ويقول ميور في ذلك: إن هذه هي أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعًا حقيقيًّا للنفوذ الإسلامي رغم الهجمات التي كانت تتوالى عليها من حين لآخر[٥]. وقضى بيبرس على نفوذ طائفة الإسماعيلية التي كانت لا تزال ضارية ببلاد الشام والتي حاول صلاح الدين القضاء عليها. وهزم للمرة الثانية جند المغول وسلاجقة الروم المشتركة في صحراء الإبلستين، فتبوأ على عرش قسارية سنة ١٢٧٦-١٢٧٧م[٦]. وكانت من أعظم عزواته الأخيرة حيث جلى فيها سلاطين السلجوقيين قرنين كاملين.

وقد عقد بيبرس لتنفيذ سياسته إزاء الصليبيين وجنود هولاكو في

---

[١] وليم موير، دولة المماليك المصرية، ص ٢٧. حتي، ص ٦٥٥.

[٢] قِيلِيقِيَة (من اليونانية: Κιλικία، كِلِيكْيَا) هي منطقة جغرافية ثقافية في جنوب الأناضول (تركيا)، تمتد داخليًا من السواحل الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. يبلغ عدد سكان قيليقية أكثر من ستة ملايين نسمة، يتركز معظمهم في سهل قيليقية. تضم المنطقة محافظات مرسين وأضنة وعثمانية.

[٣] صفد (بالعبرية: צפת) هي إحدى مدن فلسطين التاريخية، تقع المدينة في منطقة الجليل، وهي اليوم في المنطقة الشمالية لإسرائيل كما تُعتبر واحدة من أكثر مدن البلاد ارتفاعاً عن سطح البحر بحوالي ٩٠٠ متر فوق سطح البحر. تقع على بعد ١٣٤ كم شمال القدس وتطل على بحيرة طبريا ومرج بيسان الواقعين إلى الجنوب الشرقي منها وعلى جبل الجرمق إلى الغرب.

[٤] م ج سرمد: الملك الظاهر بيبرس.

[٥] وليم موير، دولة المماليك المصرية، ص ٥٠.

[٦] وليم موير ص ٥١.

فارس عدة محالفات مع الدول المحيطة بمملكته، فتخالف مع بركة خان سلطان مغول القبجاق وتبادل بينها البعوث بين سنة ١٢٦١-١٢٦٣م، كما عقد محالفات دفاعية من ميكائيل باليولوجس[١] Mechael Palaeo Logus إمبراطور الدولة البيزنطية، ومانفريد[٢] Manfered ملك صقلية، وكيخسرو سطان السلاجقة الروم (آسية الصغرى)[٣].

وأيضًا من أهم غزواته التي لها أثر بالغ في تاريخ الإسلام، كان مواصلة غزواته مع مغول فارس الذين لم ينسوا ما حلَّ بهم في موقعة عين جالوت، فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها، وكانوا قد تحالفوا مع الصليبيين وملك أرمينية ضده وضد بركة الذي كان قد تحالف معه ضد مغول فارس. فهزم جيوشه جند هولاكو هزيمة منكرة وبعد موته سنة ٦٦٣هـ ١٢٦٥م، هزم سنة ٦٦٤هـ ١٢٦٦م جند ابنه أباق الذي سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين[٤].

وكان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول، وكان إسلامه وكان بينه وبين بيبرس من الصلاة الوثيقة أثر كبير في انتشار الإسلام بين القبيلة الذهبية، فقد حذا حذوه الكثير من زعماء المغول بعد بركة خان[٥]. كما كان لها أثر في أن تكاثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم[٦]. وقد زاد هذا

---

[١] مايكل الثامن باليولوجوس أو باليوغوس، حكم كإمبراطور بيزنطي من عام ١٢٦١ حتى وفاته في عام ١٢٨٢، وسابقا كإمبراطور مشارك لإمبراطورية نيقية من ١٢٥٩ إلى ١٢٦١. كان مايكل الثامن مؤسس سلالة باليولوج التي حكمت الإمبراطورية البيزنطية حتى سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣.
https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_VIII_Palaiologos

[٢] مان مانفريد آخر ملوك صقلية من بيت هوهنشتاوفن، الذي حكم من عام ١٢٥٨ حتى وفاته.
https://tr.wikipedia.org/wiki/I._Carlo_(Napoli)

[3] Stanly Lame Poole, A History of Egypt

[4] The Middle Ages P 265-266.

[5] Sir Thomas Arnold: The Preaching of Islam P 239-340.

[٦] المقريزي: الخطط، ٢ / ١١٧-١١٨.

الوثـاق ارتبـاط دولـة مغـول القبجـاق بدولـة المماليـك بمصـر بربـاط المصاهـرة، وكان بيبـرس قـد أدرك بأهميـة هـذه المحالفـة، فعمـد إلـى توطيدها بأن تزوج بابنة بركة خان[١].

شخصيته:

وكان الملـك الظاهـر بيبـرس ملـكًا عـاقلاً وشـجاعًا قـوي الشـكيمة، وقائـدًا كبيـرًا، وهـو رفـع كيـان الإسلام محببًـا دابـة المتواصلـة حتـى ذاع صيتـه كبطـل مجاهـد أسـطري فـاق هـارون الرشـيد فـي جلال بلاطـه وأبهـة وصلاح الديـن الأيوبـي في جهاداتـه، فحكيـت قصتـه وذاعـت إلـى هـذه الأيـام فـي الشـرق العربـي، فحـازت شـهرة أكبـر مـن قصـة ألـف ليلـة وليلـة[٢]، ولا يـزال اسـمه يتغنـي بـه إلـى يومنـا هـذا فـي مقاهـي القاهـرة، وهـو يعـدُّ مـن أحسـن وأعظـم السلاطيـن الذيـن تبـوأوا عـرش مصـر واهتم لإعلاء مكانتهـا علـى سـائر بلاد الشـرق مـن أكبـر المناصريـن لأهـل السـنة، وكان كثيـر الإحسـان والمبـرات، ناشـطًا لا يتسـرب إليـه الفتـور يظهـر بيـن جمهـور النـاس علـى الـدوام ويتألَّـف كل مـن كان حواليـه. الأوصـاف التـي هـي ومـا قـام بـه مـن جليـل الأعمـال وعظيمهـا وجهـد أداوتـه المتواصلـة، قـد عملـت النـاس على تنـاس قادتـه وغلظتـه التـي قـد اشـتهرت بإظهارهـا بعـض الأحيـان[٣]، وكان بيبـرس عـادلاً بعيـد النظـر، وهـو قـام بتدبيـر أمـور السـلطة أحسـن قيـام وبنـى نظـام الحكومـة علـى أساس متين.

أعماله:

وكان هـو أول مـن نظـم الجنـد بإنشـاء جيـش خـاص مـن المماليـك،

---

[١] هند إسكنرد ص ١٩٩.

[٢] وليم موير، دولة المماليك فى مصر ص ٥٣-٦٧. وحتي ٦٧٦.

[٣] وليم موير، دولة المماليك فى مصر ص ٥٤. وهند إسكندر عمون، تاريخ مصر، ص ١٩٧-١٩٨.

وأنشـأ أسـطولاً بحريًّـا ودارًا لصناعـة السـفن، واهتـم بتحسـين الموانـي وعـززت قلاعـه فـي سـوريا ومصـر، وأنشـأ عـدّة شـواني بثغـريْ دميـاط والإسـكندرية، ونـزل بنفسـه إلـى "دار الصناعـة" ورتَّـبَ مـا يجـبُ ترتيبـه، وتكامـل عنـده ببرّ مصـر مـا ينيـف علـى أربعيـن قطعـة، وعـدة كثيـرة مـن الحراريـق (جمـع حَرَّاقـة: سـفينة قاذفـة للنيـران) والطرائـد (جمـع طريـدة: سفينة حربية هجومية)[١].

كمـا اهتـم لحفـر القنـاة والترعـات وأصلـح وحفـر فـي وادي النيـل ترعـا وإقامـة الجـور لخـزن الميـاه وأصلـح منـارة الإسـكندرية ومنـارة رشـيد الثغـور والمعاقـل وزاد فـي اسـتتباب الأمـن فـي مملكتـه، واهتـم كثيـرًا بترقيـة رعايـاه، ورقـي نظـام البريـد وأحـدث البريـد الجـوي باسـتخدام الحمـام الزاجـل منـه، وكانـت الرسـائل تصـل مـن القاهـرة إلـى سـوريا فـي مـدة سـتين سـاعة. وهـو صـرف عـن سـعة فـي سـبيل العلـم وأنشأ مدارس كبيرة وألقى كثيرًا من الضرائب التي وصلت مبلغاه.

وكان بيبـرس مسـلمًا صادقًـا عـاملاً علـى أصـول الديـن حريصًـا علـى إقامـة العـدل بيـن النـاس علـى أصـول المسـاوات عنـد القانـون. كان يحفز بنفسه عند العدالة كمدع أو مدعي عليه أو شاهد لقضية.

وشـجع بيبـرس العلـم والعلمـاء وقـام بالأعمـال العامـة، فشـيَّد المسـاجد وزخرفهـا، وأسـس المـدارس والمعاهـد الدينيـة فوقـف لهـا أوقافًـا كثيـرةً؛ لمـا أنشـأ بيمارسـتان والكتبخانـات ومقابـر لفقـراء المسـلمين وغيرهـا كالمدرسـة الظاهريـة وجامـع الظاهـر اللتـان تعـدان مـن أكبـر منشـآته وأيضًـا الكتبخانـة الظاهريـة فـي دمشـق التـي دفـن جـده تحـت قبتـه، وهـي مـا تـزال تبقـي إلـى هـذه الأيـام. ولـم يدخـر بيبـرس وسـعا فـي إعـزاز جانـب الديـن واحتـرام مذاهبـه. وكان هـو أول سـلطان عيـن القضـاة الأربعـة، كمـا كان هـو

---

[١] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك.

أول من بدأ بإرسال محمل الكسوة الشريفة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولم تزل هذه العادة متبعة[١] إلى سنة ١٩٦٢م[٢].

لم تشغل بيبرس غزواته مع الصليبيين ومغول فارس وغيرها من الاهتمام بشئون مملكته في حقول سياسية وثقافية وغيرها، فقد وضع أساس النظام السياسي للدولة ونظم إدارتها وكان هو نفسه صاحب الأمر المطلق فيها.

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى الأسرة العباسية، فإن الخليفة لم يكن له في عهده من الأمر شئ، ولم تصبح للخلافة أي صبغة سياسية اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته[٣].

محمد بيبرس على تنمية موارد الثورة في مصر وترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعمم الرخاء، وامتلأت خزائنه بالمال، وقد تيسر له بذلك أن يعد جيش قوي يصد به غارات الصليبيين والمغول التي تطلبت منه أموالاً كثيرةً، كما استطاع بفضل هذه الثورة أن يقوم بكثير من الإصلاحات في أنحاء الديار المصرية وخاصةً بقلعة الجبل والقاهرة التي ظهرت في عهده بمظهر القوة وفاقت غيرها من مدن العالم الإسلامي في العظمة والعمران[٤].

فأقام مقاييس النيل وأنشأ الجسور والقناطر في كافَّة أرجاء البلاد، وقنطرته التي بناها على نهر الأردن لاتزال باقية إلى يومنا هذا. كما غرس بساتين عديدة زرع فيها أنواع الفاكهة والأزهار، وأنشأ مصانع النسج في أرجاء البلاد، ويصنع فيها أنواع المنسوجات الصوفية

---

[١] دائرة المعار الإسلامية، مادة: بيبرس. وحتي، ص ٦٧٥-٦٧٦.

[٢] فأرسل محمل الكسوة من باكستان للمرة الأولى.

[٣] موير: دولة المماليك المصرية، ص ٣٠.

[٤] ج. سرور، ص ١٤٥.

والكتانية وغيرها من الأقمشة الملونة والنادرة المثال، كما أنشأ مصانع لصناعة السكر ومصانع الزجاج ومصانع الآنية وصناعة المعادن، واهتم بصناعة الأدوية التي بلغت أوجها في عهد خلفاءه من المماليك. وأنشأ دوراً لصناعة السفن بجزيرة الروضة والإسكندرية ودمياط[١].

ومن أكبر منشآته المدرسة الظاهرية شرع في بنائها سنة ٦٦٠هـ على أنقاض قاعة الخيم بالقاهرة. والجامع الظاهري بناها سنة ٦٦٥هـ في ميدان قراقوش، وكذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهري إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين[٢]، حيث لما تولى عرش مصر خصَّ الأزهر لصيانته واتخذه معهدًا للعلم وزاد في أوقافه، ومنذ ذلك الحين ابتدأ الأزهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرقي[٣].

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمهات مدن الشام، فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي وبيمارستان المدينة، وقبة الصخرة ببيت المقدس وجدَّد مسجد سيدنا إبراهيم، وشيَّد القصر الإيلش بدمشق[٤].

ويعد أبو الحسين الجزار[٥] والسراج الوراق[٦] والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب[٧] وغيرهم من الشعراء الذين أنشدوا

---

[١] المقريزي، خطط، ٢ / ١٩٤-١٩٧. فضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١١٢.

[٢] المقريزي، الخطط، ٢ / ٢٧٥-٢٧٦. والنجوم الزاهرة، ٣ / ١٩٠.

[٣] يونس مهران، مصر الإسلامية، ص ١٤٢.

[٤] المقريزي، السلوك، ١ /٤٤٥- ٤٤٦. العيني، عقد الجمان، ٢٠ / ٦٢٠-٦٢١.

[٥] هو أبو الحسين ابن الجزار، هو جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصري، المعروف بالجزار. هو أحد الشعراء الصعاليك في العصر المملوكي. ولد بالفسطاط سنة ٦٠١هـ ونشأ فيها، وتوفي في الثامن عشر من شوال سنة ٦٧٢هـ. ابن الشعار الموصلي، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، ط.١. (دمشق، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥). ٢٦٦/٧.

[٦] هو أبو حفص عمر بن محمد بن الحسن الوراق المصري، شاعر مصر في عصره، كان كاتبًا للدرج لدى أمير مصر (يعنى به والي القاهرة) سيف الدين بن إسباسلار. ديوان شعر كبير، في سبع مجلدات، توفي بالقاهرة سنة ١٢٩٢. الزركلي، الأعلام، ٥/ ٦٣. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ١٣٥/٢.

[٧] يوسف بن أبي بكر بن علي بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف ابن الوردي. ولد في خامس

الأشعار في مدحه ورثائه.

وقد عاش في عهده الصوفي المعروف المصري السيد أحمد البدوي[١]، وقيل أن بيبرس كان يجله ويقدسه ويقبل قدميه[٢].

وجَّه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية، فشيَّد لذلك المدارس وزوَّدها بخيرة العلماء والفقهاء. وكانت دراسة التاريخ في عصره في المحل الأول من عناية الكتاب، فاستعدت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين المؤرخين، من مشاهيرهم:

محي الدين بن عبدالظاهر، برع في نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ، ومن مؤلفاته كتاب «السيرة الظاهرية»، وهو من المراجع الهامة التي يعتمد عليها في استقصاء تاريخ هذا السلطان. وابن خلكان مؤلف «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان». هو نشأ في مدينة أربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦هـ ثم عاش في حلب ودمشق. وجمال الدين بن واصل ولد بحماة، وبها تعلم ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ، ومن تأليفه كتاب «نخبة الفكر في المنطق» و «مفرج الكروب في أخبار بن أيوب».

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا في عصر بيبرس الشيخ عبد

عشر شوال سنة سبع وستين وثمانمائة، وأخذ الفقه عن الفخر عثمان الكردي، والعربية عن العلامة قل دوريش، والعروض للتبريزي عن العلاء الموصلي، ولي قضاء طرابلس. قال الحمصي: ثم عزل منها، ثم ولي نيابة القضاء بالقاهرة، ثم وولي قضاء طرابلس. فتوفي بها يوم الاثنين ثامن عشري المحرم سنة إحدى عشرة وتسعمائة.

[١] أحمد بن علي بن يحيى البدوي الحسيني الفاسي (فاس ٥٩٦ هـ- ٦٧٥ هـ) إمام صوفي سني عربي، وثالث أقطاب الولاية الأربعة لدى المتصوفين، وإليه تنسب الطريقة البدوية ذات الراية الحمراء. لُقب بالبدوي؛ لأنه كان دائم تغطية وجهه باللثام مثل أهل البادية، وله الكثير من الألقاب، أشهرها شيخ العرب والسطوحي. سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد البدوي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، ص ٣٢. عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (مصر، ١٩٣٨)، ١/ ٣٢٢.

[٢] ع. حمزة: الحركة الفكرية، ص ١٤٥.

العظيم بن الجزار، وكان من فحول الشعراء. ومجاهد بن أبي الربيع سليمان بن مرهف المصري المتوفي سنة ٦٧١هـ وكان فاضلاً أديبًا. وشرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصري (٦٠٨-٦٩٨هـ) صاحب «قصيدة البردة» المورقة المتداولة قراءتها وحفظها في تركستان وبلاد الإسلام الأخرى، وهي من أفضل مدائح الرسول صلي الله عليه وسلم[١].

السلطان قلاوون

وهو الملك المنصور سيف الدين قلاوون من أشهر ملوك المماليك البحرية. وكان هو أيضًا مملوكًا من قبيلة تركمان جاء به من بلاد القبجاق، فاشترى به الملك الصالح.

وهو تولى عرش مصر سنة ١٢٧٧ أو ١٢٧٩ بعد خلع سيف الدين سلامش بن بيبرس الذي كان قد خلف ابنه الأول، ولما انفرد بالملك هزم سنقر حاكم دمشق الذي كان خرج عليه ونادى بنفسه سلطانًا على البلاد السورية واستعاد دمشق.

وكان قلاوون ممن اشتهر من سلاطين المماليك التركية في مصر، وهو احتفظ بنظام الجيش وقوته وبمنفعة مصر وأملاكها، وهو لعب دوراً هامًّا في صدِّ غزوات الصليبيين والمغول المكررة على الحدود التي أحكم أمرها بيبرس بينه وبين أمير المغول في قبجاق. وكذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الفيلة والأفاوية وأنواع الببغاء. وقد تبودلت الرسائل بينه وبين ملك جزيرة سيلان (سرنديب)[٢]. وكان بذل جهده في توسيع التجارة، فسهل على

---

[١] أبو شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ٢ /٢٠٥-٢٠٦.

[٢] عرفها المسلمون باسم سرنديب واسمها الرسمي جمهورية سريلانكا الديمقراطية الاشتراكية.

التجـار الأجانـب وسـائل الانتقـال فـي بلاده ومسـتعمراته حتـى الهنـد والصيـن، وعقـدت أوامـر الـود والمصادقـة بيـن السـلطان وأميـر القسـطنطينية وكثيـر مـن حكومـات أوربـا، ثـم عقـد فـي آخريـات أيامـه معاهـدة تجاريـة مـع جنـده، وكذلـك أبـرم شـبه معاهـدة دفاعيـة بينـه وبيـن قشتاله وصقلية[١].

وقـد حمـد لـه المؤرخـون بأنـه كان ملـكًا عـاقلاً حليمًـا عـادلاً وجـوادًا ومحبًّـا للخيـر. ولـقلاوون مقـام مرمـوق فـي حقـول الثقافـة والعمـران أيضًا، هو حسن وحصن من جديد قلعة حلب وبعلبك ودمشق.

ومـن أكبـر أعمالـه الـذي خلَّـد ذكـره وجعـل النـاس ألسـنة تلهـج بالثنـاء عليـه والاعتـراف بحس صنيعـه هـو ذلـك البنـاء الضخـم الـذي شـيَّده فـي القاهـرة، والـذي يشـمل بيمارسـتانًا فخمًـا الـذي طلـي بنقـوش رائعـة مزخرفة بالمرمر والمشبكة على طراز عربي، ومدرسة يحتوي على قبة فيهـا قبـره. وقـد أعـد فـي البيمارسـتان غرفًـا متسـعة للمرضـى مـن الفقـراء والأغنيـاء وعلـى السـواء وخاصـة للنسـاء. وعيَّـن فيـه محاضريـن والأطبـاء والممرضـات، وأوجـد فيـه معـملاً كيماويًّـا مجهـزةً بـكل أنـواع المعـدات الطبيـة. وربـت فـي القبـة خمسين مـن القـرَّاء يتلـون آيـات اللـه لـيلاً ونهـارًا، وأنشـأ بهـا مكتبـة للجمهـور ملأهـا بالكتـب القيمـة فـي كل فـن وعهـد بهـا إلـى حفـاظ. وعيـن بالمدرسـة علمـاء يحاضـرون فـي المذاهـب الأربعـة، وكان بهـا كذلـك مكتـب للأطفـال ومدرسـة للصبيـان، وملجـأ للأيتـام. ويقول موير: أن هذا الوصف لما يذكر الأوربيين بالمعاهد العظيمة[٢].

وفـي عهـده بـدأ يدخـل علـى فـن العمـارة شـئ مـن المخترعـات الأجنبيـة، فأينعـت ثمـاره فـي حكـم أخلافـه. ولا مشـاحة فـي أن تلـك

---

[١] دولة المماليك، ص ٥٧–٥٨. حتي، ص ٦٧٨. و هند إسكندر، تاريخ مصر، ص ٢٠٢.

[٢] دولة المماليك، ص ١٦١. حتي، ٦٧٨.

المبرات وغيرها من الأعمال العامة التي أفادت البلاد كانت سببا في تخليد اسم قلاوون في القاهرة إلى يومنا هذا[١].

ومات قلاوون سنة ١٢٩٠م وهو في السبعين من عمره، وقد حكم من أسرته أربع أشخاص وكان الملك الصالح حاجي حفيده آخر البحريين. وكان من ألقابه «الألفى» نسبة إلى ألف دينار الذي اشترى به حين كان شابًّا جميلاً. ويقال أنه اشتري مرتين كل مرة بألف دينار. ولقب الألفي هذا بين ألقابه الملكية مما يدل على أن المماليك التركية بدلاً من أن يخجلوا من وضعهم الحقير كانوا يفاخرون به[٢].

الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون

(٦٨٩-٦٩٣هـ) (١٢٩٠-١٢٩٣م)

خلف أباه ولقب بالأشرف، وهو حكم البلاد نحو ثلاثة أعوام. وقد مجَّده المؤرخون لما قام من الحروب المظفرة لإعلاء كلمة الإسلام. وله يرجع الفضل في إيقاع الضربة القاتلة التي قضت على جنود الصليب وأخرجهم بكافَّة من بلاد سوريا، وفتح عكا سنة ٦٩٠هـ، وكان فتحًا مبينًا للمسلمين، وقد أنشد بهذا الفتح الشهاب محمود وقال:

الحمد لله ذلت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه فى اليوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هدّت قواعدها ... فى البحر للشرك عند الدين من أرب

كم رامها ورماها قبله ملك ... جمّ الجيوش فلم يظفر ولم يصب

---

[١] نفس المصدر.

[٢] نفس المصدر، ص ٦١.

لم ترض همته إلا الذى قصدت — هجر عنها ملوك العجم والعرب

فأصبحت وهى فى بحرين مائلة — ما بين مضطرم النار ومضطرب

جيش من الترك ترك الحرب عندهم — عار وراحتهم ضرب من الوصب

وأطلع الله جيش النصر فانتشرت — طلائع النصر بين السمر والقضب

أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم — فراح كالراح إذ عرّفاه كالحبب

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت — بك الممالك واستعلت على الرتب

جيش من الترك ترك الحرب عندهم — عار وراحتهم ضرب من الوصب[١]

وبهذا الفتح الذي يذكره مؤرخو الغرب بفضاعة عكا تعصبا، ختمت الحروب الصليبية العظيمة التي دامت قرنين من الزمان، وكان قد فتحها للمرة الأولى التركمان (من السلاجقة) سنة ٤٦٧ هـ، كما كان آخر من فتحها بعد قرنين تركي آخر وهو خليل بن قلاوون. وهو فتح أيضًا قلعة الروم من المغول وغير اسمها بقلعة المسلمين[٢].

وهو قتل بينما هو يلهو بالصيد، قتله عصبة من الأمراء المغتابين عليه بقيادة الأمير بيدار.

ومن آثاره الهامة في مصر السوق المعروفة بالخان الخليلي، وكان قد بناها على أنقاض مدفن الخلفاء الفاطميين[٣].

ومن أشهر سلاطين المماليك في مصر السلطان الناصر بن قلاوون والسلطان كتبغا والسلطان لاجين (١٢٩٣-١٢٩٩).

وكان الناصر أصغر أولاد قلاوون من زوجة أشلون خاتون بنت

---

[١] العيني، عقد الجمان، ٧٢/٣. كنز الدرر، ٣١/٨. تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٨.

[٢] موير: دولة المماليك ص ٦٢٠.

[٣] تاريخ مصر، ص ٢٠٤.

سكناي بن قراجين بن جنكاي نوين، سلطانًا لمصر بإجماع الآراء بعد قتل أخيه خليل، وكان إذ ذاك في التاسعة من عمره[١] ثم خلعه وصيه نائب سلطنته كتبغا سنة ٦٩٤هـ بعد عام من توليته. وهو جلس بقلعة الجبل وتلقب بعادل، وكان ذلك بعد قتل الشجاع وهربه إلى دمشق وزيره وإرساله إلى الكرك من أعمال، وأخذ مكانه لاجين سنة ٦٩٦هـ، ولما قتل لاجين أعيد الناصر ثانية إلى العرش.

وكان حكم الناصر للبلاد في سلطنته الأولى بالاسم، وأما في مدة كتبغا نزل بالبلاد قحط، استمر زمنًا طويلاً وأعقبه وباء عظيم.

وأما لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ = ١٢٩٦-١٢٩٩م) الذي يعرف بالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين كان من مماليك السلطان أيبك ثم صار إلى السلطان قلاوون فأعتق رقبته، وأخذ يتدرج في معارج الرقي حتى أصبح أميرًا، ثم واليًّا على سوريا، وهو أعلن سلطانًا بدمشق بعد خلع كتبغا الذي كان هرب إليه، ثم لما عاد هذا السلطان إلى القاهرة قابله الناس بالحفاوة والبشر، وقلَّده الخليفة سلطنة البلاد.

وكان لاجين ملكًا جديرًا بالثناء والمدح تفضَّل أخلافه كافَّة السلاطين العاديين وكان نموذجًا حسنًا للمسلم الكامل، فهو أزال الخمر[٢].

السلطان ناصر بن قلاوون

(٦٩٨-٧٠٨هـ ـ ١٢٩٩-١٣٠٩م)

ثم من أشهر سلاطين المماليك في مصر السلطان الناصر بن

[١] السلوك، ٣ /٧٩٤.
[٢] الصفحة ٤٤٩ مفقودة.

قلاوون، وهو محمد بن قلاوون المعروف بالسلطان الناصر أبو الفتح ناصر بن الملك المنصور قلاوون. وكان يلقب بأبو الفتوح، وأمه أشلون خاتون ابنة سكناي بن قراجين بن جنكاي نوين[١]، فكان الناصر أصغر أولاد قلاوون. ولي الملك ثلاث مرات، الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون في ١٤ من محرم سنة ٦٩٣هـ وعمره تسع سنين، فأقام في هذه المرة في هذه المدة سنة (١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية بعد قتل الملك المنصور لاجين في جمادي الأول سنة ٦٩٨هـ فأقام عشر سنين وخمسة أشهر (١٢٩٨-١٣٠٨م) ثم عزل نفسه وسار إلى الكرك، فولى الملك بعده الأمير ركن الدين بيبرس أبي شيكير، وتلقب بالملك المظفر، وكان ذلك في شوال سنة ٧٠٨هـ، ثم حضر من الكرك إلى الشام[٢] وجمع العساكر فخامر على بيبرس معظم جيش مصر وانحل أمره فاستولى الناصر على ممالك مصر والشام والحجاز[٣]، فأقام في الملك من غير منازع له إلى أن مات بقلعة الجبل في ٢١ من ذي الحجة سنة ٧٤١هـ، وكان ولايته الثالثة مدة اثنتين وثلاثين سنة ونيف، وحملة إقامته في الملك ثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر[٤].

بقي ملك مصر في بيت السلطان الناصر بعده مدة أربعين سنة توارثت فيها ثمانية من أولاده على التعاقب، في العشرين عامًا الأولى من وفاته؛ ثم انتقل إلى أحفاده في العقدين التاليين، فكانت كل هذه الفترة سلسلة حوادث بؤس وشقاء، إذ كان السلاطين أطفالاً لم يبلغوا الحلم، يولون ويعزلون حسب إرادة مماليك ذلك العهد[٥].

---

[١] تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٨/٨.
[٢] جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦). ١٧٩/٢.
[٣] المقريزي، السلوك، ٣١٣/٢.
[٤] المقريزي، السلوك، ٢/ ٤٣١. الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ٢/ ١٨٣.
[٥] دولة المماليك، ص ٩٥.

وكان آخرهم الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، ثم السلطان الناصر أبو المحاسن حسن، انقضت دولة المماليك البحرية بعد أن حكمت ١٣٦ سنة على قول المقريزي، وبدأت بعدها الأسرة البرجية، وكان بدءها ٦٤٨هـ وانقضاءها ٧٨٤هـ.

وللحسن بعض آثار هامة، منها جامع فيه مدرسة تعرف باسمه أي بجامع السلطان الناصر حسن أو مدرسة السلطان حسن، بناها بصرف نفقات كثيرة تجاه قلعة الجبل، و كان جامعًا عظيمًا بقبته وديوانه وبوابته العظيمة التي عدت من عجائب البنيان، قيل بشأنه أنه لا يعرف في بلاد الإسلام معهد من معاهد المسلمين، يحكي هذا الجامع، وكان أكبر من ديوان كسرى الذي في المدائن في العراق، وقد رصد لمصروفها في كل يوم عشرون ألف درهم، عنها نحو ألف مثقال ذهبًا[١].

وكان السلطان حسن شجاعًا أديبًا وتفقهًا نافذ الحكمة، محبًّا للعلم أقام مجمعًا علميًّا يشتغل فيه العلماء بالمباحثات العلمية، وكان خطاطًا ماهراً كتب بخطه نسخة من كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي. وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر، تولى بعده أخوه الملك الصالح[٢].

بويع بالسلطنة للمرة الأولى بعد أخيه المظفر وهو في الحادية عشر من عمره؛ وكانت مصر بين ضعف السلاطين وحمولهم ودسائس الأمراء، ومكايدهم على أسوأ الحال، فسعى أميره شيخون العمري إلى إصلاح الأمر، على أن الطاعون العظيم الذي تفشى في مصر وأوروبا ٧٤٩هـ ١٣٤٨ لم يدع له مجالاً للعمل[٣].

وفي سنة ٧٥١هـ ١٣٥٠م سير السلطان جيشًا من دمشق وآخر من

---

[١] المقريزي، الخطط، ٤ / ١١٧.

[٢] المقريزي، الخطط، ٤ / ١١٧

[٣] من صفحة ٤٦١ إلى ٤٦٧ مفقودة.

حلب إلى مدينة سنجار في مابين النهرين فأخذوها بعد محاصرة وطلب الأهالي الأمان كما حارب الملك «المجاهد» صاحب اليمن وأرمينية الصغرى وأخذ أننة وطرسوس والمصيصية وعدة بلدان أخرى[١].

الملك صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون

قال أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري[٢]: «قد اعتبرت منذ أول زمان وإلى آخر وقت، لم أجد زمانًا خيرًا وأمنًا وخصبًا وإقامة منار الإسلام في سائر الممالك الإسلامية من زمان مولانا السلطان...»[٣]

هو أنشأ أو جدَّد نحو سبعة وعشرين جامعًا بمصر والقاهرة وضواحيها خارجًا، عمَّا تجدَّدت في سائر الأعمال المصرية قبليها وبحريها، كما أنشأ أو جدد ولاته وقضاته بالممالك الشامية عشرات من الجوامع.

وأما الخوانق والرباطات والزوايا وكذلك المساجد التي أنشئت في عهده فلا تحصى كثيرة. وكان جميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء والفقهاء والمدرسين والمحدثين، وكل من هؤلاء فله المقرر من سائر مايحتاج إليه، فما أوقف عليهم من البلاد والضياع والأملاك والحوانيت وغيرها[٤].

وقد أورد الناصر في البلاد من الإصلاحات المفيدة فأزال عن كاهل

---

[١] تاريخ مصر. ص ١٢٣-٢١٢.

[٢] هو أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، مؤرخ مصري مملوكي نشأ وعاش في حارة الباطنية بالقاهرة. وهو ذاته على اتصال بأكابر الأيوبيين والمماليك وشهود عيان لكثير من الحوادث خلال حقبة زمنية تمتد من أوائل القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن للهجرة. من أهم مؤلفاته «كنز الدُرر وجامع الغُرر» و«درر التيجان وغرر تواريخ الزمان». المقريزي، ٩٣/٢.

[٣] الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، (القاهرة: طبعة ١٩٦٠)، ص ٣٨٩.

[٤] نفس المصدر، ص ٣٨٨.

الناس الضرائب المرهقة وقضى على إقطاعات الأمراء التي كانت تنقض من دخل الحكومة ومسح الأراضي المصرية وأعاد النظر في مصروفات دواوين الحكومة واعتنى بتحسين الري، فحفر الآبار والترع الكثيرة وبنى الجسور والسدود، وجرى الماء إلى القلعة وغيرها من الجهات وحسن التجارة أيضًا، ووسع نطاقها بأن عقد معاهدات تجارية وسهل توريد البضائع إلى الديار المصرية وشدَّد في السهر على الآداب العمومية[1]. فزادت هذه وغيرها من إصلاحاته في رخاء البلاد وفلاحها ونماء ثورتها وفي حسن رونق حاضرة الملك وبهائها وراحة السكان ورغدهم.

ومما يدل على ذلك تلك الترعة الشهيرة الممتدة من رفدة النيل إلى الإسكندرية، وقد عمل فيها ألف مائة عامل[2] وهي تسمى «ترعة المحمودية» الآن، فإنها فضلاً على أنها فتحت طريقا تجاريًّا مائيًّا بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، فقد صيرت الأراضي القاحلة التي على ضفتيها جنة خضراء آهلة بالسكان وشاطئها بالقصور الباذخة والحدائق النظرة. وكذلك أنشأ الطرق في جميع أنحاء البلاد ولا سيَّما السد الذي أقامه على الضفة اليمني للنيل، فسهل ذلك طرق المواصلات وحمي البلاد من طغيان ماء الفيضان. وشيَّد القصور الشاهقة خارج القلعة وداخلها. ويجدر بالذكر من ذلك القصر الأبلق الشائع الذكر والقلعة البيضاء الذي شيده على نمط القصر المسمى بهذا الاسم في دمشق، وقد أنفق في بناءه ۰۰۰و۰۰۰و۵۰۰ درهم؛ وقد جلب إليه المهندسين والبنائين من سورية. ولا يقل ما شيد هذا السلطان العظيم في أرجاء رقعته من المساجد عن ثلاثين مسجدًا، ما أقامه من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس، ولايزال اسمه إلى

[١] تاريخ مصر، ص ٢٠٨.
[٢] حتي، ص٢٨٠.

وقتنا هـذا منقوشًـا على بعـض أجـزاء الجامـع الكبيـر، وغيـره مـن مبانـي المدينـة، كمـا لا تـزال إلـى يومنـا هـذا تبقـي «المدرسـة الناصريـة» التـي أنشـأها سـنة ١٣٠٤م في القاهـرة، وعنـى الناصـر عنايـة شـديدة لطـي البنـاء بالفنـون الجميلـة علـى اخـتلاف أنواعهـا كالرسـم والتصويـر واهتـم بالصناعـة والتجـارة، وبلغـت فـي أيامـه مـن الإتقـان مـا لـم تبلغـه مـن قبل..........

وكذلـك لاتـزال آثـاره الجميلـة باقيـة مـن الحجـر والرخـام والنحـاس عليهـا بالنقـوش دقيقـة وكتابـة جميلـة وغيـر ذلـك مـن مقارعتـه وثريـات بديعـه وتحـف وأيـات قرآنيـة مذهبـة التـي قـد حفظـت فـي المتحـف العربـي ودار الكتـب القوميـة، وهـي تشـهد بتقـدم الـذوق الفنـي فـي الصناعـة التـي مـر فيـه المصريـون إذ ذاك وبخاصـة مـا عرفـوه مـن حولهـم مـن الأمـم فاكتسـبت الناصـر محمـد بـن قلاوون صيتًـا كان بـه خيـر مـن عـرف مـن الـكلام فـي حاضـرة الـبلاد علـى أنهـا عنايتـه لـم تكـن مقصـورة علـى القاهـرة، بـل تعدتهـا إلـى أمهـات المـدن السـورية ومكـة. وعمـل مـا يلـزم لتزييـن المبانـي العامـة وتقدمهـا، ممـا يـدل علـى خـروج الحركـة الثقافيـة إلى قمة مجدها وازدهارها في عهده.

وممـا هـو جديـر بالذكـر للدلالـة علـى مـا كان يبـذل مـن المـال عـن سـعة وسـخاء علـى المبانـي سـواء كان المـال مـن خزانـة الحكومـة أم مـال الأفـراد. إن أكبـر وزيـر بـن سـلطان كانـا يتنافسـان فـي فخامـة مبانيهـا التـي لاتزال بقايا حافظة لاسميهما إلى يومنا هذا.

وكان يحـب لنفسـه بسـاطة الملبـس وشـظف العيـش ولكـن يحيـط بلاطـه بـكل مظاهـر للفخامـة والعـزة، وممـا يـدل علـى أبهـة بلاطـه وعظمـة سـلطانه. فقـد روي أن السـلطان كانـت تمـد لـه فـي طريقـه لآداء فريضـة الحـج مائـدة وسـط حديقـة مصنوعـة فـي كل صحـراء العـرب وعليهـا

الفاكهة والزهور. وقد أنفق إحدى زوجاته في سفرها لقضاء مناسك الحج نحو مائة ألف دينار. وقد أنفق في زواج كل من بناته نحو ثمانمائة ألف دينار. وأشعل في احتفال زواج ابنته ثلاثة آلاف مصباح[١]. ولكن الناصر كان في وسط تلك الأبهة والعظمة لا يميل إلى الزخرف في لباسه. وقد ترك كل ما يتحلي به الملوك من الملبس أو المتاع[٢] في حين أنه كان يبذل من هذه الأشياء الكثير، حتى أصبح يقام المملوك مما يرغب فيه ويسعى إليه إلى حد لم يسمع به قبل[٣].

ولقد كان ما يعطيه السلطان لوكلائه من الأموال الكثيرة، وما كان يصل إلى بلاد التركستان من الحكايات الممتعة عن أحوال المماليك في مصر باعثًا كبيرًا للكثير منهم على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر، على أن أهالي تلك الجهات نفسها كانوا يغدون زمرًا إلى أرض الآمال[٤] فأكثر من شراء المماليك وألبسهم من اللباس وحملهم من الأسلحة ما لم يتمتع به الأولون في الحكايات من ذهب وفضة وديباج وحرير.

وكان الناصر عالمًا لعلوم الفقه والقانون وسياسيًّا ومصارعًا وصيَّادًا وفارسًا في آن واحد. وكان ورعًا أكثر من الصدقات وشدَّد في احترام الدين، وكان يحب العلم والعلماء وأعلى مكانتهم، فمن ذلك ما أظهره من الرفق ولين الجانب للمؤرخ العظيم إسماعيل بن علي بن أبي الفداء، وتقليده ولاية حماة ثانية، وألقابه عليه بأعلى ألقاب الشرف وأسماها، وكان يخاطبه بـ «أخ»[٥]، وأمر الناس بالخضوع والدعاء له

---

[١] (ص ٩٠).
[٢] (ص٩١)
[٣] حتي، ص ٨١-٦٨٠.
[٤] (ص ٩١).
[٥] (ص ٩٢)،

كسلطان ثان، وكان يدعوه أخاه ويستصحبه في حجه إلى مكة.

مات السلطان سنة ١٣٤١ وهو في الثامنة والخمسين من عمره بعد أن تربع على عرش الملك منها ٤٨ سنة، وكان في خلال اثنتين وثلاثين سنة منها سلطانًا مطلقًا لا ينازعه الأمراء[١].

بيبرس الثاني

(٧٠٨-٧٠٩هـ) (١٣٠٩-١٣١٠م)

كان السطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس في أول أمره مملوكًا اشتراه السلطان قلاوون، ومازال يرقيه حتى تبوَّأ أخيرًا عرش مصر، فكان أول سلطان جركسي، انتخب سلطانًا على البلاد بعد أن تخلى الناصر للمرة الثانية عن سلطانه في الكرك. ولكن من سوء حظه نقص ماء النيل ذلك العام، فزاد كره الناس له وجاء ذلك ضغثًا على باله، ولكن لما جاء الناصر للمرة الثالثة فرَّ هاربًا إلى السويس، ولما أرسل الناصر إليه بالعفو ووثق له فيها الإيمان بصفحه الجميل عنه، فرجع وقدَّم للسلطان الهدايا من الجياد والإبل والكنوز الثمينة، ولما علم بيبرس لعفو السلطان ووعده الجميل رجع إلى غزة، غير أن الناصر خنقه فيما بعد[٢].

دولة المماليك البرجية

أخذ محل الدولة المماليك البحرية طائفة أخرى من المماليك التركية وهي طائفة المماليك المعروفة بالبرجية أو الجركسية. سمَّاهم البرجية؛ لأن الملك المنصور قلاوون لما كثر من شراء المماليك من

[١] (ص ٤٤، تاريخ مصر ٢١٠).
[٢] ص ٧٨.

طائفة اللاض (اللاظ) وغيرها جعلهم جميعًا في أبراج القلعة فسماهم البرجية، وكانت عدتهم تبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة. دامت هذه الأسرة سنة ١٣٨٢م ٧٨٤هـ وانتهت سنة ١٥١٧م ٩٢٣هـ، وعدد سلاطينها ثلاث وعشرون سلطانًا.

وكان أولهم السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص (أنس)؛ وكان هو مملوكًا أخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم فجلبه تاجر رقيق خواجة فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى، وهو أعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، وبعد قتل مولاه يلبغا[١] خدم عدة أمراء المماليك في الكرك والشام، وما زال بهم حتى سجن في الكرك، ثم خرج من السجن وسار إلى دمشق في عسكر، فحارب الأمير منطاش صاحب سلطنة دمشق[٢]، على الذي ثار على يلبغا الناصري صاحب حلب وخرج يريد محاربته أي برقوق، فهزمه برقوق وملك ما معه من الخزائن، ثم سار إلى مصر فقبضها سنة ٨٠٢هـ وأصبح صاحب السيادة المطلقة بعد أن خلع الصالح حاجي آخر سلاطين البحرية، فكان أتابكًا وسلطانًا ٢١ سنة. وهو مات سنة ٨٦١هـ ١٣٩٨م، وقام من بعده ابنه فرج من زوجة تركية خوند شيرين، الملقب بالسلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات وعمره نحو العشر سنين، وهو قام بالحكم مرتين، وكانت مدة حكمه ست سنين، أخوه عبد العزيز الملقب بالملك المنصور، خلعه الأمراء لما وجدوه غير كفوء ثم نفوه إلى الإسكندرية، وكان مدة حكمه ثلاثة أشهر[٣]. وكان تغري

---

[١] ابن كثير، البداية والنهاية (تكملة)، ص: ٥٧٣.

[٢] الموسوعة التاريخية، ٦ /٤٨٨.

[٣] المقريزي، الخطط، ٣ / ٣٩١. وتاريخ مصر، ٢١٨. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: دكتور محمد محمد أمين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦)، ٤٢/٤.

بـردي ابـن المحاسـن المـؤرخ الشـهير وأيتمـش[١] مـن مستشـاري ابنـه فرج.

ولـو أن كان يميـل إلـى الإسـراف والاشـتداد مـع هـذا كان حاكمًـا قـادرًا عـاقلاً ومحسـنًا ومؤسسًـا لكثيـر مـن المعاهـد العامـة ومصلحًـا، وهـو تـرك وفـرًا مـن الأمـوال، وكان لديـه خمسـة آلاف مـن المملـوك، ومنهـم خوشقدم[٢]، وتيمور كانا مملوكين في الأصل.

السلطان قايتباي

(٨٧٢-٩٠١هـ ـ ١٤٦٨-١٤٩٦م)

وأيضًـا مـن أشـهر المماليـك الأشـرف سيف الديـن قايتبـاي، وكان فـي أول الأمـر بعـد أن اشـتراه الأشـرف برسـباي فـي خمسـين دينـارًا ثـم بويـع لجقمـق ثـم لإينـال، فأدخلـه هـذا فـي سـلك جيوشـه حيـث توصـل علـى جنـد تيمـور بغـا إلـى الأتابكـة. تولـى الملـك بعـد خلـع تيمـور بغـا ولقـب بالأشـرف. وكان حازمًـا حسـن الدرايـة. فلـم يلبـث أن قبـض علـى أزمـة الأخـراب المتعـددة وأمـن الـبلاد شـرها وبـث السـكينة والعـدل نحـوا مـن ٢٩ سنة في كل أنحاء وادي النيل[٣].

وكان الأشـرف قايتبـاي مقدامًـا ماهـراً فـي فـن الحـرب وقـد بلـغ مـا

---

[١] هو الأمير أيتمش البجاسي، اسمه أيتمش بن عبد الله الأسندمري البجاسي الظاهري، كان من مماليك الأمير أسندمر البجاسي، عمل مع الأتابك برقوق في دولة الصالح حاجي، ثم ترقى في المناصب إلى أن أصبح المشرف على الإسطبلات السلطانية «أمير آخور». ولد في القاهرة في القرن الثامن الهجري، وذبح في سجنه بالشام، في ١٤ شعبان ٨٠٢هـ – ١٩ أبريل ١٤٠٠م.

[٢] هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خُشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي، سلطان الدولة المملوكية البرجية (الشركسية) السادس عشر.. حكم من عام ١٤٦٠م حتى وفاته عام ١٤٦٧م، ويعتبر من أكبر سلاطين الدولة البرجية. وكان من أصل رومى. ابن إياس، بدائع الزهور. تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة.

[٣] شمس الدين السخاوي. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار الجيل. ج. السادس. ص. ٢٠١.

بلغه من علو المكانة، ولا سلاح له سوى كبر همته ودهائه وشجاعته وكان بعيد النظر، صادقا قوي الإرادة واسع الخبرة، عارفا بحقيقة الدنيا والناس، وقد ولع بالبناء والأسفار، فتجوَّل في مصر وسورية وبلاد العرب وما بين النهرين، وحجَّ إلى مكة وبيت المقدس؛ وكان يترك أينما مرَّ آثارًا جليلةً نافعةً من مساجد ومدارس وقلاع وبيمارستانات وجسور وطرق ألخ. وله في القاهرة من آثار شتى كثير، منها مسجدان لايضاهي جمال ما فيها من الرسوم والنقوش والحفر الدقيق إلا مباني الناصر بن قلاوون[١].

قايتباي وسلاطين آل عثمان:

وكان عصيان ولايات التركمان على الحدود السورية الشمالية خطرًا دائمًا على السلطنة المصرية، وقد زادت الحالة حرجًا بقيام سلاطين آل عثمان وكانوا قد أضحوا على عهد قايتباي أقوياء يخشي بأسهم. فأخذوا يتدخلون جهارًا في شئون تلك الولايات، ويعضدون الطامعين من أمرائها بالاستقلال عن مصر، والاعتداء على أملاكها، حتى بلغ منهم أنهم أمدوا العصاة بالرجال والسلاح في قتال انتشب بينهم وبين دعاة قايتباي، وأدرك هذا أن العثمانيين غازون سورية بلا محالة، ففضل أن يبادئهم القتال، فيكون مهاجمًا لا مدافعًا.[٢]

وكان سلطان بني عثمان يومئذ بايزيد الثاني[٣] وقد ناوأه الأمير أخوه «جم»، فاحتدم بينهم النزاع وانتهى بفوز الأول وفرار الثاني إلى

---

[١] تاريخ مصر، لهند اسكندر عمون، مرجع سابق، ص: ٢٣٥-٢٣٦.

[٢] هند اسكندر عمون، تاريخ مصر، ص: ٢٣٥-٢٣٦.

[٣] هو أبو النصر بايزيد خان بن مُحمَّد بن مُراد العُثماني، ويُعرف اختصارًا باسم بايزيد الثاني، هو ثامن سلاطين آل عُثمان وسادس من تلقَّب بِلقب سُلطانٍ بينهم بعد والده مُحمَّد الفاتح وأجداده من مُراد الثاني إلى مُرادٍ الأوَّل، وكان مولده سنة ٨٥١هـ، وهو بِكر أولاد السُلطان مُحمَّد الفاتح، وخلفهُ على عرش آل عُثمان بعد وفاته سنة ٨٨٦هـ. فريد بك، ص. ١٧٩ - ١٨١.

مصر، فرحب قايبتاي به وانحاز إليه، وكانت له معه شئون أغضبت بايزيد وأوقعت بين الفريقين حروبًا في أرمينية الصغرى. وكان قائد الجيوش المصرية الأمير آزبك، فخالفه النصر مرارًا وأخذ من الترك أطنه وطرسوس، ثم تحول النصر إلى العدو، ثم عاد إليه. وقد كثرت الخسائر ودامت الحرب خمس سنوات، ولم يفز أحد الفريقين بالآخر نهائيًّا فرأى بايزيد حقن الدماء أولى فتصالح مع قايتباي على أن يستعيد كل منهما ما يخصه من الحصون والمدن (٨٩٦هـ - ١٤٩١م)، وعاد الأمير آزبك بجيوشه إلى القاهرة، فاحتفى قايتباي به وأكرمه، وأنشأ كلاهما تذكارًا لهذه الحرب الجامع المعروف بجامع الأزبكية.

وبينما مصر تحت أعباء تلك الحروب، فشا فيها وباء فتك فتكًا ذريعًا، وعقبه كالعادة غلاء وقحط. وفي سنة٩٠٠هـ - ١٤٩٥م كان قتال شديد بين المماليك أخمد قايتباي ناره بحزم. ولكنه لم يستطع إزالة البغضاء من الناس، وكان قد تجاوز الثمانين، وأحني ظهره الحزن والمرض، فسئم الملك وتنازل لابنه ومات غداة تنازله، فكان لموته وقع أليم[١].

وبالرغم أن عهدهم ظلَّ شاغبًا بمؤامرات ومغامرات ونظال داخلي، ولكنهم استطاعوا أن تتلافوها بآثارهم العمرانية المزدهرة التي لاتزال خالدة كأنموذجة للمعمار الإسلامي، ولا سيَّما عهد تسعة منهم الذي استمر ١٢٤ سنة. كان عهد استتباب وازدهار كبير بالنشاط الثقافي، وهم برقوق وفرج والمؤيد شيخ وبرسباي وجقماق وأنيال وخوشقدم وقايتباي وقانصوه الغوري. ومن بينهم كان عهد قايتباي (١٤٦٨-

---

[١] هند إسكندر عمون، تاريخ مصر، ص ٢٢٤-٢٢٦.

١٤٩٥م) أطولها مدة وأكبرها نجاحًا[١]. وكان هو سلطانًا عظيمًا مثالاً للمسلم الورع[٢]، وهو بدد موارد الدولة على الأمكنة. في الخارج وعلى مدرسته في أمهات مدن الأقاليم وقد بكى عند سماعه بتدمير المدينة بالبرق وصرف على عمارته من جديد مائة ألف دينار[٣]. ومن أهم الآثار التي خلدت من عهد المماليك البرجية مسجد جامع بنيه برقوق وضريحه، وجامعي قايتباي وقانصو الغوري التي تمثل التقليد الأيوبي السوري روعةً وجمالاً بأكبر.

وكان جامع قايتباي يشمل الجامع الخاص والضريح والفوَّارة والمدرسة، وقد زخرفت قبته باللون الأبيض والأحمر، كما زخرفت بورق النباتات وشبيه الأزهار، وأيضًا شاهد هذا العهد النشاط المتواصل في ازدهار الفنون الجميلة والصناعات الصغيرة. وكان زمن قايتباي أزهى عهد منذ عهد الناصر بن قلاوون من ناحية النشاط الفني والثقافي[٤].

قد عاش ابن خلدون في القاهرة في عهد برقوق العظيم بعد أن نزح من تولى حوالي سنة ٧٨٤هـ، وهو رطب اللسان بقوله هذا إنه أمير مقاص وآنس الغربة ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم. وهو يقول في وصف القاهرة: « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الاسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه وتضيءُ البدور والكواكب من علمائه قد مثل بشاطئ النيل نهر ومدفع مياه السماء يسيقه العلل والنهل سيحه ويجبى إليهم

[١] حتي، ص ٦٩٤.
[٢] موير، ١٦٣.
[٣] مرسير، ص ١٦١.
[٤] حتي، ص ٦٩٧.

الثمـرات والخيـرات ثجـه ومـررت فـي سـكك المدينـة تغـص بزحـام المـارة وأسـواقها تزخـر بالنعـم»[١]، ويضيـف قـائلا: «ولمـا سـبحت فـي اللـج الأزرق، وخطـوت مـن أفـق المغـرب إلـى أفـق المشـرق، حيـث نهـر النهـار ينصـب مـن صفحـة المشـرق، وشـجرة الملـك التـي اعتـز بهـا الإسلام تهتـز فـي دوحـه المعـرق، وأزهـار الفنـون يسـقط علينـا مـن غصنـه المـورق.. أولونـي عنايـة وتشـريفًا، وغمرونـي إحسـانًا ومعـروفًا، وأوسـعوا همتـي إيضـاحًا ونكرتـي تعريـفًا، ثـم أهلونـي للقيـام بوظيفـة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف»[٢].

السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي

(٨١٨هـ - ٨٢٤هـ = ١٤١٢-١٤٢١م)

كان معاضـدًا للـطلاب، وكان شـاعرًا وموسـيقيًّا، كمـا كان مشـهورًا بورعـه وتقـواه، وقيـل أنـه لمـا أهـاب بمصـر الطاعـون لبـس السـلطان لبـاس الدراويـش وخـرج يتبعـه الخليفـة والقضـاة وأمامهـم الشـيوخ وهـم رافعـون المصحـف، واليهـود والنصـارى يحملـون التـوراة والإنجيـل إلـى ضريـح برقـوق ثـم سـجد علـى التـراب وسـجد النـاس معـه، وبعـد هـذا وزَّع الطعـام الكثيـر علـى الفقـراء، وهـو صـام ثلاثـة أيـام وسـجد للـه متـوسلاً إليـه أن يرسـل إلـى الـبلاد مـاء النيـل، وذلـك فـي وقـت عـمَّ فيـه القحـط والمجاعـة. ولمـا دعـا لـه أحـد النـاس بالبركـة قـال لـه: لا تطلـب معونة الله لي فإني هنا لست إلا واحدًا من عبيدكم.

وكان مـن أعمالـه بنـاء مدرسـة ومسـتوصف وأيضًـا حول السـجن الذي ألقـي فـي غيابتـه سـابقا إلـى مسـجد الـذي سـمي باسـمه، ولا يـزال هـذا

---

[١] ابن خلدون، التاريخ، ٧/٤٥٢.

[٢] ابن خلدون، رحلة، ابن خلدون، ١/ ٢٢٥.

المسجد باقيًا بالقاهرة إلى يومنا هذا[١].

وكان المؤيد في الأصل مملوكًا لبرقوق قد اشتراه من نحاس جركسي بثلاثة آلاف دينار، فارتقي سريعًا من مملوك في القصر إلى قائد لحجيج، فأمير على ألف، ثم عين حينذاك حاكمًا على طرابلس، وبعد ذلك وصل إلى العرش بوساطة الثورة والمؤامرات[٢].

الأشرف برسباي

(٨٢٥-٨٤١هـ = ١٤٢٢-١٤٣٨م)

لقب نفسه الأشرف بعد مبايعته. وفي السنة الأولى من عهده فاض النيل أكثر من العادة، فكثرت الخيرات وشبع الفقراء وتفاءل الناس خيرًا بملكهم الجديد.

وهو فتح جزيرة قبرس التي كانت ملجأ قرصان البحر الذين اعتادوا الاعتداء على شواطئ مصر وسورية وأسر ملكها يعقوب (J. de Lusignan) ثم أطلق سراحه بعد أن أخذ فدية قدرها ٢٠٠و٠٠٠ دينار، وبعد أن تعهد بدفع جزية سنوية لمصر. ومنذ ذلك ظلت قبرس حتى سقوط دولة المماليك الجراكسة تابعة لمصر معترفة لها بالسيادة.

ووجه برسباي جل عنايته إلى توسيع نطاق التجارة مع آسيا وأوربا وخصوصًا مع الهند فسهَّل لتجارها وسائل توريد بضائعهم إلى مواني في مصر وسوريا وبلاد العرب وأحسن معاملتهم، ومنع عنهم الاعتداء: ولم يحملهم سوى يوم طفيفة.

---

[١] موير، ص ١٣٢.
[٢] موير، ص ١٢٩.

وحارب برسباي التركمان الذين كانوا في ديار بكر وحالف مع عثمان ليأمن اعتداءهم. وقد بنى مدارس وجوامع، منها جامعة المعروف بالجامع الأشرفي[١].

جقمق (الظاهر سيف الدين)

قد حكم خير حكم بما كانت في زمنه من صلاح في داخل البلاد، وما كانت عليه من المحالفات الودية بينه والقطر العثماني والخارج وشاهرُخ في الهرات، وبما قل في حكمه من التعذيب والتقتيل، وكان جقمق نموذجًا في حسن إسلامه، وكانت القوانين تنفذ بشدة على الرزائل والشهوات. وكان حسن الذوق ومحبًّا للمخطوطات اليدوية الجميلة، وكان يحب العلماء ويرغب في مصاحبتهم. وقد كان شفيقًا سمحًا، ولم يترك غير القليل في خزانته الخاصة وهو حكم حكمًا عادلاً خمسة عشر عامًا[٢].

وكان أحد موالي السلطان برقوق، انتظم في سلك الجيش ومازال يرتقي مراتبه الواحدة بعد الأخري حتى أصبح أتابكا ونائبا لبرسباى. بويع بالسلطنة بعد عبد العزيز يوسف ولقب بالظاهر. وفي أيامه فشا في القطر طاعون مات به كثيرون ومات أيضًا في أيامه الخليفة المعتضد بالله فخلفه المستكفي بالله. وهو حاسن وصاهر مع ولاة الحدود السورية حتى اعترفوا لما رأى من ازدياد قوتهم، وكان في حكمه شديد الاحترام للدين فامتنع عن المحرمات، ونهى عن المسكر والملاهي العمومية، وكان بعكس برسباي يحسن العربية كالتركية. وقد درس الشرع والفقه على علماء العرب، ولما بلغ

[١] تاريخ مصر، ص ٢٢٠–٢٢١.
[٢] موير، ص ١٤٥.

الثمانين من عمره تنازل عن السلطنة لابنه عثمان[١].

قانصو الغوري

(٩٠٦-٩٢٢هـ ــ١٥٠١-١٥١٦م)

وكان أحد موالي قايتباي، بايعه الأمراء وقد تجاوز الستين من عمره. وقد صرف قانصوه الغوري كثيرًا من المال على الإصلاحات العامة، وتحسين شئون البلاد وتحصينها، وحفر ترع وتشيَّد مبان نافعة لمدرسته وجامعه في الغورية، وتحصين الإسكندرية ورشيد وغيرها وعلى مجاري الماء في مصر، وبناء مسجد فخم ومعهد في القاهرة، وإقامة مباني جديدة في القلعة. وكذلك ما رأى ما يكابده الحجاج من المشاق في أسفارهم فأصلح من إيراد الدولة طريق الحج وحفر فيها آبار للشرب وبنى فندق لاستراحة القوافل، وصرف الكثير على تجميل مكة وعند القبور المقدسة. كما صرف لتجميل بلاطه عن سعة وجعله أحسن ما يكون فخامة وأبهة في الآثاث والرياش والخيل وكل ما يحيط به، وقد استقدم عددًا غفيرًا من المماليك، واتخذ له حاشيته، وأكثر من شراء الجياد والجواهر. وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس في مائدة السلطان فحسب، بل كان في كل أرجاء القصر، وكما يقال حتى المطبخ، إما لباس السلطان وآداة زينته، فقد جملت بكل ما غلا ثمنه وجمل وبالغ في كرم الشعراء والمغنيين والموسيقاريين والقصاصين الذين احتشدوا في البلاط وغمرهم بالهدايا النفيسة[٢].

---

[١] تاريخ مصر، ص ٢٢١.

[٢] موير، ص ١٦٨.

وكان زمنه هو الوقت الذي عبرنا فاسكودا غاما[١] بعد أن كشف في عام ١٤٩٧ الطريق حول رأس الرجاء الصالح[٢].

حيث كان البرتغاليون منذ فتحوا كالكته يحملون تجار الهند والصين على توريد بضائعهم إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه فاسكودا غاما، بعد أن كانوا يوردونها إلى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن، وكانوا يقبضون على السفن التجارية التي تدخل البحر الأحمر، فاستنجد الأمراء المسلمون في الهند وبلاد العرب السلطان قانصوه الغوري على أعدائهم، وكانت الأضرار التي حلت بتجارة بلاده كافية لحضه على نجدتهم، فبنى عمارة بحرمة حاربت في البحر الأحمر وهزمتها، على أن البرتغاليين عادوا فانتصروا في السنة الثالثة ومازال الفريقان تقتتلان من حين إلى آخر حتى فقدت مصر مدينة عدن فقضي على تجارتها مع الهند.

وفي سنة ٩١٧هـ ١٥١٢م تولى سلطنة بني عثمان سليم الأول ابن بايزيد الثاني، وكان ولعًا بالفتوحات مقدمًا، فوضع نصب عينينه احتلال مصر، فنقض المحالفة التي كان قد أبرمها أسلافه مع سلاطينها، بحجة أن السلطان الغوري أجار الأمراء الذين نازعوه الأمر وأنه خالف إسماعيل شاه عليه. فزحف سليم على سوريا وخرج الغوري ٩٢٢هـ ١٥١٦م هو فوق الثمانين بجيوش جرارة من المصريين والمماليك والسوريين والبدو إلى دمشق وسار منها إلى حلب بقتال جيش سليم، فالتقى بهم في مرج دابق بجوار حلب، فانهزم رغم بسالة المماليك. وقد سهل للعثمانيين الفوز ببعض

---

[١] فاسكو دا غاما (بالبرتغالية: Vasco da Gama)، وُلِدَ في ١٤٦٩م في البرتغال وتُوفِيَّ في ٢٤ ديسمبر ١٥٢٤م في كاليكوت بالهند، يعدّ من أنجح مستكشفي البرتغال في عصر الاستكشاف الأوروبي وهو أول من سافر من أوروبا إلى الهند بحراً.

[٢] الصفحة ٤٧٥ مفقودة.

الخونة من رجال قانصوه الذين تفرقوا عنه وانضموا إلى عدوه، ومنهم الأمير خير بك، على أن قانصوه ظل يحارب مستقلاً رغم شيخوخته حتى سقط عن جواده وقتل تحت أرجل الخيل[١].

وكان آخر الأسرة طومان باي الذي استخلفه قانصوه الغوري على مصر قبل خروجه منها، فبايعه الأمراء بعد قتل قانصوه، وهو آخر السلاطين الجراكسة، شنقه السليم على باب زويلة بعد أن استولى على مصر نهائيًّا في ٣ محرم ٩٢٣هـ ـ ٢٦ يناير سنة ١٥١٧م، وقد بلغ من العمر أربعين حجة حكم فيها ثلاثة أشهر ونصف فحسب، ولم يخلف وراءه أسرة. انتهت أسرة المماليك انتهاء نهائيًّا، وجعل السلطان سليم مصر بعد ذلك إيالة عثمانية، وكانت مكة تابعة لها فدخلت بعدها في حكمه. وقد شمل الحزن كل بلاد المصرية لما برهن في كل من عهدي نيابته عن قانصوه وسلطنته أنه شجاع كريم عادل وأحسن رجال الأسرة وآخرها[٢].

وقد ظل المماليك حاكمين على مصر بصفة البكوات طوال الحكم العثماني، وكان كلما يتقلص مجد الباب العالي من وقت لآخر يقل نفوذ ولاته في مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعا لذلك.

وفي نفس الوقت لم يزالوا يكثرون من عددهم بشراء مماليك جدد كانوا يفدون على مصر من سيبريا وبلاد الجركس وماجاورها من البلدان، وصار رؤساء المماليك يسمون باسم «شيخ البلد»، وكان هذا الشيخ إذا عاصره الأراء يستفحل أمره فيصير هو الحاكم الفعلي للبلاد.

---

[١] تاريخ مصر، ص ٢٢.
[٢] موير، ص ١٨١.

ومن أشهر شيوخ البلاد الذين حكموا على هذا المثال كان علي بك الكبير، وهو يعد أكبر الشخصيات التي ظهرت في ذلك الجزء المظلم في تاريخ مصر، وأعماله تعد سابقة لأعمال محمد علي الذي نال به مصر استقلاله، وهو استطاع كسر شوكة الإنكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك في مصر.

وهو أخذ يزيد في عدد المماليك في بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف، وعندئذ اتخذ موقف المستقل، وطرد الوالي العثماني إلى القسطنطينية فجهز حملة احتلت اليمن، ثم توجه بجيشه إلى سوريا فأخضعها وأخضع البدو، وكذلك جهز حملة أخرى احتلت جدة ومكة، فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة، ولقب بسلطان مصر وخاقان البحرين، واعتدت سلطته على سواحل البحر الأحمر وجدة التي صارت مركزًا تجاريًّا في زمنه. وبعد أن حكم حكمًا زاهرًا ائتمر به جماعة وذبحوه غيلة في سوريا.

وكان إبراهيم بك وهو أيضًا من زعماء المماليك «شيخ البلد»، عندما استولى نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م ولم يزل هؤلاء الشيوخ المماليك يحكمون حتى أحرز محمد علي أيضًا تركي الجنس من ألبانيا السيادة العليا على مصر، فقضى عليهم بالمؤامرة والقتل والطرد خشية شرهم، والعدد القليل الذي بقي منهم في القاهرة اندمجوا في أهل البلاد وصاروا منهم[١].

الحركة الثقافية والعلمية في عهد المماليك

وكان للمماليك البحرية والبرجية أثر بالغ في تاريخ الإسلام السياسي والحركة الثقافية في البلاد التي حكموها. وقد امتاز عهد

[١] (موير، ص ١٩٤-١٩٥. محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، ص ٤-٦.

هذه الدولة بأنه أزهى عصور مصر الإسلامية، فقد أصبحت إذ ذاك عاصمة لدولة عظيمة تمتدُّ حدودها من سرقة غربًا إلى البحر الأبيض شرقًا ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوبًا وخضعت لهذه الدولة بلاد اليمن والحجاز[١]. وكذلك امتاز النظام الإداري الذي تبعه سلاطين المماليك فأصبح مضرب المثل في الدولة وحسن الانسجام[٢].

واستطاعت هذه الدولة القوية أن تقوم فوق ما قامت به من طرد من بقي من الصليبيين الحاكمين في سورية ومصر نهائيًّا، أمر خطير آخر هو صدهم غزو المغول الذين هجموا على الشام وحاولوا الوصول إلى مصر، وغزو تيمور متأخرًا، الأمر الذي إذا لم يتم بيدهم يكاد التاريخ لتغير تغيرًا كاملاً، ولن يصن البلاد من تلك الدمار والخراب التي نزلت بيد المغول على سورية والعراق، وبذلك أصبح المماليك يد كبرى لا على مصر، بل على العالم الإسلامي كله[٣].

حكم المماليم التركية في تلك البلاد البعيدة من أوطانهم وأجناسهم زيادة قرنين ونصف قرن، ازدهر في غضونها الثقافة والسياسة إلى درجة لم يسبق نظيرها في الممالك الإسلامية الأخرى خارج بلاد العرب، وكان ذلك بالرغم من أن البلاد كانت في عهدهم تحمي وتطيس فيها المشاغبات والاضطرابات المتوجهة من الخارج والداخل أكثر من أي نقطة أخرى في العالم.

ومما يعجبنا كثيرا أنهم بالرغم من أنهم كانوا غير مثقفين بصفة عامة، ولكنهم تذوقهم الفنون الجميلة، ومن جملتها الفن المعماري

---

[١] عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ٤١.

[٢] عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ٤٩.

[3] Hitli: History of Arabs P 671.

كان أكبر وأوعى من أي شعب متمدن ومثقف، والقاهرة تدين لهم بآثارها الخالدة التي جمتلها ولاتزال تجملها وجعلتها من أزهى البلاد الإسلامية وأغنيها من حيث الفن المعماري وآياتها الرائعة[١].

وفي عهد المماليك كثرت دور العلم من مدارس وخواقن. وكان لسلاطين هذه الدولة عناية كبرى بهذه الدور، وكان من أشهر هذه المدارس المملوكية المدرسة الظاهرية القديمة بناها الملك الظاهر البندقداري عام ٦٦١هـ، ورتب لتدريس الشافعية بها تقي الدين رزين[٢] أو لتدريس الحنفية محيي الدين عبد الرحمن بن الكحال بن الفديم، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطي[٣]، ولتدريس القرآن كمال الدين القرشي[٤]، وألحق بها خزانة كتب عظيمة.

والمدرسة المنصورية: بناها الملك المنصور قلاوون ورتَّب فيها دروسًا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير والطبِّ.

---

[1] Hitli: History of Arabs P 671.

[٢] هو قاضي القضاة تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي، ولد سنة ثلاث وستمائة، وقد سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقي الدين بن الصلاح، وأم بدار الحديث مرة، ودرس بالشامية، وولي وكالة بيت المال بدمشق، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس، وولي الحكم بها، وكان مشكورا، توفي ليلة الأحد ثالث رجب منها، ودفن بالمقطم. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ /٣٤٩.

[٣] هو شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى المعروف بالحافظ الدمياطي الشافعي (٦١٣ هـ / ٧٠٥ هـ)، ولد بقرية تونة بجوار مدينة دمياط. كانت له رحلة إلى الإسكندرية في بداية الطلب سنة (٦٣٢ هـ)، وحج سنة (٦٤٣ هـ)، وسمع بالحرمين، وارتحل إلى الشام سنة (٦٤٥ هـ)، وأقام بها مدة قبل أن يعود إلى مصر. توفي فجأة في ذي القعدة سنة (٧٠٥ هـ) في القاهرة ودفن في مقابر باب النصر. ابن حجر: الدرر الكامنة، ٤١٨/١. ابن تغري: النجوم الزاهرة، ٤٤٦/٢.

[٤] هو كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة بن محمد بن حسن القرشي العدوي النصيبي الشافعي. ولد سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وبرع في المذهب وأصوله، وشارك في فنون، حدث عن المؤيد الطوسي، وزينب الشعرية. روى عنه الدمياطي، ومجد الدين بن العديم، وشهاب الدين الكفري، والجمال بن الجوخي، وآخرون. توفي بحلب في رجب سنة اثنتين وخمسين وستمائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٣/٢٠.

والمدرسة الناصرية: بناها الناصر محمد بن قلاوون، فرغ من بنائها عام ٧٠٣هـ، عين بها المدرسين للمذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة حافلة[١].

والمدرسة الظاهرية: فرغ من بنائها عام ٧٨٨هـ، بناها السطان الظاهر وعيَّن فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والقراءآت، فمنهم كان الشيخ سراج الدين البلقيني[٢] مدرسًا للتفسير[٣].

مدرسة السلطان حسن نسبة إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون شرع في بنائها سنة ٧٥٨. قال المقريزى: ولا يعرف في بلاد الإسلام معهد من معاهد المسلمين يحاكي هذه المدرسة في كبر قالبها وحسن هندامها وفخامة شكلها ودامت العمارة فيها ثلاثين سنة لا تبطل يوما واحدا، وأرصد لمصروفه في كل يوم عشرين ألف درهم، منها ألف مثقال ذهب، وكان أكبر من ديوان كسري نجمته أذرع وبها أربع المذاهب الأربعة[٤].

ثم في عصر المماليك اشتهر من حفاظ الحديث كثيرون ومنهم:

١- ابن دقيق العيد: وهو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ مجد الدين على بن وهب بن مطيع القشيري القوصى. وصل في الفقه إلى درجة الاجتهاد المطلق، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه. ومصنفاته كثيرة منها: «اللمام في الحديث وشرحه»، و«شرح

---

[١] المقريزى: الخطط، ٤٠٨.

[٢] هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن عبد الحق الكناني، سراج الدين أبو حفص العسقلاني الكناني، أحد كبار الشافعية بمصر ولد ببلقينة أحد قرى مدينة المحلة الكبرى سنة ٧٢٤ هـ. العسقلاني، ابن حجر، لسان الميزان، ٤/ ٣١٧. ٢٦. شمس الدين السخاوي. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ٦/ ٨٩.

[٣] السيوطي، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٦.

[٤] حمزة ١٦٥، حسن المحاضرة، ٢ / ١٤٦.

العمدة»، و«الاقتراح في مصطلح الحديث»، و«شرح العنوان في أصول الفقه»، وله ديوان شعر وديوان خطب، ومات في صفر سنة ٧٠٢هـ[١].

٢- والسبكى: وهو تقي الدين أبو الحسن على بن عبد الكافي. ولد بسبك من أعمال المنوفية في صفر سنة ٦٨٣هـ ترجم له في طبقات الشافعية، وقال: هو شيخ الإسلام بقية المجتهدين. نبغ في الفقه والحديث والأصول والمعقول والتصوف والنحو وغيرها، وانتهت إليه رياسة العلم في مصر. ومن أجل مصنفاته كتاب «البدر النظيم في تفسير القرآن العظيم»، «الابتهاج في شرح المنهاج»، وغيرها من المصنفات في الفقه والتفسير واللغة والنحو مما زاد على خمسين مؤلفًا، توفي سنة ٧٥٦هـ[٢].

وممن يفخر به العصر المملوكي من الحفاظ الفقهاء:

الإمام البلقيني، وهو شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن أسلان بن نصير بن صالح الكناني، ولد في رمضان سنة ٧٢٤هـ، بلغ مرتبة الاجتهاد وانتهت إليه رياسة المذاهب وولى التدريس بعدة مدارس منها الجامع الطولوني. مات البلقيني عام ٨٠٥هـ، وكان يعد عالم المائة الثامنة[٣].

وفي عصر المماليك[٤] عاش في مصر مفسر عظيم ونحوي كبير وهم محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٢٥ أو ٧٤٥هـ) نزيل مصر وبها أصبح شيخ النحاة والمحدثين

[١] السبكي، طبقات الشافعية، ٦ / ٢.
[٢] طبقات الشافعية ٦ /١٤٦.
[٣] (حمزة، ص ١٧٨-١٨١ وطبقات الشافعية، ٤ / ١٥.
[٤] الصفحتان، ٤٨٣ وبعدها مفقودة.

والمفسرين في القرن الثامن الهجري[١].

ومن الفقهاء عز الدين عبد السلام بن أبي القاسم السلمي (٥٧٨-٦٦٠هـ). ولد بمدشق وقدم مصر وأقام بها عشرين سنة، وانتهت إليه معرفة المذهب وبلغ مرتبة الاجتهاد، شهد جنازته السلطان بيبرس[٢].

وابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني الحنبلي (٦٦١ أو ٦٦٦ - ٧٢٦هـ). ولد بحران قريبًا من دمشق، قرأ القرآن والفقه وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرس وهو دون العشرين، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه وتصانيفه أربعة آلاف كراسة وأكثر. وله مذهب خاص خالفه العلماء ونسبه إلى الزندقة ومناقشته مع علماء المذاهب الثلاثة وما جرى بينهم من الجدل والمناظرة قد بسطت في أمهات الكتب التاريخية والتراجم. وقد تبع مذهبه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه متأخرًا[٣].

شهدت دولة المماليك البحرية نهضة عظيمة في النحو وغيره من الدراسات العربية، وكان على رأس هذه الحركة النحوية القوية ثلاثة رجال يفخر بهم العصر المملوكي في مصر، وهو أبو حيان الأندلسي سالف الذكر وابن هشام الأنصاري (٧٦١-٨٠٧هـ) وابن عقيل ٦٩٨-٧٦٩هـ).

وكان أبو الحيان الأندلسي من كبار علماء النحو والصرف. ولد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ، ولم يزل بها حتى وقع الخلاف بينه وبين أساتذته في النحو فتركها ورحل إلى مصر، ومازال بالديار المصرية

[١] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤/٣٠٤.
[٢] العز بن عبد السلام، محمد الزحيلي، ص٣٩. ابن العماد، شذرات الذهب، ٧ /٥٢٣.
[٣] حمزة، ص ١٧٨-١٨١. وطبقات الشافعية، ٤ / ١٥.

حتى انتهت إليه رياسة النحو، كما أصبح شيخ المحدثين والمفسرين بالمدرسة المنصورية بجامع قلاوون، مات بالقاهرة عام ٧٤٥هـ.

واشتغل أبو حيان بعلوم كثيرة منها: الحديث والتفسير والقراءآت، ثم الأدب والتاريخ. وقد أربت مؤلفاته على خمسين مؤلفًا، ومن أهمها: «البحر المحيط في التفسير»، و«التجريد لأحكام سيبويه»، و«التنزيل والتكميل في شرح التسهيل»، و«كتاب تذكرة في اللغة»، وغيرها. وكان عالمًا بعدة مؤلفات هامة، وله مؤلفات في اللغات التركية والفارسية والحبشية والتيمورية[١].

وأما ابن هشام كان عالمًا كبيرًا يفخر به العصر المملوكي كله، وله تبحر في علم النحو واللغة والفقه والحديث وغيرها من العلوم المتداولة في عصره. فقد أربت مصنفاته على العشرين، ومن أشهرها: «شذور الذهب»، و«مغني اللبيب»، و«قطر الندى»، و«كتاب الإعراب» في النحو، وكتاب «موقد الأذهان»، و«موقظ الوسنان» و«كتاب الجامع الصغير»[٢].

ثم دخل الفيروزآبادي الشام فسمع بها ممن اشتهر من العلماء ثم أتى مصر فدخل القاهرة، وانتقل إلى بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان مراد خان ونال عنده حظوة وجاها، وأعطاه السلطان مالاً جزيلاً. وقيل أنه أخذ كذلك من الأمير تيمور خان خمسة آلاف دينار. ثم دخل زبيد عام ٧٩٦هـ وتلقاه بها الأشرف إسماعيل وبالغ في إكرامه وصرف له ألف دينار. وتولى قضاء اليمن كله واستمر بزبيد عشرين سنة. ثم قدم مكة وأقام بالمدينة المنورة وبالطائف. صنف الفيروز آبادي كتبًا كثيرةً قيل أنها أربت على أربعين مصنفًا،

[١] حمزة، ص ٢٢٧ نقلا عن الصفدى: نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٠٨.
[٢] الصفحتان ٤٨٧ وما بعدها مفقودتان.

وكان من أجل ما صنف الفيروز آبادي كتابه القاموس المحيط، وهو قاموس كبير تداوله الناس منذ ذلك ومازال بأيديهم إلى اليوم في البلاد الإسلامية[١].

وابن منظور: هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الإفريقي المصري (٦٣٠-٧١١هـ). وكان صدرًا رئيسيًّا فاضلاً في الأدب، مليح الإنشاء، عارفًا بالنحو والكتابة وخدم بديوان الإنشاء مصر مدة طويلة وولىَّ قضاء طرابلس مدة أيضًا، ثم عاد إلى مصر وكانت إقامته بها حتى مات.

يقال أنه ترك بخطه نحوا من خمسمائة مجلدًا، وقد عمى في آخر عمره. ومن تأليفه: «انتشار الأزهار في الليل والنهار» في الأدب، و«سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» في علم الطبيعيات، و«لطائف الذخيرة» وغيرها.

غير أن الكتاب الذي خلَّد ذكره هو معجمه الذي اشتهر باسم «لسان العرب»، وهو من أكبر المعاجم، جمع فيه مؤلفه بين كتاب اللغات الستة الشهيرة أي: «التهذيب» للأزهري و«الصحاح» للجوهرى، و«المحكم» لابن سيَّده و«النهاية» لابن كثير وغيرها[٢].

ومن المؤرخين الذين عاشوا في هذا العهد الزاهر ابن الراهب القطبي (- ٦٨١هـ) وهو أبو شاكر بطرس بن الراهب بن المهذب، كان شماسبا في دير الكنيسة بالفسطاط، ومازال هناك حتى مات. وهو خلف لنا كتابا في التاريخ العام يبدأ بآدم حتى أتى بتاريخ الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم إلى أيامه هو. وقد اهتم الأفرنج

---

[١] حمزة، ص ٢٣٨-٢٤٠.

[٢] حمزة، ص ٢٤٢-٢٤٥.

بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية[١].

وقد نبغ المؤرخون من المماليك أنفسهم ومنهم من المؤرخين في هذا العهد بيبرس المنصوري (- ٧٢٥هـ) وهو الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار من مماليك السلطان المنصور قلاوون. تولىَّ له إمارة الكرك، وكان وزيرًا في زمن الملك الأشرف، وهو خلف لنا مؤلفًا هامًّا في تاريخ الدولة الإسلامية العام من أوله إلى سنة ٧٢٤هـ عنوانه «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلدًا. وقد عثر على بعض أجزائه مفرقة بين مكاتب باريس وأكسفورد وغيرها[٢].

وكانت سيرة النبي تحتل مكانًا ممتازًا في الشعر والأدب في عهد كل من الأيوبي والمملوكي، كما كانت تحتل مكانًا ممتازًا في الكتابة التاريخية لهذين العهدين أيضًا.

وممن اشتهروا يومئذ بكتابة السيرة النبوية بالشعر ابن سيِّد الناس (٦٦١-٧٣٤هـ) وهو فتح الدين اليعمري الأندلسي من كبار المحدثين. وهو درس بالمدرسة الظاهرية وله كتابان، وهما: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، وكتاب «بشري اللبيب في ذكري الحبيب» وهو قصيدة تاريخية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[٣].

وقد نبغ في هذا العهد من المؤرخين هم كتبوا في تاريخ الدول المصرية الإسلامية كابن واصل وابن دقماق، وفي التراجم كابن

---

[١] حمزة، ٢٩٤. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ٣ / ١٨٥.
[٢] حمزة، ص ٢٩٤.
[٣] حمزة، ص ٢٩٦.

خلكان والفعطي والأدفوي[١]، وفي السيرة أمثال ابن شدَّاد ومحيي الدين عبد الظاهر[٢] وغيرهم.

وابن واصل هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم (-٦٩٧هـ). كان في أول أمره مدرسًا في حماة ثم استدعي إلى القاهرة عام ٦٥٩هـ، وبعث به الملك الظاهر في مهمة إلى مانفريد ملك صقلية، فمكث عنده مدة طويلة وصنَّف عنده موجزًا في المنطق ثم عاد من صقلية، فعين قاضيا للقضاة، فمدرسًا لحماة، وهو خلف لنا كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب». وكان من مخضرمي الدولتين الأيوبية المملوكية. وقد شهد بنفسه حودث النصف الأخير من حياة بني أيوب[٣].

وابن دقماق، وهو صارم الدين بن محمد بن آيدمر بن دقماق العلائي، وهو تركي الجنس. كان حنفيًّا متحمسًا لمذهبه، أوذي كثيرًا بسبب مذهبه هذا، وزجَّ به في السجن لأنه انتقص من قدر الإمام الشافعي في كتاباته.

وأما مؤلفات ابن دقماق فهي كثيرة منها «نظم الجمان لطبقات الحنفية» في ثلاثة مجلدات، و«نزهة الأنام في تاريخ الإسلام» في اثني عشر مجلدا، و«الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين»،

---

[١] هو كمال الدين جعفر بن ثعلب الأُدفُوي المؤرخ الأديب الفقيه الشافعي، عاش الأدفوي في القاهرة واتخذ المدرسة الصالحية سكناً له، حتى توفاه الله بعد عودته من الحج سنة ٧٤٨ هـ. الزركلي، ١١٦/٢. ابن العماد، شذرات الذهب. ١٥٣/٦.

[٢] هو محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي المصري. لقب بـ «شيخ أهل الترسل» و«الكاتب الناظم الناثر». قاضي مصري وصاحب ديوان الإنشاء بالدولة المملوكية، عاش في عهد السلاطين قطز، والظاهر بيبرس وولديه بركة وسلامش، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، وألف كتابه الشهير «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» عن حياة وأعمال السلطان الظاهر بيبرس البندقداري. وصفه ابن تغري بأنه «من سادات الكتاب ورؤسائهم وفضلائهم»، ووصفه القلقشندي بأنه «من فحول الكتاب». الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، ١٥/ ٧٤٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٧.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية، ١/ ٢٩٩. حمزة، ص ٣٠٠.

وهو تاريخ لمصر إلى سقوط سلطان برقوق، وكتاب «الانتصار بواسطة عقد الأمصار» في عشر مجلدات وصف فيها عشر مدن إسلامية، وكتاب «الكنوز المخفية في تراجم الصوفية»، وكتاب «ترجمان الزمان في نظام الجيش»، وكتاب «فوائد الفوائد في تفسير الأحلام» وغيرها (توفي عام ٨٠٩هـ).

وابن خلكان، وهو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الأربلي (٦٠٧-٦٨١هـ) وقيل هو ينتسب إلى البرامكة، ولد في أربل ثم ذهب إلى القاهرة سنة ٦٣٦هـ وأصبح نائب قاضي القضاة يوسف بن الحسن السخاوي. ثم شغل وظيفة قاضي قضاة دمشق، ثم اشتغل بالتدريس سبع سنوات بالمدرسة الغورية بالقاهرة ثم في المدرسة الأمينية بدمشق، ومن أشهر كتبه: «وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان»، وكتابه هذا يعد من أصح المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي، فهو ذخرة علم وأدب وتاريخ ولغة[١] يشمل تراجم ٨٦٥ من العلماء وهو يعد من أحسن قاموس التراجم الذي كتبت في اللغة العربية في ذلك العهد.

وابن القفطى: وهو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الملقب بجمال الدين (٥٦٨-٦٤٦هـ) تلقى علومه بالقاهرة ثم رحل بعدها إلى حلب وهناك عهد إليه القيام على إدارة الأموال بها عام ٦١٠هـ ثم أصبح وزيرًا فيها عام ٦٣٣هـ، فظل وزيرًا بها حتى مات هناك.

وكان للقفطي غرام شديد بالكتب وجمع منها ما لايوصف، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار. فأوصي بمكتبته هذه للملك الناصر صاحب حلب، حيث كان لم يخلف ولدًا. وله كتب كثيرة

---

[١] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: ابن خلكان.

في التاريخ وغيره[١].

الأدفوي: وهو كمال الدين جعفر بن ثعلب بن جعفر بالأدفوي الشافعي (٦٨٥-٧٤٨هـ)، كان فقيهًا ولغويًّا، عاش بالقاهرة ومات بها، وهو من كتاب التراجم، كتب في تراجم المصريين. وأشهر مؤلفاته كتاب «البدر السافر وتحفة المسافر في تاريخ مشاهير القرن السابع، و«الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد»[٢].

ومن كتاب السيرة ابن شداد: وهو أَبُو اَلْمَحَاسِنْ بَهَاءْ اَلدِّيـنْ يُوسُفْ بْنْ رَافِعْ بْنْ تَمِيمْ بْنْ شَدَّادْ اَلْأَسَدِي اَلْمَوْصِلِي، ولد بالموصل عام ٥٣٩، ودرس بها ثم رحل إلى بغداد ثم ذهب دمش بعد فتح بعد حج بيت الله عام ٥٨٣هـ، ولقي السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو عينه قاضيًا للعسكر في بيت المقدس. ولما توفي صلاح الدين رحل إلى حلب وعين قاضيًا بها. وكان له نفوذ كبير في عهدي الظاهر والعزيز، وقد استغل نفوذه هذا في الإكثار من المدارس ووقف المال عليها، إما كتب بن شدَّاد، فمنها «دلائل الأحكام»، و«النودر السلطانية والمحاسن اليوسفية» في سيرة السلطان صلاح الدين أيوب[٣].

وابن الظاهر: وهو محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين السعدي الجذامي المصري (٦٨٠-٦٩٢هـ)، ولد بالقاهرة، وهو لعب دوراً هامًّا في حكم الملك الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من سلاطين المماليك البحرية، كان صاحب

---

[١] ابن خلكان، فوات الوفيات، ٢ / ٩٦. والحموي، معجم الأدباء، ٥ /٤٧٧. وحمزة، ص ٣٠٥. الزركلي، الأعلام، ٥ ١٨٧.

[٢] حمزة، ص ٣٠٨.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: ابن شداد. ابن حلكان، ٢ / ٣٥٤. حمزة، ص ٣٠٩.

ديـوان الإنشـاء، لـكل واحـد منهـم وهـو وضـع كتابًـا هامًّـا فـي سـيرة السـلطان الملـك الظاهـر بيبـرس، وصلـت إلينـا نسـخة ناقصة منها نشـرتها السـيدة فاطمـة صـادق المصريـة مـن داكـة باكسـتان، ويقـال أن هـذا الكتاب كان منظومة شعرية نشرها شافع بن علي عباس العقلاني.

وكان أبـو الفـداء وابـن تغـري بـردي والسـيوطي والمقريـزي وابـن خلـدون أيضًـا مـن المؤرِّخيـن الكبـار الذيـن عاشـوا فـي عهـد المماليـك الزاهـر. وكان أبـو الفـدا (١٢٧٣-١٣٣٢م) مؤرخًـا كبيـرًا وعالمًـا للجغرافيـة وهـن مـن أولاد أخـي صلاح الديـن، وهـو تولَّـى ولايـة حمـاة فـي عهـد السـلطان الناصـر، وهـو خلـف لنـا كتابـه فـي التاريـخ «مختصـر تواريـخ البشـر»، وهـو تلخيـص تاريـخ الطبـري. وأمـا أبـو المحاسـن بـن تغـري بـردي (١٤١١-١٤٩٩م) كان أبـوه أميـرًا كبيـرًا فـي بلاط المماليك، وكان أمُّـه أمـة تركيـة لبرقـوق. وهـو خـدم عـدة سلاطيـن المماليـك وكتابـه «النجـوم الزاهـرة فـي أخبـار مصـر والقاهـرة» يعـد مـن أهـم المصـادر والتاريخ منذ فتح العرب.

وقـد تقـدَّم فـي هـذا العهد في بلاد مصـر والشـام علم الطـب والأمراض تقدمًـا باهـرًا ورئيسـيًّا، وممـا يـدل علـى ذلـك أنـه قد أنشـأ في عهـد قلاوون أكبـر بيمارسـتان وأكملهـا بتجهيـزه بـالأدوات والأدويـة، تولَّـى رياسـتها مـن كبـار الأطبـاء أبـو الحسـن علـي بـن النفيـس المتوفـي سـنة ١٢٨٨م، ولـه يعـود الفضـل فـي كشـف جريـان الـدم الرئـوي قبـل أن يكشـفه العالـم البرتغالـي سـروتس بعـد ثلاثـة قـرون، وهـو خلـف لنـا فـي هـذا الموضـوع كتابـه شـرح «تشـريح القانـون» كمـا نبـغ فـي هـذا العهـد طائفـة كبيـرة مـن علمـاء الطـب وهـم عالجـوا وبحثـوا جهـات شـتى فـي موضـوع العـلاج والطـب وصناعـة الأدويـة وعلـم تشـخيص الأمـراض وحتـى علـم النفـس

البشري فسماه «الطب الريحاني والعلاج النفساني»[١]. ومنهم أبو بكر بن البدر البيطار المصري المتوفى عام ١٣٤٠، وهو رئيس الأصطبل للناصر بن قلاوون، كتب كتابًا في علم البيطارية يسمى «كامل الصناعتين في البيطرة والزرطقة» التي وضعت في العلم بالبيطاري باللغة العربية.

وكان قلاوون وبرقوق يهتمان لتربية الخيول النجيبة، وقد وضع عدة كتب هامة تبحث عن خصائل الخيول وتبين فيها أحاديث واردة في الخيول منها كتاب «فضل الخيل» مؤلفه عبد المؤمن الدمياطي المتوفي ١٣٠٦، وكان مدرسًا في المدرسة المنصورية القلاوونية[٢].

ومنهم الكاهن العطَّار، وهو مصري يهودي الأصل في سنة ١٢٦٠م، أي في بداية عهد المماليك البحرية، كتابًا في صناعة الأدوية تسمى «منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان»[٣].

وصلاح الدين هبة الله بن جميع (جامع)، وهو أيضًا مصري يهودي الجنس كان من علماء الطب، وهو وضع كتابًا في علم العلاج النفسي «الإرشاد لمصالح الأنفاس والأجساد».

وأما جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ = ١٤٤٥-١٥٠٥م)، وهو عبد الرحمن بن أبي بكر تركي الأصل ينتمي نسبه إلى الأسرة الطولونية، وأمه أيضًا أمة تركية[٤]، كان عالمًا متبحرًا من أمثال ابن

---

[١] حتي، تاريخ العرب، ص ٦٥٦.

[2] P.K. Hitli: The Hisotry of the Arabs P 685.

[٣] حتي، ص ٦٨٥.

[٤] السخاوي، الضوء اللامع، ٤/٦٥.

الجوزي[١] وابن حزم[٢] والطبري، وهو نبغ في علوم القرآن والحديث والفقه والفلسفة والتاريخ وفقه اللغة والمعاني والبيان وغيرها من علوم عصره. وكان خطاطًا ماهرًا، وقد بلغ تأليفه ستين وخمسمائة، وأهم تأليفه التي وصلت إلينا «الإتقان في علوم القرآن»، و«المظاهر في علوم اللغة»، و«حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة»[٣].

والمقريزى: هو تقي الدين أحمد المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢م)، ولد في القاهرة وأصله من بعلبك، تولى مناصب عالية كالقضاء والتدريس في القاهرة ودمشق، وهو من أشهر المؤرخين في عهد المماليك. ويعود شهرته خاصة لتأليفه الهام في تاريخ مصر وهو كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» و«السلوك في أخبار الدول والمملوك».

وأيضًا ينتمي لهذا العهد الباهر مؤلفان كبيران لأكبر الموسوعات الإسلامية في الأدب والفنون، وهما أحمد النويري صاحب «نهاية الأدب في فنون الأدب» وهو معجم كبير وضعه المؤلف في ثلاثين جزءًا، بحث المؤلف فيه علومًا كثيرةً مما يتعلق الإنسان والحيوان والنبات والتاريخ والموسيقي وغيرها، ويعد أول موسوعة ظهرت في

---

[١] هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري. فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم (٥١٠هـ- ٥٩٧ هـ) ولد وتوفي في بغداد. حظي بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون. يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره ببلدة واسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص١٤٠. الذيل لابن رجب، ٣٩٩/١.

[٢] هو أبُو مُحَمَّدْ عَلِي بْنْ أَحْمَدْ بْنْ سَعِيدْ بْنْ حَزْمٍ اَلْأَنْدَلُسِيُّ اَلْقُرْطُبِيُّ، (٣٨٤ هـ – ٤٥٦ هـ)، يعد من أكبر علماء الأندلس وأكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، ومتكلم وأديب وشاعر ونسّابة وعالم برجال الحديث وناقد محلل بل وصفه البعض بالفيلسوف كما عد من أوائل من قال بكروية الأرض، كما كان وزير سياسي لبني أمية، سلك طريق نبذ التقليد وتحرير الأتباع، قامت عليه جماعة من المالكية وشُرد عن وطنه. توفي لاحقاً في منزله. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/ ٩١ – ٩٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/ ١٨٧. ابن حجر، لسان الميزان، ٤/ ٢٠١.

[٣] حتي، تاريخ العرب، ص ٦٨٨.

العصر المملوكي، أَلَّفها في زمن صاحبه الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقد فرغت دار الكتب المصرية من طبع ١٤ جزءا منها حتى سنة ١٩٥٦م.

واسمه الكامل أحمد بن عبد الوهاب من محمد بن عبد الدائم المعروف بشهاب الدين النُّويري، وكان له عند الملك الناصر حظوة وهو وكَّله في بعض أموره وباشر نظر الجيش بطرابلس[١].

وعلى جانب[٢] أن العلماء قد اجتهدوا لدرس العلوم الإسلامية واللغات من جهات شتى، لم يألوا جهدًا لدرس العلوم الأخرى الفنية، ومن أشهر من اجتهد في الحقل الفني كان أحمد بن المجيد النجدي، وهو أول من وضع كتابًا لدرس علوم الملاَّحة، وسير السفن درسًا نظريًّا وعمليًّا، ويعد تأليفه «الفوائد في أصول البحر والقوائد» أول كتاب وضع في علم الملاَّحة.

وقيل: أنه رافق في سنة ١٤٩٨م فاسكوده غاما ودله من إفريقا على الهند[٣].

وقد ازدهرت في عهد المماليك الفن المعماري وغيره من الفنون الجميلة إلى درجة أنها لم يسبق لها نظير منذ عهد البطالسة (الذين حكموا مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر، والفراعنة في تاريخ مصر، واهتم بالعمارة على نطاق واسع. وكانت المساجد والمدارس والضريحات التي أنشأها قلاوون والناصر والحسن وكذا آثار عهد برقوق وقايتباي وقانصوه الغوري أنموذجة الفن المعماري الإسلامي الذي بلغ قمة مجده في ذلك العهد.

---

[١] الدرر الثامنة، ١/١٩٧. وحتي، نفس المصدر.

[٢] الصفحات ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠ غير موجودة

[٣] حتي، تاريخ العرب، ص ٦٨٩.

وقد أخذ المكتب المعماري المملوكي الذي نشأ على أنموذجات عهد نور الدين والعهد الأيوبي، ينفذ فيه أثر الفن المعماري الفارسي المزدهر في سوريا وبين النهرين. ويعود الفضل فيه إلى طائفة كبيرة من الفنَّانيين والصنَّاعيين الذين التجئوا في مصر من الموصل وبغداد ودمشق إبان الغزو المغولي. وباستخدامهم أخذ بناء المساجد والمدارس ظلَّ يتكامل روعة وجمالاً فأخذت القباة الجميلة والمرصعة تنشأ عليها وأخذت الأحجاز الملونة من البيزنطيين تستعمل في بنائها، فجاءت رائعة، كما زحرفت الأبنية بالأحرف الكوفية والهندسة العربية[١].

وهكذا جاءت آثارهم مضاهية لأروع الآثار في أزهى عصور الإسلام. وإذ قد اعتاد المماليك منذ عصر قلاوون وما بعده، أن يشيِّدوا منشآتهم بحجارة المقالع من مثل حجر الكلس المستخرج من المقطم، وحجري البلور والصوان والمستخرجين من مصر العليا، فقد ثبتت آثارهم لعوادي الزمان أكثر مما ثبتت لآثارهم من قبلهم.

كان المماليك يعتبرون أيضًا فن وطنهم الأول المثل الأعلى، وهم سعوا إلى تحقيقه بواسطة الفنَّانين الذين التمسوا الحماية في أكنافهم، والذين نقلوا طراز الأضرحة ذات القبات المرتفعة الجميلة من تركستان إلى مصر. وكانت القبة التركية تمتاز من القبة الفارسية، كما شاعت في عهد الفاطميين والأيوبيين، بارتفاع دائرتها عن الجزء المستطيل أو المربع من القاعدة التي تدعمها بواسطة أشباه محاريب مرتفعة عند الزاوايا، أو بواسطة صفوف متعاقبة من المثلثات الدائمة[٢].

---

[١] حتي، تاريخ العرب، ص ٦٩١.
[٢] بروكلمان، ٢/ ٢٥١.

وعلى جانب الفن المعماري قد ازدهرت الفنون الجميلة بكل أنواعها ازدهارًا باهرًا، ولا سيَّما ما يمثل منها الاتجاهات والنزعات الدينية، كما يدل على ذلك أبواب المساجد المزخرفة بالبرنز الطلي والشمعدنات البرنزية المطلاة زخرفًا عربيًّا دقيقًا. وغلافات القرآن الكريم المرصعة بالذهب وفسيفساءآت فاخرة في الكسواة والمحرابات وكرسيات المصاحف والمصابيح والشباكات الملونة التي عملت عليها أزهار مصنوعة من الزجاج المصبوغ والخطوط العربية، فجاءت آثارًا من الطراز الأول حسنًا وجمالاً. وكان داخل جدار المساجد قد زخرف بما يعد من أجمل قيشانيات الملمعة والمصقلة، وقد شوهد في مينارات جامع الناصر أنموذجات من الخزف الصيني بما تدل على استعمالها في الفن المعماري منذ باكورة عهد المماليك[١].

وقد عثرت المكتبة القومية في القاهرة على عدة نسخات مرصعة قديمة من القرآن الكريم التي تعود إلى العهد المملوك، وهي تعد أجمل مجموعة من نسخ القرآن الكريم المرصعة والمذهبة مما يبرهن أن فن ترصيع الخطوط قد بلغ قمة ازدهاره في ذلك العهد.

حتى ولم يقتصر تمثيل الفن الدقيق الجميل في الأشياء المقدسة فحسب، بل شق طريقه إلى الظروف والآلات كالقدح والكأس والخلخال والخرز والأسورة والطوق والقلادة وقرط الأذن والطاسات والصينيات ومواقد البخور وغيرها من النوادر التي وصلت إلينا وتكفي لنا أن تدل بالتأكيد أن مظاهر الحياة كانت راقية رائعة إلى درجة كبيرة كما صور لنا مؤرخوا ذلك العهد[٢].

[1] Hitli: History of Arabs P 692.

[2] Hitli: History of Arabs P 692.

وكذلك لم يهمل في العهد المملوكي في الرقص والغناء، وكانت طائفة كبيرة من الرقَّاصين والمطرِّبين والمغنيين ولاعبي السرح الخيالي ملازمين لبلاط المماليك وهم يقومون بإجرءآت الفنية الجالبة بعد كل وليمة ملكية.

وكان للقصص والأساطير الشعبية البطولية نصيب وافر من الازدهار والنشاط في عهد المماليك مما يدل على أن الحياة الاجتماعية، وما كانت متداولة من الرياضيات البدنية كسباق الخيل ورمي السهام والمصارعة ولعبة البرجاس والصيد وغيرها كانت قوية رائعة إلى درجة أن تخلق أحسن القصص والأساطير الواقعية، وتأخذ أبطال المماليك في قصص ذلك العهد محل أبطال الأحبة الواردة في ألف ليلة وليلة وغيرها[١].

ومن أعجب ما ازدهر في هذا العهد كان علم الطيف أو المسرح الشبحي؛ وكان محمد بن دانيال الخضيع الموصلي (-١٣١٦م) الذي عاش في زمان بيبرس، أول من وضع كتابًا في المسرح الشبحي أو الطيفي واللعبة الخيالية وكتابه «طيف الخيال» يعد أول كتاب وضع في الأدب التمثيلي في العصور الوسطى للعهد الإسلامي. ومنذ ذلك أخذت اللعبة الطيفية تترقى في غرب آسيا ومصر ومنها شقت طريقها إلى قسطنطينية، فأخذت هناك شكل لعبة «قراكوز» الشعبية التركية، ومنها نفذت إلى بلاد أوربا الشرقية، ويقول «حتي» أن لعبة قراكوز هذه قد وتأثرت منها متأخرًا لعبة شارلي شابلين المزاحية[٢]

[١] حتي، تاريخ العرب، ص، ٦٩٠.

[٢] المراجع الأصلية لتاريخ المماليك البحرية والبرجية:
الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تأليف تقي الدين أحمد بن على المقريزي القاهرة ١٩٥٥ أنشره لأول مرة جمال الدين الشبال. وفيه بحث مفصل لكيفية حج الملك الظاهر بيبرس البندقداري، والناصر محمد بن سيف الدين قلاوون، والملك الأشرف شعبان بن حسين حفيد قلاوون.
خطط الشام ٦ أجزاء ١٩٢٥ – ١٩٢٨ محمد كرد على.

وفنانوها[١].

فمن اشتهروا وتميَّزوا ببطولتهم وبسالتهم وفتوحهم الوسيعة، وأيضًا بشغفهم وتشجيعهم العلم والعلماء، ولهم نصيب وافر في رقى الحضارة والثقافة الإسلامية التي أصبحت راسخة ثابتة في بلاد الهند. وقد نبغ وعاش في عهدهم وظلَّ رعايتهم جماعة كبيرة من فحول العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء والماهرون في مختلف العلوم والفنون، وكان هؤلاء السلاطين والملوك والأمراء متأثرين منهم ومخلصين لهم، ورجال الصوفية الذين كانوا ناشطين في عهدهم بصفة خاصة، ولهم أذن واعية وقلوب شاخفة لنصائحهم ومواعيظهم وإرشاداتهم، الأمر الذي تأثرت الحكومة منه في نظامها وسياستها وتدبير شئونها الاجتماعية والإدارية والمالية والاقتصادية والمجتمع في بيئتها وعناية الثقافية والدينية المدينة الخ.

فشق هذا الشأن طريق النشوء والارتقاء والتقدم التدريجي بصفة خاصة، وكان له أثره البالغ في مصير البلاد المستقبل.

ولو أن عهدهم من هذه الناحية ما كان بأقل شأنًا من عهود الأسرة الأخرى من الأتراك الذين حكموا في البلاد وزملائهم في مصر والشام، ولكن احتجبت بغموض وإهمال في صفحات التاريخ ما

- المصادر الحديثة:
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي في ٤ أجزاء لمحمود رزق ١٩٤٧-١٩٥٢.
٣- بعض ملاحظات جديدة في تاريخ المماليك في مصر، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الرابع ج ١ سنة ١٩٣٨.
Dyalou (Dauid.) Studies on the Structure of the Memluk Army in B.S.O S Vol KM, Part I 1953 PP 230-228.

1– Ismail Hikmat Ertaylam “Adil - Sahiler” Istanbul 1953.
2– Khalil Edliem (Halil Ethem) “Duwel -i- Islamiyye» « دول إسلامية ».
3–Munadjdjim Bashi (Muneccim Basi) “Djami -al- Duwal» «جامعة الدول.

من المؤلف.

[١] حتي، تاريخ العرب، ص ٦٩١.

درست منها إلا القليل. ولعلَّ سبب ذلك قلة المراجع أو السجلات التي ماوصل منها لنا إلى نزر يسير[١].

وقد لعبت المماليك التركية في الهند، كزملائهم في مصر والشام، دوراً هامًّا في حقول السياسة والثقافة والحضارة في بلاد الهند. وهم اهتموا خاصَّة لحفظ الصبغة الإسلامية في طراز الحكومة، متمسكين بأهداب الدين تمسكًا شديدًا ومشجعين النشاط التصوفي تشجيعًا باهرًا، حيث أن عددًا كبيرًا من المماليك الذين حكموا في بلاد الهند المختلفة باسم السلاطين المعزية والسلاطين الشمسية والملوك الشمسية والأسرة الخلجية والأسرة التغلقية وغيرها وكلهم أتراك من تركستان.

وهم حكموا مستقلين بعد موت معز الدين محمد الغوري في رقعاته الوسيعة، فاستقل قطب الدين أيبك في لاهور ودهلي وناصر الدين قباجه في ملتان والسند وجلال الدين يلدز في تقاطعات غزنه. وكان كلهم من مماليك معز الدين وكبار قوَّاد جنده.

وكان أولهم قطب الدين أيبك الذي اشتراه، وجاء به تاجر من تركستان إلى نيشابور فاشتراه عالم باسم القاضي فخر الدين عبد العزيز، أنه كان من أولاد الإمام الأعظم أبي حنيفة الكوفي، وكان حاكمًا لمقاطعات نيشابور ونواحيها، وكان عالمًا كبيرًا اشتهر بلقب أبي حنيفة الثاني.

---

[١] وفي عهد الذي كانت الدولة الأيوبية في بلاد مصر والشام على وشك الانهيار وكانت الحالة هنا تتمخض بأسرة تركية أخرى المعروفة بالمماليك البحرية والبرجية. كانت من المماليك تؤكِّد مكانتهم كأسرة حاكمة في بلاد الهند. من طرائف الدهر أن مؤسسي كلتي الأسرة كانا يسميان أيبك وهما معز الدين أيبك مؤسس الأسرة البحرية في مصر سنة ٦٤٨هـ، قطب الدين أيبك المعزي مؤسس أسرة المماليك في الهند ٦٠٢. وقد ملكت منهما امرأتان الثانية والثالثة في تاريخ الإسلام، وهما شجرة الدر واضعة أساس الأسرة البحرية في مصر ورمنية سلطانة بنت شمس الدين ألتُتْمِش التي ملكت ثلاثة سنوات ونصف.

أخذ قطب الدين تحت رعاية سيده القاضي فخر الدين هو وأولاده الدروس الابتدائية، وحفظ القرآن، وفي نفس الوقت تعلم رمي السهام فمهر في الآداب والكمالات الأخرى[١]. ولكن بعد موت قاضي فخر الدين باعه أحد أولاده لتاجر الذي جاء به عند سلطان معز الدين محمد بن سام المعروف بشهاب الدين الغوري في غزنة، فاشتراه وأشمله من خدام البلاط، فخدم أولاً كحارس الإصطبل، فأخذ قطب الدين يخدم سيده الجديد بالولاء والخلوص والصدق والوفاء ولا يزال رتبته تزداد وترفع ويعظم شأنه بما يسدى من خدمات جليلة، ويبرز من بسالة فائقة وفتوحات عظيمة ووسيعة في الجهادات والمعارك العديدة التي شنها معز الدين في بلاد. ثم في سنة ٥٨٧هـ ١١٩١م فتح ميرت ودهلي ثم قاد هو وعز الدين حسين جبريل في سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م جيوش معز الدين إلى بنارس قرب جنداول وهزم ملكها رامي جي جند. وفي سنة ٥٩١هـ ١١٩٥م فتح تهنكر، وفي سنة ٥٩٣هـ ١١٩٧م نهرواله فراح هو أقطارا أخرى في الهند[٢]، حتى تملك منها أماكن ما دخلها مسلم قبله، حتى قاربت جهة الصين[٣].

هو قاد جيشًا عظيمًا إلى الهند ففتح أولاً لاهور وعظم شأنه. وبعد وفات سلطان معز الدين خلفه ابن أخيه سلطان غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن بسام. هو أكرم مرتبة قطب الدين، فأعطيه لقب سلطان وأيضًا أرسل له المظلمة والصولجان (قضيب السلطة) والخلعة الملكية ومعها فرمان تحرير رقبته من الرقة، وكان ذلك إعزازًا له وتعزيزًا لخدماته. فتسلم قطب الدين هذه العطايا في لاهور

---

[١] منهاج الدين الجوزجاني، طبقات الناصري، ص ١٣٨. ومحمد قاسم هندو شاه، تاريخ فرشته، ١/٦١.
[٢] الجوزجاني، طبقات ناصري ص ٤٨
[٣] القلقشندي: صبح الأعشى، ٤ / ٨٩.

وهو جاءها زاحفًا من دهلي، فجلس على عرش الدولة فيها في ١٨ ذي القعدة سنة ٦٠٢هـ يونية ١٢٠٦م[١].

وهكذا هو أسس أسرة إسلامية حكمت منذ ذلك مستقلة في الهند. وكانت بلاد الهند قبل ذلك تحكم كولاية تابعة لغزنة[٢]. وكان قطب الدين أول من فتح دهلي، وكان ذلك سنة ٥٨٤هـ في عهد شهاب الدين الغوري ملك غزنة[٣].

اجتهد قطب الدين لتوسيع رقعته ورفع كيان الإسلام وتشييده، فحكم بلاده كملك عادل لا يبارى في الشرق والغرب. وقد أجمع المؤرخون بأنه قام بمثال أعلى في العدل والتدبير وفي إدارة شئون المملكة وتنسيقها، حتى صار عدله واتصافه بالجود والكرم والسخاء خصلة يضرب لها المثل بين الناس، فذاع صيته بلقب «لك بخش» أو جواد مائة ألف. وقد جاء في «تاريخ فخر الدين مباركشاه» أنه كان ملكًا متدينًا ومتمسكًا بأهداب الدين وأحكام الشريعة، وأيضًا قيل في توصيف عهده المثالي الحافل بالعدل أن الذئب والخروف كانا يشربان في حوض واحد، وكان هو بطلاً شديد البأس في حفظ كيان الإسلام. وهو اتبع في حكمه وحياته اليومية الخلفاء الراشدين خير اتباع، فاتبع في السخاء مثال حضرت أبي بكر رضى الله عنه، وفي العدل مثال حضرت عمر رضي الله عنه، وفي التدين مثال حضرت عثمان رضي الله عنه، وفي البسالة والشجاعة مثال حضرت علي كرم الله وجهه[٤].

حكم في الهند منذ أن فتح دهلي عشرين سنة، منها أربعة سنوات

---

[١] تاريخ فرشته، ١٠٥/١.
[٢] ستانلي لين بول، الأسرة المحمدية، ص ٢٩٥.
[٣] وابن بطوطة، ٢٠/٢.
[٤] تاريخ فخر الدين، ص ٥٤.

مستقلاً قرئت الخطبة فيها كما ضربت السكوك باسمه[١].

وهو لم يأل جهدًا في إحياء شعائر الإسلام ودحض البدعات والمناهي في رقعته، وهو يحفظ وينفذ بالخاصة الأحكام الحنفية. وهو مات سنة ٦٠٧هـ ساقطًا من فرسه حينما يلعب لعبة شوجان (جوبان).

وبالرغم أنه أشغل شطرًا كبيرًا من وقته لاستحكام سلطنته الجديدة وتوسيع رقعته، ولكنه ما أهمل في رعاية العلماء والفضلاء وحمايتهم، وهو قدر وأكرم مراتبهم ويشجعهم بكل إشراف وتقدير وحفاوة، فصارت لاهور في عهده مركزًا كبيرًا للنشاط العلمي والأدبي احتشد فيها فحول العلماء والفضلاء والأقطاب والأوتاد من المتصوفين العلماء والفضلاء، وأهل الأدب فمنهم مولانا بهاء الدين أوشي الذي كان شاعرًا وأديبًا مشهورًا، أصله من بلدة أوش في تركستان. وهو التزم بلاط قطب الدين فمدح عدله وبسالته وسخاءه بقصائد بليغة وفصيحة ثم رجع إلى وطنه أوش فتولى مشيخة الإسلام هناك، توفي فيها سنة ٦٠٧هـ[٢].

وجمال الدين والقاضي حميد الدين اللذان كانا من زبدة شعراء عصره وبلاطه فمدحاه بعدة قصائد بليغة، وحسن نظامي النيشابوري هو وضع مؤلفته في التاريخ «تاج المآثر» في عهده، هو أول مؤلف وضع باللغة الفارسية في بلاد الهند، والفخر المدبر[٣] الذي قدم له كتابه «بحر الأنساب»، المشتهر بـ «تاريخ مبارك شاه»[٤].

---

[١] الجوزجاني، طبقات ناصري ص ٤٨

[٢] محمد عوفي، لباب الألباب، ١/١٨٨.

[٣] هو محمد بن منصور بن سعيد بن أبي الفرج، فخر الدين مبارك شاه المروزي، الملقب الفخر المدبر. يحيى بن أحمد بن عبد الله السيهرندي، تاريخ مبارك شاه، مقدمة المحقق، ص ٢٥.

[٤] قد نشر سردنيسن رولى القسم الأول من هذا الكتاب باسم تاريخ فخر الدين مباركشاه المروروزي ١٩٢٧ فى لندن. صباح الدين عبد الرحمن، بزم مملوكية، ص١٧.

وقد عاش في عهده الزاهر الإمام رِضي الدين أبو الفضائل الحسن الصغاني التركستاني[١]، وهو كان فقيهًا ومحدثًا وإمامًا كبيرًا في اللغة، وله عدة مؤلفات هامة في اللغة والحديث والفقه وأهمها «مشارق الأنوار في الأحاديث»، جمع فيها ألفين ومائتين واثنين وأربعين من الأحاديث النبوية. ومن مؤلفاته الهامة: «ألعاب الزاخر واللباب الفاخر» في عشرين مجلدًا في اللغة، الأمر الذي يدل مدى ازدهار النشاط العلمي في عهده.

ولم يهمل قطب الدين أيبك وأمراءه من الاهتمام بإنشاء المؤسسات العمرانية والدينية والعلمية في مختلف أقطار مملكته، وقد اهتم أميره اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي التركي حينما فتح بنغال بإنشاء عدة مساجد والمدارس (الكليات الدينية) والخانقاوات هناك في إقليم لكهنوتي في بنغال[٢]، كما اهتم نفسه لإنشاء عدة من الآثار العمرانية.

ومن أهم آثاره المعمارية الفنية جامع كبير في دهلي وفيها قطب منار التي تعد أكبر منارات في الأرض، أنشأها في دهلي بعد تسخيرها من الملك الهندي بربتهراج Prithraj سنة ١١٩٣م والتي سماها باسم خواجه قطب الدين بختيار الكاكي، الولي المعروف التركستاني[٣] أكملها إيتلمش بعده[٤].

---

[١] هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي بن إسماعيل اللاهوري العدوي العمري الصاغاني رضيّ الدين القرشي الغزني من ذرية عمر بن الخطاب، يكنى أبا الفضائل، ويلقب بالرضي الصغاني ولد بلاهور في شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ، ونشأ بغزنة، ثم انتقل إلى بغداد، ومنها أرسله الخليفة إلى ملك الهند سنة ٦١٧ هـ، فبقي مدة، ثم عاد سنة ٦٢٤ هـ، لكن أعيد إرساله في نفس السنة إلى الهند، فبقي هناك إلى سنة ٦٣٧ هـ. كما أنه تلقى العلم بمكة واليمن وبغداد. صلاح الدين الصفدي، الْوافِي بالْوَفَيَات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي فرحان المصطفى، ط. ١، (دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ١/ ٢١٧.

[٢] طبقات ناصري، ص ١٥١. صباح الدين، بزم مملوكية، ص ٣٤.

[٣] دائرة معارف الإسلامية، مادة: قطب بختيار.

[٤] ستانلي لين بول، ص ٦٨.

ويقول مؤلف «آثار الصناديد» بشأن هذا المسجد الذي يسمي بمسجد «قوة الإسلام» أنه كان مسجدًا عظيمًا فخمًا ذات روعة وجلال وإتقان قلَّ نظيره في العالم، وكان من عجائب الدهر وغرائبها[١].

وهو أيضًا أنشأ مسجدًا كبيرًا في أجمير[٢] الذي يعد من أعماله الغنية الباهرة في الحقل المعماري. ومساجد أخرى كثيرة على أنقاض معابد الهنود الكبيرة[٣].

وقد يعد قطب الدين أول من وضع الأساس في الهند للمعماري الممثل للهندسة الإسلامية والهندية[٤].

وهو أصدر خدمات جليلة عنده وهو قاد جيوش السلطان معز الدين الغوري في زحفه على خطاي وأمراء تركستان في أندحونى، ولعب دوراً هامًّا في هزيمتهم وإبادتهم في تلك الغزوات. ويقول صاحب طبقات ناصري: إنه كان ملكًا عظيمًا، صاحب فطانة عالية وتجارب كبيرة، وكان ذكيًّا حساسًا ومعتمدًا على نفسه. خدم السلطان معز الدين في ميادين شتى من أعمال الدولة وبلغ عنده مناصب عالية، وكان يتضلع بنفسه في كل الشئون التي تتعلق لسياسة الدولة وأعمالها عسكريًّا كانت أو ملكيًّا أو قضائيًّا[٥].

وكان أميرًا جريئًا اشتبك عدة مرات مع تاج الدين يلدز لقبض

---

[١] سيد أحمد خان، آثار الصناديد، ص ٥٢.

[٢] أجمير، هي واحدة من أكبر وأقدم المدن في ولاية راجاستان الهندية ومركز منطقة أجمر التي تحمل اسمها. تقع في وسط ولاية راجاستان وتعرف أيضا باسم قلب ولاية راجاستان. تأسست المدينة باسم «أجايامیرو» (وتعني «التلال التي لا تقهر») من قبل حاكم تشاهامانا (إما أجاياراجا الأول أو أجاياراجا الثاني، وكانت بمثابة عاصمتهم حتى القرن الثاني عشر الميلادي. تحيط جبال أرافالي بأجمير. أنظر مقالة المراكز الإسلامية في الهند.

[٣] سيد أحمد خان، آثار الصناديد، ص ٥٢.

[٤] لاس لال: تاريخ الخلجيين.

[٥] الجوزجاني، طبقات ناصري، ص ٤٩.

لاهور منه فانهزم. وهو دفع حملات المغول على ملتان التي وقعت سنة ٦٢١هـ ١٢٢٤م، كما هزم وقتل ملك خان الخلجي الذي أغار منصورة من بلدان سيوستان.

وهو مات غرقًا نفسه في نهر السند حينما انهزم بيد السلطان السعيد شمس الدين الذي أغار مملكته وقبضها بقيادة رئيس الوزراء نظام الملك سنة ٦٢٤هـ ١٢٢٧م، وكانت مدة حكمه في تلك البلاد - السند ولاوج والملتان اثنين وعشرين سنة.

ومنهم ناصر الدين قباجه المعزي الملك الثالث من مماليك الهند المعزية. وكان مملوكًا للسلطان معز الدين الغوري، وصهر قطب الدين آيبك. وهو استقل بعد وفات آيبك في بلاد أجه وملتان، ووسع رقعته إلى السند فامتدت نفوذه إلى ساحل البحر، وفتح سرهند وخرم وسرصوتي ٦٢٥هـ ١٢١٠-١٢٢٨م.

وقد أصبحت ملتان في عهده مركزًا وحيدًا لنشاط علمي وثقافي وديني له نصيب وافر في تنشئة المذاهب السهروردية والجشتية في التصوف في ذلك العهد، حتى ذاعت صيتها بكونها قبة الإسلام ومجمع العلماء والفضلاء[١]. وكان خواجه قطب الدين بختيار الكاكي الولي المعروف التركستاني والشيخ بهاء الدين زكريًا والشيخ جلال الدين التبرزي ممن عاشوا في ملتان في عهده، وكان قباجه مخلصًا ومريدًا لهم.

وقد شكل بلاطه مجمعًا للعلماء والفضلاء الذين أقبلوا عليه بعد أن أكرهوا على ترك أوطانهم بسبب غزو المغول واضطهادهم في تركستان وخراسان. وكان المؤرخ الشهير محمد العوفي ومحمد

---

[١] سيد الأولياء، ص ٦٠.

كاتب البلخي وضياء الدين السنجري وشمس الدين محمد بلخي وفضلي ملتاني ومولانا منهاج الدين الجوزجاني مؤلف «طبقات ناصري» ومولانا قطب الدين الكاشاني وغيرهم من أشهر من التجئوا إلى بلاطه من العلماء. وهو رحَّبهم وقدر مراتبهم وأنشأوا لهم عدة مدارس كبيرة التدريس والتعليم، ومنها كانت المدرسة الفيروزي في أجه التي فوض تنظيمها لمنهاج الدين جوزجاني سالف الذكر[١].

وقد ترجم محمد بن علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي حسب تشجيعه كتاب «جج نامه» من العربية إلى الفارسية[٢]، وكان وزيره عين الملك فخر الدين حسين الأشعري محبًّا للعلم والعلماء وحافيا لهم، وقد كتب محمد بن حوفي كتابه «لباب الألباب» وغيره من مؤلفاته بتشجيعه وحمايته[٣].

ذيل قطب الدين آيبك

هناك طائفة من الأمراء الترك الذين ظهروا في هذا العهد (أي عهد معز الدين الغوري وقطب الدين آيبك)، وكان لهم مقام مرموق في تاريخ الأتراك في بلاد غزنة والهند.

منهم: السلطان بهاء الدين طغرل الذي كان من أمراء السلطان معز الدين الغوري، عظُمَ شأنه في خدمته وهو حكم في بيانه من مقاطعات أكره[٤] التي أقطعها معز الدين بعد أن فتح قلعة تهنكر فيها من «راج» الهندي، قد ازدهرت بيانه في عهده كمركز تجاري كبير يقصد إليه التجار إليها من بلاد الهند الأخرى ومن خراسان. وكان

---

[١] الجوزجاني، طبقات ناصري، ٦٩٣.
[٢] صباح الدين، بزم مملوكية، ص٥٧.
[٣] صباح الدين، بزم مملكوية، ص ٥٧.
[٤] يقال أيضا أغرة.

طغرل يشجعهم بإعطاء البنايات والتمليكات وسائر التسهيلات حتى توطن كثير منهم في تلك البلدة وهو أنشأ أيضًا بلدة جديدة باسم سلطان كوث وجعله عاصمته، وهو فتح كراسيور أيضًا[١].

والسطان تاج الدين يلدز[٢] استقل في غزنة بعد معز الدين، ولكنه أجبر إلى الانسحاب إلى لاهور، وجه جيش الخوارزميين المتقدمة، وهو نازع هو لاهور مع السلطان شمس الدين فانهزم من يده وأخذ أسيرًا، فطرد بسدايون حتى قتل هناك

ومن أشهرهم كان الملك الغازي اختيار الدين محمد بختيار الخلجي حاكم لكهنوتي، وهو ينتمي إلى قبيلة الخلجية التركية المستوطنة قديمًا في مقاطعة حوز في إقليم كرم سير (غرمسير) - أفغانستان اليوم. وكان أميرًا جريئًا ذات حنكة وتجربة وشجاعة وفطانة فائقة. التزم في البداية بلاط السلطان معز الدين الغوري في غزنة، فوظفه في ديوان العرض، ثم قصد الهند بعد أن عزله رئيس الديوان من وظيفته هناك لعدم قابليته لهذا العمل، فالتحق «ديوان العرض» في بلاط دهلي، ولكن عزله رئيس الديوان أيضًا، ثم قصد.......... وشمل هناك في خدمة عزيز الدين حسن قائد الجيش فيها رحَّبه وأرفع مقامه، وبعد قليل ذهب إلى أوده عند حاكمها الملك حسام الدين غولبك أمير آخر تركي، وهنا شرع اختيار الدين الجرئي لمغامراته وغاراته مستغلاً من الأسلحة الوفيرة والخيول الجيدة التي كان تملكها حسام الدين، فأغار إلى عدة مقاطعات منها مونفير وبهار. وقد ساعده في مغامراته بعده أخواه نظام الدين وشمس الدين

---

[١] صباح الدين، طبقات ناصري، ص ٥٢-٥٣.

[٢] تاج الدين يِلدز، كان قائدًا تركيًا لعبيد الغوريين، والذي أصبح بعد وفاة السلطان معز الدين محمد حاكمًا لغزنة، مع ذلك، لا يزال يعترف بسلطة الغوريين.

The Iranian World, C.E. Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol. 5, ed. J. A. Boyle, John Andrew Boyle, (Cambridge University Press, 1968), 166.

أيضًا، وهو أيضًا حصل مغانم كثيرة في غاراته تلك البلاد فجاء بها إلى السلطان قطب الدين آيبك الذي أكرم مقامه وأجزل له بتحائف ومكافئات تقديرًا لشجاعته وبسالته. وبعد سنة زحف بجيشه لفتح نوديه ففتحها من «رآي لخمانية» الذي كان من أكبر سلاطين الهند سطوةً وسلطانًا وأقدمها عمرًا وأغناها زخرًا وثورةً، وهو أسس في لكهنوتي عاصمته بعد أن خرب مدينة دونية ثم أرغم كل المقاطعات التي كانت حوالي تلك البلاد ثم قرأ الخطبة وضرب السكة باسمه. وقد ازدهرت لكهنوتي في عهده، فاهتم هو وأمراءه إلى إنشاء المساجد والمدارس والخانقاوات في أرجاء البلاد كما أرسل غنائم كثيرة إلى قطب الدين بتأكيد ولائه له.

وكان اختيار الدين حريصًا للفتح والمغامرات وهو لما سمع عن أحوال بلاد تركستان والتيبت فيما وراء لكهنوتي في الشرق رتب مشروعًا لفتحها، فزحف بجيش عظيم متشكل من عشرة ألف خيل إلى بلاد التيبت، ولكن كان من الطبيعي أن يفشل في مهم كهذه في بلاد شاسعة بعوائق طبيعية شاقة كالجبال الشامخة والأنهار العميقة صعب العبور وبلا جسور وثلوج زمهريرة قاسية، وفيافئ بيداء، والصعوبة في تمكين وحفظ المعونة، والعدو العدد فرجع فاشلاً بعد أن تغلغل إلى موضع يدعى كمروب فيما وراء نهر بنكمالي (برهما بوترا). وبعد أن تحمل خسائر فادحة في الجيش والأسلحة والمعونة بسبب شدة مقاومة ومقابلة كل من أهاليها وطبيعة بلادهم. وهو عندما وصل إلى موضع يقال دكوترباه الواقعة في القسم الشرقي للكهنوتي، أصاب له صدام شديد من هذا الفشل الذي ذهب ضحيته قسم كبير من أفراد جيشه، فمرض من شدة الكبت والخجل حتى مات سنة وقيل أنه قتل في مضجعه بيد رجل مواطن له يدعي على مراد حلجي الذي

كان حاكم مقاطعة كوني وكان ذلك في سنة (٦٠٢هـ ١٢٠٥م)[١].

وكان الملك عز الدين محمد شيران الخلجي والملك علاء الدين علي مردان الخلجي المذكور، والملك حسام الدين العز الخلجي من الأمراء الذين حكموا لكهنوتي بعد اختيار الدين الخلجي ممن يستحقون بالذكر بأعمالهم الناشطة ومغامراتهم وفتوحهم في عهد قطب الدين آيبك. وكان علاء الدين علي مردان أميرًا جريئًا وطماعًا ومبالغًا. وهو استقل بأمره في لكهنوتي بعد وفاة قطب الدين آيبك. قرأ الخطبة وضرب السكة باسمه، ولكن لما إنه كان حريضًا وظالمًا ثار عليه رؤساء الخلجيين فقتلوه، خلفه الملك حسام الدين العز فأخذ لنفسه غياث الدين لقبًا واتخذ لكهنوتي عاصمته وأنشأ قلعة فهمة هناك لنفسه. وهو كان أميرًا شجيعًا ومشفقًا جوادًا عمل لسعادة رعاياه. وكان عهده أحسن عهد، وقد ازدهر لكهنوتي بأعماله العمرانية والثقافية وسخاؤه، وهو اهتم بإنشاء المساجد والأبنية الهامة، وشجَّع العلماء وأكرم المشايخ والسادات بإعطاء الرواتب المعينة لهم وضمان معوناتهم واسترضى الناس بجوده وسخاءه وعدله في الحكم. ومن أعماله الهامة أنشأ سد طويل على مسافة عشرة أيام على ضفة نهر لكهنوتي حفظًا لها ضد طغيان المياه في موسم المطر لنزع ما تفيض عليها بأمرها كل عام وتسبب خسائر فادحة للناس. وهو والي للسطان شمس الدين أَلتُتْمِش فقرأ الخطبة وضرب السكة باسمه[٢].

ومنهم شمس الدين أَلتُتْمِش مؤسس أسرة السلاطين الشمسية في دهلي، كان أبوه إيلم خان كَبير قبيلة البري من أتراك قره خطاي، فحسد إخوته لحبه أبوه، فباعوه بيد تاجر الذي جاء به إلى بخارى،

---

[١] طبقات ناصري، ص ٥٣-٦٣.

[٢] طباقات ناصري، ٦٣-٧٠.

وباعه لصدر جهان (قاضي القضاة)، ثم اشتريه تاجر آخر من أسرة صدر جهان، فباعه لشخص آخر باسم حاجي جمال الدين جست قبا الذي جاء بألتُتْمش إلى بغداد. وهناك ألتُتْمش بالرغم أنه كان مملوكًا وصغير السنَ التزم مجالس كبار المتصوفَين والزهاد الذين كانوا اجتمعوا في بغداد في ذلك الوقت، خدم لهم وأخذ التعليم واستفاد من صحبتهم كخواجه معين الدين الجشتي بخدماته الجليلة وشجاعته التي لا تبارى بين أقرانه حتى عظم شأنه عند قطب الدين عامل كواليار ثم بدايون ثم جعله أمير الأمراء بعد أن حرر رقبته، وجعله صهره.

وبعد وفاة قطب الدين آيبك سنة ٦٠٧هـ ١٢١٠م دعاه أمراء الدولة إلى دهلي فأجلسه على العرش، وكان ذلك بعد أن هزم آرام شاه مدعي العرش، وربيب قطب الدين الذي ثار ضده في لاهور[١]. وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلي مستقلاً به.

ثم كان ألتُتْمش أول سلطان مسلم في الهند الذي اعترفه الخليفة المستنصر بالله بَإعطاء الخلعة والفرمان وأول من سكَّ المسكوكات باسم أمير المؤمنين في الهند، وكانت مسكوكاته قد نقشت فيها «ناصر أمير المؤمنين»[٢].

ويقول ابن بطوطة في توصيفه: إنه كان عادلاً صالحًا فاضلًا. ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبًا مصبوغًا لكي يمكن له أن ينظر في قضيته حينما رآه. وأيضًا جعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هناك، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس

[١] لين بول، ص ٧٠.
[٢] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ١٢١/٣.

كبيـر، فـكان المظلـوم يأتـي لـيلاً فيحـرك الجـرس فيسـمعه السـلطان وينظره في أمره للحين وينصفه[1].

أهم غزواته وفتوحاته:

وهـو أرغـم للإطاعـة أمـراء الأتـراك والرؤسـاء المفريـة الذيـن ثـاروا عليه وأنكـروا الإطاعـة، وكان ذلـك فـي ميدان جمنه، كمـا أرغـم بدايـون وأودهـ وبنـارس والمناطـق الجبلية فـي سـواليك. وهـو فتـح لاهـور مـن السـلطان تـاج الديـن يلـدز (أنظـر تـاج الديـن) بعـد سـتة سـنوات، واسـترد حـملات جلال الديـن بـن خوارزمشـاه الـذي كان قـد لجـأ إلـى لاهـور وقبضهـا بعـد انسـحابه مـن وجـه غـزو المغـول إلـى خـوارزم ملـك أبيـه. وفـي السـنة التاليـة هـو تغلغـل إلـى لكهنوتـي وأرغـم حاكمـه غيـاث الديـن العوفـي الخلجـي إلـى الإطاعـة. وفـي سـنة ٦٢٣-١٢٢٦ سـاق جيوشـه إلـى رتمبـور التـي كانـت مـن أكبـر بلاد الهنـد سـلطةً وقـوةً، ولـم يفتحهـا أحـد مـن الملـوك السـابقين بعـد، ثـم غـزى فـي نفـس السـنة منـدور فـي المناطـق الجبليـة فـي سيواليك فـي سـنة ٦٢٤هـ ١٢٢٨م فتـح رقعـة أوج وملتان والسند من ناصر الدين قباجه.

وفـي سـنة ٦٢٩هـ هـو فتـح كواليـور مـن ملـك يئـو أو دؤبـال بـن باصل بعد محاصرة ستمرت إحدى عشر شهرًا.

ثـم فـي سـنة ٦٣٢هـ ١٢٣٤م اسـتولى علـى بلـدة بهليسـية وقلعـة فـي مالـوا، وهـو دمَّـر أقـدم وأرفـع معبـد هنـدي هنـاك بارتفاعـه ١٠٥ ذراعـًا، كمـا دمَّـر أقـدم مجسـمة هنديـة لملـك بيكارماجيـت الـذي كان ملـك أوججان وقد حكم أحلافه بوراثة ١٣١٦ سنة. ويبدأ تاريخ الهند منه.

وأخيـرًا فـي ٦٣٣هـ مـرض وهـو زاحـف بجيشـه إلـى مملكـة منبـان

---

[1] ابن بطوطة، ١٢١/٣.

وبيانه فانصرف وعاد إلى دهلي، فمات في ٢٠ شعبان تلك السنة من ذلك المرض. وكان مدة حكمه ٢٦ سنة[١]. وكان أيضًا أول من ضرب السكة في الهند باللغة العربية[٢].

وهو استطاع أن يؤسس إمبراطورية عظيمة بعد أن فتح بلادًا كثيرةً ووسيعةً في الهند، فوحَّد المملكة كلها وجمع شملها في ظله مرة أخرى[٣] بعد معز الدين الغوري.

ويقول مؤلف طبقات ناصري: إنه قد قوي وعزَّز بدولته أساس الدين المحمدي وزادات صولة الملة الأحمدية. وقد اشتهر بجوده وسخاءه المفرط، حيث بلغ سخاءه بدل ألوف ملايين، وكان جوده وسخاءه شاملاً لكل أصناف من عوام الناس؛ الفلاحين والتجار، والغرباء في القري والأمصار، والملوك والأمراء والصدور والكبار.

فصارت دهلي في عهده في جوده وسخاءه الجزيل وجميل عطاياه مركز نشاط علمي وأدبي كبير، ومحط رجال الآفاق فازداد رونقها بجحافل العلماء والفضلاء والأدباء والحكماء الذين أقبلوا عليها من خراسان وتركستان وإيران وبغداد وغيرها من البلاد الإسلامية إثر غزو المغول فيها، كنور الدين محمد عوفي الذي وضع كتابه «جامع الحكايات» باسم وزيره نظام الملك محمد بن أبي سعد الجنيدي[٤]،

---

[١] الجوزجاني، طبقات ناصري، ٧٤-٨٠.

[٢] لين بول، ص ٧٠.

[٣] بروكلمان، ٢/٢٥٨.

[٤] الوزير الكبير نظام الملك قوام الدين محمد بن أبي سعد الجنيدي الدهلوي أحد الرجال المشهورين بالعقل والدهاء، استوزره السلطان شمس الدين الإيلتمش سنة سبع وستمائة فخدمه إلى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ثم خدم ولده ركن الدين فيروز شاه، وخرج عليه فسار إلى لاهور فوافقه غير واحد من الأمراء فتعاقبهم ركن الدين بعساكره، ولما سار ركن الدين إلى لاهور اتفق الناس على أخته رضية بنت الإيلتمش فبايعوها، فرجع ركن الدين إلى دهلي فقبضوا عليه ورفعوه إلى المحبس، ثم وفد نظام الملك ومن معه من الأمراء إلى دهلي فهزمتهم رضية، وذهب نظام الملك إلى جبل سرمور وتوفي بها، لعله في أيام رضية. وكان فاضلاً عادلاً كريماً محباً لأهل العلم محسناً إليهم، صنف له نور الدين محمد العوفي كتابه جوامع الحكايات، توفي نحو سنة بضع وثلاثين وستمائة. الحسني، عبد الحي نزهه الخواطر

وعاش في عهد رضية سلطانة أيضًا ووزيره نظام الملك كمال الدين الجنيدي الذي كان فائزًا من قبل لعهد الوزارة في بلاط الخليفة في بغداد وكان عالمًا كبيرًا. والقاضي سعيد الدين الكردي والقاضي نصير الدين[١] والقاضي جلال الدين[٢] والقاضي كبير الدين، وكان كلهم من أئمة عصره[٣]. ويقول ضياء الدين البرني: إنه قد أقبل العلماء والفضلاء إلى بلاطه بعد غزو المغول على البلاد الإسلامية إلى درجة لم يسبق نظيرها[٤].

وكان شمس الدين مخلصًا ومعتقدًا ولائيًّا للمتصوفين والزهَّاد ولا سيَّما الجشتية منهم، وكان يعيش في عهده في دهلي من المتصوفين الكبار خواجه قطب الدين بختيار الكاكي بن سيد كمال الدين موسي

وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام، ١ / ١١٧.

[١] وكان القاضي نصير الدين ممن يرجح الحديث أياماً كان على قياس المجتهد، وكان ينكر القياس ويقول إن حديث علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل موضوع، فلذلك كفره صهره الشيخ علم الله البيجابوري وأفتى بقتله وإحراقه في النار، ورتب المحضر لذلك فأثبت العلماء توقيعاتهم على ذلك، وأبى الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري والشيخ عيسى بن قاسم السندي عن تصويبه وتصديقه، فانتصر له عبد الرحيم بن بيرم خان، فرفعوا تلك القضية إلى سلطان الهند، فأمر باحضارهما في معسكره، فذهب الشيخ علم الله المذكور إلى بيجابور والتجأ إلى إبراهيم عادل شاه البيجابوري، وسافر القاضي نصير الدين إلى الحجاز، وجهز له عبد الرحيم المذكور وأعانه في رحلته، فأقام بالحرمين الشريفين خمس سنوات، ثم رجع إلى الهند ووقع في أيدي الأفرنج ولبث فيهم برهة من الزمان، ثم أطلقوه فدخل في بندر دائل سنة أربع وعشرين وألف وكانت في سلطة عادل شاه، فاستقبله العادل إلى ثلاثة أميال وجاء به إلى دار الامارة، ولما سمع جهانكير بن أكبر شاه الدهلوي سلطان الهند بمجيئه من الحجاز استقدمه إلى معسكره وأكد عليه، فجاء إلى برهانبور واعتزل في بيته وعزم أن لا يخرج من البيت، فلما جاء خرم بن جهانكير إلى برهانبور بعثه إلى آكره، فأكرمه واحتفى به جهانكير ورخصه بعد مدة طويلة، فرجع إلى برهانبور واعتزل في بيته، وكانت وفاته سنة إحدى وثلاثين وألف. نزهه الخواطر، ٥ / ٦٥٥.

[٢] الشيخ الفاضل الكبير القاضي جلال الدين الحنفي الملتاني، أحد كبار العلماء، ولد بمدينة بهكر ونشأ بالملتان وسافر للعلم إلى آكره، واشتغل بالتجارة برهة من الزمان، ثم عكف على الدرس والإفادة فدرس بأكبر آباد زماناً وظهر فضله بين العلماء فولى القضاء الأكبر مكان القاضي كمال الدين يعقوب الكروي، فاستقل به مدة وعزل عنه، وأخرجه أكبر شاه إلى بلاد الدكن حين أخرج العلماء من حضرته وفرقهم إلى نواح الملك، فذهب إلى بيجابور، مات سنة تسع وتسعين وتسعمائة بمدينة بيجابور. نزهه الخواطر وبهجه المسامع، ٤/ ٣٢٥.

[٣] تاريخ ملت، ١٣١/١٥.

[٤] بزم مملوكية، ص ٩٦. تاريخ فرشته، ١١٧/١.

الأوشي[١] من متصوفي تركستان، وحضرت جلال الدين التبريزي[٢] وحضرت الشيخ بدر الدين الغزنوي[٣] والقاضي حميد الله الناكوري[٤] والشيخ نجم الدين الصغرى[٥] والشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني[٦]. وقد تقلد بعضهم منصب شيخ الإسلام في عهده. وكان شمس الدين يجزل عليهم بالبر والألطاف ويكرمهم بالحفاوة والإيثار، يخلصهم ويقرب منهم ويكسب منهم العلوم الباطنية والحالية، كما يكسب من

---

[١] وهو محمد بختيار بن كمال الدين الأوشي الهندي من العرفاء، وتلميذ معين الدين الچشتي. توفي بنواحي دهلي في ربيع الأول ٦٣٣. وطبع ديوانه الفارسي في كانپور ١٩٠٤ م في ٢٢٦ ص. الطهراني، آقا بزرك، الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة، ٩ /١٩٥. نزهه الخواطر، ١ / ١١٤.

[٢] الشيخ الإمام الزاهد المعمر جلال الدين التبريزي أحد مشاهير الأولياء، أخذ الطريقة عن الشيخ بدر الدين أبي سعيد التبريزي ثم سافر بعد وفاته إلى بغداد وصحب الشيخ الكبير شهاب الدين عمر السهروردي مدة طويلة حتى بلغ رتبة الكمال، وقدم الهند مرافقاً للشيخ بهاء الدين أبي محمد زكريا الملتاني فأقام ببدايون برهة من الزمان
ثم ارتحل إلى بنكاله، وهو ممن أدركه الشيخ محمد بن بطوطة المغربي الرحالة الذي قدم الهند عام أربع وأربعين وسبعمائة، فما في خزينة الأصفياء أنه مات في سنة اثنتين وأربعين وستمائة لا ينبغي أن يعتمد عليه، وأدركه الشيخ ابن بطوطة في جبال كامر– بفتح الكاف والميم وضم الراء– بلدة بينها وبين سد كانوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة
بالصين وتتصل ببلاد التبت. نزهه الخواطر وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام نويسنده: الحسني، عبد الحي جلد: ٢ صفحه: ١٤٩.

[٣] الشيخ الصالح الفقيه بدر الدين الغزنوي ثم الدهلوي أحد كبار المشايخ الجشتية، قدم لاهور في صغر سنه واشتغل بالعلم وقرأ على أساتذة عصره، ثم دخل دهلي وسمع نبأ فتنة التتر في بلاده وبلغه أن أباه وأمه قتلا في تلك الفتنة فألقى عصاه بدهلي وسكن بها، وأخذ الطريقة عن الشيخ قطب الدين بختيار الأوشي ولازمه فما فارقه مدة حياته وتولى الشياخة بعده بمدينة دهلي، وكانت وفاته في سنة سبع وخمسين وستمائة. نزهه الخواطر، ١ /٨٧.

[٤] الشيخ العالم الكبير الزاهد محمد بن عطاء البخاري القاضي حميد الدين الناكوري أحد الرجال المعروفين بالفضل والصلاح، وسافر إلى بغداد، وأخذ الطريقة عن الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي، وصحبه سنة، ثم رحل إلى المدينة المنورة، ولبث بها سنة وشهرين، ثم دخل مكة المباركة فحج ومكث بها سنة، ثم رجع إلى الهند، واجتمع بالشيخ قطب الدين بختيار الأوشي. نزهه الخواطر وبهجه المسامع، ١ /١٢٢.

[٥] هو الشيخ العالم الفقيه نجم الدين الصغري أحد الرجال المشهورين بالهند، تولى شياخة الإسلام بدهلي لعله في أيام شمس الدين الإيلتمش، ومات في أيامه. نزهه الخواطر، ١٢٩/١.

[٦] هو الشيخ زكريا بن محمد بن علي القرشي الأسدي شيخ الاسلام بهاء الدين بن وجيه الدين بن كمال الدين أبو محمد الملتاني، ولد من رمضان سنة ست وستين وخمسمائة، سافر إلى بخارا وأخذ العلم بها عن كبار الأساتذة ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار وأقام بالمدينة المنورة خمس سنين، ثم رحل إلى القدس الشريف وزار المسجد الأقصى ثم رحل إلى بغداد وأخذ الطريقة عن الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ثم عاد إلى ملتان. وكانت وفاته يوم الخميس سنة ست وستين وستمائة. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

العلماء العلوم الظاهرية والشرعية، حتى ظلَّ نفسه تعدُّ من الزهاد.

ويقول مؤلف «طبقات ناصري»: إنه ما جاء ملك في العالم مثل شمس الدين ألتُتْمِش بحسن اعتقاده وتعظيمه العلماء والمتصوِّفين والزهَّاد[١].

ولم يأل شمس الدين جهدًا في الاهتمام لإنشاء المدارس (الكليات الدينية) في دهلي وغيرها من بلدان رقعته، وأهمها كانت مدرسة المعزي في دهلي التي أنشأها إحياء لذكرى سيده معز الدين الغوري.

وكان إيتلميش من حماة الشعراء والأدباء يعظمهم ويحسنهم ويقدر مراتبهم ويجزلهم بالعطايا. وقد عاش في عهده وظلَّ رعايته عدد كبير من شعراء عصره، منهم كان خواجه أبو نصر الناصري عن أسرة الشيخ ابن سعيد أبي الخير الخراساني[٢] أعطى له شمس الدين ثلاثة وخمسين ألف تنكة على عدد أبيات قصيدته المدحية التي قرأها عنده حين شرف بلاطه لأول مرة[٣]. والأمير الروحاني جاء من بخارى إثر غزو المغول فالتحق بلاط ألتُتْمِش فمدحه فنال إكرام السلطان الجزيل.

ومن أشهر شعراء عهده في بلاط دهلي كان تاج الدين رنيزه (الصغير)[٤]، وكان أصله من خراسان مدح في قصيدة طويلة الخلعة

---

[١] طبقات ناصري، ص ١٦٧.

[٢] هو مولانا محمد سعيد بن مولانا خواجه الحنفي الخراساني المشهور بمير كلان كان من كبار العلماء، ولد ونشأ وقرأ العلم على العلامة عصام الدين إبراهيم بن عرب شاه الإسفرائيني وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وسكن بمكة المباركة مدة، أخذ عنه الشيخ علي بن سلطان القارئ الهروي. مات ببلدة آكره سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وله ثمانون سنة. نزهه الخواطر وبهجه المسامع، ٤ /٤٢٢.

[٣] بزم مملوكية، ص ٩٧.

[٤] هو الشيخ الفاضل تاج الدين الدهلوي الدبير المشهور بريزه ولي ديوان الرسائل في عهد السلطان

التي أرسلها المستنصر بالله لألتُتْمِش، وكان شاعرًا وأديبًا كبيرًا ومن كبار أمراء بلاطه[١].

وأيضًا بهاء الدين علي المعروف بالصدر الأجل، مجد الملك، بهاء الدولة والدين ابن أحمد الجامجي، وكان عالمًا كبيرًا وأديبًا، ومن كبار أمراء بلاطه[٢] وفخر مدبر مؤلف «بحر الأنساب» و«آداب الحرب والشجاعة». والمؤيد جاجرمي[٣] الذي ترجم إحياء العلوم للغزالي إلى الفارسية معنونًا باسم ألتُتْمِش، وقد حفظت نسخة منه في مكتبة د. محمد شفيع الذاتية.

وقد نشأ في بلاطه الشاعر الشهير تركي الجنس أمير خسرو الذي عاش في عهد بَلَبَان[٤] وأبنائه وأيضًا عند غياث الدين تغلق. ومن أهم مآثره في حقل الأشغال العامة كان إنشاء حوض عظيم في واد بين جبلين، وكان يعرف باسم «حوض شمسي» طوله نحو ميلين وعرضه نحو ميل، الذي قيل بشأنه أنه كان من عجائب الدهر وقلَّ نظيره في العالم، وكان قد أنشأ من حجر أحمر وفي وسطه برج كبير[٥]، وفي داخلها مسجد يقيم بها الفقراء والمنقطعون المتوكلون. وحوض الخاص الذي كان أكبر من الأول، وعلى جانبه نحو أربعين قبة ليكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى «طرب آباد»، وبها سوق من أعظم الأسواق على قول ابن بطوطة ومسجد وجامع ومساجد سواه

شمس الدين الايلتمش، وكان فاضلاً شاعراً مجيد الشعر، وكان حقير الجثة ولذلك لقبوه بريزه معناه التفتيت، ومن شعره قوله يهنىء السلطان شمس الدين بفتح قلعة كواليار سنة ٦٣٠. نزهه الخواطر، ١ / ٩٠.

[١] نزهه الخواطر وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام، ١ / ٩٠.

[٢] نزهه الخواطر وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام، ١ /١٠٩.

[٣] هو أبو المعالي المؤيد بن محمد الجاجرمي، صاحب كتاب «نكت الوزراء».

[٤] هو السلطان غياث الدين بلبان ألغ بك مؤسس الدولة الألغ خانية (حكم ٦٦٤ – ٦٨٦هـ).
MUHAMMAD WAHID MIRZA. Life and Time of Amir khusraw (Calcutta 1935).

[٥] سيد أحمد خان، آثار الصناديد، ص ٦٤. وابن بطوطة، ١٨/٢.

كثيرة، وكانت النساء المغنيات إن كانت هناك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد ويؤم بهن الأئمة وكذلك الرجال المغنون[١].

وأيضا من آثار ألتُتْمِش مسجد يسمى «بارها ئي دن كاجهمبره» في أجمير الذي شرع بناَءه أصلاً قطب الدين أيبك على أنقاض معبد هندي كبير وأكمله ألتُتْمِش[٢].

الملكة رضية

وكانت رضية بنت شمس الدين ألتُتْمِش أول ملكة مسلمة حكمت في الهند وثالثة في تاريخ الإسلام. وهيَ تبوَّأت على عرش دهلي سنة ٦٣٤هـ بعد عزل أخيها سلطان ركن الدين فيروزشاه بن شمس الدين من أم تركية تسمى شاه تركان، الذي أعلن نفسه ملكًا بعد أن غلب على منافسي العرش بعد وفاة ألتُتْمِش، وهو حكم سبعة أشهر فحسب.

وكانت رضية إمرأة جريئة وباسلةً كشفت عن وجهها القناع، وزيَّنت بلباس الرجل البطل، وحكمت رقعة أبيها مرغمة كل معارضيها الذين كانوا لا يرضون الإطاعة لحكمها لأنها كانت إمرأة.

وكانت رضية أخذت التعليم في العلوم والفنون المتداولة في ذلك العصر في بلاط أبيها الذي كان مجمعًا للعلماء والفضلاء، وكان لها يد فائقة في شئون الدولة السياسية منذ شبابها، فلذلك انتخبها ألتُتْمِش وليةً للعهد ورشَّحها خلفه بها رأي فيها من عقل وفراسة وحنكَة ولباقة، ولها تدابير صائبة وأفكار ثاقبة في تنظيم شئون الدولة

[١] ابن بطوطة، ١٩/٢.
[٢] نظر إلى القواد والقضاة وغيرهم إلى النسخة الأصلية طبقات ناصرى.

وتنسيق مهام السلطنة.

وقد استمرت مدة حكمها ثلاثة سنوات ونيف، وهي لعبت في هذه الفترة القصيرة دوراً هامًّا في دفع عدة ثورات التي شنَّتها معارضوها ضدها، وكذلك في قمع وقلع الملحدين من القرامطة[١] وفتنتهم الذين هجموا في عهدها متوجهين في بعض بلاد الهند ككجرات والسند وغيرها إلى دهلي بقيادة زعيمهم باسم نور الدين ترك.

ولو أن في عهدها القصير الحافل بالثورة والمؤامرات ما سنحت الفرصة لاهتمامها في حقول العلم والثقافة، ولكنا نرى أن عددًا كبيرًا من العلماء والفضلاء يعيشون في دهلي وغيرها تحت رعايتها، ومنهم كان منهاج الدين الجوزجاني[٢] الذي ولَّته المدرسة الناصرية في كواليور[٣] والذي كان معها في بعض معاركها. تبوأ بعدها على

---

[١] القَرامِطة أو الحَرَكة القِرْمِطِيَّة أو دَوْلةُ القَرامِطة، هي دولة سياسيَّة مُتطرِّفة وفرقة دينيَّة مُتشددة انبثقت من الإِسْماعِلِيَّة. نشأت الحركة ثورة اجتماعيَّة وسياسيَّة ضد الخِلافة العبَّاسيَّة، وحاربت ضد الخِلافة الفاطِميَّة الإسماعيليَّة، حيث تمكَّن أبُو سَعيد الجنَّابي من إقامة دولة في إقليم البَحْرَيْن، إلا أن دعوتها وصلت اليَمَن، ونواحي اليَمامة والحِجاز، وأطراف الشَّام، وأبواب مِصْر. يُعدها بعض الباحثين من أوائل الثَّورات الاشتراكيَّة في العالم. أسس الحركة الدينيَّة للقرامِطة رجُل يُدعى حَمَدان قِرْمِط، وبعث أبُو سَعيد الجنَّابي – من أصُولٍ فارسيَّة – داعيًا للحركة عنه إلى إقليم البَحْرَين، فاستطاع الأخير أن ينشر الدعوة تحت ستار العمل التجاري، وبعد أن كثُر أتباعُه، وزاد أنصارُه، أعلن قيام الثَّورة سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م، وبدأ بمد نُفوذه على كامل البَحْرَيْن بعد أن استخدم القرامِطة أسلُوبًا مُتطرِّفًا بهدف إرعاب مُعارضيه وإسكاتهُم، وقد عمل طيلة حُكمه لتأكيد سُلطتهِ ونُفوذه في البَحْرَيْن، كما حاول غزو عُمان إلا أن ذلك لم يتحقق له، وقد أوصى لابنهِ الصَّغير سُليمان قبل وفاته. إلا أن أخُوه الأكبر أبُو القاسِم تولَّى زمام الأمُور مُؤقتًا حتى يصل سنَّ الرُّشد. محمد سهيل طقوش، تَارِيخ الزَّنْج وَالقَرَامِطَة وَالحَشَّاشِين، ط. ١. (بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع. ٢٠١٤). ص. ٦٥. فرحات دفتري، خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين، ص ٣٦. السعدون، خالد. مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي من أقدم حضاراته حتى سنة ١٩٧١. (جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٢) ص ٥٦ – ٦١

[٢] هو أبو عمر منهاجُ الدّين عثمان ابن إبراهيم، كان مؤرخا فارسيا. سراج تناول أحداث الغزو المغولي لخوارزم في كتاب «تاريخ طبقات ناصري»، وهو من أوثق المصادر حول الأحداث. اقبال الآشتياني، عباس. تاريخ مغول (الثانية). (موسسه انتشارات نگاه. ١٣٨٩)، ص ٤٩١.

[٣] . الجوزجاني، طبقات ناصري، ص ٥٣٥.

سرب دهلي معز الدين بهرام شاه[١]. وهو حكم سنتين، وقتل في ١٧ ذي القعدة ٦٣٩هـ من قبل أمراء الذي ثاروا عليه بقيادة نظام الملك خواجه فخر الدين بسبب سوء إدارته وعدم تدبيره في سياسة الدولة واستبداده[٢].

ثم خلعه السلطان علاء الدين مسعود شاه بن السلطان ركن الدين فيروزشاه، وهو حكم أربعة سنوات خلع في النهاية أيضًا بسبب سوء إدارته وابتلائه العيش والترف وإهماله شئون الدولة[٣].

ناصر الدين محمود الثاني

خلف ناصر الدين محمود الثاني بن سلطان شمس الدين ألتُتْمش على السلطان علاء الدِّين مسعود شاه سنة ٦٤٤هـ ١٢٤٦م. وهو قام في مدة حكمه التي دامت نحو أربعة وعشرين سنة مثالاً عاليًّا للبساطة والسذاجة في الحياة الملكية، وإتباعه السلف الصالحين والخلفاء الراشدين. وقد أشادَه المؤرِّخون أنه كان ملِكًا، وصوفيًّا ناسكًا، عاش بالزهد والرياضة، ياقظًا في اللَّيل، وذاكرًا في النهار، ومتواظبًا لتلاوة القرآن الكريم. وكان يعيش عيشةً راضيةً بقناعة وببساطة دروشية، يأكل من عمل يده وكسبه، ينسخ القرآن ويضمن حوائجه اليومية بما حصل من هديته، تطبخ زوجتها وملكتها الطعام بيدها، ولا تستخدم خادمة أو طباخة.

وكان ورعه وتقواه إلى درجة أنه حتى كان يكتم اسمه في نسخة القرآن التي ينسخ بيده، لكي لا يطلع أحد من ناسخها ولا يؤدِّي لها

[١] معز الدين بهرام شاه بن التتمش سادس سلاطين مماليك الهند في سلطنة دلهي، حكم بهرام دلهي في الفترة (١٢٤٠ – ١٢٤٢)

[٢] (الجوزجاني، طبقات ناصري ص ٨٩.

[٣] الجوزجاني، طبقات ناصري ص ٩٥.

هدية رقمية فوق المعتاد[١].

ويقول ابن بطوطة أنه كان ملكًا صالحًا ينسخ نسخًا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها[٢].

وناهيك لزهده وورعه وحياته البسيطة ماقال بدايوني إن حاياته وقصته العجيبة والغريبة تكفي لنا لما جدد وأحيا حياة الخلفاء الراشدين المثالية[٣].

وكان ناصر الدين يحب صحبة العلماء والصلحاء. وفي عهده عاش بابا فريد الدين كنج شكر[٤] شكر المعروف بـ «داتا كنج بخش» من كبار مشايخ الهند وأوليائها، وكان ناصر الدين مخلصًا ومريدًا له[٥].

وبالرغم أنه كان صوفيًّا زاهدًا خصَّص حياته للعبادة والرياضة، يعيش حياة دوريشية كان حريصًا للاهتمام بشئون رعاياه العامة والرفاهية. وكان حرم بيت المال لنفسه، وقد خصص أنفاقه لحفظ الجنود ورفاههم ولمساعدة العلماء والفضلاء والمشايخ الصوفية والمساكين من رعاياه، وعمال الدولة وإنشاء المساجد والآبار والخانقاوات والمسافرخانات والأربطة وحفر الأنهار في أقطار البلاد لري المزارع وغيرها من الأمور الخيرية والأشغال العامة[٦].

---

[١] الحسني الطالبي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى، ١/ ١٢٦– ١٢٧.

[٢] ابن بطوطة، ص ٢٢.

[٣] هو عبد القادر بن ملوك شاه الحنفي البدايوني. أشهر آثاره: كتاب «منتخب التواريخ» بالفارسية في تاريخ الهند. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٥ / ٥٧٠ – ٥٧١.

[٤] هو الشيخ الكبير مسعود بن سليمان بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن محمد ابن فرخ شاه العمري الإمام فريد الدين الجشتي الأجودهني (٦٦٤ هـ) المعروف بكنج شكر، صوفي هندي هو الثالث في الطريقة الجشتية. نزهة الخواطر وبهجه المسامع، ١ /١٢٧.

[٥] نزهه الخواطر وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ١/ ١٢٨

[٦] الطباطائي، سير المتأخرين، ص ١٠٩.

أهم غزواته

هو فتح في السنة الثانية من حكمه قلعة محكمة قرب فنوج تسمى تلنده أو تلسنده وهزم ملكها دلكي ملكى، وأرغم كواليور ومالوا ومضافاتها التي كانت يحكمها أكبر راجاوات الهند قوةً وشوكةً. وكان ذلك في السنة السادسة، وأيضًا أرغم في السنة الحادي عشرة المناطق الجبلية في سانتور (أراوالى) التي كانت كقلعة مستحكمة لم يصل أحد من المسلمين لا ولم يفتح أحد من الملوك.

وهو ردَّ بغزوات المغول الذين كانوا تغلغلوا إلى أوج و ملتان وغيرها من الغزوات والتأديبات التي كان الفضل يعود في ظفره وفتوحه الوسيعة إلى شجاعة قائده الجرئ ألغ خان الأعظم غياث الدين بلبن، التركي الأصل وجنوده الجرارة الذين كانوا مشكلة من الأتراك الغيوريين من تركستان[١].

ومن كبار العلماء والفضلاء الذين عاشوا في عهده وظل رعايته كان أشهرهم مولانا منهاج الدين سراج الدين الجوزجاني الذي كان عالمًا ومؤرخًا وشاعرًا وواعظًا كبيرًا وضع كتابه «طبقات ناصرى» المعروف في عهده وباسمه. وكان من عبقريته نال جزيل إنعامه وعطاياه وتقلَّد في عهده وعهد أخلافه مناصب عالية كقضاء دهلي ورياسة الوزارة (صدر جهان) وغيرها. وقد التزم في غزواته وغزوات أسلافهم. ثم الشيخ عماد الدين الشقورقاني[٢] وقاضي جلال الدين

---

[١] الجوزجاني، طبقات ناصري، ص ٩٨ و١٢٧.

[٢] هو الشيخ العالم الفقيه القاضي عماد الدين محمد الشقورقاني أحد الفقهاء المشهورين في الهند، ولي قضاء الممالك بحضرة دهلي في أيام مسعود شاه فاستقل به زماناً، واتهم بأمر وعزل عن القضاء وأخرج إلى بدايون في أيام السلطان ناصر الدين محمود، ثم قتل بأمر عماد الدين ريحان الحاجب يوم الاثنين ثاني عشر من ذي الحجة سنة ست وأربعين وستمائة. نزهة الخواطر، ١ /١٢٦.

الكاشاني والقاضي شمس الدين بحرايجي[١]، وشيخ الإسلام حضرت جمال الدين البسطامي[٢]، ومولانا السيد قطب الدين، والإمام حميد الدين الماريكلي[٣] وغيرهم، الذين كانوا من فحول العلماء وملتزمي بلاطه، وأن أكثرهم تقلَّدوا القضاء ومشيخة الإسلام في عهده.

ومن الشعراء على جانب منهاج سالف الذكر، كان شمس الدين الدبير[٤] وعميد السنامي، من أشهر شعراء بلاطه، وكانوا من كبار أدباء عهده[٥].

غياث الدين بَلَبَن

(من ٦٦٤ إلى ٦٨٦هـ)

هو الخامس والعشرون من الملوك الشمسية، ممن حكموا من المماليك في دهلي مستقلاً، أكبر سلاطين المماليك شوكة وأشهرهم

---

[١] هو الشيخ الفاضل شمس الدين البهرائجي أحد الرجال المعروفين بالفضل والكمال، كان قاضياً بمدينة بهرائج، وتقرب إلى محمود بن الإيلتمش حين كان والياً بها من قبل ابن أخيه علاء الدين مسعود بن فيروز بن الإيلتمش السلطان، فلما قام بالملك ولاه قضاء الممالك فصار المعتمد والمستشار في مهمات الأمور، فسخط عليه الناس وحسدوه وسعوا به إلى السلطان فعزله عن القضاء يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة. نزهة الخواطر، ١/١٠٣.

[٢] هو الشيخ الإمام جمال الدين محمد البسطامي أحد الرجال المشهورين بالفضل والصلاح، ولي مشيخة الاسلام بدار الملك دهلي يوم الثلاثاء ثالث عشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وستمائة في أيام السلطان ناصر الدين محمود بن الإيلتمش، ومات في أيامه يوم الجمعة سادس جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين وستمائة بدهلي، كما في طبقات ناصري. نزهه الخواطر، ١ / ١٢٦

[٣] هو الشيخ الإمام حميد الدين الماريكلي أحد الأفاضل المشهورين في عصره، مات غرة شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة في أيام ناصر الدين محمود بن الايلتمش. نزهة الخواطر، ١/٩٥.

[٤] هو شمس الدين السنامي الدبير كان من العلماء المبرزين في الإنشاء وقرض الشعر، قرأ اللوائح على القاضي حميد الدين الناكوري، وأخذ الطريقة عن الشيخ فريد الدين مسعود الأجودهني، وكان متولياً بديوان الإنشاء في عهد السلطان ناصر الدين محمود بن الإيلتمش، ولما قام بالملك السلطان غياث الدين بلبن بعثه إلى بنكاله مع ولده بغراخان وولاه على ديوان الإنشاء بها. وكان شاعراً بليغاً مجيد الشعر، اعترف بفضله الأمير خسرو بن سيف الدين الدهلوي، مات سنة سبع وسبعمائة. نزهة الخواطر، ٢ / ١٦٤.

[٥] دائرة معارف الإسلامية، مادة ناصر الدين. عبد القادر بديوني، منتخب تواريخ، ص ٨٦. بزم تيمورية، ص ١٩٣.

شهرةً وجلالاً.

كان مملوكًا ينتمي كألتُتْمش إلى قبيلة البري. وكان أبوه رئيس عشيرة آلاف بيت. أسر بيد المَغول في معركة شنتها قره خطاي، ثم جئ به إلى بغداد فاشتراه خواجه جمال الدين البصري الذي رباه وعلمه بالتفات خاص ورعاية شعقة كابنه العزيز. ثم جاء به إلى الهند فعرضه إلى ألتُتْمش الذي اشتراه بثمن غال لما شعر فيه من نجابة وأصالة ذاتية، خدَم أولاً في بلاطه كسقاء الماء ثم حارسًا ذاتيًّا له، حتى شمل في «جماعة الأربعين المملوكة» المدبرة لشئون البلاط والبلاد. وبعد موت ألتُتْمش ذهب بَلَبَن مع جماعة معارضة من الأتراك الذين خالفوا ركَن الدين فيروزشاه وتركوا دهلي فحبس لمدة أيام حينما رجع معهم. ومازال بَلَبَن يخدم البلاط كخاصدار الملكي ثم أمير الصيَّاد في عهد كل من ملكة رضِيَّة ومعز الدين بهرام شاه حتى عظم شأنه فصار أمير الإصطبل ثم أقطع له مقاطعة ديواري مكافئة لشجاعته في قهر رؤسائها الثائرين، ثم ولاية عانسي وكان ذلك بعد أن أظهر بسالة فائقة في إطفاء نيران الثورة التي استعرها الثوار ضد بهرام شاه.

وكان بَلَبَن لا يزال يعظم شأنه حتى بلغ نائب الملك، وهو لعب دوراً هامًّا وبصفة خاصة في صد غزوات المغول إلى السند مرتين. وهو غزى بعدة غزوات أخرى، وزحف بعسكر عظيم إلى مالوا وكالِنْجار وغزي رانتا بحصور وغيرها وأسكن عدة ثورات وأقهر معارضيه من الأمراء الخائنين، وكان ذلك في عهد ناصر الدين الذي كان رجلاً هادي الطبع محبًّا لدرس وناسكًا متعبدًا. وهو قد ترك زمام الحكم في يده وأعطاه أخته بالزوجة، وجعله ألغ خان أي الخان الأعظم بعد فتحه رانتا بحصور ومات في سنة ٦٤٦هـ١٢٤٨م. وكان

من نشاطه في القيام بأمور الدولة أن امتد حكم المسلمين في شمال الهند وتوحَّد.

ولى غياث الدين بَلَبَن العرش عام ١٢٦٥م، وقد دامت مدة حكمه عشرين سنة. وكانت أكبر عهد بأبهته وعظمته وشوكته الملكية، حيث أن البلاد ما عظم شأنها في عهده فحسب، بل امتاز بكثرة العلماء والمشايخ والسادات وبكونه ملجأ العلماء والأدباء والأمراء المنضيين حتى وصف المؤرخون عهده بكونه خير الأعصار[١].

ويقول الدكتور السيد معين الحق: إن بَلَبَن كان من الحكَّام جديري الاعتبار الفائق في تاريخ الهند والباكستان في القرون الوسطى، وله مقام مرموق بين ملوك وساسة عصره؛ لأنه تولى السلطة في حين أن المغول كانوا قد دمَّروا كثيرًا من دول الإسلام في آسيا، وكان بَلَبَن على جانب ذلك أن يقهر الرؤساء المعارضين والثوار وقطاع الطريق وغيرهم. فأثبت قدرته لذلك في قهر وقمع الخطرات بأسرها. وكان هو أول ملك في الهند اتبع سياسة الثغور الشديدة في الأقطار الحدودية الشمالية لبلاد الهند، السياسة التي أتبعها المغول ثم الإنجليز بعدها على أصوله بتدابير أكبر من تدابيره.

وقد حكم بَلَبَن كملك عادل متمسكًا بأهداب الدين وناسكًا متحمسًا في الزهد والتصوف مخلصًا ومعتقدًا كسلفه أَلتُتْمش للمشايخ والسادات. وقد عاش في عهده من كبار المتصوفَين والمشايخ حضرت بابا كنج شكر، وخواجه علي الجشتي وشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني وابنه شيخ صدر الدين وشيخ بدر الدين الغزنوي والشيخ أبو المؤيد والشيخ جمال الدين الهانوي، وخواجه علاء الدين أحمد صاحب، وسيدي موله، والشيخ حسام الدين

[١] تاريخ فرشته، ١/١٨٣. دائرة معارف الإسلامية، مادة: بلبن.

الملتاني[١] والشيخ نجيب الدين[٢] والشيخ أبو بكر الحيدري الطوسي[٣] وغيرهم من أعظم المشايخ والمتصوفين.

ويقول مؤلف سير الأولياء: وكان عهد بَلَبَن عهدًا ميمونًا، تكثر فيه نزول الرحمة والفيض الإلهي على أرض الهند[٤].

ويقول ابن بطوطة: إنه كان من خيار السلاطين عادلاً حليمًا فاضلاً، ومن مكارمه أنه بنى دارًا سمَّاها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضي دينه ومن دخلها خائفا أمن، ومن دخلها وقد قتل أحدًا أرضى عنه أولياء المقتول. ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضى أيضًا من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات، وقد زرت قبره[٥].

وفي عهده التجأ إلى دهلي جماعة كبيرة من العلماء والفضلاء والصنَّاعين والأمراء وغيرهم من أكناف البلاد الإسلامية كخوارزم وديلم وغور واليمن والموصل، والسمرقند والكاشغر وبلاد خطاي إثر غزو المغول في تلك البلاد. وقد استوطنهم بلبن في محلات خاصة سمي كل محلة باسم مستوطنيها كمحلة العباسية والسنجرية والخوارزمشاهية الديلمية والعلوية والأتابكية والغورية والجنكيزية والرومية والأسنفرية واليمنية والموصلية والسمرقندية والكاشغرية والخطائية وغيرها. فاهتم برعايتهم ومساعدتهم خير اهتمام. ازدهر كنتيجة لها النشاط العلمي والفني في بلاط دهلي أكبر ازدهار، حتى أدفع أمير خسرو يباهي به ويقول: إن في عهده كانت دهلي قد أصبحت مركز علوم وفنون كمثل بخارى[٦].

ويقول برلي أن عصره كان مشحونًا بالفضلاء والبنَّائين والصنَّاعين والمقرَّبين والقوالين والمطربين عديمي المثال، هذا الأمر الذي أدَّى

[١] هو حسام الدين عثمان بن داود العمري الملتاني أحد المشايخ الجشتية، أخذ الطريقة عن الشيخ نظام الدين محمد البدايوني ولازمه مدة من الزمان، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار، ورجع إلى الهند ولما سير محمد شاه تغلق الناس إلى دولت آباد رحل إلى كجرات وسكن بها. وتوفي لثمان خلون من ذي القعدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة بكجرات فدفن بها. نزهة الخواطر.

إلى ذيع صيته وشهرته في أكناف العالم[١]. وجاء في «تاريخ فرشتة» أن عهده كان أكثر رونقًا وروعة من بلاط محمود وسنجر، حيث لم يسبق نظيره في الربع المسكون، وكان هو يوصي ابنه بغراخان أن يهتم ويشحن دار ملكه بالعلماء المشايخ والسادات والمقربين والمحدثين والحافظين والمحاضرين والفضلاء والصناعين والماهرين في مختلف العلوم والفنون والحرفة ليكون عاصمته جامعة شاملة كاملة[٢].

ومن أشهر رجال العلم الذين عاشوا في عهده ملتزمين ومتمتعين من رعايته كان أولهم مولانا برهان الدين محمود بن أبي الخير السعد البلخي[٣].

وجاء في نزهة الخواطر: أنه كان عالمًا كبيرًا عديم المثال في الهند[٤]، ثم نجم الدين عبد العزيز بن محمد الدمشقي[٥] الذي كان عالمًا وفيلسوفًا ومن تلاميذ الإمام فخرالدين الرازي. وكان بَلْبَن يزورهما في كل جمعة. والشيخ سراج الدين أبو بكر بن يوسف

---

[١] تاريخ فرشته، ٧٥/١.

[٢] نفس المصدر، ١٠٣/١.

[٣] هو الشيخ برهان الدين محمود بن أبي الخير أسعد البلخي، لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والفقه والحديث، متوفراً على علوم الحكمة، تفقه على الشيخ برهان الدين المرغيناني صاحب الهداية، وأخذ الحديث عن الشيخ حسن بن محمد بن الحيدر الصغاني صاحب المشارق، وقدم الهند فاحتفى به الملوك والأمراء. وكان السلطان غياث الدين بَلَبَن يتردد إليه في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، ويحظى بصحبته زماناً، مات في سنة سبع وثمانين وستمائة ودفن قريباً من الحوض الشمسي بدار الملك دهلي. نزهة الخواطر.

[٤] نزهة الخواطر، ١٢٧/١.

[٥] هو عبد العزيز بن محمد الإمام نجم الدين الدمشقي ثم الدهلوي أحد العلماء المبرزين في العلوم الحكمية، أخذ عن الإمام فخر الدين الرازي صاحب المباحث المشرقية وقدم الهند فاغتنم قدومه الملوك والأمراء، وكان السلطان غياث الدين بَلَبَن يتردد إليه في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة ويحظى بصحبته. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام.

السجزي[١]، ومولانا شرف الدين الولوالجي[٢] ومولانا برهان الدين البزار[٣] والقاضي ركن الدين السامانوي[٤] ومولانا كمال الدين زاهد الماريكلي، ومولانا شمس الدين الخوارزمي[٥] الذي تلمذ عنده الشيخ نظام الدين أولياء الولي[٦] المعروف في الهند. وكان بَلَبَن يقدر منزلته أكبر تقدير فأعطاه لقب «شمس الملك» وجعله مستوفي الملك أي رئيس المحاسبات العمومية لرقعته، وأيضًا مولانا فخر الدين ناقلة جعله بلبن قاضي مملكته بمنصب صدر جهان أي قاضي القضاة، ومولانا منهاج الدين الجوزجاني الذي تولّى القضاء، والقاضي رفيع الدين الكاذروني[٧] والقاضي شمس الدين المراخي[٨]

---

[١] هو الشيخ أبو بكر بن يوسف بن الحسين السقراني الإمام سراج الدين السجزي أحد كبار العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، درس وأفاد مدة طويلة بدار الملك دهلي في عهد السلطان غياث الدين بلبن ومن قبله من الملوك، أخذ عنه جمع كثير من العلماء، وكان السلطان غياث الدين المذكور يكرمه غاية الإكرام ويتردد إليه في كل
أسبوع بعد صلاة الجمعة ويحظى بصحبته، كما في تاريخ فرشته. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٨٥/١.

[٢] الشيخ الفقيه شرف الدين الولوالجي الدهلوي كان من كبار الأساتذة، يدرس ويفيد بمدينة دهلي في عهد السلطان غياث الدين بلبن، ذكره القاضي ضياء الدين البرني في تاريخ فيروز شاهي. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ١٠٢/١.

[٣] هو الشيخ الفاضل العلامة برهان الدين البزار الحنفي الدهلوي أحد كبار الفقهاء في عصر السلطان غياث الدين بلبن، كان يدرس ويفيد بدار الملك دهلي، وكان السلطان يكرمه غاية الإكرام، ذكره البرني في تاريخه. نزهة الخواطر وبهجة المسامع، ١/ ٨٨.

[٤] هو أحد كبار الفقهاء في عهد السلطان غياث الدين بَلَبَن لم يزل يشتغل بالدرس والافادة وكانا لملك يكرمه غاية الإكرام فيروز شاهي. ٩٩/١.

[٥] هو العلامة شمس الدين الخوارزمي، والذي اتخذه بَلَبَن وزيرًا له، ودرس فيه نظام الدين أولياء وغيره من العلماء الكبار. أبو بكر الحسني، الشيخ نظام الدين ومكانته في المجتمع الهندي، مجلة البعث الإسلامي، ١٣٩٤هـ.

[٦] هو محمد بن أحمد بن علي الخالدي الدهلوي، المعروف بنظام دهلوي وشاه نظام الدين أولياء، والمشتهر بنظام ونرگسى. كان أجداده من مدينة بخارى، غير أنهم هاجروا إلى الهند وسكنوا مدينة بودان، فولد بها نظام الدين سنة ٦٣٣ هـ. توفي في دهلي سنة ٧٢٥ هـ. Amir Hasan Sijzi, Fawaid-ul-Fuad (Delhi, 1865), pp. 150, 195-97

[٧] هو الشيخ الفاضل الكبير القاضي رفيع الدين الحنفي الكاذروني المدرس المشهور كان يدرس ويفيد في عهد السلطان غياث الدين بلبن، ذكره القاضي ضياء الدين البرني في تاريخه وقال: إنه كان من كبار الأساتذة بدهلي. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٩٩/١.

[٨] هو الشيخ العالم الفقيه القاضي شمس الدين المراخي كان من العلماء المبرزين في الفقه والأصول، لم يزل يشتغل بالدرس والإفادة بدار الملك دهلي، ذكره القاضي ضياء الدين البرني في تاريخ فيروز شاهي.

والقاضي جلال الدين الكاشاني[١] والقاضي سديد الدين، والقاضي ظهير الدين[٢] وغيرهم الذين كان لكل واحد منهم من أجل عصره. وقد تولَّى بعضهم منصب القضاة.

وإذا ذكرنا جماعة العلماء والفضلاء وغيرهم، فلنذكر هناك مدرستين كبيرتين اللتين ازدهرتا في عهده تحت رعايتهم في دهلي، وكان بَلَبن ينفق تكاليف هاتين المدرستين من بيت المال.

وأيضًا عاش في عهده من فحول الشعراء شمس بدير والقاضي أثير والأمير الحسن السنجري[٣] والشاعران الأخيران أصلهما من الأتراك.

وفي عهد ابنه سلطان محمد كانت ملتان قد شكلت ملجأ الأدباء والفضلاء الذين لجئوا إليها من الأكناف لما سمعوا من شغف السلطان للفضلاء والأدباء، وكان بلاطه ينعقد فيه مجالس علمية وأدبية يحضرها الأمير خسرو والأمير الحسن السنجري والشيخ عثمان الترمذي وغيرهم.

نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ١ /١٠٣.

[١] هو الشيخ العالم القاضي جلال الدين الكاشاني كان قاضي الممالك بدار الملك دهلي، ولما ولي المملكة علاء الدين مسعود شاه قربه إليه وبعثه إلى لكهنوتي سنة إحدى وأربعين وستمائة بالسفارة إلى الأمير طغانخان نائبه على بلاد لكهنوتي، وولي قضاء الممالك مرة ثانية في أيام السلطان ناصر الدين محمود بن الايلتمش، مات يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وستمائة. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ١/٩٠.

[٢] هو ظهير الدين الدهلوي أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، كان يدرس ويفيد بدار الملك دهلي في عهد السلطان غياث الدين بلبن، أخذ عنه خلق كثير، كما في تاريخ فيروز شاهي للقاضي ضياء الدين البرني. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ١ /١٠٥.

[٣] هو الشيخ الفاضل نجم الدين الحسن بن العلاء السنجري الدهلوي أحد الرجال المشهورين بالفضل والصلاح، عاش مدة من الزمان في زي الأمراء عند السلطان غياث الدين بابن وولده محمد، ثم انقطع إلى الله سبحانه وأخذ الطريقة عن الشيخ الإمام المجاهد نظام الدين محمد البدايوني، قال القاضي ضياء الدين البرني في تاريخه: إن الحسن كان شاعراً مجيد الشعر قنوعاً بشوشاً طيب النفس مليح الشمائل حسن المحاضرة حلو الكلام والحسن انتقل من دهلي إلى ديوكير في آخر عمره بأمر السلطان محمد بن غياث الدين، وتوفي بها إلى رحمة الله سبحانه في التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فدفن بها، كما في خزينة الأصفياء. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٢/ ١٥٢.

وكان ابنه الثاني ناصر الدين محمود بغراخان الذي حكم بنغال بعاصمته لكهنوتي ماهراً في الخط والإنشاء وعالمًا للغة والتاريخ محبًّا للعلم ومتذوقًا من الأدب والشعر ولا سيَّما الفنون النفيسة. وكان بلاطه مجمع الأدباء، والشعراء، والمغنيين، والموسيقيين، والقصاصين، وغيرهم. يشجعهم ويقدِّر مراتبهم ويغدق لهم العطايا. وكان جماعة من كبار الأدباء كشمس دبير والقاضي أثير والأمير خسرو من ملتزمي بلاطه، ولهم قصائد وأشعار في مدحه. وكان شمس الدين الدبير وزير بغراخان ومتولي ديوان إنشاءه. منحه الخطاب الممتاز «ملك العقلاني».

وكان من جملة أمراءه أيضًا من تميَّزوا واشتهروا بلباقتهم وشغفهم العلم والعلماء والأدباء وبسخائهم وجودهم يستحق فيهم للذكر أخوه سيف الدين كشكي خان آيبك (أمير البلاط) الذي عمر مدينة كجار أيام ولايته على بلاد السند[١].

باربك بكين والأمير علي سرجاندار وملك الأمراء وفخر الدين وعماد الملك وغيرهم[٢].

وملك تاج الدين سنجر تبرخان وعلاء الدين أياز تابورخان الزنجاني، ابن سراج وهاج واختيار الدين أيتكين الذين تصدوا كلهم مناصب عالية في عهده، وكذا في عهد ناصر الدين، وقوتلوغ خان وعز الدين بلبن أزبك وأرسلانخان سنجر وقلج خان مسعود الخاني[٣].

ولو أن شمس الدين ألتُتْمِش لم يحم في أوائل عهده النشاط

---

[١] ابن بطوطة، ٢ ص ٨.
[٢] بزم مملوكية، ص ٢٤٧.
[٣] الجوزجاني، طبقات ناصري ص ١٢٤.

الموسيقي بسبب عدم مسامحة العلماء لجوازه، ولكنه اقتنع بعدها على دلائل القاضي حميد الدين الناكوري في جواز السماع لأهل الحال لا لأهل القال، فرفع متأثرًا منه التحديد على الموسيقي وأجازه فشاع وعمَّ[١].

النشاط الثقافي والأدبي والفني في عهد المماليك في الهند

ولو أن عهد المماليك في الهند كان عهد فيه اتجاه ديني وتصوفي بصفة عامة، ولكن الحياة العلمية والثقافية ما كانت مدهمة قط. وكان الشعر والأدب والموسيقي وغيرها من المعالم الثقافية مزدهرة، وناشئة بنشاط كبير، بما كان لها من حماية الأمراء والسلاطين المملوكية، على جانب من العلوم الدينية، والتصوف.

وقد ظهر في هذا العصر جماعة كبيرة من العلماء والأدباء والفنَّانين والموسيقيين وغيرهم. ومنهم: كان الأمير خسرو الذي عاش منذ عهد ألتُتْمش إلى عهد غياث الدين تغلق والذي يعد أبو الموسيقيين في الهندَ. يعود له الفضل في ابتكار آلة موسيقية باسم سه تار أي ذات ثلاثة أوتار وعدة ألحان موسيقية أخرى.

وكان فيروزشاه ابن ألتُتْمش أكثر مولعًا للموسيقي والرقص والغناء والطرب في بلاطه جَماعة كبيرة من الموسيقيين والمغنيين والمطربين الأمر الذي أدَّى إلى معارضة العلماء راسخي العقيدة وخلعه أخيرًا.

وكان الأمير قره بغراخان أنشأ مجمعًا تمثيليًّا في بلاطه يشمل

---

[١] سيد صباح الدين، هندستان عهد وسطوكي، ص ٤٥٤.

أعضاءه عددًا كبيرًا، فاتبع رعاياه وتسابقوا في أتباعه فتأسس كنتيجة له عدة مجامع تمثيلية وروائية في أقطار مختلفة للبلاد بين الطبقات العالية والمتوسطة على نهج الأسرة المالكة[١].

ومنذ عهد بَلْبَن الذي كان بلاطه ذائع الصيت بكونه مركز النشاط الثقافي الفاخر، أخذت المجامع الأدبية والثقافية تشكل بكثرة في أقطار بلاد الهند المختلفة. فتأسس في دهلي أول مجمع أدبي تحت إشراف ابنه الأمير محمد الذي كان بلاطه ينعقد فيه اجتماع الأدباء والشعراء وتتجاذب فيه المناظرات الأدبية. وكان الأمير خسرو رئيس هذا المجمع الأدبي والأمير الحسن الذي يعد سعدي هندستان من أعضاء المجمع.

وكان الأمير محمد ذائع الصيت في بلاد الإسلام بحبه العلماء والأدباء، وهو دعا سعدي الشيرازي[٢] إلى بلاطه مرتين، الذي اعتذر كل مرة بسبب شيخوخته، وكان محمد مولعًا لجميع الأشعار لكبار الشعراء في اللغة الفارسية[٣].

ويقول برني: إن بلاط الأمير محمد كان مجمعًا يلجأ فيه كبار العلماء والفضلاء والأدباء في عهده، وكان مواظبوه ومقرؤوه

---

[1] S.M. Jafar: Some Cultural Aspects of Muslim Rule in India P 183.

[٢] اختُلِف في اسمه فقيل: هو مشرّف الدين بن مصلح الدين السعدي، وشرف، ومصلح، وعبد الله، وغير ذلك، ومنهم من جعل مشرف الدين؛ أو شرف الدين، ومصلح الدين لقباً له. وتخلص في شعره باسم «سعدي». ولد في مدينة شيراز سنة ٦٠٦ هـ. رحل إلى بغداد قبل سنة ٦٢٣ هـ. بسبب هجمات المغول آثر الشيرازي الرحيل والسياحة فذهب إلى دمشق والقدس ومكة وشمالي أفريقية. ويذكر أنه حين فارق بلاد الشام نحو سنة ٦٣٤ هـ وقع أسيرا في يد الفرنجة، ففرضوا عليه أن يعمل في جبل الطين ونقل الحجارة، إلى أن لقيه أحد رؤساء حلب فافتداه. ثم عاد إلى مسقط رأسه شيراز سنة ٦٥٤ هـ، وتوفي فيها بين سنة ٦٩٠ و٦٩٤ هـ. محمد الفراتي، روضة الورد، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي). ص. ٣١٣.

[3] (S.M. Jafar: Some Cultural Aspects of Muslim Rule in India P 147P. سيد صباح الدين ص. ٤٧٣.

«شاهنامه» و«ديوان سنائي»[١] و«ديوان خاقاني»[٢] وكتاب «خمسة نظامي»[٣]. وكان الأدباء يناقشون ويتجاذبون الأشعار من هذه الكتب في محضره. وكان الأمير خسرو والأمير حسن من أعضاء المجمع الأدبي في البلاط، وكان الأمير يقدر فضلهما بصفة خاصة، ويعطي لهما المكافآت ويفوقهما بالاحترام والإكرام على سائر مواظبي بلاطه[٤].

وأيضًا نشأ الموسيقي نشئة باهرة حيث كان في بلاطه جماعة كبيرة ممن اشتهروا في الموسيقي والتغني، تعطي لهم الرواتب من بيت المال. وكان دهلي وملتان مركزين هامين لفن الموسيقي (ولاسيَّما اللحن القوالي) وكان القوالي الشهير التركي عبد الله من أشهرهم. وكان ملتزمًا لشيخ بهاء الدين زكريًا ومريدًا له.

---

[١] هذا الديوان لأبي المجد بن مجدود بن آدم سنائي الغزنوي عُرف بالحكيم سنائي والسنائي الغزنوي. أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا المثنويات في إيران. تعد منظومته حديقة الحقيقة أول منظومة صوفية.

[٢] هذا الديوان لأفضل الدين بديل بن علي الخاقاني. من شعراء الأذربيجانية في القرن الثاني عشر الميلادي، مشهور بصعوبة أشعاره وخفاء معانيها وأغلب منظوماته من نوع القصائد، ولكنه نظم مثنوياً طويلاً أسماه تحفة العراقين وصف فيه حجه إلى مكة باللغة الفارسية. The Great Soviet Encyclopedia, ١٩٧٩

[٣] خمسة نظامي أو پنج گنج (وتعني الكنوز الخمسة) هي خمس منظومات للشاعر الفارسي نظامي الكنجي (ت. ٥٩٦ هـ)، وتعتبر أشهر آثاره. وهي: والمنظومات المثنوية الخمس هي: «مخزن الأسرار» الذي يتألف من ٢٢٨٨ بيتاً موزوناً على البحر السريع، وهو قطوف فكرية تحدث فيها الشاعر عن جوانب الحياة كافة وقدم أفكاراً جديدة وطرح أسرار المعرفة كما تلقاها في سنوات عزلته وتأملاته، أما الخاتمة فكانت في الزهد والعرفان. ألفها نحو سنة ٥٦١ هـ. «خسرو وشيرين» – في ستة آلاف وخمسمئة بيت في بحر الهزج. ألفها سنة ٥٧١ هـ. «ليلى والمجنون» في أربعة آلاف وسبعمئة بيت كتبها في أقل من أربعة أشهر على بحر الهزج، ومضمونها عشق المجنون قيس من قبيلة بني عامر لليلى بنت سعد من القبيلة نفسها. ألفها سنة ٥٨٤ هـ. «إسكندر نامه» فتشتمل على كتابي «شرف نامه» وفيه نحو ستة آلاف وثمانمئة بيت، و«إقبال نامه» (خردنامه) وفيه نحو ثلاثة آلاف وسبعمئة بيت وجميعها منظومة على البحر المتقارب. ألفها سنة ٥٨٧ هـ. «هفت بيكر» أو «سبعة أجساد» أو «سبع قبب» على البحر الخفيف في خمسة آلاف بيت، وتتحدث عن بهرام الساساني الخامس المشهور بـ «بهرام كور». ألفها سنة ٥٩٥ هـ. تاريخ الأدب في إيران من السعدي إلى الفردوسي – إدوارد – ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي – ١٩٥٤ م – ص ٥٠٧.

[4] (S.M. Jafar: Some Cultural Aspects of Muslim Rule in India P 147P، وسيد صباح الدين ص ٤٧٣).

وكان السلطان كيقباد[١] مولعًا بصفة خاصة لفن الرقص والغناء والطرب. ويقول عبد القادر بدايوني: إن في عهده كان فن الموسيقي قد حاز أهمية فائقة بين الناس. وهم شرعوا لدرسه بولع وشغف بما رأوا فيه من حماية السلطان كما أشاد خسرو في كتابه قرآن السعدين محافل السلطان الموسيقية ومجالسه الغنائية[٢]. وهو الذي بني الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي، وكانت لا نظير لها في البلاد على قول ابن بطوطة[٣].

وكان كثير الخيرات اشتهر بجوده وكرمه ورخص الأسعار في عهده. وقد أشاده بعض من أدركها[٤] في الهند.

وكان للخلجيين[٥] شهرة فائقة في السياسة والحرب، والتحق كثير منهم بخدمة ملوك غزني وخوارزمشاهي وتيمور الأولين، ومن هؤلاء الجند غلب قسم منهم على المنصور في بلاد ميونستان بقيادة رئيسهم ملك خان الخلجي، كما بلغ الكثيرون منهم أعلى المناصب في الهند. منهم محمد بن بختيار الخلجي الذي فتح بهارونودية وبنغال، وملك حسام الدين العوفي الخلجي الذي حكم لكهنوتي اثني عشر عام بعد ملك علاء الدين علي مردان خلجي، وجلال الدين فيروز الآتي ذكره، ومحمود الخلجي رأس الأسرة الخلجية في مالوه (١٤٣٦ - ١٥٣١م.

---

[١] معز الدين كيقباذ بن بغرا خان بن بَلَبَن عاشر سلاطين مماليك الهند في سلطنة دلهي، حكم كيقباذ دلهي في الفترة (١٢٨٧ - ١٢٩٠). كان نجل بغرا خان، وكذلك حفيد غياث الدين بَلَبَن ألغ خان (١٢٦٦-١٢٨٧).

[٢] سيد صباح الدين، هندستان كي عهد وسطي كي إيك جهلك ص ٤٥٥-٤٦٥.

[٣] ابن بطوطة، ٢ / ٢٥.

[٤] نفس المصدر، ٢ / ٢٥.

[٥] وكانت هذه القبيلة تعيش منذ القرن الرابع الهجري في القسم الجنوبي من أفغانستان الحديثة بين سجستان والهند. ويعتقد بعض العلماء أن قبيلة الغلزائي التي تتكلم الأفغانية في الوقت الحاضر وتقطن الوديان العليا لترنك وأرغنداب وأفرغاب هي سلالة الخلج الترك، اصطبغوا بالصبغة الأفغانية، ويؤيد ذلك أن دماء تركية كثيرة قد سلطت دماء الغلزائي، وهم يدعون أيضًا أنهم انحدروا من صلب الترك. دائرة المعارف الإسلامية.

وكان للخلجيين شهرة فائقة فى السياسة والحرب، والتحق كثير منهم بخدمة ملوك الغورية والغزنوية والخوارزمشاهية وتيمور الأولين، ومن هؤلاء الجنود غلب قسم منهم على المنصور بقيادة رئيسهم ملك خان الخلجي، كما بلغ الكثيرون منهم أعلى المناصب فى الهند. منهم محمد بن بختيار الخلجي[١] الذى فتح بهارونودية وبنغال، والملك غياث الدين عوض الخلجي[٢] الذى حكم لكهنوتى اثني عشر عام بعد الملك علاء الدين علي مردان الخلجي[٣]، وجلال الدين فيروز سيأتي ذكره، ومحمود الخلجي رأس الأسرة الخلجية فى مالوه (١٤٣٦ - ١٥٣١م[٤].

وقد لعب الخلجيون دوراً هامًّا في سياسة البلاد وإدارة شئونها وفتوحه، ولا سيَّما في عهد بَلْبن وأخلافه.

وقد جاء في دائرة المعارف الهندية: أن الخلجيين قد حفظوا لغتهم التركية يتكلمون بها إلى القرن العاشر الميلادي.

ويدعي الأستاذ صاحب اللؤلؤ مستنبطًا في قاموسه الذي وضعه للغات الأقوام الذين يعيشون في غرب نهر السند: « أن الأفاغن ينتمون في الأصل إلى جنس تركي أو المغولي وأنهم الآن متشكلون من الأجناس المختلفة المختلطة أي من قاطني أويغور والقبلية

---

[١] هو الملك الغازي اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي قائد تركي مسلم في القرن الثاني عشر قام، كان أحد قادة جيش قطب الدين أيبك في شمال شرق الهند. قام محمد الخلجي بتأسيس الدولة الخلجية في بيهار عام ١١٩٣، ثم وسع دولته لتضم البنغال، مخضعاً حاكمها لكسمانا سنا.
Arnold، Sir Thomas Walker (1896). The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith. 227–228.

[٢] هو كان غياث الدين عوض الخلجي (المعروف أيضاً باسم حسام الدين عوض الخلجي) حاكم البنغال في ١٢٠٨–١٢١٠ ومرة أخرى في ١٢١٢–١٢٢٧.

[٣] قام علي مردان الخلجي بإسقاط غياث الدين عِواج الخلجي ووصف نفسه بأنه سلطان البنغال المستقل في عام ١٢١٠.

[٤] دائرة المعارف الإسلامية ولأبى لال: تاريخ الخلج ١٦، طبقات ناصرى ١٤٣ و ٥٣٩. ولين بول ميدل إنديا ص ٩١. Ell....... Tabakat Nasime P 48

التركية والقبائل المختلطة من الفرس والهند الذين كانوا يعيشون في الأقطار الشرقية لهندوكش والنقطة العليا للسند.

الأسرة الخلجية

لقد أجمع المؤرخون قديمًا وحديثًا أن الخلجيين[١] ينتمون إلى جنس تركي، استوطنوا منذ قديم أفغانستان فتأفغنوا بمر الزمان في الرسوم والعادات، فاشتهروا بالخلجيين أو الأفغان والبتان (Phathan)، حتى استفحل أمرهم وعظم شأنهم فاستغلوا الفرصة السانحة من ضعف الأسرة البلبنية وقبضوا زمام السلطة في دهلي[٢]. وقد استمر عهدهم ثلاثين سنة حكم فيها ستة من أمرائهم. وكان أولهم جلال الدين فيروز حكم من سنة ٦٨٩هـ ١٢٩٠ إلى سنة ٦٩٥ - ١٢٩٥م الذي كان من قوَّاد الجنود في حكومة كيقباد، تولىَّ زمام السلطة بعد قتل كيقباد المريض، في مؤامرة بعد اختطاف ابنه الصغير شمس الدين ثم قتله، الذي كان أمراء الأتراك نادوا به إمبراطورًا بعد أن عارضوا جلال الدين بسبب عدم انتمائه للبيت الحاكمة[٣]. وكان من

[١] وقد حكم فرع منهم في مالوه متأخرًا، وكان مؤسسه محمود خلجي بن ملك مغيث من نفس القبيلة ومن سلالة ناصر الدين أكبر إخوة جلال الدين فيروز وهو تولى السلطة عام ١٤٣٦م بعد خلع غزنين خان (محمد شاه) حفيد دلاور خان رأس الأسرة الغورية فيها وهو فتح كجرات وجتور وخانديش وكهرالة وألدكن ودهلي وجوثبور، خلفه بعد موته في ٣٠ مايو عام ١٤٦٩م أكبر أبناءه غياث الدين ثم ابنه الأكبر ناصر الدين، وبعد ناصر الدين خلفه ابنه الثالث الملقب بمحمود الثاني آخر أمراء البيت الذي بمقتله انقضت الأسرة الخلجية في مالوه. دائرة المعارف الإسلامية: مادة خلجي.

[٢] وكان أسرة لودي التي أسسها بهلول والتي حكمت دهلي في عام ١٤٥١ إلى ١٥٢٦م إحدى بطون الخلج (نفس المرجع).

[٣] ولو أن الشعب والأمراء من الأتراك قد عارضوا في بادئ الأمر لحكمه بسبب عدم انتمائه بالدم للبيت المالكة وثاروا عليه بقيادة علي خان كسره وججو عم بَلَبَن ومدعي عرشه، ولكنه استطاع أن يرغمهم وعدة ثورات أخرى بالمصالحة والهوادة. وكان فيروز قد عيَّن علاء الدين صهره وابن أخيه حاكم كسرا الذي أغار منها إلى دواجيري Devagiri في دكن نكران لشنه الغارة بلااذنه. وبهذا اندفع جلال الدين أن يزور بنفسه ابن أخيه برغم منعه مشاورره فلاقا في كسره في ١٩ يوليو ١٢٩٦م، ولكنه طعن بسكين بأمر علاء الدين في مؤامرة رتب عليه في شاطئ كنجه نودي بعده بعلاء الدين إمبراطورا (دائرة المعارف الإسلامية، مادة: فيروزشاه خلجي.

قبـل حاكـم سـامانة فأحضـره كيقبـاد بعـد أن قضـى لأمـر وزيـره نظـام الديـن مسـمومًا وعيَّنـه وزيـره، ولكـن سـرعان مـا اتشـعبت الحالـة بمـا عارضـه أمـراء التـرك الحاكمـة، أتاحـت الفرصـة لـجلال الديـن قبـض زمـام السـلطة فـي دهلـي الـذي أعلـن نفسـه إمبراطـورًا فـي ١٣ يونيـة ١٢٩٠م وهـو ابـن سـبعين، فأسسـت بـه الأسـرة الخلجيـة المعروفـة فـي دهلـي علـى أنقـاض السلسـلة المملوكيـة التـي أسسـت بقطـب الديـن آيبـك وانتهـت بمـوت كيقبـاد. وكان عهدهـم عهـدًا جديـرًا بالذكـر والتقدير.

ويقـول ك. س لال (Kishori Saran Lal) تمـت مراجعتـه الـذي وضـع مؤلفـة مستقلة فـي تاريـخ الخلجييـن: ولـو أن عهدهـم كان قصيـر المـدة، ولكـن كان لهـم أثـر بالـغ فـي تاريـخ الهنـد الإسلامـى، حيـث أن بقبضهـم زمـام السـلطة والحكومـة بتدبيـر سياسـي غيَّـروا مصيـر البـلاد تغيـرًا كليًّـا. وبهـم ظهـرت أسـرة جديـدة فـي الصحـن مـن عامـة الشـعب يشـكل أساسـها العناصـر غيـر المالكـة المنبتـة بطبقـة الأشـراف. وكان عهدهـم عهـد فتـوح وسـيعة. وهـم تغلغلـوا يحملـون أسـلحة المسـلمين إلـى أقصـى نقـاط البـلاد لأول مـرة. وهـم أسَّسـوا إمبراطوريـة عظيمـة بعـد أن أقهـروا عـدة ملـوك مسـتقلين فـي داخـل البـلاد، واسـتطاعوا الدفـاع عنهـا بـرد غـزوات العـدو مـن المغـول (المكـررة) وهـو يسـتطرد قـائلاً: لـو لا مـاكان هنـاك تدابيـر علاء الديـن الشـديدة العاجلـة كادت البـلاد أن تسـقط بيـد المغـول قبـل مائتـي سـنة، الأمـر الـذي تـم بيـد بابـر بعدهـا فـي النهايـة. وكان إصلاحـات علاء الديـن الخلجـي تجـارب جديـدة بنفسـها بالنظـر للحالات التي كانت تسود في القرون الوسطى لبلاد الهند.

وكان جلال الديـن فيـروز رأس الأسـرة الثانـي عشـر مـن ملـوك دهلـي ملـكًا هـادئ الطبـع وكريـم النفـس لا يعلـم التشـدد والظلـم والاسـتبداد

في الحكم، سوى أن يعفو المجرمين والثوار وغيرهم ممن التجئوا للفساد والفتنة مهما كبرت جرائمهم وتفاقمت ثوراتهم، كما عفي كشلي خان الذي ثار عليه وألف نفر من قطاع الطريق وغيرهم وأجزلهم بالاقطاعات. ولا يعني ذلك أنه كان يهمل مصلحة البلاد ودفاعه تذهب ضحية حكمه وهدوء طبعه ضحيا. لا، بل كان يعمل على أصل رحماء بينهم أشدَّاء على الكفار، كما أنه بالرغم من حلمه ولين مزاجه في وقت السلم أبرز جسارة جديرة في صد غارات المغول التي شنَّوها بأمر هولاكو بجيش عظيم بالغ المتشكل من مائة ألف محارب، وهم اضطروا إلى الانسحاب من صعيد الهند بعد أن انهزموا من يده واختار كثير منهم التوطن في مملكته وقبلو الإسلام، فسماهم الناس المسلمون الجدد، وهم استوطنوا في موضع غياث نور وكيند ربات وكيلوكهري وتلوكه قرب ضريح الشيخ نظام الدين أولياء، فسميت «فعل بوره». وكان رئيسهم ألغون خان بنير جنكيزخان، جاء بأربعة آلاف من العائلة، وهو دسَّ الشيخ سيدي مولا تحت أقدام الفيل لما شك وشعر منه من مؤامرة ضده.

وكان جلال الدين محبًّا لرعاية العلماء والأدباء وحماية العلم والفن والأدب، وكان نفسه أديبًا وشاعرًا، أنشد الشعر في الفارسية. وكان طائفة كبيرة من العلماء والأدباء من ندباء بلاطه كالأمير خسرو وتاج الدين العراقي وخواجه حسن السنجري والمؤيد جاجرمي ومؤيد ديوانه والأمير أرسلان كلامي واختيار الدين الباغي، وباقي خطيب وغيرهم من فحول العلماء والأدباء والمؤرخين في عهده. وهو عين بعضهم بمناصب عالية.

ولا سيَّما كان هو يقدر منزلة أمير خسرو وقد ولاه بإدارة كتبخانه الشاهية في دهلي بعد توليه العرش. وكان من قبل معتمد المصحف

عنده حيثما كان عارض الممالك، وهو خلعه بالزي الأبيض والمنطقة الخاصتان لأمراء الكبار.

وقد انسلك لبلاطه الموسيقيون ذائعوا الصيت كحميد راجه وأمير خاصة ومحمد شاه جبكي وفتوخان ومضير خان وبهروز وغيرهم[١].

وهو اهتم للتقدم العمراني في مملكته فأكمل قصر معز الدين كيقباد الذي كان شرع بناءه ولم يكمل، فزخرفها بالنقوش المنحوتة وأحدث بستانًا كبيرًا في شاطئ جمته، وهو اتخذ كيلوخري عاصمته التي بناها من جديد بإنشاء مساجد وأسواق فاخرة وحصون عالية من الحجر الجص، فسمَّاها شهرنو التي اشتهرت متأخرًا بدهلي جديدة، خربت مدينة دهلي القديمة[٢].

وكان علاء الدين خلجي كقائد عام لجلال الدين خلجي، وهو أول من فتح بيجابور من ملوك يادافا[٣]. وكانت عاصمتهم نحو قرن وزيادة إلى ص ٥٣٨-٦٩٤هـ = ١١٩٠-١٢٩٤م[٤].

علاء الدين محمد الخلجي

ومن أشهر ملوك الأسرة الخلجية وأكبرها كان علاء الدين محمد الخلجي ابن أخي جلال الدين فيروز وصهره، نادى بنفسه إمبراطورًا بعد أن قتل عمَّه جلال الدين عام ٦٩٥هـ ١٢٩٦م، وألقى ابن عمه في السجن[٥]. وقبل توليه السلطة كان هو فائقة بشن حملات على دكن

[١] تاريخ فرشته، ١٥٦/١. طبقات الكبرى، ص ٦١. وتاريخ ملت، ص ١٩٥.

[٢] تاريخ فرشته، ١٥٢/١. لال، ص١٩.

[٣] ادافا كانوا شعبا هنديا قديما يعتقد أنه ينحدر من يادو، وهو ملك أسطوري لسلالة تشاندرافامشا. تم تشكيل المجتمع من عشائر مختلفة، وهي أبهيرا وأنداكا وفريشني وساتفاتاس، الذين كانوا جميعا يعبدون كريشنا. تم إدراجها في الأدب الهندي القديم كأجزاء من سلالة يادو (يادوفامشا)

[٤] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: بيجابور.

[٥] ترجمة جلال الدين فيروز.

وديودجري (دولت آباد الحالية) وورنكل وأندوراً ودواراسام وغيرها من المقاطعات الهامة، وصد غارات المغول المكررة، التي لا يزالون يشنونها على بنجاب للسلب والنهب[١].

وكان علاء الدين إمبراطورًا جريئًا وطمَّاعًا ذا شجاعة متجاسرة، وهو فتح بلاد وسيعة ودمر المعبد الهندي الكبير في معبر Ma bar، وكان يذكر اسمه في الخطبات الإسكندر الثاني، كما نقش في سكوكه. يقول فيه ليتجابون أنه كان أكبر السلاطين والملوك الذين حكمو دهلي.

وكان فكر في وضع مشروع لفتح العالم على خطة الإسكندر المقدوني، كما كان يقول «إني سأزحف بجيش وأفتح العالم بأسرها كما فعل إسكندر. وكان أيضًا يفكر مشروعًا في وضع مذهب جديد[٢].

استمر حكمه عشرين سنة وسَّع في غضونها رقعات مملكته في الهند أقصى توسيع، واستطاع فتح بلاد الهند بأسرها، فأمتدت حدودها من السند إلى بنغال، ومن همالايا إلى جبل ويندهيا (Vindhia) الأمر الذي قضى على مقاومة أمراء الهند ومعارضتهم قضاءًا نهائيًّا، وجعل حكم المسلمين في البلاد راسخًا وثابتًا لا يمكن لهم أن يستأصلوهم أو يخرجوهم من البلاد منهزمين ومتكاسرين.

وكان من أكبر السياسية إحداثه لأول مرة في دولة الإسلام دولة علمانية لا يعترف فيها نفوذ العلماء ورجال الدين[٣]، والمجتمع

---

[١] دائرة معار الإسلامية، مادة: علاء الدين خلجي.

[٢] ولكن عمه القاضي علاء الملك أيقظه من أحلامه الضالة، وذكَّره بأن النبوة قد انتهى زمانها، ورده إلى جادة الصواب، فعاد إليه عقله، وانتبه من غفلته.

[٣] وفيه نظر.

يساوي أفراده لا فضل للأشراف على الأوساط والأدنى، ولا فضل فيها للحسب والنسب، والتي حرَّرت عوام الناس من استبداد واضطهاد الطبقات العليا وضمنت الرفاه لأفراد الشعب، كما أنفذ إصلاحات بالغة الأثر انقلابية في حقول الاقتصاد والمال والاجتماع وغيرها التي أشادها المؤرِّخون[١].

حتى نستطيع أن نقول أنه كان أول إمبراطور قام بإقدام جرئ وجديد في الحكم، فأخذ يحكم مملكته بنظام شبيه للدكتاتورية في عصرنا الحاضر[٢]، وكان ذلك بأخذ التدابير الشديدة الحاسمة لتدبير شئون المملكة وسياستها ضد المؤامرة والمغامرة السياسية والمساوئ الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تجري حوله والتي تهدد كيان المملكة بخطر الانهيار والاضمحلال[٣]. فأخذ أول ما أخذ من التدابير لتنظيم الشئون المالية والضرائب وأسعار السلع بكل أنواعها، وكان يراقب ويفتش الأسعار في الأسواق أشد مراقبة، لا تزيد ولا تنقص فلسًا واحدًا في طول عهده. فرأى مصادرة أملاك الوقف للمؤسسات الدينية والخيرية الإسعافية، وكذا الإقطاع التي أعطيت من قبل أسلافه من الملك لقوَّاد الجنود والأمراء وغيرهم، ووضع الضرائب والإتاوات الثقيلة على رعاياه، ولا سيَّما الهنود منهم خير مصلحة للدولة، كما وضع الإتاوات على أنواع الحيوانات، كان شديد المحاسبة على جائبي المكوس والضرائب وعمالها لا يفرق فيها بين عامل مسلم أو هندي. وهو صفى وأذاب الرأسمالية والثورات

---

[١] سيد معين الحق: السلطنة الدهلية ص ١١٧.

[٢] وكان الناس لايتكلمون حينما يبثون شكوكهم فيما بينهم جهرًا إلا بهمس أو إشارة خوفًا من الجواسيس، وكان الأمراء والأشراف لا يجلسون في البلاط قريبا من آخر ولا يتقاربون رؤوسهم لآخر. من المؤلف.

[٣] وكان لكل شخص أن يعمل بكد ومشقة لكسب معيشته لكي لا يسخ لأحد مجال أو فرصة لفكرة الثورة والبغاوة على حكمه. السياسة التي ماتزال روسيا تتبعها في القرن العشرين في بلادها ومستملكاتها. من المؤلف.

الذاتية التي وجدت في عهده بشكل ملاكي الأراضي والإقطاع، والأمراء والتجار والموظفين إذابة كاملة حتى ما ترك عندهم طفيف من النقد.

وهو وضع أقوى نظام للتجسس أشبه، بل أشد من أصول ستالين أو هتلر الجاسوسية. فعين جواسيس يتجسسون كل بيت وكل فرد وكل حقل من حقول الحياة يطلعونه من الأمور كبيرها وضئيلها، وهو قام بقمع المساوئ الاجتماعية فحرم الخمر كليًّا، فجعل نفسه أول من كسر كؤوس الخمر وأراقها في باب بدايونى، فأغلق دكاكين الخمر ولا يأذن لأحد صنعها حتى في بيته، وذلك أيضًا لحوائجه الشخصية في حالة اضطرارية، وهو منع كذلك الاجتماعات العامة والزيارة إلى بيوت الأشراف والملاقات بينهم منعا كليًّا، لم يستثن منها عقد المراسم للزواج إلا بإذن خاص من السلطان.

ولما احتج عالم بأن هذا التدابير مغايرة للشريعة إلا في السلوك مع الهنود، أجاب علاء الدين أنه يستهدي من الاقتضاءآت أكثر مما يستهدي عن الشريعة؛ لأن السياسة لا يمكن نبطها وتدبيرها بتعاليم الشريعة والأحاديث فحسب[١].

ولو أن علاء الدين كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكن ما زال عهده عهد نشاط علمي وأدبي وفني كبير، عاش في ظل حمايته طائفة كثيرة من العلماء والأدباء والفضلاء، وهو اهتم خاصة للشئون العمرانية والثقافية في مملكته، فبنى عدة مساجد، وعمر القديم منها.

وأيضًا بنى مينارات وحصون وقلاع وحفر أحواضًا وخزائن للمياه. وكان بعض آثاره العمرانية لا مثيل لها في عصره في الظرافة والفخامة.

---

[١] ضياء الدين، تاريخ فيروزي.

وهـو بنى بلـدة سيرى الجميلـة، ووسـع مسـجد قـوة الإسلام التـي كانـت مـن بنـاء قطـب الديـن آيبـك، وأضـاف لهـا فنـاء آخـر وأنشـأ قبـة أخـرى لقطـب مينـار وجـدد تغليـق الطبقـات لهـا، وهـو شـرع بنـاء مينـاء آخـر ولكـن لـم يكمـل. وهـو أنشـأ قصـر هزريتـون دامـي ذات ألـف عمـود، كمـا أنشـأ بابـا فخمـا يسـمى «علائـي دروازه» لقطـب منـار، وهـو يعـد مـن أروع الأبـواب المزخرفـة بالأحجـار الكريمـة ومـن آيـات الهندسـة الإسلاميـة فـي الروعـة والإتقـان. ومـن آثـاره أيضًـا حـوض خـاص أو «حـوض علائي» الذي يعد من أشهر الآثار الهندسة الإسلامية في الهند.

وبنـى ابنـه خضـر خـان الـذي كان مريـدًا لنظـام الديـن أوليـاء مسـجد جماعـت خانـة وضريحـه فجـاءت آيـة رائعـة مـن الفـن المعمـاري الإسلامي خالصا من الأثر الهندي[١].

[١] وباول براس ص ١٤٤. C.H.I Vol 3 P
سلطنة أف دهلى لسيد معين الحق ص ١١٥
S.M. Jafar: Some Aspects of Muslim Rule in India PP 98-99, The Crescent in India P 87.

دولة المماليك التركية في الهند

الدولة التغلقية

وهذه الدولة التركية التي حكمت الهند بعاصمتها دهلي نحو قرن أي من سنة ١٣٢٠ إلى سنة ١٤١٣م بعد الخلجيين والتي لعبت دوراً هامًّا في تاريخها، ينتمي إلى قبيلة قارايون التركية التي على قول ابن بطوطة كانت تقطن بين السغد والتركستان.

وكان مؤسسها غازي ملك غياث الدين تغلق شاه الذي ينسب إليه اسم الأسرة من أب تركي وأم جاتية من البنجاب، وقيل أن أباه كان مملوك بلبن. وكان غازي ملك قبيل ما نودي به إمبراطورًا حاكم الثغور الشمالية الغربية، وهو أبرز هناك كفاآت جريئة في صد غزوات المغول المكررة، فأصبح يتدرج حتى بلغ منصب غازي ملك.

ولما شغبت الحالة بعد موت قطب الدين الخلجي؛ هرع إلى دهلي من ابنه الذي التجأ إليه هربًا من بلاط ناصر الدين خسروشاه؛ فنودي به إمبراطورًا باسم غياث الدين تغلق شاه سنة ١٣٢٠م. وكان ذلك بعد هزيمة ناصر الدين خسروشاه وقتله.

وكان خسروشاه هذا وزيرًا لسلطان قطب الدين مباركشاه آخر سلاطين الخلجية، وكان هو قبض السلطة غصبًا بمؤامرة سياسية دبَّرها بعد موت مباركشاه، الأمر الذي أدَّى إلى معارضة الناس

وشغب الحالة وتوجيه الناس الدعوة إلى ملك غازى، واسترضى الناس.

وقد حاز غياث الدين تغلق شاه الشهرة بكونه ملكًا عادلاً ومدبرًا، استطاع أن يجمع شمل البلاد بحسن تدبيره، فعظم شأن الدولة وازدهرت في عهده في الناحية العمرانية كما ازدهر النشاط العلمي والأدبي من جديد. وهو أول من أحدث راتبًا تقاعديًّا لرجال العلم والأدب في دولة الإسلام، وكان ذلك بتعيينه لأول مرة راتبًا تقاعديًّا للشاعر الأمير خسرو الذي ظل متعاقدًا من الشغل في عهده بسبب كبر سنه.

وقال الأمير خسرو بوصفه:

أنه ما عمل إلا لتكميل العلم والعقل وكان كأن له تحت قلنسوته مائة حمامة

وهو مات أو قتل من قبل ابنه محمد بن تغلق سنة ١٣٢٥م حينما كان في طريقه إلى دهلي راجعًا من غزو بنغال، وكان ذلك في قبة هيئت لاستقباله التي سقطت عليه فجأة[١].

محمد بن تغلق

وقد جاء في صبح الأعشى:

«وهو أعظم ملوك الأرض شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، وبرًا وبحرًا، وسهلاً وقفرًا، وأن سمته في بلاده (الإسكندر الثاني) ويستحق أن يسمى بذلك ويوسم به لاتساع بلاده وكثرة أعداءه وغزر إمداده؛ وشرف منابت أرضه، ووفور معادنه وما تنبت أرضه، ويخرج بحره

[١] ضياء الدين، تاريخ فيروزي، ص ٤١٩.

ويجبي إليه، ويرد من التجار.

وعسكر هذا السلطان نحو تسعمائة ألف فارس، وعنده زهاء ألفي فيل يقاتل عليها خلق من العبيد تقاتل رجالة مع سنة الملك والمال وكثرة الدخل والمال وشرف النفس والأباء مع الاتضاع للعلماء والصلحاء وكثرة الإنفاق وعميم الإطلاع. وكان أيضًا حاذقًا في الطب وماهراً في معالجة أمراض مختلفة، ومعاملة الله تعالى بالصدقة وإخراج الكفاية للمرتزقة بمرتبات دائمة وإدرارات متصلة.. ألخ[١].

وفي حين أن محمد بن طغلق شاه قد قوي سلطانه، وكثرت عساكره أخذ في فتوح معظم الهند، كان ترك آخر باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون يحكم الديار المصرية[٢].

وكان يعطي العطاء الجزيل ويصل بالأموال الجمة. وقد حكي في جزيل عطائه أن شخصًا قدم له كتبًا، فحثي له حثية من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون ألف مثقال من الذهب، الأمر الذي يشعر مدى حبه العلم. وأيضًا حكي أن شخص قدم اثنتين وعشرين حبة من البطيخ الأصفر حملها إليها من بخارى، فأمر له بثلاثة آلاف مثقال من الذهب[٣].

وكان محمد بن تغلق من أكبر سلاطين الهند وأشهرهم فتحًا ونظمًا، وهو الثاني من الأسرة التغلقية، حكم بلاد الهند برمتها بعد أن فتح الأقطار الوسيعة منها. تبوأ على سرير الملك في دهلي خلفًا لأبيه غياث الدين تغلق سنة ١٣٢٥م باسم سلطان المجاهد محمد بن تغلق، وكان أصل اسمه «فخر مالك جونه خان، أولوغ خان».

---

[١] (صبح الأعشى، ٨/ ٣٧٢.

[٢] (صبح الأعشى، ٥/ ٨٩.

[٣] (صبح الأعشى، ٥/ ٩٠.

وهو حكم البلاد ستة وعشرين سنة بنظام سياسي ومالي جديد ابتكره بنفسه، واستطاع به أن يجمع شمل البلاد مرغما الثورات والمؤمرات التي شبت ضده في أكناف مملكته والناس يعارضون لإصلاحاته السياسية والمالية ومشروعاته الانقلابية.

وكان محمد بن تغلق ملكًا جريئًا على جانب دهاءه عالمًا متبحرًا في شتى العلوم والفنون والأدب. له درس وإلمام عميق في ثقافة عهده، ولا سيَّما كان ماهراً في الفلسفة والحساب والأدب الفارسي والعربي وفروعها الكلية. وكان نجم الفيلسوف سعد المنطقي ومولانا عليم الدين من أساتذته في الفلسفة والمعقولات.

وكان أديبًا شاعرًا ومقررًا فصيحًا وماهراً في الإنشاد والإنشاء. وعلى ذلك كان مفكرًا كبيرًا له أفكار عالية وتطورية بها أن يحدث ثورة فكرية في دولة الإسلام. وهو سعى أن يغير أصول الحكم فيها وينهضها من الجمود إلى الجدة، ومن الركود التعصبي إلى اليقظة العلمية والحركة التقدمية، بيد أن أفكاره الانقلابية كانت غريبة لزمانه وبيئته البدائية لا تليق لشرائطه وحالاته.

وكان محمد بن تغلق الإمبراطور الثالث في الشرق الذي نشر عملة من النحاس محل السكك الذهبية والفضية شبيهة لعملة ورقية، دامت متداولة ثلاثة سنوات ثم سقط اعتبارها بسبب كثرة تزييفها. وكان أولهم قوبلاي خان الذي نشر عملة ورقية في الصين لأول مرة، والثاني غازان خان الإيلخاني الذي نشرها في بلاد إيران. وكذلك كان هو أول إمبراطور وضع مشروعًا عظيمًا لغزو خراسان والصين من مركزه في الهند، المشروع الذي ما فكره أحد من سلاطينها من قبل. فزحف جيشه متجهًا إلى همالايا، ولكن الحالات الطقسية وغيرها لم تتح لهم أن يتقدَّموا إلى الأمام لما وراء الجبال فرجعوا

يائسين، ففشل في مشروعه لفتح الصين أيضًا.

وقد بلغ عدد المستشفيات في دهلي في عهده إلى ستة عشر والمساجد إلى ألفين، وكذلك كثرت الخانقاوات والحمامات والآبار إلى درجة لا تحد بحصر وكان له ألف ومائتا طبيب[١]. وألف مملوك برسم تعليم الغناء خاصة وألف شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوي الذوق الطيب.

ومن مشروعاته الانقلابية كانت إنشاء عاصمة جديدة في دوجر تسمى دولت آباد ونقل نفوس دهلي لها، ففشل في مشروعه هذا أيضًا بسبب ظهور القحط في أرجاء البلاد.

وما عاق محمد بن تغلق شغله للغزوات ودفع الثورات وإنفاذ مشروعاته الانقلابية من أن يشجع النشاط العلمي والعلماء والشعراء أحسن تشجيع. عاش في بلاطه وفي حمايته طائفة كبيرة منهم. وكان بدر جاج ومير حسن الدهلوي وعبيد شاه من أكبر شعراء بلاطه. وكان ضياء الدين برني مؤرخ عهده وسراج الدين أبو الفتح عمرو صاحب «سالك الأبصار» الجوال الشهير الإسلامي المراكشي من كبار المؤرخين الذين عاشوا في بلاطه[٢].

زار ابن بطوطة بلاطه سنة ١٣٣٣م فوجدها خير منزل لخير نزيل، فعاش عنده تسعة سنوات، وهو تزوج بنت جلال الدين من أمراء تغلق. قدر محمد بن تغلق منزلته فجعله قاضي دهلي ثم عينه سفيرًا لبلاط المغول في الصين. كما حصر ابن بطوطة قسما كبيرًا من كتاب رحلته لحالات محمد بن تغلق وتاريخه الذي يسند إليه اليوم كمرجع وحيد له بعد ضياء الدين برنى.

---

[١] صبح الأعشى، ٩٨/٧.

[٢] تاريخ ملت، ص ٢٤٥.

وقد اهتم في عهده بإنشاء المدارس والكليات والمكاتب بلغت عددها في نفس دهلي إلى ألف مكتبة ومدرسة، تدرس فيها العلوم الدينية والأدب الفارسي والعربي، كما سامح لدرس العلوم الهندية وإنشاء المدارس لهم. وكان بنارس في عهده أكبر مركز نشاط علمي لطلاب الهنود، وكان فيها عدد كبير من المكاتب والمدارس تدرس فيها العلوم الهندية.

وهو مات في تهته سنة ١٣٥١م وهو يشغل لقهر ثورة ملك طاغي في السند خلفه هناك ابن عمه فيروزشاه.

وحسبك دليلاً على مدى تأثير عهده لنشاط العلمي أن خان أعظم تتارخان من أمراءه وربيبه كان أميرًا ذا شجاعة ولباقة عسكرية وعالمًا جمع ودرس تفاسيرة كثيرة للقرآن، فوضع تفسيرًا يسمى «تفسير تاتارخاني» بمساعدة طائفة من علماء التفسير وأيضًا مجموعة من الفتاوى تسمى «فتاوى تاتارخانية» قررها مرجعًا يفتي بها في حل المسائل الشرعية وفصلها في أكناف بلاده[١].

ويكفي أن نعلم مدى انتاجات هذه المصانع ومدى ازدهار الصنائع في عهده، أن محمد بن تغلق كان يوزع للأمراء والمشايخ والعلماء وغيرهم مائة ألف خلعة في الربيع ومائة ألف أخرى في الخريف، وحين دخل الشتاء، والأقمشة الحريرية التي تصنع فيها هذه الخلعات كان تورد من الصين والعراق والإسكندرية أن تكون من منتجات دهلي. وكان المصانع الذاتية الملكية المختصة لعمل التذهيب ولتنحيت يبلغ عددها خمسمائة[٢].

وحسبنا أيضًا أن نعلم الدبدبة الملكية والحشمة، وازدهار البيئة

---

[١] عفيف، تاريخ فيروزشاهي، ص ١١٠-١١١.

[٢] تاريخ ملت ٢٤٧.

الثقافية في بلاطه أن الأطباء الذين اشتغلوا فيه بلغ عددهم إلى ألف ومائتين والصيادين عشرة آلاف، وقد بلغ عدد الندماء والصحبة والمغنين والمغنيات إلى ألف ومائتين وألف غلام مهرة في فن الموسيقي والرقص وغيرها.

وقد التزم إلى بلاطه ألف من الشعراء في اللغات العربية والفارسية والهندية يملك بعضهم اقطاعات كبيرة ويعطى لبعضهم رواتب تختلف بين عشرين ألف وأربعين ألف من التنكة[١].

وكان في كل يوم يمد الخوان في قصر السلطان ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات والملوك والامراء والأسفهارية وأعيان الهند. ويمد للسلطان خوان خاص، ويحضر معه من الفقهاء مائتا فقيه في الغداء والعشاء ليأكلوا معه ويبحثون بين يديه[٢].

وقال ابن بطوطة: أن هذا الملك (محمد بن تغلق) أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو أمير يقتل. وقد شهرت حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش بدوي الجنايات، وهو أشدُّ الناس مع ذلك تواضعًا وأكثرهم إظهارًا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها[٣].

وقد أصبح دهلي في عهده على قول ابن بطوطة مركزًا كبيرًا للنشاط العلمي ومجمع العلماء والفضلاء السارعين من الأقطار الشاسعة كالعراق وخراسان وماوراء النهر وتركستان والروم والعرب، احتشدوا فيها إلى درجة لم يسبق لها نظيرها من قبل، وقد أجلبهم

---

[١] صبح الأعشى، ٥ / ٩٥. فرشته، ج ١ حالات محمد تغلق.
[٢] صبح الأعشى، ٧/ ٩٥.
[٣] ابن بطوطة، ٢ / ٣٤.

إليها صيت شهرته بالسخاء والجود والكرم التي ذاع بها في أكناف بعيدة في الداخل والخارج.

وكان محمد بن تغلق يهتم لازدهار الصناعة أيضًا، فأنشأ في عهده عدة مصانع هامة في دهلي تصنع فيها الأموال الحريرية المنقشة بالذهب، وهي متداولة صنعها منذ ذلك حتى اليوم في دهلي. كما اهتم بتنظيم البريد الملكي يعمل في أرجاء البلاد الوسيعة بأحسن كفاية وتنسيق. وهو نسق النظم الإدارية من جديد.

وهو أنشأ طائفة كبيرة من الأبنية الفخمة ولا سيَّما في مقاطعة دهلي، منها دار السري في دهلي وقصر معزريتون وبلدة عادل آباد التي أنشأها قريبا من فتلق آباد من أبناء أبيه، وبلدة جهانبناه قريبة من قطب منار ومسجد قوة الإسلام. وأيضًا مسجد سمبهال وهو عمر من جديد «شمس جديد» في بدايون التي كانت من بناء ركن الدين شمس الدين ألتُتْمش. ملكًا عادلاً كريم النفس، ومتمسكًا لأصول الدين ومجتنبًا من القَتل بغير الحق وعلى جانب ذلك ومولانا جلال الدين رومي الذي كان رئيس المدرسين في مدرسة فيروزشاهى، ومولانا عالم بن العلاء الإندربتي[١] الذي شارك في ترتيب فتاوى تاتارخانية، ومولانا خواجكي[٢] ومولانا أحمد تهانيسَري[٣] والقاضي

---

[١] هو مولانا فريد الدين عالم بن العلاء الحنفي الاندربتي أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية. له الفتاوي التاتارخانية في الفقه المسمى بزاد السفر، صنفه في سنة سبع وسبعين وسبعمائة للأمير الكبير تاتار خان وسماه باسمه، وكان فيروز شاه يريد أن يسميه باسمه فلم يقبله لصداقة كانت بينه وبين تاتار خان. توفي سنة ست وثمانين وسبعمائة. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ٢/ ١٦٩.

[٢] هو الشيخ الصالح الفقيه يعقوب بن خواجكي العلوي الفتني الكجراتي أحد الرجال المعروفين بالفضل والصلاح، أخذ الطريقة عن الشيخ زين الدين داود ابن حسين الشيرازي، وكان عالماً كبيراً صاحب وجد وحالة، واستفاد من الشيخ رجب النهر والي أيضاً، ويذكر له كشوف وكرامات. مات في الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة ثمانمائة بنهرواله. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٣] هو العلامة أحمد بن محمد تهانيسرى، العالم الصوفي، والفقيه، والأديب البارز، ولد في الهند وتوفي سنة ٨٢٥. نزهة الخواطر، ٣/٤.

٢.صديق حسن خان، ابجد العلوم، ٣، ص٢٢٠.

عبد المقتدر الذي كان عالمًا وشاعرًا، وقد ذاع صيته العجم، وملك أحمد بن الأمير خسرو ومولانا مظهر الكسروي والقاضي عابد وغيرهم[١] الذين كانوا من فحول ذلك العصر.

فيروزشاه تغلق ابن ملك رجب غياث الدين تغلق. أمه بنت رانامال بهتي من «أبوهر» هو الثالث من الملوك التغلقية، نادى به أمراء الدولة إمبراطورًا بعد موت محمد بن تغلق في قرب تهته في ٢٠ مارس ١٣٥١م وهو شاغل لدفع الثورات هناك بعد تصفية المغول المهاجمين بنواحيها، وهو ساق بجيشه إلى دهلي فقبضها من الوزير أحمد أياز خواجه جهان الذي كان قد أجلس في سرير الملك ابن محمد بن تغلق الموهوم معتمدًا لنبأ جاء به له في قتل فيروز تغلق في معركة شبت بينه وبين المغول في السند.

وهو مات بعد أن حكم أربعين سنة في سبتمبر ١٣٨٨م وهو ابن ثمانين، خلف التغلق الثاني حفيده من ابنه الأكبر فتح خان، الذي قضى على إمبراطوريته حملات تيمور.

غزى فيروزشاه تغلق في مدة حكمه بنغال مرتين، مرة في سنة ١٣٥٣م ومرة أخرى في سنة ١٣٥٩م وأوريسه ونكاركوت سنة ١٣٦١م وتهته عام ١٣٦٢م.

وكان فيروز شاه تغلق عالمًا وأديبًا وشغوفًا للعلم كأبيه محمد بن تغلق ومتذوقًا للتاريخ. وهو ترك لنا مؤلفة صغيرة يبحث فيها من أعماله ومآثره في حقول الحكم والعدل والشئون العمرانية والثقافية وغيرها. وكان يكرم منزلة العلماء ويقدرهم بالحماية. وقد جمع في

---

٣. ميرغلام علي آزاد بلگرامي، سبحةالمرجان، ١، ص٣٨. ونزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر، ٤/٣.

[١] تاريخ ملت، ١٠/ ٢٨٥.

بلاطه طائفة كبيرة من فحول العلماء والفضلاء والأدباء كضياء الدين برني وسراج عفيف المؤرخان الشهيران، والمظهر الأديب الشاعر الهندي. وتاتارخان الذي كان عالمًا ومفسرًا وفقيهًا. وقد عاش في عهده شيخ الإسلام قطب الدين الأوشي[١] وشيخ الإسلام علاء الدين وشيخ الإسلام فريد الدين أجود هاني وكان يحترمهما بالإكرام والتعظيم. ومن المدارس التي أنشأها فيروز شاه مدرسة «قدم شريف» كانت ومدرسة فيروز شاهي مدرسة من أشهرها، يقول برني بشأن مدرسة فيروز شاهي إنها كانت مدرسة لا نظير لها من ناحية التعليم وإتقان عمارتها. وكانت مدرسة عظيمة أنشأت على حديقة وسيعة وفيها حوض كبير، وكان طائفة كبيرة من العلماء والفضلاء يدرسون فيها ألوف من الطلبة وأيضًا أنشأت فيها دارًا للخيرات لإسعاف المساكين والغرباء ودار الإقامة للزائرين[٢].

فاكتفى لأخذ الشعر من الأراضي المزروعة والخمس من المنتجات المعدنية والدخل من الصدقة والزكوة[٣] وأيضًا تقديم التحائف من قبل عماله واذا جاؤوا بها يقدر قيمتها وتخفض على قدرها من إتاواته السنوية التي يؤديها رسميًّا على حسب العادة[٤]. وكان هو اهتم أن يهيأ الأشراف والوظائف لمن كان عاطلاً وليس له شغل شاغل من الأدباء والتجار والصناع والعمال وغيرهم، فكان يستطلع أحوالهم عن حرص لرفاههم. قلّما وجد من ليس له شغل

[١] هو شيخ الاسلام قطب الدين بختيار الأوشي الشيخ الإمام العارف الكبير الزاهد المجاهد قطب الدين بن كمال الدين الكعكي الأوشي، كان من كبار الأولياء، ولد بأوش في حدود ما وراء النهر. وكان من الأولياء السالكين المرتاضين يقوم الليل ويصوم النهار ويشتغل بالذكر والفكر على الدوام فارغاً قلبه عن هواجس الخطرات زاهداً متورعاً عزباً يستمع الغناء ويتواجد ويستغرق في بحار المعارف حتى إنه توفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وكان عمره يوم وفاته خمسين سنة، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٢] تاريخ ملت، ١٠/ ٢٨١.

[٣] تاريخ ملت، ٥ / ٢٦٥.

[٤] تاريخ فيروزشاه، ص ٨٠.

يرسله بتوصية خاصة إلى المصلحات المتعلقة أو المصانع أو يوصيهم باستخدامهم إلى الأمراء والأغنياء[١]. كما أنشأ دارًا إسعافية باسم ديوان خرات التي كانت تساعد بالاسعاف الذين لهم بنات بالغة ولكن لا يستطيعون لزواجهم وشراء جهازهم[٢].

ومن إصلاحاته الاجتماعية[٣] أنه منع زيارة الضريحات والمزارات العادة التي كانت رائجة قبله، وتعرضهم الأوباش والمفسدين، وأيضًا منع استعمال الظروف من الذهب والفضة والثياب الحريرية والمنقة التصاور من قبل الرجال والأمراء[٤].

وكان فيروز شاه مولعًا بجمع المماليك واستخدامهم في حقول شتى من الأعمال الإدارية. وبلغ عدد المماليك الذين عملوا في بلاطه مائة ألف وثمانين ألف، واهتم بتعليمهم على حسب ميولهم فصار بعضهم حافظي القرآن، والبعض فقهاء والبعض الآخر ماهرين في الحديث أو علم الكلام أو الخطاطين والنسخ أو جنديين محافظين، أو

---

[١] شمس سراج، تاريخ فيروزشاه ص ٩٧.

[٢] شمس سراج، تاريخ فيروزشاه، ص ١٠٣.

[٣] إلغاء الأصول الشديدة غير الإنسانية في مجازات ذوي الجنايات كقطع اليد والرجل والأذن والأنف وسمل العين وكسر عظم اليد، إملاء الحلقوم بالرب المغوة والمذوبة، إحراق الجسم بالنار إدخال السلاح الحديدية إلى اليد والرجل وغيرها. أمره بذكر أسماء أسلافه من ملوك دهلي وسلاطينه في الخطبات والأعياد. إلغاء الإتاوات والضرائب غير الشرعية. توزيع الغنائم على أصول الشريعة أي أخذ الخمس منها إلى بيت المال وتوزيع البقية بين من غنموها، وكانت العادة قبله على خلاف ذلك. محو بدع الشيعة والملحدين الإباحين وبدعات أحمد بهادر المتنبي الذي دعي الألوهية في عهده، وأيضًا ركن الدين الذي دعي كوه مهديا الموعود، والشيخ حسن مهرو الولي الكذاب الذي ظهر في كجرات، وكان يقول في مجالس خاصة «أنا الحق» تلاميذه يقول «أنت الحق» ووضع كلامات. هو منع النساء الذين كانوا يخرجن في كل سنة زرافات ووحدانا على حسب العادة المتداولة لزيارات المزارات وتشتركن في مجالس الرقص هناك، وكن سببا للفسق والفجور بين الأوباشيين من الناس. هو منع الهنود من إنشاء المعابد والأصنام، ودمر ما أنشأها من جديد، فأنشأ محلها مساجد وقصبات للمسلمين. كما فعل ذلك في قرية مالوه Maluh وصالجور وكوهانه وغيرها فاحرق كسوتهم الدينية وأصنامهم والآلهة. كما منع الحليات وآلات الزينة والنطاق والسيوف المصنوعة من الذهب والفضة. ألغي رسم التصاوير الحيوية في الزيات والخلعات والروج التي كانت متداولة من قبل بين الأمراء والأغنياء والبلاط. كما منع استعمال الثياب الحريرية والمنقشة بالذهب.

[٤] تاريخ ملت، ٥/ ٢٦٥ ..

علموهم الصنعة والحرفة. وقد بلغ عدد ممن علموا الصنعة ١٢٠٠. وقد خصص إدارة خاصة لتنظيم شئونهم[١]. وقد بلغ بعضهم إلى أعلى المناصب والإقطاعات، وساعد لبعضهم أن يحجوا بيت الله. وكان هذا أيضًا من ابتكاره الذاتي لم يسبق لأحد من الملوك من قبل أن يجمع ويستخدم طائفة كبيرة من المماليك كعلاء الدين الخلجي الذي كان له خمسين ألفًا من المماليك في بلاطه[٢].

امتنع فيروز شاه من إدمان الخمر والصيد والشيخ ناصر الدين محمود، وكان مخلصًا ومعتقدًا لهما[٣].

وشجَّع فيروز شاه النشاط العلمي والثقافي. وكان ذلك بإقامته دارًا للترجمة والتأليف تساعده العلماء في وضع الكتب، ترجمت فيها كتب عربية من السكرتية في العروض والموسيقي وغيرها.

وكان عز الدين خالد ممن التزموا لهذه الدار، وهو ترجَّم كتابًا بالنظم في الحكمة والتفاؤل، سمي «دلائل فيروزشاهي»[٤]. وقد بلغ عدد الخانقاوات والمسافرخانات التي أنشأها في دهلي وفيروز آباد إلى مائة وعشرين.

ومن مآثره في نظم الإدارة أنه ألغى قوانين الضرائب والإتاواة الشديدة فجعلها وفقًا لأصول الشريعة، فتحسَّنت أحوال الناس كنتيجة لها، كثرت أموالهم ووفَّرت المحصولات الزراعية واستغنى الناس في حوائجهم الضرورية فعمَّ الرفاه والإتراف بينهم. وكان الناس من قبل لا يتاح لهم أن يملك إلا بقرًا، فملكوا بعدها نصيبًا

---

[١] نفس المصدر ٥/ ٢٦٨.
[٢] عفيف، تاريخ فيروزشاهي ص ٨٠.
[٣] تاريخ فيروز شاهى، ص ٢١. ودائرة المعارف الإسلامية، مادة: فيروزشاهى.
[٤] تاريخ فرشتة، ١٤٨/١.

وافـرًا مـن الخيـول والأمـوال والـغلات والآثاثـات الأجهـزة لبيوتهـم، وكـذا تكثَّـر الذهـب والفضـة، وملكـت النسـاء أوفـر نصيـب مـن الخلجات.

وأيضًـا مـن مآثـره أنـه كان قـد خصـص مـن بيـت المـال ثلاثـة ملاييـن وستمائة ألـف مـن التنكـة لنفقـة العلمـاء والفـضلاء وعشـرة ملاييـن لنفقـة الغربـاء والمسـاكين والفقـراء وغيرهـم. كمـا أنشـأ مستشـفى فـي دهلـي تهتـم لمعاجلـة المرضـاء مجانًـا، وتنفـق لهـا مـن بيـت المـال[١] ثلاثـة مليـون وسـتمائة ألـف تنكـة. كمـا أمـر أن يذكـر قبـل اسـمه فـي خطبـات الجمعـة والأعيـاد أسـماء أسلافـه مـن الملـوك العشـرة، وهـم سـلطان شـهاب الديـن محمـد وشـمس الديـن ألتُتْمـش وناصـر الديـن محمـود وغيـاث الديـن بلبـن وجلال الديـن فيـروز وعَلاء الديـن الخلجـي قطـب الديـن مباركشـاه وغيـاث الديـن تغلـق شـاه، وسـلطان محمـد تغلـق وفيروزشاه نفسه[٢].

وكان فيروزشـاه حريصًـا لحفـظ الآثـار القديمـة، وهـو أول ملـك فكـر، فاهتـم بترميـم عـدة ضريحـات التـي تعـد مـن الآثـار المعماريـة ذات روعـة وإتقـان. فمنهـا ضريـح معـز الديـن ومدرسـة سـلطان ألتُتْمـش وضريـح ركـن الديـن بـن سـلطان شـمس الديـن فـي ملـك بـور، وضَريـح سـلطان علاء الديـن، وضريـح سـلطان قطـب الديـن، وضريـح نظـام الديـن أوليـاء وغيرها من الضرايح والمدارس والمساجد والخانقاوات[٣].

ويكفـي لنـا أن نعلـم مـدى اهتمـام فيروزشـاه تغلـق لازدهـار العمرانـي والنشـاط الثقافـي فـي الإحصـاءات التاليـة. وقـد أنشـأ باهتمامـه فـي عهـده

---

[١] شمس سراج، تاريخ فيروز شاه ٢٤.

[٢] شمس سراج عفيف، تاريخ فيروز شاه، ص ٢٧.

[٣] فتوحت فيروز ص ٢٨. وتاريخ ملت ٢٧٧ وما بعدها.

فـي دهلـي وفيـروز آبـاد وغيرهمـا مـن البلـدان الهامـة ٥٠ سـدات، ٤٠ مساجد، ٣٠ أو ٥٠ مدارس فيها مساجد، أيضًا ١٢٠ خانقاه في دهلي وفيروز آباد، ١٠٠ قصور، ٥٠٠ مستشفيات، ١٠٠ ضريحات، ١٠ حمامات، ١٥٠ آبار، ١٠٠ جسور، ٢٠ رباطات، ٣٠ مدينة وقصبات، ٤٠ خوض، ١٠ منار، وعدد الحدائق وغيرها من الأشغال العامة لا تعد بحصر.

وكان فيروزشاه شغوفًا للابتكارات الجديدة. ومن ابتكاراته العجيبة كانت ساعة كبيرة تسمى طاس كهريال أي الساعة الطاسية، تعمل على سبعة طرق مختلفة، تحدد الساعات وتعلن أوقات الصلاة، وقد نصبت هذه الساعة في مقام علي في بلاط (كوشك فيروز آباد) وقد أعجب الناس من رؤيتها[١].

وكان في دولة ملك فيروز شاه ثلاثة وثلاثين من المصلحات أو المصانع الحكومية (كار خانه) يعمل فيها كل أنواع من اللوازمات الحكومية. وكان أهمها مصلحة الخيل والجمال والمطابخ والشمع وتبريد المياه، ومصانع العلم والخلعة والسجاجيد وغيرها التي تبلغ نفقاتها إلى ملايين من التنكة[٢].

ومن أعجب أعماله في حفظ الآثار القديمة كان أمره بقلع مينارتين كبيرتين القديمتين لآسوكا طول كل واحد فيهما ٣٢ ذراعًا، يعود تاريخهما إلى سنة ٣٢٠ قبل الميلاد وعهد بنداوا Pandavas احديهما من مقاطعة سالورا في حضر آباد والأخرى من مروت ونصبهما في فيروزآباد، إحديهما في قرب جامع مسجد والأخرى عند قصر كوشك شكار. وقد سمي الأولى بعد نصبهما مينارة رزين (المينارة

---

[١] تاريخ فيروز شاهي ص ٧٨.

[٢] شمس سراج عفيف، تاريخ فيروز شاهي، ص٩٨.

الذهبية) استخدم لحملها من موضعهما الأصلي إلى فيروز آباد ألوف من العمال والجنود وعربة كبيرة لها اثنان وأربعون عربة، وأيضًا عدد كبير من القابعات في نهر جمنه[١]. وقد أعجب تيمور برؤيتهما حينما زارهما بعد فتح دهلي سنة ٨٠١هـ ١٣٩٨م وقال أنه لم ير نظيرها في البلاد التي فتحها[٢].

وأيضًا حديقة الحيوان التي جمع فيها أعجب الأشياء والحيوانات، ومنها كان رجل صغير القامة تعد بطول ذراع، ولكن رأسه تساوي ثلاثة رؤوس، ورجلاً طويلاً يبلغ رأس أطول الإنسان إلى نطاقها وإمرئتان لهما لحية، ومعزي له ثلاثة أرجل يجري بها ويركض وغراب أسود له منقاد أحمر وبومي أبيض له منقاد أسود. وبقر له كعبه لكعب آنى، وعظم عجيبه نصف مجرة عثرت لها من حفر كتوف بين رستي وستلج وغيرها من الأشياء العجيبة والغريبة[٣].

وكان فيروز شاه على قول عفيف قد سبق لأسلافه من ملوك دهلي باهتمامه لإنشاء الأبنية الفخمة والمؤسسات الهامة، وهو أنشأ عددًا كبيرًا من البلدان والسدود والقلاع والقصور والمساجد والضرائح وغيرها. منهم كان حصار فيروز وفتح آباد وفيروز آباد وغيرها. وقد بلغ عدد الخانقاوات التي أنشأها في دهلي وفيروز آباد إلى ١٢٠ خانقة. وكان ملك غازي شحنه وعبدالحق جهير سندهر من أشهر المهندسين استخدمهما في إنشاء أبنيته، وقصوره وعماراته وهما كانا صاحبي Staff القضيب الذهبي[٤].

وكان له شغف كبير لإنشاء مدينة كبيرة أنشأها في شاطئ جمنه

---

[١] تاريخ فيروز شاهي، ص ٩١ ومابعدها.
[٢] المرجع السابق ص ٩٥.
[٣] تاريخ ملت، ١١/ ٢٨٦.
[٤] تاريخ فيروزشاهي، ص٩٦.

تسمى باسمه فيروز آباد، وهو أنشأ فيها ثمانية مساجد كبيرة يستطيع في كل واحد منها أن يصلي في وقت واحد عشرة آلاف من الناس وأيضًا جامع ومسجد ومدرسة وعدة ضريحات في حظير خاص التي كانت كلهن آيات الفن المعماري في الروعة والإتقان. ومن أعماله المعمارية الهامة قلعة عظيمة تسمى حصار فيروز وفي وسطها قصر فخم يقال بشأنه أنه إذا دخل أحد بغير علم جوانبه لا يستطيع أن يستهدي الطريق خارج القصر. وهو حفر نهرين من جمنه وستلج لريها فجعلها عاصمة ولايت هانسي ومتعقلقاتها[١].

وأيضًا بلدة فتح آباد وجونبور في قنوج التي كانت أول بلدة أنشأت فيها[٢] وكثير من القصور والحدائق العامة في دهلي وفيروز آباد وحصار فيروز وغيرها[٣]. وقد بلغ عدد الحدائق في أرجاء دهلي فحسب إلى ١٢٠٠ حديقة مختلفة الألوان والأشجار التي كان له شغف كبير لازدهارها[٤].

وأيضًا من آثار عهد تغلق المعمارية مسجد بيكم بوري التي بناها ابن ملك عقول والتي كانت من أورع الآثار المعمارية الإسلامية في ذلك العهد خالصة من الأثر الهندي المحلي وممثلة في السذاجة والأبهة القبة الصخرية في بيت المقدس[٥].

وعلى جانب ذلك أنه أنشأ طائفة كبيرة من الأبنية الفخمة لرفاه الناس من المساجد والمدارس والخانقاوات الكثيرة، رمَّم من جديد كثيرًا من المساجد والضرائح والخانقاوات وغيرها من المنشأة العامة،

---

[١] عفيف، تاريخ فيروزشاهي ص ٣٣.
[٢] عفيف، تاريخ فيروزشاهي ص ٤٣.
[٣] تاريخ ملتان، ٥ / ٢٧٦.
[٤] تاريخ فيروز شاهي، ص ٨٦.
[٥] لين بول، ص ١٧٢.

منها جامع مسجد دهلي من بناء سلطان معز الدين وضريحه ومنارة التي أنشأها، وحوض شمس من منشأة شمس الدين ألتُتْمش، وحوض علائي الذي أنشأها علاء الدين ومدرسة سلطان شَمس الدين وضريح السلطان معز الدين بن السلطان شمس الدين وضريح السلطان ركن الدين بن شمس الدين كلتاهما في ملك بور، وقصر جهان بناه من إنشاء السلطان محمد شاه وغيرها، وأيضًا أنشأ دار الشفاء تعالج فيها المرضاء مجانًا.

وهو شجَّع دعوة لهنود والكفار لقبول الإسلام، وكان ذلك بعفو الجزية منهم إذا قبلوا الإسلام، فدخل الهنود في دين الله أفواجًا بفضل هذا التشجيع[١].

ومن أكبر الأحداث في تاريخ الهند الإسلامي كان غزو تيمور الفاتح إلى الهند.

تيمور في الهند

وكان هذا عهد الانهيار الضعف في الدولة التغلقية، ونشب النزاع والفتن وحب الاستغلال بين أخلافه بعد موت فيروزشاه تغلق، فسنح الفرصة لتيمور فأغار بجيش عظيم جرَّار إلى بلاد الهند بعد أن فتح بلاد إيران وخراسان وأفغانستان. وكان مع جيشه حفيده مير محمد الذي استولى على ملتان في ربيع سنة ٨٠٠هـ ١٣٩٩م، اقتفاه تيمور ولحقه في شهر سبتمبر من تلك السنة، وهو زحف إلى دهلي بعد أن هزم الخواخار ورجبوتي بهاتيز في الطريق هو عبر نهري جمنه والدوآب في ديسمبر وانتظر حملة العدو في حصن باني بت (Pani

[١] (ملخصا من فتوحات فيروزشاه).

Pit) المشهورة[١].

وقد قيل: إن في نفس الوقت قتل مائة ألف من أسارى الهنود، وكان ذلك حينما أحس في نفسه من خيانتهم والغدر منهم.

وهو قبض دهلي بعد أن هزم ناصر الدين ومحمد اللذان قاتلا بقوة عظيمة متشكلة من عشرة آلاف خيول، أربعين ألف مشاة و ١٢٥٠ فيل بقيادة إقبال خان.

ومن المشهور أن جيش تيمور نهبوا دهلي وقتلوا أهاليه قتلاً عامًّا، ولكنه صان العلماء والسادات والصناع وأهل الحرف والمعماريين من النهب والقتل، وهو ذهب بهم إلى سمرقند واستخدمهم في إنشاء أبنيته الفخمة وآثارها النفيسة هناك.

وبالحق أن سمرقند يعود الفضل في أبهته وروعته الفتنة والمعمارية إلى هؤلاء الماهرين الذين جلبوا من الهند.

ولو أن حملات تيمور قد سبب الدمار والخراب والقتل في كل بلدة في الهند أغارها بجيشه الجرار، ولكن ما كان هذا غرضه الأساسي، وهو يقول في مذكراته أنه ما كان غرضه من هذه الحملات إلا الجهاد على الكفَّار الذين ما أمكن لملوك الهند المسلمين أن يصلحهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم.

حيث غادرها سنة ١٣٩٩م عن طريق مروتا وهردوار ووادي دون، ومنها أغار نكاركوت وحمبون ثم زحف إلى بنجاب، ومنها إلى سمرقند، وكان ذلك بعد أن عيَّن سيد حضرخان عامل بنجاب. وبعد فترة عاد محمود ووزيره إقبال خان إلى دهلي، وقد أخذ عاصمته في

[١] ابن العماد، شذرات الذهب، ٧/٢.

قنوح، والحال أن إقبال خان الذي كان قد قبض السلطة في دهلي قتل في معركة نشبت بينه وبين خضرخان في ديبالبور سنة ١٤٠٥م، ثم عاد محمود[١] إلى دهلي بمساعدة دولت خال لودي الذي كان قد قبض السلطة بعد إقبال خان، وقد حكم منذ ذلك مدة غير أنه كان آلة بيد دولت خان. وهو مات سنة ١٤١٣ وكان آخر ملوك التغلقية وبه قضي على حكمهم قضاءًا نهائيًّا فأخذ محلهم السادات ثم اللوديون الذين مهَّدوا الطريق في النهاية إلى بابر بادشاه مؤسس أسرة أخرى تركية الذي كان عهدها أكبر عهد إسلامي وأزهرها وأطولها بقاءًا.

وكانت السند من المقاطعات الهامة في شبه قارة الهند التي تغلغلت إليها منذ قديم العناصر التركية أيضًا، يعود تاريخ هذا التغلغل إلى القرن الخامس من الميلاد.

ويقول الرحال الصيني سونك يون Sung Yun الذي زار المملكة الصخارية سنة ٥١٨م أن الهياطلة التركية التي قامت بحكم مهم هنا قد شملت في حدود رقعته أربعون مملكة وهم تؤدون الخراج لهم، ومنها كانت مملكة ديه لو T’ieh Lo في الجنوب، وقد عرفها بان هي ديبال أو ديبول يولي الواقعة في شاطئ دلتا السند.

وقيل أيضًا: إن هناك بعض عناصر سندية، وهم جاؤوا أو توطنوا فيها منذ قديم، فضاعوا جنسيتهم وتصبَّغو بصبغة الأهالي المتشكلة من أجناس مختلفة. من أهم العناصر التي تغلغلت إلى السند وقامت حكومتهم فيها كانت الأسرة الأرغونية والترخانية، ولكن كان تغلغلهم هذا لم يكن أمرًا حديثًا لم يسبق، حيث أن شاه شجاع بيك رأس

[١] وكان ناصر الدين محمود هذا أخي همايون علاء الدين إسكندر شاه ناصر الدين محمد شاه غياث الدين تفلق الثاني حفيد فيروزشاه. وقد استمر حكم ناصر الدين محمود ١٨ سنة.

الأسـرة الأرغونيـة فـي السـند قبـل أن يسـتولى علـى مملكـة جـام فيـروز كانـت طائفـة كبيـرة مـن أمـراء التـرك قـد تغلغلـوا فـي مملكتـه وخدمـوا كعامليـن وحـكام وغيرهـم حيـث إننـا نـرى أن شـاه شـجاع بيـك لمـا أغـار إلـى سـيوي (سـيبى) للمـرة الأولـى صـادف هنـاك تركـي يسـمى السـلطان برولـي وكان حاكمًـا لتلـك المقاطعـة وهزمـه. وإنـا نسـمع بأسـماء كثيـر مـن أمـراء التـرك أثنـاء الغـزوات التـي شـنتها شـاه بيـك وغيـره فـي مقاطعـات مختلفـة فـي بلاد السـند وبهكـر وغيرهـا، وهـم كانوا قـد توطنوا هناك من قبل، وكانوا يعيشون كحكام وعاملين.

وقـد ذكـر أيضًـا أن شـاه بيـك لمـا فتـح بهكـر هـدم أبنيـة أهالـي التـرك فـي نواحـي بهكـر واسـتعمل لوازماتهـا العمرانيـة لبنـاء قلعـة بهكـر الجديـدة، الأمـر الـذي تـدل علـى أن العناصـر التركيـة كانـوا قـد توطنـوا وعاشوا هناك من قبل[١].

الأسرة الأرغونية والترخانية التركية في بلاد السند والهند

ومـن أهـم الأسـرة التركيـة التـي حكـم أولاً فـي بلاد كابـل ثـم في السـند قرابـة مائـة سـنة بعـد أن قضـي علـى سـلطة أسـرة المسـمة مـن فـروع الراجبوتييـن، ولعبـت دوراً هامًّـا فـي تاريخهمـا، كانـت الأسـرة الأرغونيـة الحاكمـة مـن ٩٢٧هـ ١٥٢١م إلـى ٩٦٢هـ ١٥٥٤، ثـم الترخانيـة اللتـان حكمتا قسما مستقلين وقسما خاضعين لبابر وأخلافه في دهلي[٢].

وكان مؤسـس الأسـرة الأرغونيـة الأميـر ذو النـون أرغـون بـن الأميـر حسـن المعـروف بالبصـري ينتمـي نسـبه إلـى أرغـون خـان ترخـان حفيـد

[١] سيد مير محمد بن سيد جلال تتوي، ترخان نامه (تاريخ سند در زمان ترخان وآرغون) ص ١٣-٢٢.
[٢] ترخان نامه، ص ٨٢.

هولاكو، وهو التزم أولاً السلطان أبا سعيد مرزا فعظم شأنه عنده بما أصدر من خدمات جليلة وأظهر من بسالة فائقة. ثم لحق أباه في هرات والتزم هناك السلطان يادكار ميرزا، وبعد مدة ذهب إلى سمرقند ولحق السلطان أحمد مرزا ثم عاد إلى خراسان، وهنا رحَّبه السلطان حسين مرزا الذي كان قد تولى سرير المملكة بعد موت يادكار مرزا فجعله أمير الأمراء وقائد جيشه وأعطاه حكومة غور وداور دفراه تقديرا لمنزلته في الشجاعة والقيادة العسكرية.

وفي سنة ٨٨٤هـ بدأ أمير ذون النون غارته على قبائل هزارة ونكدري التي واصلها ثلاثة أو أربعة سنوات فغلب عليهم في النهاية وقبض مملكتهم بأكملها. وعلى هذا الفتح أعطاه السطان حسين مرزا ممالك قندهار وفراه والغور وفوض له شئونها مستقلة، ثم بعد أن استقل ميرزا ذو النون بأمره في هذه البلاد وسع رقعة مملكته إلى مقاطعات شل كوث ومستونك (بلوجستان اليوم) ونواحيها. فعظم بهذا شأنه وتضاعفت قوته العسكرية، فأوجس هذا الأمر في نفس السلطان حسين مرزا وقلقًا على أخلافه، فطلبه إلى هرات فحضر ذو النون عنده بتحائف وهدايا جمة فاسترضاه بتأكيد ولائه له. وبعد سنة استجاز منه العودة إلى قندهار فأجازه بشفاعة من بديع الزمان مرزا[١] الذي كان رفيقًا له ويعتمد في ولائه وخلوصه. وكان في شبابه والذي لحقه بعده في قندهار.

ومن أبنائه ميرزا محمد مقيم خان بن مير ذو النون خان فتح كابل سنة ٩٠٨هـ من مرزا عبد الرزاق بن مرزا ألغ بك بن سعيد بن مرزا، وحكم فيها سنتين حتى جاء بابر سنة ٩١٠، وفتح كابل منها بلا مقاتلة، وقد فاجأه الموت في قندهار حينما رجع إلى قندهار مع شاه

[١] هو بديع الزمان التيموري، ابن حسين بايقارا. كان نيته أن يثور على أبيه.

بيك وانتزعها من ناصر الدين بن بابر.

عندما انهزم بيد أبيه وإخوته في معركة بلخ لأجل إعادتها، واتحد معه وقاوم بمساعدته على أبيه الذي شن عليه الحرب في بست وانهزم بيده في داوردي في هلمندر فراه وكان ذلك في سنة ٩٠٢هـ[١].

وهو قتل في معركة شنَّه محمد خان الشيباني في خراسان بجيش عظيم، وكان ذو النون قد جاء من قندهار لمساعدته.

ثم خلفه ابن شاه بيك في قندهار وهو الثاني من الأسرة الأرغونية ومؤسس الأسرة في بلاد السند التي حكم فيها مستقلاً. وهو أظهر ولائه أولاً لمحمد خان الشيباني، ثم بعد قتله إلى شاه إسماعيل الصفوي الثاني الذي لقيه في السجن حينما أراد الرجوع إلى قندهار بعد تأكيد ولائه، ولكنه استطاع أن يهرب من السجن وعاد إلى قندهار بعد قليل أي في سنة ٩١٣هـ. حمل بابر مرة ثانية عليها، وكانت حملته الأولى في سنة ٩١٠هـ التي انصرف من استيلائها بسبب المرض الذي عرض في أثناء الفتح وأيضًا بسبب الزلزلة التي وقعت فيها[٢]. وانسحب هو أخوه محمد مقيم خان إلى الشمال، وهنا هما أغارا إلى سيوي (سيبى) وفتح بور في السند وقبضاهما من السلطان بيرولي (أو برودلى) برلاس أمير تركي أخر بعد معركة شديدة، ثم زحفا إلى قندهار وانتزعاها من ناصر الدين بن بابر ولكن فاجع الموت محمد مقيم خان، ورجع شاه بيك إلى سيوي بعد أن عين ميرزا عيسى ترخان حاكمًا لها سنة ٩١٩هـ ١٥١٣م. ولكن زحف بابر مرة ثالثة في سنة ٩٢٢هـ ١٥١٥م على قندهار، فانسحب شاه بيك بعد أن تعهد لبابر تسلم قندهار في السنة التالية، وأخيرًا في سنة

---

[١] تاريخ معصومي، ص ١٣٩، وتزك بابر ص ٧٢ أردو.
[٢] تزك بابر ص ٢٠٣.

۹۲۳هـ ۱٥۱۷م تسلم شاه بيك مفاتيح قندهار إلى بابر، ومن هنا أخذ شاه بيك يوسع رقعته في السند ففتح تته من جام فيروز «أل السماوية» وأيضًا سيوستان وسكهر وبكهر كلها في السند وهو بنى قلعة فخمة هناك.

وهو مات في ۲۲ من شهر شعبان ۹۲٥هـ قرب نصربور حينما كان زاحفًا بجيشه لفتح كجرات. ذهب بجسده بعد سنة إلى مكة المكرمة ودفن هناك في جنة المعلى على حسب وصيته، وبنى على قبره ضريح فخم. وكان مدة حكمه خمسة عشر سنة.

خدماته للعلوم والثقافة:

وكان شاه بيك أميرًا عادلاً شديد التمسك بأهداب الدين، ظل يعمل على أصول المساوات، كان كريم النفس محبًّا متفقدًا لكل من رعاياه وجنوده، الأمر الذي كسب تعلقهم الشديد له. وكان يستمد في تدبير شئون المملكة من الرجال الذين لهم علم وتجربة كاملة في إدارة شئون الدولة.

أن الأمراء المجربون أمثال مرزا عيسى ترخان وعلي أرغون وزيبك ترخان ومرفاضل كلتاني وإبنه سلطان محمود خان ومير عليلكه أرغون وسلطان مقيم بيكلر وكيبك خان أرغون وأحمد ترخان وسلطان محمد كلهم من الأتراك كانوا من أشهر الأمراء وقوَّاد الجيش في عهده المساعدين له[١].

وعلى جانب ذلك كان شاه بيك عالمًا متبحرًا في علوم شتى، صحب خواجه عبد الله واستفاده منه كثيرًا وحضر مجالس العلم والأدب في هرات. وكان يحب العلماء ويداوم صحبتهم، وله عدة

[۱] اليوت، تلخيص ترخان نامه في مؤرخي السند ۲ ص ٥۲ ومابعدها.

شروح وحواش لعدة كتب هامة في النحو والحكمة وغيرها. منها شرح «عقائد النسفي» و«شرح للكافية»، «شرح المطلع» في المنطق وشرح «الفرائض» لمير سيد شريف وغيرها من الحواشي لعدة رسائل هامة[١].

وكان حدود مملكته في السند تمتد شرقًا إلى ملتان وشمالاً إلى سيوي (سيبى) وجنوبًا إلى جكه وغربًا إلى بحيرة العرب.

وهو أرغم قبائل دهاريجه وداهر ماجهي الذين كانوا ما يزالون ثائرين وباغين ولم يستطع أحد إرغامهم[٢].

ثم ميرزا شاه أرغون ولد سنة ٨٩٥هـ ١٤٩٠م الثالث من الأسرة الأرغونية خلف أباه شاه بيك في تلك السنة أي سنة ٩٢٨هـ. وتمكن على سرير المملكة في نصر بور الواقعة في تندو (الله يار اليوم). وهو عرض ولائه لبابر الذي كان قد فتح دهلي في تلك السنوات والذي كان مكث سنتين في كابل، وخطب الجمعة باسمه، وهو فتح تته مرة ثانية من جام فيروز الذي كان عصى عليه بعد موت شاه بيك، وهو هزم سلطان محمود شاه ومقاطعات لايكه وملتان، وقبض منه ملتان وبهكر فعرضهما لبابر ولاء له.

وهو مات سنة ٩٦١هـ في بهكر، دفن في معكي أمانة وبعد مدة سنتين نقل جسده إلى مكة المكرمة فدفن بجوار أبيه. وكان مدة حكمه في السند ٣٢ بعاصمته تته[٣].

وكان شاه حسين أرغون شغوفًا لتحصيل العلم وإكساب الكمالات العلمية منذ صغره. وكان عالمًا بارعًا في علم المنقولات، يحب

---

[١] تحفة الكرام، مير على شير قانع، ٣ / ٥٧. وتاريخ معصومي، ١٧٥. وتاريخ فرشته، ٢ ص ٣٢٠.
[٢] لب تاريخ السند، ص ٦٥.
[٣] ترخان نامه، ص٤٣.

العلماء والفضلاء ويكرم السادات ويستفيض منهم. وكان شاعرًا ينشد الشعر في اللغة الفارسية ويتخلص بسباهي أي «جندي» وثم أصابه مرض الفالج في آخر عهده حتى مات بهذا المرض في ١٢ ربيع الأول ١٥٥٤م وهو قرابة ٦٦ سنة من العمر بعد ثلاثة أشهر[١].

وقد ازدهرت تته في عهده بنشاط علمي وثقافي كبير أنشأت فيها المدارس وأقيمت دار الكتب الكبيرة. وعاشت طائفة كبيرة من فحول العلماء والأدباء والشعراء والفضلاء. وكان شاه حسين يكرمهم ويقدر منزلتهم ويراجع لهم في حل الأمور المعضلة طبقًا للشريعة الغرَّاء، وكان يسعفهم براتبات معينة حسب براعتهم، وهي الأسرة الصغيرة التركية التي حكمت برئيسها السلطان محمود في بهكر وماتيلة في السند.

السلطان محمود كَكُلتاش: خرج جده الأعلى مير أحمد أصفهان بعد إغارة تيمور ولحق مير حسن بطريق أبي ذو النون أرغون فخدم ابنه مير فاضل كوكلتاش أفراد الأسرة الأرغونية الترخانية. وكان سلطان محمود خان مؤسس الأسرة في بهكر أجرأهم وأشجعهم من أبنائه الخمسة[٢].

وهو رافق شاه بيك في فتوحه في السند، وهو في ١٤ من عمره ثم عيَّنه شاه بيك حاكم بهكر بعد فتحها التي حفظها محمود إلى عهد شاه حسن أرغون وبعد وفاته سنة ٩٦٢هـ قسم مملكته هو ميرزا عيسى ترخان فيما بينهم (كما سبق) واستقلَّ محمود بهكر وماتيله وحواليها[٣].

---

[١] تحفة الكرام، ٣ / ٦٥. ومير محمد معصوم بهكري، تاريخ معصومي ص ٢٦٨.

[٢] تاريخ معصومي، ص ٢١٨.

[٣] تاريخ معصومي فارس ص ٢١٩.

ومن العلماء والسادات الذين عاشوا في عهدة سلطان محمود في بكهر كان أشهرهم شاه قطب الدين محمود الهروي أخذ منصب شيخ الإسلام مدة في عهد شاه حسن ميرزا، ومير سيد الصفائي الترمذي[١] أصله من بخارى صار شيخ الإسلام بعد شاه قطب الدين والشيخ مير الغورماني وكان عالمًا وماهراً في الموسيقي توفي ٩٨٠هـ في الهند.

ومولانا عبد المفتي الملتاني والقاضي داود فتح الموري، تولى منصب القضاء في أوائل حكومة سلطان محمود توفي ٩٨١هـ في بهكر.

ومير محمود لوراني وكان من السادات توطئ في بهكر في عهده وأبو المكارم بن مير غياث الدين محمد السنبرواري، وكان عالمًا وشاعرًا ومن ندماء مرزا شاه حسن والسلطان محمود بعثه سفيرا لبلاط شاه طمهماسب في العراق في زمنه خطاب سلطاني.

مير محمد يونس أرغون، وكان في الأوائل من ملتزمي همايون ومحمد زمان مرزا ثم التزم ميرزا شاه حسن والسلطان محمود خان كان شاعرًا في اللغات الفارسية والتركية توفي ٩٨٥هـ، ومولانا يار محمد الهراتي، وهو من علماء هرات وكان شاعرًا وماهراً في فن الإنشاء بعثه السلطان محمود سفيرًا إلى بلاط أكبر. وأمير شاه قاسم بيكلر بن أبوبك بيك بن جوجك بك وهو ابن أخي مؤيد بيكلر السمرقندي.

---

[١] هو الشيخ العالم الفقيه السيد صفائي بن مرتضى الحسيني الترمذي المنتسب إلى شير قلندر بن بابا حسن أبدال القندهاري، كان من العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، ولي مشيخة الإسلام بمدينة بهكر من أرض السند، ولاه محمود شاه السندي، ورزق أولاداً صالحين، أشهرهم محمد معصوم صاحب تاريخ السند، توفي في شهر ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وتسعمائة. نزهة الخواطر، ٣٥٦/٤.

ومخدوم القاضي عثمان دربيله ومخدوم عباس هنكورجه ومولانا إبراهيم بن جلال الدين معنى، ومولانا قاسم ديوان وغيرهم الذين كانوا مراتبهم في العلم والفضل، وأشهرهم كان مير محمود المعروف بشيخ ميرك البوراني الذي جاء من قندهار إلى السند والتزم بلاط ميرزا شاه حسن أرغون[١]، وكان عالمًا بارعًا ومن كبار السادات، وقد تولى مدة مشيخة الإسلام في عهده، وأيضًا شيخ الإسلام علي الشيرازي، والشيخ مير محمد وشاه قطب الدين الخراساني، ومولانا يونس السمرقندي الذي كان من أساتذه، قرأ عنده «شرح المواقف» وغيره، توفي سنة ٩٦١هـ، وغيرهم من العلماء والأدباء الذين يتجاوز عددهم ثلاثين[٢].

ومن أعماله: إنشاء جسر كبير قرب تته لمسجد الإمبراطور همايون في طريقه إلى قندهار يسمى بـ«الطريق المستقيم» يحصل منه على حساب الأبجد تاريخ إنشائها[٣]. وفي عهده اضطر همايون إلى الالتجاء في السند وأقام هناك ثلاثة سنوات، ثم مرَّ من هنا إلى قندهار.

كوكلتاش محمود خان

(الأسرة الكوكلتاشية في بهكر)

وبعد وفاة السلطان شاه حسن الغازي سنة ٩٦٢هـ قسمت مملكته بين ميرزا عيسى ترخان والسلطان محمود خان كوكلتاش، وذلك بموجب اتفاقي خصوصي تم بينهما قبيل وفاة شاه حسن، فوقعت

[١] ترخان نامه، ص ٢٧.
[٢] تاريخ معصومي ص ٢٧١ ومابعدها.
[٣] اليوت ترخان نامه، ص ١٣٦.

مقاطعة بكهر الممتد حدودها إلى جبل لكس وما تحصيله بنصيب سلطان كوكلتاش، والحال أن المقاطعة الواقعة بين جبل لكس (الكعلوى) إلى ضفة بحيرة العرب جاءت تحت حكم ميرزا عيسى ترخان. وكان السلطان محمود خان كوكلتاش بن مير فاضل كوكلتاش بن عادل بن أحمد من أتراك أصفهان، وأمه من قبيلة كاشي الأفغانية المستوطنة في شال ومنتوك (كوتيه)، وكان أميرًا شجاعًا ذات شغوف لتلاوة القرآن وهو ختمه ألف مرة، وعنده كرامة نفس ومتواضع ومتدين. وقد أشاد مؤرخو عهده أحسن عهد عاش فيه الرعايا والجنود بأكبر السعادة والرفاه، ازدهرت بكهر فيه ازدهارًا أكبر عمرانيًّا وثقافيًّا. وهو أغار عدة مرات على أسرة لانكاه الحاكمة لملتان وقبائل دهداريجة وداهر وناهر والبلوج وغيرهم ففتحهم وأرغمهم للطاعة[١].

ولما أنه ما كان له وارث سوى ابنته التي كانت زوجة أكبر فلذلك طلبه في آخر عمره أن يعين واليًّا لبكهر بعده. وهو ولد سنة ٨٩٨ هـ، وتوفي في سنة ٩٨٢هـ ١٥٧٤م. والوالي كبو خان في طريقه إلى بكهر من قبل أكبر[٢].

وقد حكم بكهر بعده نحو خمسين من الأوامر (النوابين) في عهد كل من أكبر وجهانكير وشاهجهان وغيرهم من الأسرة التيمورية. وكان منهم طائفة كبيرة من أمراء الأتراك، كان أشهرهم ترسو خان ونواب إسماعيل قلي خان، ونواب بغرا بيك ونواب ميرزا علي محمد بيك، ونواب شاه تكين خان وميرزا التفات بك[٣].

---

[١] لب تاريخ السند ص ٧٢.

[٢] لب تاريخ السند ص ٧٣.

[٣] لب تاريخ سند، ص ٧٣ ومابعدها.

وكان ميرزا عيسى ترخان أميرًا ذات خصائل حميدة وقد أبلغ سعيه نشر الإسلام وترويجه في رقعته، وكان مخلصًا للسادات والمشايخ والصلحاء، ومحبًّا للعلماء والفضلاء، وهو اهتم لرفاه رعاياه وجنوده وعدل بالإنصاف[١].

غازي بيك

وكان غازي بيك أميرًا شابًّا جريئًا ومقدامًا تبنَّاه جهانكير تقديرًا لشجاعته، وأعطاه منصب ١٣ ألف قندهار وأضافها إلى ولاية تته[٢]. وقد قرر رواتب معينة للأدباء والشعراء والمدرسين في بلدان نائية مثل إيران وغيرها، وكان يرسلها لهم منظمًا في كل سنة[٣].

الأسرة الترخانية

وكان رئيس هذه الأسرة مرزا عيسى ترخان بن مرزا عبد العلي ترخان مرزا عبد الخالق ترخان التركماني الأصل[٤]، وكان من كبار أمراء شاه بيك. تبوأ على سرير الحكومة بدعوة من أمراء الدولة بعد شاه حسن أرغون سنة ٩٦٢هـ وقسم مملكته بينه وبين السلطان محمود كوكلتاش صاحب بكهر كما ذكر سابقًا. وكان مدة حكمه ١٨ سنة، وهو مات سنة ٩٨٠هـ ١٥٧٢م[٥].

خلفه ابنه الثاني مرزا محمد باقي ترخان الذي ثار على أبيه أولاً ثم عفي عنه، وهو استبد ولم يرض الشعب من حكمه، وقد أصابته الجنون في آخر عمره، وهو حكم ١٣ (وقيل ١٧ سنة) سنة ومات سنة

---

[١] ترخان نامه، ٤٥.
[٢] ترخان نامه، ص ٩٠.
[٣] ترخان نامه، ٩١.
[٤] وعلى قول ترخان نامه ص ٤٤ ينتمي نسبه إلى جنكيزخان وهو أيضًا من أولاد أرغون خان.
[٥] وفي ترخان نامه سنة ٩٧٤هـ ومدة حكمه ١٤ سنة ص ٥٠.

۹۹۳هـ ۱٥۸٥م انتحارًا. قام بالحكم بعده حفيده مرزا جاني بيك بن بابنده بيك، وكان مدة حكمه ثمانية سنوات، وهو خضع بعده لأكبر بعد أن انهزم بيد عبد الرحيم خان، فحكم بعده عامل أكبر وصاحب منصب خمسة آلاف، توفي سنة ۱۰۰۹هـ. ثم تولى الأمر ابنه غازي بيك وهو ابن ۱۷ سنة مات مسمومًا أو قتل بيد غلام في قندهار سنة ۱۰۲۱هـ وهو ابن سبعة وعشرين سنة، فجاء بجثته إلى مكلي في تته ودفن في جوار أبيه. وكان هو آخر أمراء الترخانية.

وقد عمل غازي بيك على خلاف أبيه لاسترضاء شعبه ورفاه البلاد ورخائاه، وكان غازي بيك هذا أميرًا زاهدًا وجوادًا ومتصوفًا ومحبًّا للعلماء والسادات والمشايخ مخصلا لهم، وعالمًا أديبًا شاعرًا، نشد شعرًا جيدًا، ويتخلص بـ «قارى» وله ديوان الأشعار[۱]. وكان طائفة من الشعراء والأدباء قد اجتمعوا حوله في قندهار وتوران التي صارت في عهد حكومته مركز نشاط علمي وأدبي على مثال بلاط الملوك ومنهم: طالب أملي[۲] الذي يدين في صيت شهرته كشاعر وأديب إلى بلاطه. وملا مرشد مر.......... وشمس وملا أسد القصاص وملا رشيد ومير نعمت الله. وله ديوان الشعر يسمى »ساقي نامه« تشمل خمسة آلاف من الأشعار وغيرهم. وكان هو وأبوه يحبان الموسيقي حبًّا شديداً، الأمر الذي كان عاملاً لازدهار هذا الفن في عهدهما ازدهارًا باهرًا[۳].

ضريح ميرزا عيسى ترخان في مكلي[٤] يعد من أكبر الضرائح روعةً

---

[۱] سيد مير محمد بن جلال، ترخان نامه ص ۸٥.

[۲] طالب آملي (۱٥۸۰ – ۱٦۲٦ هـ) هو من أدباء وشعراء.

[۳] لب تاريخ سند، ص ۸۰ ومابعدها. جنة السند ص ٤١٤.

[٤] مقابر مكلي هي واحدة من أكبر المواقع الجنائزية في العالم، موزعة على مساحة ۱۰ كيلومترات مربعة بالقرب من مدينة تته، في مقاطعة السند الباكستانية. يضم الموقع ما يقرب من ٥۰۰۰۰۰ إلى ۱ مليون مقبرة بنيت على مدار ٤۰۰ عام.[۲] تتميز مقابر مكلي بالعديد من المعالم الجنائزية الضخمة التي تنتمي إلى الملوك والعديد من الأولياء الصوفيين والعلماء المحترمين. تم إدراج الموقع كموقع تراث عالمي لليونسكو في عام ۱۹۸۱ باعتباره «شهادة بارزة» على حضارة السندي بين القرنين الرابع عشر

وإتقانًـا. اسـتغرق إنشـاءه ١٨ سـنة، وهـو مـات قبـل إتمامـه وأكملـت فـي عهـد شـاه حسـان، زخرفـت بالخطـوط الجميلـة وآيـات القـرآن الكريـم والأحجـار الكريمـة الحمـراء، طبـع رسـمه الحكومـة الباكسـتانية الإسلامية في عملتها ذات عشرة روبية ذكرى له.

وأيضًـا ضريـح مـرزا جانـي بيـك وطغـرل بيـك وضريـح مـرزا باقـي بيـك أزبـك، وضريـح جـان وغـازي بيـك وغيرهـا التـي تعـد مـن آيـات الفـن المعمـاري روعـةً وإتقانًـا، والتـي تـدل علـى مـدى ازدهـار تتـه كأكبـر مركـز علمـي وثقافـي ومـدى سـعادة أهاليهـا فـي ذلـك العهـد، تجلـت بهـا بـدور كتبهـا العظيمـة ومدارسـها وجوامعهـا الكبيـرة والكثيـرة، ومصانعهـا العديـدة التـي أنشـئت فـي عهـد كل مـن الأرغونييـن الترخانييـن والأمـراء التيموريـة والتي استمرت إلى حملة نادر شاه الإيراني.

وقـد عـاش ظـل رعايتهـم وفـي عهـد كل مـن ميـرزا عيسـى ترخـان وميـر أسد محمد باقي طائفة من فحول العلماء في ذلك العصر.

وهـم: ميـرك عبـد الباقـي، وميـرك عبـد الرحمـن بـن الشـيخ ميـرك لوراني. وكـان ميـرك عبـد الباقـي عالمًـا متصوفًـا ووحيـد عصـره فـي العلـوم والفنـون وكـان ماهـراً فـي علـم النصـوص خاصـة، وكان الثانـي عالمًـا متبحـرًا فـي علـم الهيئـة والحكمـة وماهـراً فـي علـوم شـتى ومجمـع الفضائـل والكمـالات. وهـو أحـدث أشـكالاً جديـدةً فـي إقليـدس. توفـي الأول ٩٨٣هـ وشهد ميرك عبد الرحمن سنة٩٩١هـ.

وميـان سـيد علـي، كان مـن سـادات شـيراز، وكان متصوفًـا شـغوفًا لمحفـل السـماع يعقـده فـي شـكل، ولا يمتنـع بمنـع القضـاة والمفتييـن. وكان سـخيًّا جـوادًا. قيـل فـي تاريـخ وفاتـه: «فـات الحاتـم بجـوده». ومولانـا

والثامن عشر.

عبد الرحمن[١] ومولانا عبد الخالق كيلاني[٢] ومولانا يوسف، ومخدوم فضل الله، والقاضي شيخ أحمد الكاشاني وغيرهم الذين كانوا كلهم من فحول العلماء في ذلك العصر[٣].

وملا محب علي السمرقندي السندي البرهانبوري ولد ٩٨٢هـ في السند من أب سمرقندي. كان عالمًا كبيرًا وشاعرًا ومتصوفًا. عاش وتعلم في آخر عهد الترخانيين في السند وهو ابن ١٧ أو ١٨ سنة من العمر ثم رافق عبد الرحيم خاني الذي أكرم مقامه حينما سخر تهته وأرغم جاني بيك لأكبر إلى برهانبور، تبحر واشتغل بالتدريس والتصوف حتى مات هناك سنة ١٠٥٥هـ وهو ابن ٧٢ سنة في عهد شاه جهان[٤].

وعلى جانب طائفة كبيرة من الأمراء الذين حكموا في السند في عهد كل من الأرغونيين والترخانيين والأسرة التيمورية وخاصة في عهد أكبر، كان هناك طائفة جمة من الأمراء الأتراك الذين كانوا لهم مقام مرموق في تاريخ السند السياسي والثقافي. ومنهم ومن الأرغونيين:

مير فرخ أرغون الذي خدم شاه بيك وشاه حسن، وكان أميرًا شجيعًا متذوقًا للآثار العمرانية، ومن أهم آثاره جامع كبير باسمه، عمَّر من جديد في عهد شاه جهان.

---

[١] هو الشيخ العالم الصالح عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك اللاهوري، أحد الفضلاء المشهورين، قام مقام والده في الدرس والإفادة، أخذ عنه جمع كثير من العلماء، مات سنة سبعين وتسعمائة، كما في أخبار الأصفياء.

[٢] هو الشيخ الفاضل الكبير عبد الخالق الكيلاني، أحد كبار العلماء، لم يكن في زمانه أعلم منه في العلوم الحكمية لا سيَّما الهيئة والهندسة، أخذ عن الشيخ عبد الله اليزدي، وانتقل من قندهار إلى بهكر من بلاد السند سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، ثم دخل تته وعكف على الدرس والإفادة، أخذ عنه القاضي محمود التتوي وخلق آخرون، ثم ترامى به الإغتراب إلى بلاد الدكن، ذكره النهاوندي في المآثر وقال: إنه كان نظيراً للفاضل مرزا جان والأمير فتح الله الشيرازي في العلوم الحكمية. نزهة الخواطر، ٣٦١/٤.

[٣] تاريخ معصومي، ص ٢٩٥

[٤] سيد محمد، تذكرة الأولياء، ١٩٥٧، ص ٢٢٨.

مير محمد يونس أرغون، التزم أولاً همايون بادشاه ومحمد زمان ميرزا ثم لحق ميزا شاه حسن ثم السلطان محمود خان كوكلتاش عاش في آخر حياته في عزلة من السياسة، ومات سنة ٩٨٥هـ.

مير عليكة أرغون الذي كان من أمراء شاه بيك وشاه حسن أرغون، وكان أميرًا ذي شجاعة وفراسة.

غضنفر بيك أرغون، وكان هو من أمراء ميرزا باقي أرغون وميرزا جاني بيك أرغون قتل في معركة سهوان.

ومن الأمراء الترخانيين:

ميرزا شاه بيك عادلخان ترخان. وكان من ملتزمي بلاط أكبر، عين حاكم قندهار في عهد جهانكير ثم لحق ميرزا غازي بيك، وكان أديبًا له طبع بكر وقد وضع مير طاهر مؤلفته «تاريخ طاهري» لأجله وبترغيبه.

ومن أمراء القبائل الأخري التركية في عهد الترخانيين كان أشهرهم خسرو خان جركس (شركس) أصله من دشت قبجاق ومن أولاد جركس خان من بني جنكيز. خدم أولاً ملا جاني بندري ثم ميرزا عيسى ترخان، أولا كإفتابه جي في بلاطه ثم كعامل عدة برجنان (مقاطعات). حتى عظم شأنه في عهد ميرزا باقي بيك ومرزا جاني بيك فأصبح من كبار أمرائهما. وكان يعمل كنائب ميرزا غازي بيك. وكان أميرًا تقيًّا وشغوفًا لإنشاء المؤسسات العامة، فأنشأ آثارًا ومنشئات عمومية كثيرة في تته ومكلي وأطرافها بصرف نفقة كبيرة بلغ عدد المساجد والجوامع والروضات (الضرائح) والجسور والآبار والأحواض التي أنشأها إلى ٣٦٠. ويكفي لنا على تقواه أنه رأى مرة هو في سقف بيته امرأة تغسل في صحن دارها فأراد أن يسمل عينيه اللذان ارتكبا

هـذه الجنايـة. وكان أتاليـق ميـرزا غـازي بيـك، وهـو ذهـب بعـده إلـى إيـران فمات هناك.

وكان ابنـاه بهائيخـان وفتـح اللـه مـن أمـراء ميـرزا غـازي بيـك. وقـد لعـب الأول دوراً هامًّـا فـي معركـة قندهـار التـي شـنَّها ميـرزا غـازي بيـك علـى خلاف الأفاغنة، وكان الثاني عامل صويدار جاحكان.

وأيضًـا محمـد أمـان ترخـان وأميـر بيـك أرغـون وميـر أحمـد بيـك كانـوا ممن اشتهروا من أفراد الترك في عهد الترخانيين[١].

ومن أمراء المغول الأتراك في عهد المغول الذين حكموا في تته:

ميـزا بايزيـد بخـارى الـذي تولـى الحكـم في تتـه سـنة ١٠٢٨هـ-١٦١٨م، وكان قائـد الجيـش فـي بهكـر أيضًـا وابنـه سـيد إبراهيـم خـان الـذي كان عامل تته سنة ١٠٥٥هـ-١٦٤٥م.

وميـرزا عيسـى ترخـان[٢] كوجـك بـن ميـرزا جـان بابـا بـن ميـرزا عيسـى ترخـان المشـهور انسـلك فـي سـلك أمـراء أكبـر سـنة ١٠١٢هـ. وتقلـد عـدة مناصـب عاليـة مـن قبلـه، ثـم صـار صوبـه دار (عامـل) السـند في عهـد شـاه جهـان عيـن لهـا سـنة ١٠٣٨هـ-١٦٢٨م، وهـو آخـر أسـرة الترخانيـة فـي السـند. وكان أديبـا وعالمًـا وصاحـب هبـة وحميـة وطنية وشـجاعة كبيـرة[٣]. وهـو أنشـأ ضريحًـا فخمًـا علـى قبـر جـده اسـتغرق إنشـاءه ١٨ سـنة. مـات سـنة ١٠٥٤هـ-١٦٤٤م ودفـن فـي جـوار جـده فـي الضريـح الـذي أنشـأه

---

[١] تحفة الكرام، ٣ /٩٠-٩٣.

[٢] وميرزا عيسي ترخان من بني أعمام ميرزا غازي حفيد ميرزا عيسي ترخان المشهور (أنظر ترجمانه) إشترك في ثورة ابن القاسم سلطان ثم إلتحق بعد هزيمته خدمة جهانكير الذي عينه بنمصب أربعة آلاف سوارية وأقطع له تته ثم فوض له حراسة قلعة كربال، وكان في هذا المنصب حتى عهد شاهجهان. ومن أهم آثاره رانك فاخرونج في ملكي أنشأها في ثمانية عشر سنة. تحفة الكرام، ٣/ ٩٥.

[٣] ترخان نامه، ص ٩٦.

نفسه[١].

وأيضًا محمد أمان ترخان وأمير بيك أرغون ومير أحمد بيك كانوا من اشتهروا من أمراء الأتراك في عهد الترخانيين.

ونواب مغلخان تولى صوبداري تته في سنة ١٠٥٧هـ الموافق للسنة الثانية والعشرين من عهد شاهجهان حكم هناك ستة سنوات.

وسعيد الله خان المشهور بخان زادخان سعيد خاني الجنكيزي تولى صوبداري تته وسوستان في سنة ١١١٣هـ.

ونواب أحمد يار خان برلانس ابن الله يارخان توطن أجداده في خوشاب من مقاطعة لاهور، وقد حكم أبوه الله يارخان لاهور وملتان وتته. وكان خدم في بلاط غزنين كقائد جيش أو حاكم عسكري نحو أربعين سنة. وكان نواب أحمد يارخان حاكم مقاطعة تته ثلاثة سنوات في عهد عالم بر وخلفه بهادر شاه. ومن مآثره العمرانية جسر كبير إزاء باب الشرقي لقلعة أرك تته. وكان خطاطًا ماهراً وشاعرًا ينشد خاصة المثنويات وله مثنوي آئينه وديوان الأشعار[٢].

من أمراء عهد أكبر ميرزا عزيز كوكلتاش الملقب بخان أعظم، وكان مخزن (خازن) أسرار أكبر، وكان أميرا ذات خصائل حميدة يطالع كثيرًا كتب التاريخ والأخلاق والسير والأشعار[٣].

الأسرة البكلرية في السند

ومن الأسرة التركية التي لعبت دوراً هامًّا على جانب الأسرتين

---

[١] لب تاريخ سند، ص ٩٧.
[٢] تحفة الكرام، ٣ /٩٩.
[٣] تحفة الكرام، ٢ / ٩٣.

الأرغونية والترخانية في تاريخ السند كانت الأسرة البكلرية التركية التي جاءت آباءها أصلاً من ترمذ، وتوطنوا في سمرقند، وبعض أفرادهم عاشوا في بلاد خطاي التركية، وقد عدهم البعض من الأرغونيين لالتزامهم لهم طويلاً في سمرقند وأيضًا في بلاط خطاي.

وكان رئيسهم أمير شاه قاسم بيك بيكلر بن أبوك بن جوجك بيكلر بن أخي فريد بيك السمرقندي. وهو جاء من سمرقند إلى السند في عهد شاه حسين أرغون الذي أكرمه وقدر منزلته. وهنا زوج مير شاه قاسم بنت أخت رانا ورسه صاحب عمر كوك، وكان أبوها من قبيلة بهتة الراجبوتية، فولد من هذا الزواج أبو القاسم بيكلر «خان زمان» الذي اشتهر بدوره الهام في أحداث بلاد السند السياسية والصراعية. وهو خدم أولاً شاه حسين أرغون حاكم السند وبلغ من قبله أعلى المناصب ثم التزم مرزا عيسى طرخان وابنيه جان بابا ومرزا محمد باقي وميرزا جاني بيك على التوالي، ولما حضر هذا الأمير لدى الإمبراطور أكبر لتقديم ولائه رافعة خان زمان أيضًا وقبله أكبر بالاحترام والحفاوة. ثم عين حاكم نصر بور من مقاطعات السند في عهد ميرزا غازي بيك أخر التارخانيين. وهو عاش هناك إلى آخر آيامه حاكمًا بالعدل والإنصاف، ومهتمًّا بسعادة رعاياه ورفاههم. وباسمه وضع واضع مجهول اسمه مؤلفته «بيكلر نامه» في تاريخ هذه الأسرة. ومن آثاره العمرانية منارة باسم «منارة الموت» التي بنيها ذكرا لفرسه الجرئ المحبوب وقلعة شاهكرة.

وكان ابنه مير أبو القاسم خان أميرًا اشتهر بشجاعته وسخاوته البالغة، وكان هو أيضًا شاعرًا شغوفًا للأدب، وكان تخلصه في الشعر «بيكلر». وقد وضع «أدراكي بيكلر» من علماء هذه الأسرة قصته المشهورة الحبيبة تسمى جنيسر نامه باسم هذا الأمير.

وأيضًا كان مير قاسم سلطان ابن أبي القاسم خان زمان السالف الذكر من أجل أمراء هذه الأسرة.

وكان حمزة بيكلر ومير مراد حسين بيكلر ممن اشتهروا من أفراد هذه الأسرة عند شاه حسين أرغون[١].

النشاط العلمي والثقافي في هذا العهد

وكانت عهد الأرغونية الترخانية عهد مزدهر ساد فيه الرفاه العام والسعادة الشاملة في بلاد السند. وكانت تته[٢] عاصمة السند في عهد الأرغونية والترخانية. قد ازدهرت بنشاط كبير كما ازدهرت بنشاط تجاري كبير حتى أصبحت حلمي - حقي -كما قيل بشأنها «الأرض المعمورة». وكانت بينها وبين تركستان وإيران الروابط الأدبية الوثيقة، أقبل إليها وتوطنوا فيها في هذا العهد طائفة كبيرة من السادات والأمراء والأدباء والعلماء لما سمعوا من شهرتها بالنشاط العلمي والرفاه المستفيض.

وكان شاه بيك وشاه حسن من الأسرة الأرغونية وجاني بيك وشاه بيك وغازي بيك من الأسرة الترخانية، والسلطان محمود من الكوكلتاشية من الشعراء المتذوقين للأدب والفن. وقد نهضت اللغة الفارسية والأدب الفارسي تحت رعايتهم بدرجة كبيرة، وصارت لغة رسمية للحكومة، كما صارت لغة علمية وأدبية، حيث أن المؤرخين

---

[١] أليوت طرخان نامه، ٢ /٧١.

[٢] تتا أو تته، هي مدينة في إقليم السند الباكستانية. كانت تتا عاصمة العصور الوسطى في السند، وكانت بمثابة مقر السلطة لثلاث سلالات متعاقبة. أعطت أهمية تتا التاريخية العديد من المعالم الأثرية في المدينة وحولها. يعتبر موقع مقابر مكلي، وهو أحد مواقع التراث العالمي التابعة لليونسكو، أحد أكبر المقابر في العالم، ويحتوي على العديد من المقابر الأثرية التي بنيت بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر والتي صممت بأسلوب جنائزي تميز في السند السفلى. يتميز مسجد شاه جهان في المدينة الذي يعود للقرن السابع عشر بزخارف غنية بالبلاط المزخرف، ويعد معرضاً لأكبر عرض لأعمال البلاط في جنوب آسيا.

والعلماء والأدباء وضعوا مؤلفاتهم ودونوا آثارهم، منهم السيد محمد بن مير جلال الدين الشيرازي مؤلف «ترخان نامه» قد وضعوا مؤلفاتهم باللغة الفارسية.

وكان بكهر وسيوهن ونصر بور وتته وسكهر قد شكلت مراكز هامة للنشاط العلمي والفني اشترك فيها جماعة كبيرة من العلماء والفضلاء[١].

الإمبراطورية التيمورية التركية في الهند

من أروع ماقام به أتراك آسيا الوسطى في تاريخ الإسلام كان تأسيس إمبراطورية عظيمة إسلامية في بلاد الهند التي غيَّرت وجهة التاريخ في تلك البلاد فيما بعد، والتي دامت حتى نصف القرن التاسع عشر الميلادي، وعرفت في التاريخ بالإمبراطورية المغولية[٢] في الهند، أسَّسها ظهير الدين محمد بابر بادشاه من أحفاد تيمور، وهو الابن الأكبر لعمر شيخ ميرزا وحفيد ميران شاه بن تيمور، ولد سنة ١٤٨٢م، ويتصل نسبته من ناحية أمه «قتلوق نكار خانم» بجغتاي الابن الثاني لجنكيزخان. وكان بابر في الثانية عشرة من عمره عندما خلف أباه في فرغانة سنة ٨٩٩هـ ١٤٩٤م، ولكن سرعان ما فقد ممتلكاته عندما انتصر شيبان خان الأزبكي عليه في موقعة عظيمة حدثت عنه سر بول سنة [٣]١٥٠٣ . ثم فكر بابر أن يتعوض في أفغانستان ما فقده في تركستان فاستولى بدخشان في تلك السنة، ثم عبر جبل هندوكش وحاصر مدينة كابل واستولى عليها سنة

[١] رحيم دادخان مولائي شيدائي، جنة السند، (١٩٥٨) ص ٤٢٠.

[٢] وقد حكمت هذه الأسرة أربعة قرون جمع شملها فأنشأت عهدا تعد من أزهى العصور وازدهارًا، زحرفت الآثار روعة وجمالا أفلت أفولها تاركة آيات خالدة لا تنسى مدى التاريخ.

[٣] دائرة معارف الإسلامية، مادة بابور.

١٥٠٤م ٩٠٩هـ وعلى قندهار سنة ١٥٠٧م. وكان بابر منذ زمن يرتب خطة لغزو الهند فخطر له أن جاء فرصة هذا أن يغزو من أفغانستان، ولكنه اكتفى في الوهلة الأولى على الإغاراة على شواطئ السند والثعتال مع بعض قبائل الأفاغنة.

وفي سنة ٩١٧هـ ١٥١١م استطاع بابر بفضل مساعدة شاه إسماعيل الصفوي ومستغلاً فرصة انهزام الأزابكة بيده أن يحتل بخارى وسمرقند مرة أخرى، ولكن سرعان ما اضطر أن ينسحب إلى كابل سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م، وعلى أثر ذلك عدل بابر عن فتح الشمال وبدأ يحقق تلك الخطة التي نضجت عنده من زمن طويل وهي تأسيس دولة في بلاد الهند. في ذات الوقت كان إبراهيم لودهي سلطان دهلي قد نشب النزاع بينه وبين زعماء الأفغان، فاستغلَّ بابر هذه الفرصة واستولى على لاهور سنة ٩٣٢هـ ١٥٢٦م، وقتل إبراهيم لودهي في الموقعة التي نشبت بينه وبين عساكر بابر في معركة باني بت التاريخية. ثم أعلن بابر ملك الهند (بابر بادشاه)، واتخذ أغره حاضرة لملكه، ثم هو حارب مع الزعيم الراجبوتي رانسينكه و»الجبتور« وأفاغنة جاونبوري وملك البنغال حتى اتسعت وشملت رقعة مملكته على جانب أفغانستان الأقطار الشمالية لبلاد الهند، وامتدت من شواطئ السند إلى حدود بنغال.

توفي بابر بالقرب من أغره في ٢٦ ديسمبر ١٥٣٠م ٦ جمادي الأولى سنة ٩٣٧هـ، ثم نقل جسده على حسب وصيته إلى كابل حيث دفن فيه في بستان جميل على ضفة شهر كابل عرف منذ ذلك بـ «باغ بابرشاه»[١].

---

[١] أحمد محمود الساداتي، تاريخ المُسلمين في شبه القارَّة الهنديَّة وحضارتهم: الدولة المغوليَّة، (القاهرة: مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ١٩٥٩)، ٤٩/٢.

وقد أجمع المؤرخون أن بابر كان قائدًا جسورًا ذا شجاعة لا تبارى، كما كان سياسيًّا وفيلسوفًا مفكرًا وصيادًا ماهرًا. ويقول هو عن نفسه عندما يقارن أعماله الجريئة بأعمال محمود الغزنوي وشهاب الدين الغوري «أن أعمال التي وفقني الله لها بفضله وإحسانه تفوق أعمالهم؛ لأنهم مجهزين بكل الوسائل والإمكانيات التي كنت أنا محرومًا منها[١].

ويقول ستانلي بول الذي درس تاريخه درسا عميقا واسعا: «إن بابر كان بحق صلة بين آسيا الوسطى والهند وبين قبائل نهاية والحكومة الملوكية وبين تيمورلنك وأكبر. اجتمع في شرايينه الدم الجنكيزي والتيمورى. جاء بجرئة الترك وغيرته إلى الهند فاترة الهبة، وأنه بكونه جنديا ذا حظ ونصيب لا معمارا للإمبراطورية، فقد استطاع أن يضع أساس إمبراطورية موطدة الأركان التي انتهت إلى قمة علوها وجلالها في عهد حفيده أكبر[٢].

وهو كان أديبًا وشاعرًا صنف ديوانا بالتركية ومجموعة من المثنوي تسمى «مبين» في الفقه الحنفي وترك لنا أيضًا وصفا لمغامراته في مذكراته تسمي «تزك بابر» التي كتبها بالتركية الجغتائية[٣] والتي يعد أنموذجة خالصة للأدب التركي في ذلك العهد.

ويقول دنس روس: «إنها تعد من الأعمال المسترقة والخيالة الفروسية للأدب في كل عهد[٤].

بابر الفقيه: وكان بابر أيضًا عالمًا وفقيهًا في الدين، ويقول مؤلف

---

[١] كمبرج هيسترى اف إنديا ج ١٧، ص ١٤، تزك (أردو) ص ٢٦٩.
[٢] ستانلي بول، بابر، ص ٩.
[٣] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: بابر.
[٤] كمبرج هيسترى أف أنديا، ١٧ / ٢٠.

«تاريخ فرشة» أنه كان عالمًا مجتهدًا في الفقه الحنفي[١].

بابر العلم والعلماء: وكان يحب العلم والعلماء ويقدر منزلتهم ويستفيض من صحبتهم وقد عاش في عهده وتختار رعايته طائفة من كبار العلماء، منهم خوند مير حفيد مير خوند مصنف «حبيب السير» وهو التحق بلاط همايون بعد وفاة بابر فوضع كتابه قانون همايون، وهو دفن بعد وفاته بجانب ضريح نظام الدين المعمائي ومولانا البقائي، وله مثنوي في بحر مخزن، وميرزا إبراهيم الهراتي، ومولانا زين الدين الخافي وهو ترجم بابري الذي كتب شرحا لمبين (يسمي المبين)، وأيضًا كتاب في تاريخ بابر يسمى «طبقات بابرى»[٢].

التزام بابر للشعراء: وكان شائقًا لالتزام الشعراء خاصة مما يدل على ذلك أنه عاش في عهده طائفة من الشعراء البارزين، منهم شيخ أبو الواحد فارغ وسلطان محمد كوسه وسرخ الوداعى، وشيخ الجمالي. ومن الأطباء مولانا اليوسفي، وخواجه نظام الدين علي خليفه استجلبهم بابر من هرات وخرسان وغيرها رحبهم خير ترحاب واهتم برعايتهم أجدر اهتمام[٣].

بابر الخطاط: وكان بابر شغوفًا بفن الخطِّ وماهراً فيه، وكان يشجع الخطاطين ويشجعهم. وهو ابتكر الخط الخاص المعروف بخط بابرى، وكان ذلك في كابل، وهو نسخ بيده نسخة من القرآن الكريم فأتحفها لمكة المكرمة[٤].

وكان بابر أول من جاء بالمدفعية[٥] واستعملها في معركته في

---

[١] تاريخ فرشة، ٢١١/١.

[٢] بديوني، ٣٤١/٢. ومسلم ثقافت، ص ٢١٠.

[٣] أكبر نامه، ١١٩/١. تاريخ فرشة، ٢١٠/١. وبزم تيمورية، ص ٢٣.

[٤] بديوني، ٢٤٣/٢. ومسلم ثقافت، ص ٣٩٨.

[٥] لقد استخدم المدفع من قبل، لكنه لم يصبح نواة التكتيكات كما كان بابر يصنعها.

الهنـد ضـد السـلطان إبراهيـم لودهـى، كمـا كان أول مـن سـبكها فـي الهند[١].

وفي عهـد رتبـت أول صحيفـة رسـمية في الهنـد[٢] التـي كانـت بشـكل أنباء الحرب رتبها شيخ زين الدين خافي صاحب «طبقات بابري»[٣].

آثـار بابـر المعماريـة: ولـو أن عهـد بابـر فـي الهنـد كان قصيـرًا جـدًّا، حيـث لـم يسـاعد أن يهتـم لإنشـاء الآثـار الفنيـة العلميـة أو المعماريـة، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع في مدة حكمه القصيرة.

وكان بابـر متحمسًـا فيا يجـري حولـه مـن التطـورات السياسـية والحربيـة وحتى التقنيـة، ومثـال ذلـك لما علم أن السـلطان سـليم العثماني اسـتعمل المدفعيـة فـي معركـة جالديـران ضـد شـاه إسـماعيل الصفـوي، هـو مافـات الفرصـة فـي أخذهـا فاسـتخدم مهندسـين ماهريـن عثمانييـن وهمـا علـى قلـي ومصطفـي الرومـي. ويقـول بـاول بـراس لـو أن البهنميون كانـوا قـد اسـتعملوا المدفعيـة قبلـه، ولكـن الفضـل فـي اسـتعمالها للأعمال التكتيكية الحربية لأول مرة يرجع لبابر.

أن ينشـأ عـدة أبنيـة رسـمية وغيـر رسـمية ذا أهميـة منهـا «ديـوان شـهرت عـام» التـي كانـت كـوزارة الأشـغال العمومـية تهتـم بجانـب الشـئون العامة لنظـام البريـد أيضًـا[٤]، وكـذا بنـى عـدة مـدارس ومسـاجد وغيرهـا مـن الأبنيـة العموميـة فـي أغـره وسـيكري وبيانـا ودهولبـور وكواليـار وكيئـول وغيرهـا. منهـا مسـجدًا فـي كابلـي بـاغ فـي بانـي بـت ومسـجدًا فـي سـمبهال بناهـا سـنة ١٥٢٦م، ومسـجدًا في لـودي فـورت أكـره. ولـو أن

K.E. Powell Price A. History of India P 224.

[١] مسلم ثقافت، ص ص ١٧٢.
[٢] حكمت بابور، ٤٩٤.
[٣] مسلم، ثقافت، ٣٣٤.
[٤] حكمت بابور، ٤٩٤/٢.

هذه الأبنية لا تحمل روعة الفن العليا، ولكنها تعد من آثاره الهامة[١].

ويقول بابر في تزكه أنه استخدم لإنشاء الأبنية في أكره ستمائة وثمانين من نحاتي الحجر، وهو استخدم ألفا وأربعمائة وإحدى وسبعين عمالاً من نحاتي البحر كيكرمي وبيانه ودولت بور وكوليار وكول ومدن أخري يوميا لتشييد أبنيته وقصوره[٢].

بابر الفنون الجميلة: وبالرغم أن بابر وكذلك همايون ما تركا آثارًا فنيةً ذات أهمية كبرى، ولكن شخصيتهما النافذة وتجاربها التي تركا لأخلافه، ولاسيَّما حب بابر وشغفه للبدائع والفنون الجميلة، قد تشكلت عوامل وبواعث التي أوعزت لأخلافه مباشرًا أو غير مباشر حب الفنون الجميلة والشغف لتخليق الآثار الفنية والبديعية والفن والجمال[٣]، حيث أن بابر نفسه جاء بصور فنية جميلة وثمينة، وكذا بطائفة كبيرة من الفنَّانين والخطَّاطين والمعماريين والرسَّاميين من تركستان وكابل وهرات التي كانت لها وقعة كبيرة وتأثير بالغ في ازدهار تلك الفنون الجميلة في بلاد الهند فيما بعد[٤].

وفي الواقع أن الصور الفنية العديدة التي وصلت إلينا من أعمال كل من الرسامين المسلمين والهنود والتي تمثل مناظر شتى من حياته وحياة بلاطه لآثار فنية تدل على مدى ازدهار الفنون الجميلة في عهده وتحت رعايته.

شغفه لغرس الأشجار والأزهار: شغف بابر لغرس الأشجار وإحداث البساتين. قيل من شغفه وتطلعه للعلوم والفنون استورد

---

[١] نفس المصدر، ٢/٤٩٤.
[٢] مسلم ثقافت، ص ٣٧٢. تزك، ص ٢٩٠.
[٣] كمبرج هيسترى اف انديا ٥٢٥/١٧.
[٤] حكمت بابور، ٢/٤٩٤.

للمرة الأولى شجرة الكرز إلى كابل وغرسها فيها، فنشئت تثمر ثمارًا جيدًا. وأيضًا غرس للمرة الأولى قصب السكر فيها[١]. كما قام بفلح البساتين والحدائق وغرس الاشجار والأزهار المختلفة في أغره على طراز تركستان.

وهكذا كان لهذه الأسرة التركية التيمورية مقامًا مرموقًا في تاريخ الإسلام، وأن الخدمات الجليلة التي أسدوها بابر وأخلافه في الحقول العلمية والفنية والحضارية والثقافية للبلاد لا نظير لها في التاريخ، وأن عهدهم الناشط بالأعمال الباهرة يعد أزهى عهد وأروعه بإجماع جميع المؤرخين في تاريخ الهند الإسلامي.

ولقد تقدَّمت الحضارة تقدمًا باهرًا في ذلك العهد ونشطت الحركة العلمية والفكرية والثقافية والأدبية بدرجة لم تسبق في تاريخ البلاد، فظهرت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء وتأسست المدارس وتكثرت المساجد وتحسنت الحالات الزراعية والصناعية، فازدهرت الحياة المدنية والاجتماعية وانتهت الفنون الجميلة والمعمارية أعلى مدارجها. توسعت رقعه الإمبراطورية الإسلامية وجمعت شمل الأقوام المختلفة بالأديان المتباينة تحت نظام واحد وحكم واحد، فاستتب الأمن والسلام وشمل الرفاه العام فسادت الإخوة والعدالة الإسلامية في أرجاء الممتلكات الإمبراطورية الواسعة مدي زمن طويل. وكان أفراد الأسرة البابرية أكثرهم من العلماء والأدباء، فمثلا رأينا أن بابر نفسه كان عالمًا وأديبًا أوحد ليس له نظير في عهده في الأدب وكتابة الإنشاء. وقد مثل ابنه همايون ميرزا ألغ بيك اسمًا وعملاً في الهند على جانب حبه وتشجيعه الشعر والشعراء، وهو اهتم بنفسه لدرس الهيئة والنجوم والفلك وتشجيعها، وقد ازدهرت

---

[١] بابر، بابورنامه، ص ٩٤.

مجامع العلوم والفنون بنشاط عظيم وبروح تطورية في عهد أكبر وقد ترعرعت من محافل الأدب والثقافة والفن في عهد جهانكير وهو إشتهر بعدله أيضًا. وأن شاهجان قد وزن شعراءه وأدباءه بنقود الذهب والفضة مكافأة لنبوغهم الأدبية. وانتهى الفن المعماري بأثر اهتمامه إلى قمة مجدها وعروجها. وكان أوزبك عالمكر فريد عصره في فن الإنشاء والكتابة والخطابة وفن الخطاطي هو خلَّد آثارًا أنموذجية في الأدب وفن الخطابة والخط.

وكان بهادر شاه ظفر آخر آمراء آل تيمور في الهند أديبًا بارعًا شجَّع الأدباء والشعراء ونشط المحافل الأدبية فعاش في عهده الآفل طائفة كبيرة من نابغ الشعراء كغالب وغيره.

وها إليك نبذة من أعمال من اشتهر من أفراد هذه العائلة المالكة التي تعود الفضل إليهم في إبقاء تلك الآثار الخالدة التي سجلت في صفحات التاريخ بقلم جلي يغتبط.

همايون

هو الابن الأكبر لبابر خلفه سنة ٩٣٥هـ واستمرت مدة حكمه في الهند وخارجها نحو ستة وعشرين سنة، منها كان حكمه في الهند عشرة سنوات فحسب، وهو أن عهده كان عهد مؤامرات ومغامرات التي أدت إلى التجائه إيران، ولكنه استطاع أن يعود مرة ثانية وأن يحتفظ ممتلكات أبيه. وهو وفق كما يقول محمد حسين آزاد أن يشيد بناء المملكة موطدة الأركان لم تزلزل ولم تنهار عدة قرون أخرى[١]. وكان ذلك بفضل مساعدة وزيره بيرم خان التركماني الذي اشتهر بنبوغه ولباقته السياسية وخدماته البارزة في عهد كل من

[١] در بابر أكبرى ص ١.

همايون وأكبر.

وكان همايون ملكًا تحلى بجلية التقوي ومتمسكًا بأهداب الدين حتى كان لا يتفوه اسم الله بلا وضوء. وكان مغرمًا ومعتقدًا لعلم النجوم والهيئة والجغرافيا حتى كان لا ينجز عملاً من شئون الدولة أو الشخصية دون أن يراجع لها ويستشير منها وقت السعد والنحس. وجاء في «منتخب التواريخ» لبديوني وأكبر نامه أن همايون كان عالمًا بلا مثيل في علم النجوم والهيئة والرياضة وغيرها من العلوم الغريبة. وهو اهتم بترتيب الإسطرلاب والكرة وغيرها من الآلات الرصدية[١].

ويقول أبو الفضل أن همايون قد جمع في فطرته الصالحة همة إسكندر وعلم أرسطو. هو وضع رسالة في درس الطبائع المعاصرية، وبنى مرصدًا في سقف كتبخانه في دهلي، كما رتب كرة الأرض تمثلت فيها الطبقات العناصرية والأفلاك بألوان مخصوصة وعليها كواكب كل فلك. وكذلك رتَّب مجلسًا يعرف باسم سبعة مجالس للاستقبال، وسماها بأسماء الكواكب السبعة، فالقضاة والسفراء والشعراء والرحَّالة كانوا يُستقبلون في قاعة القمر. والقادة ورجال الجيش كانوا يستقبلون في قاعة المريخ. والرؤساء المدنيون كانوا يستقبلون في قصر عطارد. ورجال الأدب كانوا يستقبلون في قصور زحل والمشتري. والموسيقيون والمنشدون كانوا يستقبلون في قاعة الزهرة[٢].

ويقول صاحب «تاريخ رشيدي»: «إني لم أر إلا قلة من الأمراء

---

[١] بديوني، ١/٤٦٧. أكبر نامه، ص ٢٢٠.

[٢] الشيال (٢٠٠١)، ص. ٥٢–٥٣.

الذين يتمتعون بما يتمتع به همايون من مواهب طبيعية»[١]. وقد ساعده السيد علي رئيس أمير البحر التركي لسلطان سليم خان، الذي زاره في ترتيب منظمة حسابية للخسوف والكسوف وتعليم سير الكواكب ونقاط طول البلد وعرضها وخط الاستواء. وهو وقف عنده حسب رجائه عدة شهور لهذا الغرض. وكان عالمًا وماهراً في علم النجوم والفلك والجغرافيا[٢].

وهو رتَّب لهمايون إسطرلابًا خاصًّا يعرف بإسطرلاب همايون. ويقول أبو الحسنات الندوي: «إن في مكتبة دار العلوم في ندوة يحتفظ فيها إسطرلاب كتب فيه هذه العبارة «عمل ضياء الدين محمد بن قاسم بن محمد بن ملا عيسى بن شيخ الهداد إسطرلابي همايوني لاهور في سنة ٩٩٥هـ» وهو يقول أيضًا أن الكراة والإسطرلابات التي تشهد في مدارس الهند القديمة يعود الفضل في إدخالها وترويجها في تلك المدارس إلى همايون[٣].

وقد أخذ همايون دروسه في علم الهيئة عند أساتذته مولانا إلياس أردملي والشيخ أبو القاسم الجرجاني الذين كانا من كبار علماء الهيئة والهندسة في عهده طلبهما من هرات حينما كان في إيران، وكانا يلازمانه في الحضر والسفر[٤].

ثم كان العلماء والطلبة يأخذون الدروس في علم الهيئة والرياضة عند همايون ومنهم كان نور الدين ترخان أخذ دروسه في علم الهيئة والرياضة عنده[٥].

---

[١] جمال الدين الشيال. تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلاميَّة في الهند، ط. ١. (القاهرة: ٢٠٠١)، ص ٥٢.

[٢] بزم تيمورية سردا عن مرأة الممالك.

[٣] أبو الحسنات الندوي، ص ٢١.

[٤] أكبر نامه، ص٢٢١.

[٥] مآثر الأمراء.

وقد اهتم همايون إنشاء المدارس والمؤسسات العلمية، وهو بنى بلدة خاصة لأغراض علمية ذات روعة وجمال في دهلي وسماها بلدة دين بناه (ملجأ الدين) ومجمع العلماء والحكماء[١] وهو أيضًا بنى مدرسة في دهلي وكان شيخ حسين يدرس فيها ويقول إستيفن في كتابه «آثار دهلي» أن سقف ضريح همايون كان في الأصل سقف تلك المدرسة[٢].

وأيضًا من المدارس الهامة التي أنشأت واشتهرت في عهده كانت مدرسة كبيرة في جينار (أكره) التي أنشأها بتشجيعه الشيخ زين الدين الخافي، وكان من علماء بلاطه يستفيض من رعايته وهو دفن في هذه المدرسة بعد موته[٣].

وحسبنا دليلاً على اهتمام همايون وشغفه للنشاط العلمي والأدبي أنه مات ساقطًا عن سقف كبتخانته التي بنيها باهتمام خاص في دهلي، وكان ينزل من مرصد كان على سقفها بعد أن شاهد طلوع كوكب الزهرة[٤]. وكانت هذه المكتبة قلعة في الأصل بناها شير شاه سوري تعرف بقلعة (شير مندل) وكان يستعملها للعيش والطرب[٥].

وكان همايون محبًا للعلماء والفضلاء يستلزم صحبتهم ويناقش معهم المسائل العلمية والأدبية ويجزلهم بالمكافآت. وكان مولعًا بحفظ الكتب أيضًا يستلزمها ولا يهجر عنها حتى في حجره. وكان «نظام» المعروف بباذ بهادر أمين كتبخانته[٦].

---

[١] كمبريج، انديا، ١٧/٥٢٥.
[٢] أبو الحسنات الندوي، ٢١.
[٣] هندستان تاريخي، ٢/٤٩٤.
[٤] أكبر نامه، ص ٤٣٧.
[٥] الشيال، ص. ٥٧–٥٨.
[٦] نفس المرجع.

وهو تفاءل ثلاثة أشخاص في طريقه من كابل وكان أسماءهم مراد ودولت وسعادت منتسبي بلاطه من العلماء والأدباء والأمراء إلى ثلاثة جماعات.

وكانت الجماعة الأولى: تشمل العلماء والشيوخ والأدباء والشعراء والفقهاء والقضاة سميها أهل السعادة.

والثانية: تشمل الأعزاء والأمراء والرؤساء والجيوش وقوادهم سماها «أهل الدولة»، وكان رئيس هذه الطائفة.

والثالثة: الناشطون بالطرب والغناء والفنون الجميلة والبديعة قالهم أهل المراد، كما قسم الأسبوع على هذا الأساس.

وكان ينتخب أمراءه وموظفي حكومته من المثقفين والفضلاء حتى أن عامل أواني غسله كان عالمًا ومؤرخًا باسم جوهر أفتانجي له مؤلفة باسم «تذكرة الواقعات» في تاريخ همايون[١].

وكان همايون أديبًا ناقدًا وشاعرًا وعالمًا للغات التركية والفارسية أنشد الشعر في الفارسية، وله ديوان في الأشعار وجد نسخة منه الأستاذ سيد حسن العسكري في كتبخانه كهجوا[٢].

وكان يستحسن مجالس الشعراء والأدباء ويساهم في مسامراتهم الأدبية. وكان وزيره بيرم خان أيضًا أديبًا وشاعرًا، وله أشعار في اللغتين التركية والفارسية، وله ديوان الأشعار.

وقد جاء همايون طائفة كبيرة من العلماء والشعراء والفنَّانين والخطَّاطين عندما عاد من إيران، وكان من جملتهم مير علي سيد

---

[١] أكبر نامه، ١/٤٣٠. قانوني همايوني، ص ٢٥.
[٢] بزم تيمور، ص ٢٦-٣٠.

التبريـزي[١]، وخواجـه عبـد الصمـد الشـيرازي[٢] المعـروف بـ «شـيرين قلـم» اللـذان كانـا رسَّـامين وخطَّاطيـن ماهريـن ومـن تلاميـذ كمـال الديـن بهـزاد المعـروف. وقـد لعبـا دوراً كبيـرًا فـي إنشـاء المدرسـة الهندسـية الفارسية في بلاط الهند[٣].

ومنـذ ذلـك أخـذ العلمـاء والشـعراء يـردون أفواجـا مـن تلـك المملكـة إلـى الهنـد. وقـد ازدهـر الأدب الفارسـي بنشـاط كبيـر، وبأثـر نشـاطهم العلمـي والأدبـي توثقـت العلاقـة الأدبيـة بيـن الهنـد وإيـران وأفغانسـتان وتركسـتان توثيقـا مباشـرًا[٤]. وكان همايـون كذلـك شـغوفًا للفنـون الجميلـة وشـديد الإعجـاب بميـر سـيد علـي الشـيرازى، فمنتـه «نـادر الملـك» بالأمير فـي كابـل حيـث عهـد إليهمـا بعمـل ١٤٠٠ صـورة كبيـرة لقصة أمير حمزة الفارسية[٥].

وقـد تلقـى همايـون وابنـه أكبـر دروسـا فـي التصـور علـى ميـر سـيد علـي وعبـد الصمـد اللذيـن وليـا تباعًـا مدرسـة التصويـر التـي أنشـأها الإمبراطـور أكبـر بمسـاعدة تلاميذهمـا مـن الهنـود علـى رسـم الصـور التـي طلبهـا همايـون لقصـة الأميـرة حمـزة. وقـد وصـل إلينـا عـدد كبيـر

---

[١] وحين لجأ الامبراطور المغولي همايون إلى بلاط الشاه طهماسب في تبريز ـ بعد أن خسر عرشه في الهند سنة ١٥٤٤. التقى مير سيد علي فأعجب به إعجاباً شديداً وألح عليه في مرافقته إلى كابول ثم إلى دلهي، ومنحه لقب «نادر الملك» ثم عهد إليه وزميله المصور عبد الصمد بإدارة العمل لإنتاج ١٤٠٠ صورة كبيرة لقصة الأمير حمزة، وقد اشتغل في هذا العمل عشرات المصورين ولسنوات عدة، كان أغلبهم من تلاميذ مير سيد علي، وقد صور العمل على القماش وأغلبه محفوظ في متحف ڤيينا.

[٢] وعبد الصمد اللذين توليا تباعاً إدارة مدرسة التصوير التي أنشأها الامبراطور أكبر، والتي نبغ فيها كثير من تلاميذه أمثال: دازونت ـ بازوان. وقد ضمت هذه المدرسة سبعين مصوراً هندياً، أحدثوا نهضة فنية كبيرة في الهند. ويعتقد بعض الباحثين أن مير سيد علي أو عبد الصمد أو كليهما معاً رسما تلك الصورة الكبيرة التي تمثل أفراد أسرة تيمور المحفوظة في المتحف البريطاني، وقد رسمت على القماش مثل صور الأمير حمزة، ولكنها اليوم ليست في حالة جيدة لتساعد على دراستها بدقة وعناية. العمارة والفنون التشكيلية والزخرفية. النوع: أعلام ومشاهير، المجلد: المجلد العشرون، رقم الصفحة ضمن المجلد: ٢٠٨

[٣] زكي محمد، التصوير في الإسلام عند الفرس، ص ٦٣.

[٤] أبو الفضل، أكبر نامه، ص ٢٢١. ومسلم، ثقافت، ص ٣٩٣.

[٥] برسي براون، التصوير الهندي في عهد المغول، ص ٣٦.

من هذه الصور المرسومة على القماش والمحفوظ أغلبها في متحث فينا[١]. وقد نبغ من التلاميذ الهنود اللذين تلقوا الفن على هذين المصورين اثنان هما دازونت وبازوان[٢].

وقد قدر كثير من المؤرخين منزلة همايون العلمية، يقول أحمد علي السنديلوي في كتابه «مخزن الغرائب» أنه كان ملكًا متصفًا بجميع الفضائل والكمالات الضرورية المعنوية، وعالمًا لعلوم الهيئة والنجوم وسائر العلوم العربية، وكان مربيًّا لأهل الفضل والكمال، ومرجعًا لأهل التقوى والصلاح محبًّا للشعر والشعراء وله أشعار مستحسنة[٣].

ومما يقوي ذلك دليلاً أنه عاش في عهده منتسبًا إلى بلاطه طائفة كبيرة من الشعراء وأشهرهم الجنوبي، وكان شاعرًا ممتازًا أصله من بدخشان، اتصل به همايون في زمن فتحه بدخشان، ونادري السمرقندي كان شاعرًا وعالمًا متبحرًا توفي سنة ٩٦٦هـ. وشيخ أبو الواجد الفارغي بن الشيخ وحيد الدين الهراتي، وهو عاش في عهد بابر وهمايون. وكان هو وبيرم خان يحبانه ويقدران منزلته. توفي في أكره سنة ٩٤٠هـ. وطاهر الدكني وكان شاعرًا عالمًا لعلم النجوم وأصله من العراق توفي في دكن سنة ٩٥٢هـ وكان يعد من الأولياء.

وأيوب (خواجه) هو جاء من ما وراء النهر في عهد بابر، ثم انتسب أولاً إلى بلاط همايون، وكان ماهراً في الشعر، ثم التحق السلطان بهادر الكجراتي. وقاسم الكاهي[٤] كان شاعرا وأديبا وعالمًا

---

[١] زكي محمد، التصوير في الإسلام عند الفرس، ص ٦٤.

[٢] زكي محمد، التصوير في الإسلام عند الفرس، ص ٦٤.

[٣] بزم تيمورية، ص ٣٤.

[٤] الشيخ الفاضل نجم الدين محمد أبو القاسم المشهور بالكاهي، لازم الشيخ جهانكير الهاشمي في بلاد السند واستفاض منه فيوضاً كثيرة، ودخل الهند فسكن بمدينة بنارس عند بهادر خان الشيباني زماناً ثم دخل آكره وسكن بها. وكان فاضلاً كبيراً قانعاً، شاعراً مجيد الشعر، ماهراً في الموسيقى، توفي لليلتين

متبحرًا في التفسير والكلام والهيئة والموسيقي. وهو امتاز أقرانه بأشعاره البسيطة الألفاظ والمعني وعلمه للموسيقي. وهو أنشد قصائد يمدح فيها تذوق همايون للهيئة والنجوم، وكان من معتقدي دين النهي في عهد أكبر[١].

وأمان الله كان صوفيًّا وشاعرًا له مقام مرموق في طائفة الشعراء في بلاط همايون، والجلالي كان شاعرًا في اللغات الهندية والفارسية، وسيروس كان شاعرًا ومن الأمراء. وحيدر كان شاعرًا مغنيًّا وموسيقيًّا، وقاسم الموجي وضع مثنويًّا على طراز مثنوي «يوسف وزليخا» تشمل ستة آلاف من الأبيات وغيرهم[٢].

ومن العلماء والفضلاء الذين عاشوا في عهد همايون وتحت رعايته كان أكبرهم وأشهرهم خواند مير حفيد مير خواند[٣] مؤلف «روضة الصفا». وهو جاء من هرات والتحق بابر في أكره ورحبه خير ترحاب وقدر منزلته وعينه نديمًا لبلاطه. ثم التحق خواند مير همايون بعد موت بابر، وهو أكرمه وقدر منزلته في علم التاريخ، وهو لقبه بأمير المؤرخ أو أمير الأخبار. وهو وضع قانون همايون بحث فيه عن ابتكارات همايون واختراعاته وأعماله المعمارية والصناعية وغيرها[٤].

خلتا من ربيع الثاني سنة ثمان وثمانين وتسعمائة بمدينة آكره.

[١] بدايوني، منتخب التواريخ، ٣ / ١٧٥.

[٢] بزم تيموري ص٣٧-٤٣.

[٣] مير خواند (٨٣٧ – ٩٠٣ هـ) هو مؤرّخ، أديب، شاعر، مؤلف فارسي. هو السيد برهان الدين محمد بن خاوند شاه بن محمد، ولد في بخارى و انتقل إلى بلخ لطلب العلم، ثم انتقل إلى هراة ومنها إلى السند، وبها وفاته في الثاني من ذي القعدة سنة ٩٠٣ هـ، وقيل سنة ٩٠٤ هـ. صحب الوزير علي شير النوائي وزير السلطان حسين بايقرا، وعاصر الشاعر عبد الرحمن الجامي وغيره. من آثاره كتاب «روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء».

[٤] بزم تيمورية، ص ٤٣

ويوسف بن محمد الهروي[١] كان طبيبًا شاعرًا عاش في عهد بابر وهمايون، وله عدة مؤلفات في الطب وضعها لهمايون، منها «رباني الأدوية» و«جوامع الفوائد» و«فوائد الأخبار» و«بدائع الإنشاء في كتابة الإنشاء»[٢]. ومحمد بن أشرف الحسيني الرستمداري عاش في عهد كل من بابر وهمايون وله مؤلفة باسم «جواهرنامه همايوني»، بحث فيها عن شأن الجواهراتي قبضها بابر إبان فتحه الهند. ومحمد بن علي المسكن القاضي السمرقندي كان عالمًا متبحرًا وضع «جواهر العلوم في شتى العلوم والفنون» ألف وستمائة صفحة[٣]. وجوهر أفتابجي كان خازن ملتان وبني - وله تذكرة الواقعات في تاريخ همايون نشر ترجمة في اللغة الأوردية معين الحق سنة ١٩٥٥م[٤].

جلال الدين أكبر شاه

وبعد همايون خلفه ابنه أكبر، وهو وسَّع رقعة ممتلكاته وفتح عدة بلاد أخرى، ومن جملتها كواليار وجونبور ومالوله وخانديش وراجبوتان وكجرات وكشمير وقندهار وبرار وأحمد نكر وغيره من الأقطار الهامة للهند. وقد عرض له ملوك نيبال وبيجابور وكولكنده ولائهم وأدَّوا له الخراج[٥].

وكان عهد أكبر الذي دام خمسين سنة أزهى عهد وأروعه في تاريخ الهند الإسلامي انتهت الإمبراطورية فيه قمة علوها وجلالها.

---

[١] محمد بن يوسف الطبيب الهروي (ت. ٩٤٩ هـ / ١٥٤٢ م) هو طبيب، من أهل هراة. أهم آثاره بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية من العربية واللاتينية واليونانية، طبع الكتاب في كلكوتة بتحقيق من حكيم أبو المجاد سنة ١٨٣. العجم، رفيق، كشاف اصطلاحات الفنون. (بيروت: مكتبة لبنان). ص. ١.

[٢] بزم تيمورية ص ٦٤

[٣] بزم تيمورية ص ٦٤

[٤] نفس المصدر، ص ٦٤.

[٥] لين فول،

ويقول بفردج: «ولد أكبر في المنفى في عصر يعدُّ من أعظم عصور التاريخ، وكان هو أعظم حكام ذلك العصر. ولم تكن أوربا وحدها في طور النهوض العقلي، بل كان هذا الطور في بلاد الهند أيضًا. ويدلنا على ذلك أسماء كبير من بائني الطريقة الروشنية والمتصوفة الذين كان إمامهم الشيخ مبارك الناكوري على أحسن الصلات بالإمبراطور أكبر. ولم يكن لأكبر نظير في إدارة الملك، وكانت تتلوه في هذا الصدد ملكة الإنجليز في ذلك العهد[١].

وكان أكبر رجلاً قوي الملاحظة، متعطشًا للمعرفة. وكانت حياته الطويلة تفيض بالنشاط العقلي، ولو أنه لم يكن يحسن القراءة والكتابة، ولكنه كان عالمًا وعارفًا على فروع الدين، وقد آثر التعليم عن طريق التلقين[٢]. وكان أكبر جنديًا عظيمًا وله طريقة خاصة في الحكم التي أذاعت صيته ونفذ بالرغم من كل معارضة إصلاحاته المالية وأدى هذه المهمة بنشاط لا يعرف الكلل.

كما بذل جهدًا كبيرًا في حماية العامة. وكان متصفًا بالصبر والمثابرة ورجاحة العقل التي تتمثل في قوله المأثور «السلام مع الجميع»، فحكم لصالح الكثرة من رعاياه، وحرر الهندوس من القوانين الظالمة المهينة. وكان لم يجز الرهبانية وإنما دعي إلى الحياة الطاهرة البسيطة[٣].

وربما كان حب أكبر للحقيقة وطلبه لها هو الذي أدى إلى نشر مذهب منتخب في التوحيد سماه «توحيد إلهي»[٤]، وكان غرضه من

[١] دائرة المعارف، مادة أكبر.
[٢] المرجع السابق.
[٣] المرجع السابق.
[٤] يقول أحمد السرهندي: «ومما لا مجال فيه للشك أن كل ما وقع من المداهنة والتخاذل في الأحكام الشرعية في هذا الزمان، وما ظهر من الفساد والوهم في نشر الدعوة الإلهية وإبقاء مآثرها في هذا العصر، إنما يرجع سببه إلى علماء السوء الذي هم لصوص الدين وشر من تحت أديم السماء، أولئك

نشر هذا الدين أن يستخلص الحسن من الآراء المختلفة لغاية واحدة هي الوصول إلى الحق، وكان ما قبله آخر الأمر من هذه الآراء إنما هو جميع العقائد أي الاعتقادات التي يسلم بها كل إنسان وأضاف إليها قاعدة خلقية بسيطة[١]

وعندما توفي أكبر عام ١٦٠٥م ترك لابنه سليم جهانكير دولة موطدة الأركان تتألف من الهند العليا كابل وكشمير وبهار والبنغال وأرية وجزء كبير من بلاد الدكن[٢].

خدمات أكبر للعلوم والفنون والثقافة

ولو أن أكبر ما كان عالمًا بمعناه المعلوم، ولكنه كان مغرمًا ومتعطِّشًا للعلم، له إلمام كبير في شتى العلوم والفنون أثره عن طريق السماع والتلقين، كما كان جده الأعلى تيمور. وقد ازدهر في عهده العلوم والفنون والثقافة باهتمامه[٣].

وكان يحب العلم والعلماء ويقدر منزلتهم ويشجعهم بالنشاط العلمي والأدبي حسن تشجيع. وكان يجزلهم بالمكافآت الجديرة، وقد شمل في عنايته ورعايته كل من العلماء المسلمين والهنود وغيرهم على السواء وكان لا مفرق بينهم.

وقد أصبحت أكره في عهده أكبر مركز للصناعين وطلاب العلوم والعلماء الفضلاء من كل ملل ونحل[٤]. وقد ازدهر بنشاط علمي وثقافي كبير زحرفت بآيات الروعة والجلال، وقد أنشأت فيها

حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون». الشيال، ص. ١٠٩-١١٦.

[١] المرجع السابق.

[٢] المرجع السابق.

[٣] أبو الحسنات الندوي، ص ٢٥.

[٤] تزك جهانغير.

مدارس عديدة عالية، وحضر فيها العلماء والفضلاء والأدباء من فارس وشيراز وسمرقند وهرات وغيرها من المراكز العلمية والأدبية في ذلك العهد. ومنهم كان شيخ الجلبي الشيرازي الذي دعاه أكبر من جملة العلماء من شيراز. وقد استمر هذا النشاط العلمي والثقافي الذي وصل قمة مدارجها ازدهارًا في عهد أكبر حتى عهد جهانكير[١].

وكان فتح بور سيكري مركزًا آخر ازدهر بالنشاط العلمي في عهده. وهو بنى فيها عدة مدارس، منها مدرسة بناها أكبر للشيخ حسين سنة ١٥٩١م في حضبة جبيلة وعلى جانبها جامع مسجد كبير وخانقاه، وكان المسجد قد أنشأ على أنموذجة مسجد في مكة، وكان ذلك بعد اتخاذها عاصمة لمملكته[٢]، وفي هذه المدارس وكثير من المدارس والمكاتب الأخري التي قامت في عهده في أرجاء المملكة كانت العلوم المختلفة تدرس فيها بطريق سهل ونصاب منظم على أساس علمي أدخلت فيه لأوَّل مرة على جانب العلوم العربية والإسلامية التقليدية العلوم العقلية وعلم النجوم والرمل والحساب والمنطق والطب والطبيعيات والإلهيات والسباق والفلاحة والمساقة والهندسة وتدبير المنزل وسياسة المدن والرياضي والتاريخ ومن العلوم الهندي بياكرن وبيدانت، والفلسفة وغيرها، يتعلم فيها الطلاب المسلمون والهنود على السواء. ويقول أبو الفضل أن هذه المدارس والمكاتب بنصابها المنظم على أساس علمي وسهل قد زادت رونق البلاد فازدهرت بنشاط علمي لم يسبق[٣].

وقد أنشأ أكبر أيضًا في فتح بور سنة ٩٨٣هـ قطرًا يعرف بجهبار إيوان (القصر الأربع) أو عبادتخانه، وكان كمجمع للعقلاء والعلماء

---

[١] أبو الحسنات الندوي، ص ٣١. ثميث، ص ٤٣٤.
[٢] أبو الحسنات الندوي، ص ٣١. ثميث، ص ٤٣٤.
[٣] مسلم ثقافت، ص ٢١٩.

تناقش وتناظر فيها المسائل العلمية والسياسية وشئون الدولة، ليساهم في المناقشة العلماء المسلمون والهنود وعلماء نصاري وغيرهم على السواء[١]. وقد جمعت فيها كتب من كل علم وفن نظمًا ونثرًا وفي اللغات الفارسية والهندية والكشميرية والعربية، وكانت الكتب تقرأ فيها لأكبر في الليالي صفحة صفحة ثم يجزل باختتام القراءة من يقرأها بالمكافآت[٢].

وكان أكبر مغرمًا ومولعًا لجمع الكتب أيضًا، وهو أنشأ دارًا كبيرة للكتب باسم «كتبخانه شاهي» التي ما كانت لها مثيل في عهده احتوت أربعة وعشرين ألفًا من الكتب النادرة المخطوطة في العلوم الأدبية والطبية وعلم الفلك والموسيقي وعلم اللغة والفلسفة والتصوف والفقه والتفسير والحديث والهيئة والهندسة وغيرها وهو سمت لها بعد وفات فيضي كتبخانته التي تحتوي أربعة آلاف وثلاثمائة من الكتب المتنوعة. وكان يشجع العلماء والأمراء أيضًا أن يحفظوا كتبخانات ذات كتب نادة في مختلف العلوم والفنون[٣].

وكذلك أنشأ أكبر دارًا لنسخ الكتب يدرس فيها كل فروع النسخ لفن التصور والخطاطي والنقاشي والتجليد والتذهيب والزخرفة ويقول سير تاس أرنولد: إن المصورين في هذا الدار قد بلغ عددهم ألفا ومائة، وكان الخطَّاطون والنقَّاشون لا يحصرون بحد. وقد بلغ عدد الكتب التي أنتجها هؤلاء الخطاطون سنة ١٦٤١م أربعة وعشرين ألفا من الكتب النادرة[٤]. وكان محمد حسين الكشميري زرش قلم أي صاحب القلم الذهبي من أشهر الأساتيذ في أسلوب الخط

[١] مسلم ثقافت، ص٢١٦.
[٢] در باري أكبري، ص ١١٤.
[٣] مسلم ثقافت، ص ٢١٧.
[٤] مسلم ثقافت، ص ٣٨٩. سميث، ص ٤٢٦.

النستعليق في عهد أكبر.

وقد اهتم أكبر لترجمة الكتب من اللغات السنسكرتية واليونانية والعربية والتركية إلى اللغات الفارسية والبهاشية والهندية. وهو استخدم طائفة كبيرة من علماء اللغات لدار الترجمة التي بناها باسم «مكتب خانه»، وقد ترجمت أو وضعت كتب كثيرة بأمره واقتراحه، ومن أهمها زيج ألغ بيك ترجمها هيئة من علماء الهند تحت إشراف فتح الله الشيرازي[١] من الفارسية إلى الهندية[٢]، وأتهر بن ويد ترجمها إبراهيم السرهندي[٣] وغيره، وتاريخ الفن وضعها هيئة من علماء المؤرخين بمناسبة ذكرى ألف سنة هجرية بمقدمة من أبي الفضل، و«تزك بابري» ترجمه عبد الرحيم خان خانان[٤] من التركية، و«تاريخ كشمير» ترجمه مولانا شاه محمد شاه آبادي وبدايوني من السنسكريتية، و«معجم البلدان» نقلها هيئة من العلماء، و«مهابهارت» التي ترجمت باسم «السلطان رزمنامه» في ألف مائة من البيت، و«رامايـن»[٥] ترجمتها هيئة من العلماء، و«نلدمن أونل ودمينتي» على نمط «بنج كنج» (الخمسة) نظمه فيضي في مائتين وأربعة آلاف من البيت في بحر قصة ليلي ومجنون، كتاب في الحساب ترجمها أبو الفيض بن المبارك من سنسكريتية إلى الفارسية و«الناجك» كتاب

[١] محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبيَّة والهند، ص. ٢٥٩–٢٦٠. الساداتي، ص. ١٥٦–١٦٠. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص. ٢٩٢–٢٩٨.

[٢] أئين، أكبري، ٧٦/١.

[٣] الشيخ الفاضل الحاج إبراهيم السرهندي، أحد كبار الفقهاء الحنفية، قرأ العلم على المفتي أبي الفتح بن عبد الغفور التهانيسري وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وأخذ الحديث عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكي، ورجع إلى الهند وتقرب إلى الملوك والأمراء، توفي سنة أربع وتسعين وتسعمائة، ذكره البدايوني.

[٤] ميرزا عبدالرحيم خان‌خانان، پسر محمد بيرام‌خان خان‌خانان و از وزيران صاحب قدرت و هنرپرور و از شاعران دربار گوركانيان هند در زمان جلال‌الدين اكبرشاه و جهانگير شاه بود. او در روند مهاجرت هنرمندان ايرانى به هند مؤثر بود.

[٥] أحد الكتب التاريخية للهنادك في لغة بهاكا.

فـي علـم الهيئـة نقلهـا مكمـل خـان الكجراتـي و«هربنـس» ترجمـه ملا شيري بن يحيى اللاهوري إلى الفارسية[١].

و«كليلـة ودمنـة» ترجمهـا مـن جديـد أبـو الفضـل الغلامـي باسـم «عيـار دانـش» والإنجيـل ترجمـه أبـو الفضـل[٢] «والجامـع الرشـيدي» ترجمـه البدايونـي مـن العربيـة[٣]، و«بحـر الأسـماء»، كتـاب الأسـاطير الهنديـة ترجمـه البدايونـي[٤] و«سـنكها سـن بيتسـي» ترجمهـا البدايونـي مـن السسـكريتية و«سـيمبا نامـه خـرد أفـزاد» و«حيـاة الحيـوان» ترجمـه الشـيخ مبـارك الناكـوري مـن اللغـة العربيـة، وكتـاب الأحاديـث وطبقـات أكبـر شـاهي وسـواطع الإلهـام، تفسـير بلا نقـط وضعـه أبـو الفيـض الفيضـي فـي خمسـة وسـبعين جـزء، و«مـوارد الـكلام أيلا بلا نقـط» و«مركـز أدوار» أيضًـا للفيضـي، و«أكبـر نامـه» لأبـي الفضـل فـي تاريـخ أكبـر، كشـكول مذكـرات أبـي الفضـل، وجوتـش ترجمـة خـان خانـان وهـي كتـاب منظـوم مصرعـه الأول فـي الفارسـية والثانـي فـي السنسـكريتية و«ثمـرة الفلاسـفة» وضعـه عبـد السـتار بـن قاسـم و«خيـر البيـان» وضعـه بيـر تاريكـي وهـو كان من علماء الوهابين[٥].

وكان متجسًـا ومتحفًـا للتحقيقـات والتجـارب العلميـة فـي كل ناحيـة مـن نواحـي الحيـاة. ومـن أغـرب مـا جـرب لغـرض التخصـص العلمـي كان إنشـاءه سـنة ٩٨٨هـ دارًا للأصـم سـمَّاها «كنـك محـل» أي دار الأصـم. وكان يرمـي مـن إنشـائه أن تؤخـذ فيهـا الأطفـال حديثـة الـولادة ويـرى منهـم كيـف يأخـذون التكلـم واللغـة هـم يسـتعملونها، ومـا

---

[١] نفس المصدر، ٣٩٦/٢.
[٢] آئين أكبري، ٧٧/١.
[٣] بديوني، منتخب، ٢٦٠/٢.
[٤] بديوني، منتخب، ٣٨٤/١.
[٥] در بار أكبري، ١١٥/١١٤.

المذهب ينشأون به فطريًّا. وهو وضع في هذه الدار التي بناها بعيدة عن المدينة عشرين من الأطفال الذين أخذوا من أحضان أمهاتهم أثر وضع الحمل، وكانت الخدمة والمربون والمربيات والحاضنات بأسرها من الأصم فنشأ فيها الأطفال يتكلمون ويصيحون كصياح الغراب ولا يفهم أحد كلامهم[١].

وكان أكبر فظًّا للوقت وهو قسم أوقات العمل لموظفي الدولة وغيرهم فعيَّن خمسة ساعات للأعمال الحسنة وثلاثة ساعات للرياضة البدنية، وهو عيَّن وقتًا خاصًّا يسمع فيه شكايات الناس ويقضي دعاويهم ويفصل منازعاتهم. وقد قرَّر وقت الأكل والشرب أن لا يتعدَّى ساعتين وقرَّر أربعة ساعات لخدمة الحيوانات كما قرَّر ساعة معينة للنوم ولخدمة من يحتاج من الرجال والنساء الذين كبر سنهم ولا يقدرون العمل[٢].

وقد عاش في عهده طائفة كبيرة من العلماء والفضلاء من المسلمين، ومن أهل الهنود. وكان يشجعهم ويكرمهم ويسرفهم بالعنايات والمكافآت يستمد منهم يستشيرهم في إصلاحاته الاجتماعية والعلمية والدينية.

وهو قسم العلماء إلى خمسة طوائف؛ الطائفة الأولى خديو نشئتين أي أهل النشئتين: وكانت تمثل كبار العلماء علمًا واعتبارًا وإدراكًا. وكان لهم رعاية خاصة في البلاط، وكانت تمثل اثنين وعشرين من علماء المسلمين وتسعة من علماء الهنود. وهم ساعدوا أكبر في إصلاحاته الاجتماعية والدينية وكذا في نشر «دين إلهى». وكان في رأس هذه الطائفة الشيخ مبارك الناكوري الخليل القديم لإمبراطور الذي كان عالمًا

[١] در باري، أكبري، ١٠٩.
[٢] در باري، أكبري، ١٠٩.

كبيرًا من علماء التصوف، ومبرد الشيخ عطي ناكورى، وكان ممن التحق وساعد أكبر في مذهبه «دين إلهي»، بل كان الواضع الحقيقي لهذا الدين[١]، وهو جد أبي الفضل العلامي[٢] المشهور مات سنة ١٥٩٣م. وله عدة مؤلفات، من أهمها: «تفسير منبع نفائس العيون» في أربعة مجلدات. وكان الشيخ نظام والشيخ أوهن والشيخ ركن الدين والشيخ عبدالعزيز وشيخ الهدى والشيخ عبد الغفور من أشهر رجال هذه الطائفة. ومن علماء الهنود بادهوسريستى، ومده سوون، ونارائن أسرم وغيرهم كانوا من أشهرهم.

والطائفة الثانية خداوند باطن، أي؛ أهل الباطن: وهم كانوا علماء التصوف الذين لايهمهم أمور الدنيا ولا الأمور الظاهرية، وكانوا لا يساهمون في إصلاحات أكبر الدينية والاجتماعية، وكانوا يشملون إحدى وعشرة عالمًا من المسلمين وعالمين من أهل الهنود. وكان خواجه عبد الشهيد[٣] حفيد خواجه أحرار ولي السمرقندي[٤] والشيخ سليم الجشتي والشيخ محمد غوث من أشهر هذه الطائفة والشيخ سليم الجشتى كان من كبار الزهاد والشيوخ في الطريقة النقشبندية، وكان من أسرة شيخ فريد الدين كنج شكر، وكان زاهدًا جوَّادًا. زار

[١] سميث ص ٢٤٨.
[٢] أبو الفضل، فيض الله بن مبارك العلامي، الأكبر آبادي.
[٣] خواجه عبد الشهيد الأحراري الشيخ الأجل عبد الشهيد بن عبد الله بن الخواجه عبيد الله الأحراري السمرقندي، أحد كبار المشايخ النقشبندية، ولد في أيام جده وتربى في مهد أبيه وأخذ عنه، ودخل الهند سنة ست وستين وتسعمائة فاستقبله أكبر شاه التيموري بترحيب وإكرام، وأقطعه أرضاً خراجية، فطابت له الإقامة بالهند وأقام بها نحو ست عشرة سنة، ولما كبر سنه رجع إلى بلاده سنة اثنتين وثمانين فلما وصل إلى سمرقند مات بها بعد شهر كامل من وصوله ليلة السبت لثمان خلون من رمضان سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فدفن بمقبرة أسلافه. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.
[٤] خواجة ناصر الدين عبيد الله، ولد في طشقند سنة ٨٠٦ بقرية باغستان في رمضان. وكان والده خواجة محمود، وجده خواجة شهاب الدين، من أهل العلم والحكمة؛ كانت والدته من نسل الشيخ عمر الباغستاني، درس التعليم الابتدائي في طشقند وفي عام ٨٢٨ سافر إلى سمرقند وهرات، والتقى خلال هذه الرحلة بعدد من مشايخ الصوفية مثل بهاء الدين عمر، وحسام الدين بارسا، وزين الدين خفيفي، وسعد الدين كاشغري، ثم وعظ وأرشد، واتبعه كثير من الناس في المنطقة والبلاد المجاورة. سلسلة العارفين. ص. ١٠١. حبيب السير. ١٠٩/٢.

مكـة للحـج مرتيـن وكثيـرًا مـن بلاد الإسلام، اسـتغرق جولتـه اثنيـن وعشـرين سـنة، ومنهـا زار بلاد الـروم (إسـتنبول)، وكان أكبـر يحبـه ويكرمـه أحسـن إكـرام، وهـو سـمى ابنـه سـليم جهانكيـر باسـمه واتخـذ فتح بور سيكري حاضرته إكرامًا له.

وخواجه عبد الشـهيد كان عالمًـا كبيـرًا صاحـب كرامـات، عـاش فـي الهنـد عشـرين سـنة ثـم عـاد إلـى سـمرقند ومـات فيـه. يقـال أنه كان يسـاعد ويسـعف ألفيـن مـن الغربـاء بالطعـام والغـذاء. وكان الشـيخ محمـد غـوث مـن الزهـاد وهـو عـاش اثنتـي عشـرة سـنة بالرياضـة فـي الغـار ولـه عـدة مؤلفـات أهمهـا «الجواهـر الخمسـة» و«دعـوة أسـماء». وكان رام بهـدر وجروب من علماء الهند في هذه الطائفة.

والطائفـة الثالثـة داننـده معقـول ومنقـول أي علمـاء العقـل والنقـل: وهـم يشـملون العلمـاء والمدرسـين الذيـن يشـغلون علـم المعقـولات والمنقـولات، انتسـب فـي هـذه الطائفـة اثنـا عشـرة مـن العلمـاء والفضلاء منهـم مولانـا الشـيخ حسـين الأحمـدي، حفيـد شـيخ معيـن الديـن سـنجر الجشـتى[١] الأحمـدي. والأميـر فتـح اللـه الشـيرازي[٢] والحافـظ كمكـي التاشـكندي ومولانـا سـعيد التركسـتانى[٣]. ومولانـا محمـد بـن علاء

[١] هو الخواجا معين الدين حسن بن الخواجا غياث الدين السجزي، ولد في سجستان سنة ٥٣٦ هـ. ويعتبر من أشهر من انتسب إلى الطريقة الجشتية. توفي الجشتي سنة ٦٢٧ هـ وهو دفين أجمير بالهند وقبره محجة للمسلمين والهندوس معا. جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ط.٣. (بيروت: دار الطليعة). ص. ٢٦٠.

[٢] فتح الله الشيرازي، يشار إليه أحيانًا باسم الأمير فتح الله شيرازي، كان موسيقيًا فارسيًا هنديًا عالمًا وفقيهًا إسلاميًا ووزيرًا للمالية ومهندسًا ميكانيكيًا ومخترعًا وعالم رياضيات وفلكيًا وطبيبًا وفيلسوفًا وفنانًا الذي عمل لصالح أكبر، حاكم سلطنة مغول الهند.
Bag، A. K. (2005)، Fathullah Shirazi: Cannon, Multi-barrel Gun and Yarghu، Indian Journal of History of Science. 431–436.

[٣] هو الشيخ العلامة محمد سعيد الحنفي التركستاني كان وحيد دهره في المنطق والحكمة، قرأ بعض الكتب على الشيخ أحمد جند وبعضها على محمد سرخ، وقرأ أياماً على عصام الدين إبراهيم بن عرب شاه الإسفراييني حتى حاز قصب السبق، وورد الهند سنة ستين وتسعمائة فنال الحظ والقبول من أكبر شاه التيموري، فسكن بالهند واشتغل عليه خلق كثير. وله يد بيضاء في العلوم الآلية والعالية، وكان كثير

الديـن اللاري[١] أسـتاذ أكبـر، وخواجـه صـادق السـمرقندي مـن أسـاتيذ عبـد الحكيـم بـن أكبـر. وكان الشـيخ الحسـين ممـن خالـف ديـن أكبـر الـذي أدى إلـى طـرده إلـى مكـة المكرمـة ثـم قتلـه أكبـر فـي محبسـه بكار السـند، حتـى أن أمـراء أكبـر ونسـاء بلاطـه لـم يتنـأوا ولـم يألـوا جهـدًا فـي هـذا الميـدان وهـم أنجـزوا خدمـات جليلـة علميـة. وكانـوا مـن زمـرة العلمـاء والأدبـاء، وهـم يشـجعون العلـم والأدب ويهتمـون لإنشـاء مؤسسات علمية وثقافية.

منهـم: كانـت ماهـم أنكـه[٢] أم أدهـم خـان[٣] وحاضنـة أكبـر، قـد بنـت مدرسـة كبيـرة عرفـت بمدرسـة «خيـر المنـازل»[٤] معـه مسـجدًا جميـلاً. وكذلـك أنشـأ خواجـه معيـن مدرسـة أخـرى درس فيهـا ميـرزا المعلـى السـمرقندي ثلاث سـنوات. وكان عبـد الرحيـم خـان خانـان[٥] بـن بيـرم

الفوائد حسن المحاضرة حلو الكلام مليح الشمائل
ديناً متواضعاً شفيقاً على طلبة العلم، مات سنة سبعين وتسعمائة ببلدة كابل. نزهة الخواطر، ٣٢٢/٤.

[١] هـو العلامـة محمـد بـن الحسين اللاري الشـيخ علاء الديـن بـن كمـال الديـن السـنبهلي أحـد الأفاضـل المشـهورين في العلوم الحكمية، ولد ونشأ بأرض العراق، وقرأ العلم على العلامة جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني وقدم الهند، فاغتنم قدومه على قلي خان الشيباني وقربه إليه وقرأ عليه بعض العلوم المتعارفة، ولما قتل علي قلي خان المذكور طلبه أكبر شاه التيموري إلى آكره، فلما دخل الحضرة قصـد اليـمين وأرد أن يقـوم فوق مـكان الخان الأعظم، فمنعه ميرتـوزك عـن ذلـك وأمـره أن يقـوم موقـف العلماء. نزهة الخواطر، ٤٠٧/٤.

[٢] هـو كانـت مهـام أنغـا (توفيـت عـام ١٥٦٢) الأم الحاضنـة وكـبيرة الممرضـات الرطبـة للإمبراطـور المغـولي أكبر. كانـت المستشـارة السياسـية للإمبراطـور المراهـق والعامـل في الإمبراطوريـة المغوليـة مـن ١٥٦٠ إلى ١٥٦٢.

Ma’asir al-umara by Samsam ud Daula, vol. 1, pg. 158, Urdu Science Board, Lahore (2004)
Jackson, Guida M. (1999). Women rulers throughout the ages: an illustrated guide ([2nd rev., expanded and updated ed.]. ed.). Santa Barbara, Calif: ABC-CLIO. p. 237.

[٣] هـو أدهـم خـان (١٥٣١ – ١٦ مايـو ١٥٦٢) جنـرالا لأكبر. كان الابـن الأصغـر لـكان ماهـام أنغـا، وبالتـالي، الأخ بالتبني لأكبر. في سـنته الرابعة من الحكم، تزوجه أكبر من خافيدا بيغـوم، ابنة بقي خان بقلاني.

Beveridge, H. (1907, reprint 2000). The Akbarnama of Abu’l Fazl, Vol. II, Calcutta: The Asiatic Society, ISBN 81-7236-093-2, p.129

[٤] وتقف الآن مقابل بورانا كيلا، دلهي على طريق ماثورا، جنوب شرق بوابة شير شاه.

[٥] خانـزادا ميرزا خـان عبـد الرحيم (١٥٥٦ –١٦٢٧)، المعـروف شعبيا ببساطة باسـم رحيم بعنـوان خـان خانان، كان شاعرا عاش في الهند خلال حكم إمبراطور المغول أكبر، الذي كان معلم رحيم. كان واحدا

خان خانان[١] الشهير من أشهر أمراء أكبر، وبقيادته العسكرية ولباقته السياسية وكذلك باهتمامه العلم والفن والأدب وحمايتها، وكان نفسه شاعرًا وأديبًا ماهراً في فن الإنشاء في اللغات الفارسية والتركية والعربية والهندية. وهو ترجم «تزك بابر» من اللغة التركية إلى الفارسية، وكان ابنه أيضًا ممن تلقوا بالتعليم والتربية الخاصة، وهو أخذ التعليم عند علماء الكبار في عهده، وكان لعبد الرحيم خان خانان مكتبة كبيرة تحتوي الكتب النادرة يستفيد منها العلماء، وكان نفسه مرجعًا لمتعطشي العلوم، وقد استفاده من فيضه نحو ستين من العلماء عن كثب وعن طرق مختلفة[٢].

وإن الخدمات التي أنجزها أكبر وأمراءه في ميادين العلم والفن والأدب والازدهار التعليمي والتدريسي بقلب مغرم وشوق مولع لم يسبق مثالها في العهود الغابرة، حيث إن تقديرهم منزلة العلماء والشعراء وتشجيعهم في مدة قد أحدث تغييرًا عظيمًا في الحركة الفكرية والعلمية وانكشافها في الهند[٣].

وقد ازدهرت في هذا العهد في مدارس البلاد ومكاتبها العلوم العقلية والفلسفية والفنية ورسم الخط نسخ تعليقي ورسم الخط الفارسي وأدبها وغيرها من العلوم المتداولة التي لم تكن سابقة حتى ذلك العهد[٤].

من الوزراء التسعة المهمين (ديوان) في محكمة أكبر، والمعروفة باسمنافاراتناس.

Abdur Rahim khan-i-khana's tomb Indian Express, 4 December 2008.

[١] هو محمد بيرم خان، المعروف باسم بيرم خان أو بيرم خان كان قائدا عسكريا مهما، ثم القائد العام للجيش المغولي، ورجل دولة قوي ووصي في بلاط الأباطرة المغول، همايون وأكبر. كان أيضا الوصي وكبير المرشدين والمستشار والمعلم والحليف الأكثر ثقة في أكبر. كرمه أكبر باسم خان خانان، وهو ما يعني «ملك الملوك». كان يطلق على بايرام في الأصل اسم بايرام «بيغ»، ولكن تم تكريمه لاحقا باسم خان كان بيرام خان جنرالا عدوانيا كان مصمما على استعادة سلطة المغول في الهند.
Chandra, Satish (2005). Medieval India: from Sultanat to the Mughals (Revised ed.). New Delhi: Har-Anand Publications. p. 95

[٢] مآثر رحمي، مسلم ثقافت ص ٢٢١.

[٣] المرجع السابق ص ٢٢١.

[٤] عهد إسلامي هندستان، ص ٢٩٧.

وكان الحافظ كمكي التاشكندي من زبدة العلماء ومن كبار المدرسين، وله تفسير على سورة القتال وسورة محمد، انتسب بلاط أكبر بالمكافآت ثم ذهب إلى إستانبول فأكرمه السلطان التركي وعرض له الوزارة العظمى، ولكنه رفضها ثم عاد إلى تركستان.

وكان مولانا علاء الدين اللاري من العلماء الكبار وله شرح لـ «عقائد النسفية» تأليف حافظ الدين النسفي[١]، وكان ملا صادق السمرقندي أيضًا عالمًا وشاعرًا ذات شهرة.

والطائفة الرابعة: شناساي على كلام، أي: العارفون للعقل والكلام والحكماء (الأطباء)، وهم يشمل للسبعة من المسلمين وخمسة عشرة من أهل الهنود، وكذلك خمسة وعشرين من الأطباء المسلمين (أوقنور) وأربعة من أطباء أهل الهنود. ومنهم مولانا مير محمد وعبد الباقي ميرزا علي، ومولانا نور الدين مير خان، ومن الأطباء الحكيم المعزي والحكيم الملك والحكيم أرسطو والحكيم مير الملك والحكيم لطف الله والحكيم همام والحكيم الشفائي وغيرهم.

وهم كانوا من العلماء الذين يشغلون للعلوم النقلية كالأحاديث والقرآن وغيرها، وكانوا يشملون إحدى وأربعين من العلماء منهم مخدوم الملك من مقربي همايون وشيخ الإسلام مولانا عبد الله السلطان اليورى، وكان عالمًا متعصبًا لا يحبه أكبر. وله عدة مؤلفات أهمها «عصمت أبنيان» و«شرح شمائل النبي»، ومولانا عبد السلام وكان عالمًا فقيهًا ذات شهرة في الهند، وله شرح لـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للقاضي البيضاوي[٢]،

[١] أبو البركات حافظ الدين النسفي هو عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (٧١٠هـ) فقيه حنفي، ولقب بأبو البركات، ظهر في مدينة نسف فيما وراء النهر. الحنفي، محي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن سالم بن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية. (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركه، ١٩٨٠).

[٢] هو الإمام القاضي المفسر ناصر الدين أبو سعيد أو أبو الخير عبد الله بن أبي القاسم عمر بن محمد بن أبي الحسن علي البيضاوي الشيرازي الشافعي، ولد في المدينة البيضاء بفارس –وإليها نسبته– قرب

وملا عالـم الكابلـي كان عالمًـا ثريًّـا، ولـه كتـاب بعنـوان «فواتـح الولايـة»، والشيخ منور اللاهـوري[١]، وكان ممـن خالـف ابـن أكبـر وحبس فـي حصـن كوالبـار، ولـه شـروح لـ «مشـارح الأنـوار» فـي الحديـث، و«بديـع البنيـان» و«إرشاد القاضي»[٢] ومير نور إله والشيخ عبد النبي بيدر حيان وغيره[٣].

وعلـى جانـب هـؤلاء عـاش فـي عهـد أكبـر وتحـت رعايتـه طائفـة مـن كبـار المؤرخيـن أكبرهـم وأشـهرهم أبـو الفضـل العلامـي[٤] وكان عالمًـا كبيـرًا ومؤرخًـا وأميـرًا لأربعـة آلاف، هـو سـاهم فـي وضـع كتـاب «تاريـخ ألفـى» وضعـه هيئـة مـن المؤرخيـن بمناسـبة ذكـرى ألـف سـنة للهجـرة، وكان نقيـب خـان (شـارع الكتائـب) وملا أحمـد التاتـوي وجعفـر بيـك آصف خان[٥] من أعضاء الهيئة[٦].

وقـد كتـب أبـو الفضـل العلامـي مقدمـة لـه، ولـه عـدة مؤلفـات هامـة

شيراز، ولا تعلم سنة ولادته تحديدًا والغالب أن مولده أوائل القرن السابع الهجري. مات بتبريز في سنة ٦٨٥ هـ. وقيل: سنة ٦٩١ هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ٣٠٩. الوافي بالوفيات، ٥/٤٤٧.

[١] هو العلامة منور بن عبد المجيد بن عبد الشكور بن سلميان ابن إسرائيل اللاهوري، كان من العلماء المبرزين في العلوم العقلية والنقلية، ولاه الصدارة أكبر شاه بأرض مالوه سنة خمس وثمانين وتسعمائة، فاستقل بها عشر سنين، وعزله أكبر شاه المذكور وأمر بحبسه في قلعة كواليار، فلبث في السجن خمس سنين وصنف بها «الدر النظيم في ترتيب الآي وسور القرآن الكريم»، واشتعل السلطان عليه غضباً وأمر بنهب أمواله وكتبه فسلبوها، وكانت عدة كتبه ألفاً وخمسمائة كتاب فما بقي في يده غير الدر النظيم، ثم طلبه السلطان إلى آكره وضيق عليه في السجن حتى توفي في الثاني عشر من ذي القعدة سنة إحدى عشرة وألف فدفنوه في مقبرة الغرباء، ثم نقل أولاده جسده إلى لاهور ودفنوه بمقبرة أسلافه سنة خمس عشرة وألف. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٢] (حكمت بابور، ٤٩٧– ٥٠١. وائين أكبري، ١/ ١٦٦.

[٣] بزم تيموري، ص ٩٦.

[٤] هو أبو الفضل علامي فهامي بن مبارك ناگواري (١٥٥١ – ١٦٠٢م) هو كاتب، وشاعر، ومؤرخ، وسياسي من سلطنة مغول الهند. ولد في أكرة. تم اغتياله حيث توفي عن عمر يناهز ٥١ عامًا. موسوعة البريطانيا: مادة أبو الفضل.

[٥] هو الأمير الكبير جعفر بن بديع الزمان القزويني مرزا قوام الدين آصف خان، كان من العلماء المشهورين في التاريخ والسير والإنشاء وقرض الشعر، ولد ونشأ بأرض الفرس، وقدم الهند في أيام السلطان جلال الدين أكبر بن همايون التيموري، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال الوزارة الجليلة في عهده، ولقبه السلطان آصف خان، وبعثه في مهمة إلى أرض الدكن في أيام جهانكير فمات بها سنة إحدى وعشرين وألف. نزهة الخواطر، ٥/٥١٠.

[٦] حكمت بابور، ص ٥٠٤–٥٠٦.

في التاريخ وغيرها وأهمها «آئين أكبر» و«أكبر نامه» المؤلفان يعدَّان أهم المصادر وأوثقها في تاريخ أكبر وسائر مؤلفاته «مكتوبات العلامي» و«تفسير آية الكرسي» و«رسالة المناجات» و«جامع اللغات» و«كشكول» وغيرها ترجمةً وتأليفًا.

والثاني خواجه نظام الدين أحمد وكان أمير خمسة آلاف، مؤلف «طبقات أكبر» أيضًا في تاريخ أكبر، أصله من هرات جاء جده مع باب. وكان حكام نجشي (حاكم كجرات) من قبل أكبر. وتأليفه «طبقات أكبر» تعد أهم التواريخ التي وضعت في تاريخ أكبر. والثالث ملاَّ عبد القادر بدايونى، وكان فريد عصره، له يد طولى في العلوم الدينية والموسيقي والتاريخ وعلم الهيئة. وبالرغم أنه كان متعصبًا ومعارضًا لإصلاحات أكبر قد بقي منتسبًا للبلاط. وضع كتابه «منتخب التاريخ» مخالفًا له وأخفاه منه في مدة حياته، وله أيضًا «نجات الرشيد» و«كتاب الأحاديث»[١].

وكان أكبر محبًا للشعراء يهتم بحمايتهم ورعايتهم اهتمامًا خاصًّا، وقد انتسب إلى بلاطه مباشرًا أو غير مباشر على قول أبي الفضل ألوف من الشعراء الذين وفدوا إليه من إيران وخراسان وتركستان. وكان يبلغ تسعة وخمسين مباشرًا وقد انتسب إلى بلاطه من شعراء فرس أرسلوا مدائحه من بلاد إيران المختلفة. وكانوا يسمون قافية سنجان أي مسجعوا القوافي. وكان أبو الفيض الفيضي من أشهرهم قربًا وامتيازًا، وهو من أسرة أبي الفضل العلامي، وكان يعرف أيضًا بالفياضي لإفاضة أشعاره بالملاحظة والصفاعة، وكان من أكبر شعراء الفارسي في الهند بعد الأمير خسرو، وتقال مجموعة أشعاره «طبائع

---

[١] بزم تيموري ص ٨٥.

الصبح»[١]، وكان حاميًّا متطرفًا. وهو أنشد خمسين ألفًا من الأشعار المختلفة.

ومنهم خواجه حسين ثنائي المشهدي، وكان في أوائل حياته في خدمة ميرزا إبراهيم ابن شاه طهماسب في إيران، ثم غادره إثر جلوس شاه إسماعيل الثاني عرش إيران، وله عدة مؤلفات أهمهما «إسكندر نامه» و«ساقي نامه».

وأيضًا «قاسم الكاهي»، ومن مؤلفاته «كل أفشان» و«جواب بستان» وديوان للأشعار. وكان أصلاً من أتراك سمرقند، ويعرف أيضًا بميدان كلي نسبة إرية ميدان كلي ما بين سمرقند وبخارى. والغزالي المشهدي وكان شاعرًا ملكيًّا أول من فاز لقب أمير الشعراء في بلاط أكبر[٢] وعرفي الشيرازي، ميرزا المكي المبلي من أتراك هرات، وجعفر بن القزويني، خواجه حسين المروي، وكان من أحفاد شيخ ركن الدولة السمناني، وأنسي شاملو، ودرويش بهرام، وصبوح الجغتائي[٣]، وكان من سمرقند ومشفقي بخارى[٤]، ويعرف أيضًا بسلمان زمان، وكلهم من الأتراك. وأيضًا بادشاه كلي جزمي مني نارمن، وقاسم أرسلان مشهدي[٥] وغيرهم كانوا من أشهرهم شعراء عهد أكبر[٦]، ونظيري النيشابوري[٧] وملا نور الدين محمد شير خان

---

[١] بزم تيموري ص ٧٤.

[٢] بزم تيمورية ص ٩٦. مآثر الكرام. ٢ / ١٥.

[٣] هو صبوحي الجغتائي، البدخشاني، الهروي، المشتهر في شعره بصبوحي. رحل الى الهند واستوطنها أيام السلطان أكبر شاه سلطان الهند، واختص به وحظي لديه. توفي سنة ٩٧٣ هـ. الذريعة، ٩ /٥٩٤.

[٤] كان من شعراء عبد الله خان أزبك. وجاء إلى الهند في عهد أكبر ورجع إلى بخارا ومات ٩٩٥ كذا ترجمه وأورد شعره.

[٥] أرسلان مشهدي، كان من أحفاد أرسلان جارى من أمراء السلطان محمود سبكتكين. نشأ بما وراء النهر وسافر إلى الهند وأكرمه أكبر شاه وكان خطاطا في النستعليق فلقب (مير علی ثاني) وكان ماهرًا في استخراج التواريخ المنظومة وله توجد ديوانه في الف بيت.

[٦] حكمت بابور، ص ٥٠١-٥٠٤.

[٧] هو محمد حسين النيشابوري، المعروف بنظيري. ولد بنيسابور، وبعد وفاة والده رحل في بلاد خراسان

لاكوزي وغيرهم.

ومن العلماء والشعراء أيضًا حكيم أبو الفتح الكيلاني[١] كان أميرًا وعالمًا، هو أنشأ لتشجيع الشعراء جامعة باسم بيت العلماء وكان له منزلة عند أكبر كمنزلة جعفر البرمكي[٢] عند هارون الرشيد، وأيضًا الشيخ عبد الحق الدهلوي[٣] والمحدث حاجي إبراهيم والشيخ جلال الدين والشيخ داود الجهني وغيرهم.

وأيضًا عاش في هذا العهد من نوابغ الشعراء الهندوكسيين طولمي دامي صاحب «راميان الروزمي» وكان يعيش في بنارس وسورداس الذي كان شعراء البلاط[٤].

وقد ازدهر الأدب الهندوكي أيضًا بنشاط كبير في عهد أكبر. وقد

والعراق وفارس، ثم انتقل إلى الهند، وتقرب من حكامها كالملك أكبر شاه ملك الهند وغيره وحظي لديهم وسكن مدينة اكره، وبعد أن أدى فريضة الحج سكن مدينة أحمد آباد بگجرات الهند. أخذ التصوف في أواخر حياته عن الملا حسين الجوهري الصوفي. توفي بالگجرات سنة ١٠٢٣ هـ. الشبستري، عبد الحسين. مشاهير شعراء الشيعة.

[١] حكيم علي بن كمال الدين محمد الجيلاني أو صدر الدين علي الجيلاني الهندي، كان طبيبًا عاش في القرن السادس عشر الميلادي، كان عمه طبيبًا، ومن المحتمل أنه كان المعلم الأول لصدر الدين. أكمل صدر الدين دراسته في بلاد فارس (على الأرجح في مكان مولده جيلان)، وهاجر بعد ذلك إلى الهند إلى البلاط المغولي في عهد جلال الدين أكبر، وخدم تحت العديد من حُكّام المغول في شمال غرب الهند. ألف صدر الدين الجيلاني كتاب «الشفاء العاجل»: يقول المؤلف في المقدمة إنه ألف هذا العمل تكملةً لكتاب الرازي «برء الساعة». كما ألف صدر الدين الجيلاني كذلك شرحًا لكتاب «القانون في الطب» لابن سينا. تُوفي الحكيم علي الجيلاني في الرابع عشر من ذي الحجة ١٠١٧ هجريًّا.

[٢] هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جاماس بن بشتاسف البرمكي هو وزير هارون الرشيد، وحامل خاتم السلطة. كان أبوه قد أرسله إلى القاضي أبو يوسف لتعليمه وتفقيهه. اشتهر بمكانته من هارون الرشيد وعلو قدره ونفاذ كلمته. عرف بجوده وسخائه وبذل إلى جانب سماحة الخلق طلاقة الوجه. وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة. له نظم بالعربية وشعره قليل وله ديوان رسائل قليل. عفيف عبد الرحمن، معجم الشعراء العباسيين، ط. ١. (بيروت، لبنان: دار صادر، ٢٠٠٠)، ص. ٩٩.

[٣] هو عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي الحنفي. مكث في مكة عدة سنوات، وأخذ عن علمائهما، ثم عاد بعدها إلى الهند، كما كان يجله ويحترمه ملوك ذاك الزمان جهانكير والشاه جهان. قيل: بلغت مصنفاته مئة مجلد، بالعربية والفارسية، منها: «مقدمة في مصطلح الحديث» بالعربية، و«ثبت» في مشايخه وأسانيده عنهم. الزركلي، الأعلام ٣/ ٢٨٠–٢٨١.

[٤] سميث، ٤١٩–٤٢٢.

شجَّعه حياد أكبر نحو التعاليم الهندوكي وأساليبها وأفكارها، وشغفه للوقوف على الأدب الهندي القديم وسياسة المسامحة التي جارت بروح الحماية المطلقة. وقد استمر هذا النشاط في الأدب الهندي الذي قام في عهد أكبر الزاهر حتى في عهد جهانكير الذي جار في إثر أبيه في نظام الحكومة وانتهى حتى عهد شاهجهان وأورنك زيب[١].

وكذلك يعود الفضل في نشئة اللغة الأردوية وازدهارها كلغة حية لعهد أكبر الزاهر. وكان أكبر يجهد أن يجمع شمل رعاياه ويؤلف بين الفاتح الحاكم والمحكوم سياسيًّا، كما اجتهد أن يؤلف بينهم لغةً أدبيًّا وثقافيًّا أيضًا، فذلك كانت الحاجة ماسة لنشر لغة بين طبقات الشعب التي استعمل فيها الكلمات المحلية وغير المحلية سواسيًّا، لذلك شجَّع أدباء الأوردو ومحبيها في نشرها بين طبقات الشعب المختلفة، وكان نفسه ينشد الشعر أحيانًا في اللغة المحلية أي الهندية، وكان يقدر منزلة الشعراء الهندوكيين وكان شعراء بلاطه يترجمون الكتب من السنكريتية إلى الفارسية وكان الفيضي وعبد الرحيم خان خانان اللذان كانا من نوابغ الشعراء في اللغة الفارسية، شاعرين في اللغة الهندية ينشدان الشعر فيها أحيانًا. وقد أدى هذا التشجيع والائتلاف الثقافي والأدبي لائتلاف اللغات المختلفة فنشأت منها لغة جديدة سموها أردو. وهكذا أخذت نشئتها من عهد أكبر فازدهرت حتى تكملت في عهد شاهجهان كلغة حية قادرة للمقاصد الأدبية، وقد لعب راجه تودرمل في عهد أكبر في نشئة اللغة الأردوية دوراً هامًّا بإدخال اللغة الفارسية وجعل تعليمها إجباريًّا للمحاسبين الهندوكيين، كما جعل تعليم اللغة الهندية إجباريا للمحاسبين

---

[١] سميث، ص ٤٢١.

المسلمين لحل المشاكل الحسابية والمالية.

الآثار المعمارية في عهد أكبر

وقد أخذت الآثار المعمارية تزدهر بأسلوب جديد خاصة في عهد أكبر. وقد أنشأت باهتمامه مدن جديدة وأبنية وقصور فاخرة وضريحات عالية البناء وأيضًا معابد للهنود. الآثار التي تعد أنموذجة خالدة للفن المعماري والتي فتحت أبواب التطور والتجديد المتأثر من أسلوب تركستان وخراسان في مستقبل البلاد.

ومن أهم الآثار المعمارية التي أنشئت في عهد أكبر كان ضريح همايون التي بنت أرملة همايون حاجي بيكه في سنة ١٥٦٩ بالمرمر الحمراء والأحجار الكريمة، استغرق بنائها ثمانية أو تسعة سنوات قدرت نفقاتها بمليون وخمسمائة ألف روبية، وهو يعد من أكبر الآثار روعة وإتقانًا وقد تأثرت كثيرًا من كثير حركة إنشاء ضريحات عالية البناء في بلاد الهند فيما بعد.

ومنها تربة أتكه خان وهي ضريح شمس الدين أتكه زوج حاضنة أكبر زخرفت بالمرمر الحمراء والأحجار الثمينة، وقد تم بناءها سنة ١٥٦٦-١٥٦٧ وكان معمارها خدا قلي خان وهي تعد من أروع الآثار المعمارية في دهلي بعد ضريح همايون.

ومنها قلعة أكره كانت قصرًا عظيمًا من أعظم الصور في العالم روعةً وجمالاً استغرق بنائها ثمانية وتسعة سنوات، وقد أحدث فيها جهانكير محل فيما بعد، وكانت هذه القلعة تثمن من خمسمائة، وأيضًا قلعة لاهور تعد من أروع القوص التي بقيت من عهد أكبر قد أحدثت فيها بعض تغيرات في عهد كل من شاهجهان ووعهد إنجين

سينك.

ومن أهم المدن التي أنشئت في عهد أكبر كانت فاتح بور سيكري التي على قول فرجوسن كانت ممثلة ما في قلب أكبر من التذوق للفن المعماري[١] وهي شيدت في خصبة مرتفعة في سيكري موطن الشيخ سالم الجشتى وسماها أكبر فاتح بور أي مدينة الفتح. وكانت فاتح بور وأكره على قول فيتشه الذي رأه في زمن ازدهاره مدينتان كبيرتان من ذات نفوس كثيفة الفاصلة بينهما اثنا عشرة ميلا أهلة ومعمورة بالأسواق والبساتين. ويقول سميث أنها ما أنشئت نظيرها روعة وسعة من قبل ولن يمكن إنشائها فيما بعد[٢].

وفيها ديوان خاص تناقش فيه دين إلهي أكبر وكان يقال «عبادتخانه»، وفيها أيضًا جامع مسجد ومدرسة للشيخ سالم حسين وضريحه ومنها بقرة أكبر في سكندره ومقبرة محمد الغوث من أولياء الله في كواليار، وجسر جونيور وغيرها تعد أيضًا من أهم الآثار المعمارية في عهد أكبر.

وهو لم يأل جهدًا في فلح البساتين والحدائق وزرع الأزهار وتطمين شغفه لها، الشغف الذي كان ورثه من جدِّه بابر، وهو كما يقول جهانكير أنشأ بساتين وحدائق جميلة في فاح بور سيكري وسكندره وغيرهما من الأقطار المختلفة[٣]. فأضاف هو وأفراد الأسرة بعده فيها في عدد أنواع الأزهار والأثماء والأشجار المثمرة والخضروات في الهند).

وكان اهتمام أكبر للموسيقي والفنون الجميلة لا يقل من اهتمامه

---

[١] سميث، ص ٤٣٦.
[٢] سميث، ص ٤٤٥.
[٣] سميث، ٤٠٣.

للعلوم والفنون الأخرى. وكان يهتم اهتمامًا بالغًا، ويحمي برعايته من يشغل للفنون الجميلة، وكان في بلاطه طائفة كبيرة من الموسيقيين والمغنيين والمطربين من الهندوكيين والإيرانيين والتورانيين والكشميريين. وكان بينهم المغنيات أيضا.

وهو قسمهم إلى سبعة طوائف؛ طائفة لكل يوم من أيام الأسبوع. وحسب إحصاء أبي الفضل كان في البلاط ستة وثلاثون من المغنيين والمطربين بآلات متنوعة. ومن أشهرهم كان باز بهادر خان حاكم بلاد المالوه، الذي يقال في وصفه أنه كان مغنيًّا بلا مقابل، ثم ميان تانسين الذي قال أبو الفضل في وصفه أنه ما كان في الهند منذ ألف سنة مغنيًّا كميان تانسَين.

وكان أكبر نفسه على قول أبي الفضل عالمًا لرموز علم الموسيقي لا مقابل له أحد من المغنيين المتعلمين، وهو تعلَّم الألحان الموسيقية وخاصَّة في اللغة الهندية كلوانت أو ميان لال وكان ماهراً في ضرب الطبل (نقاره)[١].

جهانكير

وكان جهانكير الذي خلف أكبر محبًّا للعلم والعلماء وهو يشجعهم ويقدر منزلتهم. وقال شبلي: إن إيران والهند كانتا كدار واحدة لها منحنيان في عهد جهانكير بما وثقت العلاقة الأدبية والثقافية بين البلدتين إثر ورود علماء كثيرة من إيران إلى الهند[٢]. وهو اهتم بتجديد المدارس القديمة البالية لما نفذ الأمر لإنفاق الأموال التي لا وارث لها لتأسيس المساجد والمدارس والجسور

---

[١]
[٢] بزم تيمورية، ص ١٧٧.

والمسافر خان. وقد تكثرت المدارس في الهند إثر هذا الأمر[١].

وكان جهانكير عالمًا للغات الفارسية والتركية، وهو أكمل «تزك بابر» بإضافة أربعة أبواب التي كانت فائتة فيه. وهو رتب تزكه[٢] على طراز «تزك بابر» بمساعدة محمد الهادي، ومعتمد خان، وله «إقبال نامه جهانكير» في ثلاثة أجزاء. وهو يحب العلماء ويكرم منزلتهم وأنه كان يجزلهم بالمكافآت. ويتحف كتبًا نادرةً من كتبخانته إلى العلماء ويكتب إتحافه على ظهر الكتب.

وقد ظهر في عهده وتحت رعايته كثير من العلماء والفضلاء والأدباء، ومنهم كان ميرزا غياث الدين بيك، وكان عالمًا رياضيا (عالمًا للحساب) أديبًا وماهراً في كتابة الإنشاء وغيرهم. وقد عاش في عهده ملا عبد الحكيم سيالكوتي[٣]. وفي عهده عاش الشيخ أحمد سيد الهندي المعروف بمجدد ألف ثاني (الإمام الرباني)، وهو كافأه بصلة مما جرى بينه وبين أكبر وبين نفسه في أوائل عهده من تخدش واختلاف حيث أطلق سراحه من محبس لو (اليار). وكان طرده بسبب معارضته وتعنده له، ثم شمله في رعايته وأسبغه بإسباغ العطايات والخلعة والنقود. وللهندي مؤلفات عديدة منها: «إثبات النبوة»، و«المبدأ والمعاد» و«المعارف اللدنية» وغيرها. توفي في ٢٨ صفر ١٠٣٤هـ ١٠ ديسمبر ١٦٢٤م.

ومنهم المحدث شاه عبد الحق الدهلوي، وكان عالمًا ومحدثًا كبيرًا، له مؤلفات كثيرة يبلغ عددها مائة ونيف. أهمهم كتاب

---

[١] عهد إسلامي هندستان، ص ٢٨٠. رز تاريخ جام حباي زندراناته وبساتين السلاطين، ص ٣٥١. و خافي خان، منتخب اللباب، ١ / ٦٤٩.

[٢] وإن تزكه الذي كتبها في تاريخ حياته، يعد مثالاً أدبيًّا من حيث السلاسة والبساطة وإظهار الملاحظات والمشاهدات، وقد تمثل فيها الطيور الجميلة والأزهار والمناظر الطبيعية بأسلوب رائع، قلَّ مثاله في كتب الأدب لذلك العهد.

[٣] إقبال نامه جهانكيري، ص ٣٦٠. عهد إسلامي هندستان، ص ٢٢٣.

«اللمعات على شرح مشكاة». «جذبة القلوب في ديار المحبوب» و«مدارج النبوة» و«فتوح الغيب»، و«أخبار الأخبار في سير أولياء الهند».

وكان جهانكير يكرم منزلته، وهو يذكره في «تزكه» باحترام وتعظيم جدير لشأنه[١]، وكان ابنه ومولانا نور الحق أيضًا عالمًا كبيرًا وشيخ الإسلام في عهد شاهجهان وله شرحان لـ «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» وله أيضًا كتاب «زبدة التواريخ» في تاريخ أكبر. وقد استفاد منه كثير من علماء عهده.

وكان جهانكير شاعرًا أنشد بعض أشعار لطيفة في اللغة الفارسية، وكان أديبًا نقادًا في نقد الشعر والتصوير والموسيقي وكتابة الإنشاء فاق أقرانه من أفراد أسرته[٢].

ويقول شبلي: إن جهانكير كان متذوقًا للشعر وناقدًا له حتى أن رأيه بخصوص شعر شاعر ونقده له يعتبر قولا نهائيًا. وكان يحفظ بياضًا (مفكرة) ينتخب ويقيد فيها ما استدعيه من أشعار العرفي والنظيري وأبي طالب كليمة، الأمر الذي يدل على مدى تذوقه الأدبي والبديعي[٣].

وقد انتسب إلى بلاطه طائفة كبيرة من الشعراء والأدباء الذين كانوا يستفيضون من حمايته ومكافئته، وكان يزن من يقدر ويستحسن بالذهب والفضة، وأشهرهم كانوا بابا طالب الأصفهاني، وملا النظيري النيسابوري وملا محمد الصوفي المازندراني وطالب أمكي أمير الشعراء وسعيدي الكيلاني الزركرماشبي ومير معصوم الكاشي

---

[١] مسلم ثقافت، ص ٢٦٣-٢٦٦.
[٢] مسلم ثقافت، ص ٣١٥.
[٣] مسلم ثقافت، ص ٣١٥.

وقولشوره الكاشي وملا حيدر الحصائي وشيدا[١].

وكان نظيري شاعرًا امتاز بأشعاره الرائعة، وذاع صيته في الأقطار، وكان يعيش في كجرات تاجرًا، طلبه جهانكير فكافئه بألف روبية وفرس وخلعة حينما مدحه في قصيدة أنشدها على رديف شعر لأنوري مطلعه «باز ابن خه نجوالى وجمالت جهان را» أي ما أحسن شباب الدنيا وجمالها يريد بها كناية شاهجهان، ثم انتسب إلى بلاطه. وأيضًا من شعراء بلاطه كان «المغرمي»، وكان شاعرًا ومادحًا للسلطان سنجر وملك الشعراء له طلبه جهانكير وأدخله من زمرة شعراء بلاطه. وكان سعيدًا هذا من يستحسن جهانكير أشعاره، وهو أمر وزنه بالذهب تقديرًا وإكرامًا لمنزلته. وكان طالب آملي أصلاً من آمل وعاش مع اعتماد الدولة ابن نورخان انتسب بلاطه وتلطفه بإعطاء خلعة الملك ملك الشعراء له في السنة العاشرة لذكرى عيد نوروز[٢].

وكان جهانكير أول من ضرب من ملوك المسلمين سكة مصورة بصورته وغيرها. وقد كتب في حاشية الطرف الأول من هذه السكة رقم ٨٨٩

قفا بركسه زركرد تصوير شبيه حضرت شاه جهانكير

وفي الطرف الثاني

حروف جهانكير والله أكبر روزارز درعدد شد برابر

وقد ضربت السكة في أجمير سنة ١٥٢٣ [٣]

وكان جهانكير يحب الفنون الجميلة وفن التصوير والموسيقي،

[١] ديباجة تزك جهانكيري، ص ١٩.
[٢] مسلم ثقافت ٣١٦. تزك جهانكير ٢٨٦-٢٩٠.
[3] RB. White head, Calalogue of Coins ,Panjab Museum, Lahore, Vol. II P. 119.

هـذا الأمـر الـذي أدى إلـى إنشـاء طائفـة كبيـرة مـن المصوِّريـن والنقَّاشـين والمجلِّديـن والمذهبيـن وغيرهـم الذيـن كانـو يعـدون مـن أفـراد المسـاق العسـكرية بصفـة الإعـادي والمنصبـدار يأخـذون رواتبهـم مـن بودجـة العساكر كما كانت في عهد أكبر[١].

وكان أبـو الحسـن الـذي شـرفه جهانكيـر بلقب«نـادر الزمـان» وآخـر «نـادر العصـر» الـذي كان يصـور التصـور والأزهـار، وبشـن داس مـراد ومنوهـر وغيرهـم كانـوا مـن أشـهر المصوريـن الذيـن عاشـوا فـي عهـده وتحـت رعايتـه. وفـي عهـده ازدهـرت المدرسـة المغوليـة فـي فـن التصوريـر، فغلبـت التصويـر الحقيقـي علـى التصويـر الخيالـي، وأخـذ محلـه صـور الرجـال والنسـاء والأشـجار والمناظـر الطبيعيـة والأزهـار والحيوانـات أخـذت تمثـل صـورًا حقيقيـةً لا خياليـةً، وكذلـك أخـذ تصاويـر البـلاط والصيـد والمناظـر والمشاغل الحقيقية من تصاوير الغزوات والمعارك الخيالية.

وكان جهانكيـر مولعًـا بجمـع الصـور والنقـوش القديمـة التـي صورهـا مـن اشـتهر مـن أسـاتذة الفـن. وكان ليشـتريها بـأن قيمتـه كانـت وخاصـة الصـور التـي رسـمها بهـزاد وتلاميـذه، هـو اشـترى مثلاً أربعـة تصاويـر يرجـع تاريخهـا إلـى سـنة ١٤٩٠م بمقابلـة ألـف وخمسـمائة روبيـة، ونسـخة مـن يوسـف زليخـا التـي نسـخت بيـد ملا ميـر علـي مـع تصاويـر لمصـور آخـر بألـف ذهـب، وقـد اشـترى صـورة خليـل ميـرزا النـادرة بثمـن بالـغ. وكانـت هـذه التصاويـر زينة زاهرة لمجموعة تصاويره[٢].

ولـو أن جهانيكـر مـا اهتـم كثيـرًا لتخليـق الآثـار المعماريـة ذات أهميـة، ولكنـه كان محبًّـا للصـور الفنيـة وفلـح الحدائـق والبسـاتين. وأن الضريحيـن الفاخريـن يعـدَّان مـن آثـاره المعماريـة، وهمـا ضريـح ميـرزا غيـاث بيـك التـي

---

[١] سميث، ص ٧٣٠.
[٢] واقعات جهانكير إيليت، IV ص ٣٣١.

أنشأها ابنته وزوجة جهانكير نور جهان في قرب أكره لأبيها عماد الدولة ميرزا غياث من مرمر البيضاء دفنت هو وأبوها فيها. وكان أول ضريح أنشأها الأسرة التيمورية من مرمر بيضاء في الهند.

والثاني ضريح جهانكير الذي أنشأ في بستان المسمى لكشا في قرب لاهور في موضع يسمي شاه دره[١].

ومن أشهر العلماء صدر رحبان كان أستاذه في شبابه، أرسل سفيرًا عند عبد الله خان أوزبك، وكان أمير أربعة آلاف، ومولانا ميرزا شكر الله الشيرازي، وكان عميد ديوانه وأعطاه لقب أفضل خان.

ومولانا تقياي الشيرازي ومولانا ميرزا محمد قاسم الكيلاني وكان عالمًا متبحرًا في الحديث والفقه.

وكان جهانكير نفسه ناقدًا ماهراً لفن التصوير وهو يقول إذا جاء عندي بصورة إني أستطيع أن أشخص أنه هل مات مصوره أو حي، ومن هو دون أن يذكر اسمه عنده حتى إذا كانت لوحة فيها عدة صور من أعمال عدة مصور أني أستيطيع أن أشخص عمل كل واحد منها، وحتى أن عين الصورة وجبينها كانت من عمل مصور آخر أن أشخص من هو مصور، هل الصورة ومن هو مصور عينها وجبينها[٢].

شاهجهان

وكان عهد شاهجهان الذي دام من ١٦٢٨-١٦٥٨ (وهو مات سنة ١٦٦٦م) أزهى عهد في تاريخ الهند الإسلامي. وكان شاهجهان راسخًا في الدين، أحدث تأثيرًا كبيرًا في الحياة الفنِّية والمعمارية للبلاد، وهو

[١] حكمت بابر، ص ٥٢٠.
[٢] سميث، ص ٤٢٩ عن تزك جهانكير.

عمل لاسترضاء رعاياه. واستعرض التقويم الشمسي الذي أدخله أكبر، والذي يعرف بـ «تقويم إلهي»، وكذلك ألغى أصول السلام المسمى بالسجدة (زمين بوسى) واستبدله بالسلام العادي وكان يقال له «تسليم»[١].

وقد تقدَّمت البلاد في عهده ولا سيَّما في حقول الزراعة والتِّجارة والعمرانية وغيرها، وساد الرفاه العام في مملكته. ومن أهم أعماله في حقلة الزراعة اهتمامه لتحسين نظام الإرواء، وهو أنشأ قناة كبيرة طولها ١٥٠ كيلومترًا من منبع نهر الراوي في الجبال آخذة من راجبور إلى لاهور، وهي ما تزال حتى الآن. وكان هو يملك التذوق الفني الأعلى. وكان عرشه الثمين المجوهر «تخت طاؤوس» الذي أعمله مزخرفة بأثمن المجوهرات والألماسات التي كانت في خزينته من أروع أعماله الفني. وقد قدر ثمن العرش حسبما تم بعشرة ملايين من الروبية ومنها كانت الماسة كوره ثور[٢].

وكان شاهجهان محبًّا للعلم والعلماء ومولعًا للكتب. وكان يكتب مذكرات وتعليقات بخط جميل. وهو يستجلب في كتبخانته الملكية خاصة علماء الهنود، وقد شهد الاتحاد الديني بين المسلمين والهنود، كما أحيى ابنه داراشكو لهذا الائتلاف. وقد تقدم في عهده الفنون الجميلة كالرسامي والمعماري والزخرفة. وكان فقير خان ومحمد نادر السمرقندي ومير هاشم أشهر رسامي عهده. وأيضًا عاش في عهده المؤرخ عبد الحميد اللاهوري، وهو وضع «تاريخ بادشاهنامه» الذي يعد أهم مصدر في التاريخ[٣]. وأيضًا أفضل خان العلامي المشتهر شكر الله الشيرازي[٤]، ممن اشتهر من علماء بلاطه وكان من مقلدي دواوينه.

---

[١] حكمت بابر، ص ١٩٣.

[٢] حكمت بابور، ص ٢٢٥.

[٣] حكمت بابر، ص ومسلم ثقافت ص ٣٩٤.

[٤] أَفْضَلْ خانُ الشّيرازيّ، شكر الله، المعروف بأفضل خان العلامي، رئيس الديوان والوزير المتمرس والمتنفذ الإيراني ـ الأصل على عهدي جهانگير شاه وشاه جهان الكوركاني. دائرة معارف الإسلامية الإيرانية:

وكان عهده أزهى عهد تجلى فيه الفن المعماري بأكمل مظاهرة وانتهى أعلى قمته وامتزج فيه محاسن الأسلوب الفني التركستاني والخراساني.

وهو أنشأ قصورًا وأبنيةً فاخرةً كثيرةً من المرمر الأبيض وغيره من الأحجار الفضِّية. ومنها قصر ديوان خاص وديوان عام والبرج المثمن ومقر خاص محل وموتي سمجد في أكره ومقل جبل ستون أو ديوان عام وبرج مثمن و قصر ستيش محل في حصن لاهور ومدينة شاهجهان آباد في دهلي ولال قلعة وجامع مسجد كبيري وقلعة معلى، ومن المساجد مسجد وزير خان في لاهور.

وفضلاً على أن شاهجهان اهتم لحفظ المدارس التي أنشئت قبل أسلافه مزدهرة. وهو بنى مدرسة قريبة من جامع في مسجد دهلي ومعها مستشفى. وأيضًا أصلح ورقم مدرسة السقا وكان مولانا صدر الصدور وغيره من العلماء يدرسون فيها[١].

وقد قارن ألفستن عهد شاهجهان الزاهر بالعدل والرفاه بعهد إمبراطور الروم سورس Severws. ويقول تورينر Tevernier الرحال الفرنسي: إن شاهجهان كان يحكم البلاد ليس كالملك، بل كان كأب مشفق يرأس عائلته وأولاده[٢].

وقد لعب وزيره سعد الله خان العلامي[٣] دوراً هامًّا في أعمال شاهجهان الفنية والمعمارية بتدبيره. وكان سعد الله خان عالمًا كاملاً للعلوم العقلية والنقلية وحافظًا للقرآن الكريم، وقد وصفه عبد الحميد

مادة: أفضل خان.

[١] مسلم ثقافت، ص ٢٢٣.

[2] SM. Latif P 43

[٣] هو الوزير الكبير سعد الله التميمي الجنوتي اللاهوري جملة الملك سعد الله خان العلامي، كان من الوزراء المشهورين في الهند. وكان له ذكاء مفرط فبرع وفاق الأقران، ودرس وأفاد زماناً في مدرسة وزير خان بلاهور، وكان يعتزل عن الناس ولا يتردد إلى الأغنياء، فلما قدم شاهجهان سلطان الهند مدينة لاهور في السنة الرابعة عشرة من جلوسه على سرير الملك وسمع بفضله ومكارمه أمر موسوي خان الصدر أن يمثله بين يديه. نزهة الخواطر، ٥٣٢/٥.

اللاهوري[١] بعلامة الوري وفهامة العصر[٢].

وكان لاهور وأحمد آباد ودهلي وجون بور ازدهرت كمراكز نشاط علمي يتوجه الطلبة إليها من الأقطار الشاسعة كبدخشان وهرات وغيرها. وكان ملا محمد يوسف وملا جمال اللاهوري من كبار علماء لاهور في هذا العهد. وقد أخذ منها العلم ملا محمد فاضل البدخشاني[٣] وملا عبد اللطيف السلطانبوري[٤] وملا ميرك[٥] ومير محمد هاشم الكيلاني[٦] وحكيم الملك شيخ محمد[٧] وملا

[١] هو الشيخ الفاضل عبد الحميد اللاهوري، أحد العلماء المبرزين في التاريخ والإنشاء والشعر، ولد ونشأ بمدينة لاهور وقرأ العلم على من بها من العلماء، ثم تفنن بالفضائل على أبي الفضل بن المبارك الناكوري، وصحب الملوك والأمراء مدة مديدة، ثم لازم الترك والتجريد واعتزل بمدينة عظيم آباد واستقام على الطريقة زماناً، ثم استقدمه شاهجهان بن جهانكير التيموري صاحب الهند وأمره أن يصنف كتاباً في سيرته، فصنف كتاباً حافلاً في أيامه وسماه بادشاه نامه وهو مشهور بشاهجهان نامه أيضاً، توفي سنة خمس وستين وألف. نزهة الخواطر، ٥/٥٥٨.

[٢] بزم تيمورية، ص ٢١٢.

[٣] هو الشيخ العالم الكبير العلامة محمد فاضل الحنفي البدخشي ثم اللاهوري، كان من نسل عين القضاة الهمداني، ولد ونشأ بروستاق من أعمال بدخشان، وقرأ بها ما أمكنه في بلاده، ثم دخل كابل واشتغل على مولانا محمد صادق الحلواني زماناً، ثم سار إلى توران وأخذ عن الفاضل مرزا جان الشيرازي، ثم قدم الهند وأخذ الأصول والتفسير عن الشيخ جمال الدين التلوي اللاهوري، ثم ولي عدالة المعسكر في أيام السلطان جهانكير بن أكبر شاه، واستقل بها إلى السنة الثامنة الجلوسية من أيام شاهجهان بن جهانكير، ثم استعفى عن الخدمة وقنع على وظيفته وإقطاعه من الأرض. توفي سنة خمسين وألف بمدينة لاهور فدفن بها. نزهه الخواطر، ٥/ ٦٣٩.

[٤] هو شيخ الفاضل العلامة عبد اللطيف الحنفي السلطانبوري، أحد العلماء المبرزين في العلوم الحكمية، قرأ الكتب الدرسية على الشيخ جمال الدين اللاهوري، وأخذ المنطق والحكمة عن العلامة فتح الله الشيرازي، ثم درس وأفاد وظهر فضله بين العلماء، فجعله شاهجهان بن جهانكير معلماً لولده دارا شكوه في حياة والده جهانكير فلم يزل يعلمه، وكان شاهجهان يجزل عليه الصلات والجوائز، فلما كف بصره رخصه إلى بلدته وأعطاه قرى عديدة، فرجع إلى بلدته والتزم التفسير والموعظة مع الطريقة الظاهرة والصلاح، كما في بادشاه نامه وعمل صالح. وفي مرآة عالم: إن شاهجهان جعله معلماً لولده عالمكير. توفي سنة اثنتين وأربعين وألف. نزهه الخواطر، ٥/ ٥٧٥.

[٥] بادشاه نامه، ١ / ٣٤٢.

[٦] هو الشيخ الفاضل العلامة محمد هاشم بن محمد قاسم الحسيني الكيلاني، أحد كبار العلماء، وأقام بالحرمين الشريفين اثنتي عشرة سنة، ثم قدم الهند وأخذ الفنون الرياضية والصناعة الطبية عن الشيخ علي الكيلاني وتطبب عليه، ثم سكن بأحمد آباد وكان في أيام يدرس ويفيد، فلما اشتهر اسمه وبعد صيته ولي الصدارة بأحمد آباد شاهجهان بن جهانكير سلطان الهند فاستقل، ثم جعله شاهجهان معلماً لولده أورنك زيب. وله تعليقات على تفسير البيضاوي وحاشية على تحرير الأقليدس إلى المقالة التاسعة وله غير ذلك من المصنفات. مات سنة إحدى وستين وألف وله ثمانون سنة. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٧] هو محمد بن أحمد الفارسي المشهور بحكيم المُلك، شاعر حجازي. ولد ونشأ بمكة في عائلة مسلمة

فريد الدين الدهلوي[١] ومير محمد صالح وغيرهم[٢]، ومنهم كان ملا عبد السلام المشهدي [٣]من علماء لاهور، أخذ مير ملاك العلم عنده، وملاًّ كمال الكشميري في سيالكوت، وقد أخذ ملا عبد الحكيم السيالكوتي عنده، وله عدة مؤلفات وضعها باسم شاه جهان. وكان شاهجهان يدور منزلتهما ويعطي لهما راتبًا معينًا.

وكان شاهجهان ينتخب أمراءه ممن فاق من العلماء لمختلف العلوم والفنون. وكان قائد جيشه العلام يمين الدولة آصف خان خانان عالمًا كاملاً، ولا سيَّما العلوم العقلية، وكان يقال بشأنه أنه قبسة شعلة له فطرة الإشراقيين وعلم المشائيين. وكان أديبًا مليح الكلام وجميل العلم، وأيضًا أفضل جان العلامي كان عالمًا للعلوم العقلية والنقلية والهيئة والهندية والحساب وغيرها[٤].

وقد عاش في عهده أيضًا عبد الحكيم السيالكوتي، وكان يقدر

من أصل فارسي وكان لسلفه عند ملوك الهند التيمورية حظوة، ثم صار لهم ذلك عند أشراف مكة من بني حسن. حصلت فتنه بين أشراف مكة اتصلت به فرحل إلى اليمن مختفيًا فأقام مدة، وانصرف إلى الهند سنة ١٦٣٠ فتوفي فيها. عمر فروخ، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، ٥١٦/٢. وكامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢. (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية). ٥/ ١٢٦. ومحمد بن فضل الله المحبي. خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ٣٤٦/٣.

[١] هو الشيخ الفاضل الكبير العلامة فريد الدين بن إبراهيم الدهلوي المنجم، كان معدوم النظير في عصره في الفنون الرياضية، فاق أقرانه في الهندسة والهيئة والنجوم والأعداد والجبر الجامع وكثير من الفنون الغريبة، ومهر في الزيجات والطلسمات، وصار علماً مفرداً في تلك العلوم، واعترف العلماء بفضله، وباهت به الأقطار الهندية، فقربه عبد الرحيم بن بيرم خان إلى نفسه. توفي سنة تسع وثلاثين وألف. نزهة الخواطر، ٦٠١/٥.

[٢] سيد رياسة على ندي، عهد إسلامي هندستان، ص ٢٨١.

[٣] هو الأمير الكبير عبد السلام الحسيني المشهدي، أحد الرجال المعروفين بالسياسة والتدبير، قدم الهند وتقرب إلى شاهجهان بن جهانكير التيموري فولاه على ديوان الإنشاء وجعله وكيلاً له في حضرة والده جهانكير. ثم أضاف في منصبه وولاه على كجرات فاستقل بها سنتين ثم جعله مير بخشي فأرخ له بعضهم من قوله بخشي ممالك فاستقل به سنتين، وكان عالماً كبيراً بارعاً في المعقول والمنقول والإنشاء والخط، حريصاً على الخدمة السلطانية، صاحب دهاء وتدبير وسياسية. توفي في رابع عشر من شوال سنة سبع وخمسين وألف بمدينة أورنك آباد فدفن بها. نزهة الخواطر، ٥٦٤/٥.

[٤] بزم تيموري ص ٢١١.

منزلته وقد كافأه مرتين بنقود كثيرة وبوزنه معًا. وكان عالمًا كبيرًا ذاع صيته بمؤلفاته وحواشيه العديدة لطائفة من الكتب العلمية والدينية والفلسفية والعجم توفي سنة ١٠٦٧هـ، ومنها تعليقاته على «الخيالي» وحواشيه على «تفسير القاضي البيضاوي» وعلى «القطبي» على «الشمسية» وعلى «شرح الجرجاني» لقسمي التصورات والتصديق في حكمي المنطق وعقائد عبد الحكيم السيالكوتي.

ومن أشهر الشعراء الذين عاشوا في عهد شاهجهان ينتسبون بلاطه وتحت رعايته كانوا أبو طالب الكليمي أمير الشعراء والقدسي (محمد جان) وملا رشيد ومير أبو البركات والفيضي ومحمد قلي سليم، وظغرخان أحسن، وكان أميرًا وشاعرًا ترك مثنويتين وديوانًا للأشعار. وابنه محمد طاهر آشنا وسلطان شادمان، والشيخ محمد محسن فاني الكشميري[١] ومحمد حسين أشوب ومير إلهي همداني وباقيا نائيني وميرزا صائب الأصفهاني وحكيم حاذق الكيلاني وغيرهم. ومن شعراء الهنديين كان جندربهان برهن من لاهور وكان مسجل الوقائع لشاهجهان[٢].

ومن المؤرخين محمد أمين القزويني، عبد الحميد اللاهوري ومحمد وارث الذين وضعوا تاريخ شاهجهان باسم بادشاه نامه وميرزا جلال الدين الطباطبائي وضع «شاهجهان نامه» ومن الخطاطين[٣]

وكان شاهجهان ماهراً في خط نستعليق وقد عاش تحت رعايته

---

[١] هو الشيخ الفاضل محمد محسن الحنفي الكشميري المشهور بكشو، كان من كبار العلماء، له تحقيقات أنيقة وتعليقات دقيقة على هداية الفقه والمطول وغيرهما من الكتب الدرسية، مات قبل أن يصل إلى خمسين سنة، ومن مصنفاته «المواهب العلية حاشية على شرح العقائد العضدية» توفي سنة تسع عشرة ومائة وألف. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٢] بزم تيموري ص ١٨٠-٢١١.

[٣] بزم تيمورية ص ٢١٧-٢١٩.

طائفة كبيرة من الخطّاطين ومنهم كان عبد الرشيد الديلمي[١] من أسرة عماد الديلمي. وكان شاهجهان يستحسن خطوط مير عماد الحسيني والقزويني. وكان يجعل من يحيي بأنموذجة من خطه أمير مائة مكافئة له[٢].

ومن الحكماء والأطباء فخر الدين محمد الشيرازي[٣] وحكيم الملك أبو القاسم[٤] وحكيم ركنا بن نظام الدين الكاشي[٥] وحكيم مومناي الشيرازي[٦] وحكيم فتح الله الشيرازي[٧] وحكيم علم الدين وزيرخان[٨] وحكيم داود وغيرهم[٩].

ومن آثار شاهجهان الفاخرة تاج محل وهو من آيات الفن المعماري الإسلامي، وتعد صناعته من أدق تحف الفن وأجملها في الهند. أقامه الملك شاهجهان في أكره آية لحبه زوجه ممتاز محل دار حمبذ بانو بيكيم التي كان متدلها في عشقها والتي توفيت في يونية سنة ١٦٣١ بمدينة برهانبور على أثر الوضع ثم نقل رفاتها في أكره[١٠].

---

[١] الشيخ الفاضل عبد الرشيد الديلمي الخطاط المشهور، لم يكن في زمانه مثله في الخط، أخذ عن خاله السيد عماد الدين، وقدم الهند في أيام شاهجهان بن جهانكير التيموري سلطان الهند، فاستخدمه، وولاه عالمكير بن شاهجهان على البيوتات بمدينة أكبر آباد نظراً إلى كبر سنه، مات في سنة ثمانين وألف. نزهة الخواطر، ٥/٥٦٣.

[٢] (بزم تيمورية ص ٢٢٠.

[٣] بادشاهنامه، ٣٤٧.

[٤] نفس المرجع، ص ٣٤٨.

[٥] نفس المرجع، ص ٣٤٨.

[٦] هو الشيخ صدر الدين بن فخر الدين الشيرازي المشهور بمسيح الزمان، ولد ونشأ بشيراز، وقرأ أكثر العلوم المتعارفة على الشيخ بهاء الدين العاملي، وقرأ بعض الكتب الطبية على محمد باقر بن عماد الدين محمود الشيرازي، وقدم الهند سنة إحدى عشرة وألف، وظفه أكبر شاه وأدخله في زمرة الأطباء، ثم لقبه جهانكير بن أكبر شاه مسيح الزمان، فسافر إلى الحرمين الشريفين وحج مرة ثانية، ورجع إلى الهند فولاه شاهجهان على بلدة سورت واستقام أمره في ذلك، كما في بادشاه نامه. توفي سنة إحدى وستين وألف بكشمير. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٧] بادشاه نامه، ص ٣٥٠.

[٨] عبد الحكيم لاهوري، بادشاهنامه، ٣٤٦.

[٩] كنبو، ٣ / ٣٨٦.

[١٠] دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تاج محل.

استغرق بناء تاج محل وأبنيته الأخرى التابعة اثنتين وعشرين سنة، كان يزاول العلم فيها من غير انقطاع عشرون ألف عامل. وقد وضعت هندسته بعد عقد مجلس من أساطين علماء الهندسة وفحول فن العمارة في الدولة حتى استقر رأيهم بالموافقة بعد تمحيض طويل على التصميم الذي وضعه المهندس المعروف بالأستاذ عيسى.

وقد قال فرجوسن Fergussen: أن التوفيق بين تلك المحاسن الباهرة أي محاسن تاج محل وحسن التأني في أحكام الترابط بين أجزائها لمن الأعمال التي تعدل دنيا برمته[١].

وقد كتب فيه هذا الشعر الفارسي الذي يعبر بحق كونه آية من آيات الفن الرائعة:

نود أين عمارت بنا روز كار   كه طاهر شود وصنعت كردكار

وقد أنشأ الزمان هذا البناء   فجاء بناء عاليا يظهر فيه صنع الخالق

دارا شكو

وكان دارا شُكو[٢] هو ابن الأكبر لشاهجهان عالمًا وشاعرًا وأديبًا بارعًا، الأوصاف التي ورَّثها كثير من أعضاء أسرة المالكة المغولية في الهند من أسلافهم. وبالرغم من أن شاهجهان كان يحبه حبًّا شديدًا. وقد ربَّاه في بيئة منعمة مترفة، ولكنه مال للتصوف وسلك مذهبًا خاصًّا فيه. وهو أخذ يفكر بحرية كاملة في طلب الحق وسعي أن يجمع الشمل بين تصوف الإسلام والتصوف الهندي. وهو أخذ العلم عن كبار علماء

[١] المرجع السابق.

[٢] تعني كلمة «دارا» صاحب الثروة أو النجم بالفارسية بينما يتم تهجئة الجزء الثاني من اسم الأمير بطريقتين: شكوه (الرعب) أو شكو (الجلالة أو العظمة).

Koch, Ebba (1998). Dara-Shikoh shooting nilgais: hunt and landscape in Mughal painting. Freer Gallery of Art, Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution. p. 43.

عصره. ومن أساتيذه كان عبد اللطيف السلطانبوري والشيخ ملا ميرك الهروي وكان خطَّاطًا ماهرًا. وقد تعلم حسن الخط عند عبد الرشيد الديلمي، وقد احتفظت نسخة من «شرح ديوان حافظ» التي نسخه بيده في دار الكتب الآصفية في حيدر آباد، والتي يدل على براعته في حسن الخط.

وله مؤلفات في الزهد والتصوف وسير الأولياء: منها: «سفينة الأولياء» هي أول تأليف له وضعها في خمسة وعشرين من عمره بحث فيها من أربعمائة وإحدى عشر من الأولياء، و«سكينة الأولياء» كتبها في ثمان وعشرين من عمره وقد اختصها لسيرة مرشده حضرت مير مرشد المعروف بـ «بير ملا شاه البدخشاني» وبيان طريقته. ثم ألف كتابه «حق نما» بحث فيه مدارج شتى في طريق الوصول إلى الحق وكيف فتحت له أبواب المعرفة والرموز والحقائق بدون عبادة ورياضة شاقة وكيف وصل إلى الحق بالرغم أنه كان من أسرة مالكة، وهو يقول: إني رأيت في منامي يهتفني هاتف أربعة مراة بأن الله أعطي لك شيئا (معرفة) الذي لن يعطي لأحد من ملوك الأرض».

ومن مؤلفاته أيضًا «حسنات العارفين»، وقد أورد فيها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضي الله عنهم لتأييد نظرياته وأقواله بشأن الحالة التي تفرض له في حالة الاستغراق كما في شأن المنصور الحلاج. وآخر مؤلفاته «مجمع البحرين» الذي ألفه في سنة ١٠٦٥هـ. ويقال إنه كان في الأصل ترجمة كتاب بهاكوت كيتا الهندي وقد سعي في كتابه هذا أن يثبت أن فلسفة التصوف الإسلامي والويدانشكي لا فرق بينهما وكلتيهما ترجعان إلى أصل واحد من ناحية التعاليم والتفكرات وأن من يطلب يستطيع أن يسلك أي طريق من هاتين

الطريقتين اللتان تؤديان إلى منزلة المنشود[١].

وله مؤلفات أخرى أيضًا منها «رسالة معارف» و«نادر النكات» و«مثنوي» و«تزك» و«ديوان» في الأشعار باسم «إكسير أعظم» و«مكالمة داراشكوه» و«باب لعل» و«ترجمة جوك بشت» التي ترجمت تحت إشرافه.

وأيضًا من أهم أعماله العلمية ترجمة كتاب «أوة بنشيت» ترجمها من الهندية إلى الفارسية، وهو كتاب يبحث عن فلسفة الهند الدينية. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية من تلك النسخة الفارسية التي حولها داراشكوه[٢]. وقدمت متأخرًا نسخة من ترجمة داراشكوه التي رتبها الدكتور تارا خند والأستاذ الجلالي إلى مستر نهرو رئيس وزارة الهند[٣].

ويقول ألفنستون Elphinstone أن دارا كان أميرًا صريحًا، أبيًّا، كريم السجايا، بذولاً، حر الرأي، صريحًا في عداواته، ولكنه كان متهورًا لا يصبر على المعارضة. وكان طلعة كجده العظيم أكبر، وكان كثير الاحتفال بالتصوف وغيره من مسائل الدين وكانت تعوزه (تنقصه) براعة جده الحربية وإقدامه.

وجاء أيضًا في دائرة المعارف الإسلامية أنه كان يشبه من بعض الوجوه شارل الأول ملك إنكلتره في كلفه بزوجته وتعلقه بدينه وتذوقه للأدب وحدة طبعه ويشه كذلك في مصيره[٤].

---

[١] بزم تزك، ص ٤٠٢.
[٢] حكمت بابر، ص ٢٢٦.
[٣] جنك، ٢٨–٣٥.
[٤] دائرة المعارف الإسلامية مادة داراشكوه.

أورنك زيب

(١٦٥٨-١٧٠٧م)

وفـي عهـد أورنـك زيـب يـكاد يكـون كل بلاد الهنـد تحـت حكمـه، وقـد امتـد رقعـة الإمبراطوريـة المغوليـة فـي عهـده مـن كابـل إلـى هوكلـى، ومـن سـراط فيمـا وراء حيـدر آبـاد إلـى مـدراس. وقـد إسـتمر عهـده خمسين سنة ونيف.

وكان عهـد أورنـك زيـب عهـدًا زاهـرًا ومثاليًّـا فـي تاريـخ الهنـد الإسلامـي، ولا سيَّما مـن الناحيـة الدينيـة والتئوقراطيـة الإسلاميـة حتى إنا نستطيع أن نقـول أن نظـام حكمـه كان نفس النظـام الـذي يدعـو لـه بعـض مفكري الإسلام في هذا العصر، ويعرف بنظام حكومة إلهية.

ويقـول مؤلـف عالمكيـر نامـه: إن العـودة والغلبـة التـي فاضـت بهـا الديـن الحنيـف والملـة البيضـاء فـي عهـده ماحصلـت فـي عهـد مـن عهـود الإسلام سوى عهد خلفاء الراشدين[١].

وكان أورنـك زيـب الـذي يعـرف بمحيـي الديـن أورنـك زيـب عالمكير بادشـاه راسـخًا فـي الديـن وحافظـا لشـعائر الإسلام. وهـو أحيـى ديـن رسـول اللـه الرسـمية، ونفَّـذ الأحـكام الشـرعية علـى مذهـب أبـي حنيفـة رحمـه اللـه، وقررهـا قوانيـن الحكومـة فـي أقطـار مملكتـه كافـة، وقد سـاد الرفـاه العـام والأمـن والـسلام فـي ظـل حكمـه العـادل. وكان ملـكًا زاهـدًا تحلـي بالتقـوى، يصلـى ويصـوم ويذكـر اللـه كثيـرًا، يأمـر بالمعـروف

---

[١] عالمكير نامه ص ١٠٧٤.

وينهي عن المنكر حتى عرف بعالم كير زنده بير (أي الشيخ الحى) يهتم بدرس علوم الفقه والتفسير والحديث يشجع العلماء لتدريسها. وكان نفسه يقرأ ويدرس بشغف مؤلفات الإمام الغزالي ومكتوبات الشيخ شرف الدين يحيي المنيري[١] وشيخ زين الدين، وقطب محي الدين الشيرازي، وكان حافظًا للقرآن الكريم قد حفظه في ثلاثة وأربعين من عمره إثر جلوسه على عرش المملكة. وكان خطاطًا ماهراً يجيد الخط على طراز نستعليق وطراز منحني وهو نسخ بيده نسختين من القرآن الكريم ثم وقفها لروضة النبي صلي الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد أن جلدها وذهبها بصرف نفقة بالغة تقدر بسبعة ألف روبية ثم أتحفها مع تحائف أخرى نقدًا وجنسًا إلى بقعة في مكة المكرمة[٢].

وإلى جانب كونه خطَّاطا ماهراً كان عالمكير كاتبًا وأديبًا بارعًا في النثر وكتابة الإنشاء. وهو ترك لنا مجموعة من المكاتيب والخطابات التي كتبها بنفسه ويدل على براعته ونبوغه العلمي.

وكان عالمكير قد تعلَّم فن الخط لا للتذوق الفني والكمالي فحسب، بل كان غرضه منه نيل السعادة الأخروية وكسب المعيشة الدنيوية أيضًا[٣].

فضلاً على العربية كان عالمًا للغات الفارسية والتركية والهندية، وكان يتكلم بها بدون تكلف[٤].

---

[١] مخدوم العالم» الشيخ شرف الدين ابن الشيخ يحي المنيري –رحمهما الله–. ولد في بلدة «مُِنْر» على بعد ١/٦ كلو متر من «بَتَنَه»؛ عاصمة و لاية «بِيْهَار», التي تقع في شرق الهند. توفي عام ٨٧٢ في شهر شوال. مرأة الأسرار، ص٩٣١.

[٢] عالمكير نامه، ص ١٠٩٣.

[٣] بزم تيموري، ص ٢٣٠.

[٤] عالمكير نامه، ص ١٠٩٥.

وكان سخيًّا جوادًا لا حد لجوده وسخائه وقد عمل لرفاه الغرباء والتعساء المساكين، أنشأ في حاضرته أكره وأقطار أخري من رقعته دوراً ومؤسسات خيرية لإسعافهم، بنى مسافرخانات والأسواق والمساجد والآبار والحمامات والجسور وترمم ما يحتاج الترميم منها على طرق بين أورنك آباد إلى أكبر آباد، ومن كاب إلى لاهور[١]، واهتم بتحسين الزراعة لضمان الراحة والرفاه لمن يجوب في أقطار مملكته من التجار وغيرهم. كذلك بنى مدارس عديدة، وكان يقرب العلماء والسادات والشيوخ والفضلاء ويشجع طلاب العلوم ويكرمهم ويقدر منزلتهم غاية تقدير ويقرر رواتبهم ويسد حاجاتهم. وهو قرر رواتب أئمة المساجد وخطبائها ومؤذنيها من نفقة بيت المال في كل بلدة وقصبة، وكذلك كان نفقة الطلاب والمدرسين من بيت المال[٢].

وفيها كانت مدرسة بناها، بعد أنفق عالمكير لبناء هذه المدرسة ١٢٠ ألف روبية ووقف لها الأراضي في سوندره وسهبيكه وغيرها لضمان نفقاتها. وكان يبلغ السعي في أن يغذي نفوس المسلمين روح الإسلام الخالصة وأن يعمل المسلمون على مذهب أبي حنيفة رحمه الله وأن يفصل القضايا عل ما يفتي به على مذهبه[٣]. وبحكمه وضع جماعة من كبار الفقهاء بزعامة الشيخ نظام «فتاوى عالمكيرى» التي قررت مصدرًا يعتمد عليه في استخراج الأحكام الشرعية في قارة الهند في عهده، ومازالت يعتمد عليها بعده. وقد أنفقت لإخراجها مائتا ألف روبية[٤] وقد اتخذ هذه الفتاوى[٥] واضعوا القوانين

---

[١] عالمكير نامه، ص ١٠٤٨.

[٢] بزم تيمورية، ص ٢٩٢ سردا عن قراءة أحمدي ص ٣٠٩.

[٣] بزم تيمورية، ص ٢٩٢ سردا عن قراءة أحمدي ص ٣٠٩.

[٤] بزم تيمورية، ص ٢٩٢ سردا عن قراءة أحمدي ص ٣٠٩.

[٥] وكانت هذه الفتاوي مصدرًا وحيدًا يعتمد له في استخراج مسائل الأحكام الشرعية في بلاد تركستان

النابليونية في فرانسا مصدرًا استفاد منه في وضع قوانينهم في عهد نابليون.

وفضلاً على أكره وغيرها من المدن الهامة للهند التي أصبحت مراكز ومجامع للنشاط العلمي والثقافي كان سيالكوت من البلدان التي ذاعت صيته بكونه مركزًا لنشاط علمي في عهده، حيث ظهر منه في ذلك العهد كثير من الفقهاء والفضلاء ومنهم عبد الحكيم السيالكوتي صاحب المؤلفات والحواشي العديدة وابنه ملا عبد الحكيم السيالكوتي[١]. وبالرغم من كونه زاهدًا ومتمسكًا بأحكام الدين هو ما منع الطرب والغناء وازدهار الفنون الجميلة في مملكته. وكانت طائفة من المربيين والمغنيين على أحسن صلات ببلاطه، وفي رأسهم ميرزا مكرم خان الصفوي من أشهر مغني عهده. وكان أورنك زيب يضمن حياة من تاب من الغناء والموسيقي يقطع له الإقطاع ويقرر له راتبًا[٢].

وكان عالمكير يعد عالمًا كبيرًا، حيث فاق الذين اشتهروا بكونهم علماء وأدباء من أسرة المالكة المغولية، هو استطاع أن يجعل نفسه عالمًا بذكاءه الفائق وفطانته ونبوغه الفطري، وهو أخذ دروسه في شتى العلوم عند كبار علماء عصره الذين اشتهروا بتبحرهم واختبارهم في العلوم كملا عبد اللطيف السلطانبوري وكان أستاذه في شبابه، ومير محمد هاشم والجيلاني الذي كان عالمًا للعلوم المتنوعة وفروعها ولا سيَّما الطب والحساب، وكان رئيس الأطبَّاء في بلاط شاهجهان، وله حواش على «تفسير البيضاوي»، وسيد محمد القناوي الذي اشترك في وضع كتاب «فتاوى عالمكير»، والشيخ ملاَّ

أيضًا حيث لا يستفتي منها مفت أو قاض (المؤلف))

[١] أبو الحسنات الندوي، ص ٢١.

[٢] مآثري عالمكيري، ص ٣٨٣.

جيـون ولـه شـرح علـى «المنـار» بعنـوان «نـور الأنـوار» والحواشـي علـى «تفسـير أحمـدي». وقـد درس أورنـك زيـب عنـده عـدة كتـب هامـة. ومـن أسـاتيذه أيضًـا الشـيخ عبـد القـوي البرهانـوي ودانشـمندي هـو جـاء مـن إيران، وملا صالح وأيضًا سعد الله خان الذي كان وزير شاهجهان.

وإننـا نـرى عالمكيـر لا يسـكن ولعـه وتعطشـه للعلـوم، حتـى بعـد أن جلس علـى عـرش السـلطنة حيـث لا يمنعـه أعبـاء الدولـة الرسـمية مـن أن يواصـل بحثـه للعلـوم، وأن يستشـري منابـع العلـم والمعرفـة. وكان أبنـاءه مـن العلمـاء ومـن محبـي العلـم والأدب أيضًـا حتـى إن بنـه معظـم خـان حـاز لقـب شـيخ المحدثيـن وبنتـه زيـب النسـاء كانـت عالمـة كاملـة وقـد ألفت جهان أرا كتاب «مؤنس الأرواح».

ويقـول المـؤرخ الشـهير الهنـدي الأسـتاذ جروناتـه سـركار فـي كتابـه تاريـخ أورنـك زيـب: «إن عهـد أورنـك زيـب الـذي دام سـتين عامًـا (١٦٥٨-١٧٠٧) أي إلـى نهايـة النصـف الثانـي مـن القـرن السـابع المـيلادي، وكان عهـده عمَلِيًّـا باهـرًا وأهـم عهـد تاريخـي للهنـد. وكان عهـدًا سـعيدًا انتهـي فيـه حكومـة أسـرة المغوليـة إلـى قمـة عروجهـا، وإننـا لانـرى منـذ بـدء التاريـخ إلـى زمـن تأسـيس السـلطة البريطانيـة فـي الهنـد حكومـة قـد توسـعت رقعـة مملكتـه مـن غزنـي إلـى جاتـكام ومـن كشـمير إلـى كرناتـك ومالابـار تلـك الأقطـار الشاسـعة التـي قرئـت الخطبـة فيهـا باسـم ملـك واحـد وأطاعـت لحكـم واحـد، وقـد تـمَّ هـذا فـي عهـد أورنك زيـب. وكان عهـده آخـر عهـد إسلامـي وأزهـاه رقيًّا وسـعةً، قامـت حكومـة علـى أسـاس وحـدة سياسـية لا يتسـلط علـى أقطارهـا المختلفـة إمبراطـور واحـد ولا تشـارك فـي السـلطة أي سـلطان آخـر. وإننـا نسـتطيع أن نقـول بحـق أن رفعـة حكومـة أورنـك زيـب فـي الهنـد كانـت أكبـر توسـعًا مـن هـذه الناحيـة مـن رقعـات كل مـن «آشـوك» و «سـمدر كيـت» و «هروشـن»

حتى لا يشاهد في ذلك العهد أي عامل لأي ولاية إذ عصى أو ثار عليه، ولو أنه كان هناك بعض ثورات، ولكنا لا نرى أي عامل في أي ولاية كان له جرءة الإعراض عن حكم إمبراطور دهلي[١].

والخلاصة: أن عهد أورنك زيب آخر عهد إسلامي زاهر لأسرة التركية التيمورية في الهند التي دامت حكمها ثلاثة قرون ونيف، وفعلت أثرها البالغ في نواحي شتى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية وغيرت وجهة تاريخها بأعمالها الناشطة وآثارها الخالدة.

وبعد موت أورنك زيب أخذت الإمبراطورية تنهار وتضعف حتى سرعان ما انقسمت إلى عدة ولايات مستقلة، ولا سيَّما بعد غزوات نادر شاه سنة ١٧٣٨م وأحمد شاه درا في سنة ١٧٤٨م، فتدهورت أسرة التيمورية الهندية واستقلت المرهيتون في الجنوب وقامت أسرة نظام الأصفهانجية في حيدر آباد «دكن» واستقل راجبوت وكذلك أعلن السيخ استلالهم في بنجاب والجات وغيرهم.

ولكن بالرغم عن هذا الانقسام والانهيار استطاعت أسرة المغول أن يستمر بعدها سلطته ولو اسما على جزء من رقعته الإمبراطورية إلى سنة ١٨٥٧م حيث قضاها الإنجليز فيها قضاءًا نهائيًّا وانتهت بمأساة بهادر شاه ظفر الثاني آخر إمبراطور الأسرة المغولية في الهند الذي أخذ وطرد إبان الثورة ومات في ملجأه في زنكون سنة ١٨٦٢م ودفن فيها.

ولو أن عالمكير كان يستحسن الشعراء والأدباء إلا أنه منع إنشاد الشعر ومدح الملوك والأمراء وسيلة لكسب المعيشة،[٢] ولذا لا

[١] جدوناته سركار، تاريخ اورنك زيب، مقدمة.

[٢] وكان عالمكير لا ينفق لحاجاته الشخصية من بيت المال، بل كان يستحصلها بالكسب والمحنة، وكان يخيط القلنسوة وينسخ الكتب والقرآن وهو وصي أن ينفق أربعة روبيات وأيتين التي جمعها بخيط

يستحسـن المؤرخيـن أن يقولـوا فـي تعريفـه وتعريـف أعمالـه الدنيويـة الظاهريـة. كان يشـجعهم برعايته ويرغبهـم إلـى السـعي والعمـل فيعينهـم بخدمـات ملكيـة وعسـكرية، فظهـر طائفـة كبيـرة مـن الشـعراء والأدبـاء البارزيـن والمؤرِّخيـن حـر الأفـكار فاقـوا أقرانهـم فـي البراعـة والإتقـان يسـتفاضوا مـن رعايتهـم الملوكيـة، وهـم تركـوا آثـارا أدبيـة وعلميـة وتاريخية خالدة لا يقل عن أهميتها الكبرى.

وكان كثيـر مـن أمرائـه مـن الشـعراء والأدبـاء وأفاضـل العلـم حـر الأفـكار حتـى يصبحـون يهجـون فـي بعـض المواقـع، وكان يداريهـم بالمسـامحة وكرامـة النفـس إذا هجـوه، وكان يكـرم منزلتهـم ويكافئهـم بألقـاب نعمـت خـان ومقرب خـان وعاقل خـان وغيرهـا تقديـرًا لخدماتهم ومنزلتهم العلمية وبراعتهم الأدبية.

ومنهـم كان ميـرزا محمـد علـي الملقـب بنعمـت خـان عالـي، وكان معتمـد المطابـخ فـي بلاطـه ثـم رفعـت مرتبتـه إلـى مقـرب خـان وعيِّـن معتمـد مخـزن الجواهـر الملكيـة، وبالرغـم مـن قربـه مـن عالمكيـر هجره هجـرًا مليحًـا، وكان عالمكيـر يقـول بشـأنه «رفيـق لا يرافقـك ولا يفارقك»[١].

وأيضًـا ميـر العسـكري «عاقـل خـان» كان أديبًـا عالمًـا وشـاعرًا خـدم عالمكيـر فـي مواقـع شـتى كمحافـظ وقائد عسـكري وأميـر البـلاط وأخيرًا صـار واليًّـا لدهلـي حتـى مـات فيهـا. ولـه عـدة آثـار آدبيـة منهـا: «ديـوان» للأشـعار و«المثنويـات» و«نغمـات العيـش» و«ثمـراة الحيـاة» و«شـمع»

القلنسوة وودعها عند «داية بلكنم مجلدار» لتكفينه وثلاثة مائة وخمسة روبيات التي جمعت من نسخ القرآن وحفظت في ضرف خاص صدقة للفقراء المحتاجين بعد وفاته. بزم تيمورية، ص ٢٣١. سردا من سركار أحكام عالمكيري ص ٤-١٣.

[١] وقائع عالمكيرى، ص ٦٦. وبزم تيمورية ص ٢٦٦.

و«بروانـه» و«مهرومـاه» وغيـره[١]، وعلاء الملـك تونـي «فاضـل خـان» وهو أول رئيس الوزراء في حكومة عالمكير.

كان عالمكيـر عالمًـا جيـدًا للعلـوم العقليـة والنقليـة والإلهيـات والطبيعيات والرياضيات وعلم النجوم والهيئة وأديبًا ماهـراً فـي كتابة الإنشاء[٢].

ومحمـد إسـماعيل «ذو الفقـار خـان» «نصـرت خنـك» ابـن أسـد خـان الدولـة آخـر رئيـس وزارت عالمكيـر. وكان أميـر خمسـة آلاف وكان شاعرًا يحسب الشعراء ويحميهم برعايته.

وبختاورخـان كان عالمًـا ومؤرخًـا لـه عـدة مؤلفـات منهـا «مـرأة العالـم»، و«جبـار أئينـه» و«ريـاض الأوليـاء»، و«ملخـص تاريـخ ألفـي» وغيره من الملخصات[٣].

وأيضًـا عـاش فـي عهـده يسـتفيض مـن بلاطـه طائفـة كبيـرة مـن علمـاء الهنـود وشـعرائهم. منهـم وامـق تهتـري وراي بنـدر ومـن مؤلفاتـه «لـب التاريـخ» وأيسـرداس ويهجـم يـن كايسـتهـ وسـوجان راي تهتـري وهـو ترك لنا تاريخا باسم «خلاصة التواريخ».

وقـد استمر النشـاط العلمـي فـي عهـده زاهـرًا وباهـرًا ظهـر مـن العلمـاء مـن اشـتغلوا فـي وضـع الكتـب فـي العلـوم الهندسـية، ومنـه ميـرزا خـان بـن فخـر الديـن وضـع كتابـه «تحفـة الهنـد» لمطالعـة أميـر أعظـم شـاه، بحـث فيـه فـن البلاغـة والعـروض والقافيـة الهنديـة وغيرهـا. وقـد وضـع أبـو سـعيد الحسـيني الرضـوي الشـيرازي «نظـام النجـوم فـي علـم النجـوم والهيئـة الهندسـية». وقـد وضـع لعلـي بهـادي بـن كاهيـد سـنكه مؤلفاتـه

---

[١] بزم تيمورية، ص ٢٦٩.

[٢] مآثر الأمراء، ٣ / ٥٢٤. وبزم تيمورية ص ٢٧٧.

[٣] بزم تيمورية، ص ٢٨٤.

«نت أجهرا ورد الكفر من رسوم الهندوكيين وعقائدهم» لمن لا يعلم اللغة السنسكريتية.

وقد عاش من المؤرخين منشي محمد كاظم، وكان مسجل الوقائع والأخبار في البلاط، وهو وضع كتابه «عالمكير نامه» تحتوي تاريخ عالمكير لعشرة سنوات فقط. ثم وقفه عالمكير من مواصلته.

ومنهم أمير جان صاحب «واقعات عالمكيرى»، وشهاب طاش مؤلف «عجيبة وغريبة»، وعاقل خان الرازي مؤلف «واقعات عالمكير»، ومير محمد معصوم مؤلف «تاريخ شاه شجاعي» ونجت درخان مؤلف «سرة العالم»، وعزيز الله مؤلف «زينة التواريخ» وسلمان القزويني مؤلف «جواهر التواريخ» وأسيرداس مؤلف «فتوحات عالمكيري»، وبهيم سن مؤلف «نسخة دلكش» وجك جبون داس مؤلف «منتخب التواريخ»، ورأي بندار ابن مؤلف «لب التواريخ». سجان راي مؤلف «خلاصة التواريخ»، ومستعد خان محمد ساقي مؤلف «مآثر عالمكيري» الذي يحتوي تاريخ خمسين سنة من عهد عالمكير. وكان مستعد خان من سجل الوقائع في بلاط[١].

ومنهم كان محمد معظم شاه عالم بهادر، الابن الثاني لعالم كير عالمًا وحافظًا للقرآن الكريم، فقيهًا ومحدِّثًا، حاز لقب قدوة المحدِّثين. وهو فضلاً على مهارته وفصاحته في اللغة العربية التي حاز فيها لقب «عرب عربا»، كان أديبا في اللغتين التركية والفارسية، وكان أستاذًا في فن الخطاطي وأساليبها (١٠٤٨-١١١٣هـ)[٢].

زيب النساء كانت عالمة حفظت القرآن الكريم وأخذت العلوم العربية والفارسية، وبرعت في أساليب الخط المختلفة، وكانت محبة

---

[١] بزم تيمورية، ص ٢٨٦-٩٠.
[٢] مآثر عالمكيري، ص ٥٣٤.

للعلـم والعلمـاء مشـفقة بجمـع الكتـب والتأليـف والتصنيـف، وقد اسـتفادت مـن كتبخانتهـا وعناتهـا طائفـة كبيـرة مـن العلمـاء والفـضلاء والشـعراء والأدبـاء والخطّاطيـن وغيرهـم. وقـد ترجـم ملا صفـي الديـن أردبيلـي بأمرهـا ومسـاعدتها التفسـير الكبيـر إلـى الفارسـية فسـماه «زيـب التفاسـير» وهـي استوطنت فـي كشـمير لهـذا الغـرض، وهـي سـاعدت بحسـن رعايتهـا لتأليف عدة كتب ورسائل أخري باسمها[١].

وقـد عـاش فـي هـذا العهـد عهـد بهـادر شـاه الأول طائفـة جمـة مـن الشـعراء المشـهورين ومنهـم ميـرزا عبـد القـادر بيـدل[٢] ونعمـت خـان عالي[٣].

وكان فـرخ ميـر الـذي حكـم سـبعة سـنوات حافظًا للقـرآن وشـاعرًا. وكان عهـده يمتـاز بالأمـراء الذيـن كانـوا يحبـون العلـم والعلمـاء، وكان أنفسـهم مـن العلمـاء والأدبـاء البارزيـن منهـم نـواب نظـام الملـك آصـف خـان أصلـه مـن أتـراك تركسـتان ومـن أحفـاد شـهاب الديـن السـمرقندي جـه عابـد خـان مـن سـمرقند فـي عهـد أورنـك زيـب[٤]. وكان عالمًـا للعلـوم العقليـة والنقلية وشـاعرا ممتـازا ذاع صيتـه بحبـه العلـم وإفاضتـه العلمـاء، لـه ديـوان فـي ١٠٣٨هـ طبـع فـي حيـدر آبـاد. ويقـول صاحـب «مآثـر الكـرام» إنـه مـا رأى الزمـان أميـرًا مقتـدرًا مثلـه لا فـي عهـد الأسـرة التيموريـة ولا قبلـه[٥]، وكان

[١] محمد ساقي مستعد خان: مآثر عالمكيري ص ٥٣٨-٥٣٩.

[٢] هو أبو المعاني ميرزا عبد القادر بن عبد الخالق أرلاس الشهير بلقب بيدل أو بيدل دهلوي (١٦٤٤ – ١٧٢٠م) هو مؤلف، وشاعر، وكاتب من سلطنة مغول الهند، ولد في باتنا، توفي في دلهي، عن عمر يناهز ٧٦ عام.

[٣] ميرزا نور الدين محمد، المعروف بعلي الشيرازي ونعمت خان ودانشمند خان، والملقب بعلي، هو شاعر الأدب الفارسي في الهند في القرن الحادي عشر الهجري. ويرجح أنه ولد سنة ١٠٤٨ هـ. وكان أجداده في شيراز مشهورين بالطب.

[٤] مآثر الكرام، ٢ /١٧٣.

[٥] مآثر الكرام، ٢/١٨٠.

خلفه نظام الدولة عالمًا جيدًا وشاعرًا[١].

وكان دكن في عهده مجمع العلماء من بلاد العرب وما وراء النهر وخراسان وعراق العجم والهند وغيرها.

وكان مؤسس الأسرة الأصفهانجية التي حكمت أفرادها في حيدر آباد دكن واستمرت حتى سنة ١٩٤٨م. وقد حفظت دكن تقاليد أصفهان العلمية فكانت كمركز نشاط علمي وفني كجسر في عهد هذه الأسرة في عهد مير عثمان علي خان بهادر.

ومنهم أمير الأمراء السيد حسين علي خان، وكان شاعرًا ومؤرخًا. وقد عاش في هذا العهد السيد عبد الجليل الواسطي بالكرامي[٢] الذي كان عالمًا للغات الفارسية والعربية والتركية والسنسكريتية والبهاسية، وصاحب كمالات علمية أخرى. اسمه مازال يذكر باحترام وعزة ووقعة حتى في هذه الأيام. وأيضًا ميرزا عبد المعالي وزارت خان وكان شاعرًا وله ديوان الأشعار[٣].

ولو أن عهد محمد شاه كان عهد مغامرات ومؤمرات، ولكنه يمتاز هذا العهد بظهور طائفة كبيرة من الأدباء والشعراء والمتأخِّرين كقِزِل باش خان أسيد وميرزا عبد القادر بيدل وسراج الدين علي خان أرزو وميرزا قلي خان نديم وميرزا مرتضى خان قلي وغيرهم الذين كان أكثرهم من الأتراك.

---

[١] مآثر الكرام، ٢/ ١٩٢.

[٢] هو الشيخ عبد الجليل بن مير أحمد الحسيني الواسطي البلكرامي، ولد سنة إحدى وسبعين وألف ببلكرام، سافر إلى بلاد أخرى وأسند الحديث عن الشيخ مبارك بن فخر الدين الحسيني البلكرامي، ثم سافر إلى بلاد الدكن وأدرك بها عالمكير ابن شاهجهان سلطان الهند فولاه على بخشيكيري. وكان عالماً بارعاً في المعاني والبيان والبديع والحديث والتفسير، والسير، وأسماء الرجال، والتاريخ. توفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف بدهلي. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

[٣] بزم تيمورية، ص ٣٠٠–٣٠٥ سردا من مآثر الكرام.

وممـن عـاش فـي عهـده مباشـرًا مـن الشـعراء البارزيـن كان أميـر خـان الحـاج وجعفـر علـي خـان صاحـب «مثنـوي حقـه» والشـيخ حسـين شـهرت الشـيرازي حكيـم المماليـك. ومـن شـعراء الهنـد رامـي انـندرام مخلـص ولال رام. وكان الأول أميـرًا وعالمًـا كبيـرًا وشـاعرًا ممتـازًا وكان تلميـذ ميـرزا عبـد القـادر بيـدل، ولـه عـدة مؤلفـات علميـة وأدبيـة هامـة يتجـاوز عددها اثنتي عشرة، وللثاني كتاب في التاريخ باسم «تحفة الهند».

ومـن أعمالـه العلميـة كان اهتمامـه بعلـم الهيئـة وهـو وضـع زيـج محـدث هـي علـى أسـاس زيـج ألـغ بيـك الجديـد وزيـج شـاه جهانـى. وكان ذلـك بهمـة أميـره العالـم الهندوكـي راجـه جـي سـنيك الـذي وضعـه بعـد درس طويـل بمسـاعدة البعثـة التـي أرسـلها لـبلاد أوربيـة وجـاءت بمعلومـات مفيـدة وفكـر عميـق فـي عهـده بهمـة راجـه جـي سـنيك كتـب الهامـة العربيـة في علم الهيئة إلى الفارسية[١].

وهـو أيضًـا بنـي مرصـدًا فـي دهلـي سـنة ١١٣٧هـ وأيضًـا مراصـد فـي جينبـور ومتهـرا وبنـارس وأجنـس بمسـاعدة علمـاء الهيئـة مـن المسـلمين وأهـل الهنـود والأفرنـج الذيـن عملـوا لهـا سـبعة أعـوام. وكان المهنـدس ميـرزا خيـر اللـه معتمـدا لهـا ابتكـرت فيهـا آلات جديـدة كالتـي اسـتعملت في مرصد ألغ بيك في سمرقند.

ومـن أفـراد هـذه الأسـرة كان شـاه عالـم الثانـي الـذي خلـف عالمكيـر ثانـي بعـد قتلـه مـن محبـي العلـم والعلمـاء، وكان شـاعرًا يتخلـص بأفتـات ينشـد الشـعر فـي الفارسـية والهنديـة، وهـو وضـع قصـة فـي أربعـة مجلـدات باسم «قصة شاه عالم»[٢].

وأيضًـا لـه ديـوان ومثنـوي يسـمى بـ «منظـوم أقـدس» وهـو عـاش فـي

---

[١] بزم تيمورية ص ٣١٤ سردا عن سيد سلمان ندوي ومعارف وغيره.

[٢] ذكاء الله، ١٠ / ٣١١.

حرمان ويأس وإساءة وهو رثى مأساته هذه في أشعار مؤلمة مؤثرة[١] عن عدة مآخذ نادرة. وكان ينشد الشعر في اللغة الهندية، وله مجموعة في هذه اللغة تسمى «نادرات شاهى»[٢].

ونختتم قصتنا في مسرح الأسرة التيمورية في الهند بمأساة بهادر شاه ظفر آخر سلاطين الأسرة. وكان ملكًا أسيرًا بيد الإنجليز، وكان قلعة معلى في دهلي الملجأ الأخير الذي حبس فيها لا يحكم ولا يأمر، بل يحكم ويؤمر.

وبالرغم من هذا اليأس والحرمان هو ما خفف من طرامة قلبه وإذا كان ضاعت سلطته في مملكته ولكن ما ضاع سلطانه لمملكة الشعر. وقد احتشد حول بلاطه في هذه المملكة شعراء عصره يحبهم ويرغبهم ويستلي معهم. وهو بكي على حاله اليائس ورثي مآساته بأشعار مفجعة يستشفي بها قلبه الخزين المالح، وهو يقول:

أيها الظفر هل هذه شعارك أو أنه المصير المظلوم؟

وما نفذه المصيبة التي يجرح بمضغها قبلك الحزين المغموم[٣].

ويقول محمد حسين أزاد: إنه كان شاعرًا موجدًا وأميرًا لمملكة الشعر[٤].

وفي عهده عاش الشاعر الشهير التركي، غالب، وكان من أساتيذ الأمير في إنشاد الشعر ونقده. وله ديوان في أربع مجلدات تحوي نحو ثلاثين ألفا من الأشعار في اللغة الأوردية (أكثرها) والفارسية والبنجابية

---

[١] بزم تيمورية ص ٣١٩.
[٢] المرجع السابق ص ٣٢٠.
[٣] بزم تيمورية، ص ٣٢١.
[٤] بزم تيمورية، ٣٦١.

وغيرها من الألسنة الهندية المحلية[١].

وهو كتب شرحًا على أساس نظريات تصوفية على «گلستان سعدي»، وبأمره كتب له المفتي ميرلال كتابًا في الأذكار والوظائف باسم «سراج المعرفة».

ويقال أيضًا: إنه وضع قاموسًا باسم لفت وإصطلاح دكن في ثلاثة مجلدات، ولكن لم يتوجد نسخته[٢].

وأيضًا من أبناء بابر كان ميرزا كامران شاعرًا وأديبًا في الفارسية والتركية. وديوان أشعاره حفظ في كتبخانة خدا بخش خان في بتنه[٣].

وكان ميرزا أبو القاسم الشوكتي بن كامران من الشعراء، وكان تخلصه بالشوكتي.

ومن أولاد أكبر كان ميرزا دانيال ومراد يعدان من زمرة الشعراء. وكان الأول ينشد الشعر في الفارسية والهندية[٤]، وكان بلاطه مجمع الشعراء والأدباء، وكان ملا رضا النوعي[٥] من أشهر شعراء بلاطه، وهو كتب مثنوي «سوزوكدار» بأمره وأيضًا من مؤلفاته «ساقي نامه» التي أعجبها عبد الرحيم خان خانان فأعطاه عشرة آلاف روبية، والفيل والفرس[٦]. وأيضًا مير حسن كفري الخراساني كانوا من اللذين خدموا ذاتيا ومدحوه[٧]. والثاني كان له أقرب صلة مع النظيري النيسابوري وميرزا علي وغيرهما من الشعراء.

---

[١] المرجع السابق، ص ٣٢٦.
[٢] المرجع السابق، ص ٣٤١.
[٣] بزم تيمورية، ص ٣٧٥. بدايوني، ١/ ٤٥٣.
[٤] تزك جهانكيرى، ص ١٩. وبزم، ص ٣٨٨.
[٥] بزم تيمورية، ص ٣٨٨.
[٦] بزم تيمورية، ص ٣٩٠.
[٧] بزم تيمورية، ص ٣٩٠.

وكان لبرونير من أبناء جهانكير إعجاب ورعاية للشعر والشعراء ويشجع محافلهم. وكان حكيم محمد حسين ففغوري الجيلاني ومير ملكي القزويني وملا عبد النبي «فخر الزماني» من الشعراء والأدباء الذين انتسبوا إلى بلاطه واستفاضوا من رعايته بعد أكبر. وكان ففغوري حكيما وعالمًا للطب ورياضيًّا وموسيقيًّا وشاعرًا. ويقول بدايوني: إنه كان أوحد زمانه، وله ديوان في خمس آلاف من الأشعار[١].

ولو أن الأسرة التيمورية قد واجهت سلطتها إلى الانحطاط والانهيار بعد موت أورنك زيب، ولكن النشاط العلمي والأدبي قد استمر يزدهر بين أفراد الأسرة التي جاءت بعده، وهم اهتموا لتشجيع العلم والأدب والعناية للعلماء والأدباء حتى لم ينتقص منهم العلماء وأدباء أو من هم يهتمون بإزدهار محافل العلم والفن والأدب. وقد أفلت الأسرة وسلطتها ولكن ما أفلت الحركة العلمية والأدبية التي لازموها واستحفظوها مضاءة حتى تنفسوا صعدائهم.

وأن شاه شجاع وشاه مراد أبناء شاهجهان على رغم مؤامرات اندلعت فيها، كانا من الأدباء والمهرة في كتابة الإنشاء، وكانا يقدران منزلة العلماء والأدباء وقد عاش في عنايتهما طائفة من الشعراء كمنعم اللاهوري، والشاعر الهندي جنتامن وسعيد قيشي الذي كان مراد يحبه ويستحسن أشعاره[٢].

وأن محمد أعظم شاه بن عالمكير يعترف المؤرخون لفضله وكمالاته العلمية، وهو استفاذ من صحبة شعراء عصره كميرزا عبد القادر بيدل محمد حضرت حسين شهرت، ومير محمد ومحمد زمان راسخ وغيرهم وكان ينشد الشعر. وكان كام بخش من أبناء عالمكير حافظا

---

[١] بدايوني، ٣ / ٣٢٠. مآثر الكرام ص ٣٧. بزم ص ٣٩٣.

[٢] بزم، ص ٤١٨.

للقرآن الكريم وهو فاق إخوانه في تحصيل العلم وكان ماهراً في اللغة التركية وفي أساليب فن الكتابة.

ومن أفراد هذه الأسرة كان ميرزا علي بخت بهادر محمد ظهير الدين أظفري الكوركاني عالمًا للعلوم والفنون المختلفة الطب والرمل، والعروض والقافية وماهراً للغات العربية والفارسية والتركية والأوردية. وكان أول من تعلم الإنجليزية من أفراد الأسرة، وله ديوان في الأشعار الفارسية والتركية المفقدة نسختها. وقد نشر ديوانه في الأوردية جامعة مدراس. وله أيضًا «واقعات آظفيري»، و«قاموس اللغة التركية الجغتائية»، وهو ترجم «محبوب القلوب» للنوائي للفارسية وله عدة مؤلفات أخرى منها: «نصاب تركي» ومنظومة «تنكري تعالى» على طراز «خالق باري» لخسرو، وترجمة «رسالة قبرية» لبقراط وسانحات وغيرها[١].

وكان ميرزا جهاندار شاه وميرزا حسن بخت وأيضًا ميرزا سليمان سكوه وميرزا فرخنده نجت جهاد شاه بن شاه عالم من أبناء شاه عالم ثاني كلهم كانوا من الشعرا الجدين ولكل منهم أشعار مليحة خلابة جاءت في كتب طبقات الشعراء وغيرها تدل على براعتهم العلمية والأدبية[٢].

عهد آل تيمور ومدى تأثيره في حضارة الهند وثقافتها

ويقول بابر في مذكراته: «إنه عندما جاء إلى الهند لم يجد هناك ولا فرس جيد ولا لحم جيد ولا غنم ولا بطيخ جيد ولا غيرها من

---

[١] سيد صباح الدين عبدالرحمن، بزم تيمورية، ص ٤٢٧-٤٢٨.

[٢] بزم تيمورية، ص ٤٢٩-٤٣٥.

الثمار اللذيذة والشهية. كما كان لم يجد هناك الثلج والماء البرد، ولا الأغذية الجيدة، ولا الخبز في الأسواق، ولا الحمَّام ولا المدرسة ولا شمعة ولا شَمْعَدان[١] ولا المشاعل الخ[٢].

وكذلك لا توجد في البساتين والبيوت المياه الجارية دون الأنهار الكبيرة، ولا البيوت منظمة ومتنسقة ولا فيها ماء طري ولا هواء صاف. يعيش الناس عريانا يأخذون قطعة من القماش لستر عورتهم يقال «لنكوته»، والنساء يسترن أجسامهن إلى المنطقة بنصف القماش ورؤوسهن بالنصف الآخر[٣].

وهكذا كانت الحالة الراهنة في الناحية الحياتية والحضارية والثقافية في بلاد الهند إبان ما تأسست فيها الأسرة التيمورية بيد بابر. وبرغم أنه كانت بها على قول بابر مملكة في سعة ورحبة أرجاءها توفر فيها الذهب والفضة وهي غنية بصناعها وعمَّالها التي لاتحصى في كل فنٍّ وحركة التي ورثوها من أبائها وفيهم استعداد تام إذا كان هناك شغل شاغل[٤]. وكان ذلك إما بسبب الدمار والفوضي السياسية أو غلبة الأهالي. وعلى أي أن الأسرة التركية المغولية فتحت أبواب الحضارة والثقافة الإسلامية والتطور الفكري في وجه البلاد التي أخذت منذ ذلك تتقدم من جديد في العلم والفن والثقافة. وكذلك في حقوق الصناعة والزراعة والتجارة وغيره من معالم الحضارة والمدنية، حيث أن تأسيس الإمبراطورية التركية قد أحدث تطورًا

---

[١] إن الهند بلاد ليس لها ما يبهج الناس في اللطافة إلا قليل ليس بشعبهم ملاحة وظرافة وهم لا يملكون فكرة الإخوة الاجتماعية المعاشرة والمخالطة الحرة بلا موارية ولا المواصلة المألوفة، وكذلك ليس في قلوبهم خلوص وصداقة ولا لهم وسعة الإدراك والفهم ولا لهم حسن السلوك والتهذيب ولا أواصر المحبة ولا الأخرة الألبية (الروح الخزبى) وليس لهم براعة أو مهارة الإبتكار وترسيم ومنهاج المشروع وتاج صناعتهم اليدوية ولا لهم علم لتحطيط الخطة أو المعمارية والهدنسية. تاليوت ص ١٩٠.

[2] Memoirs of Baber P190 ٢٨٩ أردو)

[٣] تزك بابر، ص ٢٨٩–٢٩٠.

[٤] ميموري بابر، ١٩٠٨.

عظيمًا في ميادين شتى من أول البلاد إلى آخرها. وقد أنشأت تحت رعاية أفراد هذه الأسرة وأشرافهم مدن جديدة بطراز حديث وفنون معمارية جديدة لم تسبق.

وقد أنشأت الطرق الجديدة بمسافرخاناتهم وآبارهم والمدارس بعلمائها وطلبتها المزاحمة والكتبخانات الكبيرة بكتبها النادرة والمساجد والجوامع بميناراتها العالية، والحدائق والبساتين الخاصة والعامة ذات روعة وجمال بأنهارها وجداولتها وشلالاتها الرائقة. وقد زخرفت بالأشجار بالثمار وبلا ثمار والأزهار الجديدة المتنوعة التي استوردت بها من خارج البلاد وبعضها لأول مرة. وقد ترعرعت الصناعات والزراعة والتجارة بفضل عنايتهم واهتمامهم الخاص.

وقد فاضت البلاد ثورة وغناء فازدهرت الحياة المدنية وتوفرت وسائلها ومسائلها وعم الرفاه وشملت السهولات وساد الأمن والسلام بحد لا مثيل له. ثم قد نهضت بلدانها العديدة كمراكز هامة لنشاط علمي وفني وثقافي وأدبي أشرقت في سمائها النجوم الزاهرة من العلماء البارزين والكتاب والمؤرخين والشعراء والأدباء الكبار اللذين يفخر بهم اليوم أهل البلاد خاصة والمسلمون عامة.

وكذلك القوَّاد والأمراء الذين امتازوا بأعمالهم الحربية والسياسية والعلمية ووقفوا حياتهم لخدمة الإسلام ورفع شأنه وكيانه وقد انتهت الفنون الجميلة والمعمارية والهندية الإسلامية أرقي مدارجها ازدهارًا في ذلك العهد الذهبي. إليك أيها القارئ بعض هذه الأعمال التي أسدواها هذه الأسرة المالكة الناشطة في حقلات شتى بالاختصار.

خدمتهم في رقي الإنتاج الزراعي

ويقول الأستاذ شبلي النعماني: إن بلاد الهند كانت مملكة زراعية،

الأمر الذي يقتضي بطبيعة الحال أن يوجد هناك كل نوع من النباتات والأثمار، ولكن الهنود صاروا غافلين عما تزرع وتوجد في بلاد أخرى. وكانوا قانعين لما وجد قليلا منها في البلاد كالشَّمَّام وبرهل وكتهل (ثمار خاصة للهند).

وقد أحدثت أسرة تيمور تغيرًا عظيمًا في هذه القلعة، حيث استوردوا من إيران وخراسان بكثير من الأشجار ذات أثمار والأزهار فجعلوها شائعة وناشرة في البلاد[١]. وحتى في كابل أيضًا استغرق وقت بابر في حقل الأشجار والأزهار وفلح البساتين وإنشاء الحدائق وحفر الآبار التي كانت هويته الهامة للتنزه. وفي الواقع يعود الفضل في ازدهار كابل بروعة الحدائق والخضروات إلى همة بابر ومجهوداته[٢].

ويقول بابر في «تزكه»: إنه حينما جاء أكره وجدها مدينة خالية من الأشجار والأزهار والمياه الجارية، فلذلك قام بفلح البساتين والحدائق وحفر الآبار في نواحي أكره على ضفاف جمنا على طراز حدائق تركستان، فزرع فيها أنواعًا شتى من الأشجار والأزهار والخضراوات فصارت أكره مدينة خضراء المناظر. ومن أهم الحدائق التي أنشأها بابر في نواحي أكره كانت حديقة كل أفشان أو جبار باغ في وسطها قصر بهذا الاسم، وهو سمي صوب تلك البساتين صوب كابل، وجاء على أثره أمراء الأسرة فيما بعد[٣].

وقد شاعت شاه الو في عهد أكبر أولا في بلاد كشمير ثم في بلاد أخرى للهند، وكان ذلك بعد أن جاء بها محمد قلي افشار داروغة

---

[١] شبلي: مقالات.

[٢] تالبت، مذكرات بابر مقدمة.

[٣] س.م أكره سيتاركيل، ص ١١-١٢.

(عامل) بساتين كشمير في عهده من كابل، وكذلك شاع في عهده افتسال الأشجار (Propagation of Tree).

وفي عهد جهانكير جيئ بكثير من أشجار الثمار من بلاد أوربا إلى الهند، ومنها كانت شجرة أناناس التي جاءت بها من بنادر الأفرنج وغرست في حدائق أكره. وأشجار الصنوبر والخيزران والخيار وشجرة الدلب وشجرة لاحور الرجاج الصفصافي المستحيي وغيرها من الأشجار التي لم تسبق في البلاد ولم ترسم في قلوب البلاد من قبل، وأيضًا شجرة الصندل التي كانت من أشجار الجزائر الخاصة.

وكذلك شاع في عهده كما جاء في «آيين أكبري»، الجبس والخوخ واللوز والرمان والفستق وغيرها من الأشجار ذات الثمار الخاصة للمناطق الباردة. وفي عهده زخرفت بساتين الهند بالأزهار المتنوعة التي جاءت بها من بلاد إيران وتوران كالورود والنرجس والبنفسج والياسمين والسوسن والريحان والشقائق وقلفه وتاج الديك والنافرمان والخطمي وغيرها. وأنه ما اكتفى بتربية الأزهار وتكثيرها فحسب، بل كان يهتم لترسيمها أيضًا للتذوق الفني. وقد رسم الأستاذ منصور الذي كان رسَّامًا في بلاط جهانكير مائة ونيف من الأزهار امتثالاً لأمره.

وكان بستانيون الهند لا يغرسون الأشجار بترتيب خاص، ولا ينسقون الحدائق بجداول الماء والتصفيف والتطريق الخاص. جاء بابر وقد نسقها بشلالاة وجداول وتزئينات شتى وأبنية متناسقة جميلة في أوساطها فصار ترتيبًا عجيبًا وتنسيقًا غريبًا يسر السامع ويعجب الناظر.

وأيضًا أدخلت تمباكو في بلاد الهند في عهد أكبر سنة ١٦٠٤-١٦٠٥، حيث جاء بها حكيم أسد بيك من بيجابور وكانت استوردتها هناك التجار البرتغاليون من جملة النباتات الدوائية فقرضها أسد بيك لأكبر الذي استحسنها بعد أن جربها فشاع استعمالها وزرعها في الهند بعد أن جرى مناقشته بين أطباء بلاطه وأسد بيك التي تمت لتأييد دلائله في فوائده[١].

الأثر الصناعي

وقد شاعت في عهد آل تيمور في الهند أنواع شتى من الصناعات، وكان أهل البلاد حتى ذلك العهد لا يعرفونها إلا قليلا من أقمشة خشنة بسيطة، وقد أنشأ أكبر مصانع كثيرة للأقمشة في دهلى، ولاهور، وأكره وفتح بور وأحمد آباد وكجرات.

وقد جاء لها بالصناع المهرة من إيران والصين والأفرنج، وهم أخذوا غزل أقمشة نفيسة ويعملوا أهلها صنعة الغزل والحرفة.

ويقول أبو الفضل في هذا الشأن: «وكانت وجوه أقمشة متنوعة أشرقت بفضل الملك، وفر في البلاد الصناع والأساتيذ المهرة وأهل الحرفة النادرة من بلاد إيران والأفرنج والصين وقد فاجأت البلاد بالولع الجار والذوق الحاد لتعليم الصناعة والحرفة. وقد تأسسات في حاضة جلالته «دهلى» ولاهور وفتح بور وأحمد آباد وكجرات المصانع والمراكز لتعليم الصناعة وقد شاعت في البلاد الأقمشة المتنوعة والمتلونة ذات رسوم ونقوش خلابة حيث أعجب من رويتها المتخصصون والماهرون ذات شهرة عالمية وقد قدرها أهل البلاد وهم هرعوا لتعليمها».

---

[١] سميث، ص ٤٠٧.

وكان عدد الأقمشة الحريرية التي شاعت صنفها في عهد أكبر قد جاوز أربعة وعشرين، وأن عدد الأقمشة القطنية قد جاوز ثمانية عشر. ثم أن الشال الذي كان يصنع في كشمير قد حسن صنعه وتنوعت ألوانه حتى جاوزت من أربعة إلى عشرة ونيف كما تحسنت أوصافه وتنوعت أقسامه. وقد تكثرت المصانع لصنع الشال في لاهور في عهد أكبر حتى جاوز عددها ألفا ونيف وكان مصنعه الوحيد من قبل في كشمير.

مساحة الأملاك وترتيبها بالدرجات

ولأول مرة في تاريخ الهند فسحت الأملاك في عهد أكبر على أساس منظم وعينت درجاته كما رتبت القوانين المالية والأرضية، وكان ذلك بفضل جهود راجة تودرمل وأمير فتح الله الشيرازي أمين الملك لأكبر الذين أمرهما أكبر لتنظيم الشئون الملكية والمالية وتنفيذ الإصلاحات الأرضية، وتحصيل الضرائب وغيرها من التدابير والإجراءات الأخرى لضمان المؤونة والفوائد للحكومة والرفاه العام للشعب.

وفي عهد شاهجهان قد لعب مرشد قلي خان عامل ولاية دكن دوراً هامًّا في تنظيم الأملاك حيث اتخذ عدة تدابير في هذا الشأن، ومنها كان مساحة الأملاك وتفريق المزروعة واللامزروعة منها، وترتيب القوانين للعوائد المالية والتقاوى. وهو وصف الأملاك على درجات مائية وبرية ونهرية، وقد قسمها على كروية أي عشرة ملايين من التنكة النقدية في مساحتها نظام الجريب، واستعمل المعيار ذات حلقات جديدة عوض المعيار الجبلي لا يستوي به العيار[١]. وفرض

[١] سميث، ص ١٣٩.

أخذ المالية من ربح محاصيل الأملاك وغيرها.

تربية الحيوانات وتحسينها

وقد زاد عدد الحيوانات في عهد الإمبراطورية المغولية في الهند، وهم جاؤوا بجديد منها واهتموا بتربية ماوجد منها وتحسين نسلها. ويقول الأستاذ الشبلي: ومنها أن الجمل ما وجد من قبل في الهند وكان يستورد به من خارج البلاد ولا يمكن لكل من يطلبه أن يملكه، ولكنه منذ أن أنشأ مصلحة خاصة لتربيته وتحسين نسله قد زاد وكثر، حتى شاع إلى أجمير وجوده بور وناكور بيكانير وجلمير وبهذا وحسب قول أبي الفضل وقد كثر الجمل في هذا العهد حتى ملك كل أحد ألف رأس من الجمل.

وكان الفرس في الهند قصير المتد وصغير الجثة وقد شجع أكبر توريد الجنس الأعلى منه من خارج البلاد[١]، وقد أخذ التجار يوفرون به من بلاد عراق والروم وتركستان وبدخشان والتبت وغيرها، تحفة للأمراء أو سلطة للأسواق. وكذلك شجع أكبر تحسين نسله فجاء لفرس أعلى وأحسن لم يسبق حتى لا يفرق بين الفرس العراقي والعربي.

وقد شاعت في عهد أكبر كثير من الأدوات والآلات والأسباب اللازمة لركوب الخيل والتي كانت لا توجد من قبل، وكانت الخيول تركب من قبل بلا سرج وعلى قطعة من القماش تلقي عليها، كما قرر أكبر صنوفا خدمة والملازمين لحفظها وتربيتها تتجاوز أصنافهم ستة عشر.

وكانت البغال توجد في منطقة بكهلي فحسب، ولكنها ينظر لها

---

[١] سميث، ص ٢٣٠.

بعين الاستحقار ولا يستعملها الأهالي للركوب ونقل الأموال والأثقال، وهم يعدون ذلك أمرًا مخجلاً لا يجدر بشأنهم كما في شأن الحمار. وقد حسن أكبر نسلها وشجع تربيتها حتى زادت قيمة رأس منها إلى ألف روبية فصارت عزيزة ومحترمة لدي الجمهور.

وكان كثير من الحيوانات والطيور الوحشية كالأسد، والنمر، والفيل، وأبي الحنا، والكركي، وغيرهم، لا يتوالدون ولا يتناسلون إلا في الغابات، ولكنهم في عهد حكم المغولية ونتيجة للاهتمام والعناية لترويضهم وتطبيعهم، ولا سيَّما في عهد جهانكير صاروا أليفة حتى أخذوا يتوالدون ويتناسلون ويبيضون في حضيراتهم. ولو أن سعي أكبر قد فشل في هذا الشأن، ولكنه قد توجه بالنجاح الباهر في عهد جهانكير.

وكان جهانكير مولعًا لتربية الحيوانات والوحوش والطيور، وهو أرسل وكلائه في طلب شرائهم إلى البلاد الشاسعة، كما بعث مقرب خان إلى كوئا وهو جاء بالطيور العجيبة والغريبة بصرف نفقات جازفة، وكان من بينها طائر عجيب باسم «بيرو» وقرد غريب الشكل والهيئة. وقد شجَّع جهانكير فن التصوير فأمر أن يصور كافَّة الحيوانات والطيور التي حصلها، وهو اتخذ تدابير وسهولات لا تجئ بالحصر، لتربيتها وحفظها وعلاجها. ومنها أنشأ حديقة عظيمة للحيوانات.

ويفخر جهانكير حينما يقول في مذكراته أنه في عهده قد صيَّرت الحيوانات الوحشية أليفة حتى أن الأسد والنمر كانا يتسايران معًا بلا قيود ولا سلاسل شوارع المدينة ولا يخاف الناس منهما. وكان الفيل واللبوة وأبو الحنا وغيرهم يعيشون، يلدون وينتجون ويبيضون معا في حضيرة واحدة، الخ.

خدمتهم للرفاه العام والأشغال العمومية وغيرها

وقد تقدَّم في عهد آل تيمور الرفاه العام والأشغال العمومية تقدُّمًا باهرًا لا مثيل له، وهم اهتموا بتحسينها وتعميمها. وكان جهانكير قد نفذ اثنتي عشرة سدًّا يرمي منها تحسين الأشغال العمومية والرفاه العام وإصلاح الشئون الاجتماعية، ومنها كان إنشاء المساجد والآبار والمسافرخانات، وإنفاق أموال من يموت بلا وارث لإنشاء المؤسسات الخيرية والمصالح العامة. ومنها كان إنشاء المستشفيات في المدن الكبيرة يعمل فيها الأطباء الرسمية وتعالج المرضاء مجانًا. وقد أنشأ بأمر جهانكير في أرجاء «الممالك المحروسة» مخازن للحبوب، وأمر أن يطبخ فيها الأطعمة وأن توزع على للغرباء في المدن الكبيرة كأحمد آباد، وألله آباد، ولاهور وأكره ودهلي وغيرها[١].

وأيضًا أنشئت حسب أمره آبار في ميل أو ميلين على طريق طويل امتد من لاهور إلى ثغور «مالوا» وغرست الأشجار في أقطارهم ونواحيهم. وهم بنوا مسافرخانات في مسافات لا تقل عن خمسة كروة (عشرة أميال)، وقد أنشئت في عهده المينارات على الطرق كعلامات للأميال.

وكان لهذه التدابير والسهولات نتائج باهرة حيث ساد الأمن والسلام في أرجاء البلاد وأمنت الطرق وأخذت الأموال توفر من إيران وبغداد والشام في أسواق الهند وأخذت الثمار الطرية تصل من البلدان الشاسعة، مثلاً وصل البطيخ والعنب والتفاح من بلاد بدخشان وكابل وسمرقند وجلال آباد وأنناس من بنادر أفرنج وغيرها. وقد أعجب جهانكير نفسه مرة حين رأى أنواعًا شتىً من الثمار الطرية

[١] خافي خان، ص ٢٩٨.

في مائدته وهو يقول «بأي لسان أشكر الله نعماته هذه».

وفي عهده قد تقدم نظام البريد أيضًا حتى استخدم جهانكير في نظام بريده الحمام الزاجل. وعلى قول فرشة كان أكبر قد قرر في كل بلدة سجل الوقائع يسجل أهم الواقعات في ناحيته ويطلعه، وقد بلغ موظفوا البريد مسجلوا الأنباء في عهده أربعة آلاف مؤلف. وكان في كل خمسة أميال محطة للبريد والخيول حاضرة فيها.

وأن تسجيل الأنباء والإصلاحات كانت تشمل الاستخبارات وأحكام الملوك الأمراء والقصور الرسمية وأنباء الصيد المشاغل الأخرى، القصص واللطائف وأقوال مأثورة وإعلانات عفو دخل الأراضي، والأوامر والعرائض وتبديل الحكام وتعييناتهم، جواز أيام العطلات وأنباء الصلح والحرب، نعي الرجال البارزة وأنباء صياح الخيول، الاسترحام والعفو العام وأنباء البلاطات وأنباء البليات الأرضية والسماوية وحالات الفصول الأربعة وغيرها[١]. وكان المسجلون يحفظون السجلات والدواوين الخاصة الذين كانوا يفرقون بواقعة....

الاختراعات والابتكارات

وقد نشأ في عهد أسرة المغولية في الهند كثيرًا من الاختراعات. ومن أغرب ما ابتكر في هذا العهد إنشاء حوض تحته حجرة للسكنى، وكان يعرف باسم مبتكره «حوض حكيم علي» الذي كان حكيمًا ومهندسًا في بلاط أكبر، وهو بنى هذا الحوض في لاهور السنة التاسعة والعشرين من جلوس أكبر على عرش السلطنة وكان.

وكان تحت الحوض حجرة صغيرة يدخل لها عن طريق الماء

---

[١] مسلم ثقافت، ٣٣٥-٣٣٦.

وبواسطة سلم ذات ثلاثة درجات يستطيع أن ينزل فيها في آن واحد عشرة أو إثني عشرة شخص، وكانت مضيئة من كل جهاتها ولا ينفذها الماء وهي زحرفت بآثاث نفيسة للنوم وثياب للبس والأطعمة حاضرة والكتب وصنعت في رفرفها، وهو بنى حوضًا آخر مثله في أكره في عهد جهانكير أيضًا[١].

ابتكره أمير فتح الله الشيرازي أمين الملك لأكبر في فتح بور، ومنها طاحون أوتوماتيكي وكان لا يحتاج إلى الماء ولا الهواء.

وقد ابتكر صناع أكبر أقسامًا متنوعة من المدفعات، ومنها كانت مدفعة لها سبعة عشرة فوه تتجزي حين النقل ثم تجمع في مدفعة واحدة حين الاستعمال.

وكان لأكبر عادة أن يلعب الكرة حتى الليل، وقد ابتكرت كرة لها نور كنور القبة وترى مضيئة في الليل[٢].

وقد تنوعت في هذا العهد الألبسة والأزياء الجديدة حتى جاوزت أنواعها سبعة عشر. ولقد لقبت نور جهان بيكيم. وكان همايون حريصًا للابتكارات، وهو ابتكر حداثات عجيبة غريبة في حقول شئون الدولة والشئون العامة. وفي عهد همايون صنعت أربعة سفائن (مراكب للنفق في ترجمته) ذات قبات أربعة لكل قبلة مرتفعتان تشكل من ائتلاف السفينتين قبة أخرى فيتمثل من اجتماع المراكب الأربعة صحنا مثل الزوايا فيحير الناظرون إعجابا. ومنها أحيت الأسواق الباعة في السفينة فيها كل الأنواع من الأمتعة والبضاعة، كذا أحدث بستان في وسط الماء في نهر جون والجسور العواد (النباج جسر روان)، وقصرًا عجيبًا ذات ثلاثة درجات من الخشب

---

[١] در بار أكبري، ص ١٢٤.

[٢] آئين أكبري، ترجمة أردو ص ١٠٨.

يطـوي ويفتـح ويبسـط وينقـل إلـى أي بلـد يشـاء، ولـه درجـات مطويـة ينبسـط وينقبـض. وقـد زحرفـت بسـتارة نفيسـة ذات ألـوان سـبعة صنعـت من الأقمشة جاءت بها من خوتن وتركيا وأوربا[١].

وقـد أدخـل همايـون تزييـن الحوانيـت والأسـواق فـي مراسـم الأعيـاد الرسـمية، وكانـت تزحـرف بأنـواع متنوعـة وجميلـة مـن الأقمشـة مـن الحريـر المطـرز والكمخـاب الأوربـي الأقمشـة الصوفيـة وغيرهـا ذات ألوان سبعة فتعرض معرضًا صورية كأنها صينية[٢].

وأيضًـا مـن ابتـكارات همايـون صنـع ختمـة كبيـرة علـى شـكل فلـك الأفلاك قـام فـي سـفلها جنـاح أخـرى كشـكل ملـك الثوابـت أحيطـت مـن كل الأطـراف، وهـي كانـت كفلـك الأطلـس وليـس لهـا شـرفة أو سـبيكة وإذا أريـد تفـرق كل واحـد منهـا وتنقـل مـن موضـع إلـى آخـر. وكانـت هـذه النجمـة العجيـة قـد صنعـت بألـوان مختلفـة فـي ابتـكار أنـواع شـتى من أسباب الزينة والأزياء وأساليبها الخاصة للنساء دوراً هامًّا.

وكان جهانكيـر يقـول «إنـي مـا علمـت رونـق البيـت وزينتهـا حتـى مـا تشرفت بها نور جهان»[٣].

وكانـت الهنـد غنيـة للأشـياء والمـواد الطبيعيـة، ولكـن أهلهـا كانـوا لا يعملـون اسـتعمالها أو اسـتغلالها. وقـد أخـذ الملـوك فـي هـذا العهـد أن يسـتغلوا بكثيـر منهـا، ومنهـا كان ملـح البـارود أو نيتـرات البوتاسـي التـي اسـتغله أكبـر لتبريـد المـاء، وكان مـن قبـل لا يعلـم أحـد هـذا السـر. كـذا علم الناس استغلال الثلوج وأخذوا أن يؤتوا بها من الجبال[٤].

---

[١] أكبر نامه، ١/ ٤٣٢-٤٣٣.

[٢] (قانون ص ٣٧.

[٣] توزك جهانكير، ١ / ١٣. وخافي خان، ٢٦٩.

[٤] آئين أكبري، ١ / ٦.

فن التصوير والخطاطي في عهد المغول

وقد اهتم أسرة التيمورية لازدهار فن التصوير والخطاطي، وقد جاء بابر بالتصاوير الجميلة والفنية من تركستان وكابل وهرات إلى الهند ومعه طائفة كبيرة من الفنانين والمصورين والخطاطين. وقد جاء همايون بتلاميذ بهزاد مير السيد علي التبريزي وعبد الصمد الشيرازي من بلاط شاه طهماسب إلى الهند. وهما رتبا قصة أمير حمزة بأمره بأحسن صورة فنية جميلة، ونتيجة لاهتمامه وشغفه بهذا الفن أدخل في نسخ الكتب نثرًا أو نظمًا صنعة الرسم والتصوير. وتعد الفن الخطاطي تحسينًا وإتقانًا ومعها شاع استعمال الورق الذي كان نادرًا من قبل.

وقد أنشأ أكبر دارًا للنسخ في كتبخانته يدرس فيها كل فروع فن التصوير والخطاطي والنقاشي وتجليد الكتب وتذهيبها وزخرفها. وكان يعمل فيها مائة وإحدى عشرة من المصورين وطائفة كبيرة من الفنَّانين والخطَّاطين حتى بلغ عدد الكتب التي نسخوها سنة أربعة وعشرين من الكسب النادرة. وقد اهتم أكبر أيضًا تزيين الجدار بالتصاوير والرسوم المنقشة، كما هو زخرف جدار قصوره في فاتح بور سيكري بالتصاوير الفنية الجميلة التي تمثلت مكتب الفن الإيراني الصفوي وامتزج فيها الروح الهندية والأسلوب الصيني والأوربي أيضًا[١].

وكان أكبر مشغفًا لفن التصور يشجعه ويستحسن مطالعته، وهو يعد منشئ المكتب الهندي لفن التصوير الذي نشأ من المكتب الإيراني، وكان مؤسسه بهزاد الهراتي وهو مهاجر بابر[٢]. وكان يقول

---

[١] سميث، ص ٤٣.

[٢] سميث، ص ٤٢٧.

ولـو أن بعـض النـاس لا يستحسـن فـن التصويـر ولكنـه وسـيلة لمعرفـة اللـه، حيـث أن مصـورًا يرسـم حيوانًـا ولا يسـتطع أن يلقـي روحًـا فيـه يخضع ويسلم قدرة الله المتعال[١].

وفـي عهـده أكملـت قصـة حمـزة المصـورة، التـي شـرعت فـي عهـد همايـون ولـم تتـم، فـي اثنتـي عشـرة مجلـدات، وكانـت التصاويـر الجميلة رسـمت فـي الأقمشـة احتفظـت منهـا اليـوم تسـعة وسـبعون صـورة، سـتون منهـا فـي متحـف وينـا وخمسـة وعشـرون فـي متحـف سـوت لينكيسـنن. وقـد أنفـق أكبـر لترتيـب نسـخات «ظفرنامـه» و«إقبـال نامـه» و«روزمنامـه» مبلغًـا يسـاوي أربعيـن ألفـا أسـترلينا. وكذلـك رتبـت النسـخة المصـورة لكثيـر مـن الكتـب الأدبيـة والقصصيـة المشـهورة، وقـد رتـب بأمـره ألبـوم كبير يحوي صور كبار الرجال في أرجاء رقعته[٢].

وقـد انتسـب إلـى بلاط أكبـر سـبعة عشـرة مـن الرسـامين ثلاثـة عشـر منهـم مـن الهندوكييـن الذيـن كانـت آثارهـم الصوريـة تعـد مـن أحسـن الصورة روعةً ونفاسةً[٣].

وكان مير السيد علي الشيرازي[٤] وخواجه عبد الصمد شيرين فلج الشيرازي[٥] الـذي كان مـن مقربي همايـون وكتـب صـورة الإخلاص فـي

---

[١] (سميث، ص ٤٢٨. آئين، ج١ ص ١٠٨.

[٢] سميث، ص ٤٣٠.

[٣] سميث، ص٤٢٨.

[٤] ولـد مير سـيد علي في إيران في النصـف الأول من القـرن السـادس عشـر، ويعـد واحـداً من أبـرز فنـاني المنمنمات الفارسية والهندية في عصره، وهو المؤسس الأول لمدرسة التصوير الهندي في العصور الإسلامية. كان والـده رسـاماً للمنمنمات الفارسية، وقد أتى به في أول صباه إلى تبريز ليدرس فن الرسم في محترف الفنان الشـهير كمال الدين بهزاد الـذي حظي بمكانة مرموقة لـدى أباطرة الهند والمغول الذين تسابقوا إلى جمع صوره؛ لما تتميز به من قدرة عجيبة على التأليف التصويري، ومزج الألوان، ومشاهد الطبيعة. الموسوعة العربية، ٢٠٨/٢٠.

[٥] وتلقى همايـون وابنـه دروسـاً كثيرة في التصوير على يـد مير سـيد علي وعبد الصمد اللذين توليا تباعاً إدارة مدرسـة التصوير التي أنشأها الامبراطور أكبر، والتي نبـغ فيها كثير من تلاميذه أمثال: دازونت ـ بازوان. وقـد ضمـت هـذه المدرسـة سـبعين مصـوراً هنـدياً، أحدثـوا نهضـة فنيـة كبيرة في الهنـد. الموسوعة

حبة أرز[١].

ويقول جهناكير في وصفه أنه كان بلا مثيل في فن الرسم[٢].

وكان دسونت ولال ومكند وشكين وفرخ قلماق ومادهو وبساون وجكن ومهيش وهرسي بنس وغيرهم من أشهر المصورين والفنانين في عهد أكبر[٣].

كما قد جمع أكبر طائفة كبيرة من الرسَّامين الذين أخذوا آثار بهزاد الصورية أنموذجة لآثارهم. ولم ينحصر أعمال الفنانين والمصورين في عهد أكبر على تصوير الكتب وترتيب الألبومات فحسب، بل شملت على تزيين الجدار[٤].

الفن الخطِّي

وكما أن الفضل يعود إلى الأسرة المغولية في فن التصوير، كذلك يعود الفضل إليهم في تقديم الفن الخطَّاطي والنقَّاشي وحسن الخطِّ. وفي عهد آل تيمور تطوَّر فن الخط من الكوفي إلى نستعليق الذي ابتكره خواجه مير علي التبريزي[٥] في عهد تيمور ثم ترعرع في بلاط ميرزا حسين بايقرا. وكان مركبا من نسخ وتعليق. وكان بابر قد ابتكر أسلوبًا خاصًّا في الخطِّ الذي يعرف بخط بابري. وقد اهتم همايون بتحسين هذا الفن وكان المعمائي وملا البقائي من أشهر خطاطي

العربية، ٢٠٨/٢٠.

[١] سميث، ص ٤٢٧.

[٢] سميث، ص ٤٢٨.

[٣] مسلم ثقافت، ص ٣٨١.

[٤] سميث، ص ٤٣١.

[٥] هو مير علي التبريزي أو مير علي الهروي التبريزي، الملقّب بقدوة الكتّاب، هو خطّاط وشاعر فارسي، عاش في تبريز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وهو مخترع خط النستعليق. كتب مخطوطاً من قصائد «خواجه الكرماني» التي يشرح فيها غرام الأمير الفارسي هماي بالأميرة همايون. توفي عام ٨٥٠ هـ. مير علي التبريزي – الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦.

بلاطه. وقد ابتكر على جانب نستعليق وكوفي أساليب شتى كتوقيع ومحقق وريحان ونسخ ورقاع وغبار وطغرا، وكان قد انتسب إلى بلاطه طائفة كبيرة من الخطّاطين أشهرهم كانوا محمد حسين الكاشميري رزين قلم، وملا مير علي ومولانا عبد الرحيم عندليب قلم وغيرهم[١]. وكان بندت جكس ناتهـ وراي منوهر لال وراجا تودرمل من خطاطي الهند الشهيرة في هذا العهد.

وكان مير عماد وعبد الرشيد الديلمي[٢] ممن فاق أقرانه من الخطّاطين في عهد شاهجهان، وكان له شغف واستحسان لحسن الخط. وكان يرفع مير عماد إلى رتبة صد سواري رئيس المائة. وكان عبد الرشيد الديلمي إمامًا في هذا الفن حتى يقال بشأنه أنه أخذ خط النستعليق من مير علي التبريزي وختم بعبد الرشيد الديلمي. وكان أورنك زيب يكافئ من امتاز في الخطاطي بعناوين ياقوت رقم وجواهر رقم، وكان نفسه ماهراً في أسلوب النسخ والنستعليق حاميا لهما.

الفن الموسيقى

وقد ازدهر فن الموسيقي في عهد الأسرة المغولية في الهند بحد لا نظير لها. وكان بابر ماهراً في علم الموسيقي والشعر وكتابة الإنشاء والإملاء ويرتب محافل الطرب والغناء والموسيقى[٣].

وكان همايون ماهراً في هذا الفن ويربي أهله، وهو شملهم في

[١] أئين أكبري، بلوچمكن ص ١٠٣. مسلم ثقافت، ص ٤٠٠.

[٢] هو الشيخ الفاضل عبد الرشيد الديلمي الخطاط المشهور، لم يكن في زمانه مثله في الخط، أخذ عن خاله السيد عماد الدين، وقدم الهند في أيام شاهجهان بن جهانكير التيموري سلطان الهند، فاستخدمه، وولاه عالمكير بن شاهجهان على البيوتات بمدينة أكبر آباد نظراً إلى كبر سنه، مات في سنة ثمانين وألف، نزهة الخواطر، ٥/٥٦٣.

[٣] تاريخ فرشتة، ج ١ ص ٢١١.

طائفة «أهل المراد» من طوائف مقربيه الثلاثة، وكان عهد أكبر عهدًا زاهرًا للفنون الجميلة، وكان هو مولعًا لفن الموسيقى، انتسب إلى بلاطه طائفة كبيرة من المطربين والمغنين والماهرين في الموسيقي من الهندي والمسلم والإيراني والتوراني وغيرهم، ومنهم كان بابر بهادر حاكم ماكو موسيقيًّا ماهراً ومبتكر لحن البازغاني، والمغنية الشهيرة راني ميران باي وهي كانت مبتكرة لحن راني.

وقد عاش في بلاطه وتحت رعايته المغني الشهير تان سين الذي يقول أبو الفضل بشأنه أنه ما ظهر مثله منذ ألف سنة في الهند. وكان هو مبتكر اللحن المعروف بـ «راك» وعدة ألحان وآلاف موسيقية أخرى. وكان نظام الدين مدهونائك، ومخدوم بهاء الدين البرناوي ممن ذاع صيتهم في هذا الفن في عهد أكبر. وكان نظام الدين عالمًا لعدة لغات وشاعرًا وماهراً في فن الموسيقي، وله عدة مؤلفات في هذا الفن منها ناد حيندريكا (الغناء القمرى) ومدهنامك سنكار (جمال الموسيقيات).

وكان مخدوم بهاء الدين البرنادوي من أهل التصوف، وكان مبتكر ألحان سازن وكهث رس اللجنان المحبوبات في الهند. وكان جهانكير يقدر فن الموسيقي، وكان في بلاطه جماعة من المغنيين، وكان رام داس ومها باتراس وجكن ناتهـ ولال خان من أشهر مغني بلاطه، هو كافأ مرة جكن نات ولال خان بوزنهما بالفضة. وهكذا كان أمراء الأسرة المغولية ينافسون ما بينهم في حماية أهل الفن والشعر والموسيقي ولكن قد سبقهم عبد الرحيم خان في هذا الميدان بحمايته ورعايته الفنون الجميلة والشعر والموسيقى[١].

ولم تنحصر حركة النشاط الأدبي والثقافي لأفراد الأسرة من

---

[١] مسلم ثقافت، ص ٤١٣–٤٢٢.

الرجال فحسب، بل شملت على نسائهن فظهرت منهن عالمًات وأديبات وشاعرات، فمنهم كل بدن بيكيم بنت بابر التي صنفت همايون نامه ومكرخ بيكيم البنت الثانية وكانت شاعرة، وشكيمة سلطانه ملكة أكبر، ونورجهان ملكة جهانكير، وجهان آرا بيكيم بنت شاهجهان، وهي ألفت مؤنس الأرواح في بيداء، وزيب النساء بتن أورنك زيب، وهي تركت لنا زيب المنشات مجموعة الخطوط والخطابات وأختها زينة النساء كن من الأدبيات والشاعرات من الأسرة التيمورية التي خلدت أسمائهن بآثارهن الأدبية والثقافية[١].

وكذا ماهم بيكيم بنت بيرم خان وزوجة الأمير دانيال، وكانت عالمة وشاعرة وضعت تفسيرًا للقرآن الكريم[٢].

أسرة محمد علي الأكبر التركية

(الأسرة التي وضعت أساس مصر الحديثة)

وكانت هي آخر أسرة تركية آلت إليها حكومة مصر بعد انهيار سلطة البكوات المملوكية تحت سيادة الدولة العثمانية بضابط تركي يسمي محمد علي، خدم في الجيش العثماني الذي أخرج جند نابليون من صعيد مصر.

ولد محمد علي في مدينة قوله في بلاد الروමللي أو مقدونيا في سنة ١١٨٢هـ ١٧٦٩م أي: في نفس السنة التي ولد فيها نابليون، وكان أبوه إبراهيم خان من جنس تركي يقوم بوظيفة رئيس الحرس في «قوله»، فلما مات كفله عمه طوسون، فكفله حاكم قولة وصديق

[١] مسلم ثقافت، ٤٣٢.
[٢] بزم، ص ٤٣٦ وما بعدها ٤٦٤.

والـده «الشـوربجي إسـماعيل»، فتربـي محمـد علـي مـع ابـن الشـربجي علـى أعمـال الفروسـية كركـوب الخيـل واسـتعمال السـيف، ولمَّـا كبـر كافـأه الحاكـم برتبـة يـوز باشـي وزوجهـه بإحـدى قريباتـه. وبسـبب الثـروة التـي كانـت لزوجتـه اشـتغل بتجـارة الدخـان، وكان بهـا إلـى أن اتفقـت إنجلتـرا وتركيـا لإخـراج الفرنسـيين مـن مصـر. وكان محمـد علـي تحـت قيـادة القبطـان حسـين باشـا، ابـن الشـربجي علـى رأس القـوة التـي جـاءت مـن «قولـه». فلمـا عـاد ابـن الشـوربجي صـار محمـد رئيسًـا للقـوة برتبـة بنباشـى (قائـد ألـف). وقـد أبـدى محمـد علـي مـن الشـجاعة والإقـدام مـا جعلـه يرتقـي إلـى رتبـة قائـد فـي الجيـش، وقـد كافـأه حسـين باشـا فـوق ذلك بأن جعله في معية خسرو باشا حاكم مصر[١].

بعـد أن تمكَّـن أمـره فـي مصـر، وقضـى علـى طائفـة المماليـك فـي مكيـدة دبرهـا فـي أول مـارس سـنة ١٨١١م، وكان عددهـم ألـف، أربعمائة

---

[١] المصادر الحديثة لتاريخ محمد علي: جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على القاهرة ١٩٥٢م. تاريخ محمد على باشا رأس العائلة المالكة الملوكية بالديار المصرية والخديوية لمحمد بك فريد المعروف بالبهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة والخدوية طبعة بولا ١٣٠٩هـ. تاريخ محمد على باشا المتقدم للشيخ خليل بن أحمد الرحبي الشاذلي كتبت سنة ١٢٩٢ نسخة غير مطبوعة. للبهجة العباسية في تاريخ مصر والأمة العربية لسيد عزمي أفندي طبعة بولاق سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٦م. جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي (القاهرة ١٣٠٦هـ). تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى سنة ١٩١٢ تأليف جماعة من الأساتذة كجزء أخير للكتاب تاريخ إلى الفتح العثماني القاهرة ١٣٣٣هـ ١٩١٥م.

تاريخ مصر الحديث من محمد على باشا إلى اليوم للدكتور محمد صبري القاهرة ١٣٤٥هـ. وتاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة للأستاذ محمد رفعت القاهرة الطبعة الثانية ١٩٢٦م. وتاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا الكبير للأستاذ إلياس الأيوبي القاهرة طبعي دار الكتب المصرية. وترجمان العصر في (عن) تقدم مصر لسليم إلياس الدمشقي الإسكند ١٢١٩هـ ١٨٧٤م وهي رسالة تتضمن ما وصلت إليه مصر من المعارف والفنون والإصلاحات في عهد محمد وأنجاله. وتاريخ الحركة القومية عبد الرحمن اليافعي ١٩٢٩ قاهرة. ومحمد علي سيرته وأعماله إلياس الأيوبي ١٩٢٣ القاهرة. فؤاد الأول عبد العزيز الأزهري ورفاقه ١٩٣٧ القاهرة. حوليات مصر اليابسة أحمد شفيق باشا القاهرة. في عصر إسماعيل عبد الرحمن اليافعي القاهرة. تاريخ مصر وخاندان محمد على بزرك على جواهر كلام تهران ١٣٢ش هـ. عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي (يبحث عن تاريخ مصر ١٦٨٩م إلى ١٨٢١م) صدرت طبعته باللغات العربية والفرنسية والتركية. المراجع للطولونيين والمماليك محمد على المعطى. لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. عبدالله الشرقاوي تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين طبعة القاهرة. من المؤلف.

منهم من الأمراء والباقون من الأتباع. أخذ محمد علي يدبر خطة تقضي بها على الوهَّابين فأصدر أمره بتسيير الحملة سنة ١٨١٢م ضد الوهابيين بقيادة ابنه طوسون ثم خرج نفسه على إثر انهزام طوسون، فهزم الوهابين عند «كربة» ثم أرسل حملة ثانية بقيادة ابنه إبراهيم وذلك بعد موت طوسون بالطاعون. وهو حاصر الدرعية قاومت فيها الوهابيون في إبريل سنة ١٨١٨م حتى سلمت في سبتمبر التالي.

ثم بدأ محمد علي في إعداد الحملة على السودان في يونية ١٨٢٠م بجيش مركب من ٣٠٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان ومدفعية مركبة من ١٢ مدفعا، وعيَّن على رأس الحملة إسماعيل ثالث أنجاله ففتحها بعد سنتين، وبفتحها مجال وسيع، وسَّع للمصرين للاتجار والاستثمار. ولكن إسماعيل قد أحرق في مؤامرة دبَّرها نمر صاحب «شندي» فخلف صهره محمد بك الدفتردار الذي فتح الكردفان[١] وقتل ٢٠٠٠ فدية لإسماعيل وحرق شندي.

وبعد أن ثبت سيادة الحكومة على الأقاليم التي فتحت أنشأ محمد علي مدينة الخرطوم في سنة ١٨٢٢ فاتخذها عاصمةً للبلاد، وبنى فيها الصناعة والبيوت وأنشأ السفن فأصبحت الخرطوم محطة لتجارة السودان.

كما اهتم بالاكتشافات الجغرافية بإرسال بعثات مختلفة فكانت تقارير هذه البعثات أول المستندات التي ظهرت فيما يختص بداخل إفريقيا.

وقد ثبت محمد علي من قبل الباب العالي برتبة باشا في ولاية

---

[١] مقاطعة في وسط سودان.

مصر في نوفمبر ١٨٠٦م، وبتثبيته انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة، وأصبح أمر مصر بيد محمد علي، الوالي لمصر. ومنذ ذلك حكم مصر هو وأسرته وراثيًّا حتى سنة ١٩٥٢. ولو أن محمد على نفسه وأفراد أسرته التي خلفوا بعده كانوا موالين للدولة العثمانية كان ذلك بالاسم فحسب. ويعد محمد علي مؤسس مصر الحديثة، وهو لعب دوراً هامًّا في تاريخ مصر بإقدامه الجرئ وبصيرته السياسية.

وإن تاريخ مصر منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين في الحقيقة تاريخ ذلك الرجل العظيم وأسرته بجهوده المتواصلة التي جعلته ممتازًا من بين معاصريهم من ملوك المسلمين، وله يعود الفضل في التطورات الحديثة التي نالتها مصر وسبقت إلى بلاد أخرى.

وكان هو أول شخص جعل الأراضي والأملاك ملكية قومية في بلاد العرب وأخذ نظارة الأوقاف على عاتقه، وعيَّن للمشايخ رواتب سنوية كما أمد بالفلاحين المستأجرين بالآلات والمواشي والماء للريِّ. واهتم لرفع شأن البلاد اقتصاديًّا، فحفر القنات والترعات والقناطر والخصارف، وأدخل في المملكة المعرفة العلمية في حقل الزراعة وغيرها، وأدخل من الهند والسودان زرع القطن سنة ١٨٢١-١٨٢٢، كما أدخل النيلة والدخان والحرير والأفيون وأدخل شجرة التوت لتربية دودة القز وغيرها من الأشجار.

وبالرغم أنه كان أميًّا شجَّع العلم وأنشأ وزارة التعليم من جملة وزارات ومجالس عالية للنظر في شئون الدولة المختلفة، كما أحدث المجلس التعليمي. وأسَّس سنة ١٨١٦م أول مدرسة هندسية في صعيد مصر. وأيضًا أول مدرسة للطب التي لاتزال اليوم باسم جامعة

فـؤاد الأول[١]. وهـو اسـتخدم العلمـاء والأسـاتيذ والأطبـاء مـن فرنسـا ودعـي لمملكتـه وفـودًا عسـكريًّا وتعليميـة لتعليـم شـعبه كمـا بعـث وفـودًا إلى بلاد أوربا.

وكمـا تثبـت مـن السـجلات الرسـمية أنـه قـد بعـث مـا بيـن سـنة ١٨١٣ ١٨٤٩ إلـى حيـن وفاتـه ثلاثمائـة وإحـدى عشـرة مـن الطلبـة المصرييـن إلـى إيطاليـا وفرنسـا وإنجلتـرا والنمسـا. وقـد أنفـق لهـم مـن خزانـة الدولـة ٣٦٠-٢٧٣ جنيهـا مصريـا. وهـو أنشـأ فـي باريـس بيتًـا خاصًّـا لطلبـة مصـر البعثيـة. وكانـت العلـوم العسـكرية والبحريـة والهندسـية والطبيـة وأجزاخانـات والفنـون الجميلـة والحـرف مـن العلـوم التـي تفضـل درسًـا بيــن الــطلاب. ومنــذ ذلــك وبفضــل تشــجيعه نهضــت اللغــة العربيــة، فعربــت الكتــب فــي مختلــف العلــوم وألقــى الأســاتذة المصريــون محاضراتهـم باللغـة العربيـة. وأصبحـت اللغـة الفرنسـية لغـة شـائعة فـي مصـر ولا تـزال تحفـظ موقعهـا كلغـة شـائقة بدرجـة أولـى إلـى يومنـا هـذا. وأخرجـت المطبعـة الأميريـة ببـولاق عـددًا عظيمًـا مـن المؤلفـات العربيـة وأصـدر صحيفـة للوقائـع الرسـمية باللغتيـن العربيـة والفرنسـية ابتـداء مـن سنة ١٨٢٨م.

وهـو قضـى علـى بقيـة باقيـة مـن المماليـك الذيـن حكمـوا مصـر زهـاء سـتمائة سـنة قضـاء نهائيـا، وذلـك بقتلهـم كليـا فـي مؤامـرة رتبـت عليهـم في قلعة القاهرة.

وبموجـب مرسـوم أصـدر سـنة ١٨٤١ جعلـت ولايـة مصـر وراثيًّـا لأفـراد أسـرته. وقـد حكـم عشـرة منهـم، وكان آخرهـم الملـك الفـاروق الـذي تبـوأ عـرش مصـر سـنة ١٩٣٦ بعـد وفـاة أبيـه الفـؤاد الأول وخلـع سنة ١٩٥٢. وبخلعه قضي على أسرة محمد علي الكبير قضاء نهائيا.

---

[١] في فترة التي عاش فيها المؤلف.

وكان الفؤاد الأول أول فرد من أسرته أعلن ملك مصر، وكان ذلك سنة ١٩٢٢م (حتى ص ٧٢٢-٧٢٦). ولقبته إنجلترا بلقب سلطان، وهو مات سنة ١٩١٧. وكان هذا هو الدور الذي نهض المصريون ضد إنجلترا تحت قيادة الزعيم الكبير الوطني سعد زغلول[١] باشا يطالبون بالاستقلال التام ولا يقبلون حماية إنجلترا، ثم خلعه توفيق باشا، وهو بكر أنجال إسماعيل باشا؛ ولد سنة ١٢٦٩هـ ١٨٥٢م. وهو شب ولعا بالعلوم والآداب فأحرز نصيبًا وافرًا من الجغرافية والتاريخ والطبيعيات والرياضيات والعربية والتركية والإنكليزية والفرانسية. فعهد إليه أبوه في أسمى مناصب حكومته واستعان به في أعماله وإصلاحاته، وهو لم يستطع أن يهتم للإصلاحات الهامة كأبيه وذلك؛ لأن مصر كانت في حالة سيئة؛ ديون باهضة، وجيش ثائر، وشعب مضطرب والدول تتراقب الحوادث فيها عن قريب تتدخل في شئونها، وأضف إلى ذلك ثورة عرابي باشا[٢] في مصر وثورة المهدي[٣] في سودان، وقد احتل الإنجليز مصر في عهده. وبالرغم أن عهده قد مضى باضطراب وأزمة سياسية، ولكنه كان

---

[١] هو سعد زغلول (١٨٥٨م – ١٩٢٧م) زعيم مصري وقائد ثورة ١٩١٩م في مصر وأحد الزعماء المصريين التاريخيين. أحد الذين طالبوا باستقلال مصر. شغل منصب رئيس وزراء مصر ومنصب رئيس مجلس الأمة.

[٢] هو أحمد عرابي (١٨٤١ – ١٩١١)، قائد عسكري وزعيم مصري. قائد الثورة العرابية ضد الخديوي توفيق ووصل إلى منصب ناظر الجهادية (وزارة الدفاع حاليًا)، وكان أميرالاي (عميد حاليًا). مذكرات السلطان عبد الحميد. تقديم وترجمة: الدكتور محمد حرب، ط. ٣. (دار القلم)، ص. ٥٠.

[٣] هو محمد أحمد بن عبد الله بن فحل (٨ ١٨٤٣ – ١٨٨٥) زعيم سوداني وشخصية دينية، قاد الثورة المهدية ضد الحكم التركي المصري في السودان. ونجح بتحرير الخرطوم عاصمة البلاد وقتل الجنرال البريطاني تشارلز غوردون الحاكم العام للسودان في العام ١٨٨٥. ثم قام بتحويل العاصمة إلى أم درمان. توفي في يونيو ١٨٨٥ وما زال ضريحه موجوداً بمدينة أم درمان. تعاطف مع حركته مفكرون عرب وإسلاميون بارزون منهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده. خلفه الخليفة عبد الله بن السيد محمد التعايشي والذي قاوم جيوش الاحتلال البريطاني إلى أن قُتل عقب معركة أم دبيكرات في العام ١٨٩٩ والذي شهد عودة الاحتلال البريطاني لحكم السودان بعد حكم وطني دام لأكثر من أربعة عشر عاماً. جمال الدين الأفغاني بين دارسيه، الدكتور علي شلش، (دار الشروق، القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٢٢. كرري – تحليل عسكري لمعركة أم درمان، عصمت زلفو– (المطبعة العسكرية أم درمان – ١٩٧٣)، ص ٥٦٦-٥٧٠.

مشهورًا بالعطف على رعيته، فخفف الضرائب وأحدث إصلاحات جمة. توفي الخديو توفيق باشا في ٨ ينا ١٨٩٢م (١٣٠٩هـ).

أعلنت إنجلترا في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ حمايتها على مصر وزوال السيادة التركية من عليها، وفي اليوم التالي أعلنت عزل الخديوي عباس واعتلاء الأمير الحسين واختيار فؤاد بن إسماعيل أن يخلفه على العرش.

ثم تبوأ عباس باشا حلمي الثاني (ولد سنة ١٢٩١هـ ١٨٧٤م) عرش الأريكة الخديوية في ١٦ يناير ١٨٩٢م وعمره آنذاك ١٨ سنة واسترجع السودان وعقد الاتفاق الإنجليزي المصري الذي أصبح السودان بموجبه تابعًا للحكومتين الإنجليزية والخديوية الحالة التي استمرت إلى عهد فاروق الأوَّل، وإلى أن استقلت السودان.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى لما أعلنت مصر الحرب على ألمانيا وحلف بها وانضمت تركيا إلى جانب الألمان كان الخديوي الذي كان في الأستانة قد بان انحيازه لتركيا.

وقد امتاز عهد العباس بنهضة أدبية جعلت مصر في طليعة البلاد الشرقية، فازدهرت فيها المدارس والمعاهد العلمية، وكثرت صحف الأخبار ونشرت الحركة الوطنية، ومجلات العلم والأدب ونبغ الكتاب والشعراء الأعلام فرفعوا منار اللغة العربية وأعاد إليها عصرها الذهبي. وكان مصطفى كامل ممن قاد الحركة الوطنية في ذلك الوقت، وهو أسس الحزب الوطني الحديث في مصر[١].

وكان علي باشا مبارك والسيد جمال الدين الأفغاني[٢] وتلميذه

---

[١] ملخصا من تاريخ مصر للسيدة هند إسكندر عمون مطبعة القاهرة ١٩١٣، وتاريخ مصر الياسي لمحمد رفعت ص ٢٣٨.

[٢] هو جمال الدين الأفغاني وبالكامل محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأسد آبادي (١٨٣٨

الشيخ محمد عبده والزعيم الوطني المصري سعد زغلول باشا وغيرهم ممن برزوا ونبغوا في عهده[١].

وبهذه الإصلاحات المتنوعة التي تمت على عهده قد لقب محمد علي بالكبير، وسمي مصلح مصر العظيم، ولا عجب إذا لقب به؛ لأنه كان لا يألو جهدًا في إنهاض مصر ودفعها إلى مجاراة أرقى البلاد في التقدم والحضارة. وكان يرمي إلى تأسيس سلطنة شرقية عظمى على قاعدة ممالك الغرب، وكاد يتم له ذلك بفضل حزمه ونشاطه وصدق نظره وسعة مداركه. وقد خبر الدنيا وعجم عودها وعرف سياسة الناس، فوضع الأمور في موضعها. قال الكونت بندتي «كان محمد علي عزيزي مصر أشبه ولاة المسلمين بهارون الرشيد، وقد ساد مصر وفتح لها ينابيع الثورة، وهدم الحواجز التي كانت تفصل بينها وبين أوربة[٢].

إصلاحات محمد علي

وقد أورد محمد علي عدة إصلاحات هامة في الحقول العسكرية والعلمية والاقتصادية والإدارية وغيرها، الإصلاحات التي ثبتت أن تكون نقطة تحوَّل في تاريخ مصر الحديث.

وأهمُّها كانت إصلاحات عسكرية. جعل محمد علي الخدمة العسكرية إجبارية، وعلم جيوشه المستحدثة من برية وبحرية، النظام العسكري الأوربي وبنى لهم مدارس علمية عرفت بالتجهيزية، وأخرى

– ١٨٩٧)، أيديولوجي ومفكر إسلامي وناشط سياسي، يُعتبر من مؤسسي حركة الحداثة الإسلامية وأحد دُعاة الوحدة الإسلامية في القرن التاسع عشر، جاب دول العالم الإسلامي ومدن أوروبا لندن وباريس واستقر أخيرًا في الأستانة «إسطنبول حاليًا» وتوفي فيها.

[١] علي جواهر كلام، تاريخ مصر تهران ص ١٢٦.

[٢] محمد رفعت، تاريخ مصر ص ٢٧٦.

حربية؛ فكانوا يتعلمون في الأولى القرآن والتركية والفارسية والعربية والإيطالية والنحو ومبادئ الرياضيات والرسم وغير ذلك من العلوم. وكانوا بعد إتمام هذه الدروس ينتقلون إلى المدارس الحربية.

وكان محمد علي يبعث إرساليات من طلبة هذه المدارس إلى أوربة لإتقان الفنون الحربية فيها، وتعلم بناء السفن والملاحة وعلم الآلات والطبيعيات والطب وما شابه. وقد أشاد محمد على مدرسة للطوبجية ومعامل لصب المدافع وسائر آدوات الحرب وترسانته في الإسكندرية، وبنى حصونًا كثيرةً منيعةً حول هذه المدينة وسائر الثغور.

وكان من أشهر مدربي الجيش المصري الجنرال سيف Seves الذي أتى مصر بعد سقوط نابليون ونفيه، فعمد محمد علي إليه في البحث عن مناجم الفحم الحجري في السودان؛ ثم أرسله مع إبراهيم باشا إلى المورة وسورية، فأبدى بسالة وحنكة في القتال، واعتنق الإسلام فعرف بسليمان باشا الفرنساوي ومات في ١٨٦٠م، وله تمثال في الميدان المعروف باسمه في القاهرة[١].

إصلاحاته العلمية

أشاد محمد علي مدارس ابتدائية لتعليم العربية والحساب، ومدارس ثانوية لتعليم التركية والتاريخ والجغرافية والرياضيات، ومدارس عليا للضباط ولطلبة الطب والزراعة والفنون الجميلة، وأنشأ لها ديوانًا عرف بـ «ديوان المدارس»، وكان أشبه شئ بنظارة المعارف المالية؛ وعهد إليه في مراقبة التعليم ونظامه؛ فتجاوزت المدارس التابعة له في سنوات قليلة السبعين بين ابتدائية وثانوية وعليا كمدراس الطب والصيدلة والزراعة والهندسة والصنايع والفنون الخ.

---

[١] تاريخ مصر، ص ٢٧٠-٢٧١.

وجعل محمد علي التعليم مجانيًّا؛ وكان يقوم فوق ذلك بنفقات الطلبة كلها؛ فبلغوا في عهده ٩٠٠٠ طالب رغم كره الناس التعلم في تلك الأيام. وكان يوفد إرساليات علمية إلى أوربا كالإرساليات العسكرية. وأشاد في باريس مدرسة كان رئيسها مصريًّا وأساتذتها فرنساويين.

واشتهر من أساتذة الطب في مصر الدكتور الفرنساوي كلوت بك، وإليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة. استقدمه محمد علي طبيبًا لجيوشه، واستعان به على نشر تعليم الطب، وعلى تشييد المدارس الطبية والمستشفيات، وكان أهمها مدرسة القصر العيني. وأنشأ كلوت بك مجالسًّا ولجانًا طبيَّةً، ونبغ من تلاميذه كثيرون، وهم ترجَّموا إلى العربية والتركية والفارسية كتبًا كثيرةً في الطبِّ والجراحة والطبيعيات.

وأنشأ محمد علي جريدة «الوقائع المصرية» ومطبعة في بولاق على أنقاض المطبعة الفرنسية، فكانت تطبع فيها الكتب المفيدة وأكثرها منقول من مؤلفات أوربية في التاريخ والجغرافية والطبيعيات والفنون الحربية والعلوم السياسية والطب.

وقد احترم محمد علي العلماء كثيرًا وقربهم إليه وشجَّعهم. فكانت طليعة النهضة الأدبية الحديثة التي سرت من مصر إلى سائر ربوع الشرق. وفي أيامه قدم إلى مصر شامبوليون، وهو العالم الفرنساوي الذي توصل إلى قراءة الكتابة الهيروغليفية، فأفاد التاريخ فائدة كبرى، وأماط النقاب عن كثير من حوادث مصر القديمة[١].

الإصلاحات الاقتصادية

لما استتب الأمر لمحمد علي كانت الصناعة والتجارة في أسوأ

---

[١] محمد رفعت، تاريخ مصر ص ٢٧١-٢٧٣.

حـال؛ وكان القسـم الأكبـر مـن الأراض الزراعيـة قفـرًا قـاحلاً، فـأراد محمـد علـي أن يعيـد إلـى مصـر عزهـا الغابـر، وإلـى أبنائهـا السـعادة والصفـاء، ورأى شـدة الاحتيـاج إلـى المـال لتحقيـق هـذه الأمانـي، فحاول أن يسير بالمصريين إلـى جنـاء خيـرات وافـرة طمرهـا فـي واديهـم نهـر ميمـون؛ ثـم عـرف مـا يقتضيـه إحيـاء ميـت نشـاطهم فـي السنين الطـوال فاضطـر إلـى احتـكار الزراعـة والتجـارة والصناعـة، واسـتأثر بالأراضـي الزراعيـة ومسـحها ووزَّعهـا فـي النـاس وسـهر علـى زراعتهـا بنفسـه. وانتقـى لـكل جهـة منهـا الـزرع الـذي يصلـح لهـا. وقـد أدخـل زراعـة القطـن فـي الدلتـا ١٢٣٨هـ ١٨٢٣، فكانـت فـي المسـتقبل ثـورة كبيـرة لمصـر، كمـا أدخـل زراعـة الأفيـون فـي الصعيـد، وجـاء بأنـواع كثيـرة مـن الأشـجار والأثمـار والحبـوب والبقـول والأزهـار. وكان يسـتعمل كل الوسـائل فـي تشـجيع المزارعيـن ويرسـل ذوي الاسـتعداد منهـم إلـى أوربا لتعلم الزراعة فيها على نفقة الحكومة.

ورأى مـا يقتضيـه انتشـار الزراعـة ونجاحهـا مـن وفـرة المـاء، فحفـر فـي القطـر نحـوا مـن ٤٠ ترعـة وفكـر فـي بنـاء خـزان عنـد رأس الدلتـا علـى فرعـي النيـل لضبـط الميـا إبـان الفيضـان، والـري منهـا إبـان الهبـوط. وعهـد سـنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٤م إلـى لينـان باشـا بلقـون وإلـى موجـل بـك فـي هـذا العمـل العظيـم الـذي لـم يتـم إلا علـى عهـد خلفائـه، وهـو المعـروف بالقناطـر الخيريـة. وكان سـد أبـي قيـر لا يـزال حزبـا كمـا تركـه الإنكليـز بعـد موقعتهـم مـع الجنـرال فينـون، فأصلحـه وبنـى غيـره. وكانـت أراضـي مصـر الزراعيـة فـي أوائـل حكمـه تـكاد لا تتجـاوز ٠٠٠و٠٠٠و١ فدان فبلغت في آخر أيامه أربعة أضعاف ذلك.

وكان محمـد علـي يسـتولى علـى حـاصلات القطـن فيسـتوفي منهـا الضرائـب ويعطـي المزارعيـن نصيبهـم منهـا، ويبيـع القسـم الأكبـر مـن

باقتها إلى التجار الأوربيين بأثمان عادلة، فأقبل هؤلاء عليها إقبالاً كبيرًا، لا سيَّما وأن محمدا علي أكثر لهم وسائل الاتجار مع بلاده، وأحسن معاملتهم ومنع عنهم كل اعتداء. وبنى السفن التجارية مرفأ في الإسكندرية، وأنشأ فيها أيضًا مجلسًا تجاريًّا من الوطنيين والأجانب للنظر في الدعاوي التجارية، وحفر من المدينة إلى النيل ترعة دعاها «المحمودية» نسبة إلى السلطان محمود. فسهل بذلك المواصلات التجارية بين النيل والبحر الأبيض المتوسط.

وبنى محمد علي في أنحاء القطر الطواحين، والمعامل الكثيرة لنسج الصوف والكتان والحرير والقطن ولصنع الطرابيش ولاستحضار السكر وتكريره ولطبخ الورق.

الإصلاحات الإدارية

ويعود الفضل لمحمد علي في الإصلاحات الإدارية على طراز حديث، وهو قسم مصر إلى مديريات، والمديريات إلى مراكز، والمراكز إلى نواح؛ موكلا أمورها إلى مديرين ومأمورين ومشايخ بلد. ونظم البريد بحرًا وبرًّا. وأقام في كل أنحاء القطر فرقًا من الجيش لحفظ الأمن دعاها «الفرق الضابطة». وأنشأ مجالس قضائية، وسنَّ لها القوانين والنظام. وألف دواوين لكل دائرة من دوائر الحكومة كديوان الخارجية وديوان الداخلية وديوان المدارس ودواوين الترسخانة والأبنية والمعامل والتفتيش والأشغال والمالية والحقانية والحربية والضابطة والأوقاف وهلمَّ جرا.

وكان يرجع أمرها كلها إلى الديوان الأكبر ويسمى «ديوان المعاونة». وكانت سلطة محمد علي مطلقة تعلوا كل هذه الدوائر. وما زال يسهر بنفسه على سير حكومته ويراقب أعمالها ونظامها بهمة

لا تعرف الكلل إلى أن أعقده المرض والضعف عن العمل، فاضطر إلى التنازل عن الحكم لابنه إبراهيم (١٢٦٤هـ ١٨٤٨م). ومات محمد علي سنة ١٢٦٥هـ ١٨٤٩م فدفن في الجامع الذي بناه في القلعة، وكان قد أقامه على أنقاض قصر صلاح الدين وزيَّنه بالرخام والرسوم الذهبية[١].

إبراهيم باشا

إبراهيم باشا ولد في قوله سنة ١٢٠٤هـ ١٧٨٩م، خلف أبيه سنة ١٢٦٥هـ ١٨٤٨م. وقد عنى محمد علي بتعليمه وتهذيبه، فدرس إبراهيم التركية والعربية والفارسية وتواريخ الأمم الشرقية. وكان ولعًا بالقتال والفتوحات، فأتقن صغيرًا الفنون الحربية، وبرز شابًّا في مصاف البسل قواد عصره وأعظمهم. وزان حياته بالفتوحات المجيدة.

وكان إبراهيم يعين أباه في تدريب الجيوش المصرية على النظام الحربي ويقود الجيوش المصرية من نصر إلى نصر، ويحذو حذو أبيه في حسن التدبير والعدل. وقد عقد النية على إصلاحات هامة، ولكنه مات لأشهر من حكمه قبل أن يخرج إلى حيز العمل الإصلاحات الإدارية والسياسية التي خبرها أثناء سياحته في أوربا وكان يعقد على تنفيذها في مصر[٢].

عباس باشا هو ابن طوسون بن محمد علي، ولد في جده سنة ١٢٣١هـ ١٨١٦م، مات أبوه وهو صغير فاحتضنه جده محمد علي وصرف جل عنايته إلى تثقيفه وتهذيبه على يدي أفضل الأساتذة والعلماء، وهو خلف إبراهيم قبل وفاة جده محمد علي. في عهده

[١] محمد رفعت، تاريخ مصر ص ٢٧٠-٢٧٦.

[٢] تاريخ مصر ص ٢٧٧.

وبترخيصه مدت شركة إنجليزية خطوطًا حديدية من الإسكندرية والقاهرة، وأنشأت خطوطًا تلغرافية في جهات عديدة من القطر. وهو أباح لماريت Mariette خلف شامبوليون التنقيب في صحراء سقارة على نفقة فرنسا. واستحضر من فلوريده بذرة قطن جديد يفضل كثيرًا القطن الذي كان يزرع في مصر حتى ذلك العهد. ومات عباس باشا فجأة في قصره في بنها فنقلت جثته إلى مدفن أسرته[١].

محمد سعيد باشا

محمد سعيد باشا هو أصغر أبناء محمد علي باشا ولد في الإسكندرية سنة ١٢٣٧هـ ١٨٢٢م خلف ابن أخيه عباس في حكم مصر. وقد آلى على نفسه إسعاد الأمة المصرية من كل الوجوه، وألَّف مجلس شورى للنظر في الأمور العمومية الخطيرة، وتفرد بتعيين قضاة البلاد، فاختارهم من أنزه رجاله. ومنع المتاجرة بالرقيق في مصر، وحرَّر من كان فيها من الأرقاء وأبطل التعذيب، والضرب بيد من حديد على الطغاة وقبائل قطاع الطرق البدوية. وأعاد سعيد باشا للمزارعين ملكة الأراضي التي نزعها أبوه منهم، وسنَّ لهم قوانين عادلة لجباية الضرائب، وإعفائهم من دفع المتأخر منها، وكانت قيمتها لا تقل عن ٠٠٠و٠٠٠و٨٠ قرش. وأعفى حاصلاتهم من رسوم الجمارك الداخلية تسهيلاً لبيعها للتجار، وطهر ترعة المحمودية من الرمال التي تعيق سير السفن. وقد اشتغل في هذا العمل ٠٠٠و١١٥ رجل مدة ٢٢ يومًا. وأتم سعيد باشا الخطوط الحديدية بين القاهرة والإسكندرية، ومد خطا آخر بين القاهرة والسويس وأسلاكًا تلغرافيةً كثيرةً. وبنى قلعة واستحكامات قرب

---

[١] تاريخ مصر، ص ٢٧٧ ومابعدها.

القناطر الخيرية. وعنى بتحسين حالة العسكر ونظامهم. وجعل الخدمة العسكرية إجبارية لمدة سنة واحدة. وقد قاتل جيشه ببسالة مع الجيوش المتحالفة في حرب القرم التي ابتدأت على عهد سلفه.

وقد اهتم محمد سعيد باشا بإحياء مصر القديمة والبحث عن آثار الفراعنة، فأجرى حفريات كثيرة بإدارة مارييت بيك في منف ودندره وطيبة وأدفو وغيهرا؛ وأنشأ في بولاق دارًا للعاديات جمع فيها شيئًا كثيرًا من الآثار القديمة.

قناة السويس: وفي عهد محمد سعيد باشا نفذ في مصر أكبر مشروع في القرن التاسع عشر، وهو نقض برزخ السويس الفاصل بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. فتحولت تجارة الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى البحر المتوسط، وأضحت الطريق الملاحية بين الشرق والغرب.

وقد تم هذا المشروع العظيم في عهده يد فريدينان لسبس F.de Lesseps الفرنساوي.

وقد أنشأ على مدخل قناة السويس مدينة بور سعيد نسبة إليه. توفي سعيد باشا سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م ودفن في الإسكندرية[١].

إسماعيل باشا

وهو ثاني أولاد إبراهيم باشا ولد في القاهرة ١٢٤٦هـ ١٨٣٠م، وعلمه جده محمد علي العربية والتركية ومبادئ العلوم، ثم أرسله إلى فرنسا فأتقن الفرنسية والرياضيات والهندسة والرسم والطبيعيات؛ وشخص بعد ذلك إلى الأستانة، حيث عيَّن عضوًا في مجلس الأحكام

[١] (تاريخ مصر ٢٧٩-٢٨٣).

إلـى أن تولـى عمـه محمـد سـعيد باشـا فاسـتدعاه إلـى مصـر، وأخـذ يدربـه على الأحكام.

وعندمـا زار أوربـة اسـتنابه فـي الحكـم، فقـام بالنيابـة أحسـن قيـام، ولمـا توفـي سـعيد باشـا آلـت الولايـة إلـى إسـماعيل باشـا الـذي أجـاز لـه السـلطان عبـد العزيـز زيـادة الجيـوش البريـة والبحريـة حسـب الحاجـة، وعقـد قـروض ومعاهـدات تجاريـة ومنحـه لقـب «الخديـوي» لأول مـرة. وأراد إسـماعيل أن يرفـع مصـر إلـى ذوي العظمـة والمجـد، فلـم يدخـر وسـعًا فـي إعلاء شـأنها، والسـير بهـا إلـى مجـاراة أوربـة عمرانًـا وحضـارةً ونظامًـا. فأنفـق الملاييـن في تشـييد القصـور، والمـدارس، والمعامـل والمتاحـف، وتخطيط الشـوارع والحدائـق، وإدخـال الاكتشـافات والاختراعـات الحديثـة إلـى مصر، وتنشيط الفنون والآداب.

ومـن أعظـم مبانيـه قصـره فـي الجزيـرة وسـاراي الزعفـران فـي العباسـية وسـاراي القصـر العالـي، وكثير غيرهـا مـن القصـور والسـرايات في القاهـرة والإسكندرية. وفي حلوان أنشأ الحمامات المعدنية الشهيرة.

وشـاد إسـماعيل أيضًـا دارًا للتمثيـل. وهـي المعروفـة اليـوم بالأوبـرا الخديويـة، ودارًا للآثـار العربيـة، ومرصـدًا للأفلاك فـي العباسـية، ومكتبـة فـي درب الجماهيـر، جمـع فيهـا مـن الكتـب والمخطوطـات والآثار الشـرقية النفيسـة شـيئًا كثيـرًا، وهـي الكتبخانـة الخديويـة التـي نقلـت فيمـا بعـد إلـى بـاب الخلـق. واختـط الإسـماعيلية أجمـل أحيـاء القاهـرة، ونظـم الشـوارع وعهـد إلـى لبـون فـي إنارتهـا بالغـاز وغـرس علـى جوانبهـا الأشـجار، وغـرس حديقـة الأزبكيـة، وشـاد جسـور (كبـارى) عديـدة، أعظمهـا كبـرى قصـر النيـل بيـن القاهـرة والجزيـرة، وحفـر ترعـا كثيـرة أهمهـا ترعـة الإسـماعيلية بيـن القاهـرة ومدينـة الإسـماعيلية، والترعـة الإبراهيميـة فـي الوجـه القبلـي. وأقـام المنائـر علـى شـواطئ البحريـن الأبيـض المتوسـط

والأحمر لهداية المراكب، وبنى للسفن مرفأ في الإسكندرية وحوضًا في السويس لإصلاحها. واختط على قناة السويس مدينة الإسماعيلية. ومدَّ في أنحاء القطر الخطوط الحديدية والأسلاك التلغرافية، فربط بها مصر بالسودان وإليه يرجع الفضل في إنشاء مصلحة البريد المصرية وتنظيمها وإدخالها في إتحاد البوستة العالم.

فأحدث كل هذه الأعمال والإصلاحات حركة في البلاد، وراجت سوق الأشغال. وأتى الأجانب القطر المصري من كل صوب، فقدم الصناع والتجار والعلماء والأدباء؛ ونتج عن ذلك أيضًا نهضة أدبية. كان لإسماعيل فيها الفضل الأكبر بما بذله لنوابغ الكتاب المؤلفين من المساعدة الأدبية والمادِّية؛ فأنشئت الصحف والمجلات، وترجَّمت الكتب، ووضعت المؤلفات الكثيرة. كما جدَّد نظام المدارس وأعاد الإرساليات العلمية إلى أوربة ألخ.

ومن أشهر مدارس الخديوي إسماعيل مدرسة الحقوق، ومدرسة دار العلوم، ومدرسة الصنائع في بولاق، ومدرسة المعلمين، ومدرسة الألسن لتخريج الكتاب والمترجمين، وأنشأ غير ذلك عددًا كبيرًا من الكتاتيب حتى فاق عدد التلاميذ على عهده ٠٠٠و١٠٠ طالب وطالبة. وأيضًا وضع المدارس العسكرية تحت مراقبة نظارة الحربية وأنشأ نظارة المعارف العمومية وعهد إليها في تنظيم سائر المدارس وإداراتها.

وفي أيامه تم حفر قناة السويس بعد تذليل صعاب كثيرة وإنفاق أموال طائلة وتسوية خلافات عديدة، قامت بشأن هذا المشروع بين الدول العلية ودول أوربا ومصر. فاحتفل إسماعيل باشا بتدشين القناة إحتفالاً عظيمًا ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م، دعا إليه إسماعيل ملوك كل ملوك أوربا وألوفًا من الأمراء والسفراء وأقطاب السياسة وحملة الأقلام، وأرباب العلوم والفنون والصنائع والتجارة وغيرها، وأقام أيضًا حفلة

دينية اشترك فيها مشايخ الإسلام وأساقفة النصارى وكهنة اليهود.

استقال الخديو إسماعيل ٢٤ يونيو ١٨٧٩م، وعاد إلى أستانة، حيث بقي فيها حتى وفاته ١٨٩٥م ونقلت جثته إلى مصر. وقد حمل على استقالته ما أصاب له من خسارة في حربه مع النجاشي لفتح الحبشة الذي كلفه مليونًا من الجنيهات، ثم كان بذخه وكرمه المفرط والنفقات الطائفة التي صرفها في سبل مشروعاته التي اضطرته إلى استنفاد مال البلاد وعقد قروض متوالية بفوائد فادحة[١].

أسرة قطب شاهية التركمانية في كولكنده وتلنكانه

(حيدر آباد - دكن تعرف أيضًا باندهرادش)
(٩٢٤هـ ١٥١٨م - ١٠٩٨هـ ١٦٨٦م)

وهي أسرة أخرى تركية الجنس تنتمي إلى قبيلة قره قويونلو التركمانية، قامت بدولتها في رقعة وسيعة من بلاد الهند، أي مملكة باندهرا وهي مقاطعة كولكنده (حيدر آباد دكن اليوم) على أنقاض البهمنية، ودامت نحو قرنين من الزمن، أي: من القرن السادس عشر إلى السابع عشر قضى عليها الإمبراطور أورنك زيب عالمكير نهائيًّا عندما فتحها سنة ١٠٩٨م.

وكانت رقعة التي حكمت الأسرة فيها كانت تشكل قسمًا شرقيًّا من سفوح دكن، وكانت تمتد من حوض تشيلكه وأقطا أوديسه السفلى في الشمال إلى جيتور جنوبًا ومن الكوهر والكولاس غربًا إلى ماسوليبا تام شرقا[٢].

---

[١] تاريخ مصر السياسي، ص ٢٨٩.
[٢] صديقي ص ١.

وقد حكم من الأسرة ثمانية أفراد، وكان أولهم سلطان قلي قطب شاه بن أويس قلي آخر سلاطين همدان من آل قره قويونلو. ولد في قرية سعد آباد همدان سنة ٨٥١هـ ١٤٤٧م، وذلك عندما أخذ السطان يعقوب بيك بن حسن بيك من آل آق قويونلو يضطهد آل قره قويونلو في همدان، هرب سلطان قلي مع عمه الله قلي من همدان فالتجأ عن طريق خليج الفارسي إلى دابل ومنها إلى دكن ثم إلى بيدر، حيث كان فيها السلطان محمود شاه البهمني الذي رحبهما وأكرم منزلتهما. فكان الله قلي بخدمته مدة ثم رجع إلى موطنه في إيران. وأما سلطان قلي فلم يأذن له محمود شاه أن يبرح خدمته وشمله من جملة أمراء بلاطه فظل يتقرب ويتدرج مراتبه حتى عينه سنة ٩٠١هـ على ولاية تلنكانه بعد أن لقب بقطب الملك[١].

وهو الذي أسلم أهل تلنكانه بيده للمرة الأولى[٢]، فكان سلطان قلي بولاية تلنكانه أربعة وعشرين سنة، ولما توفي بهمن شاه سنة ٩٢٤هـ وانغمس أمراءه في النضال فيما بينهم، اغتنم سلطان قلي الفرصة السانحة، فأعلن استقلاله في كلكنده ودعى بنفسه السلطان قطب شاه، كما أخذ كولكنده مقر حكومته المستقلة وهو حكم خمسين سنة منها أربعة وعشرين سنة كعامل الولاية تلنكانه. وهو فتح عدة حصون هامة في أرجاء كولكنده وامتد رقعته منها إلى الضفة الشرقية لبحيرة العرب[٣]، وأنشأ المساجد على أنقاض المعابد الهندية بعد فتح تلك الأرجاء. وهو يقول عن نفسه أنه غزى ستين سنة مع الأعداء (الكفار) وفتح قلاعًا رفيعةً مستحكمةً كثيرةً، وذلك أخذا من ثغور ورنكل إلى بندر مهلي ميم وراج بندري وكان أشهرها

---

[١] حديقة العالم ص ١٠-١١.
[٢] كلزار أصفية كولزار أصفية لخواجة غلام حسين سردا عن تاريخ قطب شاهى.
[٣] كلزار، ص ١٩

قلعة كوطل كنده وديور كنده وبامكل وغيرها[١].

وقد حكم من هذه الأسرة ثمانية أفراد وهم:

١- سلطان قلي قطب شاه مدة حكمه (٩٢٤هـ-٩٥٠هـ).

٢- جمشيد بن قلي (٩٥٠هـ- ٩٥٧هـ).

٣- سبحان قلي (٩٥٧هـ- ===).

٤- إبراهيم قلي قطب شاه (٩٥٧هـ- ٩٨٨هـ).

٥- محمد قلي بن إبراهيم قطب شاه (٩٨٨هـ- ١٠٢٠هـ).

٦- محمد قطب شاه (١٠٢٠هـ- ١٠٣٥هـ).

٧- عبدالله قطب شاه (١٠٣٥هـ- ١٠٨٣هـ).

٨- أبو الحسن تانا شاه (١٠٨٣هـ- ====)

الحركة العلمية والثقافية في عهد قطب شاهية

وكان لقيام أسرة القطب الشاهية في كولكنده وتلنكانه أثر كبير في تاريخ حيدر آباد - دكن، وقد شهدت البلدة في هذا العهد من نهضة ثقافية وعلمية لم تسبق قبلها، ولا سيَّما الحركة الشيعية ونشرها في بلاد الهند. أنه لما قام سلطان قلي قطب شاه بحكومة الأسرة في كولكنده على أنقاض البهمنيين كانت سلطنة دهلي الزاهرة المملوكية قد انهارت أيضًا، وقامت على أنقاضها عدة ملوك طوائفية، ونشأت عدة أسرة جديدة في مقاطعاتها المختلفة، وقد اهتم كل واحد منهم بصبغته الخاصة لتجميل عواصمهم وتزيين حشمة بلاطهم، وذلك بإنشاء القصور العالية والأبنية الفخمة وغيرها. كما اهتموا لإعداد عدتهم من الجيش والقوة للدفاع عن ثغورهم. وكان لكل أسرة أو

[١] صديقي، ٣١.

ملك ينافس الآخر فادي هذا إلى نشاط جديد في حقول الصناعة والتجارة والعلم والأدب والثقافة.

وكانت لأسرة القطب الشاهية نصيب وافر من بينهم في هذا المضمار؛ لأن الأسرة كانت من أتباع الفرقة الإمامية، فلذك كان من الطبيعي أن يشجع ملوكهم الحركة الشيعية، وكان بلاطهم مجمع العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء الشيعيين، وهم التجأوا إليه من إيران والعراق وغيرها. وكنت تلكانه ثم حيدر آباد عاصمة دولة القطب شاهية قد تشكلت مجمعًا أدبيًّا، وينافس أصفهان الذي كان قد ازدهر كمركز نشاط ثقافي كبير في ذلك العصر باهتمام الصفويين. وقال فيه الشاعر مير مؤمن الإسترأبادي في قصيدة مدح بها السلطان محمد قطب شاه:

یاد کار جد وعم سلطان محمد قطب شاه
أنكهـ هندوستا فيفش كثته إيران

أي أن مآثر السلطان محمد قطب شاه ومآثر جده هي التي تفضلها، أصبحت الهند في عهدهم إيرانا جديدة[1].

وعلى جانب العلاقات الثقافية ظلت العرى السياسية توثَّقت بين البلدتين الشيعيتين إلى عهد عبد الله قطب شاه سابع الأسرة، وقد تعززت هذه العرى بتبادل السفراء والهدايا والتحاف. ويدلُّ على توثيق العلاقات تلك الألعاب الفخمة والطويلة والهدايا والتحائف الصفوي محمد قطب شاه وهي «المخصوص بعناية ملك نظام السلطنة والإيالة والشوكة والعظمة والأبهة والتصفة والعز والإجلال سلطان محمد قطب شاه».

[١] حديقة العالم، ص ٢٤٦ وما بعدها. و حكيم سيد شمس الله قاري، مآثر قطب شاهي، ص ٦ وما بعدها.

ويعود الفضل لخامس الأسرة السلطان محمد قلي إنشاء بلدة حيدر آباد وجعلها عاصمة لبلاده وازدهارها كأكبر مركز تجاري في بلاد دكن وأجملها في الهند[١].

وكان السلطان قطب شاه حريصًا لإنشاء المباني والمساجد، ومنها مسجد جامع أنشأه في حصن محمد نكر، كما شيَّد القلعة نفسها من جديد وحسنها بإنشاء الأبنية والدكاكين وشجع الأمراء والقواد والرعايا لبناءها، كما شيَّد القصور الملكية وأنشأ حمَّامات، ومساجد وجوامع ودار عاشوراء (عاشورخانه) وقرر في الحمام الحجامين والأستار مجانًا. وكان مدة حكمه ستين سنة، حكم منها ستة عشر سنة منها كنائب للسلطان محمود البهمني، ثم مستقلاً ومات وعمره قد بلغ تسعين سنة.

وكان ماهراً في علم الحساب، وكان محسن الخط، كما كان قائدًا حنكًا يخطبه الملك محمود شاه البهمني في إدارته التي يصدرها له لصاحب السيف كما خطبه لقب قطب الملك، وقد أخذ اسم الأسرة من هذا اللقب. ويعود الفضل في ترقيه المدارج العالية للياقته العلمية والجندية وصفاته الباسلة التي جاء بها من تركستان[٢].

وقد جاء عبد الرزاق السمرقندي صاحب «مطلع السعيدين» إلى كولكنده في عهد السلطان إبراهيم قلي قطب شاه سفيرًا من طرف السلطان شاهرُخ ملك الهرات وذلك في سنة ٨٤٦هـ ١٤٤٣م وكان بها حتى سنة ٨٤٧هـ ١٤٤٤م.

وكان إبراهيم قطب شاه أول ملك من ملوك الإسلام في تلنكانه اختار لنفسه لقب السلطان وقد كتب هذا اللقب على لوح الحجري في

[١] تاريخ فرشتة، ٢ / ١٧٣. مآثر قطب شاهي، ص ١٢.
[٢] (تاريخ فرشتة، ٢ / ١٦٧-١٧٤. وصديقي، ص ١٨-١٩. وحديقة العالم ص ١١-١٢.

ضريحه[١].

وهو شجَّع النشاط الأدبي بلغة تليك Telegue، وقد أحاط بلاطه طائفة كبيرة من شعراء هذه اللغة وأدبائها، وكان يحميهم بإعطاء الرواتب والإقطاعات والمكافأت المالية وأموال[٢].

وكان مؤسس الأسرة سلطان قلي قطب شاه (٩٢٤هـ - ٩٥٠هـ) ملكًا ناسكًا مرشده التمسك للمذهب الشيعي، وكان يلقب بالملك الكبير «بثرا ملك». وهو شجَّع نشر المذهب الشيعي في تلنكانه منذ توليه هناك، وبأمره قرئت الخطبات في جامع مسجد كولكنده بأسماء أئمة الاثني عشرية، كما كان يقرأ اسم إسماعيل الصفوي قبل اسمه في الخطبات، بما يدل على أنه كان يعتبره مرشده ومولاه. وهو قتل في ٢ جمادي الثاني سنة ٩٥٠هـ في «مسجد صفا» الذي بناه سنة ٩٢٤هـ، وكان يصلي الصلوات الخمسة فيها عادة[٣].

وكان بلاطه مجمع العلماء والسادات، وكان صدر جهان (قاضي القضاة) ملا حسين الطبسي من أشهرهم، وكان مقربًا منه، وهو كتب حوادث عهد سلطان قلي قطب شاه وسميه «مرغوب القلوب» الذي لم يصل إلينا[٤].

جمشيد قلي قطب شاه

(٩٥٠هـ - ٩٥٧)

وكان خلفه جمشيد قلي قطب شاه شاعرًا محبًّا للشعراء، وكانت

---

[1] (H.K. Bherwani Islaive Cultur Vol. XXXI , P 127.).

[٢] (P١٣٠).

[٣] (حديقة العالم ج ١ ص ٨٣-٨٤ وهفت إقليم ج ١ ص ٨٣ و مآثر قطب شاهي ص ١٣).

[٤] (مآثر قطب شاهي ص ١٤).

طائفة جمة من شعراء إيران قد جمعوا في بلاطه، وكان ملا محمد شريط أمير الشعراء في بلاطه من أشهرهم. وقد رويت من جمشيد أشعار كثيرة باللغة الفارسية، وهو لعب دوراً هامًّا وأبلغ سعيه في ترويج مذهب الاثني عشرية على أسوة أبيه[١].

إبراهيم قطب شاه

(٩٥٧هـ – ٩٨٨هـ)

وهو تولى عرش السلطنة بعد أن خلع ولد جمشيد قلي الصغير وحكم واحدًا وثلاثين سنة. وهو عرف بحسن تدبيره وجوده. وهو يعد معمر ومشيد السلطنة الكولكندية، وبه أخذت المملكة تسير في طريق التقدم والعمران حتى بلغت قمة مجدها في عهد محمد قلي قطب شاه[٢]. وفي عهده توسعت المملكة إلى أقصى حدودها. ولم يظهر في مدة حكمه أي تعصب ديني أو قومي، وقد أتبع مسلكًا مساويًا بين الهنود والمسلمين بما يدل على ذلك أن الأمير البرهمني يسمى راؤ كان حائزًا لأعلى منصب في سلطنته كقائد جيوشه العام، وكان تحت إمرته عشرة آلاف مشاة وألف مشعلجي وغيرهم[٣].

وكان عهده عهدًا زاهرًا لمقاطعة كولكنده وهو بنى أبنية كثيرة ومساجد والمدارس والخانقاهات بلغ عددها خمسمائة، ومخازن المياه والبساتين والقصبات التي لاتزال باسمه وغيرها، كما نبغ أبناءه وهم ستة كعلماء وأدباء[٤].

---

[١] فرشتة، ٢ / ١٦٨.
[٢] صديقي، ص ٦٦.
[٣] تاريخ فرشتة، ٢ / ١٧٠. وحديقة العالم، ١/ ٢٠٠. ومآثر قطب بيك شاهي، ص ١٦.
[٤] صديقي، ص ٩٠. مآثر قطبي شاهي، ص ١٦.

وكان إبراهيم قطب شاه معلمًا بدرجة عالية وشاعرًا ومحبًّا للعلم والعلماء، وكان طائفة كبيرة من العلماء والفضلاء يلتزمه في الحضر والسفر، منهم كان المؤرخ خورشاه بن قداد الحسيني العراقي، وهو وضع تاريخًا كبيرًا يسمى «تاريخ إيلجي نظام شاه» وقدمه لإبراهيم قطب شاه، يبحث من بدء الخلقة إلى سنة ٩٧١هـ، وقد يعرف هذا الكتاب بـ «تاريخ خورشاه» و«محزن التواريخ» قطب شاهي[١].

وهو اهتم لتنظيم الجيش على طراز جديد وأنشأ مصانع السلاح، وهو استخدم المدفعة وتدرب استعمالها ماهراً من الروم وهو جلبي رومي خان وكان في جيشه ألفان نفرًا من الترك[٢].

محمد قلي قطب شاه

(٩٨٨هـ - ١٠٢٠هـ)

الولد الثالث لإبراهيم قطب شاه، ولد في ١٤ رمضان سنة ٩٨٣هـ تبوأ على عرش المملكة بعد وفات أبيه إبراهيم ومدة حكمه واحد وثلاثين سنة، مات سنة في ١٧ ذي القعدة سنة ١٠٢٠هـ.

وكان أكبر سلاطين القطب شاهية، وعهده أكبر عهد في ازدهار النشاط العلمي والثقافي، حيث بلغ البلدة قمة مجدها في عهده توسيعًا وتنظيمًا، ومن ناحية الحضارة والثقافة حتى قيل أن عهده كان عهدًا ذهبًا ماتزال تفخر بها مملكة أندهراديش[٣].

وفي عهده وضع أساس مدينة حيدر آباد فجعلها محمد قلي مدينة

---

[١] تاريخ فرشتة، ٢ / ١٧٨. مآثر قطب شاهي، ص ١٨.
[٢] صديقي، ص ٨٣ وتاريخ قطب شاهي، ص ١٧٧.
[٣] صديقي، ص ١٠٩.

كبيرة وجميلة، قال المؤرِّخون بشأنها أنها كانت أعجوبة الزمان لا نظير لها في الهند، وهي من آثار القرون الوسطى الخالدة، أنشأ فيها أربعة منارات وأسواق ومستشفيات وأنهارًا جارية على ضفتيها أشجار مختلفة، وقصورًا فخمةً منها كان قصر خداد دار محل ذات سبعة طبقات أشهرها، وقد سمى كل طبقة باسم إمام من الأئمة السبعة الاثني عشرية كإلهي قل ومهدي محل وغيرها[١].

وهو رفع شأن البلاد ومستوى الحياة الاجتماعية في مملكته باهتمامه وولعه للفنون النفيسة وإنشاء الأبنية العديدة الفخمة كباغ محمدي وقصر محمد شاهي ونبات كهات وكوه طرو وغيرها[٢]. وكان قصرًا فخمًا وجميلاً محاطًا بالبساتين العالية، في صحن كل بستان بناء آخر، وفيه نعمت خانة (المطبخ الملكى) يطعم فيه يوميا عشرة آلاف شخص.

وهو أنشأ من الدكاكين ما يبلغ عددها ستة عشر ألاف دكاكين، استعمل فيها الحجر والجص، ومن المساجد اثنتي عشرة ألف، والمسافرخانات والمطابخ العامة والمستشفيات والمدارس والخانقاهات والحمامات وغيرها من أمر الخيرات والرفاه العام. وهو أنفق لإنشاء دار الشفاء (المستشفى) سبعة ملايين من الهون المساوية الستمائة ألف تومان من الذهب، استخدم فيها الأطباء بنفقة الدولة، وكان المرضاء يعالجون مجانًا. لما كان يطعم الغرباء والمساكين من المطبخ الملكي العام يوميًّا الذي أنشأه باسم الأئمة الاثني عشرية[٣].

وكان كثير الهدايا بدرجة لا ينحصر للحد في مواقع العزي والاحتفال لمولد النبوي إلى المجاورين والزهاد في المسالك السعيدة أيضًا

---

[١] حديقة العالم، ص ٢١٤.
[٢] حديقة العالم، ص ٢٤٨.
[٣] حديقة العالم، ١/ ٢٦١. ومآثر قطبي شاهي، ص ٢٦-٢٨.

كالمكة والمدينة والنجف الأشرف والكربلاء ومشهد وغيرها.

وكان ينفق في محرم الحرام العزي اثنتي عشر ألف هون، وفي ربيع الأول مائة ألف هون[١].

وكان محمد قلي شاعرًا بارعًا في اللغات الفارسية والأوردوية والتلنكية واهتم لرقي هذه اللغات وآدابها. وله ديوان يبلغ عدد أشعاره خمسين ألفًا من الشعر. وهو أحب العلماء وقدر منزلتهم وكان بلاطه مجمع العلماء والسادات أقبلوا إليه من العراق وإيران وبلاد الهند الأخرى، بلغ بعضهم مراتب عالية في الدولة، كما قرَّر السلطان لهم رواتب معينة من خزانة الدولة.

منهم مير محمد مؤمن الإسترأبادي، وكان من كبار وزرائه ومساعديه، وهو من سادات الشيعة، وكان عالمًا كبيرًا، ألَّف كتبًا كثيرةً ورسائل من مختلف العلوم والفنون. وأهمها رسالة في الرجعة[٢]، ورسالة في الأوزان الشرعية، ورسالة في العروض.

ومير جملة ميرزا محمد أمين الشهرستاني من سادات أصفهان نزل دكن سنة ١٠١٣هـ، فلحق بلاد محمد قلي قطب شاه الذي أعطاه لقب «جملة الملك مير جملة» وعينه إلى رياست الوزارء، وكان به إلى أن توفي محمد قلي سنة ١٠٢٠هـ، ثم جعله سنة ١٠٢٩هـ مير الساماني أي رئيس اللوازمات ثم رقيه إلى رتبة مير بخشي أي رئيس خمسة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان. ومير جملة هو شاعر شهير وأديب أبرع في الفارسية وله مثنويات على طراز خمسة نظامي في ديوان سماه «كلستان ناز».

---

[١] صديقي، ص ١١١.

[٢] وهي: إثبات الرجعة وظهور الحجة والاخبار المأثورة فيها عن آل العصمة.

ومن الأطباء طبيب رضي الدين محمد بن علي الحسيني الإسترآبادى، وكان طبيب بلاطه. وله كتاب ضخم في علم الأودوية يسمى «اختيارات قطب شاهى» وضعه بتشويق السلطان محمد قطب شاهى.

وحاجي زين الدين عطّار، وهو من أحفاد شيخ الإسلام خواجه عبد الله الأنصاري، وكان معاصرًا لخواجة حافظ الشيرازي، وهو وضع كتابا في الطب باسم «اختيارات بديعي» وذلك بتشجيع من الملكة بديع الجمال زوجة شاه شجاع (٧٦٥هـ - ٧٨٥هـ) وأيضًا من مؤلفاته في الطب «مفتاح الخزائن».

ومن علماء الحكمة والرياضة: عبدالله بن المنصور الفرسي، ومحمد بن على الشخوري مؤلف «تحفة الطالب في مناقب علي بن أبي طالب».

ومن المؤرخين حسين بن علي الفرس الذي كتب تاريخ سلاطين القطب شاهية بالنظم وسماه «نسب نامه قطب شاهى».

ومن الشعراء: ملك الشعراء ملا معين سرك، وكان من سادات «سبزورر»، وكان من ندماء محمد قلي قطب شاه وهو جعله أمير الشعراء لبلاطه. ومحسن همداني ملا الشيرازي (١٠٠٥هـ) ووحش الكاشي (١٠١٣هـ) وفكري ميرزا محمد رضا الصفهالي وشريف الكاشي وغياث منصف الأصفهاني وسراج الدين عارف ومير حسن العسكري وفكري الرازى، وغيرهم من مشاهير شعراء الفارسية[١].

---

[١] ١. مآثر قطب شاهى، ص ١٦، ٤٦.
٢. حديقة العالم ج ١ ص ٢٧ - ٢٦١ - ٢٦٢- ٢٥٨ - ٣٠٣ - ٢٤٤
٣. تاريخ فرشتة ج ٢ ص ١٧٣.
٤. تاريخ عالم أراي عباسي ج ١ ص ١٥٩ ج ٣ ص ٦٢٣ - ٦٥٢ - ٤٠٥ -٥١٩ - ٥٣٦.
٥. مآثر الأمراء ج ٣ ص ٤١٤.

الأمـراء الأتـراك الذيـن خدمـوا الأسـرة القطـب شـاهية صلابـت خـان وكان غلامًا تركيًّا[١].

سلطان محمد قطب شاه

(١٠٠١هـ – ١٠٣٥)

هـو ابـن محمـد أميـن بـن إبراهيـم قطـب شـاه، بقـي علـى عـرش المملكـة بعـد عمـه السـلطان محمـد قلـي قطـب شـاه. وكان ملـكًا عـادلاً وفـاضلاً وزاهـدًا شـديد التمسـك بأحـكام الديـن ومولعًـا لـدرس العلـوم والفنـون، وكان شـاعرًا باللغـة الفارسـية والدكتيـة. وهـو شـجَّع التأليـف والترجمة بهذه اللغات.

وقـد انتسـب إلـى بلاطـه طائفـة مـن العلمـاء الجيديـن منهـم ميـر محمـد مؤمـن الإسـترأبادي السـالف الذكـر، وشـاه قاضـي الـذي جمـع بالتمـاس السـلطان آيـات القـرآن الأحكاميـة وترجمهـا إلـى الفارسـية فسـماها «ترجمـة آيـات الأحـكام»، والشـيخ زيـن الديـن علـي البدخشـي الـذي ترجـم كتـاب «التجريـد» لنصيـر الديـن الطوسـي وسـماه «تهـة شـاهى». وفضـل اللـه بـن أسـد اللـه الحسـيني اليمنامـي وهـو ترجـم إلـى الفارسـية «روض الرياحيـن فـي حكايـات الصالحيـن» تأليـف الإمـام عفيـف الديـن بـن عبـد اللـه اليافعـي، وسـماه «نزهـة العيـون والنواظـر فـي حكايـات

---

٦. نجوم السماء ٨٢–٨٣.
٧. تورزوك جهانكيري ج ٢ ص ٦٢٦ – ٣١٩ – ٢٢٦.
٨. إقبال نامه جهانكيري ٣ ص ٥٥٠.
٩. عمل صالح ج ٢ ص ٩٨ – ٢٥١.
١٠. برهان المآثر ص ٥٢٩، ٥٤٧.
١١. مي خانه ٤٢٤– ٤٧٤– ٢١٧.
١٢............. ٢٥٠. (هذه المصادر التي استفاد المؤلف في كتابة تاريخ أسرة قطبي شاهية). من المؤلف.

[١] تاريخ فرشة، ١٧٠.

الأولياء والأكابر». وميرزا محمد حاجي الهمداني وهو ترجم «قصة أمير حمزة» بالفارسية باسم «زبدة الرموز». وحكيم تقي الدين محمد بن صدر الدين علي وكان من أطباء بلاط محمد قطب شاه كتب له «ميزان الطبائع قطب شاهي» في الطب والأدوية[١].

ومنهم أيضًا السيد كمال الدين المازندراني ومير قطب الدين نعمة الله اللذان التزما بلاطه وكانا من كبار المصنِّفين.

وكان السلطان محمد قطب شاه عالمًا وفاضلاً وأكثر حبًّا للعلم بالنسبة لأبيه. وقد قيل بشأنه: إنه كان عالمًا ماهراً للعلوم العقلية والنقلية، وكان شغوفًا لدرس التاريخ كثير المطالعة لكتب السير والتواريخ. وكان شاعرًا جيدًا ينشد الأشعار باللغة الفارسية والأوردية، وكان تخلصه في الشعر «ظل الله» و «سلطان»، وقد ألف عدة رسائل هامة في شتى العلوم بما يدل على تذوقه العلمي. وقد وجدت مجموعة رسائل «تسعة في العدد» و»نواب سالار خبك بهادر»منسوبة إليه. وقد كتبت على الورق الأول «بعبد الخالق السلطان محمد قطب شاه»

والرسائل تشمل روح القدس، ظفر القلوب، قدرت نامه، مصباح الأرواح، أحكام المحبين، نهاية الحكم، هداية المحبة، هداية المصرة، فتح الأبواب[٢].

«تاريخ خوارزمشاه» تأليف العلامة الحافظ محمود بن عباس بن أرسلان الخوارزمي[٣] ضمن مجموعة مخطوطة في دار الكتب

---

[١] مآثر قطب شاهي ص ٤٦ – ٥٤. تاريخ قطب شاهي ص ٣٤٧. حديقة العالم ج ١ ص ٣٣٥ و ٢٤٤.

[٢] عبدالمجيد صديقى: تاريخ كولكنده، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ (١٩٣٩) النسخة الإنجليزية ص ٣٦٩–٣٧٠ (١٩٥٦).

[٣] هو محمود بن محمد بن العباس بن أرسلان أبو محمد العباسي مظهر الدين الخوارزمي، ولد بخوارزم في

المصرية.

وقد التزم بلاطه طائفة من فحول العلماء وهم العلامة مير مجد الدين، ومولانا الرونقي والقاضي أحسن مير ميران والحكيم عبد الجبار الجيلاني، والشيخ عبد اللطيف نور الله، وميرزا محمد جوهر التبريزي وميرزا حمزة الإسترأبادي، ومير فضل الله الشيرازي، وملا تفتائي الشيرازى، وملا عرب الخوشنوسي، ومولانا حسين آملي الذي شرح «نهج البلاغة» لشاه ولي الله الدهلوي، وملا فتح الله السمناني وهو ترجم كتاب «روني الرياحين» للإمام اليافعى. وابن عماد روز جهان وهو ألف كتابا باسم «حرفة العلماء» في مجلدات في مختلف العلوم والفنون: الأول في التفسير والثاني في الحديث والثالث في الفقه يسمى «مجمع الدقائق» والرابع «كاشف الأسرار في علل الأشياء»، والخامس في الحكمة والسادس في العلوم المختلفة[١].

وقد شجَّع ابنه السلطان عبد الله قطب شاه سابع القطب شاهية (١٠٢٣ - ١٠٨٣هـ) الذي خلف أبيه سنة ١٠٣٥هـ، النهضة الثقافية والعلمية في دكن وكان صدر وزارته علامة ابن خاتون من كبار علماء عهده، وكان بيته مجمع العلماء والأدباء، وله مؤلفات وهي «شرح إرشاد الأذهان» و«شرح أربعين» و«شرح جامع عباسي» و«تكملة عباس» و«كتاب الإمامية».

كما كان سيد نظام الدين أحمد بن سيد معصوم الدشتكي بن غياث الدين منصور الحسيني الشيرازي صهر سلطان عبد الله قطب شاه، وكان عالمًا للرياضية وأديبًا، وهو ألَّف تاريخا باسم «حديقة

الخامس عشر من رمضان سنة ٤٩٢ هـ، توفي سنة ٥٦٨ هـ. تاج الدين أبي نصر، طبقات الشافعية الكبرى، ٦/٤.

[١] (حفظت نسخته الوحيدة في كتبخانة نواب سالار لارجنك) (تاريخ كلكنده عبدالحميد صديقي ص ٢٩٥).

السلاطين في تاريخ القطب شاهية». وكان ابنه صدر الدين السيد علي ممن نبغ واشتهر في عهد أورنك زيب وضع مؤلفات كثيرة منها: «سلوة الغريب وأسوة الأريب»، و«سلافة العصر في محاسن أعيان العصر»، و«أنوار الربيع في أنواع البديع»، و«الكلم الطيب»، و«حدائق الندية في شرح فوائد الصمدية»، و«الدرجات الرفيعة في طبقات الإمامية من الشيعة»، و«الطراز من اللغة»، و«رياض السالكين» و«ديوان الأشعار». وعلى بن طضور بن محمد بسطام، وكان عالمًا للتفسير والحديث كتب وترجم كتب في التاريخ والأدب والحديث وغيرها التي تبلغ عددها تسعة.

منها: «تحفة ملكي»، و«ترجمة عيون أخبار الرضا» تأليف الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن حسين بابويه العقمي المتوفي سنة ٣٨١هـ، و«تحفة قطب شاهي» كتبه للسلطانلي طراز «گلستان» للسعد الشيرازي.

«أنواع التحقيق»، و«كنج نامه درحل لغات شاهنامه»، و«رسالة معصومية دربيان أحوال أخرويه»، و«تحفة الغرائب» وغيرها. وفي عهد هذا السلطان وضع محمد حسين المعروف ببرهان التبريزي في كولكنده قاموسه الشهير للغات الفارسية «برهان قاطع»، كما وضع محمد علي حيل رودي كتابه جامع التمثيل جمع فيه الأمثال الفارسية ويعرف أيضًا بعجائب الأمثال ومجمع الأمثال.

والشيخ أحمد النهدي، وهو ترجم للسلطان مذكرات بهاء الدين أمل المسماة بالكشكول، وحاجي عبد العلى الطالقاني الذي جمع المكتوبات والإنشاءات (الخطابات) التي كتبها السلطان عبد الله وغيره من سلاطين الأسرة في كولكنده إلى السلاطين والأمراء والملوك في بلاد أخرى.

وكان ممن عاش من الشعراء في هذا العهد ملا الفقي ابن ملا حسيني ساوجي، وهو وضع للسلطان كتابًا في الأدب يسمى «رياض الصنايع قطب شاهي»، وذلك سنة ١٠٤٦، ومير محمد كاظم الحسيني، وله عدة مجموعات هامة للأشعار ومثنوي، وذو الفقار من آذرساساني زار حيدر آباد مرتين. وكان ببلاط السلطان عبد الله قطب شاه خمسة سنوات، ومن مؤلفاته «تاريخ دستان في تاريخ الأديان والمذاهب».

وسعيد الكاشاني المتخلص بسرمد، وكان من ندماء شيخ محمد خاتون عاش بصحبته ثلاث سنوات أي من سنة ١٠٥٧ إلى ١٠٥٩هـ.

وملا سالك اليزدي، وكان أصله ومن شعراء عصره، وكان بكولكنده في صحبته شيخ محمد بن خاتون شاه، مدح السلطان عبد الله قطب شاه وابن خاتون ومير محمد سعيد مير جملة من أمراء السلطان. وملا رضي دانش (١٠٦٠هـ)، والرونقي الهمداني ومير صابر الأصفهاني الشيرازي، وقيصر العراقي من طائفة شاملو التركي، وغيرهم.

وعلى جانب الأدب الفارسي كان هناك نهضة عربية في عصر القطب الشاهية في كولكنده. وكان ميرزا نظام الدين أحمد صهر السلطان عبد الله قطب شاه من طليعة المشجعين لهذه الحركة، وهو شجَّع الأدباء والشعراء باللغة العربية، كما شجَّع أدباء العجم في بلاد القطب شاهية، وقد أصبحت حيدر آباد في عهده مجمعًا أدبيًّا لطائفة أدباء العرب وشعرائهم.

منهم كان الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي[١]، وكان عالمًا

---

[١] هوالشيخ حسين بن شهاب الدين بن حسين بن محمد بن حسين بن حيدر العاملي الكركي الحكيم. عالم موسوعي، أديب وشاعر، ولد في بلدة الكرك في جبل عامل، ثم سكن إصفهان مدة ثم حيدر آباد

فاضلاً وأديبًا كاملاً. ترك أصفهان في آخر عهد شاه عباس الثاني فنزل كولكند وعاش فيها حتى مات سنة ١٠٧٦هـ. ومؤلفاته: كتاب «الإسعاف» و«شرح نهج البلاغة» و«حاشية أنوار التنزيل» و«مختصر الأغاني» و«عضد الدرر في حل أبيات المطول والمختصر»، و«هداية الأسرار إلى طريقة الأئمة الأطهار». وهو كتب هذين الكتابين الأخيرين في كولكنده. وله أشعار كثيرة باللغة العربية ومدح السيد أحمد لقصائد عربية.

وملا فرج الله الشوستدي من أدباء العجم عاش في كولكنده في عهد السلطان عبد الله قطب شاه الذي أكرم مثواه وقرَّر ألفي هون راتبًا.

وهو أنشد أشعارًا عربيةً جيدةً في مدح السيد أحمد، والسيد عماد الدين بركات بن جعفر بن بركات الحسيني، وكان من أرباب العرب نزل حيدر آباد سنة ١٠٦٢هـ، وصحب السيد أحمد وعاش هناك حتى مات ١٠٦٩هـ وهو مدح السيد أحمد بقصائد بليغة.

والشيخ أحمد بن محمد علي الجوهري أصله من مكة نزل كولكنده سنة ١٠٧٥هـ، وعاش فيها إلى أن مات سنة ١٠٧٩هـ وهو مدح السيد أحمد بقصائد كثيرة وله هذا الشعر في تعريف الهند.

ولو أن أرض الهند في الحسن جنة وسكانها حور وأملكها وحدي

والسيد أبو عبد الله محمد بن عبد الله البحراني[١] أصله من

سنين ومات بها.

[١] هو الشيخ عبد الله بن نور الله البحراني الأصفهاني. هو رجل دين ومحدث شيعي بحراني من تلامذة محمد باقر المجلسي، ولم تفصل كتب السير والتراجم الحديث عن سيرته وحياته غير أنه مشهور بتأليف موسوعة عوالم العلوم. وقد ذكر محسن الأمين اسم البحراني في موسوعته أعيان الشيعة بقوله: الشيخ عبد الله بن نور الدين البحراني وليس نور الله، ولم يذكر شيئاً إلا كونه تلميذاً للمجلسي، وذاكراً

البحرين، وكان من ندماء سيد أحمد.

والشيخ عيسي بن حسن بن شجاع النجفي جاء من مدينة لزيارة سيد أحمد، وكان بصحبته مدة مات غرقا في البحر وهو في طريقه إلى وطنه.

والسيد حسن بن على بن شدقم الحسيني أصله من مدينة، وكان من مخلص سيد أحمد وضع كتابه الجواهر النظامية في حديث خير البرية باسمه.

والشيخ جعفر كمال الدين البحراني من البحرين، والشيخ محمد بن على بن محمود بن يوسف الأملي، وكان عالمًا كبيرًا دعاه السلطان عبد الله قطب شاه إلى حيدر آباد وأكرم منزلته توفي فيها سنة ١٠٩٠هـ[١].

الحركة العلمية والثقافية والعمرانية في عهد الأسرة القطب شاهية

في حين أن بيجابور الشقيقة كانت تزدهر علمًا وثقافة تحت حكم أسرة تركية أخرى، وهي الأسرة العادل شاهية، كانت كولكنده تزدهر بنشاط علمي وثقافي بفضل تشجيع الأسرة القطب الشاهية وتشويقها.

وكانت الأسرة قد ورثت نصيبًا وافرًا من هذه الحركة من الأسرة البهمنية المنهارة والتي أخذت محلَّها، كما ورثت منها جلبركه وبيدر بخزائنهما العلمية الغزيرة التي أخذتها الأسرة برمتها وأحيتها من جديد، فصارت حيدر آباد العاصمة الجديدة ومركز نشاط علمي

موسوعته العوالم. الذريعة إلى تصانيف الشيعة. آغا بزرگ الطهراني.

[١] مآثر قطب شاهي، ص ٥٤-١٠٨.

كبير، وذاع صيتها في بلدان الشرق الأوسط الأمر الذي جلب طائفة كبيرة من العلماء والفضلاء والقوَّاد والصنَّاع والتجَّار وغيرهم.

وكان أفراد الأسرة من المثقفين والمعلمين الذين أحبوا العلم والحكمة والفنون الثقافية حبًّا جمًّا، واستجلبوا العلماء والشعراء إلى بلاطهم واشتغلوا أنفسهم للأدب والشعر والتصنيف والتأليف. وبعثوا روحًا جديدةً في نفوس الشعب أخذت بها النهضة العلمية والثقافية رونقًا جديدًا. وذلك بإنشاء المدارس والكليات الكثيرة في أقطار البلاد، والاهتمام لإحياء اللغات المحلِّية وتعزيزها بمواد علمية وتأسيس الكتبخانات العمومية والملكية، ادخرت فيها كتب كثيرة لا تعد ولا تحصى، فتحت هذه إلى إحياء اللغات التلنكية والفارسية والهندية وآدابها حيث عمَّت التعليم والثقافة بها في البلاد، وصارت اللغة الفارسية لغة رسمية، فنبغت بهذه اللغات الثلاثة الأدباء والشعراء كما كان باللغة العربية.

ويعود الفضل خاصة في إحياء النهضة العلمية والنشاط الثقافي لعهد إبراهيم قطب شاه، وكان عهد عهد أمن واستقرار في المملكة فأخذ النهضة العلمية تنشط من جديد، ولكن النهضة الحقيقية التي قد بلغت قدمة مجدها كولكنده، قد شاهدها عهدا محمد قلي قطب شاه والسلطان محمد قطب شاه.

و قد احتفظت الأسرة هذه النهضة ما تزال تحيي بنشاط مستمر حتى نهاية الأسرة. وكان آخر الأسرة شاعرًا وأديبًا يحب المشاغل العلمية والأدبية. ولم يخل بلاطه من الأدباء والعلماء إلى آخر حياته وحياة أسرته. وكان السلطان قلي قطب شاه قد أنشأ في بلاطه ندوة علمية للعلماء والأدباء باسم «أشخانة». وكان جمشيد قطب شاه شاعرًا مرتجلاً يتخلص بـ «جمشيد».

وكان إبراهيم قطب شاه يلتزمه طائفة كبيرة من الفضلاء والعلماء في الحضر والسفر يتجاذب معهم المسائل العلمية والدينية ليحقق المسائل اليقينية، وكان يجزلهم بالمكافآت وهو أنشأ مساجد ومدارس فخمة.

ومن أشهر العلماء الذين التزموا بلاطه كان الأمير شاه محمد أنجو والأمير عماد الدين محمود الشيرازي وجالينوس الزمان قاسم بيك الشيرازي، وحسين قلي ميرزا، وكان من كبار علماء المنطق، وحوز شاه بن قباد الحسيني الذي كتب تاريخًا مفصلاً لأسرة القطب شاهية.

وقد شاهد عهد محمد قلي قطب شاه نشاطًا علميًّا كبيرًا، فكثرت في كولكنده جماعة العلماء الذين شجعهم وأكرم منزلتهم. وكان العلامة مير مؤمن الإسترأبادي الذي صار رئيس الوزارة متأخرًا ممن اشتهر من كبار العلماء في بلاطه، وكان عالمًا كبيرًا لغةً وشاعرًا وأديبًا في اللغة الفارسية وصاحب عدة لغات هامة، وقد لقب بـ «مرتضى ممالك إسلام»، وأيضًا القاضي السمناني، وميرك معين السبزواري، وميرزا محمد أمين السيستاني كانوا من أشهر علماء بلاطه. قد كتب الأخير مثنويًّا في جواب «خمسة نظامى» وكتب أيضًا «مثنويات شيرين» و«خسرو» و«ليلي ومجنون»، و«مطمع الأشعار».

وكان محمد قلي قطب شاه نفسه أديبًا وشاعرًا، وله أشعار جيدة في اللغة الفارسية، وكان تخلصه في الشعر «قطب شاه»[١]، ولم يكن محمد قلي قطب شاه شاعرًا باللغات الفارسية والأدبية فحسب، بل أول من وضع وترك ديوانًا باللغة الأوردية[٢].

---

[١] صديقي، تاريخ كولكنده، ص ٢٨٨-٢٩٣.

[٢] إدارة أدبيات أردو خبريد آباد حيدر آباد – دكن، مجلة بدريس العدد الخاص محمد قطب شاه ومحمد

وبالرغم أن رقعة المملكة، كانت محدودة بمواردها ومنتجاتها فكانت للأسرة القطب شاهية مقامًا مرموقًا في تاريخ شبه قارة الهند، حيث ترك لنا آثارًا تاريخيةً وثقافيةً غزيرةً أحدثت مظاهر جديدة في حياة الشعب الاجتماعية والنظم الإدارية في المملكة التي لا تزال تتجلي مظاهرها وتثير بواعث العز والإعجاب بين الأهالي[١].

وأيضًا من أهم آثار محمد قطب شاهية العمرانية كان قصر كوه طور (جبل الطور) وبستان نبات كجات باغ وجهار سينا وأربعة مينارات ومكة مسجد التي كانت من أفخم الأبنية التي أنشئت في حيدر آباد في عهد محمد قلي قطب شاه. وكان مكة مسجد قد وضع أساسها محمد قلي قطب شاه بيده،. وقد استغرق بناءها سبعة وسبعين سنة، فأكملت في عهد أورنك زيب، وقد استغرق بناء محرابها الذي صنع من حجر نفيس خمسة سنوات فقط، عمل بها خمسة آلاف من العمال. وقال يقول جان باتست تافرنييه المستكشف الفرنسي في رحلته هن المسجد:

أخذ حوالي ٥٠ عاما منذ أن بدأ في بناء مسجد رائع في البلدة الذي سيكون الأروع في جميع أرجاء الهند عند اكتماله، حجم الحجر هو موضوع إنجاز خاص للمسجد وذلك لمكانة ومكانه للصلاة، صخرة بهذا الحجم الهائل أمضوا خمس سنوات في المحاجر ليتم به إتمام بناء المسجد، وكانوا عدد الذي يعملون بين ٥٠٠ و ٦٠٠ رجل وكان عملهم باستمرار دائم، وظلٌّ العمل يتطلب المزيد من الوقت والجهد إلى نقل الحجر إلى المسجد، وتطلب منهم العمل الاستعانة بما مجموعه ١٤٠٠ ثور لإتمام نقل الحجر[٢].

شاه ظفر).

[١] صديقي، مقدمة النسخة الإنجليزية.

[2] Jean-Baptiste Tavernier, Travels in India (English translation), Oxford University Press,

وقد اهتم سلاطين القطب شاهية إلى النشاط العمراني أبلغ اهتمام فأنشأوا قصورًا فخمةً وأبنيةً عاليةً كثيرةً، والمدارس الكبيرة التي تعد من آيات الفن والروعة. كما اهتموا لإنشاء البركات والأحواض والجسور والمسافرخانات والقنوات لري المزارع والحمامات والمستشفيات والمطاعم العامة وغيرها.

ومن هذه الآثار العمرانية دولت خانه عالي (قصر السلطنة العالي) وباغ كلش، وباغ إبراهيم، ولنكر دوارده إمام أي مطعم الأئمة الاثني عشرية، وباره دري، وداد محل وخداداد محل، وسجن محل، وأعلى محل، وندي محل (قصر النجف الذي أنشأ على ضفة نهر موسى، وأيضًا مشك محل كلها أنشئت في عهد محمد قطب شاه)[١].

ومن الأبنية الفخمة التي أنشأها السطان محمد قطب شاه كان أكبرها لسعان محل وقابو صفه.

وقد أنشأ عبد الله قطب شاه عدة أبنية عالية وبساتين عامَّة سمي ينى باغ، وباغ لنكم يلي وفيها قصر ذات ثلاثة طبقات. كما من آثار أبي الحسن قطب شاه العمرانية «قصر جهار محل» الذي كان قصرًا فخمًا ذات أربعة أقسام تجري من تحتها الأنهار الرائعة، وكوشه محل التي لاتزال تبقي مآثر هذه القصور إلى يومنا هذا[٢]، كما تدل على درجة النشاط العمراني والثقافي والحضاري في عهد الأسرة القطب شاهية التركية في بلاد كولكنده وتلنيكا.

وكان لنساء الأسرة أيضًا نصيب وافر في هذا النشاط العمراني

Humphrey Milford, translated by Ball, London 1925 pg 205. Both volumes translated from Le Six Voyages of J. B. Tavernier.

[١] صديقي، ص ٣١٨.
[٢] صديقي، ص ٣١٩.

والثقافي. وقد اشتهرت حيات بخش بيكيم أم عبد الله قطب شاه وزوجة محمد قطب شاه من بينهن، وقد تنسب إليها عدة مآثر هامة في حقل الثقافة والعمران كالمطاعم العامة والبركات والآبار وغيرها. ومن أهم آثارها العمرانية بلدة حيات آباد التي أنشأها تخليدًا لتبوء عبد الله قطب شاه على عرش السلطنة سنة ١٠٣٥هـ، وكانت بلدة جميلة زخرفت بالأبنية الفخمة والبيوت الجميلة، والبساتين الرائعة واحتشدت بالصناع وأهل الحرفة وكل صنف من الناس. وقال بوصفها أنها كانت بقعة من الجنة[١].

وقد أعجب الرَّحال الأوربيون كوليم متهولد وتهيونو بعظمة هذه القصور والأبنية الفخمة وأبهتها، وقالا أنها كانت أعظم شأنًا وأكبر جلالاً وبهتًا من القصور والأبنية المغولية. وحتى أن محمد كام بخش ابن أورنك زيب لمَّا تولى كولكنده أصرف عن النزول في قصور القطب بسبب وسعتها وعظمتها، وأنشأ لنفسه قصرًا خاصًّا، وقال أنه لا يريد أن يسدَّ النفقات للحكومة في هذه القصور الفخمة، حتى لا يمكن له أن يوفر الشمعات والسراجات لتنويرها[٢].

---

[١] صديقي، ٣٢٢.

[٢] صديقي، ص ٣٢١. كلزار أصفيه، ص ٣.

المصادر الأصلية والحديثة المباشرة لتاريخ أسرة القطب شاهية:

١- تاريخ قطب شاهي لمؤلف مجهول، توجد نسخة غير المطبوعة في كتبخانة أصفية في حيدرآباد.

٢- حديقة العالم لمير أبي القاسم أو أبي تراب (مير عالم) طبعة حيدر آباد ١٣٠٩هـ كتاب خاص يبحث عن تاريخ الأسرة من أول نشأتها إلى إنهيارها.

٣- كلزا أصفية لخواجه غلام حسين جوه ديخان زمان خان طبعة دكن ١٣٠٨هـ.

4— Ali Asgar Belgimami: Land Marks of the Daccam 1927.

٥- عإلى نعمت خان وقايم كولكنده.

٦- علي بن طيفور بستامي: حديقة السلاطين غير مطبوعة وجدت نسخة في كتبخانة «سالار جنك» حيدر آباد.

٧- تاريخ قطبية لمؤف مجهول.

٨- مهنامه لغلام حسين نسخته غير المطبوعة في كتبخانة آصفية.

٩- كيردها لال أحضر تاريخ صفره حيدر آباد ١٩٢٧.

١٠- تذكرة الملوك لمظفر خافي خان نسخته غير المطبوعة في كتبخانة أصفية.

الأسرة العادلشاهية في مقاطعة بيجابور الهند

الأسـرة الإسلاميـة التركيـة التـي أسسـت دولـة إسلاميـة أولـى في بيجابور

وهـي أسـرة تركيـة هامَّـة قامـت بدولتهـا فـي بيجابـور مـن مقاطعـات بومبـي (الهنـد) علـى أنقـاض الأسـرة البهمانيـة، وقـد استمرت الأسـرة بحكـم مستقل نحـو قرنيـن مـن الزمـن مـن سـنة ٨٩٥هـ إلـى ١٠٩٧هـ = ١٤٨٩م - ١٦٨٦م ؛ ثـم انضمَّـت رقعتهـا إلـى ممتلـكات الإمبراطوريـة التيمورية (المغولية) الكبرى.

وكان مؤسـس الأسـرة يوسـف عـادل خـان وهـو مـن قبيلـة تركمـان، وطبقًـا علـى قـول فرشـة الـذي كتـب تاريـخ الأسـرة، كان يوسـف هـو ابـن السـلطان مـراد الثانـي العثمانـي، وأخـوه محمـد الفاتـح، فدبـرت أمـه خوفًـا أن يقتـل مـن حملـة إخوتـه بسـبب ظهـور الفتنـة بينهـم وأنقذتـه مـن هـذا القتـل[١]. هـذا القـول الـذي لـم يؤيـده أي مـؤرخ مـن مؤرخـي آل عثمـان.

١١- رفيع الدين شيرازى: تذكرة الملوك نسخته غير المطبوعة أصفية.

١٢- عبد الجبار خان محبوب الوطن حيدر آباد (١٣١١هـ أردو).

١٣- أولياتي دكن في مجلدين أيضًا لعبد الجبار خان ١٣٣١هـ.

١٤- Daccam Manuscripts in Europe بورب مين مخطوطات دكني حيدر آباد ١٩٣٢.

١٥- سيد محيي الدين روز زندكإلى محمد قلى. Life of Modd Quli. HyderAbad 1940.

17— The Reign of Sultan Mohammad Qutub Shah by Drey. H. K. SHerwani, Hyderabad. Journal Historical Society Pakistan, Park II+III 1920.

18— N Manucci Storia Do Mogor travs W. ....

19— T.W. Haig, Historic Landmarks of the Deccan Allahabad 1907.

20— Epigraphia - Indo - Moslemica, Culcuttta 1908.

21— The Cambridge History of India Vols III + IV.

(المصادر التي استفاد المؤلف في كتابة هذا الباب). من المؤلف.

[١] فرشة، ج ٢ ص ٢.

وعلى كل حال كان هو تركي الجنس من قبيلة تركمان. وقد أكَّد هذا القول المؤرخ منجم باشي في «جامع الدول»[١]. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أنه كان يختلف صورة من الهلال وهو رمز الترك العثماني القومي منقوشًا في وجهة قصره الملكي العالية[٢] بعثه إلى الخواجة عماد الدين الذي رباه أحسن تربية، ثم جاء به إلى الهند فاشتراه ملك التجَّار محمود تاون المعروف بصدر جهان جعله مع أمير الخيل عزيز خان الترك، فكان في خدمته، حتى عظم شأنه وصار أمير الخيل في بلاط البهمني ثم عيِّن عامل مقاطعة دولت آباد، وكان بها حتى حان الحين فانتهز الفرصة الفوضوية التي ظهرت في المملكة البهمنية فخصص معتمدًا على جيش جرَّار شكله من الترك والمغول فأعلن نفسه ملكًا مستقلاً بأمره وخطب الجمعة باسمه وأخذ عادل شاه لقبًا فانتمت أسرته إليه وعرفت بالأسرة العادلشاهية[٣].

وكان لتأسيس الأسرة أثر كبير في تاريخ بيجابور وهي من أهم مقاطعات الهند الجنوبية، حيث أن يوسف عادل شاه كان أول من أسس دولة إسلامية مستقلةً فيها منذ أسرة ياداوا التي حكمتها قرنًا كاملاً، ثم فتحها علاء الدين الخلجي وضمَّها إلى دولة دهلي[٤]. كما كان يوسف عادل شاه أول من أشاع المذهب الشيعي وقرأ أسماء الأئمة الاثنتي عشرية في الخطبة في بلاد الهند، وهو عزي عدة مرات على خلاف الأمراء الدكنية وملك ويجايا نكرا الهندية. كما قابل للمرة الأولى البرتغاليين الذين كانوا قد استولوا على كوئا ففتح كوئا منهم. وهو بنى بلدة بيجابور واتخذها عاصمته. حكم البلاد من سنة

[١] دائرة المعارف الإسلامية. مادة بيجابور.

[٢] دائرة المعارف الإسلامية، مادة بيجابور.

[3] Cousens Areh. Survey of India. Bijabur and its Architectural Remains Vol XXXVU P. 2.

[٤] فرشة، ص ٤.

٨٩٥هـ إلى سنة ٩١٦هـ = ١٤٨٩م - ١٥١٠م[١].

خدمة الأسرة للعلم والثقافة والعمران

وقد ازدهرت بيجابور في عهد الأسرة العادلشاهية التركية بنشاط علمي وثقافي وعمراني كبير. وقد يتمثل بهذا النشاط الغني والثقافي بما حازت في الأبنية الفاخرة والقصور الملكية الرائعة الفن والآية والأروقة والجوامع الكبيرة والمنار التي نطحت السحاب والضريحات والقبات المالكة والبساتين العمومية والحصين الحصين الذي أنشأ حول المدينة والأبراج التي شيَّدت في زواياها[٢].

وغيرها من الآثار الخالدة التي لا تزال تتجلى مندثراتها إلى هذه الأيام، والتي تدل على مدى ازدهار البلاد ورقيها في تلك الأيام التي نداولها، والتي تضافرت أسبابها وتكاثرت دواعيها وذلك باهتمام أفراد الأسرة وولعها للعلوم والعمران وحبهم المسايرة لركب التقدم والحضارة في عصرها، وحبوا أن لا يخلفوا من الركبات الأخرى في مضمار السباق التمدني الذي كان يدور حولها في البلدان الشقيقة الإسلامية كمملكة دهلي التيمورية وإيران ومصر والشام وماوراء النهر وغيرها.

وكانت هي تلك المآثر والمعالم الزاهرة التي جعلت بيجابور مملكة أحلام وأماني من أمثال أسبانية الإسلامية بقصرها الحمراء وبغداد بخلفائها المأمون والأمين وهارون الرشيد. عاشت في بحبوحتها الجميلة البديعة الملكة دلشاد آغا زوجة عادلشاه وببوجي

---

[١] تراث الهند، ص ٢٥٣.

[٢] وأضف إلى ذلك نوادي الشعراء والأدباء ومجالس العلماء والفضلاالتي نالت قبستها تضئ وتنشر نورها وتزيد بزينة البلاد تحت رعاية الأسرة.

خانم وجاند، والملكة رهومبة زوجة السلطان محمود اللواتي، لم تكن ربة الحسن والجمال فحسب، بل كن ربة العقل والتدبير أيضًا. وهن أوحين حياة ناشطة في البلاد.

دارت بين ما جرى من أدوار الحب والتعشق والوفاء والخونة، وقد لعب فيها طائفة الشبان الترك والإيرانيين الذين كانوا يشكِّلون القسم المحافظ والملازم للبلاط دوراً هامًّا. وحكيت حولهن الأساطير والقصص الروائية، وهكذا تركت الأسرة في غضون القرنين آثارًا خالدةً لا تنسى ذكرياتها مدى الأيَّام، ومندثراتها تعجب زائريها مفوق من أحدثوها في التذوق البديعي والفني والعمراني والتخليقي.

وطبقًا على قول فرشة كانت بيجابور قد ظلت مدينة كبيرة ذات أبهة وجلال، وفيها شوق كبير يتوافر لها الأمتعة والبضائع النفيسة من الشرق والغرب، وكانت تنافس دمشق والقاهرة، وكانت مسافة يوم ونصف. وقد استخدم لبناء روضة إبراهيم ألف عامل يوميًّا وقد أكملت بنائها في عشرين سنة.

يوسف عادل شاه

وقد ذكر صاحب تاريخ فرشتة فرشة أن يوسف عادلشاه مؤسس الأسرة، كان أشد وقوفًا لتجارب الزمان، وهو تحلى بأوصاف الحلم والسَّخاوة والشِّجاعة والعدل والنصفة وغيرها من الشيم الحسنة. وكان يجيد خط نستعليق ويعلم علم العروض والقافية، وفاق أقرانه في علم الموسيقي، وكان يغني بالطنبور والعود. وكان يكرم أصحاب الفن والشعراء وتتجاذبن في نوادي البلاط الأدبية أشعار القدماء، وكان ينشد الشعر بنفسه أيضًا.

وهـو جمـع بيـن التـرف والطـرب وشـئون الدولـة، وبالرغـم مـن كل هـذه المشـاغل وهـو لـم يغفـل عـن أحـوال المملكـة بلحظـة. وكان جميـل الهيئـة والصـورة وحسـن السـيرة بدرجـة أن كثيـرًا مـن النـاس قـد أعجبهـم حسـنه وجمالـه وكمـا أعجـب زليخـا بحسـن يوسـف، فيجيئـون مـن أقصـى الـبلاد ويقومـون فـي صفـوف علـى جانبيـن مـن الشـارع العـام يتمتعـوا برؤيتـه ويبتهجـوا بلقائـه الـذي قـد زاد بوقـاره الملكـي مشـيخته ولحيتـه البيضاء.

ويكفي لنـا أن نعلـم درجـة حبـه للعلـم والعلمـاء ودرجـة إكرامـه لهـم، إنـه اسـتجلب طائفـة كبيـرة ممـن ذاع صيتـه مـن العلمـاء والفـضلاء مـن بلاد شاسـعة كإيـران وتـوران وبلاد العـرب والـروم التركيـة وكـذا أهـل الصنعة والحرفة[١].

وقـد عـاش فـي عهـده الشـيخ جلال المشـهور بشـيخ جنـدا، وكان صوفيًّـا كبيـرًا مـن أكابـر الشـيعة ينتمـي نسـبه إلـى زيـن العابديـن. وكان يوسـف عادشـاه مخلصًـا ومريـدًا لـه. كمـا عـاش فـي هـذا العهـد العالـم الكبيـر السـيد أحمـد الهـروي، وكان فـي خدمتـه وخدمـة إسـماعيل عادلشـاه، ونـال عندهمـا بمنصـب الـوزارة العظمـي (نفس المصـدر) وقـد روي عنه فرشة كثيرًا من أعمال الأسرة وأوصافهم.

حكـم بعـده ثمانيـة مـن أفـراد الأسـرة، وقـد لعـب كل واحـد منهـم دوراً هامًّـا فـي تاريـخ بيجابـور وخدمـوا لنهـوض الثقافـة والعلـم والأدب والشـئون العمرانيـة فازدهـرت الـبلاد بدرجـة لـم يسـبق نظيرهـا مـن قبـل. وكان أبـو الفتـح إسـماعيل عادلشـاه بـن يوسـف عـادل شـاه (٩١٦هـ ٩٤١هـ = ١٥١٠-١٥٣٤م) محبًّـا للفنـون الجميلـة. وكان هـو ماهـراً لفنون الرسم والصبغ وصناعة الهام ونقش أقمشة السرج.

---

[١] فرشة، ٢/ ١٣.

وهو فاق لأقرانه في الموسيقي والشعر. وقد التزم بلاطه طائفة من العلماء والشعراء، وهو يستلزم مصاحبتهم العلمية والأدبية، ويلطفهم بمزاحه الذي فاق فيه أيضًا لأقرانه. وكان محبا للألحان الموسيقية التركية والإيرانية ومربيا للغات الفارسية والدكنية، وشاعرا بارعا باللغة الفارسية، وكان تخلصه في الشعر «وفائي»، وهو أنشد أشعارا بليغة لم ينشدها غيره من سلاطين عصره بتلك اللطافة والمتانة[١].

وقد عرف عادلشاه الأول (١٥٣٤-١٥٥٧م) بشجاعته وبطولته. وكان طهماسب ملك إيران يقول فيه «أنه لا يوجد حريف له بالشجاعة والبطولة إلا أفراسياب التركي وإبراهيم عادلشاه».

وهو جاء بإصلاحات إدارية هامة وأنفذ من جديد المذهب السني في رقعته وقبل اللغة الفارسية لغة رسمية للدولة، ولم يأل جهده في إنشاء أبنية فاخرة.

ومن آثاره العمرانية بلدة إبراهيم بور أنشأها سنة ٩٣٣هـ ١٥٢٧م في جنوب بيجابور وقصر فخم سميه بسوله همي محل (Sila Themi Mahal) وعدة مساجد عالية البناء منها غالب مسجد أنشأ فيه ٣٠٣و١ محرابًا لوضع القناديل وإبراهيم مسجد (١٥٢٦م).

وكان علي عادل شاه بن إبراهيم[٢]، أشد تمسكًّا للمذهب الشيعي، وهو أعاده ثانيًا في مملكته، وكان يعيش عيشة متواضعة درويشية،

---

[١] فرشته، ٢/٢٦.

[٢] هو أَبُو المُظَفَّر عَليّ بنُ إِبرَاهِيمَ بنِ إِسْمَاعِيل بنِ يُوسُف عَادِل شَاه المعروف اختصارًا باسم عَليّ عَادِل شَاه الأَوَّل، (–١٥٧٩م) هو خامس سلاطين بيجابور من السلالة العادل شاهية، اعتلى العرش في الفترة من ١٥٥٨م إلى وفاته في سنة ١٥٧٩م، في يوم تتويجه أعاد إعلان الخطبة الشيعية. كان قائدًا في «تحالف سلطنات الدكن» الذي أعاد تشكيل السياسة في جنوب الهند، وهو أحد قيادات «عصبة ملوك الهند» الذين حاربوا الاحتلال البرتغالي في الهند.

يلبس زي الدراويش يبلغ ثمنه لهونين (سكة عهده). وقد لقب نفسه «علي شير قلندر» أي علي الأسد الدرويش. وكان عالمًا لعلم الكلام والمنطق والحكمة وغيرها من العلوم الإسلامية، وخطاطًا جيدًا لخط النسخ والثلث والرقاع و رقفات[١]. ينسب إليه طائفة كبيرة من الآثار العمرانية والأبنية الفاخرة رائعة الفن والآية التي أنشئت وشيدت في عهده وباهتمامه. وهو أنشا حصنًا حصينًا حول المدينة طوله ستة أمتار نصف، وستة أبواب، سمي ما يوجه منها إلى القبلة باب المكَّة، كما أحدث روضات عديدة منها باغ علوي (الروضة العلوية)، وباغ علي (روضة علي) وأحواض عامة يتمتع من مياهها أهل المدينة وجامع مسجد أنشأ في عهده قيل فيه أنه كان أروع المساجد في الهند أجمع[٢].

ومن القصور العالية ججن محل، جاندبورى، وأنانـد محل، وضريح. وهو بنى أيضًا قلعة سنة ٩٦٦هـ ١٥٥٨م سماها شاهدروج.

وقد ساهم في هذا النشاط العمراني وزيره وقائد جيشه المعروف كشورخان وبإشرافه أنشأ قصر هريا محل (٩٦٨هـ ١٥٦٠م) وقلعة دارور (٩٧٥هـ ١٥٦٧م) وأيضًا قلاع شاه نور ونبكابور (٩٨١هـ ١٥٧٣م)، ومسجد بابره إمام (الأئمة الاثنتي عشرية) وروضات فدك (٩٧٤هـ و٩٧٦هـ = ١٥٦٦م و١٥٦٨م).

وكان كشورخان هذا هو الذي أشرف أيضًا تحصين المدينة، وهو استجلب لهذا الغرض المعماريين وقطاع الحجر والمهرة من حيث وجدوا في أقاصي البلاد وكذلك بناء جامع مسجد.

وقال رفيع الدين الشيرازي الذي عاش في بلاطه وكان في خدمته

---

[١] تاريخ فرشتة ٣٦/٢.
[٢] تراث الهند، ص ٢٥٧.

واحدًا وعشرين سنة: وكان على عادلشاه ملكًا شريفًا، خليقًا ومتدينًا، ولم ير نظيره في الجود والسخاوة، وهو استجلب إلى بيجابور طائفة كبيرة من العلماء من بلاد الفرس وغيرها لصحبتهم ويرخصهم بعد أن أسبغ لهم بأحسن المكافأت، وكان مشفقًا لخدامه ولا يهتم للزي، يلبس زيًّا درويشيًّا لا يتجاوز ثمنه هونين وكان يدعي نفسه علي شير قلندر.

وكان شاه فتح الله الشيرازي والشبان أبو القاسم انجو ومرتضي خان مانجو وصدر جهان مير شمس الدين محمد الأصفهاني وغيرهم من مشاهير العلماء والفضلاء الذين نزلوا بيجابور على حسب دعوة منه والتزموا بلاطه[1]. ومن الشعراء ملا محمد الرضائي المشهدي قتل في ٢٣ من الصفر سنة ٩٨٨هـ.

وقد وصلت بيجابور قمة مجدها من الرفاه والسعادة في عهد إبراهيم عادل بن طهماسب (٩٨٨هـ ١٠٣٦هـ = ١٥٧٩م-١٦٢٧م) حيث اهتم للشئون العمرانية أكبر اهتمام وجعل العاصمة بيجابور من أعظم المدن الهندية شأنًا في الفن العمراني تمثلت الهندسة الإسلامية البهتة، كما كانوا أكبر حماة للأدب والثقافة، وقد عاش في عهده المؤرخ الشهير الفارسي فرشته. وقد جاء في مقدمة ديوان شعر الحادرة أن إبراهيم عادلشاه كان أعلم بيته وأشده تربية للعلوم والصنائع، وهو نقش خاتمه «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» الآية[2]. ومن الشعراء مولانا ملك القمي ومولانا الظهوري كانا من أشهر شعراء بلاطه[3]. وهو شجَّع النشاط العلمي،

[1] تاريخ فرشتة، ٤٧/٢.
[2] سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
[3] تاويخ فرشته، ٢ / ٨٢.

وكان محبًّا للفنون الجميلة والألحان الموسيقية، ولا سيَّما الهندية، ولكن حبه هذا للألحان الهندية كان سببًا بأن يهتم أنه كان كأكبر غافلاً لدينه ومايلاً للإلحاد.

وقد اهتم إبراهيم عادل شاه أكبر اهتمام للعمران، وفي عهده أنشأت أفخم الأبنية وأروعها في بيجابور منها سات خان كا محل (القصر ذات طبقات سبعة ١٥٨٣م) ودلكشا محل (القصر الذي يفرح القلوب)، وقصر حيدري أو أوبري برج Upri–Burj، ومسجد ملكة جهان (١٥٨٤م) وعمارة للمسرح سماها أنانـد محل (١٥٨٩م) للرقص والألحان، وسنجت أو نورس محل في نورب بور، وغيرها. وقد ازدهرت بيجابور في عهده أكبر ازدهار علميًّا، وثقافيًّا وعمرانيًّا. قيل أنه كان يملك ٠٠٠و٥٢ فرسا و ٤٠٠و١٠٠ مشاة، ومن الفيل ٩٥٥ وقد ازدادت نفوس المدينة بما فيها من الأمن والرفاه حتى بلغت ٤٠٠و٩٨٤، وعدد المساجد ٦٠٠و١ ودخل البلاد السنوي قد بلغ ٠٠٠و٠٠٠و١٠ جنيه إنجليزي[١].

وإذا كتبنا عن الأسرة العادلشاهية وخدماتهم الثقافية والعلمية والأدبية والعمرانية، فلنخص ذكر جاند بي بي (أي قمر النساء)، وهي بنت حسين ملك أحمد نكر، وزوجة علي عادلشاه الدرويش، التي أضاءت كالنجم الساطع في تاريخ بيجابور بجمالها ولباقتها ومساهمة زوجها في شئون الدولة إداريًّا وحربيًّا وسياسيًّا، وكذلك في حقل الثقافة في زمن حماته بعد وفات زوجها كوصية للعرش وللصبي العادلشاه الثاني، وكانت هي مرأة مثقفة بالدرجة العالية، عالمة للغات الفارسية والعربية والمرتية، والكنارية، ورسامة ماهرة. وهي نموذجة مرءة مسلمة جريئة ترعرعت في بيئة مسلمة ولكنها ليست رجعية.

---

[١] تراث الهندي، ص ٢٥٣.

وقد شابها الرحال ميدوز تايلور الإنجليزي (Meadows Taylor) لملكة إليزابت، وهو قال «وكانت الملكة جاند بي بي تملك من الصفات العالية واللباقة السياسية ما تأهلها لإدارة شئون دولة واسعة النطاق، كثيرة النسمة كإنجلترا، متساوية لملكة أليزابت في التعليم والأعمال والحنكة السياسية».

وهي أنقذت مملكتها بفضل بطولتها وحنكها السياسي من الدمار والانقسام. وهي تقوم بين كافَّة نساء الهند كدرر يتيم لا ثمن له، وذلك بسذاجتها وصراحتها وجودها وسخاؤها الفياض وداعية الشفقة والعفة وتقواها في الدين، على أنها كانت تعمل وتدير شئون الدولة بالسلطة المطلقة.

رقم	أسماء سلاطين العادلشاهية	التاريخ بالهجرية
١	يوسف عادل شاه	٨٩٥هـ - ٩١٦هـ
٢	إسماعيل بن يوسف	٩١٦هـ - ٩٤١ هـ
٣	مللو بن إسماعيل	٩٤١ هـ
٤	إبراهيم الأول بن إسماعيل	٩٤١ هـ - ٩٦٥ هـ
٥	علي الأول بن إبراهيم	٩٦٥هـ - ٩٨٤هـ
٦	طهماس بن إبراهيم	٨٧٩هـ - ١٠٣٥هـ
٧	محمد بن إبراهيم	١٠٣٥هـ - ١٠٦٦هـ
٨	علي الثاني بن محمد	١٠٦٦هـ - ١٠٨٣هـ
٩	سكندر بن علي	١٠٨٣هـ - ١٠٩٧هـ

فمنذ القرن العباسي إلى وقت غير بعيد منا، كان تيار العلم متدفقا

من بخارى، وسمرقند، وخوارزم، والشاش وكاشغر، وبلغ حتى القرى المجهولة في تركستان قد نجمت أسماءها حين نبغ علماءها، وقد ظهر منهم أئمة رفعوا لواء الإسلام عاليًّا وبنوا له مجدًا بازخًا كالإمام الحافظ الحجة أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وكذا الإمام الترمذي[١] والنسائي[٢] وصاحب الكشاف العلامة جار الله الزمخشري، وصاحب المفتاح يوسف السكاكي والشيخ عبد القاهر الجرجاني[٣]، والعلامة سعد الدين التفتازاني والعلامة السيد الشريف الجرجاني وكذا الفقيه الشيخ شمس الأئمة السرخسي[٤] صاحب «المبسوط»، والشيخ سديد الدين

---

[١] هو أبو عيسى التِّرْمذِي (٢٠٩ هـ - ٢٧٩ هـ). هو محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، السلمي الترمذي، أبو عيسى. مصنّف كتاب الجامع المعروف بسنن الترمذي، حافظ للحديث، ولد في مدينة ترمذ، ثم ارتحل لطلب الحديث فذهب إلى خراسان، والعراق، والحجاز، ولم يرحل إلى مصر والشام، وحدّث عن جمع كبير من المحدثين، وتفقه في الحديث بالبخاري، وأصبح ضريرًا في كِبره بعد رحلته وكتابته العلم، وتوفي في ١٣ رجب ٢٧٩ هـ في بلدة ترمذ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٢٧١.

[٢] هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النَّسائي (٢١٥ هـ - ٣٠٣ هـ)، محدِث وقاضٍ، وأحد أئمة الحديث النبوي الشريف، صاحب السنن الصغرى والكبرى، المعروف بسنن النسائي، وُلد سنة ٢١٥ هـ في بلدة نسا من بلاد خراسان قديمًا وتقع في تركمانستان حاليًا، وطلب العلم والحديث وهو صغير، فرحل إلى خراسان والحجاز والعراق والشام والجزيرة العربية ثم استوطن مصر، ورحل الحفاظ إليه، خرج إلى دمشق فوجد المنحرف بها عن علي بن أبي طالب كثير، فألف كتاب «الخصائص» في خصائص علي فأُوذِي بسبب ذلك، وتوفي في سنة ثلاث وثلاثمائة، له العديد من المصنفات أشهرها السنن، وصنف أيضًا في الضعفاء والمتروكين، وفضائل الصحابة، وله كتاب في التفسير. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/١٩٧.

[٣] هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرْجَانِيّ (٤٠٠ - ٤٧١هـ) من علماء العربية، نحوي ومتكلم، ومؤسس علم البلاغة.

[٤] هو شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرَخْسِيّ الخزرجي الأنصاري (ت. ٤٩٠ هـ) فقيه أصولي حنفي من سرخس، بلدة قديمة من بلاد خراسان. أخذ الفقه والأصول عن عبد العزيز الحلواني والسغدي، وعده ابن كمال باشا من المجتهدين. وكان عالماً عاملاً ناصحاً للحكام، سجنه الخاقان بسبب نصحه له. وكتب كتاب المبسوط وهو سجين، وهو أكبر كتاب في الفقه الحنفي مطبوع في ثلاثين جزءاً، كما كتب شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، وله شرح مختصر الطحاوي، وله في أصول الفقه كتاب من أكبر كتب الأصول عند الحنفية، ويعرف بأصول السرخسي، ومازال ضريحه شاخصاً في مدينة أوزجند بقرغيزستان. القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ٢/ ٢٨. وابن قطلوبغا، تاج التراجم، ١/ ١٨. وعمر رضا كحّالة، ومعجم المؤلفين، ٨/ ٢٣٩.

الكاشغري، وصاحب الهداية: علي بن أبي بكر المرغيناني[١]، والعلامة صدر الشريعة[٢] وتاج الشريعة[٣] وبرهان الشريعة وصدر الأفاضل ومفسر القرآن أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، وإمام أهل السنة أبو منصور الماتريدي، والكاتب الأديب أبو بكر الخوارزمي، والأديب المعروف بالشطرنجي الصولي[٤] ومحمود الكاشغري وغيرهم.

كذلك المعلم الثاني الحكيم الكبير أبو نصر الفارابي، والشيخ الرئيس علي بن سينا، وخالد بن عبد الملك المتخصص الكبير في مرصد المأمون، وأبو زيد البلخي (أول من كتب الجغرافيا على طريقة قدماء اليونان) وبنو موسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن) أشهر رياضي العهد العباسي وأوائل المخترعين من المسلمين في الحيل والهندسة، والذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الأرضية وصححوه.

وهم الذين اخترعوا علم الجبر والمقابلة وأذاعوا الحساب الهندي بين المسلمين، وابتكروا كذلك زيجًا جامعًا على أصول الهند

---

[١] هو برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني (٥١١ – ٥٩٣ هـ) من كبار فقهاء الحنفية، صاحب «كتاب الهداية»، وكتبه تعد من الكتب الأساسية المتداولة لدى دارسي المذهب الحنفي، وكان حافظًا مفسرًا محققًا أديبًا، من المجتهدين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٣٢.

[٢] هو صدر الشريعة الأصغر؛ عبيد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد المحبوبي البخاري بالحنفي، صدر الشريعة الأصغر ابن صدر الشريعة الأكبر من علماء الحكمة، والطبيعيات، وأصول الفقه، والدين. له كتاب «تعديل العلوم» و«التنقيح» في أصول الفقه، وشرحه «التوضيح» توفي في بخارى. الزركلي، الأعلام ٤: ١٩٧. والفوائد البهية، ١٠٩ – ١١٢. ومفتاح السعادة، ٢/٦٠.

[٣] هو عبيد الله بن مسعود بن تاج الشريعة المحبوبي (ت: ٧٤٧ هـ) المعروف باسم صدر الشريعة الثاني الأصغر. هو فقيه وأصولي ونحوي وأديب ومحدث ومفسر ومنطقي ومتكلم حنفي ماتريدي. الزركلي، الأعلام.

[٤] هو أبو بكر الصُّولي محمد بن يحيى بن عبد الله، نسبته إلى جده «صول تكين»، الذي كان وأهله ملوكا بجرجان، كان أحد العلماء بفنون الأدب، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء. توفي كما يقول ابن النديم مستترا بالبصرة لأنّه روى جزء في علي بن أبي طالب فطلبته الخاصّة والعامّة لتقتله. والأرجح أنّه مات سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤/ ٦٧٥. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤،/٣٥٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٣٠١.

واليونان.

ثم أبو ريحان البيروني الذي علَّم المسلمين فلسفة الهند وعلومها، والجوهري الذي أهدى إلى الأمة العربية أحسن القواميس اللغوية العربية وأكملها وغيرهم.

هكذا نشطت هذه الأمة للعلم وأخذت ترتشف رحيق هذا الدين تفسيرًا وحديثًا وسيرةً وتاريخًا، وضربت في الفقه الإسلامي بسهم قوي.

لم يكن الجهاد في الدراسة والتحصيل محصورًا على طبقة من الناس، بل كان ملوك تركستان قبل رعاياهم في حلقات هذه الدروس يستمعون إلى العلماء، ويستفيدون منهم، وقد جعلوا هؤلاء العلماء صدور مجالسهم ووزراء دولتهم وقضاة حكومتهم وولاة أقاليمهم، وكانوا يكافئونهم بالجوائز القيمة والرواتب الرفيعة، ويعظمون قدرهم، ويرفعون شأنهم، وينتظمون في حلقات دروسهم ويبنون لهم المدارس وينشئون لهم المراصد ويشيدون لهم دور الكتب.

قد ظهر من صعيد تركستان طائفة كبيرة من المفسرين والمحدثين، وكان أشهرهم من المفسرين الحسن بن خلف بن جبريل الألمعي الكاشغري[١]، له أكثر مائة تصنيف، والعلامة صدر الشريعة وصدر الأفاضل مفسر القرأن أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي، ومحمد بن عبدالحميد بن الحسين بن الحسن أبو الفتح الأسمندي السمرقندي[٢]، ومحمد بن عبدالرحمن بن أحمد أبو عبدالله

---

[١] هو الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ خَلَفِ بْنِ جِبْرِيلَ بْنِ الْخَلِيلِ بْنِ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْكَاشْغَرِيُّ. فَاضِلٌ، قَدِمَ نَيْسَابُورَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ فَسَمِعَ الْكَثِيرَ وَصَنَّفَ، وَسَمِعْنَا بِقِرَاءَاتِ أَبِي الْقَاسِمِ عَبْدِ الْغَافِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ الأَلْمَعِيِّ عَلَيْهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ. ، تَقِيُّ الدِّيْنِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ مُحَمَّدِ العِرَاقِيُّ الصَّرِيْفِيْنِيّ، المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور.

[٢] هو محمد بن عبد الحميد بن الحسين ابن الحسن بن حمزة الأسمندي السمرقندي، أبو الفتح، علاء

البخاري[١]، ومحمدبن أبي القاسم بن بابجوك زين المشايخ أبو الفضل الخوارزمي البقالي الملقب بالآدمي[٢]. ومحمود بن الفرج الإمام أبو المحامد السمرقندي السفدي الساغرجي[٣]، ومحمود بن محمد بن داود أبو المحامد الأفشنجي البخاري وغيرهم.

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من إنشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الإسلام. فقد ذكر ياقوت الحموي[٤] في معجمه أن ترك مروا شاهجهان أشهر مدن خراسان يومئذ سنة (٦١٦هـ) وفيها عشر خزائن للوقف لم يرتق الدنيا مثلها كثرة وجوده. وقد فصل أخبارها وأخبار واقفيها، وذكر أن واحدة منها كان فيها ١٢٠٠٠ مجلد وأنه أخذ علمه منها[٥].

الدين فقيه، من كبار الحنفية. من أهل سمرقند، ونسبته إلى أسمند (من قراها) كان مناظرًا، من فرسان الكلام. رحل إلى بغداد وناظر علماءها. الزركلي، الأعلام، ٦/ ١٨٧. والجواهر المضية، ٢/ ٧٤. والنجوم الزاهرة، ٥/ ٣٧٢.

[١] محمد بن عبد الرحمن علاء الدين البخارى المعروف بالعلاء الزاهد له تفسير كبير مشتمل علي مجلدات ضخام تفقه عليه شرف الدين عمر بن محمد العقيلى. أرَّخ وفاته صاحب الكشف سنة ست وأربعين وخمسمائة.

[٢] هو مَحْمُود بن مُحَمَّد بن دَاوُد أَبُو المحامد اللؤْلُؤي الأفشنجي البُخَارِيّ الْفَقِيه، ولد ببخارى سنة سبع وَعشْرين وست مائَة تفقه على الإِمَام ابي عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الْمجِيد الْقرشِي وَكَانَ شَيخا فَقِيها إِمَامًا عَالما فَاضلا مفتيا مدرسا واعظا عَارِفًا بِالْمذهبِ عَالما بالتفسير وَاسْتشْهدَ فِى وَاقعَة بُخَارى سنة إِحْدَى وَسبعين وست مائَة رَحمَه الله تَعَالَى وفقد من حِينه بَين الْقَتْلَى وَهَذِه ثَالِث محنة كَانَت ببخارى من التتار. الجواهر المضية في طبقات الحنفية – عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي محيي الدين الحنفي.

[٣] هو محمود بن أحمد بن الفرج، الإمام أبو المحامد السمرقندي السغدي الساغرجي، أحد الأعلام، قال ابن السمعاني: إمام بارع مبرز في أنواع الفضل والتفسير والحديث والأصول، والمتفق، والمفترق، والوعظ. حسن السيرة، كثير الخير والعبادة، قرأت عليه تنبيه الغافلين بروايته عن أبي إبراهيم إسحاق بن محمد النوحي عن سبط الترمذي عن مؤلفه وكانت وفاته في حدود سنة خمس وخمسمائة. الأنساب: ٣/ ١٩٩، وتاج التراجم: ٢٨٦، والجواهر المضية، ٢/ ١٥٦، وطبقات الداوديّ: ٢/ ٣٠٩.

[٤] هو محمد بن أبي القاسم بن بابجوك، البقالي الخوارزمي، أبو الفضل الملقب بزين المشايخ، ويعرف بالآدمي، عالم بالأدب، مفسر، نحوي، من فقهاء الحنفية، من أهل خوارزم. تتلمذ للزمخشري وجلس بعده في حلقته، وشهر اسمه وبعد صيته. قال ياقوت: «كان إماما في الأدب، وحجة في لسان العرب، جم الفوائد، حسن الاعتقاد، كريم النفس، غير خائض فيما لا يعنيه، له يد في الترسل ونقد الشعر». عادل نويهض، معجم المفسرين، ٢/٦٠٥.

[٥] الحموي، معجم البلدان، ٤ / ٥٠٩.

أمـا مـا وراء النهـر فقـد ذكـروا فـي بخـارى مكتبـة اشـتهرت باقتبـاس ابـن سـينا علمـه عنهـا، وكانـت لنـوح بـن منصـور السـلطان بخـاري. قـال الشـيخ للرئيـس «ورأيـت فيهـا مـن الكتـب مـا لـم يقـع اسـمه إلـى كثيـر مـن النـاس ومـا كنـت رأيتـه مـن قبـل ألـخ» وأنشـأ هولاكـو التتـري لنصيـر الديـن الطوسـي فـي مراغـة مكتبـة فيهـا ٤٠٠٠٠٠ مجلـد ممـا نهبـه التتـر من بغداد والشام والجزيرة[١].

وفـي العصـر الرابـع عشـر والخامـس عشـر أصبحـت بخارى وسـمرقند مراكـزًا للعلـوم الإسلاميـة التـي أرسـلت عـددًا كبيـرًا مـن العلمـاء إلـى كاشـغريا. الرحـال روبـروك Rubruquis الـذي زار تركسـتان الشـرقية فـي سـنة ١٢٥٤م وماركوبولـو مابيـن (١٢٧١-١٢٧٥هـ) وهـوي Hois فـي ١٦٨٠م كلهـم يحملـون شـهادة أن كان هنـاك مسـامحة دينيـة بأكبـر وسعها[٢].

فـي غضـون العصـور الثلاثـة الأولـى الهجرية دامـت اللغـة العربيـة لغـة أدبيـة عامـة شـاملة فـي محـل أنحـاء الـبلاد الإسلاميـة. وكان هنـاك مـن العـرب قليلـة مشـتتة، يحتمـل أنهـم كانـوا بقايـا مـن العـرب الذيـن جـاء بهم وأسكنوهم هناك.

وكانــت بلــخ مــن أمهــات المــدن التركســتانية فـضلاً عــن قيمتهــا التجاريـة بسـبب وقوعهـا علـى إحـدى الممـرات التجاريـة الهامـة فـي وسـط آسـيا. وكانـت هـذه المدينـة عامـرة بمبانيهـا، آهلـة بسـكانها، حتـى قيـل إنـه كان بهـا ألـف ومائتـان مـن المسـاجد الكبيـرة، ومثلهـا مـن المسـاجد الصغيـرة، كمـا كان بهـا حمامـات عديـدة خاصـة بالأجانـب والتجـار الذيـن يفـدون علـى المدينـة. وكان هـذه الحالـة حيـن زحـف

---

[١] جرجي زيدان، ٣ / ٣١٣.

[٢] موسوعة برتانيكا، مادة شنجانيغ.

جنكيزخان إلى مدينة بلخ[١].

ويقول ويكمر آسفا لماضي بخارى: حينما كان العثمانلي يربط المكة إلى الغرب تحت تأثير الأفكار المتعصبين أصبح بخارى مركزًا روحانيًّا ومنفذًا للعالم الإسلامي، ومن هنا علماء تركيا، مصر ومراكش استجلبوا واستنشقوا حركا جديدا لنزعاتهم الدينية. وكان بخارى حصنًا مناوئًا فاخرًا للإسلام وآخر متراس لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم. وهم عاشوا هناك بمعزل محصور صارم يكرهون الأجنبية، يعرضون ويحفظون أبهة العهود الغابرة وقدريها وكبريائها. وكانت هذه المدينة منارا للعلوم الإسلامية، وكانت في نظر المسلمين كما كانت روما لنصارى، تأتي وتجمع فيه الطلبة من كل أقطار العالم. وفي هذه الأماكن المقدسة ما أوطئت أقدام الكفار وآيات القرآن تتلى وترتل بلسان الشيوخ المكرم.

تمركزت وتدثرت في قلب قارة وحزمت بجبال مهيبة وصحراوات مخيفة، تحشيت بمرابض القبائل الفتاكة، قاومت بخارى الشريفة ببلاد الأفرنج المنكورة، وكان حكام عروشها وارثي التاريخ المفتخر حتى انقسمت إلى إمارات صغيرة، وصاروا صورًا هزلية مضحكة. قام التكبر والتفاخر لحصول الشهرة، والاستبداد لإظهار القسوة، وأخذ الظلم موضع تدبير أمور الدولة فصارت بخارى وصفحاتها الفاخرة، تكتلت بقطعة قماش واسم أميرها الأخر المستقل شوَّه زجاج التاريخ تشويه[٢].

ويرى العلماء المعاصرون أن الترك ينتمي إلى جنس أورال–آلتاي، وقد عرف في غصون التاريخ بأسماء مختلفة على حسب أسماء

---

[١] حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٤٦.

[٢] ويكمر ص ٩١.

القبائل والعشيرة الحاكمة. وهم الهون وهيونكتنو عند الصين، والهياطلة أو اليفتاليت والاسكنت والكوشان والأوغوز أو الغز عند العرب والأويغور والمغول والترك وغيرها.

وأما على حسب الرواية الأسطورية يبدأ شجرة الترك من آلينجه خان، وكان له ابنان سمي أكبرهما تاتارخان وأصغرهما مغول خان، ثم ابنه يلينجه خان ثم ابنه آتلي خان ثم ابنه أتسيزخان ثم ابنه أوردوخان ثم ابنه بايدوخان.

وأخذ يشب النزاع بين أبناء تاتارخان ومغول خان، ثم خلف بايدو ابنه سوينج خان، وهو هزم المغول الذين التجئوا بعد انهزامهم في غار «أركنه قون».

وكان لمغول أربعة أبناء وهم قاراخان، أوز خان، قوز خان، أوكوزخان، وقورخان أو كورخان.

أَسَّس قورخان أوغوزخان في بلاد الأويغور إمبراطورية كبرى. وأما قاراخان بعد أن خلف مغول وسع رقعة مملكته إلى سير دريا وجاء من صلب قاراخان أوغوز الأسطوري الذي فتح بلادًا كثيرة في آسيا ووسع رقعة إمبراطوريته من الشرق إلى الغرب وكان موحدًا[١].

اختلف أوغوز مع أبيه قراخان الذي أدَّى إلى انشقاق أتباعه إلى طائفتين، والطائفة الساحقة تبعت قاراخان وأما الطائفة الأخرى وهي ضئيلة قد تبعوا أوغوز وإخوته سماهم أوغوز الأيغور أي «الموافقون» ثم حارب أوغوز مع عدته القليلة قاراخان الذي هزم بيده ومات في الطريق.

---

[١] ويكمر، ص ٤٠-٤١.

فتبوَّأ أوغوز على العرش وأخذ يدعو الناس إلى دينه فقبل من قبل، والتجأ الآخرون إلى مملكة تاتارخان في بلاد خطاي (الصين)، ولم يلبث بذلك حتى أغار أوغوزخان على بلادهم وهزموهم، وأخذ مغانم كثيرة التي أدَّت حمولتها ابتكار العربة للمرة الأولى سماها قانق؛ لأنها كانت تصوت عند الجرئ قانق قانق. ينتمي قبيلة القانق التركية إلى سائق هذه العربة الذي دعاه أوغوز قانقلي (أي سائق القانق). سار أوغوز خان بعد أن استولى بلاد ختاي وقراخطاي وتانغوت (تيبت) وطونغوز إلى بلاد ماوراء النهر، ثم بلاد العوز (القارلوق سماهم كذلك؛ لأن الجبال التي كانوا يعيشون فيها كانت دائمة الثلج) في أفغانستان ثم إلى بلاد الهند. ومنها تغلغل جيوشه إلى الهند الصيني وأسر ملكه أيت باراقخان، ثم أخذ كشمير، وكان ملكه يسمى «ياغما»، ثم سار إلى خراسان ومنها إلى إيران. وهو دعا هناك طائفة التي جيئت عنده أسيرًا وكانت جائعة قالاج أي «إبق جائعا فصارت هذه اسما لقبيلة تركية تعرف اليوم بالخلجية. ثم سير أوغوز جيشه إلى بلاد الروس والباشقرد في ضفة «دون»وإيتيل بقيادة قبجاق الذي ينتمي إليه قبيلة قبجاق وصحراء قبجاق، ثم سار بجيشه إلى بلاد آذربيجان وعراق العرب وعراق العجم والشام والجزيرة العربية ومصر. وهكذا فتح أوغوز حسب الأسطور التقليدي بلادًا كثيرةً في الأرض، وسمي خمسة وخمسين من القبيلة، وكان مدة حكمه ١١٦ سنة[١].

ويقال أن هيقوس مؤسس الأسرة الفرعونية كان من أحفاده الذين تركوهم نائبين عن نفسه في مصر. وإذا علمنا أن هذه الأسرة كانت معاصرة لحضرت إبراهيم الذي عاش ٤٠٠٠ قبل الميلاد، يمكن لنا

---

[١] ويكمر، ص ٤٢-٤٥.

أن نقول أو أوغوز خان الأسطوري قد عاش قبل ٤٠٠٠ سنة ق م. ثم هو قسم بلاده المفتوحة بين أبناءه ووصى لهم وصاية وهو أول من عقد «قورولتاى» (المجلس الملي التركي القديم) في عاصمته «ياس» في تركستان، وكان هو واضع «توره القانون التركي الشعبي الذي ما زال متداولاً بين الأتراك حتى القرن التاسع الميلادي، وكان مصدرًا للقوانين الأخرى التي وضعها الأتراك فيما بعد[١].

ويرى بعض العلماء أن أغوز شخص أسطوري لا وجود له وعلى رأس Sirard de Riall ثيرارد ده ريال أنه عاش في القرن السابع الميلادي، ولكن لا يبقى لنا مجال للشك في وجوده نري أنها قد وصلت إلينا الأشعار التي في وصف خيمته التي نصبتها حين عقد «قورولتاي» (وقد رواها بهادرخان في شجرة الترك)، وكانت زخرفت بالذهب والياقوت والزمرد والفيروز واللؤلؤ وغيرها[٢].

وبهذا ثبتت أيضًا أن المغول والترك هما من نسل المغول، وليس بينهما فرق جنسي وكلاهما من جد واحد وجنس واحد.

ثم خلف أوغوز كون خان، وكان وزيره إيرقيل خان وزيرًا عاقلاً ومدبرًا. ولمشورته قسمت ممالك أوغوز بين أربعة وعشرين من أبنائه، أشهرهم كون خان، أي خان، يولدوز خان، كوك خان، تاغ خان، دنيزخان أو نيكزخان الذي يدعى إيلخان أيضًا.

وبعد كون خان خلفه ابنه دينكيزخان هو جد السلجوقيين (كما كان إيلخان كان جد القاراخانيين أو الإيلخانيين أو الأويغور) الذين حكموا في تركستان الشرقية. ثم نشب حرب بين إيلخان وسيونج خان خان التتار الذي تم بهزيمة المغول (إيلخان). وكان لإيلخان

---

[١] كالياستا لجنجيز وغيره، ص ٤٧.

[٢] بهادرخان، شجرة الترك، ص ٤٥-٤٧.

ابـن يسـمى قيـان خـان ولأخيـه الأصغـر بـن يسـمى توقـوز خـان وهمـا هربهـا بعـد الهزيمـة ومعهمـا عسـكران هاربـان وأربعـة أقسـام مـن الحيوانـات الفيـل والجمـل والبقـر والغنـم، فوصلـوا إلـى قمـة جبل شـامخ منـزو فسـموها أركنـه قـون أي محـل الإقامـة أو صخـرة الجبـل علـى قـول بهادر خان.

فكثـرت أولادهمـا فسـمى قيـان خـان أولاده فيـات سـمى طائفـة مـن أولاده آل توقـوز وطائفـة أخـرى «دورلـكان» ثـم كثـر أحفـاد كل واحـد منهـم، حتـى ضاقـت الأرض بمـا رحبـت فاسـتخرجوا منهـا لطلـب الـرزق والوطـن. ولكـن لـم يجـدوا سـبيلاً للخـروج حتـى لاقـوا عـدادا يسـمى «بـوز قـورت»، وهـم جـاؤوا إلـى جبـل مـن حديـد فأذابوهـا بمسـاعدة الحـدَّاد ففتحـوا لهـم مـزج صـدق مـا يـزال المغـول بذكـرى هـذه اليـوم الأسـطوري ويقيمـون المراسـم، ويدينـون قطعـة مـن الحديـد كرمـز تـذكاري لـه رمـز نجاتهـم مـن غـار «أركنـه قـول» ومنـذ ذلـك صـار الحديد مقدسًا عند الأتراك وغيرهم[١].

وقـد تعاقـب فـي هـذا العهـد الـذي دام أربعـة قـرون سـبعة أنسـال بطـون، وكـان ملكهـم الأول طوبـان قـآن الحـداد، وحينمـا خرجـوا مـن أركنـه قـون كـان ملـك المغـول شـخص يسـمى بورتاجينـه مـن صاحـب قيـان ومـن عشـيرة قورلاسـى، ومعنـاه بـوز قـورت ثـم هـو حـارب بعـد تمكنـه فـي أرض وطنـه الأصلـي مـع أهـل التتـار وهزمهـم وأخـذ منهـم انتقـام أجـداده وذلك بعد القضا ٤٥٠ سنة فسمي أتباعه أنفسهم المغول.

وحكـم مـن أخلاف بورتاجينـه قـور مـارال، وبيجيـن قيـان، وتيمـاج وسـام سـاوجى، وتيمـور داش وميكلـي غوجـا ويولـدوز، وكـان ليولـدوز خـان حفيـد وحفيـدة مـن ابنيـه اسـم الأول دوبـون بايـان واسـم الأخـرى

---

[١] شجرة الترك، ص ٤٩.

هي البنت الأنقو من أحفاد بوز قورت وهي زوجت لدوبون بايان وولدت منه ابنين ثم ماتت في ثلاثين من عمرها. وتسمى الأنقو أرنورمي غوام أيضًا أي الظبية النورانية وأما الأنقوا معناها الظبية الزرقاء، وهي تعرف بأن ولدت ابنا بلا أب كما ولدت مريم عيسى بلا أب بنفخ روح القدس. خلف الأنقو ابنه الثالث بودانجاز موناق، وكان جنكيز المغولي الحفيد الثالث لهذا الولد الأسطوري المقدس[١].

في بلاد قازان وتاتار

الدول البلغارية التركية في بلاد تاتار وقزان

وهذه الدولة التركية قد تأسست قديمًا في الأرجاء التي تعرف اليوم ببلاد التتار والقازان، وترجع تاريخها إلى العهد الأول للميلاد. وقد عاش في هذه الدولة أو المملكة قديمًا أقوام من الترك، وهم البلغار والخزر والباشقرد والميشار والمجار وغيرهم. أخذ محلهم بالنوبة أتراك الهون ثم القبجاق ثم المغول الذين أسسوا هناك دولة «الجيش الذهبي»، وبعد أن تدهورت هذه الدولة أخذت محلها الخانية التتارية أو القازانية.

وقد أصبحت البلغار اسمًا للبلاد، وعاصمتها التي وقعت على ضفة نهر إيديل في زاوية يصب ماهر سير جولخان فيه، وكانت المدينة مركزًا تجاريًّا وثقافيًّا هامًّا، يتوجه إليه التجار من الأكناف تدل على ذلك آثاره التي دمرت إثر غزوات المتواصلة، وانتقلت العاصمة في عهد الخانية التتارية إلى مدينة «قازاق».

وقد توجَّه البلغاريون بعد انقضاء سلطة الهون إلى جهات البحر

---

[١] شجرة الترك، ص ٥١-٥٢.

الأسـود وبحـر الأزرق وهـم سـاروا مـن هنـاك بعـد اتحـدوا مـع قـوم الصقاليـة المسـتوطنة فـي تلـك الأرجـاء علـى البيزنطييـن وهـددوا إسـتانبول ولكـن مـا لبثـوا حتـى اسـتولى عليهـم الأواريـون وكان ذلـك سنة ٩هـ ٦٣٠م ثـم جمـع شـملهم بقيـادة زعيمهـم قـروارت خـان، ولكـن الصـراع الـذي شـب بيـن إخوتهـم سـنة ٦٠هـ ٦٧٩م، عمـل علـى تشـتتهم إلـى الأكنـاف، فهاجـر طائفـة منهـم بقيـادة اسـباروخ بـن قـووارت خـان إلـى بلاد البلغـار اليـوم التـي كانـت تعـرف بميسـا فأَسَّـس اسـباروم هنـاك دولـة مسـتقلة فحكـم علـى طائفـة مـن الصقاليـة الذيـن مـا زالـوا يقطنـون فـي تلـك الـبلاد. فانقسـم الـبلاد بعـد ذلـك إلـى قسـمين البلغاريـا الكبيـرة والبلغاريا الصغيرة.

وكان مؤسـس البلغاريـا الكبيـرة بـات بـاي خـان مـن أبنـاء قـووارت خـان أسسـها بعـد أن هـرب مـن بلاد الخـزر وإلتجـأ إلـى موطنـه الأصلـي في شمال إيديل[١].

وقـد فتـح العـرب الـبلاد مـا بيـن سـنة ١٠٤هـ - ١٠٧هـ - ١١١هـ فـي عهد مسلمة بن عبد الملك[٢].

وكان هـذا عهـد أجبـره فيـه إمبراطـور البيزنطييـن أرمينـوس يهـودي بلاده إلـى قبـول النصرانيـة، ولكنهـم أنكـروا، وفضـل طائفـة منهـم الالتجاء إلـى بلاد الخـزر، وهنـاك أشـاعو المذهـب اليهـودي بيـن أهالـي الخـزر والبلغـار. وكان أهـل الخـزر نصـارى ثـم تهـوَّدوا ثـم طائفـة منهـم والبلغـار قـد قبلـوا الإسلام عنـد فتـح العـرب[٣]. فطلبـوا إلـى بلادهـم الأئمـة والخطباء والمدرسين من المسلمين لتعليمهم أصول الشريعة.

---

[١] تلفيق الأخبار، ص ٣٤٨.
[٢] تلفيق الأخبار، ص ٣٤٨.
[٣] تلفيق الأخبار ص ٣٤٩.

وتوجه أيضًا ابن فضلان سنة ٩٠٢م سفيرًا من عند الخليفة المقتدي بالله، وهو الذي ندين إليه خاصة في معلوماتنا بشأن البلغاريين. وقد سمى العرب البلاد البلغارية الكبرى بعد إسلامها «البلغار السوداء»؛ لأنهم أخذوا بعد الإسلام أن يلبسوا الزي الأسود رمز العباسيين ثم سماهم البلغار البيضاء أو البلغار الداخلية وذلك لما رأوا مثقفين ومتمدنين. وكان من أشهر ملوكهم بيان خان الذي عمرت البلاد في عهده، خلفه ابنه قرامات خان، وكان له ثلاثة أبناء خضع ابنه الأكبر ابات ناي خان لخان الخزر، واستوطن ابنه الثاني قاتراغ خان في ضفة نهر دون. وأما ابنه الثالث اسباروخ خان فتح بلاد الصقالية وطونة وميسيا وتأسس فيها بلغارية صغرى. ثم نرى طائفة منهم يهاجرون إلى بلاط طرسوس وأنطاكية في آسية الصغرى. ولا يزال أحفادهم يعيشون هنان. وقد سمي جبل من جبال البلاد باسمهم[١].

وقد غادر البلغاريون سنة ٤٧٥هـ موطنهم الأصلي إلى الجنوب ووصلوا إلى ضفة نهر آزاق والبحر الأسود. وهم حاربوا الروس عدة مرات وذلك سنة ٤٨١ و٥٥٩ و٥٦٧هـ قابلهم في كل مرة مقابلة شديدة واستطاعوا حفظ استقلالهم، ثم استطاع الروس متأخرا في سنة ٦٢٠هـ على القضاء لدولتهم، ولم يلبث حتى أغار بلادهم جيش المغول العرمرم بقيادة سوبوتا قائد باتوخان حفيد جينكيزخان ثم إخضاع البلاد إخضاعًا كليا بيد منكو تمر خان الذي أغارها بنفسه.

ثم في ٧٦١هـ أعاد الروس غزو البلاد بقيادة الدوق ديمتري، وفي ٧٧٨هـ أغار ديمتري مرة أخرى، أجبره فيها الملك حسن خان وأخاه محمود خان إلى الصلح والخضوع وإتاواة تقدر ٥٠٠ آقجه. حررت

---

[١] تلفيق الأخبار. ص ٣٤٩-٣٥٠.

البلاد بمساعدة من توقتامين خان، ثم أغار الروس البلاد سنة ٧٩٣هـ و ٨٣٥هـ. وكان هذا هو العهد الذي قضي أبناء جنكيزخان على البلغارية الكبرى وقام مقامها الدولة الذهبية التي تدهورت في سنة ١٤٨٠م، ثم قامت على أنقاضها عدة خانيات صغيرة وكانت أهمهم خانية قزان التتارية وإسترخان والقرم. قضى إيوان الرابع على دولة القزان سنة ١٥٥٢م ودولة إسترخان سنة ١٥٥٤م[١].

وقد حكم عشرون من ملوك البلغار وهم:

توقي خان، ايدرخان، زبير خان، سلكي خان، ألماس خان، (جعفر خان) أحمد خان، طالب خان، مؤمن خان، شمعون الله خان، حيدر خان، محمد خان، سعيد خان، باراج خان، إبراهيم خان، سليم خان، إلهام خان، بولاد تمور خان، عبداه خان، حسن خان، عبداه خان.

الإسلام في البلغار

وكان ألماس خان أول من أسلم من ملوك البلغار سمى نفسه بعد إسلامه جعفر وأباه عبداه. وفي عهد جعفر توجهت إلى البلغار طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء والمهندسين من بغداد، وهو أغار عدة مرات إلى إستانبول ونواحيه كما جعل زبير خان قبله. وقد حج بيت الله أحمد خان الخان السابع منهم في عهد الخليفة المقتدي بالله وذلك عن طريق بغداد.

ضرب طالب خان السكة باسمه في مدينة البلغار، كما أنشأ إبراهيم خان حصنا باسم قلعة إبراهيم. وكان سليم خان معاصرًا

[١] تلفيق الأخبار، ص ٣٥٢.

للخليفة العباسي الناصر لدين الله ومواليًا له، وهو ضرب سكة باسمه. وفي عهد إلهام خان أغار الجيش المغولي بلاده[١].

الثقافة الإسلامية

وكانت البلغارية الكبرى قد ازدهرت بنشاط علمي وحضاري كبير، نبغ فيها علماء كثيرون منهم: آناخريست التتاري، الذي جمع قوانين بلاد التتار ووضع كتابًا جيِّدًا في فن الحرب. والقاضي أبو العلاء حامد بن إدريس البلغاري، وعلم الدين سنجر الباشقردي، والقطب الكبير الخواجه صلاح الدين بن عمر البلغاري، والإمام الخواجه أحمد البرغوي الذي كان من أساتيذ السطان محمود الغزنوي، والشيخ سليمان بن داود القسيني، والشيخ برهان الدين إبراهيم بن حضر البلغاري، والشيخ أبو محمد صدر الدين بن علاء الدين البلغاري، والشيخ محمد البلغاري وغيرهم[٢].

حضارة البلغار قبل الإسلام وبعده

وكانت مدينة «البلغار» مدينة مزدهرة من ناحية الحضارة والثقافة وعاصمة بلاد وحكومية بهذا الاسم. ويقول الأستاذ تورنه ده للى: أن مدينة البلغار قد ازدهرت في وقتها إلى درجة أنها كانت تنافس مدينة قرطاجة. أخذت قصة بطولة البلغاريين في أساطير الروس مقامًا مرموقًا. وقد عرفت فيها مدينة البلغار باسم «مشهور شهر» (المدين المشهورة)، وفي أساطير الإغريق باسم «أبولو شهر» (المدينة الكبرى). وقد أعجب العرب حضارتها وازدهارها لما جاؤوا هناك، وقد زارها ابن فضلان في عهد الخليفة المقتدر بالله

[١] تلفيق الأخبار، ص٣٥٣.
[٢] تلفيق الأخبار، ص ٣٥٣.

(٩٠٢ -٩٣٢م)، ثم زكريا بن محمد القزويني المتوفي سنة ١٢٨٣م الذي يشرح أبتها وازدهار تجارتها. وقال ابن حوقل أن مدينة البلغار لا نظير لأبهتها، ذكرها أبو عبد الله ياقوت الحموي (١١٨٤-١٢٢٩م) بأن النهار فيها أربع ساعات والليل عشرون ساعة وأن بردها شديد. كما زارها سنة ١٣٢٤م ابن بطوطة أيضًا. وعرفها أيضًا أبو الفداء (١٢٧٣-١٣٣١) (ص ٣٥٦). وقد بقيت من العهد الإسلامي في تلك المدينة آثار عمرانية زاهرة. ومنها (راولو منارة) أو توكاره ك منارة، وجامعة كبيرة بني الروس على أنقاضها متأخرًا الكنيسة[١].

ثم في عهد أزبك خان عمرت المدينة من جديد، وهو بنى فيها عدة مكاتب ومساجد والأبنية الأخرى، ولم يلبث بتلك حتى دمرها خضر خان الخيوه لما استولى عليها سنة ١٣٥٠م. أعقبها غزوات ماماي خان وتيمور بولاد من خانات الجيش الذهبي، ثم الروس في النهاية[٢].

البلغاريا الصغرى

وأما البلغاريا الصغرى تشكل هي بلغاريا اليوم. ولو أن شعبها من جنس تركي، ولكنهم تنصروا بتنصر خانها باغارخان سنة ١٨٤هـ الذي يسمى بعد تنصره ميخائيل، فتصبغت البلاد رويدا رويدا بصبغة نصرانية وأخذت لغة الصقالية لغتهم وبذلك فقدت جنسيتهم التركية.

ويقال أول من تنصر من ملوك البلغاريا الصغرى ملك يسمى بيسمون بن بوريس (ووغوريس) وذلك سنة ٢٦٥هـ (٨٨٨م) وهو الذي سمى نفسه ميخائيل بعد التنصر[٣].

---

[١] تلفيق الأخبار، ص ٣٥٨.

[٢] (تلفيق الأخبار، ص ٣٦١-٣٦٢.

[٣] تلفيق الأخبار، ص ٣٦٤.

وأخيرًا في سنة ١٧٨٨م سمحت كاترينا الثانية بموجب قانون يشمل ٢٧ مادة لمسلمي روسيا لتشكيل نظارة دينية في أورونبورغ يرأسها المفتي وثلاثة من القضاة ومحكمة شرعية الذين ينتخبونهم الحكومة الروسية أو يكونون ممن يتحيزونها ويصيرو آلة لها. وكانوا ينتخبون من أهل التتار. كما أجازت تشكيل محكمة شرعية في باغجه ساراي ومحكمتين في تفليس أحديهما لأهل السنة وأخريها لأهل الشيعة.

وكانت المحكمة الشرعية في أورونبورغ أهمها وأكبرها، يرجع إليها مسلمو آسيا الوسطى حتى من تنغري تاغ وآلتاي. ولكن حكومة الروس حددت سلطاتها لما رأت من أهميتها واستفحال شأنها. كما أخذت تنتخب إليها الجهلاء من الناس كمفت وقضاة ليكونوا لها عملاء، ثم انتقلت المحكمة من أرونبو إلى أوفا.

وكان من وظائف المحكمة الإفتاء وتعيين الأئمة والمؤذنين والتصدي لشئون الزواج والنكاح والميراث وغيرها من الأمور الشرعية.

ثم في سنة ١٩٠٥ إثر الثورة الروسية نهض المسلمون من جديد فعقدوا مؤتمرًا عامًّا في مدينة «نيه ثني نوغورد» أعقبه مؤتمر آخر في مكنوف إبان الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م ساهم فيه ١٩٥٠من الوكلاء، أخذت فيه القرارات المهمة وانتخب القضاة والمفتي، وكان إحدى القضاة سيدة تسمى مخلصة خانم كما شكل فيه مجلس الشورى الشعبي من عشرة أعضاء فيه من مندوبي المسلمين من أقطار مختلفة.

وما يلي كان أهم القرارات التي أخذت في هذا المؤتمر:

١ – لما أن الحرب من أعمال المستعمرين فلذك لروسيا أن تعقد الصلح بتخلي الأراضى.

٢ – أن يعترف لحقوق المسلمين الديمقراطية وأن يشكل لهم وللأقليات المسلمة جمهوريات شعبية بحكم ذاتي.

٣ – أن يترك الشئون الثقافية وشئون المعارف لنفس كل شعب.

٤ – أن يحدث المحاكم على درجة ثانية باسم محاكم الاحتساب وأن يراقب المسلمون أنفسهم على المكاتب والأوقاف، ولأهل القضاة اختيار في أن يلحقوا محكمة الشرعية ثانيا أولا.

٥ – الرجال والنساء مساوون عند الشريعة، وللنساء حق مزاولة الشئون السياسية والاجتماعية والشريعة لا تلزم لهن الحجاب، ولنساء كل شعب نفس الحقوق التي للرجال. ولهن حق أن تنخبن وتنتخبن ويلزم للرجل والمرءة أن يحضر ذاتيا في موقع النكاح، وللنساء حق الطلاق. لا يسمح للبنات أن يزوجن دون ١٦ سنة من العمر. وللمرأة حق أن تشرط لزوجها أن لايتزج بدون رضاها، والفحش ممنوع.

٦ – أن توزع الأراضي التي تملكها الكنائس بين الشعب.

٧ – أن يتعلق شئون المعارف للعمال المسلمين لمنظمات المسلمين أنفسهم.

٨ – وفي الأقطار التي يعيش المسلمون بالأكثرية لهم أن يتحدوا بالحزب الديمقراطي والاشتراكي وأن يعارضوا الحزب الشعبي الروسي وجماعة زار.

٩ – أن تحدث وحدات عسكرة من المسلمين وأن يكون قوادهم منهم.

١٠- أن يقام مجلس الشوري الشعبي عدد أعضائها ٣٤ ينتخبون من بين مندوبي مسلمي كل قطر، وله مجلس تنفيذي تشكل من ١٢ عضوا، ثم أن يعقد المجلس العام (قورولتاي الشعبى) (مجلس النواب). (ألغى الشيوعيون هذا المجلس بعد ثلاثة أشهر).

ثم انعقدت ثلاثة مؤتمرات بحثت فيها شئون المسلمين العسكرية والإدارية والدينية والاجتماعية والسياسية ومنظماتهم. وأخذت قرارات بخصوص تعليم الأطفال الدروس الدينية والتاريخ والأدب الشعبي، وجمع شمل العلماء في روسيا، والمنظمات الملحية للمسلمين، والأعياد الدينية وغيرها. وطالبوا فيها أن يعطي لأتراك روسيا حقوقهم المدنية والوطنية، وأن يشكل لهم حكومات شعبية بحكم ذاتي، وقرر أيضًا أن يحدث لهذا الغرض ثلاثة نظارات عالية باسم النظارة الدينية ونظارة المعارف والمالية، وأن ينفذ ضريبة خاصة على المسلمين لتأمين نفقاتها.

ثم عقد المسلمون التتار مؤتمرًا ثالثًا وآخيرًا في أوفا أحدث فيه مجلس نواب شعبي سموها المجلس الملي للترك والتتار في داخل روسيا وسيبريا، وضع فيها قوانين أساسية للجمهوريات المحلية بالحكم الذاتي التي مازالوا يأملون تأسيسها. ولو أن الشيوعيين اعترفوها أول وهلة، وأعلن جمهورية إيديل أورال فعلا سنة ١٩١٨م، ولكنهم ألغوها بعد قليل كما ألغوا المجلس الشعبي ونظارة المعارف والنظارة المالية، وأقام محلها جمهوية التتار لم توجد إلا باسم وذلك لمدة يسيرة. بقي المسلمون في إبان هذه النهضة موالين للخلافة المركزية كما صرح في قرارا أخذ بهذا الشأن. وكانوا يرمون من هذه النهضة أن يربوا شبان المسلمين في آسيا الوسطى وقازاخستان وسيبريا بروح إسلامية تركية يتغذى منهم جسارة والجدة وروح

الكفاح والقوة لأجل دفاع الوطن التركي الإسلامي وحفظ كيانهم[١].

وقال شاعر تتارى:

يا شعب جنكيز الجسور
إنا جئنا من أقطار شاسعة إلى بلاد أجنبية
وما زلنا صادقين للقرآن والسنة
وكنا جئنا قبل سبعمائة سنة بجيش عظيم
وأخضعنا بلاد الروس وحكمنا عليهم،
ياللأسف كيف قضي ذلك العهد الذهبى
تركنا نحمل على أكتافنا حمولة ثقيلة أو حمولة الذلة.
لماذا لا توجد الآن بلاد التتار
لعل الله يبعث لنا جنكيزا آخر ينهضنا على الروس ويعيد بلادنا
ندعو الله أن يعلى كلمته هي العليا ويرفع شأن بلادنا بلاد الرسول
ويعيد كياننا الأول نأخذ إذ ذاك الهلال يترفرف عاليا
ويتجلى باهرًا «الله أكبر»، والقوة للتتار[٢]

وقد أعطى الإيرانيون القدماء اسم التوران لبلاد التركستان، يعنون بها ما وراء النهر والتركستان وبلاد كاشغر[٣].

وتنتمي الأكراد على قول رضا نور المؤرخ التركي إلى جنس تركي توراني، امتزج فيه نسل عجمي، ويدل على ذلك أن لغاتهم تشكل من اللغات التركية القديمة، وأن كثيرا من عاداتهم يشبه عادات الترك القديمة حتى توحد طوائف تركية خالصة كدرسملي وزازا

[١] رضا نور، ص ٢١٢-٢١٥.
[٢] رضا نور، ص ٢٢٦.
[٣] رضا نور، ص ٢٢٦.

وغيرها. وينتمي سلطان جلال الدين الخوارزمي إلى قبيلة زازا هذه. كما أن رؤساء العشائر الكردية وبكوات كثير منها أتراك.

وأما الآن تشكل الأكراد من طوائف ثلاثة:

١- الطائفة الذين حفظوا لغتهم التركية حتى الآن.

٢- هم الذين نسوا لغتهم ولكن حفظوا قوميتهم.

٣- وهم الذين قد نسوا من لغتهم وقوميتهم.

وتنتمي الجراكس على حسب شهادة مؤرخي الغرب، وأيضًا القلقشندي من مؤرخي العرب إلى جنس توراني. وكان موطنهم الأصلي حوالي غدير بايقال تركوها منذ قديم. تعيش الآن بقية باقية منهم في تلك الحوالي. وكان جراكس القدماء يستعملون التقويم التركي القديم، وكان عاداتهم وأسماءهم وأسماء كثير من قبائلهم تركية بحتة، ثم تغيرت على مر الزمان بسبب هجرتهم واختلاطهم على أقوام أخرى[١].

ثم جماعة من الهون قد استوطنوا في جبال بيرنة، وكان ذلك بعد انهيار سلطة آتيلا في بلاد أوربا. وجاء في قاموس لاروس الفرنسي أن طائفة من نسل توراني تسمي «باسك» يعيشون الآن في تلك الجبال[٢].

استولى آتيلا سنة ٤٠٠ أو ٤٣٠ م بلاد أوربا، فتغلغل جيوشه حتى وصلوا إلى أبواب باريس، ومنها إلى بلاد سكنديناويا والراين والجرمان وداكية وغوليه، وهم وصلوا في الجنوب إلى تريت وأكره

[١] رضا نور، ص ٦٧-٦٨.
[٢] رضا نور ص ٩٥.

البيزنطيين لإعطاء الجزية[١].

ثـم تغلغـل مـن جانـب الشـرق طائفـة أخـرى مـن الأتـراك إلـى بلاد أوربـا، وكان ذلـك بعـد أن خرجـوا طائفـة تركيـة الجنـس سـماهم البيزنطيـون إفتاليـت، وهـم هربـوا فـي وجـه الطائفـة الأولى بقيـادة زعيمهم وارخـان وخوتـي خـان. أخـذ البيزنطيـون مـن اسـميهما وارخونيـت وأطلقوهـا إلـى طائفـة الأويغـور وغيرهـم مـن طوائـف الأتـراك الذيـن سـاروا بجيوشـهم إلـى بلاد أوربـا، ووصلـوا إلـى تريـت فأسسـوا إمبراطوريـة كبيـرة بعـد أن اسـتولوا علـى كل الـبلاد الواقعـة فـي ضفـاف نهـر رولا وتاكدونيـا وتراكيـا، وثـم سـماهم الأوربيـون بـ «الأوار» أو «ألوار» يعينون به «السمو والرفعة».

وهـم أغـاروا فـي عهـد جوسـتينه ن علـى البيزنطيـة حتـى وصلـوا إلـى قسطنطينية[٢].

وقـد عثـرت فـي آلماليـق وكاشـغر علـى عـدة كنائـس وضرائـح نصرانية كتبت على جدرانها هذه العناوين:

«البابـا جـورج فـي آلماليـق» «الكاهنـة قوتلـو» و»الكاهنـة تـه ريـم» بنـت زائـري الكنيسـة الربانيـة «الطريـق سـاندايوق بـن تكيـن» «الحريـم الشـابة» وغيرها[٣].

وأمـا إصـطلاح تـوران إصطلاح وسـيع يشـمل فيـه بلاد أوردو والخيتاي والقراخطـاي، والأويغـور (تركسـتان الشـرقية) والمغـول والمانشـو، وسـيبريا، وآلتـاي، والياقـوت، والأسـكمو وسـاموئا والتركسـتان وبخـارى والتركمـن والخـوارزم والخيـوه وخراسـان وطبرسـتان والأناضـول

---

[١] رضا نور ص ٩٥.
[٢] رضا نور ص ٩٦.
[٣] رضا نور ص ١٥٣.

(بشمول إسكندرون وأنطاكية وحلب وبين النهرين وتراكيا الشرقية (روم إيلي).

وبلاد التتار (بشمول القازان والقرم وفنلانديا، والمجر والبلغار، وهم انتشروا من وطنهم الأصلي في آلتاي ونواحي أسِّيق كول ويتي سو) إلى أكناف العالم، حتى وصلوا في الشرق إلى بحر الصين

وفي الغرب إلى البلقان وإلى باب ويانا وفي الجنوبي إلى أعماق بلاد الهند[١]. وتشكل بلاد التوران أو الترك من أقسام ثلاثة وهي آسيا الشرقية تشمل فيها تركستان الشرقية وبلاد المغول والياقوت وغيرهم في سيبريا والشرق الأقصى، وآسيا الوسطى (جمهورية) أزبكستان وقازاخستان والقيرغيز والتاجك والتركمن وآذربيجان وتركستان أفغانستان، وآسيا الصغرى تركيا الحديثة[٢].

---

[١] رضا نور، ص ٣٣.

[٢] (ص ٢٥) اقتبست بالتصرف (Mohd Bushra).

المصادر والمراجع

- ❊ آغا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

- ❊ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (القاهرة: ١٩٧٢م)، ١/ ٧٣.

- ❊ ابن الأثير الجزري علي بن مُحمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤).

- ❊ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي).

- ❊ ابن الأثير، علي بن مُحمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيَّة في الموصل. (مصر: دار الكُتُب الحديثة. ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

- ❊ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط. ١. (بيروت: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م)

- ❊ ابن الشعار الموصلي، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، ط.١. (دمشق، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥).

- ❊ ابن الطقطقي. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ط .١. (بيروت: دار صادر).

- ❊ ابن العسال، فضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، تحقيق: محمد كمال الدين، ط.١. (سوريا: دار سعد الدين، ٢٠١٧).

* ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط. ١. (دمشق: دار ابن كثير، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م).

* ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي ط. ١، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩).

* ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت: ١٩٤٢).

* ابن الفوارس، أخبار الدولة السلجوقية، طبعة محمد إقبال (باكستان: لاهور).

* ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن مُحمَّد التميمي، تاريخ دمشق، (دمشق: دار حسَّان للطباعة والنشر).

* ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: د. مصطفى جواد، (بغداد: المؤسسة العامة للصحافة والطباعة مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠).

* ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبه، ط. ٢. (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)

* ابن إياس، بدائع الزُهُور في وقائع الدُهُور. تحقيق: محمد مصطفى، ط. ٢. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤).

* ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

* ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: دكتور محمد محمد أمين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦).

* ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،

(مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب).

* ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، لسان الميزان، المحقق: دائرة المعرف النظامية الهند، ط. ٢. (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م).

* ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥).

* ابن حجر: شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن بن محمد بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ط.٢. (الهند: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٩٢ هـ).

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطّنجي، ط.١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م)

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، مقدمة ابن خلدون.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس.

* ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، المحقق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط.١. (مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م).

* ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر، صلاح الدين، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، ط.١. (بيروت: دار صادر بيروت، ١٩٧٣ - ١٩٧٤).

* ابن طولون، محمد بن علي بن طولون الصالحي، شمس الدين، الفلك المشهود في أحوال بن طولون.

* ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. ١، (بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٢).

* ابن عبد ربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي، العقد الفريد، ط.١. (دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٤ هـ).

* ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد، عجائب المقدور في أخبار تيمور، (كلكتا سنة ١٨١٧).

* ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).

* ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط.١. (المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣ هـ).

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، البداية والنهاية، (بيروت: دار الفكر - بيروت البداية والنهاية).

* ابن كثير، المختصر في أخبار البشر، (القاهرة: المطبعة الحسينية).

* أبو الغازي بهادرخان، شجرة الترك.

* أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر).

* أبو الفضل، فيض الله بن مبارك العلامي، الأكبر آبادي، أكبر نامه، أكبر نامه = تاريخ گوركانيان هند.

* أبو المنصور الماتريدي، التوحيد، تحقيق: الأستاذ الدكتور بكر طوبال أوغلي، والأستاذ المساعد الدكتور محمد آروشي، (بيروت: دار صادر، ومكتبة الإرشاد استانبول).

* أبو بكر الحسني، الشيخ نظام الدين ومكانته في المجتمع الهندي،

مجلة البعث الإسلامي، ١٣٩٤هـ.

* أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواواري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، (القاهرة: طبعة ١٩٦٠).

* أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط.١. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

* أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣).

* أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (مصر: مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر

* أبي زكريا الأزدي، تاريخ الموصل، (القاهرة: طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧).

* أبي نصر منصور العراقي. الإشارة بلطيف العبارة. تحقيق: أحمد بن عبد الله الفريح. جامعة أم القرى.

* أحمد الطنطاوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النُّحاة. ط.٢. (القاهرة: دار المعارف ١٩٩٥).

* أحمد أمين، ظهر الإسلام، (بيروت: دار الكتب العربي).

* أحمد بن إبراهيم الجرجاني، معجم أسامي أبي بكر الإسماعيلي. تحقيق: زياد محمد منصور. (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٠).

* أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المحقق: الدكتور نزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة).

* أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المحقق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧).

* أحمـد بـن يحيـى العمـري، مسـالك الأبصـار فـي ممالـك الأمصـار، ط. ١. (أبو ظبي: المجمع الثقافي).

* أحمد رمزى، صوت التركستان. العدد الأول. ١٩٥٢م.

* أحمد شفيق باشا، حوليات مصر اليابسة، (القاهرة: ١٩٢٧).

* أحمـد محمـود السـاداتي، تاريـخ المُسـلمين فـي شـبه القـارَّة الهنديَّـة وحضارتهـم: الدولـة المغوليَّـة، (القاهـرة: مكتبـة الآداب للنشـر والتوزيـع، ١٩٥٩).

* إدوارد، تاريـخ الأدب فـي إيـران مـن السـعدي إلـى الفردوسـي، ترجمـة: إبراهيم أمين الشواربي (١٩٥٤ م).

* اسـفزاري، معيـن الديـن محمـد، روضـات الجنـات فـي اوصـاف مدينـه هرات، تحقيق: : محمد كاظم إمام، (طهران، [illegible]– [illegible]).

* إسكندر بيك تركمان، تاريخ عالم أراي عباسي. (طهران: ١٩٩٨).

* الأصبهانـي، عمـاد الديـن، خريـدة القصـر وجريـدة العصـر في فضـل أهـل خراسان، (مصر: ١٩٥١م).

* الأفلاكـي، شـمس الديـن أحمـد، مناقـب العارفيـن، تحقيـق: تحسـين يازيجي، أنقرة، [illegible]٦[illegible]م).

* اقبـال الآشـتياني، عبـاس. تاريـخ مغـول (الثانيـة). (موسسـه انتشـارات نـگاه. ١٣٨٩).

* إليـاس الأيوبـي، تاريـخ مصـر فـي عهـد الخديـو إسـماعيل باشـا الكبيـر، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٣).

* إلياس الأيوبي، محمد علي سيرته وأعماله، (القاهرة: ١٩٢٣).

* إليـاس مليحـة، موسـوعة علمـاء الطـب مـع اعتنـاء خـاص بالأطبـاء العـرب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١).

* الأمير شكيب أرسلان، تعليقات على ابن خلدون.

* أمين أحمد الرازي، هفت إقليم.

* انتظام الله شهابي أكبر آبادي وزين العابدين سجاد، تاريخ ملت.
* إنسيكلوبيديا الإسلامية، مادة: أذربيجان.
* اير تورك، ملي تركستان. عدد ٧٦و٧٧.
* بارتولد، الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط.١ . (القاهرة: ٢٠١٣م).
* بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، (القاهرة: مكتبة الآنجلو ١٩٥٨).
* بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، (الكويت، ١٩٨١).
* بارتولد، دائرة معارف الإسلامية، مادة: تركستان.
* بدايوني، عبد القادر، منتخب التواريخ، تصحيح مولوي أحمد علي صاحب، (إيران: ١٣٨٠).
* براون برسي، فن الرسم الهندي في عهد المغول، الموسم، مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار، دائرة المعارف الهندية، العددان ٧٣ ـ ٧٤.
* بروكلمان، تاريخ الأدب العربي.
* بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، (١٩٤٨).
* البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، ط. ١. (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢).
* البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، تحقيق: بشار عواد معروف، ط.١ . (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢).
* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، فتوح البلدان، (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨٨ م).
* البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، (١٩٣٩).
* البهنسي، عفيف، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين. ط. ١ .

(بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥).

* البيهقي. مناقب الإمام الشافعي، تحقيق: محمد خليل إبراهيم. (بيروت: دار الكتب العلمية).

* تاريخ فخر الدين،

* تاريخ قطب شاهي لمؤلف مجهول، توجد نسخة غير المطبوعة في كتبخانة أصفية في حيدرآباد.

* تذكرة الملوك لمظفر خافي خان نسخته غير المطبوعة في كتبخانة أصفية.

* ترجمة جلال الدين فيروز.

* تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي).

* توينبى، الحضارة في التاريخ، ترجمة: أحمد عصام الدين، (القاهرة: مطابع الدار القومية، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

* الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المحقق: د. مفيد محمد قميحة، ط.١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م).

* جادوناث ساركار، تاريخ اورنك زيب، (١٩٢٤).

* جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، (بيروت: مكتبة دار الحياة).

* جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، (بيروت: مكتبة دار الحياة).

* جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي (القاهرة ١٣٠٦هـ).

* جمال الدين الأفغاني بين دارسيه، الدكتور علي شلش، (دار الشروق، القاهرة ١٩٨٧).

* جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦).

* جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، (القاهرة: ١٩٥٢م).

* جمال الدين الشيال. تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلاميَّة في الهند، ط. ١. (القاهرة: ٢٠٠١).

* جمال القرشى، الصراح، (المخطوط) ص ١.

* جنكيزخان عبد العزيز، تركستان قلب آسيا، (القاهرة: ١٩٤٥).

* جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ط.٣. (بيروت: دار الطليعة).

* الجوزجاني، منهاج الدين عثمان بن سراج الدين طبقات ناصري، (كابل: مطبعة كابول، ١٣٤٢).

* حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، المحقق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، (تركيا: مكتبة إريسكا، ٢٠١١).

* حاجي خليفة، كشف الظنون، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي).

* حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول غزو جنكير خان للعالم الإسلامي، (دار الفكر العربي).

* حتي، فيليب، تاريخ العرب، (دار الكشاف للنشر والطباعة، ١٩٤٩).

* حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي، (القاهرة: مكتبة النهضة).

* حسن أحمد محمود، الإسلام في اسيا الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

* حسن علي، دراسات في تاريخ المغرب العربي، (مكتبة الشباب -١٩٧٩).

* الحسني، عبد الحي نزهه الخواطر وبهجه المسامع والنواظر الاعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام، ١ / ١١٧.

* حكيم سيد شمس الله قاري، مآثر قطب شاهي.

* الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر).

❋ حيدر بامات، كيف أسهم المسلمون في الحضارة الإنسانية، مجلة المسلمون العددان السابع والثامن ١٩٦٢.

❋ خافي خان، محمد هاشم خان، منتخب اللباب، (كلكته: ١٩٢٥).

❋ خليل بن أحمد الرحبي الشاذلي، تاريخ محمد على باشا، كتبت سنة ١٢٩٢ نسخة غير مطبوعة.

❋ خواجه غلام حسين جوه ديخان زمان خان، كلزا أصفية، (طبعة دكن ١٣٠٨هـ).

❋ دائرة المعار الإسلامية، مادة: بيبرس. وحتي، ص ٦٧٥-٦٧٦.

❋ دائرة المعارف الإسلامية.

❋ الدنيوري، أبو حنيفة، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، ط.١. (الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر، ١٩٦٠ م).

❋ ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات ايران، جاب سيزهم، تهران، ١٣٧٢هـ.

❋ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز ، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، (طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية).

❋ الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة، بإشراف: شعيب الأرناؤوط، ط.٣. (مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ).

❋ رحيم دادخان مولائي شيدائي، جنة السند، (١٩٥٨).

❋ رضا زاده شفق، تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة: محمد موسى هنداوي، (دار الفكر العربي).

❋ رفيع الدين الشيرازي: تذكرة الملوك نسخته غير المطبوعة أصفية.

❋ روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، روضة الصفا.

❋ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي.

(بيروت: دار الرائد العربي)، ص. ٣٤٩.

* زكي محمد حسن، التصوير في الإسلام عند الفرس، (القاهرة: ١٩٣٦).

* زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. (مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧).

* زكي وليد طوغان: تورك إيلي تاريخي.

* زيادة محمد مصطفى، بعض ملاحظات جديدة في تاريخ المماليك في مصر، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الرابع، سنة ١٩٣٨.

* ساران لال، تاريخ الخلجيين، (١٩٥٠).

* الساعدي، أحمد بن عبد الله بن أبي الخير، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (دار البشائر).

* السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى. (دار إحياء الكتب العلمية).

* ستانلي لين بول، الهند الوسطي تحت الحكم المحمدي (٧١٢-١٧٦٤)، (١٩٠٣).

* السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط.٦. (دار الجيل)، ٦/ ٢٠١.

* السعدون، خالد. مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي من أقدم حضاراته حتى سنة ١٩٧١. (جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٢).

* سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد البدوي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦).

* السمرقندي، محمد بن برهان الدين، سلسلة العارفين، تحقيق: إحسان الله.

* سيد أحمد خان، آثار الصناديد.

* سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، (القاهرة:

مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٨).

* سيد صباح الدين عبد الرحمن، بزم تيمورية، (الهند: مطبعة معارف، ١٩٤٨).

* سيد صباح الدين، هندستان كي عهد وسطي كي إيك جهلك، (الهند: أكاديمية شبلي النعماني).

* السيد عزمي أفندي، البهجة العباسية في تاريخ مصر والأمة العربية، (القاهرة: طبعة بولاق سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٦م).

* سيد معين الحق: السلطنة الدهلية.

* سيد مير محمد بن سيد جلال تتوي، ترخان نامه (تاريخ سند در زمان ترخان وآرغون).

* سيد مير محمد تتوي، ترخان نامه، اهتمام، سيد حسام الدين راشدي، (حيدر آباد: ١٩٦٥).

* السيد مير محمد معصوم شاه بن صفايي الترمذي الحسيني البكهري المعروف بـ نظام الدين النامي، تاريخ معصومي.

* السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ط ١. (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م) ص ٣٠٠.

* السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.١. (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧).

* شرف الدين علي يزدي، ظفرنامه.

* شمس الدين محمد بن طولون، الأئمة اثنا عشر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (بيروت: دار صادر، ١٩٥٨).

* الشيخ محمد بيرم التونسى، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأخطار، تحقيق: مأمون بن محي الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥).

* الصحاري، أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي،

الأنساب.

* صديقي حسن خان، ابجد العلوم.

* صديقي، تاريخ كولكنده.

* الصفدي، صلاح الدين آيبك، نكت الهميان في نكت العميان، (مصر: المطبعة الجمالية -١٩١١).

* صلاح الدين الصفدي، الْوافِي بالْوَفَيَات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي فرحان المصطفى، ط. ١، (دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠).

* صوت التركستان العدد الثالث: ١٩٥٣.

* الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، (القاهرة: شركة أمل، القاهرة عام النشر: ١٤٢٥ هـ)

* الطباطائي، غلام حسن خان، سير المتأخرين.

* الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط. الثانية. (بيروت: دار التراث).

* طقُّوش، مُحمَّد سُهيل، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصُغرى، ط.١. (بيروت – لُبنان: دار النفائس، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م).

* ظهير الدين محمد بابر، بابر نامه. (باللغة الأوردية).

* عادل نويهض، معجم المفسرين، تقديم: الشَّيْخ حسن خالد، ط.٣. (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م).

* عام النشر: ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م).

* عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ط.٣. (دار المعارف -١٩٩٤).

* عبد الجبار خان محبوب الوطن حيدر آباد (١٣١١هـ أردو).

* عبد الحميد لاهورى، بادشاه نامه، ١ / ٣٤٢.

* عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (مصر، ١٩٣٨).

* عبد الرحمن اليافعي، تاريخ الحركة القومية، (القاهرة: ١٩٢٩).

* عبد الرحمن اليافعي، عصر إسماعيل، (القاهرة: دار المعارف).

* عبد الرحمن بن عبد الرسول بن قاسم الچشتي الدهلوي، مرأة الأسرار.

* عبد الرزاق الحسيني خوافي معروف به صمصام الدوله شهنواز خان، مآثر رحمتى، (كلكوتا-١٨٨٨).

* عبد السلام الترمانيني، أحداث التاريخ الإسلامي. (دار طلاس، دمشق).

* عبد العزيز الأزهري، ورفاقه، فؤاد الأول، (القاهرة: ١٩٣٧م).

* عبد الكريم الأسعد، الوسيط في تاريخ النحو العربي، ط.١. (الرياض: دار الشروق للنشر والتوزيع).

* عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط.١. (دار الفكر العربي -١٩٤٧).

* عبد اللطيف محمد العبد، تحقيقه لكتاب، أخلاق الطبيب للرازاي، (مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٧).

* عبد المجيد سالك، مسلم ثقافت هندوستان، (لاهور: ١٩٥٦).

* عبد المجيد صديقى: تاريخ كولكنده، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ (١٩٣٩) النسخة الإنجليزية ص ٣٦٩-٣٧٠ (١٩٥٦).

* عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند.

* عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، (القاهرة: دار التراث).

* عبد الوهاب عزام، مجلة المقتطف.

* عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي (يبحث عن تاريخ مصر ١٦٨٩م إلى ١٨٢١م) صدرت طبعته باللغات العربية والفرنسية والتركية.

* العجم، رفيق، كشاف اصطلاحات الفنون. (بيروت: مكتبة لبنان).

* عفيف عبد الرحمن، معجم الشعراء العباسيين، ط. ١. (بيروت، لبنان: دار صادر، ٢٠٠٠).

* علامي، أبو الفضل فهامي بن مبارك ناگواري، آئين اكبري، تحقيق: هـ. بلخمن، جزءان في مجلدين، الجمعية الآسيوية ببنگاله، صحافة البعثة البابوية، ط. ١. (هند: كلكتا، ١٨٦٧م ١٨٧٧م).

* علي الصلابي، دولة السلاجقة، ط ١. (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٧).

* على بن طيفور بستامى: حديقة السلاطين غير مطبوعة وجدت نسخة في كتبخانة «سالار جنك» حيدر آباد.

* علي بن عزيز بن طبطبا، برهان المآثر، (دهلي: مطبعة جامعة دهلي، ١٩٣٦).

* علي جواهر كلام، تاريخ مصر وخاندان محمد على بزرك على جواهر كلام، (تهران).

* علي شير نوايى: محاكمة اللغتين، (إستانبول ١٣١٥هـ).

* علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، تقديم: عزة رفعت، (مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠١).

* عليان جالودي، التحولات الفكرية في العالم الاسلامي: أعلام، وكتب، وحركات. (المعهد العالمي للفكر الإسلامي -٢٠١٤).

* عمر الإسكندري وسليم حسن، وتاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى سنة ١٩١٢، (القاهرة: ١٩١٦).

* عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، (بيروت: مكتبة المثنى، ١٩٥٧م).

* عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ط. ٤. (بيروت: دار العلم للملايين – بيروت. ١٩٨١).

* عمر فروخ، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، (بيروت: دار

العلم للملايين، ١٩٨٥).

* عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، ط.١ . (الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م).

* العيني، بدر الدين محمود العيني عِقْد الجُمَان في تاريخ أهل الزمان – عصر سلاطين المماليك، حققه: د محمد محمد أمين، (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية –١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م).

* غلام حسين، مهنامه پيمان، نسخته غير المطبوعة في كتبخانة آصفية.

* غياث الدين بن همام الدين حسيني خواندمير، تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد بشر، (طبعة طهران).

* فاطمة صادق: بيبرس المصري.

* فرحات دفتري، خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين، (سوريا: دار المدى للثقافة والنشر– ١٩٩٦).

* فريد بك، مُحمَّد؛ تاريخ الدولة العليَّة العُثمانيَّة، تحقيق: الدُكتور إحسان حقّي، ط. ١٠ . (بيروت: دار النفائس، ١٤٢٧هـ).

* قانوني همايوني.

* قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، ط. ١ . (بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨١ م.

* القزويني، التدوين في أخبار قزوين، تحقيق عزيز الله، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ).

* القلقشندي، أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفه انساب العرب.

* القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط. ١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧).

* كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢. (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية).

* كرري – تحليل عسكري لمعركة أم درمان، عصمت زلفو– (المطبعة

العسكرية أم درمان ١٩٧٣).

* كمال طالب، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى التبيان في شرح الديوان الجزء الأول. (بيروت: دار الكتب العلمية).

* الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، الوُلاة والقُضاة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - وأحمد فريد المزيدي، ط.١. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣).

* كولمبو أنسكلوبيديا.

* كيردها لال أحضر، تاريخ صفره (حيدر آباد ١٩٢٧).

* گرديزى، زين الأخبار، ترجمة د. عفاف زيدان.

* لسان الدين بن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة ط.١. (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ).

* لوثروب ستودارد الأمريكي، حاضر العالم الإسلامي، ترجمه إلى العربية: أ. عجاج نويهض، تعليقات: الأمير شكيب أرسلان، ط.٢. (القاهرة: مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م).

* ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، (دار الخير).

* ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، ط. ٢. (مصر: الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٥).

* مجلة «الزهراء»، القاهرة، العدد: ربيع الأول سنة ١٣٤٥هـ.

* مجلة المؤرخ العربي في العراق، العدد الأول.

* مجلة بدريس العدد الخاص محمد قطب شاه ومحمد شاه ظفر، إدارة أدبيات أردو خبريد آباد حيدر آباد - دكن.

* محمد أبو عزة، عصر السلطان عبد الحميد، (دمشق: دار الأهالي،

١٩٩٨).

* محمد البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (بيروت: دار إحياء للتراث العربي، ١٩٥٠).

* محمد الفراتي، روضة الورد، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي).

* محمد أمين بغرا، تاريخ تركستان الشرقية، ترجمة محمد قاسم، (السعودية: دار الملك الفهد، ١٤٢٨هـ).

* محمد أمين بغرا، تركستان الشرقية ماضيها وحاضرها.

* محمد بك فريد، تاريخ محمد على باشا رأس العائلة المالكة الملوكية بالديار المصرية والخديوية، المعروف بالبهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة والخدوية (طبعة بولاق - ١٣٠٩هـ).

* محمد بن فضل الله المحبي. خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ٣/ ٣٤٦.

* محمد بن مبارك علوي كرماني، سير الأولياء، اهتمام: محمد علي قريشي.

* محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس، (القاهرة: مكتبة دار الكتب المصرية -١٩٣٨).

* محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (مصر: نشر المركز المصري للدراسات العثمانية، ١٤١٤-١٩٩٤).

* محمد حسن الاعظمي، شعراء الصوفية، تحقيق مصطفى غالب، (بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٩٨٨).

* محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، ط.٢. (القاهرة: ١٩٢٦م).

* محمد ساقي مستعد خان: مآثر عالمكيري، (الهند: مكتبة جامعة همدارد).

* محمد سهيل طقوش، تَارِيخ الزَّنْج وَالقَرَامِطَة وَالحَشَّاشِين، ط. ١. (بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع. ٢٠١٤).

* محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (بيروت: دار النفائس – ١٩٩٧).

* محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبيَّة والهند، ط.١. (بيروت: دار النفائس – ٢٠٠٧).

* محمد شريف معتمد خان بخشي، إقبال نامه جهانگيري.

* محمد صالح كنبو، عمل صالح الموسوم بـ شاه جهان نامه، ترتيب وتحشية دكتر غلام يزدي، ترميم وتصحيح دكتر وحيد قريشي، (مجلس ترقي اداب، كلبرود، لاهور، باكستان)

* محمد صبري، تاريخ مصر الحديث من محمد على باشا إلى اليوم، (القاهرة: ١٣٤٥هـ).

* محمد عبد الجبار، محبوب ذى المنن تذكره اوليائى دكن، (حيدرآباد، دكن ١٣٣٢).

* محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد ابن عبد المغني بن علي الاسحاقي، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، (القاهرة: ١٨٩٢).

* محمد عوفي، لباب الألباب، نشره: إدوارد، (١٩٠٦).

* محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط.٩. (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٢).

* محمد قاسم بن غلام علي هندوشاه استرآبادي، تاريخ فرشته، محمد رضا نصيري، (طهران: ١٣٨٧).

* محمد قاسم هندو شاه، تاريخ فرشته.

* محمد مراد رمزي، تلفيق الأخبار، (روسيا: ١٩١١).

* محمود أحمد، دليل آثار مصر، (القاهرة: طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٣٨).

* محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة، (مصر: طبعة بولاق، ١٩٣٨).

* محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك، (آستانة: ١٣٣٣).

* محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي.

* مذكرات السلطان عبد الحميد. تقديم وترجمة: الدكتور محمد حرب، ط. ٣. (دار القلم).

* المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، التنبيه والأشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، (القاهرة: دار الصاوي).

* المسعودي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، (القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٧٣)، ٤.

* المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت: المكتبة العصرية ١٩٧٠).

* مصطفى عبد الرازق. فيلسوف العرب والمعلم الثاني. (القاهرة: جمهورية مصر العربية).

* معجم الأعلام: معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين- بسام عبد الوهاب الجابي- ، ط.١. (دار الجفان والجابي للطباعة - ١٩٨٧م).

* المقدسي، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، (بيروت: دار الرسالة -١٩٩٧).

* المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.١. (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ).

* المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك. السلوك لمعرفة دول الملوك، المحقق: محمد عبد القادر عطا، ط.١. (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧).

* المقريزي، تقي الدين أحمد بن على المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، (القاهرة: ١٩٥٥).

* موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط. ١. الجزء الثاني والعشرين، (الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري. ١٤١٨ هـ).

* الموسوعة العربية الميسرة، ط. ٣. (بيروت: المكتبة العصرية. ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م). ص. ٧٩٠.

* موسوعة بريطانيا.

* مير أبي القاسم أو أبي تراب، حديقة العالم، (طبعة حيدر آباد ١٣٠٩هـ).

* مير على شير قانع، تحفة الكرام.

* مير محمد معصوم بهكري، تاريخ معصومي.

* ميرخواند، روضة الصفا، ترجمة د. أحمد الشاذلي، (القاهرة: ١٩٨٨).

* ميرزا حيدر، تاريخ رشيدي.

* ميرزا شاه حسين آرغون، أمير إمارة آرغون في السند. دانشنامه جهان اسلام، (حرانى، حماد - حلبچه).

* ميرغلام علي آزاد بلگرامي، سبحة المرجان.

* نرشخي تاريخ بخارى: الطبعة الإنجليزية.

* النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر: تاريخ بخاري، تحقيق، أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، (دار المعارف، القا‌رة، ١٣٨٥‌/ ١٩٦٥م).

* النسوي، محمد بن احمد، سيرة السلطان جلال الدين منبكرتي، (دار الفكر العربي، ١٩٥٣).

* نورالدين محمد جهانگير گوركاني، تزك جهانكيرى.

* النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: دار الكتب المصرية - ١٩٢٣).

* هاني صلاح، أندلس الحضارة الإسلامية بوسط آسيا ‌ لمحات وصور، ٢٠٢١، ١٢ مايو.

* هند إسكندر عمون، تاريخ مصر، (مصر: مطبعة المعارف، ١٩١٣م).
* هند إسكندر عمون، تاريخ مصر، (مصر: مطبعة المعارف).
* هندستان تاريخي.
* وامبري، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر.
* الوزير أبي العلاء بن حسول، تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ومناقب الحضرة العالية السلطانية، تحقيق عباس العزاوي، (أنقرة: ١٩٤٠).
* وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمد عابدين، (القاهرة: مكتبة مدبولي).
* يحيى بن أحمد بن عبد الله السيهرندي، تاريخ مبارك شاه.
* يوسف عزت باشا، (مه ت جنانونف) تاريخ القوقاز، (استنبول: ١٣٥٣هـ).
* يونس مهران، مصر الإسلامية، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٢).

المصادر الأجنبية:

- A. Toyubee: Study of History.
- Abdur Rahim khan-i-khana’s tomb Indian Express, 4 December 2008.
- Al-Khāzinī, Abu’l-Fath ‘Abd Al-Raḥmān [Sometimes Abū Manṣūr ’ Abd Al-Raḥmān or ’Abd Al-Rahmān Manṣūr]. ‹Complete Dictionary of Scientific Biography.
- Ali Asgar Belgimami: Landmarks of the Daccam 1927.
- Amélie (1995). The ancient Near East. London.
- Amir Hasan Sijzi, Fawaid-ul-Fuad. Delhi, 1865
- Arnold ‹Sir Thomas Walker (1896). The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith.
- Arnold: Preaching of Islam.
- Avestan vəhrkō, Gilaki and Mazandarani verk/verg,Modern Persian
- Bag ‹A. K. (2005) ‹ Fathullah Shirazi: Cannon, Multi-barrel Gun and Yarghu‹

Indian Journal of History of Science.

- Berry, Arthur, 1862. A Short History of Astronomy. Language: English: Apr 5, 2019. Public domain in the USA.
- Brosesne A Lverang: History of Persia.
- Brown: A Literary History of Persia Vol. I P 442.
- Carter Vaughn Findley (15 أكتوبر 2004). The Turks in World History. Oxford University Press.–242 .ص .
- Chandra, Satish (2005). Medieval India: from Sultanat to the Mughals (Revised ed.). New Delhi: Har-Anand Publications.
- Cousens Areh. Survey of India. Bijabur and its Architectural Remains
- D. Carrathur: BEYOUND The Caspain.
- Daccam Manuscripts in Europe.1932
- Doughlas Carrathur: Beyond the Caspian.
- DOUGLAS CARRATHUR: BEYOND THE CASPAIN.
- Dr. A.H. John: «Society I lid.«
- Duab of Turkistan.
- Dyalou (Dauid.) Studies on the Structure of the Memluk Army in B.S.O S Vol KM, Part I 1953.
- Epigraphia - Indo - Moslemica, Culcuttta 1908.
- Erkan Hacıfazlıoğlu (11 Nisan 2019). Avrupa Türk-Hun İmparatorluğu. Altınordu Yay.
- Fah- Sien: The Travels, Tnas.
- Georg Brodin: Ctadle of Splandour.
- H.K. Bherwani Islaive Cultur.
- Hacıfazlıoğlu, E. (2019). “Avrupa Türk-Hun İmparatorluğu İncelemesi, . Takvim-i Vekayi. Erişim tarihi: 9 Haziran 2024.
- Harold Lambl: March of Barbarians P Timore The shaller of Earth.
- Harvard Ukrainian Research Institute (1980). Harvard Ukrainian studies.
- Hitli, History of the Arabs.
- Howorth: History of Moguls.
- Ismail Hikmat Ertaylam “Adil - Sahiler” Istanbul 1953.
- J. Hutton: Countrie Asia.

- J.J. Saundrers: History to-day. May. 1962.
- Jackson, Guida M. (1999). Women rulers throughout the ages: an illustrated guide ([2nd rev., expanded and updated ed.]. ed.). Santa Barbara, Calif: ABC-CLIO.
- Jackson: The life of Goucaslar.
- James A. Millward (2007). Eurasian Crossroads: A History of Xinjiang. Columbia University Press.
- Jean-Baptiste Tavernier, Travels in India (English translation), Oxford University Press, Humphrey Milford, translated by Ball, London 1925.
- Jutluttun: Central Asia.
- K.E. Powell Price A. History of In
- Khalil Edliem (Halil Ethem) “Duwel -i- Islamiyye«
- Koch, Ebba (1998). Dara-Shikoh shooting nilgais: hunt and landscape in Mughal painting. Freer Gallery of Art, Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution.
- Lame Pool, Stanly: Mohd.
- Lame Poole’s Mold. Dynasties.
- Life of Modd Quli. HyderAbad 1940.
- Ma’asir al-umara by Samsam ud Daula.
- Montigomery Malkegorn The History of Early Empires of Central Asia.
- Munadjdjim Bashi (Muneccim Basi) “Djami -al- Duwal. «
- Owen Lattimore: Pivot it Asia.
- P.K. Hitli: The Hisotry of the Arabs P 685.
- Parthi) the empireN
- RB. White head, Calalogue of Coins ,Panjab Museum, Lahore.
- S.M. Jafar: Some Aspects of Muslim Rule in India PP 98-99, The Crescent in India
- Sir Thomas Arnold: The Preaching of Islam P 239-340.
- Stein, Sir Auril: Innermost Asia.
- Sven Hedin: «The Silk Road». N. York, 1934.
- Sykes: History of Persia.
- T.W. Haig, Historic Landmarks of the Deccan Allahabad 1907.
- The Cambridge History of India Vols III + IV.

- The Great Soviet Encyclopedia,1979
- The History of Early Empires of Central Asia.
- The Iranian World, C.E. Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol. 5, ed. J. A. Boyle, John Andrew Boyle, (Cambridge University Press, 1968.(
- The Reign of Sultan Mohammad Qutub Shah by Drey. H. K. SHerwani, Hyderabad. Journal Historical Society Pakistan, Park II+III 1920.
- Tilmau, H.W – China ticlitnul.
- Vambery: History of Bukhara.
- Walter Bosshard Bosshoad ; Hazards of Asia's Highlands & Desertsof Asia's.
- Wiet: Hist. de la Nation Egyptienne.
- William Montgomery McGovern ،The Early Empires of Central Asia: A Study of the Scythians and the Huns and the Part They Played in World History.
- А. Е. К. (1894). «Ибн-Арабшах". Энциклопедический словарь Брокгауза и Ефрона. Том XIIa, 1894.